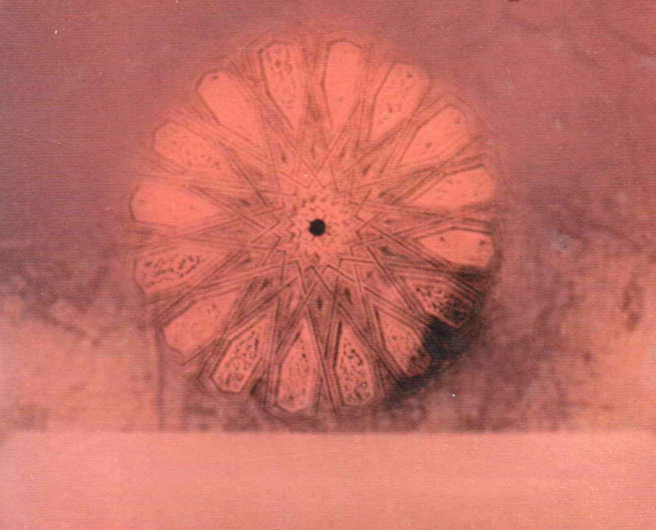
مرتضى فرج

خلفيات واقعة كربلاء

وشهادة الإمام الحُسين بن عليّ عليه السلام

دراسة تاريخية تحليلية
تستهدف التنقيب عن جذور واقعة كربلاء
والظروف التي أدت إلى وصول يزيد إلى السلطة





مؤسسة الانتشار العربي


شبكة الفكر
alfeker.net

خلفيّات واقعة كربلاء
وشهادة الإمام الحسين بن علي عليه السلام

دراسة تاريخية تحليلة

تستهدف التنقيب عن جذور واقعة كربلاء

والظروف التي أدت لوصول يزيد إلى السُّلطة

مرتضى فرج



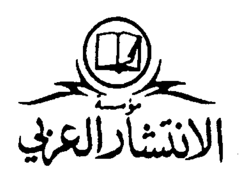
Arab Diffustion Company

مرتضى فرج

خلفيّات واقعة كربلاء
وشهادة الإمام الحسين بن علي عليه السلام

دراسة تاريخية تحليلة

تستهدف التنقيب عن جذور واقعة كربلاء
والظروف التي أدت لوصول يزيد إلى السُّلطة



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-187-1

الطبعة الأولى 2011

الفهرس

الباب الأول: الأسباب البعيدة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام

الباب الثاني : الأسباب القريبة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيِّدِنا وحبيبِنا محمد ﷺ، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وصحبِهِ المنتجبين.

الكتاب الذي بين يديك هو حصيلة سلسلة مُنقَّحة وموثَّقة من محاضرات تم إلقاؤها خلال ثلاث دورات متتالية، ابتداء من محرم 1429 إلى 1431هج.

هدف البحث

هذه المحاضرات استهدفت الحفر والتنقيب عن جذور وخلفيات واقعة كربلاء، تمهيداً لدراسة أحداثها وتداعياتها.

ولا بُدَّ في البدء أن أقول بشكل واضح وصريح أنِّي لم أستهدف في هذه المحاضرات جَرح مشاعر أخواننا وأحبائنا أهل السُّنة قط، خصوصاً عندما نرى أنَّ الأعداء يحاولون دق اسفين الفُرقة بين السُّنة والشِّيعة، في هذه البُرهة من الزَّمن، بعدما استنفدوا كل ما بوسعهم لمنع أي محاولة لقيام هذه الأمة من جديد. لا بُدَّ أن نستذكر أيضاً أنَّ الإمام علي عليه السلام وضع يدَهُ بيدِ أبي بكر، عندما رأى «راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعونَ إلى محق دين محمد ﷺ»[1]، فالوحدة وحفظ جو الألفة ليسا مطلوبين فحسب، بل هما من أهمِّ الواجبات.

والإمامُ جعفر الصادق عليه السلام أوصانا - في روايات متعدِّدة - بضرورة التعايُش مع أهل السُّنة، فقد روى الصدوق في الفقيه عن زيد الشحَّام عنه عليه السلام أنه قال: يا زيد، خالِقوا الناسَ بأخلاقِهِم، صلُّوا في مساجِدِهم، وعودوا مرضاهُم، واشهَدوا جنائِزَهُم، وإن استطعتُم أن تكونوا الأئمة والمؤذِّنين فافعلوا، فإنَّكم إذا فعلتُم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفريَّة، رحمَ اللهُ جعفراً ما كانَ أحسنَ ما يؤدِّبُ أصحابَهُ، وإذا تركتُم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفريَّة، فعلَ اللهُ بجعفرٍ ما كانَ أسوأ ما يُؤدِّبُ أصحابَهُ.

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 62، ص451.

إذن لماذا الحفر والتنقيب الآن عن جذور وخلفيات واقعة حدثت قبل قرون متمادية؟ أليس هذا فتحاً ونكأً للجروح؟ والجواب أنَّا في الحقيقة بأمسِّ الحاجة لدراسة تاريخنا من جديد. أولاً لأنَّ الإنسان لا يمكن أن ينفصل عن تاريخِهِ؛ ومن ينفصل عن تاريخه بمثابة من يفقد ذاكرتَهُ. . . فهل يمكن لمن فقدَ ذاكرتَهُ أن يمارس حياتَهُ - في حاضرهِ ومستقبلهِ - على نحو سويّ؟ وثانياً حتى نستفيد ونتَّعظ ونتعلَّم من التاريخ، ونُراكم الخبرات، ولا نُكرِّر أخطاء الماضي في حاضرنا ومستقبلنا. وثالثاً حتى نقترب من حقيقة ما جرى قدر الإمكان، واقترابنا من الحقيقة سيدفعنا للوقوف مع طرف، وتحاشي الميل لطرف آخر. . . فالمرء سيُحاسب في الآخرة على حُبِّه وبُغضِهِ، وسيُحشر مع من أحبَّ.

إذن نستهدف من هذه المحاضرات أن نَعرِفَ نحن، ويعرفَ أبناؤنا: تاريخَنا، ودينَنا، ومذهبَنا، وأئمتَنا، وأن نعرِفَ لماذا استشهد الإمام الحسين بن علي عليه السلام؟ ولماذا سمحَ المسلمون ليزيد بأن يعتلي سدَّة الحكم؟ ما الذي جرى قبل ذلك لنصل إلى - ما وصلنا إليه - يوم كربلاء؟

منهج البحث

منهجُنا في هذه المحاضرات هو «منهجٌ تاريخيٌّ سرديٌّ تحليلي». أعني بـ «المنهج» الطريقة المنظَّمة التي سار عليها البحث. وأعني بـ «تاريخي» أنَّ البحث يعتمد على كُتُب التاريخ والسِّيرة والحديث كوثائق لانتزاع كل المعطيات (الشواهد والقرائن) لمعرفة جذور واقعة كربلاء. وأعني بـ «سردي» أنَّ البحث يضطرُّ في كثير من الأحيان للاسترسال بسرد وحكاية مجريات الأحداث حسب تسلسل وقوعها. وأعني بـ «تحليلي» أنَّ البحث يضطرُّ بين فترة وأخرى للتوقُّف عن سرد وحكاية الأحداث من أجل تحليلها واستكشاف دلالاتها وأبعادها.

هذا المنهج السَّردي التَّحليلي، قد يُرى كمزيج من منهجين، المنهج الأول يُعبَّر عنه بالمنهج المُتحرِّك عبرَ الزَّمن Diachronic، والمنهج الثاني يُعبَّر عنه بالمنهج المُتزامِن Synchronic. المنهج المُتحرِّك عبرَ الزمن هو المنهج الذي يدرس موضوع البحث من خلال متابعته وملاحقته حسب التَّسلسل الزَّمني لوقوع الأحداث. والمنهج المتزامن هو المنهج الذي يتوقَّف عند لحظةٍ زمنيةٍ معيَّنة ليدرس كل أبعاد ودلالات موضوع البحث ليفهم أعماق الأحداث وتشعب وترابط العلاقات فيما بينها.

إذا أردنا تشبيه ذلك بعلم البيولوجيا، نقول إنَّا تارةً ندرس الكائن الحي من خلال دراسة سير مراحل تطوره، فنتحدَّث - مثلاً - عن مرحلة انعقاد النُّطفة، فالمرحلة

الجنينية، ثم الطفولة، ثم الصبا، ثم المراهقة، فالشباب، ثم الكهولة، ثم الشَّيخوخة... وتارة أخرى نتوقَّف عند مرحلةٍ معيَّنة من مراحل سير تطوره لندرس ونحفُر بعُمق للتعرُّف على خصائص ومعالم هذه المرحلة، فنأخذ خلايا هذا الكائن ونضعُها تحت المجهر (الميكروسكوب).

وإذا أردنا تشبيه دورنا في البحث بدور المحقِّق الجنائي، الذي يعمل كل ما بوسعه لاكتشاف المتورِّط الحقيقي - أو المتورِّطين الحقيقيين - في جريمة قتل، وافترضنا أنَّه توافر لديه مع مساعديه، تصوير لجانب مهم من تلك الجريمة من كاميرا رقمية مُثبَّتة في مكان ما. هنا، عندما يجلس هذا المحقِّق مع مساعديه لمشاهدة هذا المقطع المُصوَّر... سيبدأ هو ومساعدوه بمشاهدة المقطع المُصوَّر من البداية إلى النِّهاية، ليُتابع ويُلاحق تسلسُل الأحداث. لكن في بعض محطَّات المقطع المُصوَّر قد يشعر بضرورة إيقاف المقطع عند لقطةٍ معيَّنة، وتثبيت الصُّورة، لدراسة الموقع المكاني لبعض الشَّخصيات، أو ما يحملونَهُ بأيديهم، أو ما يلبسون، أو لتأمُّل بعض تعابير الوجه، أو انتزاع رقم لوحة سيَّارة... إلخ.

من خلال هذه الأمثلة، يتَّضح لنا أنَّ دراسة موضوع البحث من خلال ملاحقة تسلسُل الأحداث، يكشِف عن أبعاد معيَّنة. ودراسة موضوع البحث من خلال التوقُّف عند مرحلةٍ معيَّنة والحفر فيها بعُمق يكشِف عن أبعادٍ أخرى. ومن خلال المزج بين هذين المنهجين نتعرَّف أكثر على حقيقة موضوع البحث.

هذا ما حاولنا القيام به في هذا البحث. فالأصل في حركتنا هو سرد الأحداث حسب تسلسُل وقوعها، لكن عند لحظات تاريخيَّة معيَّنة قد نضطرُّ للتوقُّف لدراسة أبعاد تلك الأحداث وتأمُّل دلالاتها. فتجد أنَّا بدأنا البحث من قُبيل بعثة رسول الله ﷺ، وسِرنا قليلاً ثم توقَّفنا عند معركة بدر لأهميتها في فهم واقعة كربلاء، ثم سِرنا قليلاً وتوقَّفنا عند فتح مكة لأهمية التغيُّرات التي وقعت في نسيج مجتمع المسلمين، ثم سِرنا ببطء عند حجَّة الوداع مروراً بحادثة غدير خم وانتهاءً بحادثة السَّقيفة، لندرُس بعُمق أبعاد ودلالات مجريات أحداث تلك المرحلة. ثم واصلنا السَّير وتوقَّفنا عند حادثة الفتوح الكبرى في خلافةِ عُمَر، ثم سِرنا وتوقَّفنا عند التحوُّلات المهمَّة والفساد الكبير الذي استشرى في خلافةِ عُثمان، ودرسنا بعُمق فتنة مقتله وموقف الإمام علي عليه السلام من ذلك. ثم سِرنا إلى معركة الجمل، وتوقَّفنا طويلاً عند معركة صفين، لأنَّ فهمها واستيعاب تداعياتها سيكون مفتاحاً لمعرفة أسباب النَّكسات التَّالية المتمثِّلة بخروج الأمور عن سيطرة الإمام علي عليه السلام، ومعركة النَّهروان، وشهادته عليه السلام، وصُلح الإمام الحسن عليه السلام،

واستتباب الأمر لمعاوية. وأخيراً توقَّفنا عند مرحلة حُكم معاوية، لندرُس معالم سياسته والخطوات التي قام بها لتوريث السُّلطة ليزيد. إذن من خلال هذه الرِّحلة تجد أنَّا تارةً نسير بطريقة سرد الأحداث حسب تسلسُل وقوعها تاريخياً، وتارةً أخرى نتوقَّف عند بعض تلك الأحداث لندرُسها بطريقةٍ تحليليةٍ عميقة.

فرضية البحث

هناك عدَّة فرضيات في تفسير تلك الحُقبة من تاريخِنا. وتفسير تلك الحُقبة سينعكس - على الأرجح - على تفسير واقعة كربلاء وأهدافها وتحديد المتورِّطين في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، وأسر أهل بيته عليهم السلام وسَوقِهم من بلدٍ إلى آخر.

الفرضية التَّقليدية لأهل السُّنة في تفسير تلك الحُقبة من التَّاريخ تتلخَّص في القول بأنَّ النِّفاق لم يظهر بين المسلمين إلا بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وأن كفَّار قريش الذين أسلموا قُبيل ومع فتح مكة - وحاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله في بدرٍ وأُحُد والأحزاب - حسُنَ إسلامُهُم، ويُعدُّون من الصَّحابة العدول، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يُوصِ لأحدٍ من بعدِهِ، وأنَّ جميع الصَّحابة عدول لا يحِقُّ لأحدٍ التَّشكيك في نياتهم، وأنَّهم عندما يجتهدون قد يُخطئون، لكنَّهم لا يتعمَّدُون الخطأ، وبالتالي إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجرٌ واحد، وأنَّ مفاهيم الإسلام وتشريعاته تُستنبَط من الكتاب والسُّنة، وأنَّ تفاسير وآراء الصَّحابة، هي المرجعية لفهم الكتاب والسُّنة، وأنَّ لأبي بكرٍ وعُمَر خصوصية واحتراماً استثنائياً، وكذلك لعُثمان، وإن كانت تُؤخذ عليه بعض الملاحظات في فترة حُكمِهِ، وأنَّ المتسبِّب الرَّئيس في فتنةِ مقتل عثمان هو عبد الله بن سبأ ذو الأصول اليهوديَّة الذي كان يُحرِّض المسلمين عليه، وأنَّ طلحة والزُّبير - ومعهما أمّ المؤمنين عائشة - أخطآ عندما نكثا بيعة الإمام علي عليه السلام، لكنَّه كان اجتهاداً منهما على كلِّ حال، وجميعُهُم مبشرٌ بالجنَّة، وأنَّ معاوية وعمرو بن العاص أخطآ حينما حاربا الإمام علي عليه السلام، لكنَّه كان اجتهاداً منهما على كلِّ حال، وأن معاوية صار الخليفة الشَّرعي للمسلمين بعد صُلح الإمام الحسن عليه السلام، وأنَّه كان كاتباً أميناً للوحي، وأنَّه خال المؤمنين، ويجب احترامه لأنَّه من الصَّحابة، وأنَّ العلاقة بين الصَّحابة وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت على ما يُرام، وكان يسودُها الاحترام والتَّقدير المتبادل.

هذه الفرضية - رغم سعة انتشارها وقبول السَّواد الأعظم من المسلمين لها - تعجز عن تفسير أحداث وظواهر كثيرة في التَّاريخ، والتحوُّلات الاجتماعيَّة، والطبيعة الإنسانيَّة. فأسباب النِّفاق قبل أن تكون اجتماعيَّة، لها مناشئ ودوافع نفسيَّة، وإن لم يظهر النِّفاق إلا

بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، إذن كيف نُفسِّر قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾[1]، والعنكبوت سورة مكية أساساً؟ أم أن هذا الادعاء جاء لتبرئة وجهاء المهاجرين من ناحية، والطُّلقاء من أهل مكة من ناحية أخرى، وكلهم من عدنان، لتحوم شبهات النِّفاق كلُّها على أهل المدينة من قحطان؟

وإن افترضنا أنَّ كفَّار قريش الذين أسلَموا قُبيل ومع فتح مكة - وحاربوا رسول الله ﷺ بالأمس - حسُنَ إسلامهُم، فهل يمكن من النَّاحية النَّفسية أن يتغيَّر الإنسان بين عشيَّةٍ وضُحاها ويُصبح من الصَّحابة العدول بعد أن كان قلبه مملوءاً بالحقد والغل على رسول الله ﷺ، خصوصاً إذا علِمنا أنَّه لم يُسلِم إلا بعد أن تغيَّرت موازين القوى، ولم يُسلِم إلا ليحقِن دمَهُ، وأنَّ رسول الله ﷺ كان يُعطيه بعد إسلامِهِ من سهم المؤلَّفة قلوبهم؟! كيف يُعدُّ هؤلاء من الصَّحابة العدول، ونضعُهم في صفٍّ واحد مع السَّابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار ونُعطيهم الدَّرجة نفسها من الحصانة والاحترام والتَّقدير؟!

وإن افترضنا أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يُوصِ لأحدٍ من بعدِهِ، فهل يُعقل أن لا يشعر رسول الله ﷺ بالمسؤولية، وضرورة ترتيب الأمر من بعدِهِ، ويترُك المسلمين حيارى... وفي المقابل يشعر أبو بكر وعمر بذلك، فيُوصي الأول للثاني، ويُشكِّل الثاني شورى سُداسيَّة تتكفَّل بتحديد الخليفة؟ وكيف نُفسِّر الأحاديث الاستثنائية الواردة في حقِّ الإمام علي عليه السلام كحديثِ الدَّار والمنزِلة؟ بل كيف نُفسِّر واقعة غدير خم والعبارات التي قالَها رسول الله ﷺ بحقِّ الإمام علي عليه السلام؟

وإن افترضنا أنَّ جميع الصَّحابة عدول لا يحِقُّ لأحدٍ التَّشكيك في نياتهم، فلماذا يشُكُّ بعضهم في نيات البعض الآخر؟ ولماذا يشتدُّ الخلاف بينَهُم في السَّقيفة إلى أن كادَ يصِل إلى درجةٍ لا تُحمَد عُقباها؟ ولماذا يمنَعهُم عُمَر في خلافتِهِ من روايةِ الحديث إلا بضوابط مُشدَّدة؟ ولماذا يمنَعهُم من الخروج من الحجاز إلا بإذن خاص منه؟ ولماذا كان يُقيمُ الحدَّ على بعضِهم ويتشدَّد في محاسبة ولاته؟ ولماذا كان يضرِبُ بعضَهُم بالدرَّة؟ وفي أيِّ خانةٍ نضعُ أولئك الذين كانوا يُنادُون رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات والذين يُعبِّر عنهم القرآن بأنَّ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]؟ وفي أيِّ خانةٍ نضعُ فئة المنافقين - الذين

---

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: 10 - 11.

(2) سورة الحجرات، الآية: 4.

تحدَّث عنهم القرآن - ممن كان يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكُفر ولم يكن معروفاً بالنِّفاق؟ وفي أيِّ خانةٍ نضعُ فئة المرجفين وفئة مرضى القلوب الذين تحدَّث عنهم القرآن؟ وفي أيِّ خانةٍ نضعُ من دخل في الإسلام منهم، ثم ارتدَّ بعد وفاة رسول الله ﷺ، ثم عاد ودخل الإسلام مرةً أخرى بعد أن أُسر في حروب الرِّدة، كالأشعث بن قيس؟

وإن افترضنا أنَّ مفاهيم الإسلام وتشريعاته تُستنبط من الكتاب والسُّنة. . . . فلماذا وقفَ عُمَر عند احتضار رسول الله ﷺ وقال: حسبُنا كتاب الله؟ ألم يكن هذا رداً للسُّنة واكتفاءً بالكتاب كمرجعية؟ ولماذا لم يُروَ الحديث الذي يُوصي بالكتاب والسُّنة إلا بروايةٍ ضعيفةٍ مُرسلةٍ - يرويها الإمام مالك في الموطأ - في حين يُروى الحديث الذي يُوصي بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام في روايات معتبرة متعدِّدة؟ ولماذا - رغم ذلك - ينتشِر بين المسلمين الحديث المُرسَل ويتم تجاهُل الحديث المعتبر؟

وإن افترضنا أنَّ تفاسير وآراء الصحابة، هي المرجعية لفهم الكتاب والسُّنة، فما هو موقِفُنا إن كان رأي عُمَر الاكتفاء بالكتاب؟ وما هو موقِفُنا إن اختلفَ الصَّحابة فيما بينَهُم في مسائل مهمَّة وقضايا مصيريَّة؟ لمن تكون المرجعية حينئذٍ؟ وهل يمكن اعتبار تفسير ورأي بعض الطُّلقاء مرجعية لفهم الكتاب والسُّنة؟

وإن افترضنا أنَّ لأبي بكر وعمر خصوصية واحتراماً استثنائياً، فهل الملاحظات التي تُؤخَذ على عثمان عاديَّة ويمكن التغاضي عنها؟ وهل سارَ عثمان على سيرةِ الشَّيخين كما وعدَ عبد الرَّحمن بن عوف؟ وهل يمكن التغاضي عن حمله بني أمية - من الطُّلقاء والمطرودين من رسول الله ﷺ وممن نزلَت في حقِّهم آيات صريحة - على رقابِ السَّابقين من المهاجرين والأنصار؟ عندما يتحدَّث أحدُ ولاتِهِ بلغة «إنما السَّواد قطينٌ لقريش»، فهل يعتبر هذا أمراً عاديَّاً ويمكن التغاضي عنه وفق منطق القرآن؟ وعندما يُصلِّي والٍ آخر من ولاتِهِ في المسلمين صلاة الفجر أربع ركعات وهو سكران، فهل يمكن لمُسلمٍ أن يقبَل ذلك؟ وإن كانت الملاحظات التي تُؤخَذ على عثمان عاديَّة ويمكن التغاضي عنها، إذن لماذا لم يتغاضَ عنها كبار الصَّحابة كأبي ذر وعمَّار وعبد الله بن مسعود، بل لم يتغاض عنها أمثال طلحة والزُّبير اللذين كانا يُحرِّضان الثوَّار على عثمان؟

وإن افترضنا أنَّ المتسبِّب الرَّئيس في فتنة مقتل عثمان هو عبد الله بن سبأ ذو الأصول اليهوديَّة الذي كان يُحرِّض المسلمين عليه، فهل يمكن ليهوديٍّ تأخَّر إسلامه أن يُحرِّك كبار الصَّحابة من المهاجرين ضد عثمان؟ وهل يمكن أن يُحرِّك ثواراً من البصرة والكوفة ومصر دون أن يقف في وجهه أحد من عقلاء الأمة ويُفشلوا مخططاته؟ ألا تكفي تجاوزات

عثمان لتحريك ضمير أي مسلم آنذاك؟ ألا يُعتبر هذا الادِّعاء محاولة لتبرئة عثمان؟ وبحثاً عن طرف ما لتحميله مسؤولية الفتنة؟ ولماذا لا نجد ذكراً لعبد الله بن سبأ القحطاني إلا في روايات سيف بن عمر العدناني؟

وإن افترضنا أنَّ طلحة والزُّبير - ومعهما أمّ المؤمنين عائشة - اجتهدا فأخطآ عندما نكثا بيعة الإمام علي عليه السلام، فهل يُعقل أن يتورَّط صحابي في سفكِ دماء آلاف من المسلمين، ثم نُبرِّر فعله بالاجتهاد، بل نقول: أخطأ والمجتهد المخطئ له أجرٌ واحد؟ وهل يمكن أن يكون طلحة والزُّبير من جهة والإمام علي عليه السلام من جهة أخرى جميعُهُم مبشّرين بالجنة وهم في الحياةِ الدُّنيا وقفوا في جبهات متقابلة وسُفِكَت جراء ذلك الدِّماء الغالية؟

ولو افترضنا أنَّ معاوية وعمرو بن العاص أخطآ حينما حاربا الإمام علي عليه السلام، وأنَّه كان اجتهاداً منهما على كلِّ حال، فكيف نُبرِّر التسبُّب في قتلِهما عشرات الصَّحابة في صفين كعمَّار بن ياسر وابن التيِّهان وذي الشَّهادتين وغيرهم؟ وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرَ - بالرِّواية الصَّحيحة - أنَّ عماراً تقتلُهُ الفئة الباغية، وكان القرآن يأمُر بقتال الفئة الباغية حتى تفيئَ إلى أمر الله، فهل يمكن بعد ذلك تبرير اجتهاد معاوية وعمرو؟

وإن افترضنا أنَّ معاوية صار هو الخليفة - بحُكم الأمر الواقع - فهل يمكن النَّظر إليه على أنَّه خليفة شرعي لمجرَّد أنه وصل إلى الحُكم بالغَلَبة وانتصرَ بالحيلةِ والدَّهاء؟ وهل يتعيَّن علينا التعامل معه باحترام ووضعُهُ في مصافِّ السَّابقين من المهاجرين والأنصار وإعطاؤه الحصانة ذاتها التي يُعطيها بعضهم للصَّحابة؟ هل يمكن قَبول ذلك وهو من الطُّلقاء ورسول الله صلى الله عليه وآله ماتَ وهو يُعطيه من سهم المؤلَّفة قلوبهم؟ وهل من المعقول إعطاؤه حصانة وهو الذي سنَّ سُنَّة سبّ الإمام علي عليه السلام على المنابر؟ هل يمكن النَّظر إليه بنظرةِ تقديس وهو المتَّهم الرَّئيس ليس في قتل الصَّحابة في صفين فحسب، بل المتَّهم الرَّئيس في قتل الصَّحابي الجليل حُجر بن عدي، الذي اهتزَّ العالم الإسلامي لشهادته، وجرت جرَّاء ذلك مشادَّة كلامية بين أم المؤمنين عائشة ومعاوية؟ وهل يمكن عدُّه من الصَّحابة العدول وهو المتَّهم الرئيس في دسِّ السُّم لسبط رسول الله الإمام الحسن عليه السلام؟

وهل يمكن بعد ذلك كلِّه افتراض أنَّ العلاقة بين الصَّحابة وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت على ما يرام، وكان يسودُها الاحترام والتَّقدير المتبادل. نعم كان الإمام علي عليه السلام حريصاً على التعامل بإيجابية وخلق حسن مع الخلفاء الثلاثة، بل مع المسلمين جميعاً... لكن من غير المعقول أبداً تصوير العلاقة بين أهل البيت عليهم السلام والصَّحابة على أنَّها كانت طبيعية جداً، مع عِلمِنا بالخلاف الحاد بين فاطمة عليها السلام وأبي بكر بشأن فدك، والذي

انتهى بفاطمة عليها السلام إلى أن توصي بأن تُدفن سراً وتموت وهي واجِدَة، ومع عِلمِنا بالخلاف الحاد بين الإمام علي عليه السلام وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة، والاحتقان الشديد في العلاقة بين الإمام علي عليه السلام وعبد الرحمن بن عوف بسبب موقفه من الشُّورى السُّداسيَّة، ومع عِلمِنا بالنَّصائح شديدة اللَّهجة التي كان يوجِّهها الإمام علي عليه السلام لعثمان بسبب افتتانه بالمشورات المتكرِّرة لمروان بن الحكم، ومع عِلمِنا بالحرب التي خاضها الإمام علي عليه السلام مع ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام في مواجهة طلحة والزُّبير وأم المؤمنين عائشة، ثم الحرب التي خاضها الإمام علي عليه السلام مع ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام في مواجهة معاوية وعمرو، ثم دسِّ السُّم للحسن عليه السلام، ومنع مُشيِّعيه من دفنِهِ إلى جوار جدِّه صلى الله عليه وآله . . . . ألا يكفي ذلك كلّه لتفنيد الصُّورة الورديَّة التي يحاول بعضهم رسمها لطبيعة العلاقة بين أهل البيت عليهم السلام والصَّحابة؟ هل يصح بعد ذلك كلّه أن نقول إنَّ العلاقة بين الطَّرفين كانت على ما يرام؟

أقول: مهما حاولنا تكييف الفرضيَّة التقليديَّة لتفسير التَّاريخ والأحداث، سنجِدُها في النِّهاية عاجزة عن القيام بهذه المهمَّة. وستقودُنا إلى فهم قاصر ومرتبك لواقعة كربلاء. إذن لا بد من هجرها والبحث عن فرضيَّة بديلة.

في المقابل، تحاول الفرضيَّة التي يسير على ضوئها هذا البحث، تفسير الأحداث وتلك الحُقبة من التَّاريخ، من خلال الاكتفاء قدر الإمكان بالمعطيات التي تُقدِّمها المصادر السُّنيَّة. كما تحاول أن تجد المبرِّرات الموضوعية لمواقف كبار الصَّحابة المهاجرين، من خلال استكشاف الظُّروف الاجتماعية وإعمال الحَدس بالحالات النفسيَّة، وإثارة تساؤلات وترجيح احتمالات، على ضوء المعطيات والقرائن والشواهد المتوافرة، دون أن تُغرِق في سوءِ الظَّن وإصدار الأحكام القاسية على النيات. . . . ولا أدري إلى أي حدٍّ كانت الفرضية موفَّقة في ذلك؟

إن الفرضية المقترحة - التي يتبناها هذا البحث - تنطلق من افتراض أنَّ كبار وجهاء المهاجرين أخطأوا في حساباتِهم خطأً فادحاً، واتَّخذوا موقِفاً يتَّسم بقصر النَّظر، ولا ينسجم مع منطق القرآن، عندما وقعوا في السَّقيفة تحت تأثير العقليَّة القبَليَّة التي ترى أنَّ العرب أفضل من غير العرب، وأنَّ عدنان أفضل من قحطان، وأنَّ قريش أفضل قبائل عدنان، وبالتالي سمحوا لأنفُسِهم بأن يتَّكئوا على قريش لاعتلاءِ السُّلطة وإقصاء الإمام علي عليه السلام والأنصار عنها، ولم يُعيروا لغير بطون قريش اهتماماً ولم يَفسحوا لهم الطَّريق لتكون لهم كلمة في مسألة الخلافة. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية، بعد استئثارهم بالسُّلطة، استأثروا بالمال أيضاً، وبقي المال والسُّلطة بيدهم، حتى ظنُّوا بالتدريج أنَّ لهم

حقّاً خاصّاً ومكتسبات طبيعية، لا يحِقُّ لأحدٍ منافستَهُم فيها. ومن ناحية ثالثة، اعتقدوا أنَّ بإمكانهم إبقاء الوضع تحت السَّيطرة دون أن يعود بنو أمية إلى الواجهة، ولم يطرأ ببالهم أنَّ بني أمية إذا اعتلوا السُّلطة فسيخرجون وجهاء المهاجرين، وباقي بطون قريش، من السَّاحة، وسيستأثرون هم بالسُّلطة والمال. ومن ناحية رابعة تورَّط وجهاء المهاجرين في تجاهل أوامر رسول الله ﷺ والاستخفاف بها، عندما ذهبوا إلى أنَّ تشخيصهم للمصلحة بأن يُقصوا علياً عليه السلام عن الخلافة هو الأجدر والأكثر واقعية. وتذهب هذه الفرضيَّة إلى وجود مؤامرة مدروسة من بني أمية لاعتلاء السُّلطة، وأنَّهم وجدوا من وجهاء المهاجرين جِسراً لبلوغ طُموحِهِم، ووجدوا أنَّ الفُرصة قد حانت عندما وصلَ عثمان إلى الخلافة، فنفَّذوا انقلابَهم الكبير، الذي أدى إلى فتنة مقتل عثمان، ثم الحروب المتتالية، وأخيراً استتباب الأمر لمعاوية، الذي انتهى إلى توريث يزيد السُّلطة، ووقوع فاجعة كربلاء.

وتذهب هذه الفرضية إلى أنَّ من أهم أسباب انكشاف الحقائق وظهور «المسكوت عنه»، وظهور فضائل أهل البيت عليهم السلام ومظلوميَّتهم، هو ما جرى من تداعيات جرَّاء الانقلاب الذي نفَّذَهُ بنو أمية. حيث انقسمَ المسلمون - من غير شيعة الإمام علي عليه السلام - إلى مدرستين متخاصمتين: مدرسة عبد الله بن الزُّبير، ومدرسة معاوية بن أبي سفيان. المدرسة الأولى كان طموحها يتلخَّص في استعادة أمجاد ومكتسبات وجهاء المهاجرين، وإرجاع السُّلطة إلى بطون قريش الضَّعيفة، وترسيخ منطق الشُّورى. والمدرسة الثانية كان طموحُها يتلخَّص في إبقاء السُّلطة في يد بني أمية، وإقصاء جميع المسلمين من قرار تحديد هوية الخليفة، وجعل الخلافة ملكيَّة وراثيَّة، وتوريث السُّلطة ليزيد.

لقد كانت الخصومة الكبيرة بين هاتين المدرستين من الأسباب الرَّئيسية المهمَّة التي جعلت فضائل الإمام علي عليه السلام تملأ الخافقين، وتحول دون محو ذكر أهل البيت عليهم السلام من صفحات التاريخ ومن ذاكرة المسلمين. وجعلت أهل السُّنة يتأرجحون بينهما، تارةً يميلون إلى مدرسة عبد الله بن الزُّبير، وتارةً أخرى يميلون إلى مدرسة معاوية بن أبي سفيان. وجعلت مصادرهم التاريخية والحديثية ملأى بالرِّوايات والأحاديث المتعارضة، غير المتَّسِقة، والتي يُكذِّبُ بعضها بعضاً. ودفعت ببعض أنصار المدرسة الأولى إلى كشف بعض فضائل أهل البيت عليهم السلام، ومخازي بني أمية، ليس حباً بالإمام علي عليه السلام وبنيه، بل نكايةً بمعاوية ومدرسته.

وكادت مدرسة عبد الله بن الزبير أن تنجح وتُحقِّق انتصاراً كبيراً، عندما حقَّقت اختراقاً واضحاً، ووظفت فاجعة كربلاء لمصلحتها، وأسَّست دولة في الحجاز في وقت متزامن مع موت يزيد وتضَعضُع خلافة بني أمية في الشَّام، واستمرَّت هذه الخلافة الطارئة

بضع سنوات، ثم انتكسَت، وتقوَّضَت الدولة، وكادت هذه المدرسة أن تندثر بعد قتل وصلب رائدها في بيتِ الله الحرام.

في المقابل، واصل أهل البيت عليهم السلام الطريق، رغم المعاناة والملاحقات والتَّصفيات التي جرت بحقِّ أتباعِهم، طول فترة حُكم معاوية، حتى توَّج الإمام الحسين بن علي عليه السلام هذه المسيرة بحركتِهِ وثورتِهِ ونهضتِهِ في كربلاء.

لقد جرت مع مجيئ معاوية محاولات حثيثة وغير مسبوقة لتزوير التَّاريخ. ووقعت عمليات تزوير مُنظَّمة ومدروسة، لتجميل صورة الجاني وتحسين سُمعة الجلاد، في مقابل تشويه صورة المجني عليه وتحميل الضَّحية المسؤولية. وكادَت الخُطَّة أن تنجح، وكادَ الظلام أن يسود، وكادوا أن يطفئوا نورَ الله بأفواهِهِم وسُيوفهم، لولا العناية الربَّانية، وتضحيات أهل البيت عليهم السلام ، والصَّالحون من الصَّحابة والتَّابعين، والخصومة التي وقعت بين المدرستين.

هذه الفرضية التي تُزوِّدُنا برُؤية شاملة للأحداث، هي - كما أعتقد - الأرضيَّة الصَّحيحة لتفسير أحداث واقعة كربلاء.

قد يوجه الاعتراض والنقد التالي: لقد كان البحث انتقائياً في سردِ الأحداث، يتشبَّث ببعض المعطيات والشواهد التي تخدِم الفرضيَّة التي يسير على ضوئها، ويتجاهل معطيات وشواهد تدعم الفرضيَّة التقليديَّة السُّنيَّة، ولا تنسجِم مع الفرضيَّة المقترحة.

والجواب: أنَّ الانتقائية في التَّحقيق والتقصِّي والبحث التَّاريخي أمرٌ لا مفرَّ منه، خصوصاً عندما نعلَم بوجود أكثر من جهة كانَ من مصلحتِها تزوير تلك الحُقبة التاريخيَّة لمصلحتها، وبالتالي لا يمكن التعويل على بعض المعطيات والشواهد وأخذها بجديَّة. المهم أن لا يكون الانتقاء اعتباطياً وذاتياً، وإنما انتقاء يفرِضُهُ تسلسُل الأحداث وسياق المواقف، بحيث تشهد بعض الأحداث بصحة بعضها الآخر، ويساهم بعضها في تفسير البعض الآخر. لنجد في النِّهاية أنَّ الفرضيَّة المقترحة متماسكة وصلبة وقادرة على تفسير الأحداث تفسيراً مقنعاً.

أسألُ الله سبحانه وتعالى أن لا يكِلنا إلى أنفُسِنا طرفةَ عينٍ أبداً، وأن يجعلنا ممن يتَّعِظ بأخطاء الآخرين، قبل أن يتَّعِظ الآخرون بأخطائه، وأن يحشُرَنا مع سيِّد شباب أهل الجنة سبط رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه الذين بذلوا مُهَجَهُم دونَهُ.

مرتضى فرج

شعبان/ ١٤٣١هج

تمهيد

موضوع هذه السِّلسلة من المحاضرات هو «خلفيات واقعة كربلاء»، نستهدف منها معرفة خلفيات شهادة الإمام الحسين عليه السلام، والأحداث التي سبقت شهادته عليه السلام، والتي خلقت ظروفاً مؤاتية لوصول يزيد إلى السُّلطة.

قبل كل شيء لا بُدَّ من الإشارة إلى نقطة مهمة؛ وهي أنَّ بعض الباحثين عندما يريدون إدانة حركة الإمام الحسين عليه السلام، يَكيلون المدحَ للإمام الحسنِ عليه السلام، ولصُلحِه عليه السلام مع معاوية، ويتحدَّثون عن عام الجماعة، وعن طبيعة الإمام الحسن عليه السلام المسالمة. يريدون بذلك كلِّه التعريض بالحسين عليه السلام، وأنه لا يحمل هذه الروح المسالمة، وأنه شقَّ عصا المسلمين. . . . لماذا؟ لأنه عليه السلام - حسب زعمهم - لم يُكيِّف نفسَهُ مع خلافةِ يزيد، كما كيَّفَ الإمام الحسن عليه السلام نفسَهُ مع خلافةِ معاوية، أو كما كيَّفَ عبد الله بن عمر نفسَهُ مع خلافةِ يزيد عندما آثرَ الاعتزال والابتعاد عن العمل السياسي. فموقفُ الإمام الحسن عليه السلام هو الموقفُ النموذجي تجاه خلافة معاوية، وموقفُ عبد الله ابن عمر هو الموقف النموذجي تجاه خلافة يزيد!!

هذه القراءة لحركة الإمام الحسين عليه السلام، وقبل ذلك هذه القراءة لصُلح الإمام الحسن عليه السلام، تُعبِّر عن تشويهٍ عقَدي وتاريخي كبير. هذه القراءة تستبطن الاعتقاد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان أساساً يريد الثورة مهما كانت النتائج والعواقب، حتى لو كانت ثورتُهُ تُهدِّد بيضةَ الإسلام ووحدة المسلمين، وهذه القراءة تستبطن أيضاً أنَّ الإمامَ الحسن عليه السلام كان أساساً يريدُ الصُّلح، لأنه عليه السلام بطبعهِ شخصية مسالمة، تُحبُّ وحدةَ المسلمين، وتكرَهُ العنفَ والحرب!

والحقيقة أنَّ هذا التفسير ينافي الايمان بالعصمة من ناحية، وينافي الحقائق التاريخية من ناحية أخرى.

هذا التفسير ينافي الايمان بالعصمة، لأنَّ الاعتقاد بأنَّ الإمام الحسين عليه السلام بطبعهِ يُحِبُّ القتال والمواجهة ويكره الصُّلحَ والسِّلم، يعني ضمناً بأنه عليه السلام كان يريد حرب يزيد حتى لو كانت المصلحة الإسلامية تقتضي الصُّلح! وهذا الاعتقاد ينافي الايمان بالعصمة.

من الصحيح أنَّ هناك بعض الفروق الفردية - الجسدية أو النَّفسية - بين الأنبياء

أنفُسِهم، أو بين الأئمة فيما بينَهُم، أو بينَ الأنبياءِ والأئمة عليهم السلام، لكن هذا لا يعني أبداً أن تصل تلك الفروق إلى حد أن تؤثر في السُّلوك والقرار الذي تفرِضُهُ المصلحة الإسلامية العليا، بحيث تكون هي المحرِّك للسلوك العام للنبي أو الإمام وقراراتِهِ المصيرية. لو افترضنا جدلاً أنَّ الإمام الحسين عليه السلام ميالٌ بطبعهِ إلى القتالِ والمواجهة، فهذا لا يمكن أن يصل إلى حد يؤثر في سلوكهِ ويجعله يتخذ قرار الحرب لو كانت المصلحة الإسلامية تقتضي السِّلم، لأنه لو وصل إلى حد التأثير في السُّلوك العام والقرارات المصيرية، فهذا سينافي عِصمتَهُ، لأنَّ عصمته تعني أنَّ علمَهُ يعصمه عن التورُّط في موقف يتعارض مع أوامر الله تعالى المنسجمة دائماً مع مصلحة الإسلام العليا.

لا يجب تنزيه الإمام الحسين عليه السلام عن ذلك فحسب، بل لا بُدَّ من تنزيه أيّ إنسان رسالي - بالمعنى الحقيقي - عن ذلك. أيّ إنسان رسالي، جاهدَ نفسَهُ جهاداً حقيقياً، يفترض به أن يتجاوز ميوله الذاتية، لأنه يُحارب إن كانت المصلحة الإسلامية تقتضي الحرب، وإن كان ميالاً بطبعهِ إلى الصُّلحِ والسِّلم. ويُصالح إن كانت المصلحة الإسلامية تقتضي الصُّلح، وإن كان ميالاً بطبعهِ إلى الحربِ والمواجهة. لماذا؟ لأنا نفترض أنَّ إرادة الإنسان الرِّسالي خاضعة لإرادة الله التشريعية، إرادتَهُ - حرباً وصُلحاً - يفترض أن تكون تجليًا للإرادة الإلهية، فليس بوسعهِ أن يتخذ موقفاً أو ينتهي إلى قرار يكونُ منافياً للإرادةِ الإلهية والمصلحة العليا.

بالإضافة إلى ذلك ، فإنَّ هذا التفسير المُشوَّه ينافي الحقائق التاريخية أيضاً. إذا كان حبُّ الإمام الحسين عليه السلام للمواجهة هو المُحرِّك لسلوكهِ العام - كما يقول هؤلاء - فلماذا لم يتجاوز الإمام الحسين عليه السلام أخاهُ الإمام الحسن عليه السلام عندما صالحَ الإمام الحسنُ عليه السلام معاوية؟ لماذا صبرَ على هذا الوضع عشر سنوات رغم - على ما تنقل بعض كتب التاريخ - تشجيع وتحريض بعض أصحاب الحسن عليه السلام للحسين عليه السلام لكي ينهض ويتحرَّك لمواجهةِ معاوية؟ قد يُقال: بأنه من غير اللائق أن يتجاوزَ الإمام الحسينُ عليه السلام أخاهُ الإمام الحسن عليه السلام في حياتهِ. لكن هنا يأتي السُّؤال الكبير: إذا كانَ حبُّ الإمام الحسين عليه السلام للمواجهةِ والقتال ورغبتُهُ في خوض مغامرة خطرة هو المُحرِّك لسلوكهِ العام، فلم لم ينهض ويتحرَّك لمواجهةِ معاوية بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام مباشرة؟ لماذا ظلَّ صابراً منتظراً بعدَ وفاةِ الإمام الحسن عليه السلام إلى موتِ معاوية عشر سنوات أخرى؟

من الواضح أنَّ هذا التفسير لا ينافي الايمان بالعصمة فحسب، بل ينافي الحقائق التاريخية أيضاً.

الأسباب البعيدة والقريبة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام

لفهم هذه الحادثة التاريخية المهمَّة، لا بُدَّ من الرُّجوع القهقرى إلى الحوادثِ التاريخية التي وقعت قبل شهادة الإمام الحسين عليه السلام. فالباحثُ في التاريخ، عندما يريد فهم حادثة تاريخية على نحو معمق، ينبغي له الرُّجوعِ إلى سلسلةِ الحوادثِ السَّابقة على الحادثةِ المرادُ فهمُها.

وهنا لدراسةِ واقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام لا بُدَّ من دراسة خلفيات تلك الواقعة، وهذا يتطلب منا العودة إلى الوراء لنعرف مُجريات الأحداث التي سبقت واقعة كربلاء، وكيف انتهى وضعُ المسلمين إلى هذهِ الفاجعة بعد نصف قرن فقط من وفاة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله؟ فقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله في 11هج، وحدثت واقعة كربلاء في 61هج. وهذا يعني أنَّ واقعة كربلاء حدثت بعد مرور خمسين سنة فقط على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. إنه لأمرٌ محيرٌ جداً، أن يحصل هذا السُّقوط المدوِّي والتَّداعي السَّريع لهذه الأمة في بُرهةٍ قصيرةٍ بحسابِ تاريخِ الأممِ والشعوب. السُّؤال الذي يطرح نفسَهُ هو كيف تهيأت الأجواء لوقوع هذه الفاجعة... وكيف انحدرَ وضعُ المسلمين وتسافَلَ إلى درجةِ أن يرتقي منصبَ الخِلافة شخصٌ مثلُ يزيد؟

الكلمة المفتاحية تكمن في «قريش»، فلا بد من التركيز على هذه الكلمة ووضعها تحت المجهر.

لكن هنا ثمة ملاحظة مهمة: قبيلة قريش، وما تتضمَّن من بطون كـ بني أمية أو بني هاشم أو غيرها من البطون[1]، كلمة متحرِّكة في مدلولها مع الزمن؛ فقريش مع بداية الإسلام تختلف عن قريش بعد معركة بدر، وقريش بعد معركة بدر تختلف عن قريش قبيل مقتل عثمان.... إلخ، فهناك أناس يموتون أو يُقتلون أو يشيخون ويفقدون القدرة على التأثير في الأحداث، وهناك أناس جُدُد يدخلون مسرح الحياة من هذه القبيلة أو تلك، من هذا البطن أو ذاك... فتارة يمثل قريش «الملأ» الذي كان يجتمع في مكة لقمع دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله في بداياتها، وتارة أخرى يمثل قريش «وجهاء المهاجرين» و«الطلقاء»، وتارة ثالثة يمثلها «أبناء وجهاء المهاجرين»، وتارة رابعة يمثلها «بنو أمية».... وسوف أشير أثناء سرد الأحداث وتحليلها إلى هذا التغيُّر[2].

---

(1) تتألف قريش من خمسة وعشرين بطناً.

(2) عندما أتحدث عن قريش لا أقصد التعميم، بل المزاج العام للأغلبية، لأنه توجد استثناءات في قريش، بل ثمة استثناءات في بني أمية أيضاً.

ينقل عدد من كُتُب المقاتل - منهم الخوارزمي في مقتلِهِ - أنَّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعدما انتقلَ من كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشَّام، خرجَ ذاتَ يومٍ، فجعلَ يمشي في سوقِ دمشق، فاستقبلَهُ المِنهال بن عمرو الضِّبابي، فقال: كيفَ أمسيتَ يا بنَ رسولِ الله؟

فقال: أمسيتُ، واللهِ كبني إسرائيل في آلِ فرعون، يذبحونَ أبناءَهُم ويستحيونَ نساءَهُم، يا مِنهال، أمست العربُ تفتخرُ على العجم بأنَّ محمداً صلى الله عليه وآله عربيٌ، **وأمست قريشُ تفتخرُ على سائرِ العرب بأنَّ محمداً قرشيٌّ منها، وأمسينا آلَ بيتِ محمدٍ ونحنُ مغصوبونَ، مظلومونَ، مقهورونَ، مقتولونَ، مشرَّدونَ، مطرودونَ، فإنا للهِ وإنا إليهِ راجعون، على ما أمسينا يا منهال**[1]!

إذا رجعنا إلى الوراء قليلاً، نجد أنَّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «**مالي ولقريش!** واللهِ لقد قاتلتُهم كافرين (= يعني قبل الإسلام)، ولأقاتلنَّهم مفتونين (= يعني بعد استلامه الخلافة)، وإني لصاحِبُهم بالأمسِ، كما أنا صاحبُهم اليوم[2]! والله ما تنقِمُ منا قريش إلا أن اللهَ اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا. . . . »[3].

ويقول عليه السلام أيضاً: «. . **اللهم إني أستعديكَ على قريشٍ ومن أعانَهُم**، فإنهم قطعوا رَحِمي، وصغَّروا عظيمَ منزِلَتي، وأجمعوا على منازَعَتي أمراً هو لي»[4].

وإذا رجعنا إلى الوراء أكثر وأكثر، نعثر على حوار مهم بين ابن عباس وعمر بن الخطاب ينقله الطبري في تاريخه، هذا الحوار يسلط الضوء على نقطة مركزية في هذا البحث.

يقولُ عمر: يا ابنَ عباس أتدري ما منعَ قومكُم منكُم بعدَ محمد؟

يقول ابن عباس: فكرِهتُ أن أُجيبَهُ، فقلت: لم أكُن أدري فأميرُ المؤمنين يُدريني.

فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكُمُ النبوةَ والخلافة، فتبجَحوا (= تفخروا) على قومِكُم بجحاً بجحاً، فاختارَت قريشٌ لأنفُسِها فأصابت ووُفِقَت[5].

---

(1) الخوارزمي، مقتل الحسين، تحقيق الشيخ محمد السماوي، أنوار الهدىٰ، ط1، 1418هج، قم، ج2، ص79.

(2) إشارة إلى أنه عليه السلام لم يتغير حاله التي بها قاتلهم كافرين، وفائدته تذكير الخصم بوقائعه في بدو الإسلام وشدة بأسه ما تطير منه القلوب وتقشعر منه الجلود.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، خطبة 33، ص77.

(4) المصدر السابق، خطبة 172، ص246.

(5) وفي حوار آخر بين عمر وابن عباس - ينقله ابن واضح في تاريخ اليعقوبي - يقول عمر لابن عباس: =

يقول ابن عباس فقلت: يا أمير المؤمنين أتأذنُ لي في الكلامِ وتمُطُّ عني الغضب (إن) تكلمتُ؟

فقال (عمر): تكلَّم يا ابن عباس.

فقلت: أما قولُكَ يا أميرَ المؤمنين «اختارت قريشٌ لأنفُسِها فأصابَت ووُفِقَت»، فلو أنَّ قريشاً اختارَت لأنفُسِها حيثُ اختارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لها لكانَ الصوابُ بيدِها غير مردودٍ ولا محسود. وأما قولُكَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[1].

فقال عمر: هيهاتَ واللهِ يا ابنَ عباس، قد كانت تبْلُغني عنكَ أشياءٌ كنتُ أكرَهُ أن أُفرِكُ عنها (= أبحث عنها)، فتُزيلُ منزلتَكَ مني. . . . بلغني أنك تقول إنما صرَفوها عنا حسداً وظُلماً.

فقلت: أما قولُكَ يا أميرَ المؤمنين «ظُلماً» فقد تبين للجاهلِ والحليم، وأما قولُك «حسداً» فإنَ إبليسَ حسدَ آدم فنحنُ وَلَدُهُ المحسودون.

فقال عمر: هيهات أبت واللهِ قلوبُكُم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول (= لا ينقضي)، وضغناً وغشاً ما يزول.

فقلت: مهلاً يا أميرَ المؤمنين لا تُصِب قُلوبَ قوم أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطهرَهُم تطهيراً بالحسدِ والغشِ، فإنَّ قلبَ رسولُ اللهِ ﷺ من قَلوبِ بني هاشم.

فقال عمر: إليكَ عني يا ابن عباس. . . . إلخ[2].

كما قلنا في البداية، فإنَّ هذا الكتاب يستهدف القيام بعملية حفرٍ تاريخي لمعرفةِ موقعِ قريش من الأحداث التي مرَّت على المسلمين، يبدأ من بعثةِ رسول الله ﷺ، وينتهي عند نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعلى هذا الأساس، يمكن تقسيمُ الأسباب التي أدَّت إلى شهادةِ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أسبابٍ بعيدة، وأسبابٍ قريبة.

هذه السِّلسلة من المحاضرات تتضمن 29 محاضرة. المحاضرة 1 - 7 تتكفل بسرد

= والله يا ابن عباس، إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم ليأخذنهم بمرِّ الحق لا يجدون عنده رخصة. . . (أنظر: ابن واضح، **تاريخ اليعقوبي**، منشورات الشريف الرضي، قم، 1414هج، ط1، ج2، ص159).

(1) سورة محمد، الآية: 9.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، مطبعة الإستقامة، القاهرة، 1939، ج3، ص289، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، توزيع دار الأضواء، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ط3، مج6، ج12، ص33 - 34.

وتحليل الأسباب البعيدة لواقعة كربلاء. والمحاضرة 8 - 29 تتكفل بسرد وتحليل الأسباب القريبة لواقعة كربلاء.

لا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الكشف عن كثير من الأحداث التي سنتناولها ليس أمراً جديداً، لكن الجديد هو ترتيب تلك الأحداث بتسلسل معين، وتحليلها من خلال تسليط الضوء على دور قريش في تحريك الأحداث، إلى أن نصل إلى لحظة استلام يزيد الخلافة.

الباب الأول

الأسباب البعيدة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام



(1)

العرب ونشأة الإسلام

الأسباب التي أدَّت إلى شهادةِ الإمام الحسين عليه السلام يمكنُ تقسيمُها إلى أسبابٍ بعيدة، وأسبابٍ قريبة. الأسبابُ البعيدة تمتد من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى لحظة استلام عثمان للخلافة، يعني من (13 ق. هج- 35 هج)، وهي تُقدَّر بـ 48 سنة تقريباً. أما الأسباب القريبة فتمتد من خلافة عثمان إلى موت معاوية، يعني من (35 هج - 60 هج)، وهي تُقَدر بـ 25 سنة تقريباً، وتبدأ كُتُب مقاتل الحسين عليه السلام عادةً بسرد الأحداث من لحظة موت معاوية.

نريد الآن أن نبدأ بسرد وتحليل الأسباب البعيدة لواقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام. وستكون الكلمة المفتاحية التي نركز عليها هي «قريش». الآن: من أين جاءت قريش؟ وما هو موقِعُها بالنسبة إلى باقي القبائل العربية؟

نبذة عن العرب

جرت العادة بين المؤرِّخين على تقسيم العرب إلى قسمين: العرب البائدة (مثل عاد قوم هود وثمود قوم صالح وطَسمٌ وجَدِيس)، والعرب الباقية (القحطانيون والعدنانيون). وبصرف النظر عن صحة هذا التقسيم، ما يهُمُّنا هنا هو التركيز على العرب الباقية.

موطن القحطانيين الأصلي هو اليمن، لكنهم تفرَّقوا في الجزيرة قُبيل انهيار سدّ مأرب في سبأ، ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحِمير، كما أنَّ منهم الأزد الذين تفرَّع منهم الأوس والخزرج (الذين سكنوا يثرب)، ولم يكن منهم أحد في مكة إلا خزاعة، ومنهم المناذرة (من لَخْم) الذين سكنوا عند حدود الدولة الفارسية، والغساسنة الذين سكنوا عند حدود الدولة الرُّومانية.

أما العدنانيون، فهم عربُ الحجاز، وموطِنُهم الأصلي مكة. وعدنان هو من أبرز أبناء إسماعيل عليه السلام، وينحدرُ منه: ربيعة ومُضَر. ومن أشهر قبائل مضر: قريش (= فهر)، وينحدر من قريش: بنو عبد مناف، الذي منهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو عبد شمس (ومنه أمية)، وبنو نوفل. وقد انسجمَ بنو هاشم مع بني المطلب (حيث حوصروا معاً في شعبِ أبي طالب ثلاث سنوات)، في مقابل بني عبد شمس مع بني نوفل. وهاشمُ هو

الجدُّ الثاني لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقريش هو الجدُّ العاشر لهُ صلى الله عليه وآله، في حين أنَّ عدنان هو الجدّ العشرون له صلى الله عليه وآله.

ذكرنا أنَّ أمية ينحدر من عبد شمس، والزَّرقاء هي أم بني أمية. وقد صنعَ أميةُ في الجاهليةِ شيئاً لم يصنعه أحد من العرب؛ فوفقاً للمقريزي، قامَ أمية بتزويجِ ابنهِ أبي عمرو من امرأتِهِ في حياتِهِ[1].

ويتحدث المؤرخون عن تنافس هاشم وأمية على الزعامة، حيث خرج أمية ناقماً إلى الشام، وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف في مكة. فكان هذا أول انقسام بين الأمويين والهاشميين، هؤلاء يعتصمون بالشام وهؤلاء يعتصمون بالحجاز. ثم علا نجم أبي سفيان بن حرب بن أمية في الحجاز، فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية.

وما دمنا تحدَّثنا عن العدنانيين، عرب الحجاز الذين يسكنون مكة، فلا بُدَّ أن نتحدَّث عن مكة، ومكانتها بالنسبة إلى العرب عموماً.

أهمية مكة بالنسبة إلى العرب

كان لمكة موقعٌ مركزي في الجزيرة العربية وعند العرب، ففيها الكعبة المشرَّفة التي بناها إبراهيم عليه السلام، وإليها يحُجُّون كلَّ عام. ولذلك فإنَّ الحج يمثل لمكة مورداً اقتصادياً هاماً جداً.

من ناحية ثانية، تحتل مكة مكانة مرموقة، فهي أمُّ القرى، كما يُعبِّر عنها القرآن الكريم: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2]. ومنها كانت تنطلق تجارة قريش المسماة «رحلة الشِّتاء والصيف»، التي تحدَّث عنها القرآن في سورة قريش[3]، والتي كانت تدرُّ على عدد كبير من أفراد قريش أرباحاً طائلة، كأبي سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما، وكانت سبباً للاحتكاك بحضارة الرُّوم وما تبقى من حضارة اليمن، ومعرفة ثقافات جديدة. وبالتالي رحلة الشِّتاء والصيف كانت بالنسبة إلى مكة شرياناً اقتصادياً وثقافياً بالغ الأهمية.

هكذا كان حال مكة وأهلها عند نشأة الإسلام، لكن ما موقف قريش من نشأة الإسلام؟ وكيف تطور هذا الموقف مع انتشار الإسلام بوتيرة متسارعة؟

---

(1) تقي الدين المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص42.

(2) سورة الأنعام، الآية: 92.

(3) بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾. يعني لتأليف قلوب قريش وإنعامه عليهم، قدر الله تعالى لهم رحلة الشتاء (إلى اليمن) والصيف (إلى الشام).

نشأة الإسلام وموقف قريش

عندما بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله رسولاً من الله تعالى سنة (13 ق. هج)، جاء يدعو الناس سِرّاً إلى التوحيد، واستمر ثلاث سنين (13 - 10 ق. هج) على هذا الحال، وكان هو صلى الله عليه وآله وأصحابه في تلك الفترة يستخفون بقريش في صلاتهم وفي الدَّعوة إلى هذا الدِّين. وكان مشركو قريش كلما رأوهم في صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم. وثمة قرائن تشير إلى أنَّ قريشاً لم تتخذ موقفاً من الدَّعوة في مرحلتها الأولى، لأنها لم تكن على ما يبدو حسَّاسة حيال تغيير دين بعض أفرادها. بل كانت تواجه هذا الدِّين الجديد بالتجاهل واللامبالاة مع شيء من السُّخرية والتهكُّم.

ثم أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وآله على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدَّعوة إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، فقال سبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2].

فتدهورت علاقة قريش برسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أدركت قريش خطورة الدَّعوة للتوحيد على مصالحها، وكانت تتساءل باستهجان: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[3]، وحاولت أن تحول دون انتشار الإسلام وامتداده المتعاظم بما تملك من أدوات ووسائل.

ينقل الواقدي عن ابن عباس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُنادي قريشاً عند الصفا: يا بني عبد المطلب! يا بني عبد مناف! يا بني زهرة! - ونادى قبائل قريش كلَّها - إنَّ اللهَ أمرني أن أنذركم، خيرَ الدُّنيا والآخرة في قول «لا إله إلا الله». فقام أبو لهب وقال: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت فيه سورة المسد[4].

إلا أنَّ التوازن القبلي لم يكن يسمح لقريش بالاصطدام المباشر برسول الله صلى الله عليه وآله؛ لدعم آل عبد المطلب له. من هنا بدأت بمحاولة إسكاته، فاقترحوا عليه أن يدع آلهتها، وهم يتركونه وإلهه. واقترحوا عليه أن يعبُدَ آلهتهم سنة على أن يعبدوا إلهَهُ سنة، فنزلت سورة الكافرون[5].

---

(1) سورة الحجر، الآية: 94.
(2) سورة الشعراء، الآية: 214.
(3) سورة ص، الآية: 5.
(4) أنساب الأشرف 1/ 120.
(5) بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾.

لكن إذا لم تكن قريش قادرة - بسبب التوازن القبلي القائم آنذاك - على مواجهة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، إذن كيف أفرغت غضَبَها وحِقدها؟

الضغط على العبيد والموالي

لم تفعل قريش في أول الأمر برسول الله صلى الله عليه وآله ما فعلت بالمستضعفين الذين اتبعوه، لمكانة عمِّه أبي طالب وشرفه وجاهه فيهم، وقامت بصبِّ جام غضبها وحقدها على العبيد والموالي الضعفاء كبلال، وخبَّاب، وآل ياسر.... إلخ. ثم انتقلت إلى ممارسة ضغوط شديدة على المسلمين عموماً.

يروي ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أنَّ مشركي قريش كانوا يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضَّرب، ليرتدَّ عن دينه ويقول «آمنتُ باللات والعزى»[1]، وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمان فراراً من أذاهم، فقال تعالى: ﴿... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ...﴾[2].

ويقول المؤرِّخون وأصحاب السِّير إنَّ مشركي قريش كانوا يُخرجون عمَّار بن ياسر وأباهُ وأمَّهُ إلى الأبطح (= أرض مستوية بين مكة ومنى) إذا حميت الرَّمضاء، ويعذبونهم بحرِّها، فيمرُّ بهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة[3]. ولما مات ياسر من شِدَّة التعذيب، أغلظت سميَّة القول لأبي جهل، فطعنها بحربةٍ فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام. ثم أمعن مشركو قريش في تعذيب ابنه عمَّار، بالحرِّ تارة، وبوضع الصَّخر على صدره تارة أخرى.

وعندما اعتنق بلال الحبشي الإسلام، راح يدعو له ويدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فشدّ عليه مشركو قريش[4]، حتى أنّهم طرحوه أرضاً تحت لهيب الشمس الحارقة، وما اكتفوا بذلك حتى وضعوا صخرة كبيرة على صدره، وطلبوا منه أن يكفر بالله ولكنّه أبى أن يستجيب لطلبهم وبقي يُردِّد: أحدٌ أحد[5]، ثمّ قال: أقسمُ بالله لو علمتُ قولاً أشدَّ عليكم من هذا لقُلتهُ.

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ج1، ص238، أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، 2004، ص229.
(2) سورة النحل، الآية: 106.
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص237، أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص229.
(4) وبالتحديد أمية بن خلف، أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص235.
(5) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص227.

أما خبّاب بن الأرتّ فقد عذّبته قريش عذاباً شديداً، إذ كانوا يوثقون ظهره بالرَّمضاء ثم بالرَّضف (= الحجارة المحماة بالنار)، فلم يزده ذلك إلا تمسُّكاً بالإسلام وإخلاصاً له. وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وشهد معه مشاهده كلها[1].

ولم يقتصر تعذيب قريش على الرِّجال، بل تعدَّاهم إلى النِّساء. فقد أسلمت لبينة جارية بني مؤمن (وهو حي بني عدي بن كعب) قبل إسلام عمر بن الخطاب، فكان عمر يُمعن في تعذيبها حتى يمَلّ، ثم يدعها ويقول: إني لم أتركك إلا ملالة[2].

وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوي الشَّرف أنَّبه وقال: «تركتَ دين أبيك وهو خيرٌ منك، لنسفهنَّ حلمك، ولنقيلنَّ رأيك، ولنضعنَّ شرفك». وإن كان تاجراً قال له: «لنكسدنَّ تجارتك ولنهلكنَّ مالك»، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[3].

وقد ضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى؛ فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها، فتعرَّض له قومٌ من قريش وجعلوا يضربونه في وجهه، لكنه استمرَّ يتلو القرآن، ثم عاد إلى رفاقه وأظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين: حسبُكَ قد أسمعتَهُم ما يكرهون[4].

---

(1) ويروي خباب: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مضطجع تحت شجرة، واضع يده تحت رأسه، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله على هؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردونا عن ديننا، فصرف عني وجهه ثلاث مرات، كل ذلك أقول له فيصرف وجهه عني، فجلس في الثالثة فقال: أيها الناس، اتقوا واصبروا، فوالله إن كان الرجل من المؤمنين قبلكم ليوضع المنشار على رأسه فيشق باثنتين، وما يرتد عن دينه، اتقوا الله، فإن الله فاتح لكم وصانع. أنظر: الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، صالح اللحام، الدار العثمانية، ط1، 2007، ج3، ذكر مناقب خباب بن الأرت، ح5643، ص472. يقول علي عليه السلام في حقه: «يرحمُ اللهُ خبّاب بن الأرث، فلقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله، وعاش مجاهداً». **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، ص476. وعلينا أن نتذكر اسم «خباب بن الأرت» الذي سيلتحق بالرفيق الأعلى عند عودة علي عليه السلام من صفين إلى الكوفة، وسينفجر الصراع المباشر بين علي عليه السلام والخوارج عندما يرتكبون جريمة قتل بحق ابن خباب بن الأرت ويبقرون بطن زوجته وهي حبلى، فيقرر علي عليه السلام الانعطاف من طريقه إلى الشام، ليواجه الخوارج في النهروان.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، ص236.

(3) المصدر السابق، ص237.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، ص232.

وينقل لنا أبو ذر الغفاري قصة مشابهة، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله عندما عرض عليه الإسلام، أسلم على الفور، يقول أبو ذر: فَقَالَ لِي: يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ! فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُوْرُنَا، فَأَقْبِلْ. فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ. فَجَاءَ إِلَى المَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيْهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهَ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ.

فَقَالُوا: قُوْمُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئ. فَقَامُوا، فَضُرِبْتُ لأَمُوْتَ!

فَأَدْرَكَنِي العَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: وَيْلَكُم! تَقْتُلُوْنَ رَجُلاً مِنْ غِفَارَ، وَمَتْجَرُكُم وَمَمَرُّكُم عَلَى غِفَارَ!

فَأَطْلَقُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، رَجَعْتُ، فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ. فَقَالُوا: قُوْمُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئ! فَصُنِعَ بِي كَذَلِكَ، وَأَدْرَكَنِي العَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَلَيَّ، وقالَ مثل مقالتهُ بالأمس[1].

وأرجو من القارئ أن يتذكَّر اسم «أبي ذر الغفاري»[2]، الذي سيلعب دوراً هاماً عند خلافة عثمان بن عفان، وأن يتذكَّر أيضاً اسم «عمار بن ياسر»[3]، الذي سيلعب دوراً هاماً عند خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وخصوصاً في معركة صفين.

الضغط على أبي طالب

لما رأت قريش الجدّ من رسول الله صلى الله عليه وآله في الدَّعوة، وسكوت أبي طالب عنه،

---

(1) الحاكم النسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، صالح اللحام، الدار العثمانية، ط1، 2007، عمان، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب أبي ذر الغفاري، ح5456، ص419 - 420.

(2) قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حق أبي ذر على ما يروي المحدثون وأصحاب السير: «ما أظلت الخضراء (= السماء) ولا أقلت الغبراء (= الأرض) من ذي لهجة أصدق من أبي ذر». أخرجه أو قريب من ألفاظه: الترمذي في سننه (المناقب عن رسول الله، مناقب أبي ذر)، وابن ماجة في سننه (دار الفكر، بيروت، ج1، فضل أبي ذر، ح156، ص55)، والحاكم في مستدركه (كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب أبي ذر الغفاري)، وأحمد بن حنبل في مسنده (دار صادر، بيروت، ج2، ص163).

(3) قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقِّ عمار على ما يروي المحدثون وأصحاب السير: «إنَّ عماراً ما بين عيني وأنفي». أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص122، وأنه صلى الله عليه وآله قال - على ما يروي ابن ماجة في سننه - «مُلئ عمارٌ إيماناً إلى مُشاشه» (دار الفكر، بيروت، ج1، فضل عمار بن ياسر، ح147، ص52، وأنه صلى الله عليه وآله قال - على ما يروي الحاكم في مستدركه - لخالد بن الوليد عندما سبَّ عماراً: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنَّ من يسبُّ عماراً يسبه الله، ومن يبغض عماراً يبغضه الله، ومن يسفِّهُ عماراً يسفهه الله. وروى ما يقرب منه أحمد بن حنبل في مسنده، ج4، ص89.

وعدم نهيه عن ذلك الذي يقول في آلهتهم وآبائهم، خشيت أن يعظم أمره، وبدأت بممارسة ضغوط على أبي طالب، فمشى رجالٌ من أشرافها إليه، فقالوا: يا أبا طالب إنَّ ابنَ أخيك قد سبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّه أحلامَنا، وضلَّلَ آباءَنا، فإما أن تكفَّهُ عنَّا، وإما أن تُخلِّي بينَنا وبينَهُ، فإنكَ على مثل ما نحنُ عليه من خلافهِ فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردَّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه[1].

ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرِّجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينها، فتوامروا فيه، وحضَّ بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرَّة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب إنَّ لك سِنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهَهُ عنا، وإنا واللهِ لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. أو كما قالوا، ثم انصرفوا عنه.

فعظمَ على أبي طالب تحدِّي قومه وعداوتهم، ولم يُطِب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا خذلانه. وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا ابنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليَّ وعلى نفسِكَ، ولا تُحمِّلني من الأمرِ ما لا أطيق.

يقول الرَّواي: فظنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ عمَّه يريدُ أن يخذلهُ، وأنهُ ضعُفَ عن نصرتهِ والقيام معه، فقال: يا عمِّ، واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمر حتى يُظهرهُ الله أو أهلِكَ فيه، ما تركتُهُ. ثم استعبرَ فبكى ثم قام.

فلما ذهبَ ناداهُ أبو طالب، فقال: أقبِل يا ابنَ أخي، فأقبلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالَ له: اذهب يا ابنَ أخي فقل ما أحببتَ، فواللهِ لا أُسلِمَكَ لشيءٍ أبداً[2].

ترغيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وطرقت قريش باباً آخر، فبدأت بإطلاق سلسلة من العروض والصفقات المغرية وتقديم المال وعرض المنصب. قال ابن إسحاق - كما ينقل ابن هشام في السِّيرة النبوية - نزلت الآية: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[3] في ردِّ العروض المالية للمشركين.

(1) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص190.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص194 - 195. أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص196.

(3) سورة سبأ، الآية: 47.

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنَّ آيات من سورة الإسراء، وسورة الكافرون نزلت بشأن الاقتراحات التي كان قد عرَضها الكافرون، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[1].

واقترح عتبة بن ربيعة (أبو هند وجد معاوية لأمِّهِ) - حين اجتمع وجهاء قريش أن يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لِيُحدِّثه كي يكفَّ عن دعوتهِ، فمشى إليهِ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وحدَهُ في المسجد، فامتدحَ رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانته في قريش وقال له: يا ابن أخي إن كنتَ تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمرِ مالاً جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ بهِ شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريدُ به مُلكاً ملَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ رَئِياً تراهُ لا تستطيع ردَّه عن نفسِكَ طلبنا لك الطبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئكَ منه. . .

ولما أتمَّ كلامه قال صلى الله عليه وآله: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال صلى الله عليه وآله: فاسمَع مني، ثم تلا قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[2]، واستمرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ الآيات، فانبهرَ عُتبة وألقى يديهِ خلف ظهرهِ معتمداً عليها، ثم سجدَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله عندَ آيةِ السَّجدة، ثم قال صلى الله عليه وآله: قد سمعت يا أبا الوليد، فأنتَ وذاك[3].

وقد حذَّرَ الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله تحذيراً شديداً من تقديم أيّ تنازل، فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[4].

---

(1) سورة الإسراء، الآيات: 73 - 75.

(2) سورة فصلت، الآيات: 1 - 5.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص213 - 214، أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص242 - 243.

(4) سورة الزمر، الآيتان: 64 - 65.

إيذاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

عندما لم ينفع الإيذاء غير المباشر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال التعرُّض للعبيد والموالي، ولم تؤت الضغوط على أبي طالب ثمارها، ولم تنل الصفقات والعروض المغرية أي قبول من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اتجهت قريش إلى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إيذاء مباشراً.

من أبرز الأسماء التي مارست الإيذاء المباشر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمُّهُ أبو لهب (هو من بني هاشم، وزوجته هي أم جميل أخت أبي سفيان وعمَّة معاوية)[1]. وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي مُعيط، وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة، والحكَم بن أبي العاص بن أمية.... وهؤلاء جميعاً من بني أمية.

وأبو جهل بن هشام وأخوهُ العاص وعمّه الوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد)... وهؤلاء من بني مخزوم. والعاص بن وائل وابنه عمرو بن العاص.... وهؤلاء من بني سهم. وأمية بن خلف وأخوه أُبي.... وهؤلاء من بني جُمح.

انطلق هؤلاء يمارسون ألواناً من السُّخرية والاستهزاء؛ كان أبو سفيان يهجو المسلمين بشعره، وكان الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف من أولئك المستهزئين، ونقل المحدِّثون أنَّ الله تعالى أنزل سورة الهمزة في وصف الوليد، وقيل في أمية[2].

التاريخ ينقل لنا أيضاً حالات من الاضطهاد البدني، ومعظمها - إن لم تكن كلها - بعد وفاة أبي طالب.

فقد جاء أنَّ عقبة بن أبي مُعيط تجاسر مرَّة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وألقى عليه عباءته وضغط عليه حتى كادت روحه أن تزهق، وجاء ذات يوم بسلى[3] شاة فألقاه على رأسه[4]. وأنَّ عقبة وأبا لهب كانا يلقيان العذرة والأوساخ على باب داره صلى الله عليه وآله وسلم. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

---

(1) وقد نزلت فيهما سورة المسد: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾».

(2) «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾». ابن هشام، السيرة النبوية، ص213 - 214. ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص9.

(3) السَّلى: غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه.

(4) تقي الدين المقريزي، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، ص44. وسيؤسر عقبة في معركة بدر ويأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بضرب عنقه.

«كنتُ بين شرِّ جارين، بين أبي لهب وعقبة بن أبي مُعيط، إن كانا ليأتيان بالفروثِ فيطرحانها على بابي». وأنَّ أبا جهل كان يلقي فوقه القاذورات وهو في صلاته.

وكانت بين عقبة بن أبي مُعيط وأُبي بن خلَف صداقة وثيقة، وحين سمع أُبي أنَّ عقبة جالسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وآله حنق، وقال له: لا أرضى منك إلا أن تأتيه، فتطأ قفاهُ وتبزق في وجهه، ففعل ذلك. وقال الله تعالى فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[1].

ومن المستهزئين أيضاً الحكَم بن أبي العاص الذي كان يشتُم رسول الله صلى الله عليه وآله ويسير خلفَهُ ويُقلِّد حركاته باستهزاء[2].

وأم جميل بنت حرب - زوجة أبي لهب - (وهي كما أشرنا من بني أمية، وبالتحديد أخت أبي سفيان، وعمَّة معاوية) كانت تلقي الأقذار والأشواك أمام دارِهِ في غسق الليل لتؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله عند خروجه مبكراً.

والطريف أنهم كانوا يُخوِّفونهُ صلى الله عليه وآله بأصنامِهم أن تُنزل عليه البلاء، فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[3].

وصم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنون والكهانة وقول الشعر والسحر

الوصم عملية تستخدم عادة للحفاظ على الضَّبط الاجتماعي والمعايير السائدة، ويتم ذلك إما من خلال الضغط على الفرد أو الأفراد لإعادتهم إلى ما يعتبره المجتمع صواباً، أو لعزل تأثير الفرد أو الأفراد على باقي أفراد المجتمع، أو لتحقيق الهدفين معاً. والوصمُ نظريةٌ اجتماعيةٌ تُدرس حالياً في علم الاجتماع[4].

لقد خشيت قريش أن يستميل رسول الله صلى الله عليه وآله الحُجَّاج الذين كانوا يفِدون إلى مكة في الحج، وتشاور القرشيون فيما بينهم للقضاء على الدَّعوة قبل انتشارها، وفكَّروا في إيجادِ تفسيرٍ مقنعٍ لظاهرةِ محمد صلى الله عليه وآله، حتى يحُدُّوا من تأثير دعوته في الحُجَّاج، فبدأوا بممارسة

---

(1) سورة الفرقان، الآيتان: 27 - 28. ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص14.

(2) يقول المقريزي في النزاع والتخاصم عن الحكم بن أبي العاص: «فلما كان فتح مكة، أظهر الإسلام خوفاً من القتل، فلم يحسن إسلامه، وكان مغموصاً عليه في دينه». ص44. والحكم هذا هو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي سيرده عثمان بن عفان في فترة خلافته إلى المدينة، وهو والد مروان الذي سيكون المستشار الأول لعثمان في فترة خلافته.

(3) سورة الزمر، الآية: 36.

(4) Labling Theory

عملية الوصم بصور مختلفة؛ فقال بعضهم: نقول كاهن (باعتبار أنه يُحدِّث عن أمور غيبية مستقبلية تتعلَّق بعالم ما بعد الموت)، وقال آخرون: نقول مجنون (باعتبار أنه يُحدِّث عن أمور لا يمكن تصديقها بالنسبة إليهم كالبعث وإحياء العظام وهي رميم)، وقالت جماعة ثالثة: نقول شاعر (باعتبار أنَّ القرآن الذي جاء به ينطوي على بلاغة معجزة)، وقالت جماعة رابعة: نقول ساحر. . . . واستقروا في النهاية على اتهامه بالسِّحر[1].

وفي ذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[2]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾[3].

لكن لماذا اتهموه ﷺ بالسِّحر؟ لأنَّ السِّحر له تأثير خارق في النفوس، ويُفرِّق بين المرءِ وأبيه، وبين المرءِ وأخيه، وبين المرءِ وزوجِه، وبين المرءِ وعشيرته! والإسلام يومئذٍ كان قد اخترق نفوسَهم من الدَّاخل، وتسرَّب إلى بيوتهم، وبدأت تظهر اصطفافات جديدة داخل القبيلة الواحدة، والبطن الواحد، والعشيرة الواحدة.

في المقابل، كان الله سبحانه يُخفِّف عن رسوله ﷺ فيقول له: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[4] وسلاهُ سبحانه عن استهزاء قريش بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾[5].

ومن الضروب الأخرى لعملية الوصم، ترديد بعضهم كلمة «مُذمَّم»[6] ولعلهم افتعلوها في مقابل اسم رسول الله «محمد» ﷺ. وترديد أنَّ رسول الله ﷺ أبتر ليس له ابن، والمستهزئ بذلك هو العاص بن وائل، فأنزل الله تعالى سورة الكوثر، ووصفه فيها بالأبتر، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[7].

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص198. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: 11 - 25]. انظر أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص193 - 194.

(2) سورة الذاريات، الآيات: 52 - 54.

(3) سورة فصلت، الآية: 43.

(4) سورة الحجر، الآية: 97.

(5) سورة الأنعام، الآية: 10، الرعد 33، الأنبياء 41.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص9.

(7) سورة الكوثر، الآية: 3. ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص38.

اضطرار المسلمين للهجرة إلى الحبشة

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما أصاب أصحابه من البلاء، وتزايد الضغوط من (10 - 8 ق. هج)، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، أشار على أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، فهاجرت الدفعة الأولى سنة (8 ق. هج)، وفرُّوا بدينِهم[1]، وكان فيها قرابة اثني عشر إلى سبعة عشر رجلاً وامراة على اختلاف الأخبار، وكان قائدهم الصَّحابي الجليل عثمان بن مظعون.

وبعد عام إلى ثلاثة أعوام (7- 5 ق. هج) هاجرت، وبنحو تدريجي، الدفعة الثانية، وكان فيها أكثر من ثمانين من المسلمين. وكان قائدهم في الحبشة آنذاك، الصَّحابي الجليل الشهيد جعفر بن أبي طالب[2]. وإلى ذلك أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[3].

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردّهم عليهم، ليفتنوهم في دينِهم، ويُخرجوهُم من دارهِم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها. فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم[4] (وتذكُر بعض المصادر أنَّ معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة كانا معهما). لكن عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لم ينجحا في مهمتهما، ورجعا يجران أذيال الخيبة[5].

وأرجو من القارئ أن يتذكَّر اسم «عمرو بن العاص»[6] جيداً، لأنَّ عمرو سيلعب دوراً مهماً بعد مقتل عثمان بن عفان، وبالتحديد في معركة صفين.

---

(1) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص214.
(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص239 - 240.
(3) سورة النحل، الآية: 41.
(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص248.
(5) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص247 - 248.
(6) قرشي من بني سهم، كانت أمه سبية تلقب بـ«النابغة»، وكان داهية من دهاة العرب، أسلم سنة 8 هج بعد فشل قريش في معركة الأحزاب، كان له دور في فتح الشام ومصر في خلافة عمر بن الخطاب، وولاه عثمان بن عفان على مصر ثم عزله عنها، وكان ذلك بدء الخلاف بينهما، وكان له دور محوري في معركة صفين كما سنرى.

محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله ومحاصرته في الشِّعب

ثم اجتمعت قريش في مكرها على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله علانية، عندها أمر أبو طالب بني عبد المطلب أن يُدخِلوا رسول الله صلى الله عليه وآله في شِعبِهم، ويمنعوهُ ممن أراد قتله. وكان ذلك على الأرجح بين سنة (6 - 5 ق. هج)[1].

واجتمع بنو هاشم وبنو المطلب على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حميّة ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً. فلما عرفت قريش أنَّ القوم منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله اجتمع المشركون من قريش، وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاقدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[2].

فلبث بنو هاشم في شِعبِهم ثلاث سنين، واشتدَّ عليهم البلاء والجهد حتى كان يُسمع أصوات صبيانهم يصيحون من ألم الجوع من وراء الشعب، ولم يدعوا أحداً من الناس يُدخل عليهم طعاماً ولا شيئاً مما يرفق بهم[3]. ثم انفكَّ الحصار (سنة 4 - 3 ق. هج تقريباً) بكرامة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله مذكورة في كتب السِّيَر والتواريخ[4].

وما وافت السَّنة العاشرة من البعثة (3 ق. هج) حتى أصيب رسول الله صلى الله عليه وآله بوفاة عمّه وحاميه أبي طالب، ثم ماتت زوجه خديجة بعد ذلك، وكان موتهما قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين. ولا نستبعد أن يكون لموتهما علاقة بالحصار ومضاعفاته، والوضع الصحي الخطر الذي عاشوا في أجوائه طوال هذه المدة.

وصار بقاء رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة محفوفاً بالمخاطر، وقدرة قريش على التعرُّض له كبيرة جداً، وتتابعت عليه بموتِهما المصائب، فكانت هذه الفترة الواقعة بين موت أبي طالب وخديجة وحتى هجرته إلى يثرب، ربما، أصعب فترات حياته. لذا يقول ابن إسحاق: «. . . فلما هلكَ أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله من الأذى ما لم تكُن تطمع به

---

(1) فكانت فترة الحصار في شعب ابي طالب متزامنة تقريباً مع هجرة الوجبة الثانية إلى الحبشة بسبب تزايد الضغوط.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص5، أيضاً: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص198.

(3) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص201.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص25 - 26، أيضاً: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص203 - 204.

في حياة أبي طالب»[1]. وكان ﷺ يقول على ما يروي الحاكم في مستدركه: «ما زالت قريشُ كاعّة (= تهابني وتجبن عن مواجهتي) حتى توفي أبو طالب»[2] وعلى ما يروي ابن هشام في سيرته: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى ماتَ أبو طالب»[3].

محاولة رسول الله ﷺ في الطائف

بعد أن يئس رسول الله ﷺ من استجابة قريش لدعوته، خرج إلى الطائف (3 ق. هج) لاستكشاف آفاق جديدة للدَّعوة، وكانت قبيلة ثقيف يومئذ سادتها وأشرافها، لكنه لم يلق منهم آذاناً صاغية، بل قوبلت دعوته بالاستهزاء، وتفرَّق عنه وجهاء الطائف وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا يسُبُّونَهُ ويصيحون به ويرمونه بالحجارة، فلم يكن يرفعُ قدماً ويضع أخرى إلا على الحجارة... فلجأ إلى بستان وهو يناجي ربه:

«اللهم إليكَ أشكو ضَعفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين وأنتَ ربي، إلى من تكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني[4]؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكتَهُ أمري[5]؟ إن لم يكُن بِكَ غضبٌ عليَّ فلا أُبالي ولكن عافيتُكَ هي أوسَعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقت لهُ الظلمات، وصلحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبَك، أو يحلّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوة إلا بك»[6].

بيعة العقبة الأولى والثانية ثم الهجرة

عاود رسول الله ﷺ نشر الإسلام في مكة، لكنه ركَّز هذه المرَّة على موسم الحج، فكان يَعرِضُ نفسَهُ على القبائل ويدعوهم إلى الله[7]. ولم يُرحِّب بدعوته سوى ثلة قليلة من خزرج يثرب جاءت للحج، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام المقبل جاءت جماعة منهم

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص57.
(2) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج2، كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ح4243، ص774. أنظر أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص270.
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص57.
(4) ويقصد بـ «البعيد» ثقيف (أو أهل الطائف) كما يبدو. و«يتجهمني» يعني يلقاني بوجه عبوس مكفهر.
(5) ويقصد بـ «العدو» قريش (أو أهل مكة) كما يبدو.
(6) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص60.
(7) المصدر السابق، ص62.

فبايعته في العقبة (2 ق. هج)[1]، فبعث صلى الله عليه وآله معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، ثم جاءت جماعة أخرى من الخزرج والأوس فبايعته في السَّنة التالية (1 ق. هج)[2]، بعدما سأله بعضهم قائلاً: «يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرِّجال - يعني اليهود - حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحنُ فعلنا ذلكَ ثم أظهرَكَ الله أن ترجع إلى قومِكَ وتدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ثم قال: بل الدَّمَ الدَّمَ، والهدمَ الهدم، أنا منكُم وأنتم مني، أحاربُ من حاربتُم وأسالمُ من سالمتُم»[3]. وصارت الأجواء مهيأة وملائمة له في يثرب أكثر من مكة. وبدأ المسلمون بالهجرة من مكة إلى يثرب.

لاحظ هنا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله القرشي العدناني يستعين بالخزرج والأوس القحطانيين، ووجهاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله القرشيون العدنانيون يستعينون بالخزرج والأوس القحطانيين ويهاجرون إليهم، ليتخلصوا من اضطهاد وظلم قريش العدنانية.

ذُعِرَ مشركو قريش من أنباء وصلتهم عن مبايعة بعض أهل يثرب لرسول الله صلى الله عليه وآله[4]، وخروج المسلمين بالتدريج من مكة إلى يثرب[5]، ورأوا أنَّ طائفة من المسلمين قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم[6]. من هنا عزموا على أن يتخذوا قراراً حازماً بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله. ولم يُفكِّروا حتى ذلك الحين في قتله صلى الله عليه وآله، إذ كانوا يرون أنَّ ذلك قد يُفجِّرُ خلافاً داخل قريش. وكان همّهم الأول هو أن يحولوا دون هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يثرب ليقود المسلمين منها، وكانت الخيارات تدور بين إخراجه ونفيهِ من مكة أو سجنه. لكن وجدوا أنَّ هذين الخيارين لن يحلا المشكلة، فعقدوا العزم على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(1) المصدر السابق، ص66 - 68.

(2) المصدر السابق، ص70 - 76.

(3) المصدر السابق، ص77.

(4) المصدر السابق، ص81 - 82. أقول: واعتقلت قريش جراء ذلك سعد بن عبادة، وربطوا يديه إلى عنقه، وأدخلوه مكة يضربونه.

(5) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص96. قال ابن هشام في سيرته: «وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه في مكة أحد من المهاجرين إلا من حُبِسَ أو فُتِن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة...». أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص106.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص106

يقول تعالى في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(1).

وكانت خطة أبي جهل للحؤول دون تفجُّر نزاع داخل قريش، تقضي بأن يشترك جميع بطون قريش - حتى أبو لهب الهاشمي - في هذه المؤامرة، فلا يستطيع بنو هاشم مطالبة جميع بطون قريش بدم محمد صلى الله عليه وآله.

وأخبر الوحي رسول الله صلى الله عليه وآله بالمؤامرة الخطيرة، وأمره بالخروج والهجرة فوراً إلى يثرب، فطلب صلى الله عليه وآله من ابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام المبيت في فراشه، فخاطر علي عليه السلام بحياته فداء لرسول الله صلى الله عليه وآله في موقف خلده التاريخ، ورأى علي عليه السلام نفسه للمرة الأولى وجهاً لوجه أمام قريش، ورأت قريش نفسها للمرة الأولى وجهاً لوجه أمام علي عليه السلام، ونجا رسول الله صلى الله عليه وآله بأعجوبة، ووصل بسلام إلى يثرب(2).

ضيَّقت قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة، فاحتضنه الأوس والخزرج في يثرب. وعندما وصل إلى يثرب توقَّف في قُباء حتى يصل ابن عمّه علي عليه السلام مع الفواطم. ثم دخل صلى الله عليه وآله بعد وصول علي عليه السلام إلى يثرب، فأقام في بيت أبي أيوب الأنصاري، وبنى المسجد، وآخى بين المهاجرين (وأكثرهم من قريش العدنانية) والأنصار (من الأوس والخزرج القحطانيين) حتى يتجاوز المسلمون النظرة القبلية الضيِّقة ويُحقِّق حالة التكافل الاجتماعي(3). وعقد مع يهود المدينة معاهدة تُنظِّم العلاقة بين المسلمين واليهود.

الآن، إذا نظرنا إلى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام، أعني الفترة المكية الواقعة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى هجرته إلى المدينة، ربما يتساءل القارئ باستغراب ودهشة:

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 30.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص106 - 110. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب الهجرة، ح4263، و4264، ص7.

(3) يبدو أن المؤآخاة لم تكن دائماً بين مهاجريّ وأنصاريّ، بل في بعض الأحيان بين مهاجريّين. خذ مثلاً ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عمر قال: إنَّ رسول الله آخى بين أصحابه، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فقال علي: يا رسول الله، إنك آخيت بين اصحابك فمن أخي؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى يا علي أن أكون أخاك. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب الهجرة، ح4289، ص19 - 20. أقول: وفي اختيار كل فرد مع أخيه حقيقة لا تخفى على اللبيب، والأحداث اللاحقة ستؤكد هذه الحقيقة.

لماذا تعاملت قريش مع الدعوة إلى التوحيد بقسوة بالغة رغم أنَّ الذي جاء بتلك الدعوة هو رجلٌ منها؟

أسباب مواجهة قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله

عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو الناس إلى التوحيد، ثارت ثائرة قريش، لأسباب عدة، منها:

1. الزعامة القبلية والتنافس عليها: فقريش لم تستطع أن تُفرِّق بين النبوة والسِّيادة، أو بين النبوة والمُلك، وحسبوا أنَّ التسليم بدين محمد صلى الله عليه وآله معناه التسليم بالزعامة له ولآله، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرئاسة والسُّلطان، فلم ترد قريش أن تُسلِّم زمامها لمحمد وآله، وأن تفقد بطونها المختلفة مكانتها وسيادتها. والشاهد على ذلك أنه عند فتح مكة، حينما مرَّت جحافل المسلمين أخذت أبو سفيان الدهشة حتى قال للعباس (عم النبي): والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملكُ ابنِ أخيك عظيماً، فأجابه العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة. وفي مورد آخر يتجلى هذا التصور عندما وضع رأس الإمام الحسين عليه السلام أمام يزيد حيث كان من ضمن ما أنشأه:

لعِبت هاشمُ بالمُلكِ فلا خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نزل

إذن السبب الأول لمواجهة قريش لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله: التنافس على الزَّعامة بوصفها مُلكاً لا منصباً إلهياً.

2. تحريم عبادة الأصنام وأثر ذلك في صناعة الأصنام وبيعها: كان بين العرب من يحترف نحت الأصنام، وكان هؤلاء يبيعون الأصنام للحجَّاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرُّك والذكرى. فلما جاء الإسلام وحرَّم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها، وجد هؤلاء التُّجار في الإسلام حائلاً بينهم وبين أرباحهم، وعاملاً يقضي على تجارة الأصنام ويصيبها بالكساد والبوار، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه. هذا فضلاً عن إحساس سدَنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتَّعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها. كما ظنَّ أهل مكة على العموم أنَّ الكساد الاقتصادي سوف يطالهم جميعاً، إذا ما بطلت عبادة الأصنام فيها، بسبب إعراض الحجيج عن مكة.

لذا تجد الله سبحانه وتعالى يُطمئن المسلمين، بعد إعلان البراءة من المشركين وتحريم دخولهم المسجد الحرام بمكة، أنهم لن يواجهوا ضائقة مالية جرّاء القضاء على مظاهر الوثنية ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ

بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

إذن السبب الثاني لمواجهة قريش لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله هو خوف قريش من تضرُّر مصالحها المالية والتِّجارية.

3. <u>تقليد الآباء والسَّير على آثارهم:</u> فتقليد الآباء واتباع سلوكهم كان شيئاً راسخاً لدى العرب، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يدخلوا ديناً جديداً.

وقد ذمَّ القرآن هذا النَّمط من التفكير ذمّاً شديداً، وحكى عن هؤلاء بصيغة الاستهجان: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]؟! ولا يمكن فصل هذا السُّلوك المذموم عن العقلية القبلية التي كانت بالغة الرُّسوخ في حياتهم، وسنرى ما يُجسِّدُها في خلفيات واقعة كربلاء.

إذن السبب الثالث تقليد قريش الأعمى للآباء والأجداد والانسياق خلف ما يسمى بـ «العادات والتقاليد» وإن أدى ذلك إلى الهلاك الأخروي.

4. <u>رفض مبدأ المساواة بين الحر والعبد، والحر والمولى، أو بين العرب وغير العرب، أو بين من ينحدر من قبيلة قوية ومن ينحدر من قبيلة ضعيفة:</u> إنَّ الرِّق كان منتشراً في الجزيرة انتشاره في كل بلاد العالم، وكان العبد رقيق العقل والقلب، فضلاً عن الرِّق الجسماني، بمعنى أنه لم يكن له أن يتديَّن بغير دين سيده، ولا يحبّ أو يكره إلا تبعاً لسيده. فلما جاء الإسلام، لم يعترف برقِّ العقل أو القلب، فالرقيق حرٌّ في فهمه وتدينه وحبه وكراهيته، وأنَّ رقَّ الجسم غير مطلق، لأنَّ للرقيق حقوقاً لدى سيده في الطعام والكساء والزَّواج. بل تحدَّث الإسلام عن المساواة بين السادة والعبيد في مجالات متعددة، فلا فرق بين أبيض وأسود، إلا بالتَّقوى. وعندما دخل بعض العبيد في الإسلام، اعتبر سادة قريش أنَّ هذا التصرُّف تمرُّد من العبيد، كما اعتبروا أنَّ محمداً صلى الله عليه وآله يُحرِّضُ العبيد على سادتهم، ولم يطيقوا أن يوضعوا في مستوى واحد مع عبيدهم!

لذا تجد أنَّ سبب نزول الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]

(1) سورة التوبة، الآية: 28.
(2) سورة البقرة، الآية: 170.
(3) سورة الأنعام، الآية: 52.

- على ما تنقل كُتُب أسباب النزول - أنَّ ملأ من قريش مرَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده صهيب وعمَّار وبلال وخبَّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكونُ تبعاً لهؤلاء؟ إنما آمن بك هؤلاء طمعاً في المال والرِّفعة، اطرُدهم عنك، فلعلَّك إن طردتَهم اتَّبعناك. وينقل تفسير المنار والدُّر المنثور أنَّ عمر بن الخطاب كان حاضراً واقترح على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقبل عرض هؤلاء الملأ ليتبيَّن مدى صدق قولهم.

إذن السبب الرابع لمواجهة قريش لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله هو الاستكبار.

5. الفزع من الإيمان بالبعث: لم تستطع قريش أن تقبل هذا الدِّين الذي يتحدَّث عن عودة الإنسان إلى الحياة بعد الموت، ليحاسب بعدالة على ما ارتكبه، فصورة العدالة لا يرضاها الظالم، وصورة الحساب يفرّ منها المذنبون. يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1]، وكتب أسباب النزول تقول إنَّ هذه الآية نزلت في أُبي بن خلَف أو العاص بن وائل، وهما من شخصيات قريش المشهورة.

إذن السبب الخامس هو خوف قريش من الاعتقاد بيوم الحساب وتمنِّي عدم مجيئه بما قدَّمت أيديهم.

الخلاصة: تحدَّثنا فيما سبق عن موضوع البحث، وقلنا إنه يستهدف معرفة خلفيات واقعة كربلاء، وبدأنا الكلام عن الأسباب البعيدة لهذه الفاجعة، وذكرنا نبذة عن العرب، وانقسامهم إلى عدنانيين وقحطانيين، وأنَّ قريشاً تنحدر من عدنان، وأنَّ الأوس والخزرج ينحدرون من قحطان، وقلنا إنَّ الكلمة المفتاحية لفهم خلفيات واقعة كربلاء تكمن في «قريش»! فقريش كانت العائق الأكبر أمام رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم تترك طريقة للقضاء على الإسلام إلا واستعانت بها: تعذيب جسدي، ضغط اجتماعي، حصار اقتصادي خانق، ملاحقة المسلمين إلى الحبشة وملاحقة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الطائف، ثم التصميم على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله.

.... لنر كيف ستتفاقم الأمور عندما يُوجِّه لها المسلمون لطمة كبيرة في معركة بدر؟ وكيف ولَّدَت هذه المعركة عُقدة في نفوس القرشيين تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟

---

(1) سورة يس، الآيتان: 78 - 79.

(2)

معركة بدر وبني أمية

بدأنا الحديث عن خلفيات واقعة كربلاء، وقلنا إنَّ الكلمة المفتاحية هي «قريش»، وتحدَّثنا عن مواجهة قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسباب ذلك، ونبدأ في هذا الفصل بالحديث عن أول مواجهة مسلَّحة بين قريش والمسلمين، لندرس الآثار العميقة التي تركتها تلك المواجهة على الأحداث اللاحقة.

معركة بدر (2 هج)

في السَّنة الأولى والثانية للهجرة، بدأت اصطفافات جديدة بالتبلور. فبالأمس كانت مُكوِّنات يثرب تتمثل بالأوس والخزرج واليهود، وكان اليهود يستفيدون من تناقضات الأوس والخزرج. أما اليوم فصارت المدينة تتمثل بالأنصار (المسلمون من الأوس والخزرج) والمهاجرين (من القرشيين الأحرار والموالي والعبيد)، في قبال اليهود ومنافقي المدينة (من الأوس والخزرج واليهود الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر).

خلال هاتين السَّنتين، دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عائشة، وزوَّج ابن عمِّه الإمام علي عليه السلام بابنته فاطمة عليها السلام، وبدأت سورة البقرة بالنُّزول، ودعوة يهود المدينة إلى الإسلام، مع رفض متكرِّر منهم، وتوترت علاقة المسلمين باليهود، وتغيَّرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة، وفُرِضت سلسلة من التشريعات المهمَّة كالصوم وأحكام الحيض والطلاق والرَّضاعة والعدة والإنفاق وتحريم الرِّبا صراحة والحثّ على اجتناب الخمر. ووصلت أنباء عن مصادرة أبي سفيان لممتلكات المهاجرين وبيوتهم.

وفي السَّنة الثانية للهجرة وقعت معركة بدر الكبرى[1]، بين قريش والمسلمين من المهاجرين والأنصار.

---

(1) يثير بعض المستشرقين إشكالاً حول اعتراض المسلمين قافلة أبي سفيان القادمة من الشام إلى مكة، وهي الشرارة التي أشعلت حرب بدر، بوصفه عملاً فوضوياً وربما إرهابياً. . . . ويتناسون أن أبا =

انطلاق الشَّرارة

انطلقت الشَّرارة بعدما وصلت أنباء تفيد بأنَّ أبا سفيان قد باع دور المسلمين في مكة، وقضى بثمنِها بعضَ ديونه، ثم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي سفيان مقبلاً من الشَّام بقافلةٍ كبيرة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، فندب المسلمين إليهم وقال: هذه عِير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُنفِلكُمُوها. فانتدب الناس، فخفَّ بعضهم وثقلَ بعضهم، وكان أبو سفيان يتحسَّس الأخبار ويسأل من لقي من الرُّكبان، حتى عرف أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد استنفر أصحابه له ولقافلته، فأرسل أبو سفيان رجُلاً إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم[1].

فجاء الرجل يصرُخ ببطن الوادي واقفاً على بعيرهِ، قد جدَعَ بعيرَهُ، وحوَّلَ رحلَهُ، وشقَّ قميصَهُ وهو يقول: يا معشرَ قريش، اللطيمة اللطيمة[2]، أموالكُم مع أبي سفيان قد عَرَضَ لها محمدٌ في أصحابهِ، لا أرى أن تُدركوها.... فتجهَّز الناسُ سراعاً[3].

قال ابن إسحاق: وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه...وأتاه الخبر عن قريش...فاستشار الناس، فقام بعضُ المهاجرين وأظهروا استعدادهم للتَّضحية. ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: أشيروا عليَّ أيُّها الناس، وإنما يريد الأنصار..[4].

فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنَّك تريدنا يا رسولَ الله صلى الله عليه وآله؟

قال صلى الله عليه وآله: أجل

= سفيان - كما يؤكد المقريزي - كان قد باع دور المسلمين في مكة، وقضى بثمنها بعض ديونه، هذا مضافاً إلى ما لاقاه المسلمون من قريش عموماً.... وتفصيل الحديث يحتاج إلى مقام آخر. أنظر أيضاً في عدوان أبي سفيان على دور المسلمين: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، 124.

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2 ص224 - 225.

(2) قال الواقدي: «اللطيمة: التجارة، قال أبو الزناد: اللطيمة: جميع ما حملت الإبل للتجارة...». أنظر: الواقدي، **المغازي**، تحقيق د. مارسدن جونس، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هج، ج1، ص32.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص227. أيضاً: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4297، ص27.

(4) لأنَّ الأنصار هم الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وآله والمهاجرين، وسيضع رسول الله صلى الله عليه وآله والمهاجرين - بسبب بدر - الأنصارَ في مواجهةٍ مباشرةٍ مع قريش، فكأنه يريد صلى الله عليه وآله أن يتحملوا جزءاً من مسؤولية قرار المواجهة، بوصفهم شركاء في المصير.

قال سعد: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناكَ على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السَّمع والطاعة، فامض يا رسولَ الله لما أردت، فنحنُ معك، فوالذي بعثك بالحقِّ، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخُضتَهُ لخُضناهُ معك، ما تخلَّف منَّا رجلٌ واحد..[1].

ثم عدَّل رسول الله صلى الله عليه وآله الصُّفوف، وكان عددُ المسلمين قليلاً، فوقفَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يُناشِدُ ربَّهُ ما وعدَهُ من النَّصر قائلاً: «اللهمَّ إن تهلِك هذه العِصابة (= الجماعة من الناس) اليومَ لا تُعبد»[2]. ثم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفخهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شُدُّوا[3].

المدد الغيبي

فجاء المددُ الغيبي من الله سبحانه بطريقة مذهلة، وهذا ما سجَّله القرآن في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[4].

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ﴾[5].

مشاقة قريش

ويتحدَّث القرآن عن مشاقة قريش لله ورسوله، وعن عقابٍ شديد سيواجهونه إن هم استمرُّوا في السَّير على هذا الطريق، يقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص232 - 233.
(2) المصدر السابق، ص244.
(3) المصدر السابق، ص245.
(4) سورة آل عمران، الآيات: 123 - 126.
(5) سورة الأنفال، الآيتان: 43 - 44.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ (= خالفوا وعاندوا) ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾[1].

ليهلك من هلك عن بيِّنة

ثم يتحدَّث القرآن في السورة ذاتها عن أنَّ معركة بدر كانت مُقدَّرة من الله تعالى لتهلك قريش عن بيِّنة ويحيا المؤمنون عن بيِّنة، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[2].

حساب عددي للخسائر

في معركة بدر، كان هناك (1000) مقاتل من مشركي قريش في مقابل (313) أو (314)[3] مقاتلاً من المسلمين. . . . رغم ذلك، كانت نتيجة المعركة بمثابة زلزال شديد ومُدمِّر لقريش: (72) قتيلاً من رجالات قريش وساداتهم، و(70) أسيراً، في مقابل (14) شهيداً من المسلمين!!

تفجُّر الكراهية

هنا تفجَّرت كراهية قريش لبني هاشم، وبالتحديد تفجرت كراهيتُهم لحمزة وعلي بن أبي طالب عليه السلام، بسبب ما قتلا وجرحا منهم في ذلك اليوم، وقبل ذلك تفجَّرت كراهيتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي تسبَّب - في نظرهم - في ذلك كلِّه. فقد أراق بنو هاشم

---

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 12 - 13.

(2) سورة الأنفال، الآيتان: 41 - 42.

(3) 83 منهم من المهاجرين، والباقي من الأنصار، أي 231 من الأنصار. . . وهذا يعني أن الأنصار كانوا يشكلون أكثر من ثلثي الجيش. أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص298. ومن الأنصار، 61 من الأوس، و170 من الخزرج، وهذا يعني أن الخزرج كانوا يشكلون أكثر من ثلثي جيش الأنصار. أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص303، وص316. وهذه الأرقام لها دلالات مهمة. وثمة رواية تؤكد صحة الأرقام التقريبية، رواها البراء بن عازب حيث قال: كان المهاجرون يوم بدر نيفاً وثمانين، وكانت الأنصار نيفاً وأربعين ومائتين. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4302، ص29.

ماءَ وجوه قريش أمام أهل مكة، وأمام باقي العرب، وتسبَّبوا في حرجٍ شديدٍ لأبي سفيان الذي كان قد استنجد بقريش لحمايةِ قافلته.

وتفجَّرت بدرجة أقل كراهية قريش للأنصار، وبالتحديد للخزرج، الذين شكلوا أكثر من ثلثي جيش الأنصار، وأبلوا في معركة بدر بلاء حسناً، ووفروا قبل ذلك المأوى لرسول الله صلى الله عليه وآله وللمهاجرين.

وتُحدِّثنا الروايات التاريخية عن بعض الجهود لمنع الحرب، ولكن هذه الجهود توقَّفت بسبب إصرار أبي جهل على الحرب. وسرعان ما برز من قريش ثلاثة يُعدُّون من خيرة أبطالها، وهم في الوقت نفسه أساطين بيتٍ واحد (من بني عبد شمس، وهو الأصل الذي ينحدر منه بنو أمية)، وهم:

1 - عتبة بن ربيعة (أبو هند، جدّ معاوية لأمه).

2 - والوليد بن عتبة (أخو هند، خال معاوية).

3 - وشيبة بن ربيعة (عمّ هند، عمّ معاوية لأمه).

خرج هؤلاء الأبطال من معسكر قريش واتجهوا إلى وسط الساحة التي تفصل بين الجيشين وصرخوا في معسكر المسلمين: من يبارز؟ اختار رسول الله صلى الله عليه وآله في قبالهم:

1 - عمّه حمزة بن عبد المطلب (ليواجه عتبة)[1].

2 - وعلي بن أبي طالب عليه السلام (ليواجه الوليد بن عتبة)

3 - وابن عمّه عبيدة بن الحارث (فتأخَّرَ في القضاء على شيبة، فقتل الأخير بسيوف الثلاثة).

وقد قتل الإمام علي عليه السلام وحدَهُ أربعة من بني عبد شمس، واشترك في قتل خامس. والأربعة الذين قتلهم الإمام علي عليه السلام هم: الوليد بن عتبة بن ربيعة (خال معاوية)، حنظلة بن أبي سفيان (أخو معاوية)، والعاص بن سعيد، وعامر بن عبد الله حليف بني عبد شمس. كما اشترك في قتل شيبة بن ربيعة.

وقد أحصى الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد أسماء خمسة وثلاثين نفراً ممن قتلهم

(1) وقد فعل حمزة بقريش في بدر الأفاعيل، لذا نرى عداءهم الشديد له، وانتقامهم منه في أحد، بل تشويه سمعته في كتب التأريخ والحديث والتفسير بمختلف الطرق. فعداء قريش لم يقتصر على علي عليه السلام، بل على بني هاشم عموماً، وعلى حمزة وعلي على وجه الخصوص.

الإمام علي عليه السلام يوم بدر سوى من اشترك في قتله[1]، وأحصى ابن هشام في كتابه السِّيرة النبوية والواقدي في كتابه المغازي أسماء واحد وعشرين نفراً ممن قتلهم الإمام علي عليه السلام يوم بدر أو اشترك في قتلهم من مجموع تسعة وأربعين أو خمسين نفراً أحصيت أسماؤهم (أنظر الملحق رقم 1)[2].

وبعمليةٍ حسابيةٍ بسيطة لنسبة من قتلهم الإمام علي عليه السلام أو اشترك في قتلهم إلى المجموع الكلي للقتلى الذين أحصيت أسماؤهم، سنجد أنَّ الإمام علي عليه السلام قد قتل أو اشترك في قتل 40 % من قتلى مشركي قريش في بدر على أقل التقادير، وقد ترتفع هذه النِّسبة إلى ما يقرب من 60 %.

أي إنَّ علياً عليه السلام كان أكبر من هدَّ بُنيان بيت بني عبد شمس في ذلك اليوم، ونستطيع أن نتصوَّر حقدهم عليه إذا تذكَّرنا ما فعلوه بعمِّه وصنوه في حُسن البلاء في أُحُد، أعني حمزة بن عبد المطلب، الذي قتل بدورِهِ عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس (أبو هند آكلة الأكباد وجد معاوية لأمه)[3]، ويقول ابن هشام في سيرته إنَّ علياً عليه السلام قد اشترك في قتله أيضاً.

كما قُتِل لبني أمية بُعيد معركة بدر عُقبة بن أبي مُعيط، الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتلِهِ بعدما أسِر في بدر. وقتل في هذه المعركة لبني أمية شيبة بن ربيعة بن عبد شمس (عمّ هند، يعني عمّ أم معاوية). كما أُسِرَ عمرو بن أبي سفيان (أخو معاوية)، الذي أطلق سراحُهُ فيما بعد.

نشأة عقدة نفسية عند أبي سفيان وهند

لما رجعت قريش إلى مكة، قام فيهم أبو سفيان (أبو معاوية وجدُّ يزيد) وقال: يا معشرَ قُريش، لا تَبكُوا على قتلاكُم، ولا تَنُح عليهم نائِحة، ولا يبكِهم شاعِر، وأظهِروا

---

(1) من الأسماء التي قتلها علي عليه السلام: عمير بن عثمان بن كعب بن تيم، عم طلحة بن عبيد الله، وعثمان ومالك ابنا عبيد الله، أخوا طلحة بن عبيد الله. . . . . ومن يدري، لعل هذا الموضوع كان له دور في لاشعور طلحة عندما أعلنها حرباً على علي عليه السلام يوم الجمل؟ أنظر: المفيد، الإرشاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص70 - 72.

(2) أنظر: الواقدي، المغازي، ج1، ص147 - 152. وابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص318 - 325.

(3) لاحظ أن هند هي أم معاوية، أما يزيد بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، وعنبسة بن أبي سفيان، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن أبي سفيان، فمن أمهات شتى (شرح النهج، لابن أبي الحديد، ج1، ص199).

الجلَدَ والعزاء، فإنكم إذا نُحتُم عليهم وبكيتموهم بالشعر، أذهبَ اللهُ غيظَكُم فأكلَّكُم ذلك عن عداوةِ محمدٍ وأصحابهِ، مع أنه إن بلغَ محمداً وأصحابَهُ شمِتوا بكم، فيكونُ أعظمَ المصيبتين شماتتهم، ولعلكُم تُدرِكونَ ثأرَكُم، والدُهنِ والنساءِ علي حرامٌ حتى أغزوا محمداً.... يقول المؤرخون: فمكثت قريش شهراً لا يَبكيهم شاعر ولا تنوحُ عليهم نائحة![1]

يقول الواقدي: فناحت قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دارٌ بمكة إلا فيها نوحٌ، وجزَّ النِّساء شعر الرؤوس... قالوا: ومشى نساءُ قريش إلى هندِ بنت عُتبة (أمُّ معاوية وجدَّة يزيد) وقلنَ لها: ألا تبكينَ على أبيكِ وأخيكِ وعمكِ وأهلِ بيتِك؟ فقالت: أبكيهم فيبلُغ ذلكَ محمداً وأصحابَهُ فيشمَتوا بنا ونساء بني الخزرج[2]، لا واللهِ حتى أثأرَ محمداً وأصحابه، والدُّهنُ عليَّ حرامٌ أن دخَلَ رأسي حتى نغزوَ محمداً.... يقول المؤرِّخون: فمكثت على حالِها لا تقرَبُ الدُّهن وما قربت فِراش أبي سفيان من يومِ حلَفَت حتى كانت وقعة أُحُد[3].

يتضح مما سبق أنَّ معركة بدر سببت عُقدة نفسيَّة عند مشركي قريش عموماً، وعند بني أمية خصوصاً، تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وعمِّهما سيِّد الشُّهداء حمزة عليه السلام [4]، ويمكن أن نفهم كثيراً من الأحداث التالية على أنَّها ردود أفعال تجاه ما حدث، ومحاولات للثأر مما وقع يوم بدر.

أهم شخصيات بني أمية ودورها المعادي للإسلام

قبل أن نسترسل في سرد الأحداث التي وقعت بعد معركة بدر، سأتوقف قليلاً لندرس باختصار أهم شخصيات بني أمية القرشية[5]، مستعيناً في ذلك بما ينقله المقريزي في كتابه

---

(1) الواقدي، **المغازي**، ج1، ص121.

(2) إن لم يُقصد بالخزرج الأنصار عموماً (أوسهم وخزرجهم)، فإنَّ هذه العبارة تشير إلى نشأة عداوة خاصة بين قريش والخزرج.... ستلاحظ أيضاً بعد قليل ما تمثل به يزيد بعد قتل الحسين عليه السلام:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسلْ

(3) الواقدي، **المغازي**، ج1، ص122 - 124. وقد سجل لنا ابن هشام في السيرة النبوية أبياتاً متعددة قالتها هند بعد معركة بدر تندب فيها أقاربها. أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص35 - 36.

(4) لذا تجد أنَّ ابنة الحارث بن عامر بن نوفل تقول لوحشي قبيل معركة أحد: إنَّ أبي قُتِل يوم بدر، فإن أنت قتلتَ أحد الثلاثة، فأنت حرٌّ، إن قتلت محمداً، أو حمزة بن عبد المطلب، أو علي بن أبي طالب، فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم. أنظر: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص285.

(5) وبنو أميه صنفان: الأعياص والعنابس، فالأعياص: العاص، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص، =

الهام «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»، ثم نعود بعد ذلك لنربط معركة بدر بواقعة كربلاء.

1. أبو أُحيحة سعيد بن العاص بن أمية: هلكَ على كُفرِهِ باللهِ في أول سنة من الهجرة. . . . وهو يُحادُّ اللهَ ورسوله.

أقول: لكن ثلاثة من أبنائه كانوا من الصَّالحين: خالد بن سعيد بن العاص مع أخويه أبان وعمرو[1].

2. عُقبة بن أبي مُعيط: وكان أشدَّ الناسِ عداوةً لرسولِ الله صلى الله عليه وآله، إلى أن قاتلَ يومَ بدر، فأُتيَ بهِ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وقد أُسِرَ، فأمرَ بضربِ عُنُقِهِ فجعلَ يقول: يا ويلتي علامَ أُقتل (يا معشرَ قريش أأُقتل) من بينِ هؤلاء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لعداوتِكَ للهِ ولرسولِهِ، فقال: يا محمد، منكَ أفضل، فاجعلني كرجُلٍ من هؤلاء من قومي وقومِكَ، يا محمد من للصبية؟ . . . . .وضربَ عنُقَهُ. . . . .

3. الحَكَم بن أبي العاص بن أُمية: وكان مؤذياً لرسولِ الله صلى الله عليه وآله بمكة، يشتِمُهُ ويُسمِعُهُ ما يكره، فلما كانَ فتحُ مكة، أظهرَ الإسلامَ خوفاً من القتل، فلم يحسُن إسلامُهُ، وكان مغموصاً عليهِ في دينهِ (= مطعوناً في دينه). ثم قدِمَ المدينةَ فنزلَ على عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وكان يُطالِعُ الأعرابَ والكُفارَ بأخبارِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله. وبينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله يمشي ذاتَ يومٍ، مشى الحكَمُ خَلفَهُ فجعلَ يختلِجُ (= يُحرِّك) بأنفهِ وفمهِ كأنه يُحاكي رسولَ الله صلى الله عليه وآله، ويتفكك ويتمايَل، فالتفتَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فرآه، فقالَ

= والعنابس: حرب، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان. فبنو مروان وعثمان من الأعياص، ومعاوية وابنه من العنابس. ولكل واحد من الصنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل، واختلاف شديد في تفضيل بعضهم على بعض (انظر: ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ج1، ص200).

(1) أقول: خالد بن سعيد بن العاص مثلاً أسلم قديماً فكان ثالثاً أو رابعاً وقيل كان خامساً، وقال ابن قتيبة في المعارف: أسلم قبل إسلام أبي بكر. وكان ممن هاجر إلى الحبشة، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وآله مع أخويه على صدقات مذحج، واستعمله على صنعاء، ثم رجعوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله عن عمالتهم، فقال أبو بكر: ما لكم رجعتم عن عمالتكم؟ ما أحد أحق بالعمل من عُمَّال رسول الله، ارجعوا إلى أعمالكم، فقالوا: نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله، ولم يبايع خالد بن سعيد لأبي بكر إلا بعدما بايعه بنو هاشم، ثم مضوا جميعاً إلى الشام، فقتلوا هناك، واستشهد خالد - رضوان الله عليه - بأجنادين.
لذا لا يرد ما ذكره المقريزي بأن سبب وصول بني أمية إلى السلطة هو ما أسسه رسول الله صلى الله عليه وآله من تنصيب بعض عماله من بني أمية، وأنه صلى الله عليه وآله هو الذي عبَّد الطريق لهم، لأنه يوجد فرق جوهري بين عمال رسول الله صلى الله عليه وآله من بني أمية، وعمال أبي بكر وعمر وعثمان منهم.

لهُ: كُن كذلك، فما زالَ بقيةَ عُمُرِهِ على ذلك. واطلعَ يوماً على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وهو في حُجرةِ بعضِ نسائهِ، فخرج إليه بعَنَزةٍ (= أطول من العصا وأقصر من الرمح)، فقال: من عذيري في هذا الوزغة، لو أدركتُهُ لفقأتُ عينَهُ. . . . .

ثم إنَّ النبي صلى الله عليه وآله لعنَهُ وما وَلَد، وغرَّبَهُ عن المدينةِ، فلم يزل خارجاً عنها بقيةَ حياة رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وخلافة أبي بكر وعمر، فلما استُخلِفَ عُثمان، ردَّهُ إلى المدينةِ ووَلَدِهِ، فكانَ ذلكَ مما أنكرَهُ الناسُ على عثمان[1]، وكانَ أعظمَ الناسِ شؤماً على عثمان، فإنَّهم جعلوا إدخالَهُ المدينة بعد إطرادِ النبي إياهُ، وبعد امتناعِ أبي بكرٍ وعُمر من ذلك، من أكبرِ الحُججِ على عثمان. . . .، ومات الحكَم في خلافة عثمان، فضربَ عثمان على قبرهِ فُسطاطاً (وكان الجاهليون إذا توفي رجلٌ عزيزٌ جليل القدر يضربون فسطاطاً أو قبة على قبره تعبيراً عن حزنهم وإظهاراً لقدره)، وقد قالت عائشة لمروان بن الحكم: أشهدُ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لعنَ أباكَ وأنتَ في صُلبهِ.

والحكَم هذا يُقالُ له طريدُ رسول الله ولعينُهُ، وهو والدُ مروان بن الحكم الذي صارت الخلافةُ إليهِ بالغلبة!! وتوارثَها بنوهُ من بعدهِ، وكان مروان رجُلاً لا فقهَ له، ولا يُعرَفُ بالزُّهدِ، ولا بروايةِ الآثار، ولا بصُحبةٍ (لأنه قضى شبابه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في المنفى مع أبيهِ المطرود)، ولا ببُعدِ همة، وقد وَلِيَ البحرين لمعاوية، الذي أقطعَ فدك لمروان فوهبَها بدورهِ لبنيهِ.

أقول: «مروان بن الحكم»[2]، لا بُدَّ أن نتذكَّر هذا الاسم جيداً، لأنه سيلعب دوراً مهماً في عهد عثمان وبعد مقتلِهِ. ففي عهد عثمان، سيصبح مروان أبرز مستشاري عثمان، وسيكون له دور كبير في النِّهاية المأسوية التي انتهى عثمان إليها، لقيامه بخطوات أدَّت إلى استفزاز الثوار المستفزين أصلاً. ثم بعد مقتل عثمان سيهرب مروان من المدينة إلى مكة ويلتحق بالناكثين، ثم يُشارك في حرب الجمل، ويرمي طلحة بسهم فيقتله (لأنَّ طلحة

---

(1) لما طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحكم بن أبي العاص إلى الطائف لأمور نقمها عليه، أقام بالطائف في حُبلةٍ ابتاعها - وهي الكرمة - وكان يرعى غُنيمات اتخذها، يشرب من لبنها، فلما ولي أبو بكر، شفَّع إليه عثمان في أن يرده، فلم يفعل، فلما ولي عمر شفَّع إليه أيضاً فلم يفعل، فلما ولي هو الأمر رده! (ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ج1، ص200).

(2) روى الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحدٍ مولود إلا أتي به النبي صلى الله عليه وآله، فدعا له، فأدخل عليه مروان بن الحكم، فقال: هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، كتاب الفتن والملاحم، ح8477، ص588.

في نظرهِ ممن حرَّض على عثمان)، ثم يلتحق بالقاسطين، ويُشارك في حرب صفين، ويرسَّخ وجوده في الدَّولة الأموية. وسيلعب أيضاً دوراً مؤثراً في عهد معاوية، بل حتى بعد موت معاوية، ويكفي أن نتذكَّر أنَّ يزيد بن معاوية عندما طلب من ابن عمِّه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - الوالي على المدينة - أن يأخُذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام أخذاً شديداً، كان مروان هو المحرِّض للوليد على إجبار الإمام الحسين عليه السلام على مبايعة يزيد أو قتله. وسيكون له دور أساسي في انتقال الحُكم من العنابس (وبالتحديد: السفيانيين) إلى الأعياص (وبالتحديد: المروانيين) بعد موت يزيد واضطراب الدَّولة الأموية.

4. عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن أمية: أحد من عادى الله ورسوله إلى أن قُتِلَ ببدرٍ كافراً، قتلهُ حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه). وعُتبة هذا هو أبو هند بنت عتبة التي لاكت كبد حمزة، ثم لفظتها، واتَّخذت مما قطعت منه أساور وخلاخيل ومعضدين وخدَمتين (= خلخال أو حلقة)، وأعطت وحشياً قاتل حمزة حِلياً كان عليها من فضة وجَزع (= نوع من العقيق) وخواتيم ورقاً كانت في أصابع رجليها، كلُّ ذلك شماتةً بحمزة لأنه قتلَ أباها عتبة رأسَ الكفر يومَ بدر. وقيل أنَّ علياً عليه السلام لما فرغَ من الوليدِ بن عتبة مالَ مع عُبيدة بن الحارث بن المطلب فقتلاهُ جميعاً[1].

وهند هذهِ، أمرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة بقتلِها فأسلمت، ولما حضرت مع النِّساء لتبايع بيعة الإسلام، كان مما قال لهُنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله: ولا تقتلن أولادكنَّ، فقالت: ربَّيناهُم يا محمَّد صغاراً وقتلتَهم كباراً. وهي أمُّ معاوية بن أبي سفيان الذي قاتل علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخذ الخلافة من الحسن بن علي عليه السلام، واستلحق زياد بن سُميَّة من زنيةٍ، واستخلف على الأمة ابنَهُ يزيد القُرود، ويزيد الفُجور.

5. الوليد بن عتبة بن ربيعة: وقُتِلَ ببدرٍ كافراً، قتلهُ علي بن أبي طالب عليه السلام، والوليد هذا هو خال معاوية.

6. شيبة بن ربيعة بن عبد شمس: عمُّ هند، أمُّ معاوية، وكان يجتمع مع قريش فيما يكيدُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله من الأذى، وقتله الله يوم بدر فيمن قُتلوا من أعدائه.

---

(1) وأبو سفيان هو الذي قاد قريشاً في حروبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة ببدر، أبو سفيان - في بدر - صاحبُ العير، وعتبة صاحب النَّفير... أبو سفيان صاحبُ العير لأنه هو الذي قدَّم بالعير التي رام رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أن يعترضوها، وكانت قادمة من الشَّام إلى مكة تحمل العِطر والبُر... وكانت وقعة بدر العظمى لأجلها، وكان رئيس الجيش النافر لحمايتها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه.... (راجع ابن أبي الحديد، **شرح النهج**، ج1، ص199 - 200)... إذن جد معاوية لأمه هو رئيس بني عبد شمس، ومن بعده أبوه أبو سفيان.

7. أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية: قائدُ الأحزاب الذي قاتل رسولَ الله ﷺ يوم أحد، وقتل من خيار الصَّحابة سبعين، منهم أسدُ الله حمزة بن عبد المطلب. وقاتل رسولَ الله ﷺ في يوم الخندق[1].

طريقة إسلام أبي سفيان

يقول المقريزي: «ولم يزل يُحادِد اللهَ ورسولَهُ حتى سارَ رسولُ الله ﷺ لفتح مكة، فأتى به العباسُ بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ، وقد أردَفهُ، وذلك أنَّهُ كان صديقه في الجاهلية، فلما دخلَ على رسول الله ﷺ سأله أن يُؤمِّنه.

فلما رآهُ رسولُ الله ﷺ قال له: ويلكَ يا أبا سفيان، ألم يأنِ لكَ أن تعلم أن لا إلهَ إلا الله تعالى؟

فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصَلَكَ وأحلَمَكَ وأكرمَكَ، واللهِ لقد ظننتُ أنه لو كان مع اللهِ غيرهُ لقد أغنى عني شيئاً.

فقال ﷺ: يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسولُ الله تعالى؟

فقال: بأبي أنت ، ما أوصَلَكَ وأحلَمَكَ وأكرمَكَ، أما هذه ففي النفسُ منها شيء!

فقال له العباس: ويلك اشهد بشهادةِ الحق قبل أن تُضرب عُنُقك، فشهِد وأسلَمَ. فهذا حديثُ إسلامه كما ترى.

واختلف في حُسنِ إسلامهِ، فقيلَ أنه شهِدَ حنيناً مع رسول الله ﷺ وكانت الأزلام معه يستقسم بها (الأزلام جمع زلَم، وهو سهمٌ لا ريشَ له كان يستخدم لمعرفة ما قسم للشَّخص، وقد حرَّمَ الله تعالى الاستقسام بها)، وكان كهفاً للمنافقين، وأنه كان في الجاهلية زنديقاً.

وفي خبر عبد الله بن الزبير، أنه رآه يومَ اليرموك، قال: «فكانت الروم إذا ظهرت (= أي مالت كفة المعركة لصالح الروم) قال أبو سفيان: إيهٍ بني الأصفر، فإن كشفهم المسلمون (= أي مالت كفة المعركة لصالح المسلمين) قال أبو سفيان: وبنو الأصفر الملوكُ ملوكُ الروم لم يبق منهم مذكورُ، فحدَّثَ به ابن الزبير أباه، فلما فتح الله على المسلمين، فقال الزبير: قاتلَهُ الله يأبى إلا نفاقاً، أولسنا خيراً له من بني الأصفر»[2].

---

(1) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص43 - 52.
(2) المصدر السابق، ص53 - 54.

موقف أبي سفيان لحظة وصول عثمان إلى السُّلطة

وروي عن الحسن أنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعَدي، فأدِرها كالكرة، وفي رواية، فتزقَّفوها تزقُّف الكرة (= تلقفوها)، واجعل أوتادَها بني أمية، فإنما هو المُلك، وما أدري ما جنة ولا نار، فصاحَ به عثمان: قم فعلَ اللهُ بكَ وفعل. وأبو سفيان هذا هو أبو معاوية، ولم يزل بعد إسلامه يُعَدُّ هو وابنه معاوية من المؤلفة قلوبهم[1].

أقول: بهذه الكلمة التي قالها أبو سفيان، يكون أبو سفيان هو أول من أوحى لبني أمية بفكرة توارث السُّلطة، وحصرها في بني أمية، وهي الفكرة التي حاول معاوية بعد ذلك فرضها على واقع المسلمين، من خلال توريث السُّلطة - لأول مرة في تاريخ المسلمين - لابنه يزيد، وهو انقلاب بني أمية الكبير على قريش والمسلمين عموماً، وهو ما سيؤدي بالنتيجة إلى حدوث واقعة كربلاء[2].

8. معاوية بن المغيرة بن العاص بن أمية: وهو الذي جدَعَ أنف حمزة، ومثَّل به فيمن مثَّل، فلما انهزمَ يومَ أحد دخلَ على عثمانِ بن عفان ليُجيرَهُ، وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله

(1) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص56.

(2) هنا ثمة سؤال قد يطرح: إن كان بنو أمية كما وصفنا، وكان أبو سفيان على هذا النحو من العتو والطغيان، فكيف يتزوج الرسول صلى الله عليه وآله من ابنته رملة (= أم المؤمنين أم حبيبة)؟
الجواب: أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، يبدو أنها أيضاً من الحالات الاستثنائية من بني أمية، أمها صفية (وليست هنداً، فهي أخت معاوية - الذي كان يفخر بأنه خال المؤمنين - ولكن من أم أخرى)، أسلمت قبل الهجرة (وليس بعد فتح مكة كما فعل أبو سفيان وابنه معاوية)، وكانت زوجة عبيد الله بن جحش الذي أسلم وهاجر إلى الحبشة، فهاجرت معه، لكنه تنصر في الحبشة، فانفصلت عنه، وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بثباتها على الإسلام، وأنها باقية هناك بلا معيل، وإذا رجعت إلى أبيها في مكة وأصرت على الإسلام فلا بد أن تتعرض لأشد أنواع المصاعب والبلاءات من أبيها، فوكل خالد بن سعيد بن العاص (ابن أبي أُحيحة) ليزوجها له سنة 6هج، فتزوجها صلى الله عليه وآله، ويقال أن النجاشي هو الذي تكفل بدفع مهرها. وعندما أوقعت قريش بخزاعة ونقضت عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، خاف أبو سفيان فجاء إلى المدينة ليجدد العهد، فدخل على أم حبيبة، فلم تتركه يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالت: أنت مشرك. وثمة قصة تنقل عن أم حبيبة قد تعطي انطباعاً سلبياً عنها، لا أريد الآن أن أصدر أحكاماً، لكن في حدود المعلومات المتوافرة لدي يمكن القول إن أم حبيبة لم يكن لها مواقف سلبية كبيرة وأخطاء قاتلة، مقارنة بغيرها، فالتواريخ - في حدود اطلاعي - لم تذكر لنا مثلاً أنها اصطفت مع أخيها معاوية في صفين، أو أنها استقوت به بعد أن قويت شوكته، أو أنها خرجت من بيتها لأي حرب من الحروب.

قد أمرَ بطلبِهِ، فأُخرِجَ من دارِ عثمان، وأُتيَ بِهِ رسول الله صلى الله عليه وآله فوهبَهُ لعثمان وأقسم صلى الله عليه وآله لئن وجدَهُ بعدَ ثلاثٍ بالمدينةِ وما حولَها ليُقتلَن، فجهَّزَهُ عثمان، وسارَ في اليوم الرابع، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: إنَّ معاويةَ أصبحَ قريباً لم ينفُذ فاطلبوهُ واقتلوهُ، فأصابوهُ، فأخذَهُ زيدُ بن حارثة وعمَّار بن ياسر فقتلاه، وقيل بل قتلَهُ علي عليه السلام.

ومعاوية هذا أبو عائشة، أمّ عبد الملك بن مروان بن الحكم، الذي سيصبح خليفة على المسلمين، فعبد الملك بن مروان أعرقُ الناسِ في الكفر، لأنَّ أحد أبويهِ هو الحكمُ بن أبي العاص، لعينُ رسول الله صلى الله عليه وآله وطريدُهُ، والآخر معاوية بن المغيرة[1].

9. حمَّالة الحطب أم جميل بنت حرب بن أمية: كانت تحمِل الشَّوك فتطرَحُه على طريقِ رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم تزل على كُفرِها حتى هلَكت[2]. وهي كما أشرنا سابقاً، أخت أبي سفيان، وعمَّة معاوية.

ثم يقول المقريزي بعد ذكر السِّيرة الذاتية لأبرز شخصيات بني أمية: «وما أحدٌ من هؤلاءِ الذينَ تقدمَ ذكرُهُم إلا وقد بذلَ جهدَهُ في عداوةِ رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالغَ في أذى من اتبعَهُ وآمنَ بهِ ونالوا (يعني المسلمين) منهُم من الشتمِ وأنواعِ العذاب، حتى فرُّوا منهم مهاجرين إلى بلادِ الحبشة، ثم إلى المدينة، وأُغلِقت أبوابُهم بمكة، فباعَ أبو سفيان بن حرب دُورَهم وقضى من ثمنِها ديناً عليه، وهمُّوا بقتلِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله غير مرَّة، وتناظروا في أمرِهِ ليخرجوهُ من مكة أو يقيدوهُ ويحبِسوهُ حتى يهلَك أو ينَدُبوا لقتلهِ من كلّ قبيلةٍ رجُلاً حتى يتفرق دمُهُ بين القبائل، وبالغَ كلُّ أحدٍ منهم في ذلِكَ بنفسهِ ومالهِ وأهلهِ وعشيرتهِ، ونصبَ لرسولِ الله صلى الله عليه وآله الحبائل بكلّ طريق سرّاً وجهراً ليقتُلَهُ. . . . كلّ ذلك حسداً منهم لرسولِ الله وبغياً، ويأبى اللهُ إلا تأييدَ رسوله صلى الله عليه وآله وإعلاءَ كلمتهِ حتى صدَقَ اللهُ وعدَهُ، ونصرَ عبدَهُ، وأعز جندَهُ، وهزمَ الأحزاب وحدَهُ، وظهرَ أمرُ الله وهم كارهون. . . . . ولله دَرُ القائل:

عبدُ شمسٍ قد أضرمت لبني ها ... شمَ حرباً يشيبُ منها الوليدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى وابنُ هندٍ ... لعليٍ وللحسينِ يزيدُ»[3]

(1) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص56 - 57.
(2) المصدر السابق، ص57.
(3) المصدر السابق، ص58 - 59.

بنو عبد شمس وبنو نوفل لا يستحِقُّون الخُمس

ثم يتحدَّث المقريزي عن إبعاد رسول الله صلى الله عليه وآله لبني أمية عنه، وإخراجهم من ذوي قرباه، ويروي عن صحيح البخاري وغيره أكثر من رواية، تؤكِّد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أراد تقسيم الخمس، أعطى لبني المطلب وبني هاشم، ولم يقسم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل.

ويروى عنه صلى الله عليه وآله قوله: إنَّا (بنو هاشم) وبنو المطلب لا نفترق في جاهليةٍ ولا إسلام، وإنما نحنُ وهم شيءٌ واحدٌ، وشبكَ بين أصابعهِ. وفي رواية أخرى: إنَّا وهُم لم نزل في الجاهليةِ والإسلام شيئاً واحداً، وكانوا معنا في الشِّعب (= شعب أبي طالب) كذا، وشبكَ بين أصابعهِ[1].

بين معركة بدر وواقعة كربلاء

هنا نستطيع أن نفهم العبارات وأبيات الشِّعر المنقولة عن يزيد بن معاوية. يقول المؤرِّخون وأصحاب المقاتل: عندما وصل موكب السَّبايا إلى الشَّام أنشأ يزيد يقول:

لما بدَت تلكَ الحُمول وأشرقَت ... تلكَ الرُّؤوس على شفا جيرون[2]

نعبَ[3] الغرابُ فقلتُ: صِح أو لا تصِح ... فقد قضيتُ من الرَّسولِ دُيوني

ومن هُنا حكم ابن الجوزي والقاضي أبو يعلى والتفتازاني والجلال السُّيوطي بكُفر يزيد ولعنهِ.

وعندما وُضِعَ رأسُ الحسين عليه السلام الشريف أمامَ يزيد، جعلَ ينكُت (= يضرب أو ينقر) ثغرَ (= أسنان) الحسين عليه السلام ويقول: يومٌ بيومِ بدر.

وأنشدَ قولَ الحصين بن الحمام:

أبى قومُنا أن ينصفونا فأنصفَت ... قواضبُ في أيمانِنا تقطرُ الدِّما

---

(1) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص60 - 62.

(2) زقاق قديم في دمشق يؤدِّي إلى الجامع الأموي وقصر يزيد من جهة الشَّرق.

(3) صوت صياح الغراب. كان العرب يتشاءمون من نعيب الغراب، وعندما وصل موكب السَّبايا ورأى يزيد الموكب، صودف ذلك - على ما ينقل - مع سماعه للغربان تنعب، فأراد يزيد أن يقول للغربان: لا تحاولي إثارة تشاؤمي بسبب قتلي للحسين عليه السلام لأني قضيت من رسول الله صلى الله عليه وآله ديوني، وتشفيت منه.

صبرنا وكانَ الصبرُ منا عزيمةً ... وأسيافُنا يَقْطَعن كفّاً ومعصماً

نفلقُ هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال يحيى (أو عبد الرحمن) بن الحكم بن أبي العاص (أخو مروان) وكان جالساً عنده:

لهامٍ بجنبِ الطف أدنى قرابةً ... من ابنِ زياد العبد ذي الحسبِ الوغلِ[1]

سميةُ أمسى نسلُها عددَ الحصى ... وليس لآلِ المصطفى اليومَ من نسلِ

فضربَهُ يزيد على صدرهِ وقال: اسكُت لا أُمَّ لك.

ويقول المؤرخون إنَّ يزيد عندما كان ينكت ثنايا الحسين عليه السلام بقضيبه، تمثَّل بأبيات ابنُ الزِّبَعرى. . . . لكن من هو ابنُ الزِّبَعرى؟

هو عبد الله بن الزِّبَعرى بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين، أنشد قصيدةً طويلة بعد معركة أُحد - بعدما تشفَّت قريش نسبياً مما جرى لها في بدر - وردَّ عليه حسَّان بن ثابت بقصيدة. ونقل القصيدتان ابن هشام في سيرته، جاء فيها:

يا غُرابَ[2] البين أسمعتَ فقُل ... إنما تنطِق شيئاً قد فُعِل

كم قتلنا من كريمٍ سيدٍ ... ماجدِ الجدَّين مقدام بطل

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزَعَ الخزرجِ من وقعِ الأسل[3]

وزاد يزيد بن معاوية عليها:

لأهلوا واستهلوا فرَحاً ... ثم قالوا: يا يزيد لا تُشَل

لستُ من خِندِفَ[4] إن لم أنتقِمْ ... من بني أحمدَ ما كانَ فعل

(1) الوغل: المدعي نسباً كاذباً.

(2) لأنه ينقل أن الغربان بدأت تنعق عندما وصلت رؤوس الشهداء، وصوت الغراب إشارة على التشاؤم آنذاك.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص126 - 127، أنظر أيضاً: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص342. أنظر أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص360 - 361.

(4) خندف امرأة إلياس بن مُضر بن نزار، واسمها ليلى، نُسبَ ولَدُ إلياسَ إليها، وهي أمهم. والخندفة: الهرولة والإسراع في المشي، وربما عنى يزيد بذلك إسراعه في حسم موضوع الحسين عليه السلام، لأنهما معاً من قريش، وقريش تنتهي إلى مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، والله أعلم.

لعبت هاشمُ بالمُلكِ فلا خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نزل
قد أخذنا من عليٍّ ثأرنا وقتلنا الفارسَ الليثَ البطل
وقتلنا القرمَ من ساداتِهم وعدلناهُ ببدرٍ فاعتدل[1]

وابن أعثم في الفتوح والخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق وابن أبي الحديد المعتزلي وابن عبد ربه في العقد الفريد. . .كلهم ذكروا تمثُّل يزيد لأبيات ابن الزِّبَعرى.

وردَّت عليه زينب في خطبتها فكان مما قالت: . . . . ثم تقولُ غير متأثِّم ولا مستعظم:

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشل

. . .أتهتفُ بأشياخِك؟ زعمتَ تُناديهم، فلترِدنَّ وشيكاً موردِهم، ولتودَّن أنك شللتَ وبكمتَ ولم تكن قلتَ ما قلت. . .

الخلاصة: تحدَّثنا عن معركة بدر، وكيف تفجَّرت كراهية قريش تجاه بني هاشم، وتجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وحمزة على وجهِ التحديد، وكيف نشأت عُقدة نفسيَّة عند قريش عموماً، وأبي سفيان على وجه الخصوص، تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وحمزة، كما استعرضنا أهم شخصيات بني أمية ودورها المعادي للإسلام، ثم ربطنا أخيراً بين معركة بدر وواقعة كربلاء.

في الفصل القادم، سوف نتناول أحداث ما بعد معركة بدر، ومحاولة قريش تصفية حسابها مع بني هاشم.

(1) الخوارزمي، **مقتل الحسين**، ج2، ص65 - 66. وتذكر بعض المصادر أنَّ يزيد تمثَّل مرة أخرى بهذه الأبيات بعد واقعة الحرَّة واستباحة المدينة ثلاثة أيام وتشفيه من الأنصار، وخصوصاً الخزرج!!

(3)

ما بعد معركة بدر حتى غدير خم

تحدَّثنا في الفصل السابق عن معركة بدر، وقلنا بأنَّ هذه المعركة كانت حاسمة في تاريخ المسلمين، وأنها ولَّدت عُقدة داخل نفوس القرشيين عموماً، وداخل نفوس بني أمية خصوصاً، تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وتجاه علي عليه السلام وتجاه حمزة. وأنَّ قريشاً كانت تتحيَّن الفُرصة لتأخذ بثأرها وتمسح العار الذي لحق بها، جرّاء مقتل أكثر من (70) من ساداتها، وأسر (70) آخرين، في مقابل (14) شهيداً من المسلمين.

تهييج الناس على الإمام علي عليه السلام

معركة بدر التي أبلى فيها الإمام علي عليه السلام بلاءً حسناً، وفعل مع عمِّهِ حمزة بقريش الأفاعيل، كان يُفترض أن تبقى نقطة قوة له في سجِلِّهِ، ونقطة بيضاء ناصعة ومضيئة في سيرتهِ، لكن بعضهم كان يحاول أن يُحسِّن صورته الاجتماعية على حساب الإمام علي عليه السلام . . . . كان يحاول أن يتقرَّب بعد فتح مكة إلى قريش على أساس أنه لم يفعل بهم ما فعل الإمام علي عليه السلام بهم، ولم يتورَّط في سفك دمائهم كما فعل الإمام علي عليه السلام، مستفيداً لتعزيز موقعه الاجتماعي من الحقد والغل المختزن في قلوب قريش تجاه الإمام علي عليه السلام.

ينقل الشيخ المفيد، والواقدي وابن هشام بألفاظ قريبة، واللفظ للأول، أنَّ عثمان بن عفان مرَّ بسعيد بن العاص فقال: انطلق بنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نتحدَّث عنده، فانطلقا، قال: فأما عثمان فصارَ إلى مجلسه الذي يشتهيه، وأما أنا فملتُ في ناحيةِ القوم.

فنظرَ إليَّ عمر وقال: ما لي أراكَ كأنَّ في نفسِكَ علي شيئاً؟ أتظنُّ أني قتلتُ أباك؟ واللهِ لودَدتُ أنِّي كنتُ قاتِلهُ، ولو قتلتُهُ لم أعتذِر من قتلِ كافرٍ، لكنني مررتُ به يوم بدرٍ فرأيتُهُ يبحثُ للقتال كما يبحثُ الثورُ بقَرنِهِ، وإذا شِدقاهُ (= الشدق جانب الفم مما تحت الخد) قد أزبدا كالوزغ، فلما رأيتُ ذلك هِبتُهُ ورُغتُ عنه، فقال: إلى أين يا ابنَ الخطاب؟ وصمدَ له عليٌّ فتناولَهُ، فوالله ما رِمتُ مكاني حتى قتلهُ.

قال: وكان علي عليه السلام حاضِراً في المجلس، فقال: اللهم غَفراً، ذهبَ الشِّركُ بما فيه، ومحا الإسلامُ ما تقدَّمَ، فما لكَ تُهيّج الناس؟

فكَفَّ عُمر

قال سعيد: أما إنَّهُ ما كانَ يسُرُّني أن يكونَ قاتلُ أبي غيرَ ابنَ عمهِ علي بن أبي طالب[1].

وفي رواية يرويها الصَّدوق عن علي بن الحسن بن فضَّال، عن أبيه، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: سألتُهُ عن أمير المؤمنين عليه السلام، كيف مالَ الناسُ عنهُ إلى غيرِهِ، وقد عرفوا فضلَهُ وسابقتَهُ ومكانَهُ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام: «إنما مالوا عنهُ إلى غيرهِ - وقد عرفوا فضلَهُ - لأنَّه قد كان قتلَ من آبائهم وأجدادِهم وإخوانِهم وأعمامِهم وأخوالِهم وأقربائهم المحادِّينَ لله ولرسولِهِ عدداً كثيراً، وكان حقدُهُم عليه لذلك في قلوبِهم، فلم يُحِبُّوا أن يتولَّى عليهم، ولم يكن في قلوبِهم على غيرهِ مثلُ ذلك، لأنَّهُ لم يكن له في الجهاد بين يدي رسولِ الله صلى الله عليه وآله مثل ما كانَ له، فلذلِكَ عدلوا عنهُ ومالوا إلى سواه»[2].

ما بعد بدر

على أيِّ حال، سمَّى الله سبحانه وتعالى يوم بدر بـ «يوم الفرقان»، وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم في بدر أن سمَّوا كل من شهدها من المسلمين «بدرياً»، وكانوا يعتزُّون بهذه التَّسمية ويفخرون. وأجواء هذا الانتصار هيأت الظروف ليواجهوا بعد ذلك قسماً من يهود المدينة (بنو قينقاع في 2هج)، الذين شعروا بالقلق من تعاظم قوة المسلمين[3].

معركة أحد (3هج)

في (3هج) اجتمع حول أبي سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش، فخرجَ بهم يريدُ

---

(1) المفيد، الإرشاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط1، 1416هج - 1995م، بيروت، ج1، ص75 - 76. نقل الواقدي ذلك في المغازي بألفاظ قريبة، أنظر: الواقدي، المغازي، ج1، ص92، كما نقل ابن هشام ذلك في السيرة النبوية بألفاظ قريبة، أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص252. والواقدي في نهاية سرده لهذا الحوار بين عمر وسعيد، ذكر أنَّ عمر قال: قريشٌ أعظمُ الناس أحلاماً، وأعظمها أمانة، لا يبغيهم أحدٌ الغوائل، إلا كبَّه اللهُ لفيهِ!! أقول: لا أدري من المقصود بهذا الكلام؟ ومن الذي يبغي قريشاً الغوائل؟ علي عليه السلام؟ أم الخزرج؟ أم الأنصار؟ أم كل من قاتل قريشاً في بدر وأحد من المسلمين وقتل منهم؟!

(2) المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2، 1403هج - 1983م، بيروت، ج29، ص280 - 281، رقم 2، عن علل الشَّرائع وعيون أخبار الرِّضا عليه السلام للصَّدوق.

(3) فيما يتعلق بأمر بني قينقاع، راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص42 - 45.

المدينة، لتدرك ثأرها لقتلى بدر، واصطحب معه القِيان (جمع قينة = المغنية) ومعهم المعازف والخمر. فلما سمعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله بهم، استشار المسلمين بشأن الخروج لمواجهة قريش أو البقاء في المدينة والدفاع عنها، فأشار عبد الله بن أبي بن سلول بالبقاء فيها، وألحَّ بعض الصحابة على الخروج لمواجهة قريش، فدخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيته ولبسَ لأمة الحرب، وخرج ومعه المسلمون. وفي الطريق انسحب عبد الله بن أبي مع ثلث جيش المسلمين، وواصل رسول الله صلى الله عليه وآله طريقه مع من بقي معه باتجاه جبل أحد[1].

ووصل المشركون، وبدأت المعركة، وكان على رأس المشركين أبو سفيان، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وكانت هند بنت عتبة في النُّسوة اللاتي معها، أخذنَ بضرب الدُّفوف خلفَ الرِّجال، يُحرِّضنهم ويذكِّرنهم قتلى بدر.

ولما رأى المسلمون تقهقر المشركين، أهمل الرُّماة وصية رسول الله صلى الله عليه وآله إياهم بالثبات في مواقعهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فانتهز خالد الفرصة، والتفَّ على المسلمين، فاختلَّ نظامهم. في هذه اللحظة تخاذل المسلمون واستولى اليأس على قلوب فريق منهم، باستثناء قلة قليلة، كالإمام علي عليه السلام وحمزة وأبي دُجانة وسهل بن حُنيف وعاصم بن ثابت، وفرَّ الباقون من أرض المعركة[2]، حتى فكَّر بعضهم في الارتداد عن

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص55 - 59. راجع أيضاً: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب قسم الفيء، ح2588، ص164.

(2) ينقل ابن هشام في سيرته أن أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - انتهى إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يُجلِسُكُم؟ فقالوا: قُتِلَ رسولُ الله، قال: فماذا تصنعونَ بالحياةِ بعدَهُ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتِل. أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص76، أنظر أيضاً: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص280. في المقابل، ينقل ابن هشام: نادى منادٍ يوم أحد «لا سيف إلا ذو الفقار، لا فتى إلا عليّ». أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص92.

وينقل الواقدي عن خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جالوا وانهزموا يوم أحد، وما معه أحد، وإني لفي كتيبة خشناء، فما عرفه منهم أحدٌ غيري، فنكبت عنه وخشيتُ إن أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجهاً إلى الشِّعب. أنظر: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص237. ويذكر الواقدي أسماء سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد، ليس فيهم عمر بن الخطاب، ولا عثمان بن عفان. أنظر الواقدي، **المغازي**، ج1، ص240. ويذكر الواقدي أسماء من فرَّ من المعركة، فيقول «وكان ممن ولّى فلان»، ثم يذكر المحقق في الهامش أن ثمة نسخة أخرى لمغازي الواقدي فيها اسم «عمر وعثمان». أنظر: الواقدي، **المغازي**، ص277. وينقل الواقدي في المغازي عدة روايات تؤكد فرار عثمان بن عفان يوم أحد. أنظر: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص278 - 279.

الإسلام فقال: ليتَ لنا رسولاً إلى عبدِ الله بن أُبَي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان[1].
ويصف القرآن هذا الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ (= تخمدون حسّهم في بداية المعركة) حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم (= أمر الرَّسول في الثبات في المواقع) مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ (= ووكلكم إلى أنفسِكم) لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ (تبعدون في الأرض هاربين) ولا تلون (= تلتفتون) على أحدٍ والرَّسولُ يدعوكم في أُخراكُم (= يناديكم من ورائكم) فأثابكم غماً بغمٍ لكيلا تحزنوا على ما فاتَكم (= من الغنائم) ولا ما أصابَكُم (= من الجراحات) وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ (= هل لنا من النَّصر الموعود نصيب بعد هذه الهزيمة؟) قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم (= من الشك) مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا (= لو كان لنا من النَّصر نصيب كما وُعِدنا ما قُتِلَ أصحابُنا بهذا النحو!) قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ (= من حبِّ الدُّنيا وغيرها من الذنوب) وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾[2].

مع هروب عددٍ كبير من المسلمين من أرض المعركة، انتشرَ خبر مقتل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت هذه الشَّائعة سبباً لنجاة رسول الله صلى الله عليه وآله من أيدي المشركين، لأنَّ قريش ظنَّت أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قد قُتِل[3]، وانتهى أمرُ الإسلام.

وعندما ظهر لقريش أنَّ الأمرَ ليس على ما يظُنُّون، وعلِمَ المسلمون بأنَّ قريش تستعد لحربٍ جديدة، وجدوا أنَّ قسماً ثانياً من يهود المدينة (بنو النضير) بات يُضعضِع الجبهة الدَّاخلية عندما تآمروا لقتل رسول الله صلى الله عليه وآله، فتمَّ التخلص من هذا القسم سنة (4هج).

---

(1) **السيرة الحلبية**، ج2، ص227.

(2) سورة آل عمران، الآيات: 152 - 155.

(3) اعتماداً على إخبار ابن قميئة الليثي، أنظر: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص337. وانسحبت قريش لأنها اكتفت بتحقيق هذا النصر، الذي قد يتحول إلى هزيمة، لأنه بلغهم أن ناساً من الأوس والخزرج قد تخلفوا، وقد يكرون عليهم، وفيهم جراح، وخيلهم عامتها قد عُقرت من النبل. أنظر شرح عمرو بن العاص لأسباب انسحابهم: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص229.

لكن قبل أن نترك معركة أُحُد، أرى من المفيد الالتفات إلى النقاط التالية:

1 - نتيجة معركة أُحُد وإن شفَت نسبياً الحقد والغضب المختزن في قلوب القرشيين، إلا أنّها فتحَت جروحاً جديدة، ورسَّخت أحقاداً تركَّزت هذه المرَّة على الإمام علي عليه السلام. أولاً: لكونه أبلى بلاء حسناً ولم يفرّ من أرض المعركة قط، وظلَّ يواصل القتال حتى اللحظة الأخيرة. وثانياً: لأنَّ النصيب الأكبر من قتلى كفار قريش في أُحُد كان على يد الإمام علي عليه السلام أيضاً، فإن كان عدد من قتل من قريش في أُحُد 22 قتيلاً - كما ينقل ابن هشام في سيرته[1] - وقتلى الإمام علي عليه السلام وحدَهُ 6، فهذا يعني أنَّ علياً عليه السلام قتلَ وحدَهُ ما نسبته 27 % من مجموع قتلى قريش، وهي نسبة وإن لم تصل إلى نسبة قتلى بدر، لكنها نسبة عالية على أيِّ حال. وثالثاً: لأنَّ قتلى الإمام علي عليه السلام يُعتبرون من أبطال قريش، ويكفي أن نعرف أنَّ من بين قتلاه في أُحُد طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين، وكبش الكتيبة الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وآله في رؤيا قبيل المعركة (راجع الملحق رقم 2).

2 - هذا الحقد المتراكم في قلوب القرشيين تجاه الإمام علي عليه السلام، ابتداء من مبيتهِ عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة والتسبُّب - في نظرهم - في نجاة رسول الله صلى الله عليه وآله، مروراً بالصَّاعقة التي وقعت على رُؤوسِهم في معركة بدر، وانتهاء الآن بمجريات معركة أُحُد.. . كله سيلقي بظلالِهِ على واقعة كربلاء، وكأنَّ قريش كانت تنتظر لحظة تاريخية لكي تُصفّي حسابها - وبشكل نهائي - مع الإمام علي عليه السلام، فكانت واقعة كربلاء.

3 - بعد معركة أُحُد، بدأت قريش بالتشفِّي شعراً من المسلمين، فكان منها تلك الأبيات التي أنشدها عبد الله بن الزِّبَعرى بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم، والتي جاء فيها:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزَعَ الخزرجِ من وقعِ الأسل[2]

وسنرى بعد كربلاء، أنَّ يزيد تمثَّل الأبيات نفسها، ثم زاد عليها:

لأهلوا واستهلوا فرَحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تُشَل[3]

وهذا شاهد إضافي على أنَّ فاجعة كربلاء هي امتداد لمعركتي بدر وأحد.

---

(1) أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص90 - 91.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص126 - 127، أنظر أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص361 - 362.

(3) الخوارزمي، مقتل الحسين، ج2، ص65 - 66.

4 - ابتدعت قريش قبيل وبعيد معركة أُحُد سُنَّة جديدة لم تكن مألوفة، وهي التفكير الجاد في نبش القبور والتعرُّض للحُرَم، والتمثيل الفعلي بأجساد القتلى. وكان لهند بنت عتبة (أمُّ معاوية وجدة يزيد) النصيب الأكبر في هذه السُّنة القبيحة، التي سوف تتكرَّر من جديد في كربلاء.

يذكر الواقدي في مغازيه: «وكانت قريش لما مرَّت بالأبواء (في طريقها إلى أُحُد) قالت: إنكم خرجتم بالظُّعن معكم، ونحنُ نخافُ على نسائِنا، فتعالوا ننبش قبر أمّ محمَّد، فإنَّ النِّساء عورة... واستشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا»[1].

ويذكر ابن هشام في سيرته: «ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها، يُمثِّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يجدعن الآذان والأنف، حتى اتَّخذت هند من آذان الرِّجال وآنفهم خدماً وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً، وبقرَت كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها[2].

.... وجاء أبو سفيان، وضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزجّ الرُّمح، وهو يقول: ذُق عُقَق (= يا عاق). ثم إنَّ أبا سفيان حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: إنَّ الحربَ سجال، يومٌ بيوم بدر»[3].

الواقدي في مغازيه: «وكانت هند أول من مثَّل بأصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وأمرت النِّساء بالمَثل - جدع الأنوف والآذان - فلم تبق امرأة إلا عليها معضدان ومسكتان وخدمَتان، ومُثِّلَ بهم كلهم إلا حنظلة»[4].

ويروي الواقدي ما فعلت هند بكبد حمزة فيقول: «فمضغتها ولفظتها... قطعت مذاكيره، وجدعت أنفه، وقطعت أذنيه، ثم جعلت مسكتين ومعضدين وخدمَتين، حتى قدِمَت بذلك مكة، وقدِمَت بكبدِهِ معها»[5].

---

(1) الواقدي، المغازي، ج1، 206.
(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص83 - 84.
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص85 - 86.
(4) الواقدي، المغازي، ج1، ص274.
(5) الواقدي، المغازي، ج1، ص286. أنظر أيضاً: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص342. وللتعرف أكثر على دور حمزة في أحد وشدة تأثر رسول الله صلى الله عليه وآله عند شهادته، راجع: الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج2، كتاب الجهاد، ح2548، ص149، ح2557، ص152 - 153، ح2558، ص153.

هذه الصُّورة البشعة، ستتكرر عندما يأمر عبيد الله بن زياد (المنسوب إلى أبي سفيان) بأن ينتدب من يطأ بفرسِهِ صدر الحسين عليه السلام، ويقطع رؤوس الشُّهداء، ويتعرَّض لحُرَم الحسين عليه السلام.

ولادة الإمام الحسين عليه السلام (4 هج)

في هذه السنة بالتحديد (4 هج) وُلِدَ الإمام الحسين عليه السلام، وتواتر الحديث المروي عن الإمام عليٍ عليه السلام وأمّ سلمة وزينب بنت جحش وعائشة وأم الفضل بنت الحارث وابن عباس وأنس بن مالك وأبي الطفيل ومعاذ بن جبل وأنس بن الحارث وجابر بن عبد الله الأنصاري - مع فروق طفيفة - بأنَّ بعضهم دخل منفرداً على رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى عينيهُ تفيضان، فسأله: يا نبيَّ الله أغضَبَكَ أحَد ما شأنُ عينيكَ تفيضان؟ قال: قامَ من عندي جبرئيل قبل فحدَّثني أنَّ الحسين يُقتَل بشَطِّ الفُرات، فقال: هل لكَ إلى أن أُشِمَّكَ من تربتِهِ؟ قلتُ: نعم، فمدَّ يدَهُ فقبضَ قبضةً من تُرابٍ فأعطانيها فلم أملِك عيني أن فاضتا[1].

وتواتُر هذا الحديث يدلُّ على أنَّهُ كان من الشائع عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّ الإمام الحسين سيُقتل شهيداً وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعنَ قاتليه.

المنافقون يُهيِّجون الفتنة

وفي هذه المرحلة وقعت غزوة بني المصطلق (أو المريسيع)[2]، وبرز جلياً دور المنافقين - وبالتحديد عبد الله بن أبي بن سلول - في تأجيج الفتنة بين المهاجرين والأنصار، بعدما وقع نزاع بين رجُلٍ من الأنصار وآخر من المهاجرين، فنادى الأول: يا معشر الأنصار، ونادى الثاني: يا معشر المهاجرين.

فاستغلَّ عبد الله بن أبي هذه الحادثة فوراً، وحرَّض الأنصار على المهاجرين، قائلاً: أوقد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلُنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمِّن

---

(1) وقد روى عدد كبير من محدثي أهل السُّنة، بأسانيد صحيحة، حوادث متعدِّدة (وليس حادثة واحدة فقط) تتحدَّث عن بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله على الحسين عليه السلام إلى درجة أنَّ بعض مُتشدِّديهم المتأخرين اعترف بصحة بعضها، كالألباني مثلاً. وروى هذه الحوادث الحاكم في مستدركهِ على الصحيحين، والإمام أحمد بن حنبل في مسندهِ، وابن عساكر وابن سعد والطبراني والدارقُطني وغيرهم. راجع في هذا الشأن: عبد الحسين الأميني، سيرتنا وسنتنا، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط2، 2006، أيضاً راجع: أحمد الماحوزي، بكاء الرسول على الحسين عليه السلام، مكتبة الحسينية الجديدة، الكويت، 2005.

(2) منطقة بجنوب المدينة.

كلبَك يأكُلك. هذا ما فعلتم بأنفُسِكم، أحللتُموهم بلادَكم، وقاسمتوهم أموالكُم، ووقيتُموهم بأنفسِكم، وأبرزتم نُحورَكم للقتل، فأرمَل (محمد) نساءَكُم وأيتمَ صبيانكم. . . . .أما واللهِ لئن رجَعنا إلى المدينةِ ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذل. (ونزلت سورة المنافقون لتُسجِّل هذه الحادثة المهمة)[1].

لاحظ هنا أنَّ هذا المنافق جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وكأنَّهُ زعيم المهاجرين، ليتزعَّم بدوره هو الأنصار! مستفيداً من التوجُّس الذي كان يراوِدُ الأنصارَ دائماً من أنَّ المهاجرين سينقلبون عليهم يوماً ما، ولن يُقدِّروا لهم تضحياتهم. فرغم وجود تناقض داخلي بين الأوس والخزرج، لكن ما يجمَعُهُم أمام المهاجرين العدنانيين القرشيين، أنَّهم من قحطان (رغم أنَّ المهاجرين ليسوا كلهم من قريش العدنانية).

معركة الأحزاب (5هج)

بعد أن اتَّضح لقريش أنَّ جذور الإسلام ما زالت باقية، وعادت لتنمو من جديد، لم يأت عام (5هج) إلا وكانت على أهبة الاستعداد لحربٍ جديدة، بالتنسيق هذه المرَّة مع غطفان وأعراب كنانة وتهامة، وبالتنسيق أيضاً مع القسم الثالث من يهود المدينة (بنو قريظة) الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله. فقاد أبو سفيان الحرب الثالثة على المسلمين التي سُمِّيت بـ «معركة الأحزاب» (= أو الخندق)[2]، وكان عدد جيشه يربو على عشرة آلاف مقاتل[3]، وهو عددٌ هائل لم تشهده الجزيرة من قبل.

ونريد هنا التركيز على ضربةِ الإمام علي عليه السلام يوم الخندق لعمرو بن عبد وُدّ العامري، الذي كان يُعدُّ بألف فارس، والذي كان قد جُرِحَ في بدر وحرَّم على نفسهِ الدُّهن حتى يثأر من محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه. . . . هذه الضَّربة زادت من عقدة قريش وحقدها على الإمام علي عليه السلام، وخصوصاً عندما نتذكَّر مجريات التحدِّي، عندما قال للمسلمين: «هل من مُبارِز؟ . . . . .إنَّكُم تزعُمونَ أنَّ قتلاكُم في الجنَّةِ وقتلانا في النار، أفما يُحِبُّ أحدَكُم أن يقدِم على الجنَّةِ أو يُقدِم عدواً لهُ إلى النار؟» وكيف أنَّ المسلمين أحجموا عن مبارزته باستثناء الإمام علي عليه السلام الذي تصدَّى له وقضى عليه[4].

---

(1) أنظر: الواقدي، **المغازي**، ج1، ص415 - 416، أيضاً ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص439 - 440. لاحظ أنَّ عبد الله بن أبي من الخزرج.

(2) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص393.

(3) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص397.

(4) لمعرفة تفاصيل الحادثة، أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص204، والواقدي، **المغازي**، =

وانتهت المعركة دون أن تجني قريش شيئاً، وذلك بعد أن طالَ أمد الحصار ونقصت المؤونة، وساءت الأحوال الجوية فاشتدَّ الرِّيح والبرد، وبدأت تصدُر أوامر متناقضة من قادة الأحزاب، فدبَّ الخلافُ بينَهم، وانفرَط عقدُ التحالف. وأعطت هذه المعركة مبرِّراً كافياً للمسلمين لوضع حد لوجود بني قريظة في المدينة فأجلوهم عنها، وبذا خلت المدينة من اليهود، ولم يتبقَّ إلا فلول لهم في أطرافها، بالخصوص في خيبر. وما جاء عام (7هج) إلا وقد تخلَّص المسلمون من وجودهم أيضاً في المناطق المحيطة بالمدينة.

يقول تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ (= الأحزاب وعلى رأسهم قريش) ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ (= شمال المدينة، ربما إلى الشمال الغربي أقرب) ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (= يهود بني قريظة جنوب المدينة، وربما إلى الجنوب الشرقي أقرب) ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾ (= مالت) ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ (رعباً) ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ (فزعاً) ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (= بأنَّ الإسلام سيمحق والجاهلية ستعود)، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ (= كذباً وخداعاً بأنَّ المسلمين سيفتحون مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء).... ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ (كحمزة بن عبد المطلب) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ (كعلي عليه السلام) ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.... ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾ (= لم يُحقِّقوا الحدّ الأدنى من النَّصر على الرَّسول والمؤمنين) ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (= بالرِّيح والملائكة وعليّ عليه السلام عندما قتل عمرو بن عبد ود) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم ﴿٢٦﴾﴾ (= عاونوا الأحزاب) ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (= يعني بالتحديد يهود بني قريظة) ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ (= حصونهم المنيعة) ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (الأحزاب، 10 – 26).

= ج1، ص470 – 471، وفيه أنَّ عمرو بن عبد ود حينما صاح بالمسلمين قال لعلي عليه السلام: «فأنت غلام حدثٌ، إنما أردت شيخي قريش! أبا بكر وعمر». وأنظر أيضاً الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4329، ص41 – 41، أيضاً ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص401، والبيهقي، **السنن الكبرى**، ج9، ص132، ويروي الحلبي في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في ذلك: قتل عمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين، وروى غيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في ذلك: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4327، ص41، والرازي، **التفسير الكبير**، ج32، ص31.

صلح الحديبية (6هج)

على أيِّ حال، قبل أن يتخلَّص المسلمون من فلول اليهود في خيبر، كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد عزمَ في عام (6هج) على العمرة، في ألفٍ وأربعمائة من المسلمين، فوقف القرشيون في طريقِهِ على مقربة من مكة يمنعونه من دخولها، فأرسل صلى الله عليه وآله عثمان بن عفان كوسيط بينَهُ وبين قريش، فحجزت قريش عثماناً، وشاع بين المسلمين أنَّهُ قُتِل، عندئذٍ تأهَّب رسول الله صلى الله عليه وآله للقتال، فبايعَهُ المسلمون تحتَ الشجرة (بيعة الرضوان)، فارتاعت قريش، وأرسلت الوسطاء لمفاوضة رسول الله صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بما يعرف بـ «صُلح الحديبية» (6هج)[1].

فتح مكة (8هج) والطلقاء

كان هذا الصُّلح نصراً للمسلمين، حيث دخلت قبائل كثيرة في الجزيرة في الإسلام، وظلَّ أهل مكة والطائف على حال الشِّرك، وأدركت قريش أنَّ أمرَ الإسلام ظاهرٌ لا محالة، لذلك أسرَعَ عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما، للدخول في الإسلام[2].

وعندما نقضت قريش الصُّلح عام (8هج)[3]، عقد رسول الله صلى الله عليه وآله العزمَ على دخول مكة في عشرة آلاف من المسلمين[4]، ولما علمت قريش بذلك خرجت خاضعة، وكان في مقدَّمِهم أبو سفيان، الذي أعلن إسلامَهُ ووسَّط في ذلك العباس (عمّ رسول الله)، فقال صلى الله عليه وآله له: يا عباس احبِسهُ بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمُرَّ به جنود الله فيراها. ومرَّت جنود الله والعباس يُعرِّف الكتائب التي تمُر وأبو سفيان أخذته الدهشة حتى قال: واللهِ يا أبا الفضل، لقد أصبحَ ملكُ ابنُ أخيكَ عظيماً، فأجابه العباس: <u>**يا أبا سفيان إنَّها النبوة**</u>[5].

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص282 - 297.

(2) للتعرُّف على دور تغيُّر موازين القوى في دخول عمرو وخالد في الإسلام، يشرح ذلك كل من عمرو وخالد، كما يروي الواقدي في **المغازي**، ج2، بشأن عمرو 741 - 742، وبشأن خالد ص746 - 747، أيضاً: ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص432 - 434.

(3) لأنه نتيجة لمعركة مؤتة (8هج) بين المسلمين والروم تصوَّرت قريش أنَّ المسلمين قد ضعفت قوتهم، وأنه لم يعد بمقدورهم حماية حلفائهم، فنقضوا الصلح، واعتدوا على خزاعة، التي كانت قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقتلوا منهم عشرين رجلاً، فاشتكت خزاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال صلى الله عليه وآله: لا نُصرتُ إن لم أنصر خزاعة فيما أنتصر منه لنفسي.

(4) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص537.

(5) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص38 - 39، ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص525.

ودخل صلى الله عليه وآله وخاطبهم قائلاً: يا معشرَ قُريش ما تظُنُّونَ أنّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، قال صلى الله عليه وآله: **اذهبوا فأنتُمُ الطُّلقاء**[1].

وبعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله فيما حول مكة السَّرايا تدعو إلى الله عزَّ وجل، ولم يأمُرهم بقتال، وكان ممن بعث خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فوطئ بني جذيمة، فلما رآه القوم أخذوا السِّلاح، فقال خالد: ضعوا السِّلاح فإنَّ الناسَ قد أسلموا. فقال رجلٌ منهم: ويلكم يا بني جذيمة إنَّه خالد والله! إنَّه خالد والله! ما بعد وضعِ السِّلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق...

وهذا ما وقع بالفعل، فبعدما وضع القومُ السِّلاح لقول خالد، كُتِّفوا ثم قتلَهم بالسَّيف، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله رفعَ يديه إلى السَّماء ثم قال: اللهم إني أبرأُ إليك مما صنعَ خالد بن الوليد. ثم دعا صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام، فأرسله إلى من تبقى منهم، فودى (= أعطى الدِّية) لهم الدِّماء وما أصيبَ لهم من الأموال، حتى إذا لم يبقَ شيءٌ من دمٍ ولا مال إلا وداه، بقيَت معه بقية من المال، فقال لهم علي عليه السلام حين فرغ

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص26 - 47. ويتحدث ابن هشام عن حالة الاضطراب الشديد التي سادت أبا سفيان عند فتح مكة، حتى دخل على علي عليه السلام وعنده فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وعندها حسن بن علي عليه السلام، غلامٌ يدبُّ بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئتُ في حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله (وفي مصادر أخرى: محمد، وهو الأرجح)، فقال: ويحك يا ابا سفيان! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيّك هذا (يعني الحسن) فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله، قال: يا ابا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني.... إلى آخر القصة ذات الدلالة، ص32. أيضاً أنظر: الواقدي، المغازي، ج2، ص792 - 795، وفي فتح مكة عموماً أنظر ص780 - 835، أيضاً ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص518، أيضاً 531.
كما وقعت بُعيد فتح مكة حادثة ذات دلالة، يروي الحاكم: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة، أتاه ناسٌ من قريش، فقالوا: ما محمد، إنا حلفاؤك وقومك، وإنه لحق بك أرقاؤنا، ليس لهم رغبة في الإسلام، وإنما فروا من العمل، فارددهم علينا. فشاور أبا بكر في أمرهم، فقال: صدقوا يا رسول الله. فقال لعمر: ما ترى؟ فقال مثل قول أبي بكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر قريش، ليبعثنَّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان، فيضرب رقابكم على الدين. فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه خاصف النعل في المسجد. وقد كان ألقى نعله إلى علي يخصفها، ثم قال: أما أني سمعته يقول: لا تُكذِّبوا علياً، فإنه من يُكذِّب علياً يلج النار. راجع: الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب قسم الفيء، ح2614، ص173 - 174.

منهم: هل بقي لكم بقية من دمٍ أو مال لم يود لكم. قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله مما يعلم ولا تعلمون، ففعل[1].

وهناك حادثة مهمة ذات دلالة، تحكي عن نظرة القرشيين العدنانيين الأحرار الذين تأخَّر إسلامهم، إلى الموالي والمستضعفين القحطانيين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

تنقل مصادر متعدِّدة - وبتفاوت في بعض التفاصيل - أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعثَ خالد ابن الوليد على سريَّة، ومعه في السريَّة عمَّار بن ياسر، قال: فخرجوا حتى أتوا قريباً من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم، نزلوا في بعض الليل، قال: وجاء القومَ النذيرُ، فهربوا حيث بلغوا، فأقام رجلٌ منهم كان قد أسلم هو وأهلُ بيتِهِ، فأمر أهله فيحملوا، وقال: قفوا حتى آتيكم. ثم جاء حتى دخل على عمَّار، فقال: يا ابا اليقظان، إني قد أسلمتُ وأهل بيتي، فهل ذلك نافعي إن أنا أقمت، فإنَّ قومي قد هربوا حيث سمعوا بكم؟

فقال له عمَّار: فأقم فأنت آمن.

فانصرف الرَّجلُ هو وأهله.

فصبَّح خالد القوم، فوجدهم قد ذهبوا، فأخذ الرَّجل هو وأهله، فقال له عمَّار: أن لا سبيل لك على الرَّجل قد أسلم.

قال (خالد): وما أنت وذاك، أتجيرُ عليَّ وأنا الأمير؟

قال (عمَّار): نعم أجيرُ عليكَ وأنت الأمير، إنَّ الرَّجلَ قد آمنَ، ولو شاءَ لذهبَ كما ذهبَ أصحابهُ، فأمرتُهُ بالمقام لإسلامهِ.

فتنازعا في ذلك، حتى تشاتما.

فلما قدِما المدينة، اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وآله (إلى أن قال) فتشاتما عند رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال خالد: يا رسول الله أيشتمني هذا العبد عندك، أما والله لولاك ما شتمني.

(في بعض المصادر أنَّ عمَّاراً لما رأى رسول الله لا ينصره ولى وعيناهُ تدمعان).

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص61 - 63، والواقدي، المغازي، ج2، ص875 - 881، وابن إسحاق، في السيرة النبوية، ص541 - 543. وروى ذلك البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب بعث النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، وفي كتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور.

قال ﷺ: كفَّ يا خالد عن عمَّار، فإنَّ من يُبغِض عماراً يُبغضه الله عزَّ وجل، ومن يلعن عماراً يلعنهُ الله عزوجل . . .[1].

غزوة حنين (8 هج) وحساسيَّة الأنصار

في العام نفسه، خرجَ رسول الله ﷺ لمواجهة جموع هوازن (التي كانت منتشرة في نجد) وجموع ثقيف (التي كانت تسكن الطائف) في غزوة حنين، وانتصر المسلمون بعد أن كادوا يخسرون المعركة حينما أعجبتهم كثرَتُهم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[2]، حيث قال أبو بكر: لا نُغلبَ اليومَ من قِلَّة[3]، وفرَّ المسلمون قبل أن ينتصروا ولم يبقَ معه ﷺ إلا عدد محدود جداً!

ووقعت حوادث ذات دلالة عند توزيع الغنائم، حيثُ تدافعوا على رسول الله ﷺ يُلِحُّون عليه أن يُقسم الغنائم حتى ألجأوهُ إلى شجرةٍ وأخذوا رداءَهُ، وبدأ رسول الله ﷺ بإعطاء المؤلَّفة قلوبهم من الطلقاء، كأبي سفيان وابنه معاوية[4]، فثار بعضهم وطالبوه بأن يعدِل في القسمة! وخشي الأنصار من أن ينساهم رسول الله ﷺ من العطايا، بعد أن لقي قومه، وأن يستقرَّ في مكة.

فطيَّبَ رسول الله ﷺ خواطر الأنصار وسألهم قائلاً: يا معشرَ الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجِدَة (= عتاب) وجدتموها عليَّ في أنفسِكم؟ ألم آتِكم ضُلاَّلاً فهداكُمُ الله؟ وعالةً (= فقراء) فأغناكُمُ الله؟ وأعداءً فألَّفَ بين قلوبِكُم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل.

---

(1) المتقي الهندي، **كنز العمال**، مطبعة دار المعارف النظامية، حيدر آباد دكن، 1312، ج1، ص242، أيضاً ج7، ص73. وقريب منه مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص89، والحاكم في المستدرك على الصحيحين. ونقل الواقدي أنَّ رسول الله ﷺ قال: مه يا خالد! لا تقع بأبي اليقظان، فإن من يُعادهِ يُعادهِ الله، ومن يُبغضه يُبغضه الله، ومن يُسفِّهه يُسفِّهه الله. أنظر: الواقدي، **المغازي**، ج2، ص881 - 882.

(2) سورة التوبة، الآيتان: 25 - 26.

(3) الواقدي، **المغازي**، ج2، ص890.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص115، وابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص584.

فقال ﷺ لهم: ألا تجيبوني يا معشرَ الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسولهِ المنُّ والفضل.

فقال ﷺ: أما والله لو شِئتُم لقلتُم، فلصَدَقتُم ولصُدِّقتُم، أتيتنا مُكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك (= أعطيناك)، أوجدتُم يا معشرَ الأنصار في أنفسِكم في لعاعة (= بقلة خضراء ناعمة) من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً ليُسلِموا، ووكلتُكُم إلى إسلامِكُم؟ ألا ترضونَ يا معشرَ الأنصار، أن يذهبَ الناسُ بالشَّاة والبعير، وترجعوا برسولِ الله إلى رحالِكُم؟ فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ، لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ شِعباً وسلكَتِ الأنصارُ شِعباً، لسلكتُ شِعبَ الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسولِ الله قسماً وحظاً[1].

ونزلت سورة الفتح: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾، وسمي عام (9 هج) بعام الوفود، لأنَّ عدداً كبيراً من القبائل العربية أرسلوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً تعلن إسلامها، ولم يأت عام (10هج) حتى كانت بلاد العرب جميعاً خاضعة له ﷺ.

مشكلة بنيوية خطيرة

المشكلة البنيوية الخطيرة التي واجهَها الإسلام بعد فتح مكة والطائف، أنَّ من دخل في الإسلام دخلَ - على الأغلب - لا عن قناعة وإيمان، بل لأنَّ الإسلام كان قد أصبح أمراً واقعاً. دخل الكثيرون في الإسلام حتى يُحافظوا على دمائِهِم وأموالِهِم وأهليهم... ربما هذه كانت ضريبة مقبولة بالنِّسبة إلى رسول الله ﷺ في مقابل القضاء النِّهائي على الوثنية وعبادة الأصنام في الجزيرة العربية.

طبعاً هذا لا يعني أنَّ الإسلام جاء للقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام فقط، بل أعني أنَّ الانجاز العاجل هو القضاء على الوثنية وعبادة الأصنام وإبقاء الإسلام الظاهري المنزَّل بين يدي البشرية، والانجاز الآجل والمستمر عبر الأجيال، والذي سيعمل علي عليه السلام في حروبِهِ والحسن عليه السلام في صُلحِهِ والحسين عليه السلام في شهادتِهِ، على ترسيخه والحفاظ

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص119 - 122، الواقدي، **المغازي**، ج2، ص948 - 958، ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص586 - 588.

عليه، هو إبقاء الإسلام الحقيقي بتأويله الصحيح، نقياً متاحاً لكلٍّ من يريد التعرُّف على الدِّين الحق حتى قيام السَّاعة.

نعم لقد تمَّ القضاء على عبادة الأصنام قضاءً نهائياً، لكن من دخل في الإسلام كان حديثَ عهدٍ به، كان في باطنِهِ راسخاً في الكفر والجاهلية. . . . فكانت زيادة في الكم على حساب الكيف[1]!

والنتيجة هي ازدياد تأثير المنافقين والطُلَقاء في الرأيِّ العام في المجتمع الإسلامي، لأنَّهم صاروا جزءاً من هذا المجتمع.

وهذا ما بدا جلياً عندما تجهَّزَ رسول الله صلى الله عليه وآله للخروج في غزوة تبوك (9هج)، فقد تحدَّث القرآن بالتفصيل في سورة التوبة عن تثاقل الكثيرين عن الجهاد، بسبب الذكريات المؤلمة التي واجهوها مع الرُّوم في غزوة مؤتة، فبرَّرَ بعضُهُم تثاقله ببُعدِ المسافة وشِدَّة الحر، وكان للمنافقين تأثير كبير في نشر الخوف والرُّعب بين المسلمين حتى لا يلتحقوا بجيش رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾[2] (أي فيكم من يتأثَّر ويستمع إلى وسوسة المنافقين).

واضطرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يستبقي الإمام علياً عليه السلام في المدينة، لكي يسيطر عليها ويضبطها، بعد أن كادَت تخرج عن السَّيطرة بسبب قوة تأثير المنافقين والطلقاء[3].

لحسن الحظ، كانت نتيجة المعركة أن تقهقر جيش الرُّوم عندما وجد أمامه ثلاثين ألف مقاتل جاؤوا رغم الحرّ وبُعد المسافة، فما كان من المنافقين إلا أن دبَّروا محاولة اغتيال لرسول الله صلى الله عليه وآله في طريق عودتِهِ من تبوك. وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى

---

(1) روى الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف قال: افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة، ثم انصرف إلى الطائف، فحصرهم ثمانية أو سبعة، ثم أوغل غدوة أو روحة، ثم نزل، ثم هجر، ثم قال: «أيها الناس، إني فرطٌ، وإني أوصيكم بعترتي خيراً، موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده، لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة، أو لأبعثنَّ عليكم رجلاً مني، أو كنفسي، فليضربنَّ أعناق مقاتليكم، وليسبين ذراريهم. قال: فرأى الناس أنه يعني أبا بكر أو عمر، فأخذ بيد علي، فقال: هذا. راجع: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، ح2559، ص153 - 154.

(2) سورة التوبة، الآية: 47.

(3) وأثار المنافقون تساؤلات عن سبب إبقاء رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام في المدينة، وأنه خلفه مع النِّساءِ والصِّبيان، وأرادوا بذلك إحراج علي عليه السلام، فلحق عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله، وأظهر له استعداده للقتال بين يديه والسَّير معه في تبوك، وتساءل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله خلَّفتني مع النِّساء والصبيان؟ عندها قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

المدينة قامَ بهدم مسجد ضرار وإحراقه، وأرسل صلى الله عليه وآله علياً إلى مكة ليتلو البيان الإلهي بالبراءة من المشركين، والذي كان من بين بنودِهِ أن لا يحج بعد هذا العام مشرك[1].

إعلان البراءة (9 هج)

روى السُّيوطي في تفسيره الدُّر المنثور - وروى غيره من المفسِّرين والمؤرِّخين وأصحاب السِّيَر مع بعض الفروق - أنَّه لما نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة (= براءة)، دفعها رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر وأمرَهُ أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النَّحر، فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمَّد لا يؤدِّي عنكَ إلا رجلٌ منك. فبعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام في طلب أبي بكر، فلحقه بالرَّوحاء، وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أنزل الله فيَّ شيئاً؟ فقال صلى الله عليه وآله: لا إنَّ الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني. فلما قدم علي عليه السلام مكة خطبَ الناسَ واختَرَطَ سيفَهُ وقال: لا يطوفنَّ بالبيتِ عريانٌ ولا عريانة[2]، ولا يحجنَّ بالبيتِ مشركٌ بعد هذا العام، ومن كانت له مُدَّة فهو إلى مُدَّتهِ، ومن لم يكن له مُدَّة فمُدَّتُهُ أربعة أشهر تبدأ من يوم الإبلاغ في العاشر من ذي الحجة فمحرَّم وصفر وربيع الأول وعشرة أيام من ربيع الآخر[3].

إنَّ إبلاغ الإمام علي عليه السلام براءة الله ورسوله من مشركي قريش وجزيرة العرب، وبسورة لا تبدأ بـ «البسملة»، وبلغة شديدة اللَّهجة، قوية الحزم والشِّدة، تعني أنَّ علياً عليه السلام - صار في نظر قريش والعرب الناطق الرَّسمي باسم اللهِ ورسولهِ صلى الله عليه وآله، وحربة حقيقية، وطرفاً رئيسياً في تطهير مكة من بقايا الوثنية والشِّرك. وأضيف هذا الموقف الجديد إلى مواقفهِ السَّابقة التي لم تنسَها قريش في بدر وأحد والأحزاب، وهو ما كان كفيلاً بأن يجعل قريشاً تغلي من الدَّاخل كالمرجل، ولكن المشكلة بالنِّسبة إليها أنَّهُ ليس

---

(1) أنظر بدايات سورة التوبة.

(2) روي في تفسير القمي عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام أنهم كانوا في الجاهلية إذا طافوا بثيابهم، كانوا يرون أنه لا يحل لهم مسها، فكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف. فكان من لديه ثوب واحد فقط، يضطر للطواف عرياناً، رجالاً ونساء.

(3) أنظر أيضاً بشأن دفع إعلان البراءة لعلي عليه السلام بعد أخذها من أبي بكر، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص161، الواقدي، **المغازي**، ج2، ص1077، ايضاً رواية لابن عمر، الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، ح4373، ح4374، ص62 - 63.

في وسعِها فعل شيء مع تغيُّر موازين القوى لصالح رسول الله ﷺ . . . وتصوِّر لنا بعض آيات سورة التوبة حالة الاحتقان هذه، حيث يقول تعالى:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا (= يراعوا أو يحفظوا) فيكم إلاًّ (= قرابة أو حلفاً) ولا ذِمَّة (= عهداً أو حقاً) ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . . . ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[1].

الجدير بالذكر أنَّ في هذه المرحلة، أعني ما بعد إعلان البراءة من المشركين وقبل حجَّة الوداع، قدِمَ الأشعث بن قيس مع وفد كندة على رسول الله ﷺ ليعلنوا إسلامهم[2]. كما بعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام إلى اليمن، وفي سفرِهِ هذا دخل كعب الأحبار - كما يُزعم - في الإسلام، إلا أنه لم يقدِم على رسول الله ﷺ، بل بقيَ في اليمن حتى خلافة عمر بن الخطاب[3].

وأرجو من القارئ أن يتذكَّر هذين الاسمين: «الأشعث بن قيس»، الذي سيرتد بعد وفاة رسول الله ﷺ ويُؤسر ثم يمُنُّ عليه أبو بكر ويُزوِّجه أخته فروة ثم يندم على فراش الموت أنه لم يقتُله، ثم سيصبح من الشَّخصيات المؤثرة جداً في جيش الإمام علي عليه السلام في صفين، وله دور أساسي في تحريض الجيش على وقف الحرب، وسيكون لابنته جعدة وابنه محمد - على الترتيب - دور أساسي في سمِّ الحسن عليه السلام وشهادة الحسين عليه السلام. و«كعب الأحبار»، الذي سيكون له دور كبير في نشر ما يعرف بـ«الإسرائيليات»، أي الأخبار المأخوذة من التوراة، كما سيتَّهمه بعض الباحثين - من خلال قرائن معينة - بالتورُّط في قتل عمر بن الخطاب، مع المغيرة بن شعبة وأبي لؤلؤة.

---

(1) سورة التوبة، الآيات: 5 - 13. وينقل الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ قوله: نزلت في أبي سفيان بن حرب و. . . . .وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج الرسول ﷺ. أنظر: أبو الحسن الواحدي النيسابوري، **أسباب النزول**، المكتبة العصرية، 1425هج - 2004م، صيدا - بيروت، ص128.

(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص199.

(3) الواقدي، **المغازي**، ج2، ص1082 - 1083.

حجة الوداع

في عام (10هج) خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من مائة ألف من المسلمين لحجة الوداع! وأقفل الإمام علي عليه السلام راجعاً من اليمن، ليلتحق برسول الله صلى الله عليه وآله في مكة[1]، وخطب صلى الله عليه وآله في عرفة أو يوم النَّحر خطبة خالدة قال فيها:

«أيُّها الناس اسمعوا قولي فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكُم بعدَ عامي في موقفي هذا، أيُّها الناس إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم عليكم حرام إلا بحقِّها.... أيُّها الناس إنَّ الشيطان قد يئِسَ أن يُعبدَ في أرضِكم هذه، ولكنهُ رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلكَ مما تحقرونَ من أعمالِكُم، فاحذروه على دينكم...اللهم اشهد، فلا ترجِعوا بعدي كُفاراً يضرِبُ بعضكم رِقابَ بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به لن تضِلوا كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي[2]، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد».

---

(1) وجاء من كان مع علي عليه السلام ليشتكيه عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً فقال: أيها الناس، لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يشكى. أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص217، وابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص669. وروى الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، من مناقب علي بن أبي طالب، ح4578، ص134، عن بريدة الأسلمي قال: غزوت مع علي إلى اليمن، فرأيتُ منه جفوة، فقدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله، فذكرتُ علياً، فتنقصته، فرأيتُ وجه رسول الله صلى الله عليه وآله يتغير، فقال: يا بريدة، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. راجع أيضاً المستدرك، ج2، كتاب قسم الفيء، ح2589، ص164 - 165. أقول: يبدو أن هذه الحقيقة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله لبريدة قبيل واقعة الغدير، كانت بمثابة نجوى لبريدة واصحابه ممن كانوا مع علي عليه السلام وجاؤوا يشكونه، ولم يصرح بها رسول الله صلى الله عليه وآله أمام الملأ، إلا عندما نزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وتكفل سبحانه بحمايته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. أيضاً يروي الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، من مناقب علي بن أبي طالب، (4579)، ص134، عن عمران بن حصين، يقول: .... فلما قدمت السرية، سلموا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقام أحد الأربعة، فقال: يا رسول الله ألم تر أنَّ علياً صنع كذا وكذا، فأعرض عنه، ثم قام الثاني فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم قام الرابع، فقال: يا رسول الله، ألم تر أنَّ علياً صنع كذا وكذا، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله والغضب في وجهه فقال: ما تريدون من علي، إنَّ علياً مني وأنا منه، وولي كل مؤمن.

(2) في السيرة النبوية لابن هشام: كتاب الله وسنة نبيه، ج4، ص218، وكذا في السيرة النبوية لابن إسحاق، ص670، لكن في المغازي للواقدي: قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله تعالى! ج2، ص1103، أيضاً ص1113، ولا أدري أين ذهبت السنة؟ ربما لموافقة الواقدي أو الراوي لوجهة نظر عمر بن الخطاب الذي اكتفى بكتاب الله عن التمسُّك بأهل البيت عليهم السلام =

وروى كثير من المحدِّثين والمؤرِّخين وأصحاب السِّير - بل تواتر بينهم - أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله خطبَ الناسَ يومَ النَّحر، فقال: يا أيُّها الناس، أيُّ يوم هذا؟ قالوا: هذا يومٌ حرام، قال: فأيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا: بلدٌ حرام، قال: فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا: شهرٌ حرام، قال: فإنَّ دماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حرام، كحُرمةِ يومِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، في شهركِم هذا. (يقول الراوي) فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلَّغت؟ اللهم هل بلَّغت؟

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك، وهو يعلم بأنَّ الحالة القبلية: حالة تعالي العرب على غير العرب، وتعالي عدنان على قحطان، وتعالى قريش على باقي العرب، حالة الاستهانة في إراقة الدِّماء والاستخفاف في استباحة الأموال هي حالةٌ راسخةٌ في حياة هذا المجتمع القبلي. ورأينا نموذجاً من ذلك بعد فتح مكة، مع خالد بن الوليد وما فعل ببني جذيمة، لذا تجد رسول الله صلى الله عليه وآله يُركِّز في خطبة الوداع على محاربة هذه الحالات، ويؤكِّد على أنَّ علاج بقايا الجاهلية، والضَّمان الحقيقي للاستقامة على الصِّراط المستقيم وعدم التيه والضياع يتلخَّص في التمسُّك بالقرآن وأهل البيت عليهم السلام. لكن قسماً كبيراً ممن هم حديثو عهدٍ بالإسلام عادوا - بعد التحاق رسول الله صلى الله عليه وآله بالرَّفيق الأعلى - بالتدريج لتلك الممارسات، فاستباحوا أموال الناس، وسفكوا الدِّماء، واستضعفت قريش بني هاشم والأنصار، وتركوا التمسُّك بالعترة الطاهرة.

يوم غدير خم[1]

لما قضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله مناسِكَهُ، وانصرفَ راجعاً إلى المدينة، ومعه من كان من الجموع، وصلَ إلى غدير خم من منطقة الجُحفة، التي تتشعَّب فيها طُرُق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك في يوم الثامن عشر من ذي الحجة، نزلَ إليهِ جبرئيل الأمين

= أو حتى سُنة رسول الله صلى الله عليه وآله!! ولكن ستعرف بعد قليل، عندما نصل إلى حادثة الغدير، أنَّ الثقلين هما كتاب الله تعالى وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل بيته.

(1) الطريف أنَّ أصحاب السير المعروفة كابن إسحاق وابن هشام والواقدي عندما ينتهون من حجة الوداع يقفزون مباشرة إلى ما بعد وصول رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وكأن شيئاً في الطريق لم يحدث قط. بل بعضهم فصَّل الكلام في أحداث مجيئ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حجة الوداع، وأحداث وقعت في طريق الذهاب، ثم قفز مباشرة، بعد الكلام عن حجة الوداع، إلى ما بعد عودته صلى الله عليه وآله إلى المدينة، دون أن يشير إلى أي حدث وقع في طريق العودة! لكن لحسن الحظ سنجد كماً وفيراً من المفسرين والمؤرخين والمحدثين يرصدون لنا واقعة الغدير بالغة الأهمية.

عن الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وأمرَهُ أن يُقيمَ علياً عليه السلام علَماً للناس، ويُبَلِّغهم ما نزلَ فيه من الولاية وفرض الطاعة على كلِّ أحد[1].

كان أوائلُ القوم قريباً من الجُحفة، فأمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أن يرد من تقدَّم منهم، ويحبس من تأخَّر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سَمُرات (جمع «سمُرة» ضربٌ من شجر الطَّلح) خمس متقاربات دوحات (= جمع «دوحة» الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة) عظام، أن لا ينزل تحتهُنَّ أحد، حتى إذا أخذَ القومُ منازِلهُم، فقمَّ (= كنس) ما تحتهُنَّ، حتى إذا نوديَ بالصلاةِ صلاة الظهر، عمَدَ إليهنَّ فصلى بالناس تحتهُنَّ، وكان يوماً هاجراً (= شديد الحر) يضع الرَّجُل بعضَ ردائهِ على رأسِهِ وبعضَهُ تحتَ قدميهِ من شِدَّة الرَّمضاء، وظُلِّل لرسولِ الله صلى الله عليه وآله بثوبٍ على شجرة سَمُرة من الشمس، فلما انصرف صلى الله عليه وآله من صلاتهِ، قام خطيباً وسطَ القوم على أقتابِ الإبل، وأسمعَ الجميع رافعاً عقيرته (= صوته) فقال:

الحمدُ للهِ ونستعينُهُ، ونؤمِنُ بهِ، ونتوكلُ عليهِ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفُسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، الذي لا هاديَ لمن ضَل، ولا مُضِل لمن هَدَى، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أما بعد، أيُّها الناس، قد نبَّأني اللطيفُ الخبير أنَّهُ لم يُعمر نبيٌّ إلا مثل نصف عُمُرِ الذي قبلَهُ، وإني أوشِك أن أُدعى فأجبت، وإني مسؤولٌ وأنتم مسؤولون، فماذا أنتُم قائلون؟

قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغتَ، ونصحتَ، وجَهَدتَ، فجزاكَ اللهُ خيراً.

قال: ألستم تشهدونَ أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ جنتَهُ حق، ونارَهُ حق، وأنَّ الموتَ حق، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ اللهَ يبعثُ من في القبور؟

---

(1) سورة المائدة، الآية: 67. بشأن نزول آية الإبلاغ في حادثة الغدير، قال الواحدي: «نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه»، أنظر: الواحدي، أسباب النزول، ص107. وذكر ذلك الفخر الرازي في تفسيره الكبير، على أنه قول عاشر من أسباب نزول الآية، وذكر جلال الدين السيوطي في الدر المنثور: «وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أنَّ علياً مولى المؤمنين ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وذكر الشيخ محمد عبده في تفسيره المنار: «روى ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري: أنها نزلت يوم غدير خم في علي بن أبي طالب».

قالوا: بلى نشهدُ بذلكَ

قال: اللهم اشهد... أيُّها الناس ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

قال: فإني فرَطٌ (= سابقكم) على الحوض، وأنتم واردونَ عليَّ الحوض، وإن عَرضَهُ (= عرض الحوض) ما بين صنعاءَ (= اليمن) وبُصرى (= أطراف الشَّام)، فيه أقداحٌ عددَ النجوم من فضة، فانظروا كيفَ تخلُفُوني في الثقلين.

فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسولَ الله؟

قال: الثقلُ الأكبر كتابَ الله، طرفٌ بيدِ اللهِ عزوجل ، وطرفٌ بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلوا. والآخر الأصغر عترتي، وإنَّ اللطيفَ الخبير نبأني أنَّهُما لن يتفرقا حتى يرِدا عليَّ الحوض، فسألتُ ذلكَ لهُما ربي، فلا تقدُمُوهُما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا. أُذكِّركُم الله في أهل بيتي، أُذكِّركُم الله في أهل بيتي، أُذكِّركُم الله في أهل بيتي[1].

ثم أخذَ بيدِ علي عليه السلام فرفعَها، حتى رُئيَ بياضُ آباطِهِما، عرفَهُ القومُ أجمعون، فقال: أيُّها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفُسِهِم؟

قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلم.

قال: إنَّ اللهَ مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفُسِهم، فمن كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه (يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ الإمام أحمد: أربع مرات)، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه[2]، وأحبَّ من أحبهُ، وأبغِض من أبغضَهُ، وانصُر من نصرَهُ،

---

(1) بشأن حديث الثقلين كتاب الله وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله، راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، (36) عن زيد بن أرقم الذي يقول: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً، بماءٍ يدعى خمّاً بين مكة والمدينة... إلخ». أيضاً صحيح الترمذي، في كتاب المناقب عن رسول الله، مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، لكن يفهم من رواية جابر بن عبدالله أنَّ حديث الثقلين قيل في خطبة يوم عرفة، وهناك رواية أخرى في الموضع نفسه عن زيد بن أرقم. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، من مناقب أهل رسول الله صلى الله عليه وآله، ح4711، ص182، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص14، 17، 26، 59، ج4، ص371، ج5، ص181. الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط2، ج5، ح4980، ص169 - 170، أيضاً ح4922، ص154. أيضاً: الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض، مج4، ح1761، ص355، قال: قلت: لكن الحديث صحيح، فإنَّ له شاهداً من حديث زيد بن أرقم.

(2) بشأن قول رسول الله صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلي مولاه، راجع: سنن النسائي، دار إحياء التراث =

واخذُل من خذَلَهُ، وأدِر الحقَّ معهُ حيثُ دار. ألا فليُبلِّغ الشاهدَ الغائب.

ثم لم يتفرقوا حتى نزلَ أمينُ وحي الله بقولهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهُ أكبر على إكمالِ الدين وإتمامِ النعمة، ورضى الرب برسالتي، والولايةِ لعلي من بعدِهِ.

ثم طفِقَ القومُ يهنئونَ أميرَ المؤمنين عليه السلام، وممن هنأهُ في مُقدمِ الصحابة: عمر بن الخطاب، يقول له: بخٍ بخٍ لكَ يا ابن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة[2].

وقال ابن عباس: وجبت واللهِ في أعناقِ القوم.

فقال حسان بن ثابت: إئذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً تسمعهن.

= العربي، بيروت، كتاب الخصائص، باب قول النبي صلى الله عليه وآله: من كنت وليه فعلي وليه، ح8464. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، من مناقب علي بن أبي طالب، ح 4576، ص133، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله، أيضاً ح4577، ص133 - 134، أيضاً ح4578، ص134، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ذكر زيد بن الأرقم الأنصاري، ح6272، ص647. الطبراني، **المعجم الكبير**، ج5، ح4969، ص166.

(1) سورة المائدة، الآية: 3. بشأن نزول آية إكمال الدين في حادثة الغدير، راجع: جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور**، قال: أخرج ابن مردويه وابن عساكر بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً يوم غدير خم، فنادى له بالولاية، هبط جبرئيل عليه بهذه الآية، وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر بسند ضعيف (والأميني يؤكد أن رجال الحديث كلهم ثقات) عن أبي هريرة قال: لما كان غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، قال النبي صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه، فأنزل الله «اليوم أكملت لكم دينكم» (راجع: الأميني، الغدير، ج1، ص231، أيضاً ص236)، وروى عنه في الإتقان، دار إحياء العلوم، مراجعة مصطفى القصاص، بيروت، ج1، ص54 - 55. وهناك إصرار من مفسري أهل السُنة على أنَّ الآية نزلت يوم عرفة من حجة الوداع وأنه لم ينزل بعدها أي حكم شرعي من حلال أو حرام، أقول: إن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد حج حجة واحدة، وهي حجة الوداع، وكان نزول الآية في يوم عرفة، فهذا يعني أنه لم يستكمل بعد بيان بقية أجزاء وواجبات الحج، وكيفية الإتيان بها، فكيف يقال أنَّ الدين اكتمل بيوم عرفة في حجة الوداع مع أن بقية أجزاء وواجبات الحج لم تبين بعد؟

(2) بشأن التهنئة، راجع: مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص281، أبو إسحاق الثعلبي، تفسير الكشف والبيان، في تفسير الآية. وللتفصيل بشأن حادثة غدير خم عموماً، راجع: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب، تحقيق محمد باقر المحمودي، دار التعارف، بيروت، ط1، 1975، ج2، ص35 - 90. أيضاً: الأميني، **الغدير**، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج1.

فقال صلى الله عليه وآله: قُل على بركةِ الله.

فسرد الأبيات التي مطلعها:

يُناديهمُ يومَ الغديرِ نبيُّهُم — بخُمٍّ وأسمِع بالرسولِ مناديا
فقال: فمن مولاكُم ونبيُّكُم؟ — فقالوا ولم يبدُ هُناكَ التعاميا
إلهكَ مولانا وأنتَ نبيُّنا — ولم تلقَ منا في الولايةِ عاصيا
فقالَ له: قُم يا عليّ فإنني — رضِيتُكَ من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنتُ مولاهُ فهذا وليُّهُ — فكونوا لهُ أتباعَ صِدقٍ مَواليا
هُناك دعا: اللهم والِ وليَّهُ — وكُن للذي عادى عليّاً مُعاديا

الخلاصة: تحدَّثنا عن استفادة بعضهم من الحقد المختزن بداخل قريش تجاه الإمام علي عليه السلام لترسيخ موقعه وتضعيف مكانة الإمام علي عليه السلام، ورأينا أنَّ معركة أحد كان مخططاً لها أن تتكفَّل بتصفية حساب قريش مع المسلمين عموماً، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام وحمزة على وجه الخصوص، إلا أنَّها لم تنجح إلا في تصفية حمزة فقط، وبالتالي لم تشف معركة أحد غليل قريش تماماً. في هذه الأثناء وُلِدَ الحسين عليه السلام، واستأنفت قريش حروبها، فحزَّبت الأحزاب، لكن معركة الأحزاب لم تُحقِّق شيئاً إلا المزيد من الاذلال لقريش، عندما نجح الإمام علي عليه السلام في قتل عمرو بن عبد ودّ، وعاد المشركون من المدينة يجُرُّون أذيال الخيبة. تحدَّثنا أيضاً عن محاولات منافقي المدينة تأجيج الخلاف بين المهاجرين (وأغلبهم من قريش العدنانية) والأنصار (القحطانيين). كما تحدَّثنا عن صُلح الحديبية، ثم فتح مكة، ونظرة القرشيين الأحرار للقحطانيين المستضعفين، وغزوة حنين، وحساسيَّة الأنصار عند توزيع العطايا على المؤلَّفة قلوبهم، وظهور مشكلة بنيوية خطيرة في النَّسيج الاجتماعي للمسلمين، بسبب دخول عدد كبير في الإسلام، عندما صار الإسلام أمراً واقعاً، لا عن قناعة. وتحدَّثنا عن انكشاف قوة تأثير المنافقين في معركة تبوك. وتحدَّثنا عن انتداب الإمام علي عليه السلام من السَّماء لإعلان البراءة من مشركي مكة، وحجَّة الوداع. وتوقفنا قليلاً عند خطبة عرفة ويوم النَّحر، التي تستبطن في عباراتها الأمور التي كانت تقلق رسول الله صلى الله عليه وآله. وأخيراً انتهينا إلى يوم غدير خم، وتنصيب الإمام علي عليه السلام إماماً ووليّاً للمسلمين.

في الفصل القادم سوف أتوقَّف عند دلالة عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كنتُ مولاه فعلي مولاه، كما سأتحدَّث عما جرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على فراش الموت، ونتحدَّث أيضاً عن ملابسات وفاته.

(4)

ملابسات غدير خم وخطوتين احترازيتين

تحدَّثنا في الفصل السابق عن مرحلة ما بعد معركة بدر، وردود أفعال قريش تجاه نتائج هذه المعركة كما تجلَّت في أُحُد من خلال التمثيل بأجساد الشُّهداء، وهي الثقافة التي تمَّ توريثُها لحفيد أبي سفيان عبيد الله بن زياد - إن صحَّ نسبه إليه - عندما طلب من عمر بن سعد أن ينتدب له من يوطئ الخيل صدر الحسين عليه السلام وظهره. كما أنَّ فرار المسلمين وتفكير بعضهم في الارتداد يعطينا صورة عن الأحداث القادمة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾؟![1] كما مرَّت علينا واقعة الأحزاب، ثم فتح مكة والطائف، وتغيُّر التركيبة السُّكانية - إن صحَّ التعبير - وبتعبير أدق تغيُّر النسيج الاجتماعي للمسلمين عندما دخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، بحيث أصبح أولئك الذين يحملون قِيَم الإسلام الأصيلة أقلية، في مقابل تعاظُم تأثير المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمُرجفين والطُّلقاء في الرأي العام. لذا يأتي التهديد المباشر من الله تعالى لهذه الشرائح حتى يقفوا عند حدودهم، يقول تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[2].

هذا التأثير الكبير للمنافقين تجلَّى بشكل واضح قبل وفاة رسول الله بسنتين أو أقل، وبالتحديد في غزوة تبوك، عندما عانى رسول الله صلى الله عليه وآله معاناة شديدة، ليُجيِّش ويُحرِّض المسلمين على القتال. كما تجلى تعاظم تأثير المنافقين عندما تعرَّضَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في طريق عودتِهِ من تبوك إلى محاولة اغتيال، وواجه عند وصولِهِ إلى المدينة مشكلة مسجد ضرار.

لهذا كله، عندما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله من حجَّة الوداع، كان قلِقاً من مضاعفات

(1) سورة آل عمران، الآية: 144.
(2) سورة الأحزاب، الآيات: 60 - 62.

إعلان ولاية الإمام علي عليه السلام، ليس من قريش فحسب، بل من الناس (العرب عموماً)، رغم أنَّ قريش هي العنصر الرَّئيس المؤثِّر في مسار الأحداث. . . . لكن الله سبحانه أمرَهُ عندما وصل إلى غدير خم بإعلان ذلك، وأنَّه سبحانه سيتكفَّل بحمايتِهِ من الناس. وبالفعل هذا ما حدث، فالناس - وقريش تحديداً - سايرت رسول الله صلى الله عليه وآله في الظاهر، حتى تقوم هي بعد ذلك بتنفيذ ما ترتئيه.

أصل حدوث واقعة غدير خم لا كلام فيه، ولم يُشكِّك فيه المنصفون من علماء أهل السُّنة، إنما شككوا في دلالتها، مدَّعين بأنَّ كلمة «المولى» في عبارة «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، تعني المُحِب والناصِر. نريد في هذه العُجالة تطبيق منهج حساب الاحتمالات لتأكيد حصول الواقعة الدَّالة على إمامة علي عليه السلام.

قرائن وشواهد في تفسير «من كنت مولاه فعلي مولاه»

إذا أردنا تطبيق منهج حساب الاحتمالات على واقعة الغدير من حيث ثبوت أصل الواقعة، وتفسير دلالة عبارة «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، سنجد أنَّ أصل ثبوت الواقعة وتواترها بالغ الوضوح: فقد أحصى المرحوم الأميني في كتابه الخالد «الغدير» في المجلد الأول منه، مائة وعشرة من أكابر الصَّحابة بأسمائهم رووا هذه الواقعة، كما أحصى أربعة وثمانين تابعياً بأسمائهم رووا هذه الواقعة.

فإذا لاحظنا أنَّ هذه الواقعة متوقَّعة ومُنسجمة مع تاريخ الإمام علي عليه السلام منذ بدء إسلامه، مروراً بواقعة الدَّار عندما نزلت آية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وقوله صلى الله عليه وآله: «إنَّ هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[2]، ومبيته في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله[3] ونزول آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[4]، وبطولاته المتكرِّرة في بدرٍ وأُحُد والأحزاب وضربته فيها التي تعدِل عبادة الثقلين[5]،

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 214.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص62 - 63.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، ص106 - 110. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب الهجرة، ح4263، و4264، ص7.

(4) سورة البقرة، الآية: 207.

(5) لمعرفة تفاصيل الحادثة، أنظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج3، ص204، والواقدي، **المغازي**، ج1، ص470 - 471، وفيه أنَّ عمرو بن عبد ود حينما صاح بالمسلمين قال لعلي عليه السلام: «فأنت غلام حدثٌ، إنما أردت شيخي قريش! أبا بكر وعمر». وأنظر أيضاً الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4329، ص41 - 41، أيضاً ابن إسحاق، =

وقلعه باب خيبر[1]، وحديث المنزلة «أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى»[2]، وحديث الثَّقلين[3]، وسائر الوقائع الأخرى المنسجِمة مع واقعة الغدير... وإذا لاحظنا أنَّ من رواة هذه الواقعة صحابة لم يكونوا من شيعة الإمام علي عليه السلام، مضافاً إلى أنَّ احتمال تواطؤ مائة وعشرة من أكابر الصَّحابة على الكذب أمر غير وارد، فضلاً عن انتشار هذا الخبر في ظلِّ حُكم بني أمية ممن كانوا يحاولون منع أمثال هذه الأخبار، ترهيباً وترغيباً.... كلُّ ذلك يؤكد أصل حدوث واقعة الغدير.

إذن ليس هناك شكٌّ في أصل حدوث الواقعة، ولم يُشكِّك فيها عددٌ كبير من علماء

= **السيرة النبوية**، ص401، والبيهقي، **السنن الكبرى**، ج9، ص132، ويروي الحلبي في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في ذلك: قتل عمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين، وروى غيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في ذلك: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4327، ص41، والرازي، **التفسير الكبير**، ج32، ص31.

(1) بشأن دور علي عليه السلام في خيبر، راجع مثلاً: صحيح البخاري، في الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي صلى الله عليه وآله، وكتاب بدء الخلق، باب مناقب علي بن أبي طالب، وباب غزوة خيبر، في والجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل. أنظر أيضاً: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي فرد، وكتاب فضل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب. وسنن **الترمذي**، في مناقب علي بن أبي طالب. **سنن ابن ماجة**، باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله. **ومسند أحمد بن حنبل**، ج1، ص99، ج2، ص384، ج4، ص51.

(2) **صحيح البخاري**، المناقب، مناقب علي بن أبي طالب، أيضاً في المغازي، غزوة تبوك. سنن الترمذي، المناقب عن رسول الله، مناقب علي بن أبي طالب. **سنن ابن ماجة**، المقدمة، **فضل علي بن أبي طالب**. **مسند أحمد بن حنبل**، **مسند العشرة المبشرين بالجنة**، **مسند سعد بن أبي وقاص**.

(3) مرة أخرى: بشأن حديث الثقلين كتاب الله وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله، راجع: **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، (36) عن زيد بن أرقم الذي يقول: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً، بماءٍ يدعى خمًّا بين مكة والمدينة... إلخ». أيضاً صحيح الترمذي، في كتاب المناقب عن رسول الله، مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، لكن يفهم من رواية جابر بن عبدالله أنَّ حديث الثقلين قيل في خطبة يوم عرفة، وهناك رواية أخرى في الموضع نفسه عن زيد بن أرقم. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، من مناقب أهل رسول الله صلى الله عليه وآله، ح4711، ص182، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص14، 17، 26، 59، ج4، ص371، ج5، ص181. الطبراني، **المعجم الكبير**، ج5، ح4980، ص169 - 170، أيضاً ح4922، ص154. أيضاً: الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مج4، ح1761، ص355، قال: قلت: لكن الحديث صحيح، فإنَّ له شاهداً من حديث زيد بن أرقم.

السُّنة، وإنما شكَّكوا في دلالتِها، زاعمين أنَّ كلمة «المولى» في عبارة «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، تعني المُحِب والناصر. نريد في هذه العُجالة تطبيق منهج حساب الاحتمالات مرة أخرى لتأكيد دلالة هذه العبارة على إمامة علي عليه السلام.

لتحديد اتجاه الدلالة، لا بُدَّ أن نستعين بالقرائن. يُميِّز علماء أصول الفقه بين القرائن الحاليَّة (= سياق الموقف) والقرائن المقاليَّة (= سياق النَّص). وتنقسم القرائن المقاليَّة بدورِها إلى متَّصلة ومنفصِلة (وقد تُلحق القرائن المنفصِلة بالقرائن الحاليَّة).

أهمية القرائن والسِّياق في تحديد مدلول النَّص

حتى تتَّضح الفكرة القائلة بأنَّ مدلول الكلمة الواحدة - فضلاً عن الجملة الواحدة - قد يتغير وفقاً للظروف والملابسات التي استُخدِمت فيها هذه الكلمة أو الجملة. خذ المثال التالي:

عندما أنادي ابني محمداً، وأقول «محمد»، فتارة أصيح بصوتي للنِّداء، عندما أكون في بيتي أو أدخل بيتي وأريد منه شيئاً، هنا المدلول: أريدك أن تأتي.

وتارة أخرى أصيحُ خوفاً إذا ما أصابَهُ مكروه، عندما لا أسمعُ جواباً من مكان لا أتوقع وجوده إلا فيه، هنا المدلول: هل أصابك مكروه؟

وتارة ثالثة أناديه تعجُّباً، عندما يتحدَّث بكلام لا يُعقل، هنا المدلول: لا تتحدَّث بكلامٍ لا يُعقل.

وتارة رابعة أناديه استنكاراً، عندما أدخُل غرفتَهُ وأجده يلهو ليلة الامتحان، أو إذا قال شيئاً يبعث على الاستنكار، هنا المدلول: كيف تقول ذلك؟ أو كيف تفعل ذلك؟

لاحظ تعدُّد المدلول في لفظة «محمد» حسب سياق الموقف، فحتى نبرة الصَّوت قد تؤثِّر في مدلول اللفظة الواحدة.

القرائن الحاليَّة والمقاليَّة الدَّالة على أنَّ المقصود بلفظ «المولى» في عبارة «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه» هو ولاية الأمر على الأمة، وليس مجرد المُحِب والناصر[1]:

---

(1) ذكر للولي 27 معنى، وهي: الرب، العم، ابن العم، الابن، ابن الأخت، المعتِق، المعتَق، العبد، المالك، التابع، المنعم عليه، الشريك، الحليف، الصاحب، الجار، النزيل، الصهر، القريب، المنعم، الفقيد، الولي، الأولى بالشيء، السيد غير المالك والمعتِق، المحب، الناصر، المتصرف في الأمر، المتولي في الأمر.

1. آيـــة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

حيث روى الواحدي في أسباب النُّزول عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خم في علي بن أبي طالب. ويُستفاد من الآية الكريمة أنَّ الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بتبليغه كان ذا جهتين:

الأولى: أنَّ الشيء الذي أوقفهم لتبليغهم إياه ذو أهمية كبرى على مسيرة الأمة، بحيث لو لم يفعل لما بلِّغ رسالة الله، وبتعبير آخر: كان أمراً إن لم يؤده صلى الله عليه وآله تبقى رسالته ناقصة غير مكتملة!

ومن الواضح أنه لا يُرادُ بذلك أنَّ كلَّ أمرٍ إلهي لا يُبلَّغ لم تُبلَّغ رسالة الله، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح وغنيٌّ عن البيان، وإنما ظاهر الآية هو أنَّ القضية المشار إليها تحظى باهتمام خاص بوصفِها خلاصة الرِّسالة والنبوة.

الثانية: إنَّ وعد الله تعالى بأن يعصِمَ رسولَهُ من الناس يدلُّ على أن تبليغ ما أُمِرَ بتبليغهِ سيثير حفيظة شرائح واسعة ممن تظاهر بالإيمان وأسلمَ وقلبُهُ مملوءٌ بالحقد والغل، أو أحاط برسول الله صلى الله عليه وآله طمعاً في الرِّئاسة من بعده. ولا معنى من معاني الولاية يتطلَّب صدور هذا الوعد من الله تعالى إلا ولاية الأمر من بعد رسولهِ صلى الله عليه وآله. ومن هنا أعلن الله سبحانه دعمه ومساندته الخاصة لرسوله صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ثم أكد تعالى في نهايةِ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

مضافاً إلى هذا وذاك، من الواضح أنَّ هذه القضية لا تتعلَّق بالصلاة والصوم والحج وما شابه ذلك من تشريعات الإسلام؛ لأنَّها من آيات سورة المائدة، وسورة المائدة هي آخر سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله - أو على أقل تقدير من أواخر السور التي نزلت - أي نزلت في أواخر عمر رسول الله صلى الله عليه وآله المبارك، بعدما انتهى صلى الله عليه وآله من بيان كافة الأركان المهمَّة والتفاصيل التشريعية للإسلام[1].

2. لا يعقل أبداً أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله - المعروف بحكمتِهِ - بإيقاف الألوف المؤلَّفة من الحُجَّاج في الصَّحراء في حرِّ الظهيرة، ويهتم بإرجاع من تقدَّمَ منهم وإلحاق من تأخَّر، ويُنزلهم جميعاً في العَراء بلا كلأ ولا ماء، ويأمُرَهم أن يصنعوا له منبراً من الأحجار وحدائج الإبل، لكي يُعلن للمسلمين أنَّ علياً عليه السلام مُحِبُّهُم وناصِرُهُم، ثم يطلب منهم أن يُبلِّغ الشاهد منهم الغائب! بل لا بُدَّ أن يكون للموضوع أهمية بالغة.

(1) يقول الفخر الرازي في ذيل هذه الآية: قال أصحاب الآثار أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله لم يعمر بعد نزولها إلا أحد وثمانين يوماً.

بعبارة أخرى: إنَّ محبة الإمام علي عليه السلام لجميع المؤمنين لم يكن أمراً خافياً وسرّياً ومعقّداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد والإيضاح، ويستدعي إيقاف ذلك الرّكب العظيم وسط الصحراء القاحلة والشمس الحارقة، وإلقاء خطبة عليهم، لأخذ الإقرارات من ذلك الجمع. فالقرآن يقول بصريح القول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، ويقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2]. إذن، الأُخوَّة الإسلامية ومودَّة المسلمين بعضِهم لبعض من أكثر المسائل الإسلامية بداهة، فقد كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما أكَّد عليها رسول الله صلى الله عليه وآله مراراً، فضلاً عن عدم الحاجة إلى بيانها بهذا الأسلوب الحاد، ولا يستدعي الأمر أن يشعر رسول الله صلى الله عليه وآله بالخطر من البوح بها.

3. قبل إعلان رسول الله صلى الله عليه وآله ولاية الإمام علي عليه السلام، أخبر أمَّتهُ أنه راحلٌ إلى ربه: «إني أوشك أن أُدعى فأجيب، وإني مسؤولٌ وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» وفي هذا الإعلان دلالة على أنَّ ما سيُقال بمثابة وصيَّة.

4. قبل إعلان رسول الله صلى الله عليه وآله ولاية الإمام علي عليه السلام، أوصى أمَّته بالكتاب والعترة، وأكَّد أنَّهما لن يَفترِقا، ثم قدَّم لهم علياً عليه السلام معلناً «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه». وفي هذا السِّياق دلالة على تعريف من يجِب على الأمة التمسُّك به وبالقرآن لتُصان عن الضَّلال. لاحظ بالخصوص عبارة: «تاركٌ فيكم الثَّقلين» أو «فانظروا كيفَ تخلُفُوني في الثَّقلين»، وأنَّهما «لن يَفترِقا».

5. من القرائن على أنَّ الولاية في الحديث بمعنى ولاية الأمر، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مهَّد لولايةِ الإمام علي عليه السلام بولاية الله تعالى، وقال: «اللهُ مولاي»، ولا شكَّ أنه لا ولاية لأحدٍ عليه صلى الله عليه وآله سوى الله تبارك وتعالى، ثم قال: «وأنا مولى كلّ مؤمن»، فأفاد أنَّ تلك الولاية ثابتة له على المؤمنين، ثم قال: «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، فأثبتَ تلك الولاية لعليٍّ من بعدهِ، ومن الواضح أنَّها ليست إلا ولاية أمر المسلمين.

6. ومن القرائن أنه صلى الله عليه وآله رفع الشُّبهة والشَّك وسدَّ الطريق على من يريد تحريف ولاية الإمام علي عليه السلام التي أعلنها، حيث ذكَّرهم بقول الله تعالى «النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم»، وأخذ منهم الإقرار بولايتهِ وأولويتهِ بهم، بقوله: «ألستُ أولى بالمؤمنينَ من أنفسهم؟ قالوا: بلى»، ثم جعلَ تلك الولاية والأولوية لعليٍّ عليه السلام بقوله «فمن كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه». بعبارة أخرى: فرَّع على سؤالهِ «ألستُ أولى بكُم من أنفُسِكُم؟» قوله «فمن

(1) سورة الحجرات، الآية: 10.
(2) سورة التوبة، الآية: 71.

كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه»، فلا يبقى أيُّ شكٍّ في أنَّ المراد من «المولى» هو ولاية الأمر على المسلمين.

بعبارة أخرى، إنَّ سؤال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألستُ أولى بكُم من أنفُسِكُم» لا تتناسب أبداً مع مجرَّد بيان مودَّة عادية، بل إنه يريد القول بأنَّ تلك الأولوية والتصرُّف الذي لي تجاهكم وكوني إمامَكُم وقائِدَكُم، كلُّ ذلك ثابتٌ لعليٍّ عليه السلام، وأيُّ تفسيرٍ لهذه العبارة غير ما قيل، بعيدٌ عن سياق الموقف، خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار جملة «من أنفُسِكُم» الواردة في «أنا أولى بكم من أنفُسِكُم».

7. آية إكمال الدِّين وإتمام النِّعمة من القرائن على أنَّ الولاية في حديث الغدير بمعنى ولاية الأمر: روى الخطيب البغدادي في تاريخه، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: من صامَ يوم ثمان عشرة من ذي الحجة، كُتِبَ له صيامُ ستين شهراً. وهو يومُ غدير خم، لمَّا أخذَ النبي صلى الله عليه وآله بيدِ علي بن أبي طالب فقال: ألستُ أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه، فقال عمر بن الخطاب: بخٍ بخٍ لكَ يا ابن أبي طالب أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مسلم، فأنزل الله: «اليومَ أكملتُ لكم دينكم»[1].

ولا يمكن تصوُّر إكمال الدِّين وإتمام النِّعمة على المسلمين، إلا بتعيين شخص يُبيِّن الإسلام ويُنفِّذه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

8. أيضاً من القرائن الدَّالة على أنَّ الولاية في حديث غدير خم بمعنى ولاية الأمر، فهم الحضور ثم تهنِئَتُهُم لعلي عليه السلام: فالمسلمون عندما سمعوا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله فهموا من «المولى» الولي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، بدليل أنَّهم هنؤوا علياً عليه السلام بذلك. فقد روى أحمد بن حنبل في مسندهِ، والخطيب في تاريخ بغداد، والرَّازي في تفسيره الكبير، واللفظ للأول:

«عن البراءِ بن عازب قال: كُنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله في سفرٍ، فنزلنا بغديرِ خُم، فنُودي فينا الصلاة جامعة، وكسح لرسولِ الله صلى الله عليه وآله تحتَ شجرتين، فصلى الظُّهرَ وأخذَ بيدِ عليٍّ رضي الله تعالى عنه فقال: ألستُم تعلمونَ أني أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم؟ قالوا: بلى، قال: ألستُم تعلمونَ أني أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِهِ؟ قالوا: بلى، قال: فأخذَ بيدِ علي فقال: من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه. قال: فلقِيَهُ عمر بعد ذلك فقال له: هنيئاً لكَ يا بنَ أبي طالب، أصبحتَ وأمسيتَ مولى كلّ مؤمن ومؤمنة[2].

---

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج8، ص290، نقلاً عن: الأميني، الغدير، ج1، ص232.

(2) مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص281.

فهذه التَّهنئة من شخصٍ مثل عمر، لا يمكن تفسيرُها بمدح رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بأمرٍ مشترك بينَهُ وبينَ غيرِهِ. بل لا بُدَّ أن تفسَّر على أنَّ عمر فهم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله خصَّ علياً عليه السلام بأمرٍ خاص يستحق التهنئة، وليس هو إلا ولايته وزعامته على الأمة.

بعبارة أخرى: المودَّة العاديَّة بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لا ينسجم إلا مع الولاية التي تقتضي الخلافة.

9. من القرائن أيضاً على أنَّ غدير خم كان يوماً استثنائياً، فهم حسان بن ثابت، الذي عبَّر عن فهمه شعراً:

يُناديهم يومَ الغديرِ نبيُّهُم ... بخُمٍّ وأسمِع بالرسولِ مناديا
فقال: فمن مولاكُم ونبيُّكُم؟ ... فقالوا ولم يبدُ هُناكَ التعاميا
إلهكَ مولانا وأنتَ نبيُّنا ... ولم تلقَ منا في الولايةِ عاصيا
فقالَ له: قُم يا عليّ فإنني ... رضِيتُكَ من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنتُ مولاهُ فهذا وليُّهُ ... فكونوا لهُ أتباعَ صِدقٍ مَواليا
هُناك دعا: اللهم والِ وليَّهُ ... وكُن للذي عادى عليّاً مُعاديا

10. أيضاً من القرائن على أن حديث غدير خم يدلُّ على إمامة وزعامة علي عليه السلام، ما فهمه ذاك من سأل بعذاب واقع: قال الشبلنجي في نور الأبصار، والإمام أبو إسحاق الثَّعالبي في تفسيره الكشف والبيان، والقرطبي في تفسيره: «أنَّ سُفيان بن عُيينة - رحمه الله تعالى - سئل عن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ فيمن نزلت؟ فقال للسائل: لقد سألتني مسألة لم يسألني عنها أحدٌ قبلَك، حدثني أبي عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما كانَ بغديرِ خُم نادى الناس، فاجتمعوا، فأخذَ صلى الله عليه وآله بيدِ علي وقال: من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه، فشاعَ ذلك وطارَ في البلاد. وبلغَ ذلك الحارث بن النعمان الفهري (وفي بعض المصادر جابر بن النَّضر بن الحارث الذي قتلَ عليٌّ عليه السلام والدَهُ في معركة بدر بأمرِ رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أُخِذَ أسيراً)، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقةٍ، فأناخَ راحلتَهُ، ونزلَ عنها، وقال: يا محمد! أمرتنا عن اللهِ عزّ وجلّ بشهادةِ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله فقبلنا منك، وأمرتنا أن نُصلِّي خمساً فقبلنا منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترضَ بذلك حتى رفعتَ بضبعي ابن عمِّك تُفضِّله علينا، فقلت: من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه! فهذا شيءٌ منكَ أم من اللهِ عزّ وجلّ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي لا إله إلا هو، إنَّ هذا من اللهِ عزّ وجلّ ،

فولى الحارث بن النعمان يريدُ راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقولُ محمدٌ حقاً فأمطِر علينا حجارةً من السَّماءِ او ائتِنا بعذابٍ أليم، فما وصلَ راحلتَهُ حتى رماهُ اللهُ عزّ وجلّ بحجرٍ، سقط على هامتِهِ وخرجَ من دبرِهِ وقتلَهُ، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾[1].

لا شكَّ أنَّ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله في فضائل الإمام علي عليه السلام كانت قد بلغت المسلمين، والجديد الذي لم يكن يعرفه أمثال الحارث بن النُّعمان الفهري أو جابر بن النَّضر إنما هو ولاية الإمام علي عليه السلام على الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يصعب عليهم قبوله، ولذلك اعترضوا عليه.

11. ومن القرائن المهمة الدالة على أن المقصود بـ «المولى» من له الولاية على الأمة، احتجاج الإمام علي عليه السلام في الكوفة بالغدير ومناشدة الناس: فقد احتجَّ الإمام علي عليه السلام - بعد استلامِهِ الخلافة وانتقالِهِ إلى الكوفة - بحديث الغدير، وناشد الصَّحابة بأن يقفوا ويُقرُّوا بأنَّهم شهدوا هذه الواقعة المهَّمة والمصيرية، وقد نقل ذلك عدد من كبار علماء السُّنة[2].

ونكتفي بما نقله ابن الأثير عن الأصبغ بن نُباتة قال: نشدَ عليٌّ عليه السلام الناسَ في الرَّحبة: من سمعَ النبي صلى الله عليه وآله يوم غدير خم ما قال إلا قام، ولا يقوم إلا من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول. فقامَ بضعة عشر رجلاً، فيهم أبو أيوب الأنصاري، وأو عمرة بن عمرو ابن محسن وأبو زينب وسهل بن حُنيف وخُزيمة بن ثابت.... ....فقالوا: نشهدُ أنَّا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألا إنَّ الله عزّ وجلّ وليّي، وأنا وليُّ المؤمنين، ألا فمن كنت مولاهُ فعليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبَّ من أحبَّه، وأبغض من أبغضه، وأعن من أعانه[3]... وكتم قومٌ، فما خرجوا من الدُّنيا حتى عموا وأصابتهم آفة! منهم يزيد بن وديعة، وعبد الرحمن بن مدلج[4]، وفي مصادر أخرى، منهم جرير بن

---

(1) سورة المعارج، الآيتان: 1 - 2. وقد ذكر ابن تيمية في منهاج السنة وجوهاً في إبطال الحديث، لكن العلامة الأميني فندها في **«الغدير»**، ج1.

(2) أنظر مثلاً: ابن الأثير، **أسد الغابة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص233ن ج3، ص93، ص307، ص321، ج4، ص28، ج5، ص6، ص205، ص276. **مسند أحمد بن حنبل**، ج1، ص118، ص119... ومصادر أخرى كثيرة.

(3) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج3، ص307.

(4) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج3، ص321.

عبد الله[1]، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب[2]، وأنس بن مالك[3].

وإن كان تاريخ المناشدة هو (35هج)، فهذا يعني أنَّ المناشدة حدثت بعد واقعة غدير خم بما يربو على خمسة وعشرين عاماً. وخلال هذه المدَّة كان كثير من الصَّحابة الحضور يوم الغدير قد قضوا نحبَهم، وآخرون قُتِلوا في المغازي والفتوح، ومنهم من مات بطاعون الشَّام، وكثيرٌ منهم منتشرٌ في البلاد. وكان عددُ الصَّحابة في الكوفة قليلاً مقارنة بعدَدِهم في المدينة المنورة، ولم يكن فيها إلا شراذم منهم تبعوا الحق فهاجروا إلى الكوفة في العهد العلوي، وكانت قصَّة المناشدة من ولائد الاتفاق من غير أيَّة سابقة لها حتى تقصدها القاصدون، فتكثر الشُّهود، وتتوافر الرُّواة.

وعندما نتحدَّث عن عفوية مناشدة الإمام علي عليه السلام يوم الرَّحبة، فإنَّما نقصد أنه عليه السلام لم يُرسِل كُتُباً قبل المناشدة للصَّحابة في المدينة، أو مكة، أو حتى البصرة، يخبرهم بأنه سيعقد اجتماعاً يطلب فيه الشَّهادة بمجريات غدير خم.... لم يقم عليه السلام - وفق ما تتوافر لدينا من معطيات - بشيءٍ من هذا القبيل، وإنما اكتفى بالصَّحابة الموجودين فعلاً بالكوفة.

نعم، لقد شهد في رحبة الكوفة بحديث الغدير ثلاثون صحابياً، منهم اثنا عشر بدرياً (من أصل 313 بدرياً) سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله. راجع في ذلك مسند الإمام أحمد بن حنبل[4]. وأن يشهد هذا العدد، بعد الواقعة بأكثر من 25 سنة، مع وجود عدد محدود من الصَّحابة في الكوفة نسبة لمجموعهم الكلي، لهو شاهدٌ إضافي على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر ذلك في حشدٍ كبير من الصَّحابة، وفي موقفٍ مهيب ظلَّ راسِخاً في ذاكرة هذا العدد من الصَّحابة.

ومن البديهي أنَّ استشهاد الإمام علي عليه السلام بهذا الحديث، وطلبه شهادة الصَّحابة

---

(1) ورجع جرير أعرابياً بعد هجرته، فأتى الشراة فمات في بيت أمه.

(2) وأصيب البراء بالعمى.

(3) حيث قال له علي عليه السلام: مالك لا تقوم مع أصحاب رسول الله فتشهد بما سمعته يومئذ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كبرت سني ونسيت، فقال علي عليه السلام: إن كنت كاذباً فضربك الله بيضاء لا تواريها العمامة، فما قام حتى ابيَضَّ وجهه برصاً، فكان بعد ذلك يقول: أصابتني دعوة العبد الصالح (ذكر ذلك ابن قتيبة الدينوري في المعارف حيث عد أنساً في أهل العاهات).

(4) مضافاً إلى ذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده أن رهطاً جاء إلى علي عليه السلام فقالوا: السلام عليك يا مولانا، قال: من القوم؟ قالوا: مواليك يا أمير المؤمنين، قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب، قالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم يقول: من كنت مولاه فإن هذا مولاه، قال (رياح الراوي): فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء؟ قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري.

لإثباتِ مقامه، قرينة واضحة على تعيُّن مدلول كلمة «الولي» في ولاية أمر المسلمين[1].

زبدة الكلام: إنَّ فتح مكة والطائف كان منعطفاً كبيراً في تاريخ الإسلام، فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً، وبدأت قبائل الجزيرة تخضع لسُلطة الإسلام، لكن الحالة الجاهلية والعصبيات القبلية كانت ما زالت على حالها، خصوصاً عند أولئك الذين دخلوا في الإسلام عندما وجدوا أنه صار أمراً واقعاً، فآمنوا بألسنتهم ليحقنوا بذلك دماءهم، فأدركوا ما أمَّلُوا، لكن الأحقاد ما زالت في القلوب تغلي كالمرجل، لذا يقول دعبل الخزاعي في تائيته المشهورة:

إذا ذكروا قتلى ببدرٍ وخيبرٍ	ويومَ حنينٍ أسبلوا العبرات[2]
فكيف يُحبُّونَ النبيَّ ورهطَهُ	وهم تركوا أحشاءَنا وغِراتِ
لقد لاينوهُ في المقالِ وأضمروا	قلوباً على الأحقادِ منطوياتِ

تذكَّر أنَّ حادثة غدير خم وقعت في (10هج)، وأنَّ معركة بدر وقعت في (2هج)، وهذا يعني أنه لم تكد تمضي ثمان سنوات بعدما فعل الإمام علي عليه السلام بقريش الأفاعيل، إلا وجاء الأمر الإلهي بإعلانِهِ إماماً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله . . . . قُصر هذه المدَّة، ورسوخ الحالة الجاهلية في وجدان قريش، جعل قريش لا تتحمَّل علياً عليه السلام كإمام وخليفة.

حاول رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُرسِّخ قيماً جديدة، لخَّصها في خطبته في عرفة، وخشي كثيراً من مضاعفات إعلان ولاية علي عليه السلام لأنه يدرك تماماً ما تنطوي عليه قلوب الكثيرين. لكن لسان حال أولئك يوم غدير خم كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله : افعل ما بدا

---

(1) وقد أثار بعضهم إشكالاً في أن حديث الغدير إذا كانت له دلالة على ولاية الأمر فلماذا لم يحتج به علي عليه السلام عند مواطن الحاجة؟
والحقيقة أن علياً عليه السلام احتج بحادثة الغدير مراراً وتكراراً، فقد روى الخطيب الخوارزمي الحنفي في كتابه «المناقب» عن عامر بن واثلة قال: كنت مع علي عليه السلام يوم الشورى (سنة 23 أو 24هج) وسمعته يقول لهم: لأحتجن عليكم بما لا يستطيع عربيكم ولا عجميكم تغير ذلك، ثم قال: أنشدتكم الله أيها النفر جميعاً أفيكم أحد وحد الله قبلي. . . فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. . . .»، ونقل هذه الرواية الحمويني في فرائد السمطين في الباب 58، وابن حاتم في درر النظم، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، كما روى ابن حجر هذا المضمون في الصواعق عن الدارقطني.

(2) طبعاً ليس ندماً، وإنما حسرة على رؤوس الشرك من قبائلهم الذين قتلوا على يد علي وحمزة وأمثالهما.

لك، وقل ما تشاء بحقِّ الإمام علي عليه السلام، لن نصطدم معك في ذلك، لكن لنا شأن آخر معه عليه السلام عندما تفارق الدُّنيا، ونحن منتظرون للحظة رحيلك لنبدأ بتنفيذ أجندتنا الخاصة!!

خطوتان إضافيتان قبيل الوفاة

لم يمض على حجَّة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله، فاتَّخذ قبيل شكاته أو أوَّلها - والتي استدامت قبل وفاته أربعة عشر يوماً تقريباً - خطوتين احترازيتين - على الأقل - ليُسهِّل أمر وصول الإمام علي عليه السلام إلى سِدَّة الخلافة، سيقوم وجهاء المهاجرين بإحباطها، عندما تصوَّروا أنهم هم نقطة الارتكاز والتوازن بعد وفاته صلى الله عليه وآله، وهم العملة الصَّعبة في أيَّة عملية تسوية غير معلنة... فهم صاروا بعد فتح مكة والطائف، أكثر قوة ومنعة، لأنَّهم من ناحية كانوا من السَّابقين إلى الإسلام، ومن ناحية ثانية كانوا من قريش العدنانية (قبيلة رسول الله)، في مقابل الإمام علي عليه السلام الذي قتل صناديد قريش، وفي مقابل الأنصار القحطانيين. فما هما هاتان الخطوتان؟

الخطوة الأولى بعث أسامة بن زيد: وأسامة فتى لم يتجاوز العشرين من عمره، وهو ابن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله... عقدَ له رسول الله صلى الله عليه وآله الإمرة، وندبَهُ أن يخرج بجمهور الأمة إلى حيث أُصيبَ أبوهُ من بلاد الرُّوم (في غزوة مؤتة)، واجتمع رأيهُ صلى الله عليه وآله على إخراج جماعة من متقدِّمي المهاجرين والأنصار، مثل أبي بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير وبشير بن سعد.... وغيرهم[1]، حتى لا يبقى في المدينة عند وفاته صلى الله عليه وآله من يختلف في الرِّئاسة، ويطمع في التقدُّم على الناس بالإمارة، ويستتبّ الأمر لمن استخلفه بعده، ولا ينازعهُ في حقِّهِ منازع. وجدَّ صلى الله عليه وآله في إخراجِهِم، فأمر أسامة بالبروز عن المدينة بمعسكرِهِ إلى الجُرف (= موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام)، وحثَّ الناسَ على الخروج إليه والمسير معه، وحذَّرهُم من الإبطاء عنه.

فبينا هو في ذلك، إذ عرضَت له الشَّكاةُ التي توفي فيها، وغضب صلى الله عليه وآله من تباطؤ القوم ولغطِهِم عندما أظهروا الطعنَ والاستخفاف بالقائد العام للجيش، وقالوا: أمَّر غُلاماً

---

(1) صرح بدخول أبي بكر في البعث أكثر المؤرخين، منهم ابن سعد في طبقاته، وابن عساكر في التهذيب، وصاحب كنز العمال، والذهبي في تاريخ الإسلام، .... إلخ، راجع السقيفة لمحمد رضا المظفر، دار الصفوة، ط1، 1413هج - 1992م، بيروت، ص80. ويقول ابن هشام: «وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون»، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص220.

حدَثاً على جلّة المهاجرين والأنصار[1]. فصعدَ صلى الله عليه وآله المنبر وقال: أيُّها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة، لقد طعنتُم في تأميري أباهُ من قبلهِ، وأيمُ الله أنه كان لخليقاً بالإمارة وإنَّ ابنهُ من بعدهِ لخليقٌ بها. ثم نزلَ ودخلَ بيتَهُ، وكرَّر وصيتَهُ: جهِّزُوا جيشَ أسامة، نفذوا جيشَ أسامة، لعنَ اللهُ من تخلَّف عن جيش أسامة[2].

رسولُ الله صلى الله عليه وآله، ربما، لم يُرِد إخلاء المدينة لعليّ عليه السلام فحسب، بل أراد أيضاً أن يُعلِّم الناسَ أنَّ الكفاءة العملية هي المعيار في الاختيار، لا التقدُّم في العُمُر، ولا الجانب القبَلي، هو أساس الاختيار.

ولما أحسَّ صلى الله عليه وآله بالمرض الذي عراه، توجَّه إلى البقيع، وقال لمن تبعه: إنني قد أُمرتُ بالاستغفار لأهل البقيع. فانطلقوا معه حتى وقفَ بين أظهرهم، فقال صلى الله عليه وآله: «السلامُ عليكم يا أهلَ البقيع، ليَهنَ (= هنيئاً) لكُم ما أصبحتُم فيه، لو تعلمونَ ما أنجاكُمُ اللهُ منه، أقبلت الفِتن كقِطعِ اللَّيلِ المُظلم، يَتبَعُ أولُها آخرَها»[3].

<u>الخطوة الثانية طلبُهُ الكتفَ والدَّواة:</u> عندما اشتدَّ مرض رسول الله صلى الله عليه وآله، واجتمع الصَّحابة في دارهِ، ولحقَ بهم من تخلَّف عن جيش أسامة، ولامَهُم رسول الله صلى الله عليه وآله على تخلُّفِهم واعتذروا بأعذارٍ واهية... استشرفَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من هذه التحرُّكات السِّياسية المقلقة ما ستؤول إليه الأمور، فقال لهم: ائتوني بكتابٍ (أو بالكتفِ والدَّواة واللَّوح) أكتُبُ لكم كتاباً لا تضلوا بعدَهُ، فقال عمر بن الخطاب: إنَّ النبيَّ غلبَهُ الوجع[4] وعندكم القرآن، حسبُنا كتاب الله. وهكذا وقعَ التنازع والاختلاف واللَّغط، ولا ينبغي (ولا يليق) عند نبيٍّ تنازُع، وقالت النُّسوة: ائتوا رسول الله صلى الله عليه وآله بحاجتِهِ، فقال عمر: اسكُتن، فإنَّكُن صواحِبُهُ، إذا مرضَ عصرتُنَّ أعيُنَكُنَّ، وإذا صحَّ أخذتنَّ بعُنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هنَّ خيرٌ منكم. ثم قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازُع.... وكان ابنُ عباس كلَّما ذكر هذه الحادثة (التي عرفت برزيَّة يوم الخميس) يبكي ويقول: إنَّ الرَّزيةَ كلَّ الرَّزية ما حالَ بيننا وبينَ كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله[5].

---

(1) ابن إسحاق، **السيرة النبوية**، ص707.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص100 - 101، مج3، ج6، ص33 - 34.

(3) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4383، ص67.

(4) وفي بعض الروايات: «إن نبي الله ليهجر»، أي يخلط في الكلام ويهذي من شدة المرض.

(5) **صحيح البخاري**، كتاب العلم، باب كتابة العلم/ صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب جوائز الوفد/ =

ويرى بعض الباحثين أنَّ عمر كان على علم بما سيكتُبُه صلى الله عليه وآله من النَّص على الإمام علي عليه السلام، لأنهُ قبل ثلاثةِ أشهر في حجَّة الوداع ثم في غدير خم، تحدَّث عن ضرورة التمسُّك بأهل البيت عليهم السلام إلى جانب التمسُّك بالقرآن. . . . . ويؤكِّد ذلك ما رواه مسلم في صحيحهِ: عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فِينَا خَطِيباً، بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ؛ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ - فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ - ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي(1).

ويؤكِّد ذلك أيضاً ما رواه الترمذي في صحيحه: عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي - أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ - كِتَابُ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا(2)!!

والشاهد المؤيِّد لهذا التحليل، أنَّ عمر قال: حسبُنا كتاب الله، وهذا يعني أنَّ عمر كان يعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوف يوصي بشيءٍ آخر إلى جانبِ كتاب الله، كما ذكر في حجة الوداع وغدير خم، فكأنَّ عمر قال: يكفينا واحد منهما وهو الكتاب ولا حاجة لنا بالآخر، وإلا فما معنى قوله حسبُنا كتاب الله.

ولو افترضنا جدلاً أن حديث الثَّقلين لم يتحدَّث عن كتاب الله وأهل بيت رسوله صلى الله عليه وآله، وإنما يتحدَّث - كما جاء في روايةٍ ضعيفةٍ مرسلة - عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، ألا يعني موقف عمر هذا أنه هو أوَّل من رفض السُّنة النبوية واكتفى بكتاب الله؟

على أيِّ حال، بعد حادثة رزيَّة يوم الخميس، تذكُر بعض المصادر الشِّيعية أنَّ العباس

= **صحيح البخاري**، كتاب الجزية، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب/ **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب كراهية الخلاف/ صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب قول المريض: قوموا عني/ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي. **صحيح مسلم**، كتاب الوصية، باب ترك الوصية. مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص346. أيضاً الواقعة هذه مروية في طبقات ابن سعد، وغيره من المصادر، طبعاً مع فروق طفيفة واختلاف في الإجمال والتفصيل.

(1) **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، (36)، أيضاً **سنن الدارمي**، فضائل القرآن، فضل من قرأ القرآن.

(2) **سنن الترمذي**، المناقب عن رسول الله، مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : إن يكُن هذا الأمرُ فينا مستقراً بعدَك فبشِّرنا، وإن كنتَ تعلم أنا نُغلَب عليه فأوصِ بنا، فقال صلى الله عليه وآله : أنتُم المستضعفونَ من بعدي، وأصمتَ، فنهض القومُ وهم يبكون قد أيسوا من رسول الله صلى الله عليه وآله [1].

والذي يؤكِّد أنَّ طلب رسول الله صلى الله عليه وآله للكتف والدَّواة مرتبطٌ بمسألة الإمامة والخلافة من بعدِهِ، ما فهمه عبد الرحمن بن أبي بكر من هذه الحادثة. فقد نقل ابن الأثير والحاكم النيسابوري عن عبد الرحمنِ بن أبي بكر أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ائتوني بكتفٍ ودواة أكتُب لكم كتاباً لا تضلُّون بعده، (يقول الراوي)، ثم ولَّى (عبد الرحمن) قفاهُ ثم أقبلَ علينا فقال: يأبى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكر[2]. والسؤال: إن لم يكُن لرزيةِ يوم الخميس علاقة بمسألة الإمامة والخلافة، إذن لمَ يربِط عبد الرحمن ابن أبي بكر بين هذهِ الحادثة واختيار أبيه أبي بكر؟!

والحقيقة أنَّ لعمر بن الخطاب دوراً أساسيّاً في تثبيت الأمر لأبي بكر، ولولاهُ ما استتبَّ الأمر للخليفة الأول، فـ«هو الذي شدَّ بيعة أبي بكر، ووَقَمَ المخالفين فيها، فكسرَ سيفَ الزبير لما جرَّدهُ، ودفع في صدرِ المقداد، ووطئ في السَّقيفة سعد بن عبادة، وقال: اقتلوهُ قتلَهُ الله[3]، وحطَّم أنف الحُباب بن المنذر الذي قال يوم السَّقيفة: أنا جُذيلها المحكك وعُذيقها المرجَّب، وتوعَّد من لجأ إلى دارِ فاطمة عليها السلام من الهاشميين[4]، وأخرجَهُم منها، ولولاهُ لم يثبت لأبي بكر أمرٌ، ولا قامَت له قائمة»[5]، وهو الذي قال لعليّ عليه السلام : إنك لستَ متروكاً حتى تُبايع، وكان علي عليه السلام يتَّهم عمر بأنه لم يشد أزر أبي بكر إلا ليجعلها له من بعدِهِ، حيث قال له مرة: احلِب حلباً لكَ شطرُهُ واشدُد لهُ اليومَ أمرَهُ ليَرُدَّهُ عليكَ غداً[6].

---

(1) المفيد، **الإرشاد**، ج1، ص184 - 185. قد يقال: كيف يسأل العباس رسول الله صلى الله عليه وآله عما إذا كان الأمر في بني هاشم طالما أنه رأى وسمع ما جرى في غدير خم؟ فأقول: نفهم من سؤال العباس أنه يريد أن يعرف ما سيقع فعلاً، ولا يريد أن يسأل عما يجب أن يقع. بدليل قوله «وإن كنت تعلم أنا نغلب عليه فأوص بنا»، أي إن كان لديك علم غيبي بأنَّ حق بني هاشم في الخلافة سيُسلب، إذن لا بد من اتخاذ إجراءات جديدة. . . . لكن كما يقول سبحانه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾؟! (هود، 28).

(2) ابن الأثير، **أسد الغابة**، مج3، ص305، أيضاً: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، مناقب عبد الرحمن بن أبي بكر، ح6016، ص580.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459.

(4) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، ط1، 1410هج، - 1990م، بيروت، ص30.

(5) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص110.

(6) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص29.

لماذا لم ينصّ القرآن صراحة على إمامة علي عليه السلام؟

يثار عادة تساؤل حول سبب عدم نصّ القرآن على إمامة علي عليه السلام صراحة. فطالما أنَّ الدِّين لا يكتمل، والنِّعمة لا تتم، والرِّسالة لا تُبلَّغ، إلا بإعلان إمامة علي عليه السلام، إذن ألم يكن من الأجدر أن ينصّ القرآن صراحةً على إمامة علي عليه السلام، ليقطع مادة الخِلافِ والنِّزاع بين المسلمين؟

الجواب: طالما أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]، فلا بُدَّ من توفير الشُّروط الضرورية لحمايته من التَّحريفِ والعبَث. ولو نصَّ القرآن صراحةً على إمامةِ علي عليه السلام بنحوٍ صريحٍ لا يقبل التأويل، لفتح المجال واسعاً لكثيرين حتى يتلاعبوا به، وينكروا ويحذفوا كلَّ الآيات التي تنصّ على ذلك، ولوقع المحذور، وهو تحريف كتاب الله تعالى.

لذا عندما يقوم علماء الشِّيعة بردّ وتفنيد بعض الرِّوايات الضعيفة المرويَّة في كتبهم، التي تتحدَّث عن تحريفٍ وقعَ في كتاب الله تعالى، يتعلَّق بذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام، ويتمسّك بها شخصٌ يدَّعي وقوع التَّحريف، كالمحدِّث النوري صاحب كتاب «فصل الخطاب»، يتساءلونَ باستغراب، إنَّ هذا لو صحّ، فما هو مبرِّر قلق رسول الله صلى الله عليه وآله من الناس قُبيل إعلان إمامة علي عليه السلام في غدير خم؟ ولم طلبَ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتوهُ بكتفٍ ودواة؟

لتوضيح هذه النقطة، خذ ما ذكره الإمام الخميني (قده)، لتأكيد صيانة القرآن من التَّحريف، وردّ مقولة المحدِّث النوري، يقول: «لو كان الأمرُ كما توهَّم صاحب فصل الخطاب - الذي. . . . أوردَ روايات ضِعافاً أعرضَ عنها الأصحاب، وتنزَّه عنها أولو الألباب من قُدماء أصحابنا. . .هذا حالُ كتب الرِّوايات غالباً كالمستدرك، ولا تسأل عن سائرِ كُتُبِهِ المشحونة بالقصص والحكايات الغريبة التي غالِبُها بالهزل أشبه منه بالجد. . .والعجب من معاصريه من أهل اليقظة كيف ذهلوا وغفلوا حتى وقعَ ما وقعَ مما بكت عليهِ السَّماوات، وكادت تتدكدك على الأرض!! وبالجملة لو كان الأمرُ كما ذكرَهُ هو وأشباهه - من كون الكتاب الإلهي مشحوناً بذكر أهل البيت وفضلهم، وذكر أمير المؤمنين وإثبات وصايته وإمامته، فلم لم يحتجّ بواحدٍ من تلك الآيات النازلة والبراهين القاطعة من الكتاب الإلهي: أميرُ المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام،

(1) سورة الحجر، الآية: 9.

وسلمان، وأبوذر، ومقداد، وعمار، وسائر الأصحاب الذين لا يزالون يحتجُّون على خلافتِهِ عليه السلام؟! ولم تشبَّث عليه السلام بالأحاديث النبوية والقرآن بين أظهرهم؟! ولو كان القرآنُ مشحوناً باسم أمير المؤمنين وأولادهِ المعصومين وفضائلهم وإثبات خلافتهم، فبأيِّ وجهٍ خافَ النبي صلى الله عليه وآله في حجَّة الوداع آخر سني عمرهِ الشريف، من تبليغ آية واحدة مربوطة بالتبليغ، حتى ورد أنَّ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؟! ولم احتاجَ النبي صلى الله عليه وآله إلى دواةٍ وقلم حين موته للتَّصريح باسم علي عليه السلام؟! فهل رأى أنَّ لكلامهِ أثراً فوق أثر الوحي الإلهي؟! وبالجملة: ففساد هذا القول الفظيع والرأيِّ الشَّنيع أوضح من أن يخفى على ذي مسكة»(1).

وهذا السبب هو ذاته الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يُحجِم عن كتابةِ وصيته، بعدما سمع كلمة «غلبَهُ الوَجَع» أو «يهجُر»، فقد ورد في طبقاتِ ابن سعد، أنه قيلَ لرسول الله صلى الله عليه وآله بعدما قال عمر ما قال: ألا نأتيكَ بما طلبت؟، فأجابَ صلى الله عليه وآله: أو بعدما قال!! لأنَّ أيَّ وصية سيكتُبُها رسول الله صلى الله عليه وآله سيُتَّهم على الفور بأنه كتبَها وهو في حال هذيان. حاشاه بأبي هو وأمي.

إذن توجد في القرآن - من خلال معرفة ملابسات أسباب النُّزول - إشارات كافية على إمامة علي عليه السلام. وحادثة غدير خم، موقف كاف، لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد. ناهيك عن الآيات القرآنية والمواقف المتعدِّدة المؤيِّدة لإمامة علي عليه السلام.... لكن إن رفض كبار وجهاء المهاجرين هذا كله، واكتفوا بكتاب الله كمرجعية دينية، واكتفوا بقريش كظهير ومرجعية اجتماعية... فلسان حال رسول الله صلى الله عليه وآله حينئذٍ سيكون: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾(2)، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؟(3) فعدم نصّ القرآن صراحة على إمامة علي عليه السلام إنَّما هو لصيانتِهِ من التَّحريف وعدم تهيئة الأرضية لحدوث ذلك، والله أعلم.

الخلاصة: تعرَّفنا فيما مضى إلى تعاظُم تأثير قريش والمنافقين بعد فتح مكة، وتناولنا عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كنتُ مولاه فعلي مولاه» بالتحليل والتَّفسير، ورأينا أنَّ القرائن والشواهد وسياق الموقف كُلَّها تصُبُّ لصالح تفسير العبارة على أنه إعلان بإمامة

---

(1) الإمام الخميني، أنوار الهداية في التعليقة على الكفاية، تحقيق مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ط1، 1413هج، قم، ج1، ص243 - 247. مع تصرُّف طفيف ببعض الضمائر وحذف بعض الكلمات حتى يصبح المعنى أكثر وضوحاً.

(2) سورة المائدة، الآية: 25.

(3) سورة هود، الآية: 28.

علي عليه السلام، واستعرضنا السَّاعات الأخيرة الصَّعبة والمؤلمة جداً من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتجاهُل أمره في بعثِ أسامة لأعذارٍ واهية، وتجاهُل أمره مرةً أخرى لكتابةِ وصيتِهِ الأخيرة تحت مبرر أنَّه صلى الله عليه وآله قد غلبَهُ الوجَع وأنَّ كتابَ الله كافٍ؟

الآن، عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأراد الإمام علي عليه السلام غسله، استدعى الفضل ابن عباس، فأمرَهُ أن يُناوله الماء لغسلِهِ صلى الله عليه وآله، وتولى الإمام علي عليه السلام بنفسه غسلَه وتحنيطَه وتكفينه، وصلى عليه السلام عليه صلى الله عليه وآله، ثم بنو هاشم. ووقف عليه السلام على قبرِهِ صلى الله عليه وآله ساعةَ دفنِهِ يقول: إنَّ الصبرَ لجميلٌ إلا عنك، وإنَّ الجزعَ لقبيحٌ إلا عليك، وإنَّ المصابَ بكَ لجليل، وإنَّه قبلَكَ وبعدَكَ لجلل[1].

وتشير مصادر تاريخية متعدِّدة إلى أنه لم يحضر أحدٌ من وجهاء المهاجرين عند تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله للدَّفن، لما جرى بينهم وبين الأنصار من التَّشاجُر في أمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

هذا كلُّه، يُوضِّح لنا الانقلاب الأول الذي قادَته قريش، وحمل لواءه وجهاء المهاجرين، على بني هاشم والأنصار. والأحداث التالية ستحمل في طياتها مفاجأة لوجهاء المهاجرين... ستحمل انقلاباً ثانياً، من بني أمية عليهم وعلى قريش، لتتهيأ الأرضية بالتدريج لاعتلاء يزيد السُّلطة بعد موت معاوية.

في الفصل القادم نريد أن نستوعب بعمق الاصطفافات الجديدة، ولسان حال كل مجموعة من المجموعات، وكل تيار من التَّيارات، وتصوُّراتهم لمرحلة ما بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، سواء صرَّحوا بذلك في حواراتهم، أو كان مفهوماً ضمناً من سياق الموقف. لسان حال قريش، لسان حال الأنصار، لسان حال وجهاء المهاجرين، وأخيراً لسان حال بني هاشم.

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، ص527.

(5)

السَّقيفة وموقف الإمام علي عليه السلام منها

تحدَّثنا بالأمس عن ازدياد تأثير قريش والمنافقين بعد تغيُّر النسيج الاجتماعي للمسلمين بعد فتح مكة ومعركة حنين، ورأينا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قلقاً من إبلاغ ولاية الإمام علي عليه السلام للناس، للحقدِ والغيظ اللذين كانا يملآن قلوب قريش والمنافقين، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى طمأن رسوله صلى الله عليه وآله بأنهُ سيعصِمُهُ من الناس[1]، ورأينا موقف بعض وجهاء المهاجرين من بعث أسامة وطلب رسوله صلى الله عليه وآله الكتف والدَّواة، وقلنا بأنَّ وجهاء المهاجرين والأنصار لحظة تغسيل الرسول صلى الله عليه وآله وتكفينه كانوا منشغلين في السَّقيفة بالنِّزاع في أمر الخلافة.

نريد الآن استعراض لسان حال كل من: قريش والأنصار ووجهاء المهاجرين، وأخيراً بني هاشم، من مسألة الخلافة. وأعني بـ«لسان الحال» طريقة تفكير كل طرف آنذاك، ووجهة نظرِهِ، وقراءته للأحداث، والزَّاوية التي ينظر من خلالها إلى الأمور.

لسان حال قريش التي أسلَمت بالأمس

لسان حال قريش يقول: لا نقبل عليّاً عليه السلام لأنَّهُ وترنا، وقتلَ صناديدنا، ودماؤهم لم تجف بعد. فإن كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في سنة 11هج، ووقوع معركة بدر في سنة 2 هج، فهذا يعني أنه لم يمُرّ على معركة بدر إلا تسع سنوات. كما لا نقبل أيضاً الأنصار القحطانيين قادةً وأمراء علينا، ليس لأنَّهم قحطانيون فحسب، بل لأنَّهم هم تسبَّبوا بكسر هيبة قريش عندما وفَّروا المأوى لرسول الله صلى الله عليه وآله وقاتلوا معه ببسالةٍ واتَّحدوا رغمَ خلافاتِهم على حربِنا، وقتلوا منَّا من قتلوا.... ..نحن نعلم أنَّ الظروف الموضوعية لا

(1) بل ورد ما يدل على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان بحاجة حتى لحظة نزول هذه الآية إلى حراسة خاصة، لذا يروي الحاكم عن عائشة: كان النبي صلى الله عليه وآله يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، فأخرج النبي صلى الله عليه وآله رأسه من القبة، فقال لهم: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. راجع: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب التفسير، ح3221، ص396.

تتحمَّل أبداً أن يقفز أبو سفيان - أو أمثاله من طلقاء قريش - إلى السُّلطة، لأنَّ هذه الخطوة المستعجلة ستُوحِّد المسلمين بأسرِهِم ضدَّنا.

. . . الحل الوحيد المقبول بالنسبة إلينا هو أن يعتلي السُّلطة أحد رموز المهاجرين القرشيين من غير بني هاشم. فما دام من قريش، يعني من قبيلتنا، وبما أنه ليس علياً عليه السلام الذي وترنا، ولأنه ليس من الأنصار القحطانيين، فنحنُ نقبله كحل وسط، وكمرحلة انتقالية، وكم هو جميل أن يكون من بطون قريش الضَّعيفة، حتى يُمكن الضَّغط عليه، وانتزاع ما يمكن انتزاعُهُ منه، كقبيلة تيم (منهم أبو بكر وطلحة) أو عدي (منهم عمر) أو الحارث (منهم أبو عبيدة بن الجراح) أو زُهرة (منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف) . . . إلخ.

بعد ذلك لكلِّ حادثٍ حديث، وستفرض موازين القوى الدَّاخلية لقريش مستقبل الزَّعامة، فعلامَ الاستعجال، لنفسَح في المجال للوجهاء من المهاجرين، وسنتدبَّر الأمر بعد ذلك، ونرى ما يحدث. لكن أهم خطوة الآن، أن لا يصل الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة، لأنَّ وصولَهُ يعني بقاء الخلافة في بني هاشم[1].

لسان حال الأنصار

لسان حال الأنصار يقول: باتَ من الواضح أنَّ قريشاً لن تقبل عليّاً عليه السلام كخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن سايرت رسول الله صلى الله عليه وآله في غدير خم. والشاهِدُ على ذلك التحرُّكات المريبة لوجهاء المهاجرين القرشيين، فهم تباطؤوا في الالتحاق ببعث أسامة، وحالوا دون أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وصيته الأخيرة وهو على فراش الموت. إذن فوجهاء المهاجرين، ومن خلفِهِم قريش، مُصمِّمون على انتزاع الخلافة من الإمام علي عليه السلام، فحتى لا يتزعَّم وجهاء المهاجرين، وينقلبوا علينا بعدما آويناهم وآثرناهُم على

(1) من أبرز الأسماء القرشية المعبرة عن هذا الموقف: سهيل بن عمرو العامري، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان، ينقل ابن أبي الحديد في شرح النهج: «وكان أشد قريش على الأنصار نفر فيهم، وهم سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان، وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وآله، ثم دخلوا في الإسلام، وكلهم موتور قد وتره الأنصار. أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بدر. وأما الحارث ابن هشام، فضربه عروة بن عمرو، فجرحه يوم بدر، وهو فارٌّ عن أخيه. وأما عكرمة بن أبي جهل، فقتل أباه ابنا عفراء، وسلبه درعه يوم بدر زياد بن لبيد» . . . ثم يفصل الكلام في موقفهم ودورهم. أنظر: ابن أبي الحديد، شرح البلاغة، مج3، ج6، ص15 - 16. وتجد في الصَّفحات اللاحقة تفصيلاً لموقف أبي سفيان وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط من الأنصار.

أنفُسِنا، ويقع ما كُنَّا نخشاهُ دائماً، فلا بدَّ إذن أن نستعجل في اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله لنتغدَّى بوجهاء المهاجرين قبل أن يتعشُّوا بنا.

نحن لا نقبل المهاجرين القرشيين، لأنهم قد يتحوَّلون إلى أداةٍ بيد قريش التي أسلَمت بالأمس، عندها ستقوم قريش بتصفيةِ حسابِها معنا. لكن هل ستسمح تناقضاتنا الدَّاخلية برصِّ الصُّفوف لاتِّخاذ هذه الخطوة الاستباقية؟

الخزرج للأوس: تفضَّلوا لدينا مرشَّحٌ من الأنصار، وهو منَّا نحنُ الخزرج، وهو سعد بن عبادة.

الأوس للخزرج: لا نقبل مرشَّحكم تحت أيّ ظرفٍ من الظُّروف، ولم لا يكون الخليفة منَّا نحن. . . . وإن أصررتُم على مرشَّحِكم، فنحنُ نُرجِّح أن يصل إلى الخلافة أحد وجهاء المهاجرين، على أن يصل مرشَّحكم للخلافة.

لسان حال وجهاء المهاجرين

لسان حال وجهاء المهاجرين يقول: قريش لا تقبل عليّاً عليه السلام، ونحن لا نقبله أيضاً، وقريش لا تقبل الأنصار، ونحن أيضاً لا نقبل أن تكون لهم الزَّعامة علينا، وطبعاً المسلمون كلهم لن يقبلوا قريش التي أسلَمت بعد الفتح، فلا يوجد حل إلا أن تختاروا واحداً منَّا، فنحنُ الآن العملة الصَّعبة في أيِّ عملية تسوية غير معلنة، ونحن وحدنا القادرون على إمساك العصا من الوسَط لتحقيق حالة التوازن بين قريش من ناحية، وبني هاشم والأنصار من ناحية أخرى.

. . .وسنَظَلُّ نُحافظ على هذا التوازن ونُبقيهِ تحتَ السَّيطرة، لأنَّ وصول الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يعني أنها لن تخرُج من يد بني هاشم أبداً، لأنَّهم هم أقربُ الناس إليه، وبنو هاشم هم البطن القوي الأول في قريش. ووقوع الخلافة بيد الأنصار يعني انقلاباً في الموازين القبَلية بين العرب آنذاك، والعرب لن يقبلوا ذلك، ولن يستطيع الأنصار ضبط الوضع. نحنُ في المقابل، سنجهد ما استطعنا أن لا يصل بنو عبد شمس، خصوصاً بنو أمية، لأنَّهم هم البطن القوي الثاني في قريش، ونحنُ أكثرنا من بطون قريش الضَّعيفة، وإن وصلت الخلافة إلى بني أمية فقد لا تخرج من يدهم أيضاً. ولكن لله الحمد، الوضع لا يتحمَّل وصول بني أمية للسُّلطة، لأنَّهم حديثو عهدٍ بالإسلام. وقريش لا تقبل عليّاً عليه السلام، وهو المرشَّح الأساس لبني هاشم.

فإذن، لتظل الخلافة تدور في بطون قريش الضَّعيفة، فرسول الله صلى الله عليه وآله من قريش، ونحنُ وجهاء المهاجرين - وأكثرنا من بطون قريش الضَّعيفة - السَّابقون إلى الإسلام،

وهذه هي فرصتنا التَّاريخية التي لن تُعوَّض، نستطيع من خلالها السَّيطرة على العرب من ناحية، ووضع حدّ لبطون قريش القويَّة (بنو هاشم وبنو أمية) من ناحية أخرى. وعلى الجميع أن يتفهَّم هذه الحقيقة، ولا يحول دون وصولنا إلى السُّلطة، ويبخَل علينا بهذه الفُرصة التاريخية التي لن تتكرَّر.

لسان حال بني هاشم

لسان حال بني هاشم يقول: من الواضح أنَّ قريشاً حسّاسة تجاه علي عليه السلام، ولكن إن اتَّحَدَ المهاجرون والأنصار معاً، ووقفوا خلفَ علي عليه السلام، ونفَّذوا توجيهات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوامره، فلن يكون بمقدور قريش فعل شيء، أولاً: لأنه قرشيٌّ، وثانياً: لأنَّهم هم حديثو عهدٍ بالإسلام وبالأمس القريب عفا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم وأطلقهم وألَّف قلوبهم، وثالثاً: لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلن قبل ثلاثة أشهر فقط ولاية علي عليه السلام صراحة في غدير خم، وقام المهاجرون والأنصار بتهنئتِهِ، وهو أسبقُ الناسِ إسلاماً وأقربُهُم نسباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالأمر الذي يحسم القضية هو وحدةُ كلمة المهاجرين والأنصار، ووقوفُهُم خلفَ علي عليه السلام، عندها ستقف قريش - ومن خلفها المنافقون - مكتوفةَ الأيدي، وستبقى عاجزة أمام علي عليه السلام.

ولأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توفي تواً، فوظيفتنا الأولى الآن، من الناحية الأخلاقية، احتراماً لمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العظيم، ونحن ذووه وقرابته، أن ننشغِل بغسلهِ وتكفينهِ ودفنهِ، بعد ذلك يقوم علي عليه السلام بسدِّ الفراغ بشكل طبيعي وسلس. إذن الأمر كلُّهُ مرهونٌ بوحدةِ كلمة المهاجرين والأنصار.

ننتقل لنُدِّقق في دوافع الأنصار لعقد اجتماع السَّقيفة، ومجريات الأمور فيها:

دوافع الأنصار لعقد الاجتماع

بمجرد وصول أنباء عن احتضار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عقدَ الأنصار اجتماعاً طارئاً في سقيفة بني ساعدة لبحث مسألة الخلافة، وكان من المُقرَّر أن يظل الاجتماع سرياً، حتى وصول الأوس والخزرج إلى اتفاقٍ نهائي بشأن الخليفة القادم. . . لكن لماذا عقد الأنصار هذا الاجتماع الاستثنائي والعاجل؟

● لمس الأنصار تحرُّكاً سياسياً من قبل المهاجرين - واجهة قريش آنذاك - المعارضين لاستلام الإمام علي عليه السلام الخلافة، فقد أجمعوا على صرفِ الخلافة

عنه عليه السلام، وظهرت منهم بوضوح بوادر التمرُّد، عندما تباطؤوا في الالتحاق بسريّة أسامة وطعنوا في إمارته، وعندما حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وما رامه من الكتابة. وأكبر الظن أنَّ الأنصار وقفوا على حقدِ قريش وكراهيتهم لعلي عليه السلام من زمن بعيد، وأنَّهم لا يخضعون لحُكمِهِ، وقد حصد رؤوس أعلامهم. وقد أيقن الأنصار أنهُ سيُصيبُهم الجَهد والعناء إن استولى المهاجرون على زمام الحكم، فلذلك بادروا إلى عقدِ اجتماعهم، والعمل على ترشيح أحدهم.

● استبان للأنصار فيما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله أن أهل بيته لن ينالوا الخلافة، وأنَّهم المستضعفون بعدَهُ، فاحتاطت الأنصار لنفسِها فبادرت لعقد الاجتماع للاستيلاء على الحُكم، لئلا يسبقهم إليه المهاجرون من قريش.

● كان الأنصار العمود الفقري للقوات الإسلامية المسلَّحة، وقد أنزلوا ضربات قاصمة بالقرشيين، فأبادوا أعلامهم، وأشاعوا في بيوتهم الحُزن والحِداد في سبيل الإسلام، وقد علموا أنَّ الأمر إذا استتب للقرشيين، فإنهم سيمعنون في إذلالهم طلباً بثأرهم، وكفاهم ما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله: ستَلقَون بعدي أثَرة، فاصبِروا حتى تلقوني على الحوض[1].

وقد صرَّح بهذه المخاوف الحُباب بن المنذر في السَّقيفة عندما قال لأبي بكر وعمر وغيرهما من وجهاء المهاجرين: «لكنا نخافُ أن يلِيَها بعدَكُم من قتلنا أبناءَهُم وآباءَهُم وإخوانهم»[2].

هذا التنبؤ تحقَّق بعد ذلك فعلاً، عندما استولى بنو أمية على الحُكم. وتحقَّقت مخاوفهم حيث لقوا أثرة لفترة طويلة، وبلغ الظلم الواقع عليهم ذروته عندما استباح يزيد المدينة في واقعة الحرة.

عندما ندرس دوافع الأنصار، لا نريد أن نُسيء الظنَّ بهم، لئلا نخسر عدداً وفيراً من الصَّحابة. لكن عملهم نفسه - سواء أكانَ بسوءِ نيَّة أم لا - لا يسعنا أن نحكُم بصحَّتِهِ،

(1) **صحيح البخاري**، المناقب، قول النبي صلى الله عليه وآله للأنصار اصبروا...، **صحيح مسلم**، الإمارة، الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم، أيضاً في الزكاة، إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص33. أيضاً في شرح النهج: «فقالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم، ولا أحد أحب إلينا ولا أرضى عندنا منكم، ولكنا نشفق فيما بعد هذا اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم». أنظر: ابن أبي الحديد، شرح البلاغة، مج3، ج6، ص6.

ولا يمكننا الموافقة عليه أبداً، فإنَّ تسرُّعَهُم في عقد اجتماعهم لنصب خليفة منهم، مع وجودهم في غدير خم، لا يخرُج عن عدِّهِ خطيئة كبرى وتفريطاً في حقوق المسلمين بلا مبرر[1].

اجتماع السَّقيفة قبلَ انكشافِ أمرِهِ

لما اجتمع الأوس والخزرج في سقيفة بني ساعدة، انبرى سعد بن عبادة - زعيم الخزرج - إلى افتتاح الاجتماع، وكان مريضاً فلم يتمكَّن من الجهر بصوتِهِ، وبلَّغَ مقالتَهُ بعض أقربائه، وكانت تتضمَّن:

- الإشادة بنضال الأنصار وبسالتهم في نصرة الإسلام، وأنَّ لهم الفضل الأكبر في نشره، فهم الذين حموا رسول الله صلى الله عليه وآله أيام محنتِهِ، فهم أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وأحقُّ بمنصبِهِ من غيرِهِ.
- التنديد بالبطون القرشية التي ناجزت رسول الله صلى الله عليه وآله الحرب، حتى اضطرَّ إلى الهجرة إلى المدينة، وأنَّ من آمن بهِ منهُم لم يتمكَّن من حمايتِهِ والذَّب عنه، وبذلك فلا حقَّ لهم في حُكم الدَّولة التي ما قامت إلا على سواعد الأنصار وجهادهم[2].

وتجاهَلَ سعدٌ حقَّ الإمام علي عليه السلام في الأمر، وموقفه هذا جرَّ على الأمة الفِتَن والويلات وألقاها في شرٍّ عظيم. وقد لقي سعد جزاءَ عملِهِ، فإنه لم يكد يستقر الحُكم لأبي بكر حتى ضُيِّق عليه، فاضطرَّ إلى الهجرة من المدينة - مسقط رأسه - إلى الشَّام، أوَّل خلافة عمر، فبعثَ عمر رجُلاً ليضطرَّهُ إلى البيعة، فرفض سعد مبايعة عمر، فرمى رجلٌ سعداً بالشَّام بسهمٍ فقتلَهُ[3]، وتحدَّثوا أنَّ الجنَّ هي التي قتلته[4]!!

---

(1) ويعبر عن الموقف النزيه أروع تعبير مقالة قيس بن سعد بن عبادة... يروي ابن أبي الحديد: ذكر سعد ابن عبادة يوماً علياً بعد يوم السقيفة، فذكر أمراً من أمرِهِ نسيهُ أبو الحسن، يوجبُ ولايته، فقال له ابنه قيس بن سعد: أنت سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول هذا الكلام في علي بن أبي طالب، ثم تطلب الخلافة، ويقول أصحابك: منا أمير ومنكم أمير؟! لا كلمتك والله من رأسي بعد هذا كلمة أبداً. راجع: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص28.

(2) لمعرفة تفاصيل خطبة سعد في السقيفة، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص455 - 456.

(3) راجع: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج1، ص589، ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، دار الكتاب العربي، ط2، 1381هج - 1962م، القاهرة، ج4، ص260.

(4) راجع في اتهام الجن وأنها قالت بشأنه شعراً، الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، ح5102، ص316، ح5103، ص316 - 317. أيضاً ابن عبد البر، **الاستيعاب**.

ولم تكن للأنصار إرادةٌ صلبة، ولا عزمٌ ثابت، ولا جبهةٌ موحَّدة، فبين الأوس والخزرج دماءٌ مطلولة، وصدوعٌ بالغة لا يُرجى رأبُها، وكان آخر أيام حروبهم يوم بُعاث، المشهور، وهو قبل الهجرة بستِّ سنين، وهو سببُ إسلامِهم على ما قيل، إذ جاءت الأوس بعد يوم بُعاث إلى مكة تستنجد قريشاً على الخزرج[1]، فالتقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهداهم الله تعالى إلى الإسلام.

يقول المؤرِّخون إنَّ الأنصار بعد كلام سعد ترادُّوا الكلام فيما بينهم، فتساءل بعضهم: فإن أبى المهاجرونَ من قريش، وقالوا نحنُ المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونَ هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإنا نقول منَّا أميرٌ ومنكم أمير (يعني تارة يكون الخليفة منكُم، ثم بعد وفاته تنتقل الخلافة إلى شخصٍ منَّا، وهكذا يتم تداول السُّلطة بين المهاجرين والأنصار)، ولن نرضى بدون هذا أبداً. وثار سعد حينما رأى هذه الرُّوح الانهزامية حتى قبل مواجهة قريش، وأنهم لن يقفوا معه وقفة صلبة لا تلين، فقال: هذا أوَّلُ الوَهن[2].

نتوقَّف عند هذه اللحظة، لنخرُج من اجتماع السَّقيفة، لنرى موقفاً غريباً لعمر بن الخطاب عندما شاع خبر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلت الأصوات من بيته صلى الله عليه وآله بالبُكاء والنَّحيب.

موقفٌ لعُمَر

قبل وصول خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى عمر بن الخطاب، قام عمر بتجميد الأوضاع، وإيقاف أي عملية تؤدي إلى انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنَّ أبا بكر لم يكن في المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما كان في السُّنح[3] (= محل يبعد عن المدينة بميل)، فبعثَ خلفَهُ من يأتي به إلا أنه خشيَ أن يُطرح موضوع الخلافة

---

(1) لذا كانت الأوس على الدوام أقرب إلى قريش من الخزرج، وعلاقة قريش مع الخزرج تأزمت بشكل كبير بعد معركة بدر . . . تذكر كلمة ابن الزبعرى التي رددها يزيد:

ليتَ أشياخي ببدرٍ شهدوا   جزَعَ الخزرجِ من وقعِ الأسل

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص456، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص4 - 5، أيضاً مج1، ج2، ص23.

(3) **صحيح البخاري**، المغازي، مرض النبي صلى الله عليه وآله، أيضاً في المناقب، قول النبي صلى الله عليه وآله لو كنت متخذاً خليلاً، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص440، 441، 442. وكان أبو بكر قبل أن يلي أمور الخلافة تاجراً، وكان منزله بالسُّنح، ثم تحول إلى المدينة. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص620.

قبل مجيئِهِ، فانطلق بحالةٍ رهيبة، يجوبُ أزقَّة المدينة، ويهزُّ بيدهِ سيفَهُ، وينادي بصوت عال: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعُمونَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، وإنه واللهِ ما مات، ولكنهُ ذهب إلى ربِّهِ كما ذهبَ موسى بن عمران، والله ليرجِعنَّ رسول الله فيقطعنَّ أيدي رجال وأرجُلهم يزعُمونَ أنَّ رسول الله مات(1).

وذهل الناس، وعصفت بهم أمواجٌ رهيبة من الحيرة، لا يدرون أيُصدِّقون مزاعم عمر بحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وهي من أعزّ ما يأملون؟ أم يُصدِّقون الأخبار المتواترة وأصوات البُكاء والنَّحيب الصَّادرة من بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وآيات القرآن التي تؤكِّد إمكانية موت رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وهنا توجد لدينا ملاحظات:

● إنَّ إنكار عمر لموت رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه ذهبَ إلى ربِّه وأنه لا بُدَّ أن يرجَع إلى الأرض، لم يكن على ما يبدو عن إيمانٍ منهُ بحياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما هو تضييعٌ للوقت، حتى يُمهِل أبا بكر للوصول إلى المدينة. والشاهد على ذلك: أنَّ عمر بذاتهِ وقفَ أمام رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضهِ وصدَّهُ عما رامهُ من الكتابة، وقال: حسبُنا كتابُ الله، ومن الطبيعي أنه ما قال ذلك إلا وهو يُدرك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مشرفٌ على الموت.

هذا من ناحية، من ناحية أخرى فإنَّ القرآن أعلَنَ أنَّ كلَّ إنسان لا بُدَّ أن يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(2)، بل تحدَّث عن موت رسول الله صلى الله عليه وآله بالخصوص في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾(4)، وهذهِ الآيات تُتلى ليلاً ونهاراً، فهل خفيت على مثل عمر؟

مضافاً إلى ذلك أن سكون عمر المفاجئ بمجرَّد وصول أبي بكر وتصديقه بلا مناقشة لمقالته حينما أعلن وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله(5)، يؤيِّد التحليل القائل بأنَّ حركة عمر كان المقصود منها تقطيع أوصال الوقت.

● إنَّ حُكم عمر بأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوف يرجع إلى الأرض ويقطع أيدي رجال

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص442، سنن ابن ماجة، ما جاء في الجنائز، ذكر وفاته ودفنه صلى الله عليه وآله.

(2) سورة آل عمران، الآية: 185، سورة الأنبياء، الآية: 35، سورة العنكبوت، الآية: 57.

(3) سورة الزمر، الآية: 30.

(4) سورة آل عمران، الآية: 144.

(5) راجع، **صحيح البخاري**، المغازي، مرض النبي صلى الله عليه وآله ووفاته.

وأرجلهم ممن أرجفوا بموتِهِ، لا يخلو من وهن، لأنَّ تقطيع الأيدي والأرجل والحكم بالإعدام إنما يكون للذين يخرُجونَ عن دين الله، أو يسعونَ في الأرض فساداً، وليس تناقُل خبر موت رسول الله صلى الله عليه وآله موجبٌ لذلك قطعاً، بدليل أنَّ شائعة موت رسول الله صلى الله عليه وآله سرَت في أحرجِ موقفٍ في معركة أُحُد، ومع ذلك لم يقُم رسول الله صلى الله عليه وآله بتقطيع أيدي وأرجُل من تناقَلَ خبرَ موتِهِ!

توجيه ابن أبي الحديد لموقف عُمَر

بعد أن نقل ابن أبي الحديد تفاصيل هذا الموقف لعُمَر، تحدَّث عن التساؤلات المثارة حولَهُ، وعرض إجابة قاضي القضاة في «المغني»، وردّ السيد المرتضى في «الشَّافي». ثم قام بتبرير موقف عمر على النحو الآتي:

«ونحن نقول، إنَّ عمر كان أجلَّ قدراً من أن يُعتقد ما ظهرَ عنهُ في هذه الواقعة، ولكنَّهُ لمَّا علِمَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، خافَ من وقوع فتنة في الإمامة، وتقلُّب أقوام عليها، إما من الأنصار أو غيرهم، وخافَ أيضاً من حدوث رِدَّة، ورجوع عن الإسلام، فإنه (= الإسلام) كانَ ضعيفاً بعدُ لم يتمكَّن، وخاف من تِراتٍ تُشن، ودماءٍ تُراق. فإنَّ أكثر العرب كان موتوراً في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله لقتلِ من قتل أصحابُه منهم، وفي مثل ذلك الحال تُنتهز الفرصة، وتُهتبل الغِرَّة، فاقتضت المصلحة عنده تسكين الناس بأن أظهر ما أظهرَهُ من كون رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمُت، وأوقع تلك الشُّبهة في قلوبِهم، فكسَرَ بها شِرَّة كثير منهم، وظنوها حقاً، فثناهُم بذلك عن حادثٍ يُحدِثونَهُ، تخيُّلاً منهم أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ما مات، وإنما غابَ كما غابَ موسى عن قومِهِ، وهكذا كان عمر يقول لهم: إنه قد غابَ عنكم كما غابَ موسى عن قومه، وليعودنَّ فليقطعنَّ أيدي قوم أرجفوا بموته.

ومثلُ هذا الكلام يقع في الوهم، فيصدُّ عن كثيرٍ من العزم. ألا ترى أنَّ المَلِكَ إذا ماتَ في مدينةٍ وقع فيها في أكثر الأمر نهبٌ وفسادٌ وتحريق، وكلُّ من في نفسِهِ حقدٌ على آخر بلغَ منه غرضَهُ، إما بقتلٍ أو جرحٍ أو نهبِ مال، إلى أن تتمهَّد قاعدةُ المَلِك الذي يلي بعدَهُ، فإذا كان في المدينة وزيرٌ حازمُ الرأي، كتمَ موتَ المَلِك، وسجنَ قوماً ممن أرجف نداءً بموتِهِ، وأقام فيهم السِّياسة، واشاع أنَّ المَلِكَ حيٌّ، وأنَّ أوامِرَهُ وكتبَهُ نافذة، ولا يزال يلزَم ذلك الناموس، إلى أن يُمهِّد قاعدة المُلك للوالي بعدَهُ. وكذلك عمر، أظهرَ ما أظهر حِراسةً للدِّين والدَّولة، إلى أن جاء أبو بكر، وكان غائباً بالسُّنح، وهو منزلٌ بعيدٌ عن المدينة، فلما اجتمع بأبي بكر، قويَ بهِ جأشهُ، واشتدَّ بهِ أزرُهُ، وعظُم طاعة الناس

له، وميلهم إليه، فسكتَ حينئذٍ عن تلكَ الدَّعوى التي كان ادَّعاها، لأنه قد أمِنَ بحضور أبي بكر من خطبٍ يحدُث، أو فسادٍ يتجدَّد، وكان أبو بكر مُحبَّباً إلى الناس، لا سيما المهاجرين»[1].

مباغتة الأنصار في السَّقيفة

نعود إلى اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة. . . . بينا هم مجتمعون بأسرهم[2]، خرج عويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي[3]، وانطلقا وأخبرا أبا بكر وعمر بذلك[4]، ففزعا وانطلقا مسرعَين، ومعهما أبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وتبعهم جماعة آخرون من المهاجرين، فكبسوا على الأنصار في اجتماعهم، وأسقط ما بأيدي الأنصار وذهلوا وارتبكوا، وتغيَّر لون سعد، وتخوَّف من خروج الأمر عنهم، لعلمِهِ بضَعفِ الأنصار وتصدُّع وَحدَتِهم، فهو أحاط الاجتماع بكثير من السِّرية، لكن الخبر تسرَّب إلى من يُفترض أن لا يتسرب إليه الخبر. ومن كان يبغض الامارة لسعد وجدَ الفرصة قد حانت للانقضاض عليه.

وكاد عمر أن يبدأ بالتهجُّم على الحاضرين بانفعال، لكن أبا بكر أسكتَهُ، وبدأ هو بالكلام، فكان مما قال:

«خصَّ اللهُ المهاجرينَ الأولينَ من قومهِ، بتصديقهِ والإيمان بهِ، والمؤاساة لهُ والصبر معهُ، على شدةِ أذى قومهم لهم، وتكذيبِهم إيَّاهم، وكلُّ الناس لهم مخالفٌ، زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنَفِ الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أوَّلُ من عبدَ

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص26 - 27.

(2) يقول عمر: «وإنه قد كان من خبَّرنا حين توفى الله نبيه صلى الله عليه وآله أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة»، راجع: **صحيح البخاري**، الحدود، رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص275، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص15. يقول عمر: «حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذي صنع القوم»، راجع: **مسند أحمد بن حنبل**، مسند العشرة المبشرين بالجنة، أو مسند عمر بن الخطاب. وقد ذكر العسقلاني اسمهما في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، عند شرحه لحديث في الحدود، رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.

(4) قال الزبير (بن بكار): لما اجتمع جمهور الناس لأبي بكر، أكرمت قريش، معن بن عدي وعويم بن ساعدة، وكان لهما فضلٌ قديم في الإسلام، فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما، فلما أحضرا، أقبلت الأنصار عليهما، فعيَّروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك. . . فأغلظوا لهما، وفحشوا عليهما. . . أنظر: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص17 - 18.

الله في الأرض، وآمنَ بالله وبالرَّسول، وهم أولياؤهُ وعشيرتهُ، وأحقُّ الناس بهذا الأمر من بعدِهِ، ولا يُنازِعُهُم ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، من لا يُنكر فضلهم ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيَكم اللهُ أنصاراً لدينهِ ورسولهِ، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليسَ بعدَ المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحنُ الأمراء، وأنتُم الوزراء، لا تفتاتون بمشورةٍ، ولا نقضي دونكم الأمور.. .هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيّهما شئتم فبايعوا»[1].

وكان أيضاً مما قال: «ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش (= وجهاء المهاجرين)، هم أوسطُ العرب نسباً وداراً»[2].

ولنا هنا ملاحظات:

● إنَّ أبا بكر لم يتحدَّث عن رزيَّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا عزَّاهم بهذه الفاجعة، ولم يدعهم إلى القيام بتشييع جثمانه الطَّاهر، ليعقدوا بعد ذلك اجتماعاً عاماً تحضرُهُ جميع طبقات المسلمين، لينتخبوا بإرادتهم وحريَّتهم من يرضَونَهُ خليفةً لهم، لو فرضنا جدلاً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعهد لأحدٍ من بعده.

● إنَّ منطق هذا الخطاب هو طلبُ الإمرة والسُّلطان، فقد عرَضَ على الأنصار صفقة، أن يتنازلوا لإخوانهم المهاجرين عن الخلافة، في مقابل أن يكونوا هم الوزراء. .لكن لما تمَّ له الأمر، لم يمنح الأنصار مناصب عليا.

● هذا الخطاب تجاهَلَ تماماً حقّ العِترة الطاهرة، فالمنطق الذي استندَ إليه لأحقِّية المهاجرين من قريش بالخلافة هو أنَّهم أوَّلُ الناس إسلاماً، وأمسُّ الناس رحِماً برسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا المعيار متوافر بشكلٍ أتم في الإمام علي عليه السلام، فهو أوَّلُ الناس إسلاماً وأقرب الناس رحِماً برسول الله صلى الله عليه وآله، لذا تجد أمير المؤمنين يقول في هذا المعنى شعراً:

فإن كنتَ بالشُّورى ملَكتَ أمورَهُم ... فكيفَ بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنتَ بالقُربى حجَجت خصيمَهُم ... فغيرُكَ أولى بالنبي وأقربُ[3]

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص457 - 458، وقريب منه في صحيح البخاري، الحدود، رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.
(2) صحيح البخاري، الحدود، رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.
(3) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، ص503.

وكانت هذه خطوة بارعة من أبي بكر، لأنه حيَّدَ نفسَهُ من المنافسة، وجرَّدَ نفسَهُ من جميع الأطماع السِّياسية، وبذلك كسب نفوس الأنصار.

وعندما اعترض الحُباب بن المنذر (الخزرجي) وقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمرَكُم. . .(ثم عرض حلاً وسطاً) فإن أبى هؤلاء، فمنا أميرٌ ومنهم أمير.

عندئذٍ انبرى عمر فأيَّدَ مقالةَ أبي بكر، فقال: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يُؤمِّروكُم ونبيُّها من غيرِكُم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولِّي أمرَها من كانت النبوةُ فيهم وولي أمورهم منهم، ولنا بذلِكَ على من أبى من العرب الحُجَّةَ الظاهرة والسُّلطان المبين، من ذا يُنازعنا سُلطان محمَّد وامارته؟ ونحنُ أولياؤهُ وعشيرتهُ إلا مُدلٍ بباطلٍ أو متجانف لإثمٍ أو متورِّط في هلَكة[1]!

ولنا هنا ملاحظات:

● عمر بكلامه هذا، ورفضه لاقتراح الحُباب، رفض القبول بالأنصار كشركاء في أمر الخلافة. فهو لم يتجاهل موقع الإمام علي عليه السلام ومنطق الوصيَّة فحسب، بل رفض أيضاً منطق تداول السُّلطة بين المهاجرين والأنصار، وأغلق الباب بوجه الأنصار تماماً. وهذا الأمر لا يتعلق بهويَّة الخليفة المقبل فحسب، بل بهويَّة أي خليفة مقبل. فمبدأ تداول السُّلطة مرفوض عند عمر، والسُّلطة - في نظره - يجب أن تكون بيد وجهاء المهاجرين فحسب، ولا يمكن القبول بخليفة من الأنصار ولو في المستقبل. وهذا واضح تماماً من قوله «هيهات لا يجتمع اثنان في قرن» كجواب على اقتراح «منَّا أميرٌ ومنهم أمير».

● نفهم من كلام عمر أيضاً أنَّ قريشاً، والعرب عموماً، لا تقبل خلافة أحد من الأنصار، فالعدنانيون لا يقبلون خليفة قحطانياً، خصوصاً مع الأخذ في الاعتبار أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرشيٌّ عدناني. لكن العرب في المقابل، ستقبل أن يكون الخليفة من بطون قريش العدنانية. ولا يمكن أن تعترض العرب وقريش على وجهاء المهاجرين إذا كان الخليفة منهم، وبالتالي لمهاجرة قريش الحجَّة الظاهرة والسُّلطان المبين على العرب وقريش، وهل يجرؤ العرب، بل هل تجرؤ قريش، التي أسلَمت بالأمس القريب، على الاعتراض بأن يتولى أحد وجهاء المهاجرين الخلافة؟ فهم أولياؤه وعشيرته، وهم أوَّل من آمن به وهاجر معه.

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص457، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص6.

جدلٌ ينتهي بحسم الأمر لأبي بكر

وانبرى الحُباب بن المنذر، فردَّ على عمر قائلاً: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبِكُم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموهُ فاجلُوهم عن هذهِ البلاد! وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتُم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافِكُم دانَ الناسُ لهذا الدِّين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جُذَيلُها المحكك (= من لي تجربة بالأمور)، وعُذيقُها المرجب (= الدِّعامة التي تعيد انحراف نمو النَّخلة لمسارها المستقيم). . . . . والله لو شئتم لنُعيدَنَّها جذعة (= جديداً كما بدأ)، والله لا يرد أحدٌ عليَّ ما أقول إلا حطَّمتُ أنفَهُ بالسَّيف. . .

قال عمر: إذاً يقتُلَكَ الله.

قال الحباب: بل إياك يقتل.

وكثُرَ اللَّغط، وارتفعت الأصوات.

فقال أبو عبيدة الجراح: يا معشرَ الأنصار، إنكم كنتم أوَّلَ من نصرَ وآزر، فلا تكونوا أوَّلَ من بدَّل وغيَّر.

فقام بشير بن سعد الخزرجي (أبو النعمان بن بشير، قام ليتحدث بلسان المؤمن المتقي المتجرِّد من عصبياته القبلية متأثراً بمقالة أبي عبيدة متناسياً حق الإمام علي عليه السلام) فقال: يا معشر الأنصار، إنا واللهِ لئن كُنَّا أُولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدِّين، ما أردنا به إلا رضا ربّنا وطاعة نبيِّنا والكدح لأنفُسِنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناسِ بذلك، ولا نبتغي به من الدُّنيا عرضاً، فإنَّ اللهَ وليُّ النعمة علينا بذلك، ألا إنَّ محمداً صلى الله عليه وآله من قريش، وقومَهُ أحقُّ به وأولى، وأيمُ اللهِ لا يراني اللهُ أنازعُهُم هذا الأمر أبداً، فاتقوا اللهَ ولا تُخالفوهم ولا تُنازعوهم!

فقال أبو بكر: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا.

فقالا: والله لا نتولَّى هذا الأمرَ عليك. . . .

فلما ذهبا ليُبايعاه، سبقهما إليهِ بشير بن سعد فبايعَهُ، فناداهُ الحُباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عقَقت عَقاقِ، أنفستَ على ابن عمّك الإمارة؟

فقال: لا والله، ولكني كرهتُ أن أنازعَ قوماً حقاً جعلهُ الله لهم!

ولما رأت الأوس ما صنعَ بشير بن سعد (الخزرجي)، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضُهُم لبعضٍ - وفيهم أسيد بن حُضير - :

والله لئن وليَتها الخزرجُ عليكم مرّة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر.

فقاموا إليه فبايعوهُ، فانكسرَ على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرِهم، فأقبل الناسُ من كلِّ جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطأون سعد بن عبادة.

فقال أناسٌ من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطأوه.

فقال عمر: اقتلوه، قتله الله[1].

ثم قام عمر على رأس سعد بن عبادة فقال: لقد هممتُ أن أطأكَ حتى تندُرَ عُضوك (= تسقط أعضاؤك). فأخذ قيس بن سعد بلحيةِ عمر فقال: والله لو حصَصتَ منه شعرة ما رجعتَ وفي فيكَ واضحة[2].

فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر، الرفقُ ها هنا أبلغ.

فأعرض عنه عمر[3].

ويروي الطبري في تاريخه أنَّ أسلم أقبلَت بجماعتِها، حتى تضايق بهم السِّكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيتُ أسلم فأيقنت بالنَّصر[4]!

وهذه العبارة توحي أنَّ ما وقع كأنَّهُ بمثابة انقلاب عسكري، وأنَّ عمر كان ينتظر من خارج المدينة المدَد البشري، وبالتحديد من قبيلة أسلَم. حتى جاءت، وضاقت بعددِهم سكَك المدينة، وبايعوا أبا بكر، صار هو الخليفة بحُكم الأمر الواقع.

وروى أبو بكر الجوهري: أنَّ عمر كان يومئذ - يعني يوم بويع أبو بكر - محتجزاً يُهرول بين يدي أبي بكر ويقول: ألا إنَّ الناسَ قد بايعوا أبا بكر[5].

قال الزبير بن بكار: فلما بويع أبو بكر، أقبلت الجماعة التي بايعته تزُفُّهُ زفاً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما كان آخر النهار، افترقوا إلى منازلهم[6]..

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص457، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص6. وقريب منه، **صحيح البخاري**، الحدود، رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.

(2) علينا أن نتذكر اسم قيس جيداً، لأنه سيكون أول وال من طرف علي عليه السلام على مصر، بعد ذلك ستكون له مواقف بطولية في صفين، ومواقف مشرفة مع الحسن عليه السلام بعد شهادة أبيه علي عليه السلام.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص459.

(4) المصدر السابق، ج2، ص458 - 459.

(5) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص34.

(6) المصدر السابق، مج3، ج6، ص13.

بايع الناس أبا بكر، وأتوا بهِ المسجد يبايعونه، فسمعَ العباس وعليّ عليه السلام التَّكبير في المسجد، ولم يفرغا من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال عليٌّ عليه السلام: ما هذا؟

وجاء البراء بن عازب فضربَ البابَ على بني هاشم وقال: يا معشرَ بني هاشم، بويع أبو بكر.

فقال بعضُهُم لبعضٍ: ما كان المسلمونَ يُحدِثونَ حدثاً نغيبُ عنهُ ونحنُ أولى بمحمَّد.

فقال العباس: فعلوها وربِّ الكعبة[1].

تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله

يروي ابن هشام في سيرتِهِ أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن عباس، وقُثم بن عباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، هم الذين ولوا غسلَ رسول الله صلى الله عليه وآله[2]. وكان الذي نزل في قبره صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام، والفضل بن العباس، وقُثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله[3].

واتَّفقت الأخبار التَّاريخية على أنَّ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كانت في منتصف نهار يوم الاثنين[4]. وبويع أبو بكر يوم الاثنين في اليوم الذي قُبِضَ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله[5]. واختُلِفَ في وقتِ دفنِهِ صلى الله عليه وآله؛ فذهب الواقدي إلى أنه دُفِنَ يوم غد الثلاثاء في منتصف النَّهار حين زاغت الشمس[6]، وذهب آخرون إلى أنه دُفِنَ ليلة الأربعاء وسط الليل[7]، ويروى عن عائشة أنها قالت: ما علِمنا بدفنِ الرَّسول حتى سمعنا صوت المساحي من جوفِ الليل، ليلة الأربعاء[8]. وكلامُها يؤكِّد أنَّ الجوَّ العام للصَّحابة كان منشغلاً بأمر الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه لم يتفرَّغ لتغسيلِهِ وتكفينِهِ صلى الله عليه وآله إلا النَّفر الذين ذكرنا أسماءَهم.

---

(1) الزبير بن بكار، **الموفقيات**، ص580، نقلاً عن: مرتضى العسكري، **معالم المدرستين**، مطبعة صدر، 1416هج - 1995م، ط5، ج1، ص149.
(2) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص277.
(3) المصدر السابق، ج4، ص279.
(4) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص441.
(5) المصدر السابق، ص442.
(6) المصدر السابق، ص442.
(7) المصدر السابق، ص452، ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4، ص279.
(8) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص452.

وهناك رواية للمفيد تشير إلى أنَّ الخبرَ وصل إلى بني هاشم عندما كانوا قد فرغوا تواً من دفن رسول الله صلى الله عليه وآله. يقول المفيد: لما تمَّ لأبي بكر ما تم، وبايعَهُ الناس، جاء رجلٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يُسوِّي قبرَ رسول الله صلى الله عليه وآله بمسحاةٍ في يدِهِ، فقال له: إنَّ القومَ بايعوا أبا بكر، ووقعت الخذلة في الأنصار لاختلافِهِم، وبدَرَ الطُّلقاءُ بالعقدِ للرَّجُلِ خوفاً من إدراككم الأمر، فوضعَ عليه السلام طرف المسحاة في الأرض ويده عليها وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾[1].

وتتحدَّث الرِّوايات التَّاريخية عن محاولة لأبي سفيان لإيقاع الفتنة، من خلال تحريض الإمام علي عليه السلام والعباس، وأنَّ علياً عليه السلام زجَرَهُ وقال له: إنك واللهِ ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك طال ما بغيت للإسلامِ شراً، لا حاجة لنا في نصيحتِك[2].

بطبيعة الحال، كان الإمام علي عليه السلام ملتفتاً لذلك، ولم تنطل عليه حيلة أبي سفيان، لأنَّ العلاقة بين أبي سفيان وأبي بكر كانت على ما يرام، وكان أبو بكر يدافع عن أبي سفيان، فقد روى مسلم في صحيحه أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفرٍ، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخِ قريش وسيِّدِهِم؟ فأتى النبيَّ صلى الله عليه وآله فأخبرَهُ، فقال: يا أبا بكر لعلَّكَ أغضبتَهُم، لئن كنتَ أغضبتَهُم لقد أغضبتَ ربَّك....[3].

وروى محمد بن إسحاق أنَّ أبا بكر لما بويع، افتخرت تيم بن مرة (القبيلة التي ينتمي إليها أبو بكر)، قال: وكان عامة المهاجرين والأنصار لا يشُكُّون أنَّ علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله[4].

وفي نهج البلاغة أنَّ علياً عليه السلام سأل بعد ذلك عن مجريات اجتماع السَّقيفة فقال: ما قالت الأنصار؟

قالوا: قالت منَّا أميرٌ ومنكم أمير.

---

(1) سورة العنكبوت، الآيات: 1 - 4. المفيد، **الإرشاد**، ج1، ص**189 - 190**.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص449. أنظر أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص11 - 12، أيضاً مج1، ج2، ص27 - 28.

(3) **صحيح البخاري**، 2/ 362. أيضاً: صحيح مسلم، فضائل الصحابة، من فضائل سلمان وصهيب وبلال، مسند أحمد بن حنبل، أول مسند البصريين، حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه.

(4) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص14.

قال عليه السلام: فهلا احتججتم عليهم بأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وصى بأن يُحسِن إلى مُحسِنِهم ويُتجاوز عن مسيئهم[1]؟

قالوا: وما في هذا من الحجَّةِ عليهم؟

قال عليه السلام: لو كانت الإمامةُ فيهم لم تكن الوصيةُ بهم[2].

ثم قال عليه السلام: فماذا قالت قريش؟

قالوا: احتجَّت بأنّها شجرةُ الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم

فقال عليه السلام: احتجُّوا بالشَّجرة، وأضاعوا الثَّمَرة[3]!

ويروى أيضاً أنَّ الإمام علي عليه السلام قال بعد محاولة أبي سفيان مبايعته بالخلافة، بعد أن تمت البيعة لأبي بكر: «.... فإن أَقُل يقولوا: حرَصَ على المُلك، وإن أسكُت يقولوا: جزِعَ من الموت! هيهات بعد اللُّتيا والتي، واللهِ لابنُ أبي طالب آنسُ بالموتِ من الطفلِ بثدي أُمِّهِ، بل اندمجتُ على مكنونِ علمٍ لو بُحتُ به لاضطربتُم اضطرابَ الأرشيةِ في الطَوي البعيدة (= اضطراب الحبال المتدلّية في الآبار العميقة)»[4].

وتتحدَّث بعض المصادر عن موجةِ ندَم أصابت كثيراً من الأنصار على بيعة أبي بكر، ولام بعضُهُم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب وهتفوا باسمه[5]، ولكن ولاتَ حين مندَم.

التحصُّن بدار فاطمة عليها السلام

وغضب رجال من المهاجرين والأنصار من بيعة أبي بكر، ومالوا مع علي عليه السلام، فدخلوا بيت فاطمة عليها السلام ومعهم السِّلاح، فبلغ أبا بكر وعمر أنَّ جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي عليه السلام في منزل فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وذكر المؤرِّخون في عِداد من تخلَّف عن بيعةِ أبي بكر وتحصَّن بدار فاطمة: العباس

---

(1) لاحظ هذه الروايات في صحيح البخاري، المناقب، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

(2) أي وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هي وصية للإمام الذي يلي أمور المسلمين، بأن يقبل من محسن الأنصار ويتجاوز عن مسيئهم، ولو كان الإمام من الأنصار، لما كان ثمة وجه لكي يوصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهم. فهو صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبرهم بأنهم سيلقون من بعده أثرة.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، 67، ص97 - 98. أي احتج وجهاء المهاجرين بأنهم من قريش التي ينتسب إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأضاعوا بني هاشم، البطن القرشي الذي ينتمي إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(4) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (5)، ص52.

(5) وقالوا: لا نبايع إلا علياً. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص443.

ابن عبدالمطلب، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري[1]، عمار بن ياسر[2]، المقداد بن الأسود[3]، البراء بن عازب[4]، أُبي بن كعب[5]، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وجماعةٌ من بني هاشم، وجمعٌ من المهاجرين والأنصار.

فبعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليُخرِجَهُم من بيتِ فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتِلهم. فأقبل (عمر) بقبسٍ من نارٍ على أن يضرمَ عليهمُ الدار، فلقيَتْهم فاطمة فقالت: يا ابنَ الخطاب أجِئتَ لتُحرِقَ دارَنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا في ما دخلَت فيه الأمة[6].

وقال بعد ذلك أبو بكر في مرض موته: إني لا آسي على شيءٍ من الدُّنيا إلا على ثلاث فعلتُهن، ودَدتُ أني تركتُهُنَّ.... فأما الثلاثة التي فعلتُها فودَدتُ أني لم أكشِف بيت فاطمة عن شيءٍ، وإن كانوا قد أغلقوهُ على الحرب[7].

وفي هذا يقول شاعرُ النيل حافظ إبراهيم في ديوانه:

---

(1) هو جندب بن جنادة من بني غفار، يماني قحطاني، يقال أنه أسلم بعد أربعة، وأعلن إسلامه وتشهد الشهادتين جهاراً في المسجد الحرام، وتعرض جراء ذلك للضرب المبرح، ليس من سكان مكة الأصليين، فقد كان بنو غفار يسكنون في طريق مكة إلى الشام، توفي ودفن في الربذة قرب المدينة.

(2) عمار بن ياسر أصله يماني قحطاني من مذحج، أبوه ياسر جاء إلى مكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، وتزوج أمة لأبي حذيفة يقال لها سمية، فولدت له عماراً، فأعتقه أبو حذيفة، فمن ههنا صار عمار مولى لبني مخزوم.

(3) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك... ابن قضاعة الهراوي، نسب إلى الأسود بن عبد يغوث الزهري، لأن المقداد حالفه، فتبناه الأسود، فنسب إليه. ويقال له أيضاً المقداد الكندي، يقال لأنه أصاب دماً في بهراء فهرب منهم إلى كندة فحالفهم، ثم أصاب فيهم دماً فهرب إلى مكة، فحالف الأسود، وكان المقداد من أول من أظهر الإسلام بمكة، وفي ترجمته في أسد الغابة، أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم، قيل: يا رسول الله سمهم لنا، قال: علي منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذر والمقداد وسلمان.

(4) البراء بن عازب بن الحارث.... الأنصاري الأوسي، ردَّهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عن بدر استصغره، شهد مع علي عليه السلام الجمل وصفين والنهروان (هو وأخوه عبيد)، ونزل الكوفة، ومات أيام مصعب بن الزبير.

(5) أبي بن كعب بن قيس.... ابن النجار الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وكان بدرياً، أول من كتب لرسول الله مقدمه المدينة. توفي سنة 30هج في خلافة عثمان.

(6) ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص259 - 260. ولمعرفة تفاصيل الهجوم على بيت فاطمة عليها السلام، راجع: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص31 - 35، أيضاً مج3، ج6، ص31.

(7) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص619، ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص268.

وقـولـةٌ لـعـلـيٍ قـالـهـا عـمـرٌ أكـرِم بسـامِعِـهـا أعـظِم بمُـلـقيـهـا
حـرقـتُ دارَكَ لا أُبـقـي عـلـيـكَ بـهـا إن لـم تُبـايـع وبـنـتُ الـمـصـطـفى فيـهـا
مـا كـان غـيرُ أبـي حـفـصٍ يـفـوهُ بـهـا أمـامَ فـارسِ عـدنـانٍ وحـامـيـهـا!

الضَّغط على الإمام علي عليه السلام لمبايعة أبي بكر

وقد روى ابن قتيبة الدينوري تفاصيل الضَّغط على الإمام علي عليه السلام واقتياده قسراً من بيتِهِ، حتى جيء به إلى أبي بكر، وتعنيف عمر له: إنكَ لست متروكاً حتى تُبايع[1]، وجوابه عليه السلام: احلِب حَلباً لكَ شطرُهُ واشدُد لهُ اليومَ أمرَهُ ليَرُدَّهُ عليكَ غداً[2]!

سلب فاطمة عليها السلام فدك

بمجرد استلام أبي بكر الخلافة، سلبَ فاطمة عليها السلام فدك[3]. وقد روى عددٌ من المفسِّرين (كالسُّيوطي في الدُّر المنثور والثعلبي في كشف البيان) بالإضافة إلى علماء آخرين (كالذَّهبي في ميزان الاعتدال والمتقي الهندي في كنز العُمَّال وابن كثير في تاريخهِ) أنَّهُ لما نزلت الآية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[4]، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة فأعطاها فدكاً، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وفدك بيدِ فاطمة عليها السلام، فسلبَها أبو بكر فدك بحُجَّة ما رواهُ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «نحنُ معاشِرَ الأنبياء لا نُورِّث، ما تركنا صدقة».

ويبدو أنَّ أبا بكر وعمر كانا يعلمان أنَّ عائدات فدك تُشكِّل خطراً على الخلافة الجديدة، لأنَّها ستتحوَّل إلى مصدر مالي ضخم لأهلِ البيت عليهم السلام والمعارضة، وهذا أمر بالغ الخطورة بالنسبةِ إلى السُّلطة الجديدة. إذن لا بُدَّ من تجريد أهل البيت عليهم السلام من هذا المصدر المالي، بعد أن تمَّ تجريدهم من السُّلطة.

---

(1) قال الطبري في تاريخه: وتخلف علي والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى يُبايع علي، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير، فاضربوا به الحجر، قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعباً، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان، فبايعا. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص444.

(2) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، باب إمامة أبي بكر.

(3) كانت فدك ملكاً خاصاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فأهل خيبر تحصنوا، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحقن دماءهم ويُسيِّرهم، ففعل، فسمع ذلك أهل فدك، فنزلوا على مثل ذلك. راجع: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، 123، أيضاً راجع: البلاذري، **البلدان فتوحها وأحكامها**، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1412هج - 1992م، بيروت، ص35 - 40.

(4) سورة الإسراء، الآية: 26.

والحقيقة أنَّ فدكاً لم تكن إرثاً أصلاً حتى يُرَدّ على فاطمة عليها السلام بهذا الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، بل كانت فدك بيدِها عليها السلام فعلاً وتحت سيطرتها. وفي فقه القضاء، إذا ادَّعى شخصٌ أنَّ المالَ الذي بيدِ شخصٍ آخر (ذي اليد) ملكهُ، ففي هذه الحالة، يكون الأول هو المدَّعي، والثاني هو المنكر، والقاضي يطلبُ من المدَّعي إقامة البيِّنة لإثباتِ مُدَّعاه. وفدك كانت بيدِ فاطمة عليها السلام لسنين عديدة، وبالتالي هي ذات اليد، لذا قالت عليها السلام: فدك نحلةٌ لي، وقد وهبَها رسول الله صلى الله عليه وآله لها. ويدَّعي أبو بكر - الخليفة الجديد - بأنَّ فدكاً للمسلمين. حينئذٍ عليه أن يُثبِت ذلك بإقامة البيِّنة، لا أن يُطالبها هي بالبيِّنة على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وهبها لها[1].

عندما انتُزِعت فدك من يدِ فاطمة عليها السلام، جاءت تُطالب بها بعنوانٍ آخر. جاءت تطالب بها بعنوان إرثها من أبيها صلى الله عليه وآله. هنا ردَّ عليها أبو بكر بالحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. لذا تقول الرِّواية عن عائشة:

«إنَّ فاطمة عليها السلام بنت النبيّ صلى الله عليه وآله، أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله، مما افاءَ اللهُ عليهِ بالمدينةِ وفدك، وما بقيَ من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نُورِّث ما تركنا صدقة إنما يأكل آل محمد صلى الله عليه وآله في هذا المال، وإني والله لا أُغيِّرُ شيئاً من صدقةِ رسول الله صلى الله عليه وآله عن حالِها التي كانت عليها في عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله ولأعملنَّ فيها بما عملَ بهِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدَت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فلم تكلِّمهُ حتى توفيت. . . .»[2].

وقد ردَّت فاطمة عليها السلام على أبي بكر واستدلَّت على حقِّها بالقرآن، فالحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مخالفٌ لصريح القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾[3]، وقال على لسان زكريا عليه السلام: رب ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[4].

(1) عندما طالبها أبو بكر بالبينة، جاءت عليها السلام بعلي عليه السلام فشهد، وجاءت بأم أيمن فشهدت أيضاً. وجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقسمها. أنظر: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص126 - 127.

(2) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، غزوة خيبر، **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، قول النبي صلى الله عليه وآله: لا نورث ما تركناه صدقة.

(3) سورة النمل، الآية: 16.

(4) سورة مريم، الآيتان: 5 - 6.

وإن قيل أنَّ المقصود بالتوريث في هاتين الآيتين توريثُ العِلم والحكمة، لا توريث المال، فكيف الحال بالآية: «يوصيكم اللهُ في أولادكم للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين»[1]، والأصل في الآية وغيرها العُموم، والتخصيصُ يحتاجُ إلى دليل.

لذا يقول الإمام علي عليه السلام بألم: «بلى كانت في أيدينا فدَك، من كلِّ ما أظلَّته السَّماء، فشحَّت عليها نفوسُ قوم (= أبو بكر وعمر)، وسخَت عليها نفوسُ آخرين (= فاطمة وعلي)، ونعمَ الحكمُ الله. وما أصنعُ بفدَك وغيرِ فدَك، والنَّفسُ مظانُّها في غدٍ إلى جدث...»[2].

على أيِّ حال، عندما وليَ معاوية بن أبي سفيان الخلافة، أقطع مروان بن الحكم ثلث فدك، وأقطع عمرو بن عثمان بن عفان ثلثها، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها، وذلك بعد وفاة الحسن بن علي عليه السلام! فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام خلافته، فوهبَها لعبد العزيز ابنهِ، فوهبَها عبد العزيز لابنهِ عمر بن عبد العزيز.

فلما وليَ عمر بن عبد العزيز الأمر، ردَّ فدك إلى ولد فاطمة، فلما وليَ يزيد بن عاتكة قبضها منهم، فصارت في أيدي بني مروان كما كانت يتداولونها. فلما وليَ أبو العباس السَّفاح ردَّها إليهم، ثم قبضها أبو جعفر المنصور لخلافهِ مع بني الحسن عليه السلام، ثم ردَّها ابنه المهدي على ولد فاطمة، ثم قبضها موسى بن المهدي وهارون أخوه، فلم تزل في أيديهم حتى وليَ المأمون وردَّها على ولد فاطمة[3].

سلب بني هاشم حقّ الخمس

حتى يطمئن وجهاء المهاجرين من استتباب الأمر لهم، عمد أبو بكر إلى التضييق المالي على بني هاشم، فأسقط حقَّهم من الخُمس المفروض في القرآن.

فقد روى النِّسائي في سُننِهِ عن قيس بن مسلم، قال: سألتُ الحسن بن محمد عن قولهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾، قال: هذا مفاتِحُ كلام الله، الدُّنيا والآخرة لله، قال: اختلفوا في هذين السَّهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله سهمُ الرَّسول وسهمُ ذي القربى، فقال قائلٌ: سهمُ الرَّسول صلى الله عليه وآله للخليفةِ من بعدِهِ، وقال قائلٌ: سهمُ ذي القربى لقرابةِ الرَّسول صلى الله عليه وآله، وقال قائلٌ: سهمُ ذي القربى لقرابةِ الخليفة.

---

(1) سورة النساء، الآية: 11.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (45)، ص417.

(3) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص127.

فاجتمعَ رأيُهم على أن جعلوا هذين السَّهمين في الخيلِ والعُدَّةِ في سبيلِ الله، فكانا في ذلِكَ خلافةَ أبي بكر وعمر[1].

لذا قال ابن أبي الحديد: «واعلم أنَّ الناسَ يظنون أنَّ نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين: في الميراث والنِّحلة، وقد وجدتُ في الحديث أنها نازعت في أمرٍ ثالث، وهو سهم ذوي القربى»[2].

موقف الإمام علي عليه السلام من نتائج السَّقيفة

لا يشك الباحثون في أنَّ علياً عليه السلام كان يرى نفسَهُ أحق بخلافةِ رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرِهِ، وأنَّ ما أقعدَهُ عن المطالبة بحقِّهِ، عدم وجود عدد كاف من الأعوان والأنصار، لذا قال: «فنظرتُ فإذا ليسَ لي معينٌ، إلا أهل بيتي، فضننتُ بهم عن الموت، وأغضيتُ على القذى، وشربتُ على الشَّجى، وصبرتُ على أخذِ الكظم، وعلى أمرٍّ من طعمِ العلقَم»[3].

هذا ما تؤكِّده أيضاً رواية عائشة التي رواها البخاري ومسلم في صحيحهما، تقول في تلك الرِّواية: «. . . . فأبى أبوبكر أن يدفعَ إلى فاطمة منها (= من فدك) شيئاً، فوجدَت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرتهُ، فلم تُكلِّمهُ حتى تُوفِّيت، وعاشَت بعدَ النبي صلى الله عليه وآله ستةَ أشهر، فلما تُوفِّيت دفنَها زوجُها عليٌّ ليلاً، ولم يؤذِن بها أبا بكر، وصلَّى عليها، وكان لعليٍّ من الناسِ وجهٌ حياةَ فاطمة، فلما تُوفِّيت استنكرَ عليٌّ وجوهَ الناس، فالتمسَ مصالحةَ أبي بكر ومبايعتَهُ، ولم يكن يُبايع تلكَ الأشهُر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتِنا ولا يأتِنا أحدٌ معكَ كراهيةً لمحضر عمر. . . . (فكان مما قال الإمام علي عليه السلام لأبي بكر) لكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نرى لقرابتِنا من رسولِ الله صلى الله عليه وآله نصيباً. . . . . (ثم عندما أراد بيعة أبا بكر خطبَ عليه السلام خطبةً قال فيها) لكنَّا نرى لنا في هذا الأمرِ نصيباً، فاستبدَّ علينا، فوجَدنا في أنفُسِنا. . . »[4].

لكن ما سرّ التغير المفاجئ في موقف الإمام علي عليه السلام، من معارضٍ ناقمٍ جالسٍ في بيتِهِ ورافضٍ لبيعةِ الخليفة الأول ستة أشهر، إلى معارض بنحو إيجابي وداعم؟

---

(1) سنن النسائي، كتاب قسم الفيء، مج4، ج7، ص 133. راجع أيضاً: الحاكم النيسابوري، ج2، كتاب قسم الفيء، ح2585، ص163.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص135.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 26، ص68.

(4) صحيح البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، قول النبي صلى الله عليه وآله: لا نورث ما تركناه صدقة.

أم المؤمنين عائشة فسَّرت ذلك بأنَّ علياً عليه السلام استنكرَ وجوهَ الناس، وكأنه شعرَ بضغطِ اجتماعي ونوع من الغُربة، فالتمسَ مصالحة أبي بكر ومبايعته. ولكن الإمام علياً عليه السلام يشرح لنا الدوافع الحقيقة لتغيُّر موقفه. هذا الشَّرح نجده في كتاب له عليه السلام لأهل مصر يقول فيه:

«فلما مضى عليه السلام (يعني رسول الله) تنازعَ المسلمونَ الأمرَ من بعدهِ، فواللهِ ما كانَ يُلقى في رُوعي، ولا يخطُر ببالي، أنَّ العربَ تُزعِجُ هذا الأمرَ من بعدِهِ صلى الله عليه وآله عن أهل بيتِهِ، ولا أنهم مُنحُّوهُ عني من بعدهِ (وهذا هو الانطباع العام السائد، فقد قلنا إنَّ عامة المهاجرين والأنصار كانوا لا يشُكُّون أنَّ علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله)[1]، فما راعني إلا انثيالُ الناسِ على فلانٍ (= أبي بكر) يبايعونَهُ، فأمسكتُ يدي حتى رأيتُ راجعةَ الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محقِ دينِ محمد صلى الله عليه وآله فخشيتُ إن لم أنصُرَ الإسلامَ وأهلَهُ، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكونُ المصيبةُ به علي أعظمَ من فوتِ ولايَتِكم، التي هي متاعُ أيامٍ قلائل، يزولُ منها ما كان، كما يزولُ السَّرابُ، أو كما يتقشعُ السَّحابُ، فنهضتُ في تلكَ الأحداثِ حتى زاحَ الباطلُ وزهقَ، واطمأنَ الدِّينُ وتنَهنهَ»[2].

وتكتمل الصُّورة أكثر في خطبة الشقشقية التي يقول عليه السلام فيها: «فسدَلتُ دونَها (= دون الخلافة) ثوباً، وطويتُ عنها كشحاً، وطفقتُ أرتئي (= بدأت أفكِّرُ ملياً) بين أن أصولَ بيدٍ جذاءَ (= مقطوعة)، أو أصبرَ على طخيةٍ (= ظلمة) عمياء، يهرَمُ فيها الكبير، ويشيبُ فيها الصَّغير، ويكدَحُ فيها مؤمنٌ حتى يلقى ربَّهُ، فرأيتُ أنَّ الصَّبرَ على هاتا أحجى (ألزم وأجدر)، فصبرتُ وفي العينِ قذى، وفي الحلقِ شجا، أرى تُراثي نهباً»[3].

وهذا يعني أنَّ الإمام علي عليه السلام كان بين خَيارين: الأول أن يظل متمسِّكاً بموقفه المعارض، المؤكِّد على أحقيَّتهِ في الخِلافة السِّياسية، رغم فقدان النَّاصر، ويتجاهل ظاهرة الارتداد الخطيرة التي كانت تُهدِّد وجود الإسلام، وتكون النتيجة: الضَّياع الشامل والتفريط في تضحيات رسول الله صلى الله عليه وآله ودماء الشُّهداء وانهيار التَّجربة. الخيار الثاني أن يقِف مع أبي بكر وينصُر الإسلام وأهلَهُ لمواجهة المرتدِّين مع تحمُّل مرارة سلب الحق

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج3، ج6، ص14.
(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 62، ص451.
(3) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة 3، ص48.

وكأنَّ في العين قذى وفي الحلق شجا. . . . بالتأكيد، اختار الإمام علي عليه السلام الخَيار الثاني لأنَّ مصيبة ضياع الإسلام بالنسبةِ إليه أو انثلامه أعظم من فوت الخلافة السِّياسية.

لكن لماذا انتظر الإمام علي عليه السلام وفاة فاطمة عليها السلام ليبايع أبا بكر؟ الجواب: قد لا يكون هناك ربطٌ مباشرٌ بين مبايعته عليه السلام أبا بكر ووفاة فاطمة عليها السلام، ويبدو أنَّ السَّبب الحقيقي هو استفحال ظاهرة الارتداد، وتوالي الأخبار عن ارتداد هذه القبيلة وتلك، وخروج الوضع عن سيطرة أبي بكر، هو الذي أدى إلى وصول الإمام علي عليه السلام إلى هذه القناعة. وقد تكون وفاة فاطمة عليها السلام محفِّزاً إضافياً لقيامه عليه السلام بهذه الخطوة، لأنَّ مبايعته أبا بكر في حياة فاطمة عليها السلام، بعد غضبِها من أبي بكر وعمر، بسبب اقتحام بيتِها، وسلب حقِّها في فدك، فضلاً عن سلبِ حقِّه عليه السلام في الخلافة، سوف يجرح مشاعرها إلى حدٍّ بعيد. على هذا الأساس، قد تكون وفاتها عليها السلام محفِّزاً - وليس سبباً - لاتِّخاذ الإمام علي عليه السلام هذه الخطوة الجريئة والشُّجاعة.

الخلاصة: شرحنا فيما مضى لسان حال كلّ من قريش والأنصار ووجهاء المهاجرين وبني هاشم، وذكرنا بأنَّ الأنصار قرأوا الوضع السِّياسي، وبدا لهم واضحاً أنَّ قريشاً عزَمت على عدم تسليم الخلافة لعلي عليه السلام، فسارعَت لعقدِ اجتماعٍ سرِّي في السَّقيفة، ورسول الله صلى الله عليه وآله مُسجًّى على فراش الموت، وأرادت الخزرج مبايعة سعد بن عبادة كخليفة، وأرادوا من الأوس النُّصرة، لكن سرعان ما انكشفَ أمرُ الاجتماع، فسارعَ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى السَّقيفة، واستطاع أبو بكر أن يستفيد من تناقضات الأنصار، واحتجَّ بالسَّابقة إلى الإسلام والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يُنكِر على الأنصار فضلَهم. ففاجأ أحد رجال الخزرج الجميع بمبايعة أبي بكر، ثم بادر رجال الأوس إلى مبايعتِهِ، وخرج الأنصار من مجال المنافسة، ولم يحضر أغلب المسلمين تغسيل وتكفين رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنهم انشغلوا بأمر الخلافة، وكان الإمام علي عليه السلام منشغلاً بتغسيل رسول الله صلى الله عليه وآله وتكفينه ودفنه. . . ورأينا أنَّ وجهاء المهاجرين كانوا قد اتكأوا على حُجَّة أنَّ العرب لا تدين إلا لهذا الحيّ من قريش، فصارت قريش سنداً لوجهاء المهاجرين، وظنَّ وجهاء المهاجرين أنَّ الأمر سيظل تحتَ سيطرتِهِم، وأنهم سيظلون يُمثِّلون نقطة التوازن بين قريش من جهة والأنصار وبني هاشم من جهة أخرى. ووجدت قريش أنَّ فرصتها الوحيدة للعودة إلى دائرة السُّلطة تكمن في دعم وجهاء المهاجرين القرشيين، وإن كانوا من قبائل ضعيفة من قريش، كخطوة أولى، تتبعها خطوات نحو السُّلطة، وقام عمر بمحاصرة دار فاطمة عليها السلام التي تحصَّن فيها المعارضون، وكشف دارَها عليها السلام، وضغط

على الإمام علي عليه السلام للمبايعة، وسلب أبو بكر فاطمة فدكاً، وأسقط حق أهل البيت عليهم السلام في الخمس، حتى يتحكَّم وجهاء المهاجرين (وقريش من ورائها) في القدرة المالية لبني هاشم. وانتهى الإمام علي عليه السلام - عندما استفحلت ظاهرة الارتداد - إلى ضرورة مبايعة أبي بكر ودعمه ومساندته، لمواجهة التحدِّيات التي تهدِّد الإسلامَ في وجودهِ.

هذه الأحداث لها ربطٌ مباشر بواقعة كربلاء، فتجاهُل وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله في عرفة بحقِّ أهل البيت عليهم السلام، وتجاهل حادثة غدير خم، ورفض الإتيان بكتفٍ ودواة لرسول الله صلى الله عليه وآله . . . . ثم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، سلبُ الإمام علي عليه السلام الخلافة، ثم التهديد بحرق بيت فاطمة عليها السلام ثم كشفُهُ، والضَّغط على الإمام علي عليه السلام وإجباره على المبايعة، ثم سلب فاطمة عليها السلام فدكاً، ومنع ذوي القربى من حقِّهم من الخمس. . .سلسلة المواقف هذه، كسرت حواجز نفسيَّة واجتماعية، وكانت دروساً للطُّلقاء وأبناء الطلقاء تعلموا من خلالها كيفية التعامل مع أهل البيت عليهم السلام. فأبو بكر وعمر - تعمَّدا أو لم يتعمَّدا - هما أوَّل من كسرا هيبة أهل البيت عليهم السلام في نفوس المسلمين، تلك الهيبة التي نشأت بفضل جهود رسول الله صلى الله عليه وآله وجهاد أهل البيت عليهم السلام - وتجرأ من جاء بعدهما ليتعامل معهم بطريقة مسيئة ومهينة. . .ثم شيئاً فشيئاً بطريقة مفجعة ومشينة. فتجرأ الطَّليق معاوية بن أبي سفيان على رفع السَّيف بوجه الإمام علي عليه السلام الخليفة الشَّرعي، وتجرأ على دسِّ السُّم للحسن عليه السلام، ثم تجرأ ابن الطليق يزيد بن معاوية على سفك دم الحسين عليه السلام وشباب آل محمد، وقطع رؤوسهم ورفعها على أسنَّة الرِّماح، وجرّ أهل بيته سبايا من بلدٍ إلى آخر.

سننتقل الآن لنتحدَّث عن عهد أبي بكر، وخطوات ترسيخ الوجود القرشي في المجتمع الإسلامي، ثم انتقال الخلافة إلى عمر، وعصر الفتوحات ومضاعفات هذا المنعطف المهم على النَّسيج الاجتماعي، ثم نتحدَّث عن اغتيال عمر والشُّورى السُّداسية التي شكَّلها.

(6)

عُمَر: الفتوحات الكبرى

تحدَّثنا في الفصل السابق عن مجريات السَّقيفة، التي انتهت إلى وصول الخلافة إلى أبي بكر. والحقيقة أنَّ أبا بكر لم تطل فترة خلافته إلا سنتان وأربعة أشهر، لكن وضع خلالها قواعدَ، بنى عليها عُمَر فيما بعد. في هذا الفصل سنتناول معالم خلافة الخليفة الأول، وما جرى في خلافة الخليفة الثاني من فتوح كبرى كان لها أثر كبير في وضع المسلمين.

أبو بكر (11–13 هج) يرسخ وجود بني أمية

من الأمور اللافتة لنظر الباحث أنَّ أبا بكر لم يعهد بأيِّ عملٍ أو منصبٍ لأحدٍ من بني هاشم، ولا الأنصار، وكان بعض عُمَّالِهِ من بني أمية، منهم:

1) يزيد بن أبي سفيان: استعملَهُ والياً على الشَّام (كما ينقل الطبري في تاريخه)[1]. ويقول ابن الأثير في «أسد الغابة» في ترجمته إنه أسلَمَ يوم فتح مكة[2].

2) عتَّاب بن أسيد: عيَّنهُ أبو بكر والياً على مكة (كما ينقل الطبري في تاريخه)[3]. ويقول ابن الأثير في ترجمته في «أسد الغابة» إنه أسلَمَ يوم فتح مكة[4].

وبدأ يعلو نجم الأمويين، وبدأوا باسترداد كيانهم بعد أن فقدوه في ظلِّ الإسلام، ويبدو لي أنَّ أبا بكر كان يتوقع أن تظل الأمور تحت السَّيطرة، ويظل وجهاء المهاجرين القرشيين هم واجهة قريش، لا أن ينقلب الطُّلقاء عليهم، ويأتي معاوية بعد أخيه يزيد ليحكُم الشَّام ويُسيطر عليها، وينطلق منها للسَّيطرة على العالم الإسلامي بأسره. لذا يروي أحمد بن حنبل في مسنده عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه حِينَ بَعَثَنِي إِلَى الشَّامِ: يَا يَزِيدُ إِنَّ لَكَ قَرَابَةً، عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ،

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص617.
(2) ابن الأثير، أسد الغابة، ج5، ص112.
(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص617.
(4) ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص358.

فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللهِ فَقَدِ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ أَوْ قَالَ تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ عز وجل [1].

هل تمَّ تطبيع العلاقة مع الطُّلقاء والمنافقين؟

للوهلة الأولى، قد يكون من الغريب إثارة هذا السؤال، لكن ثمة مؤشّرين على وقوع ذلك، المؤشّر الأول: إسقاط عُمَر لسهم المؤلفةِ قلوبُهُم في خلافة أبي بكر، والمؤشّر الثاني: إسقاط التكبيرة الخامسة في الصلاةِ على الميِّت. توضيح ذلك:

فيما يتعلق بالمؤشّر الأول؛ من المعلوم أنَّ من أسهم الزَّكاة المنصوص عليها في القرآن سهم المؤلفة قلوبهم. ويُراد من إعطاء هذا السَّهم لهذهِ الشَّريحة، إما تحييدُهُم أو التخفيف من شرورهِم في الصِّراع مع الكفر، أو كسبُهُم إلى صفِّ المسلمين[2]. وكتُب فقه الزكاة والسِّير، عندما تبحث في سهم المؤلَّفة قلوبهم، تؤكِّد على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى أبا سفيان ومعاوية من غنائم حنين - بعد فتح مكة - لتأليف قلبَيهما، كما أعطى غيرهما أيضاً ممن هم على شاكلتهما[3].

وإعطاء المال بعنوان تأليف قلب إنسان ما، يعني أنَّ هذا الإنسان إما غير مسلم أصلاً، وإما مسلم ضعيفُ الإيمان ويُرادُ استمالة قلبهِ. وهذا ينطوي على نوع من التُّهمة.... .فهل إسقاط عمر لهذا السَّهم - في خلافة أبي بكر ورضاه - هو لرفع التُّهمة والحرَج عن هذه الشَّريحة، ونحوٌ من تطبيع العلاقة، تحت مبرِّر أنَّ الله تعالى أعزَّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله الإسلام وأغناهُ أن يتألَّف عليهِ رجال؟ كما يدعي بعض فقهاء أهل السُّنة الذين تحدَّثوا عن سقوط هذا السَّهم بموت رسول الله صلى الله عليه وآله!!

قال القرضاوي في فقه الزَّكاة: «وقالَ جمهورُ الحنفية: انتسخَ سهمُهُم وذهب، ولم يُعطَوا شيئاً بعد النَّبي صلى الله عليه وآله، ولا يُعطى الآن لمثل حالِهم.

قال في البدائع: وهو الصحيح، لإجماع الصَّحابة على ذلك، فإنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ما أعطيا المؤلفةِ قلوبهم شيئاً من الصَّدقات، ولم يُنكر أحدٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم. فإنه روي

(1) مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
(2) يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، ط3، 1397هج - 1977م، ج2، ص594.
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص115، وابن إسحاق، السيرة النبوية، ص584.

أنه لما قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله جاؤوا أبا بكر وسألوه: أن يكتُب لهم خطاً «كتابة رسمية» بسِهامِهم. فأعطاهُم ما سألوهُ، ثم جاؤوا عمرَ وأخبروهُ بذلك، فأخذَ الخطَّ من ايديهم ومزَّقهُ، وقال: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يُعطيكم ليُؤلِّفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعزَّ اللهُ دينَهُ، فإن ثبتُّم على الإسلام، وإلا فليسَ بيننا وبينكُم إلا السَّيف. فانصرفوا إلى أبي بكر فأخبروهُ بما صنعَ عمر رضي الله عنه، وقالوا: أنتَ الخليفة أم عمر؟ قال: هو إن شاء. ولم يُنكِر أبو بكر قولهُ وفعلهُ، وبلغَ ذلك عامَّة الصَّحابة، فلم يُنكِروا، فيكونُ ذلك إجماعاً على ذلك، ولأنه ثبتَ باتفاق الأمة أنَّ النبي صلى الله عليه وآله إنما كان يُعطيهم ليتألَّفهم على الإسلام، ولهذا سمَّاهم الله «المؤلفة قلوبهم» والإسلامُ يومئذٍ في ضَعفٍ وأهلهُ في قلةٍ، وأولئكَ كثيرٌ ذوو قوةٍ وعدد، واليوم بحمدِ الله عزَّ الإسلام، وكثُرَ أهلهُ واشتدَّت دعائِمُهُ، ورسخَ بُنيانُهُ، وصارَ أهلُ الشِّرك أذلاء. . . . »[1].

أقول: إذا تذكَّرنا أنَّ خلافة أبي بكر لم تدُم سوى سنتين وأربعة أشهر، واجهَ خلالها تحدِّيات كبيرة وتهديدات خطيرة من أهل الرِّدة، اضطرَّت علياً عليه السلام لمبايعته، ولم يكُن عصر الفتوح، فتح فارس والرُّوم، قد بدأ بنحوٍ واسع بعد. . . . فلا أدري ما الذي تغيَّر؟

صحيح أنَّ الإسلامَ، قبل صُلح الحديبية وفتح مكة والطائف، كانَ في ضعفٍ وأهلهُ في قلة. لكن بعد ذلك تغيَّرت موازين القوى تماماً، فقد عزَّ الله الإسلام، وكثرَ أهلهُ واشتدَّت دعائمُهُ، وصار أهلُ الشِّرك أذلاء. عند هذه اللَّحظة التَّاريخية أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان ومعاوية من سهم المؤلفة قلوبهم، ولم يمض على ذلك إلا ثلاث سنوات. فما هو التغيُّر الفجائي الذي حدَث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وجعل الإسلام يكثُرُ أهلهُ ويشتدّ دعائمهُ ويرسخ بنيانهُ؟!

هذا الادِّعاء لو أطلقهُ عُمَر في خلافتهِ، مع فتح فارس والرُّوم، لكان له وجه. ولكن في خلافة أبي بكر، لم يتغيَّر، من الناحية السِّياسية والاجتماعية، حالُ المسلمين تغيراً جوهرياً، بل واجه تحدِّيات، وكاد أن يُمنى بانتكاسة، بسبب أهل الردَّة. وهذا يُرجِّح القول بأنَّ إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم يخفي وراءه دوافع سياسية، وربما كان إسقاطهُ نحواً من التطبيع مع هذه الفئة من كُفَّار الأمس.

بالنسبة إلى المؤشّر الثاني، المتعلِّق بعدَد التكبيرات في الصَّلاة على الميِّت، قد يقال أيضاً بأنَّ إسقاط التكبيرة الخامسة كان يستهدف تطبيع العلاقة مع شريحة المنافقين. يقول ابن رشد القرطبي في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»: «اختلفوا في عددِ التَّكبير في

(1) يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، ج2، ص600.

الصَّدر الأول اختلافاً كثيراً من ثلاث إلى سبع: أعني الصَّحابة رضي الله عنهم. ولكن فقهاء الأمصار على أنَّ التكبير في الجنازةِ أربع، إلا ابن ليلى وجابر بن زيد فإنهما كانا يقولان: إنها خمس. وسبب الاختلاف اختلافُ الآثارِ في ذلك»[1].

أما الإمامية فقد أجمعوا على أنَّ التكبيرات في الصلاة على الميِّت المسلم خمس، فقد جاء في الكافي في خبرٍ معتبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنَّه قال: كان رسولُ الله يُكبِّرُ على قومٍ خمساً وعلى آخرين أربعاً، فإذا كبَّرَ على رجلٍ أربعاً اتُّهِم، يعني بالنِّفاق[2].

وهذه الرِّواية تدُلُّ على أنَّ عدد تكبيرات رسول الله صلى الله عليه وآله في صلاتهِ على الميِّت كان مؤشِّراً على حالهِ، من حيثُ كونه مؤمناً أو منافقاً.

وفي رواية ثانية، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنَّهُ قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله إذا صلَّى على ميِّتٍ كبَّرَ وتشهَّدَ، ثم كبَّرَ ثم صلَّى على الانبياء ودعا، ثم كبَّرَ ودعا للمؤمنين، ثم كبَّر الرابعة ودعا للميِّت، ثم كبَّر وانصرف. فلمَّا نهاهُ الله عزَّ وجلَّ عن الصلاةِ على المنافقين، كبَّر وتشهَّد، ثم كبَّر وصلى على النبيين صلى الله عليهم، ثم كبَّر ودعا للمؤمنين، ثم كبَّر الرابعة وانصرف، ولم يدعُ للميت[3].

فالتكبيرة الخامسة دعاءٌ للميت بالمغفرة، حيث يُقال بعدها: «اللهم اغفر لهذا الميت»، واللهُ سبحانَهُ أخبرَ رسولهُ صلى الله عليه وآله بعدم جدوى الاستغفار للمنافقين، فقال في سورة المنافقون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[4]. ثم أخبر بذلك مرَّة أخرى في سورة التوبة، التي نزلت بعد غزوة تبوك، قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[5]، ثم نهاهُ صراحة عن الدُّعاء والاستغفار لهم في صلاة الميِّت، كما نهاهُ عن الوقوف عند قبورهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[6].

---

(1) محمد بن رشد القرطبي، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، دار المعرفة، بيروت، 1986، ط8، ج1، ص234.

(2) الكليني، **الكافي**، ج3، باب علة تكبير الخمس على الجنائز.

(3) الكليني، **الكافي**، ج3، باب علة تكبير الخمس على الجنائز.

(4) سورة المنافقون، الآية: 6.

(5) سورة التوبة، الآية: 80.

(6) سورة التوبة، الآية: 84.

لذا كان رسول الله ﷺ يكتفي عند الصلاة على ميِّت منافق بأربع تكبيرات. فهل أُسقِطَت التكبيرة الخامسة حتى تختلط الأوراق ولا يتميَّز المنافق من المسلم بحق[1]؟

عهد أبي بكر لعُمَر

بعد مضي سنتين وأربعة أشهر من حُكمِهِ، ألمَّت بأبي بكر الأمراض، فبدأ بسلسلة من الاستشارات لترتيب شؤون الخلافة، وكان من الواضح أنَّ لديه موقفاً مسبقاً لاستخلاف عمر. وتفاوتت إجابة المستشارين، وتخوَّف بعضهم من غِلظة وشدَّة عمر. وثمة مؤشِّرات كافية تدُلُّ على أنَّ أبرز الأسماء المرشَّحة لديه بعد عمر، كانا عثمان بن عفان وأبا عبيدة ابن الجراح.... وكان اسم الإمام عليِّ بن أبي طالب عليه السلام مستبعداً!

فقد قال أبو بكر عند موته: «إني لا آسى على شيءٍ من الدنيا إلا على ثلاث فعلتُهنَّ وددت أني تركتهنَّ، وثلاث تركتهنَّ وددتُ أني فعلتهنَّ... أما الثلاث اللاتي وددتُ أني تركتهنَّ... ووددتُ أنِّي يوم سقيفة بني ساعدة كنتُ قذفتُ الأمرَ في عُنُق أحد الرَّجلين - يريد عمر وأبا عبيدة[2] - فكان أحدُهُما أميراً وكنتُ وزيراً»[3].

ولما نزلت بأبي بكر الوفاة دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر؟ فقال: يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجُل، ولكنَّ فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً (= حتى يُحقِّق توازناً في سُلطة الحُكم، فطالما أنِّي رقيقٌ وليِّن يرى أنَّ من واجبه أن يكون صلباً خشناً) ولو أفضى الأمرُ إليه لترك كثيراً مما هو عليه (= من الغلظة). ويا أبا محمد، قد رمقتُهُ فرأيتني إذا غضبتُ على الرَّجل في الشيءِ أراني الرِّضا عنه، وإذا لِنتُ له أراني الشِّدة عليه. لا تذكر يا أبا محمد مما قلتُ لك شيئاً. قال: نعم[4].

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: يا أبا عبد الله، أخبرني عن عمر؟ قال: أنتَ أخبرُ به، فقال أبو بكر: عليَّ ذاك يا أبا عبد الله، قال: اللهمَّ عِلمي به أنَّ سريرته خيرٌ من

---

(1) من المفيد أن نستذكر شهادة حذيفة بن اليمان على استفحال أمر المنافقين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقد ورد في صحيح البخاري أنَّ حذيفة كان يقول: «إنَّ المنافقين اليوم شرٌّ منهم على عهدِ النبي ﷺ، كانوا يومئذٍ يُسِرُّون، واليومَ يجهرون».

(2) كان أبو عبيدة بن الجراح عند وفاة أبي بكر عند حدود الشَّام، ولم يكن بالمدينة. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص622.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص619.

(4) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص617 - 618.

علانيته، وأن ليس فينا مثله، قال أبو بكر: رحِمَكَ الله، رحِمَكَ الله، يا أبا عبد الله، لا تذكُر مما ذكرتُ لكَ شيئاً، قال: أفعل، فقال له أبو بكر: لو تركتُهُ ما عدَوتُك..[1].

وقال لعثمان: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهدَ أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد، فإني قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلُكم خيراً منه». ثم أفاق أبو بكر فقال: إقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر[2].

وينقل ابن قتيبة الدينوري أنَّ أبا بكر طلب من عثمان بن عفان أن يكتُبَ للناس عهدَهُ في عمر، وأقرَّ أبو بكر الكتاب، فتناوله عمر، وانطلق يُهرول إلى الجامع ليقرأهُ على الناس، فانبرى إليهِ رجُلٌ، وقد أنكرَ عليهِ ما هو فيه قائلاً: ما في الكتاب يا أبا حفص؟

فأجابَ عمر: لا أدري، ولكني أوَّل من سمعَ وأطاع.

لكن يبدو أنَّ الرجل لم يقتنع بالجواب، فقال: ولكني والله أدري ما فيه، أمَّرتَهُ عام أول، وأمَّرَك العام[3].

ويقول آخر، وفقاً للطبري: رأيتُ عمر بن الخطاب وهو يجلِس والناس معه، وبيدهِ جريدة، وهو يقول: أيُّها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، إنَّهُ يقول إني لم آلُكم نُصحاً، قال ومعه مولى لأبي بكر يقالُ له شديد، معه الصَّحيفة التي فيها استخلاف عمر[4].

أقول: كم من الفرق بين موقف أبي حفص هذا، حيث يأمر الناس بالسَّمع والطَّاعة، وموقفه من كتابة وصية رسول الله صلى الله عليه وآله عندما رفض الإتيان بكتفٍ ودواة وقال: حسبُنا كتاب الله؟! كيف يُتَّهم رسول الله صلى الله عليه وآله بغلبةِ الوجَع والهجر، ولا يُتَّهم أبو بكر بذلك؟!

على أيِّ حال، موقفُ مستشاري أبي بكر لم يُجمِع على عمر، فطلحة بن عبيد الله مثلاً، هو من قبيلة أبي بكر، يبدو أنَّه كان يرغب أن لا تخرج الخلافة من تيم! ويرغب أن يكون له من الأمر شيء. لذا، دخل على أبي بكر بعد إعلان استخلاف عمر، فقال: استخلفتَ على الناسِ عمر، وقد رأيتَ ما يلقى الناسُ منه وأنتَ معه، فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاقٍ ربَّك، فسائِلُك عن رعيّتك؟

فقال أبو بكر وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله تفرقني، أو

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص618.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص618.
(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ص38.
(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص618.

أبالله تخوِّفُني؟ إذا لقيتُ الله ربي فسائلني، قلت استخلفتُ على أهلِكَ خيرَ أهلِك[1].

فردَّ عليه طلحة: أعُمَر خيرُ الناس يا خليفة رسول الله؟!

فاشتدَّ غضبُهُ، وقال: إي والله، هو خيرُهم وأنت شرُّهم. أما والله لو ولَّيتُكَ لجعلتَ أنفك في قفاك، ولرفعتَ نفسَك فوقَ قدرها، حتى يكون الله هو الذي يضَعَها! أتيتني وقد دلكتَ عينك، تريد أن تفتنني عن ديني، وتُزيلني عن رأيي؟! قُم لا أقام اللهُ رجليك. . . . فقامَ طلحة فخرج[2]!

ودخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر، في مرضهِ الذي توفي فيه، فأصابَهُ مهتماً، فقال له عبد الرحمن: أصبحتَ والحمد لله بارئاً.

فقال أبو بكر: أتراه؟

قال: نعم

قال: إني ولَّيتُ أمرَكُم خيرَكم في نفسي، فكُلُّكُم ورِمَ أنفُه من ذلك، يريدُ أن يكونَ الأمرُ له دونه. . .وأنتم أوَّل ضالٍ بالناس عدا فتصدُّونهم عن الطريق يميناً وشمالاً. . .

فقال (عبد الرحمن): خفِّض صوتَك رحمَكَ الله، فإنّ هذا يُهيضُكَ في أمرِك إنما الناسُ في أمرِكَ بين رجُلين؛ إما رجلٌ رأى ما رأيتَ فهو معك، وإما رجلٌ خالفَكَ فهو مشيرٌ عليك، وصاحبُكَ كما تُحِب، ولا نعلمكَ أردتَ إلا خيراً. .[3].

كيف كان الإمام علي عليه السلام يقرأ الوضع؟

قال الإمام علي عليه السلام في خطبة الشَّقشقية واصفاً عملية انتقال السُّلطة من الخليفة الأول إلى الثاني: «حتى مضى الأولُ لسبيلِهِ، فأدلى بها إلى فلانٍ بعدَهُ، (ثم تمثَّل بقول الأعشى):

شتان ما يومي على كورِها ويومُ حيانَ أخي جابرِ[4]

فيا عجباً، بينا هو يستقيلُها في حياتِهِ[5]، إذ عقدَها آخرَ بعدَ وفاتِهِ، لشدَّ ما تشطرا ضرعَيها»[6].

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، 621.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص104.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج2، ص619.

(4) أي شتان بين يوم قوم ظفروا بالمكاسب التي سعوا إليها، ويومي الذي ألاقي فيه المصاعب والمشاق. أو شتان بين يومي عندما كنت مع الرسول صلى الله عليه وآله مستفيداً من علمه ووجوده، ويومي الآن بعد رحيله.

(5) حيث رووا أنَّ أبا بكر قال للناس بعد البيعة: «أقيلوني فلستُ بخيركم». أنظر: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص106.

(6) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، خطبة 3، ص48.

فشبَّه الخلافة والسُّلطة بالضَّرع الذي يُحلب، وأنَّ أبا بكر وعمر طالما تقاسما السُّلطة بينهما. فهي وإن كانت بيد أبي بكر رسمياً، لكن كانا يتقاسمانها فعلياً.

حكومة عمر (13–23 هج) وعصر الفتوحات

من أهم الحوادث التاريخية التي وقعت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، مسألة الفتوح الكبرى، فتح بلاد فارس والرُّوم[1].

كان للفتوح الكبرى تأثير كبير في بُنية المجتمع الإسلامي[2]. فهم مسألة الفتوح وتأثيرها الاجتماعي والاقتصادي والقبَلي والجيوسياسي على بُنية المجتمع الإسلامي يُساعدنا كثيراً على فهم حادثة مقتل عثمان، حرب الجمل، حرب صفين، حرب النَّهروان، صُلح الإمام الحسن عليه السلام، وفاجعة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.... وغيرها من الحوادث[3].

في عهد عمر بن الخطاب، حصلت أثناء وبُعَيد الفتوح الكبرى، طفرة مالية استثنائية ومفاجئة، واستمرَّت هذه الطَّفرة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان. كان الإيراد الذي يصل إلى بيت المال يصل إلى حدٍّ معين، لكن عندما بدأت سلسلة الفتوحات، وبدأت ترِد الكنوز والأموال والفيء والخراج من بلاد فارس والرُّوم، وبالتحديد من بلاد فارس، حصلت طفرة اقتصادية غير عادية في بيت المال.

---

(1) من الكتب المفيدة للباحث في هذا المجال، كتاب «**البلدان وفتوحها وأحكامها**»، للإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

(2) من ضمن قصص فتوح الشام ما يرويه عبد الله بن الزبير، حيث يقول: كنتُ مع أبي الزبير عام اليرموك، فلما تعبى المسلمون للقتال، لبسَ الزبير لامته ثم جلس على فرسه، ثم قال لموليين له: احبسا عبد الله بن الزبير معكما في الرَّحل فإنه غلامٌ صغير، ثم توجَّه فدخل في الناس، فلما اقتتل الناس والروم، نظرتُ إلى ناسٍ وقوف على تلٍّ لا يقاتلون مع الناس، فأخذتُ فرساً للزبير كان خلَّفهُ في الرَّحل، فركبته ثم ذهبتُ إلى أولئك الناس، فوقفتُ معهم، فقلتُ أنظر ما يصنع الناس، فإذا أبو سفيان بن حرب في مشيخةٍ قريش من مهاجرة الفتح وقوفاً لا يُقاتلون، فلما رأوني رأوا غلاماً حدثاً فلم يتَّقوني، قال: فجعلوا والله إذا مالَ المسلمون وركبتهم الحرب للروم يقولون: إيهٍ إيهٍ بلاصفر، فإذا مال الروم وركبهم المسلمون قالوا: يا ويح بلاصفر، فجعلتُ أعجب من قولهم. فلما هزم الله الروم، ورجع الزبير، جعلت أحدِّثه خبرهم، قال فجعل يضحك ويقول: قاتلهم الله أبوا إلا ضِغناً، وماذا لهم إن يظهر علينا الروم، لنحن خيرٌ لهم منهم. أنظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص74 - 75.

(3) بعد فتح فارس والروم، ولى عمر بن الخطاب على الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعلى الشام ابا عبيدة ابن الجراح.

احتارَ عمر بن الخطاب في طريقة توزيع هذه الأموال[1]، فوضع معيارين للتَّفضيل في توزيع العطاء: المعيار الأول السَّابقة إلى الإسلام، والمعيار الثاني القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وعلى هذا الأساس كلَّما كان الإنسان أسبق من غيره إلى الإسلام، وأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، استحقَّ من العطاء أكثر مما يستحق غيره بقدر سابقته للإسلام وقرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله[3].

هذان المعياران يبدوان - للوهلة الأولى - معقولين للغاية. فهناك في بيت المال فائضٌ ماليٌّ كبير، والمطلوب توزيع الثروة على المسلمين، فكيف نُوزِّعها؟ الأسبق إلى الإسلام أليس هو أجدر من غيره؟ الأقرب لرسول الله صلى الله عليه وآله أليس هو أولى من غيره؟

---

(1) راجع لمعرفة التفاصيل: البلاذري، **البلدان وفتوحها وأحكامها**، ص308 - 309، أيضاً 492 - 505. وكتب ابن أبي الحديد: استشار عمر في أمر المال كيف يقسمه، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: تقسِم كل سنة ما اجتمع معك من المال، ولا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين، لقد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديواناً، وجنَّدوا جنوداً، وفرضوا لهم أرزاقاً، فأخذ بقوله. فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجُبير بن مطعم، وكانوا نُسَّاب قريش، وقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على ترتيب الخلافة، فلما نظر قال: وددتُ أنه كان هكذا، لكن ابدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وآله، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله. راجع: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص59، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص277 - 278. وأيضاً كتب ابن أبي الحديد: «ثم فرض للمهاجرين الذين شهدوا بدراً لكل واحد خمسة آلاف، ولمن شهدها من الأنصار لكلٍّ واحد أربعة آلاف. . . . ». ابن أبي الحديد، مج6، ج12، ص135.

(2) يشير ابن أبي الحديد في شرحه على النهج أن عمر كان هذا رأيه منذ خلافة أبي بكر، وأنه أشار عليه بذلك، لكنه أبى وقال: إن الله لم يفضل أحداً على أحد. لكن عندما ولي عمر أمور المسلمين قال: إنَّ أبا بكر رأى في هذه الحال رأياً، ولي رأي آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله كمن قاتل معه.

(3) «ففرض للعباس وبدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف. . . . ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة. . . . ». راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص108 - 109.

وقفة مع معيار عمر في التَّفضيل

هذا ما يبدو للوهلة الأولى، ولكن تطبيق هذين المعيارين في التَّفضيل، أدى إلى نتائج كارثية على المجتمع الإسلامي، لأنه أوجد تفاوتاً طبقياً خطيراً.

لنأخذ على سبيل المثال عمرو بن العاص ومالك الأشتر. مالك الأشتر - كما يرى بعضهم - لم يكن صحابياً، وإنما كان تابعياً[1]، ولا توجد له صلة قرابة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ مالكاً ليس من قريش، بل هو يمنيٌّ قحطاني. في المقابل، عمرو بن العاص وإن تأخَّرَ إسلامه إلى قبيل فتح مكة، لكنَّه صحابي، يعني سبقَ مالكاً في الدُّخول إلى الإسلام بحُكم السِّن. بالإضافة إلى ذلك هو أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلياً، لأنه عدناني من قريش. فإذا ما أردنا تطبيق معيار التَّفضيل في توزيع العطاء، سنجد أنَّ نصيب عمرو بن العاص يزيد على نصيب مالك الأشتر، لأنَّ له ميزتين: السَّابقة إلى الإسلام، والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ويكفي أن تتوافر في الإنسان ميزة واحدة ليزيد عطاؤه على غيره، فكيف إذا توافرت فيه ميزتان؟!

أكثر من ذلك، إذا أردنا تطبيق هذا المعيار على المهاجرين والأنصار، يفترض أنَّ العطاء الذي سيذهب إلى المهاجرين يزيد على العطاء الذي سيذهب إلى الأنصار، لأنَّ أكثر المهاجرين هم من ناحية من قريش[2]. وهم من ناحية ثانية، بحُكم وجودهم في مكة، كانوا أسبق للدُّخول في الإسلام بالمقارنة بأكثر الأنصار[3]. هذا التَّفضيل أدَّى إلى تفاوت طبقي بين المهاجرين والأنصار. فمثلاً سعد بن أبي وقاص أو عبد الرحمن بن عوف هما من المهاجرين، وهما من قريش، في حين أنَّ سعد بن عبادة أو أبا أيوب الأنصاري هما من الأنصار، وليسا من قريش[4].

---

(1) وهناك من الباحثين من يؤكد إدراكه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(2) يقول البلاذري: «وفرض للمهاجرين الذين شهدوا بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف، وفرض للأنصار الذين شهدوا بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف»!! أنظر: البلاذري، **البلدان وفتوحها وأحكامها**، ص498.

(3) طبعاً كان من بين المهاجرين من لا ينتمي إلى قريش مثل عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، وكان من الأنصار من هو أسبق للدخول إلى الإسلام من بعض المهاجرين، لكن كلامنا هنا على الحالة العامة التي تنطوي طبعاً على استثناءات.

(4) تطبيق هذين المعيارين لم يكن صارماً، بل كان فيه استثناءات، فمثلاً، يروي الطبري أنَّ الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان ألحقوا في العطاء بأهل بدر، فكان هؤلاء الأربعة يأخذون ما يأخذه أهل بدر. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص109.

هذا فضلاً عن تفضيل عمر للعرب على العجم، والصَّريح على المولى، الأمر الذي أدَّى إلى إيجاد حالة طبقية مريعة بين المسلمين[1]، كما أدَّت إلى تصنيف الناس بحسب قبائلهم وأصولهم، فنشط النسَّابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها، مما أدى إلى حنق الموالي على العرب.

في هذا المجال، يقول الأستاذ الشاوي: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ساوى بين المسلمين في العطاء، فلم يُفضِّل أحداً منهم على أحد. وجرى أبو بكر على مبدأ التَّسوية هذا مُدَّة حُكمِهِ. أما عمر، فإنه لما وليَ الخلافة، فضَّل بعض الناس على بعض، ففضَّل السَّابقين على غيرهم، وفضَّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضَّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضَّل العرب على العجم، وفضَّل الصَّريح على المولى، وفرض لأهل اليمن في أربعمائة، ولمُضَر في ثلاثمائة، ولربيعة في مائتين، وفضَّل الأوس على الخزرج.

وقد كوَّن هذا المبدأ سبباً جديداً من أسباب الصِّراع القبلي بين ربيعة ومُضَر، وبين الأوس والخزرج، بما تفضَّل من تفضيل سائر مضر على سائر ربيعة، وتفضيل الأوس على الخزرج. ونظنُّ أنَّ هذا المبدأ قد أرسى أوَّل أساس من أسس الصِّراع العُنصري بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين بما جرى عليهِ عمر من تفضيل العرَب على العجَم والصَّريح على المولى»[2].

وبالنتيجة، استطاعت قريش أن تستأثر بالمال، كما استأثرت في السَّقيفة بالحُكم، وصارت بيدِها مقاليد الأمور، على حساب الأنصار وباقي المسلمين غير القرشيين. على مستوى الاستئثار بالحُكم، كانت حُجَّة عمر في السَّقيفة ضد الأنصار مبنيَّة على أمرين: أنَّ المهاجرين أوَّلُ الناسِ إسلاماً، وأنَّهم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمسّهم بهِ رحِماً. والآن على مستوى الاستئثار بالمال، حُجَّتُه هي ذاتها، السَّابقة إلى الإسلام، والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعندما نتحدَّث عن قريش، فنحنُ نقصد كبار المهاجرين من الصَّحابة، كالخلفاء الثلاثة بالإضافة إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح

---

(1) بل ميَّز عمر بين زوجات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففرض لعائشة في اثني عشر ألفاً، وفرض لصفية وجويرية في ستة آلاف.
ولسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عشرة آلاف، أنظر: البلاذري، **البلدان وفتوحها وأحكامها**، ص498.

(2) علي الشاوي، **الإمام الحسين** عليه السلام في المدينة المنورة، مركز الدراسات الإسلامية، ط2، 1425هج، قم، ص 103 - 104.

وطلحة بن عبيد الله، بالتحالف والتنسيق مع القرشيين الذين تأخروا في الدُّخول إلى الإسلام إلى قُبيل أو بعد فتح مكة، كأبي سفيان وابنه معاوية ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد. هؤلاء الذين تأخَّروا في الدُّخول إلى الإسلام، وإن لم تكن لهم ميزة السَّابقة التامة إلى الإسلام، لكن لهم سابقة نسبية إذا ما قورن وضعُهُم بالأجيال التالية من التَّابعين، كما أنَّ لهم ميزة القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بوصفهم قرشيين.

نشوء جيل جديد

ما وقع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو دخول أناس جُدُد إلى الإسلام، ونشوء جيل جديد لم يعاصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، شارك فعلياً في الفتوح الكبرى، لكن لم يحظَ بشيءٍ معتدّ به من العطاء[1]. صحيح أنَّ أبا بكر لم يستمر في الحُكم طويلاً (سنتان وأربعة أشهر تقريباً)، لكن حُكم عمر استمر عقداً من الزمن (عشر سنوات وستة أشهر وبضعة أيام)، وسوف نرى أنَّ فترة حُكم عثمان ستمتد إلى أكثر من عقد من الزمن (اثنتا عشرة سنة تقريباً). فهذه التحوُّلات الخطيرة بدأت مع الفتوحات أيام عمر، واستمرت بنحوٍ أخطر مع أيام عثمان، كما سنرى.

من ناحية أخرى، لم يتلقَّ الجيل الجديد، تربية روحية وثقافية وفكرية وعقائدية. هذا الجيل ظلَّ مهملاً مدة خمس وعشرين سنة. هم مشغولون بالمعارك والفتوح، وكبار الصَّحابة مشغولون - كما سنرى - بالتحوُّل إلى حياةِ التَّرف والبذخ. وعندما ينشغل كبار الصَّحابة بجمع حُطام الدُّنيا، ويُهمَل الجيل الجديد من التربية والتزكية الرُّوحية، ستعود بالتدريج العصبيات القبلية، لتفرض نفسها لأنَّها أمور متأصِّلة في الشَّخصية العربية.

وهناك سبب آخر لعدم تلقِّي هذا الجيل تلك التربية، وهو الحِصار الذي فرضَهُ عمر على الصَّحابة، حيث لم يسمَح لهم بمغادرة المدينة إلا بإذنٍ خاص منه، ولفترة محدَّدة. كتب الطبري: «كان عمر بن الخطاب قد حجَر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان، إلا بإذنٍ منه وأجَل. . . . فلما وليَهم عثمان لم يأخُذهم بالذي كان يأخُذهم بهِ عمر، فانساحوا في البلاد. . .فكان ذلك أوَّل وهن دخل على الإسلام، وأوَّل فتنة كانت في العامة، ليس إلا ذلك». ويروي أيضاً: «لم يمُت عمر رضي الله عنه حتى ملَّته قريش، وقد كان حصرَهُم بالمدينة، فامتنع عليهم، وقال: إنَّ أخوف ما أخاف على هذهِ الأمة

---

(1) أشرنا في هامش سابق إلى أن نصيب أهل بدر مثلاً كان خمسة آلاف خمسة آلاف (ولو كان جليس بيته في عصر الفتوح)، ونصيب أهل القادسية ألفين ألفين، وأهل البلاء منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة.

انتشارُكُم في البلاد، فإن كان الرَّجل ليستأذنه في الغزو، وهو ممن حُبِسَ بالمدينة من المهاجرين، ولـم يكن فعلَ ذلك بغيرهِم من أهل مكة، فيقول: قد كان في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك وهو خيرٌ لكَ من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا ولا تراك. فلما وليَ عثمان خلَّى عنهم فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس، فكان (عثمان) أحبَّ إليهم من عمر»[1].

وقد برَّر د. طه حسين ذلك بقوله: «لكنَّهُ خافَ عليهم الفتنة، وخافَ منهم الفتنة، فأمسَكُهم في المدينة، لا يخرجونَ منها إلا بإذنهِ، وحبَسَهم عن الأقطار المفتوحة، لا يذهبون إليها إلا بأمرٍ منه. خافَ أن يُفتتن الناس بهم، وخافَ عليهم أن يغُرَّهم افتتان الناس بهم، وخافَ على الدولة أعقاب هذا الافتتان...»[2].

بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أنَّ عمر لم يمنع بني هاشم والأنصار من تولي شيء من جهاز الحكم فحسب[3]، بل أقرَّ ولاة أبي بكر في مناصِبِهم، وولى يعلى بن منبه على صنعاء، والمغيرة بن شعبة على الكوفة[4]، واستعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة[5]، ومنعَ حتى أمثال طلحة والزُّبير. وقد قيل له: «إنك استعملتَ يزيد بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص، وفلاناً وفلاناً من المؤلَّفة قلوبهم من الطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء، وتركتَ أن تستعمل علياً والعباس والزُّبير وطلحة؟! فقال: أما عليٌّ فأنبَهُ من ذلك، وأما هؤلاء النَّفر من قريش، فإني أخافُ أن ينتشروا في البلاد فيُكثروا فيها الفساد»[6].

هذا الإجراء لم يمنع الجيل الجديد من تلقِّي تربية معنوية على يد الصَّحابة فحسب، بل منع عدداً كبيراً من الصَّحابة من التعرُّف على التحوُّلات الخطيرة التي كانت تطرأ على العراق والشَّام ومتابعتها.

مراقبة شديدة للولاة لكن معاوية حالة استثنائية

كان عمر شديدَ المراقبة لعُمَّاله وولاتِهِ، فكان لا يولي عامِلاً إلا أحصى عليهِ مالهُ، وإذا عزَلهُ أحصاهُ عليهِ حين العزل. يقول ابن أبي الحديد: «كان عمر إذا استعملَ عاملاً

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص426 - 427.
(2) طه حسين، الفتنة الكبرى، 1/ 17.
(3) كان عمر يستخلف علياً عليه السلام على المدينة عندما يخرج خارجها لفترات محدودة، ويبدو لي أنَّ سبب ذلك هو اطمئنانه إلى أنَّ علياً عليه السلام لا يغدر ولا يخون.
(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص303 - 304.
(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص286 - 287.
(6) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ، ص.

كتبَ عليه كتاباً، وأشهدَ عليه رَهطاً من المسلمين، ألا يركب برذوناً[1]، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابَهُ دون حاجات المسلمين، ثم يقول: اللهمَّ اشهد»[2].

لكن الأمر لم يكن على هذا النحو مع معاوية. كان عمر هو الذي ولاَّهُ على الشَّام، بعد وفاةِ أخيه يزيد، وكان يعامِلُهُ معاملة خاصة، ربما لمبرِّرات اختلقها معاوية لعمر.

في ذلك ينقل الطبري أنَّ عمر خرج إلى الشام، فرأى معاوية في موكبٍ يتلقَّاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية تروحُ في موكبٍ وتغدو في مثلِهِ، وبلغني أنك تُصبح في منزلِك وذوو الحاجات ببابك.

قال (معاوية): يا أميرَ المؤمنين، إنَّ العدو بها قريبٌ منَّا، ولهم عيونٌ وجواسيس، فأردتُ يا أميرَ المؤمنين أن يرَوا للإسلام عِزّاً.

فقال له عمر: إنَّ هذا لكيدُ رجلٍ لبيب أو خُدعةُ رجلٍ أريب.

فقال معاوية: يا أميرَ المؤمنين، مُرني بما شئت أصِر إليه.

قال (عمر): ويحكَ، ما ناظرتُكَ في أمرٍ أعيبُ عليكَ فيهِ إلا تركتني ما أدري آمُرُكَ أم أنهاك[3]؟

وكان يقول - كما ينقل الطبري - مشيداً بمعاوية: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءَهُما وعندكم معاوية؟!

بل كان عمر يعينُ بعض نساء بني أمية، فقد أقرض هند بنت عتبة (أم معاوية) أربعة آلاف من بيت المال تتَّجر فيها، على ما ينقل الطبري وابن أبي الحديد[4].

على أيِّ حال، لم تظهر آثار هذا التفاوت القبَلي بسبب التمييز في توزيع الثروة إلا في آخر فترة حكم عمر بن الخطاب، حينما رأى الثَّراء الفاحش عند كثير من الصحابة، ولم تطب به نفسه، فراحَ يقول: «لو استقبلتُ من الأمر ما استدبرت، لأخذتُ من الأغنياء فضولَ أموالهم فردَدتُها على الفقراء»[5].

---

(1) البِرذَون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخِلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص15.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص244 - 245.

(4) أيضاً انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص87، أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص61.

(5) **شرح النهج**، ج9، ص29 نقلاً عن أعلام الهداية، الإمام علي عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط1، 1422هج، قم. ج2، ص153.

خلاصة القول أنَّ مدة حكم أبي بكر كانت قصيرة، فهو إن استطاع القضاء على ظاهرة الارتداد بفضل تماسُك الجبهة الدَّاخلية وصبر الإمام علي عليه السلام، فهو في المقابل رسَّخ وجود قريش (وبالتحديد بني أمية) من خلال تنصيبِهِم ولاة في بعض المناطق، ثم عهد بالخلافة إلى عمر، ولم يكن تنصيب أبي بكر لعمر مفاجأة لشِدَّة التنسيق وقوة الارتباط بين الأول والثاني. ومع عمر بدأت الفتوحات التي جاءت معها الطَّفرة المالية التي ألقت بظلالها الخطيرة على النَّسيج الاجتماعي، خصوصاً إذا لاحظنا التأثير التراكمي لتطبيق معيار عمر في التَّفضيل في العطاء، فقريش لم تعد تستأثر بالسُّلطة فقط، بل صارت تستأثر بالمال أيضاً.

في الفصل القادم سنتناول عملية اغتيال عمر، والترتيبات التي قام بها على عجَل لتحديد هوية الخليفة القادم.

(7)

عُمَر: الاغتيال والشُّورى السُّداسية

تناولنا في الفصل السابق خلافة أبي بكر، وانتقال السُّلطة إلى عمر من خلال استخلاف الأول للثاني. كما تحدَّثنا عن الفتوحات الكبرى وبعض تداعياتها، وطريقة توزيع عمر للعطاء، وتفضيله لذوي السَّابقة إلى الإسلام والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله. في هذا الفصل سنتناول ظروف وملابسات اغتيال عمر، والشورى السُّداسية التي شكَّلها على عجَل، ومجريات تلك الشُّورى، وما انتهت إليه من وصول الخلافة إلى عثمان بن عفان، الأمر الذي أدى إلى تفرُّد بني أمية بالسُّلطة.

اغتيال عمر

التحقيق في حادثة اغتيال عمر بن الخطاب، يثير في ذهن الباحث أسئلة محيِّرة. رغم أنِّي لستُ من أنصار نظرية المؤامرة، التي تعزو كلَّ حدث إلى مؤامرة ما، إلا أنَّ النصوص التاريخية المتعلِّقة بحادثة اغتيال عمر، تدفعنا إلى عدم استبعاد فرضية وجود مؤامرة. على ضوء تلك النُّصوص، يمكن افتراض ثلاث فرضيات على الأقل لتفسير حادثة الاغتيال.

1) الفرضية الأولى: أنَّ أبا لؤلؤة هو وحدَهُ المسؤول عن قتل عمر، وأنَّ قتلهُ كان بسبب غضبهِ وانفعالهِ وعدم استجابة عمر لشكواه من ارتفاع الخَراج الذي كان يدفعه لمولاهُ المغيرة بن شعبة.

2) الفرضية الثانية: أنَّ ثمة مؤامرة دبَّرها الفرس، وعلى رأسهم الهُرمزان وأبو لؤلؤة، اللذان كانا موجودين في المدينة، انتقاماً من عمر والمسلمين لفتح فارس، وما جرى بعد فتح فارس من سبيٍ للفرس.

3) الفرضية الثالثة: أنَّ ثمة مؤامرة، دبَّرتها شبكة خفية لبني أمية وحلفائهم، يرأسُها معاوية في الشَّام، وتتشكل أعضاؤها من المغيرة بن شعبة الثَّقفي في الكوفة، وعبد الله بن

سعد بن أبي سرح[1]، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي[2]، وعمرو بن العاص السَّهمي[3] وكعب الأحبار[4] في المدينة. والأداة التي استُخدِمت لتنفيذ هذه المؤامرة هي أبو لؤلؤة، حيث استفادت هذه الشَّبكة من الحقد المختزن في قلبهِ، ووظَّفتهُ باتجاه اغتيال عمر، لفتح الطريق أمام بني أمية للوصول إلى السُّلطة. وجاء المغيرة من الكوفة إلى المدينة للإشراف على التنفيذ. وقد يكون للهُرمزان دورٌ في التنسيق مع أبي لؤلؤة في تنفيذ عملية الاغتيال.

طبعاً، لا بُدَّ من الاعتراف بصعوبة الوصول إلى قناعة أكيدة حول الفرضيات الثلاث، وإن كانت الفرضية الثالثة أكثر ترجيحاً من الأولى، والأولى أكثر ترجيحاً من الثانية.

الآن، قبل أن أسرد ما يُرجِّح الفرضية الثالثة، علينا أن نتذكَّر اسم «المغيرة بن شُعبة» جيداً، فللمغيرة دورٌ كبير سيلعبه في خلافة معاوية. فهو سيكون الوالي من قبل معاوية على الكوفة، وسيحكُمُها بالحديد والنار، ويُذيق شيعة الإمام علي عليه السلام ألواناً من العذاب، وسيكون له دورٌ مباشر في تحريض معاوية على توريث السُّلطة ليزيد.

تبدأ قصة مقتل عمر من فتح فارس، وأسر الهُرمزان - الذي كان من قادة الفرس - والمجيء به إلى عمر، الذي هدَّده وخيَّره بين الدُّخول في الإسلام أو القتل، فتشهَّدَ الهُرمزان الشَّهادتين، فأمَّنه عمر وفرض له ألفين وأنزله المدينة[5].

وكان عمر حريصاً على أن لا يُدخِل الفرس المدينة، لأسبابٍ أمنية كما سنرى. ودخول أبي لؤلؤة إلى المدينة كان حالة استثنائية بطلبٍ وضغطٍ من المغيرة على عمر.

---

(1) أخو عثمان بن عفان بالرَّضاعة، كان من أخطر المشركين وأكثرهم عداء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسخرية منه. كان مسلماً يكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي، فربما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سميع عليم» فيكتب «عليم حكيم»، ويقول: ما يدري محمد ما يقول إني لأكتب له ما شئت، هذا الذي كتبت يوحى إليَّ كما يوحى على محمد. وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً، وعند فتح مكة، أهدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دمه، وطالب بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، ثم تركه صلى الله عليه وآله وسلم بعد شفاعة وإلحاح عثمان بن عفان.

(2) وهو الذي بعثه كفار قريش مع عمرو بن العاص لكي يطلبا من النجاشي استعادة المهاجرين المسلمين من الحبشة، وانتهت مهمتهما بالفشل.

(3) وعندما استتبت الأمور لمعاوية، كوفئ المغيرة بن شعبة بأن صار والياً لمعاوية على الكوفة، وكوفئ عمرو بن العاص بأن صار والياً لمعاوية على مصر.

(4) يهودي يمني، أسلم في خلافة عمر، ومات في حمص في خلافة عثمان.

(5) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج1، ج1، ص113 - 114، أيضاً: مج6، ج12، ص72.

كتب ابن أبي الحديد: كان عمر لا يأذن لصبيٍّ قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة، وهو على الكوفة، يذكر له غلاماً صَنَعاً عنده، ويستأذنه في دخول المدينة، ويقول: إنَّ عندَهُ أعمالاً كثيرة فيها منافع الناس، إنَّهُ حدَّادٌ نقَّاشٌ نجَّار. فأذِن له أن يُرسل به إلى المدينة. وضربَ عليه المغيرة مائة درهم في كلِّ شهر، فجاء إلى عمر يوماً يشتكي إليه الخَراج، فقال له عمر: ماذا تُحسِن من الأعمال؟ فعدَّ له الأعمال التي يُحسِن، فقال له: ليس خَراجُك بكثير في كُنهِ عملك[1].

وكتب الطبري: خرجَ عمر بن الخطاب يوماً يطوفُ في السُّوق، فلقيهُ أبو لؤلؤة - غلام المغيرة بن شعبة - وكان نصرانياً[2]، فقال: يا أمير المؤمنين، أعِدني على المغيرة بن شعبة، فإنَّ عليَّ خراجاً كثيراً. قال: وكم خراجُك؟ قال: درهمان في كلِّ يوم، قال: وإيش صناعتك؟ قال: نجارٌ نقَّاشٌ حدَّاد، قال: فما أرى خراجَكَ بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنَّك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالرِّيح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحى، قال: لئن سلمت لأعملنَّ لك رحى يتحدَّث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرفَ عنه. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لقد توعَّدني العبدُ آنفاً[3].

أقول: لا أدري لم أصرَّ المغيرة بن شعبة على إدخال أبي لؤلؤة إلى المدينة كحالة استثنائية رغم قلق عمر من دخول الفرس إليها؟ وهل كان أبو لؤلؤة موظَّفاً لتنفيذ عملية معينة في المدينة؟ وهل كانت شكوى أبي لؤلؤة مسرحية مفتعلة للتمويه على المُحرِّك الرئيس للاغتيال؟ أم أنَّها شكوى حقيقية بسبب ارتفاع الخَراج الذي يطلبه المغيرة من أبي لؤلؤة؟ وعلى فرض أنَّها شكوى حقيقية، فهل كان رفع الخراج على أبي لؤلؤة متعمَّداً حتى يجد أبو لؤلؤة لنفسه متنفساً وموضوعاً يفرغ فيه حقده وغضبه؟ خصوصاً عندما نعرف أنَّ مولاه المغيرة بن شعبة كان معروفاً بأنه أبرز دهاة العرب. وعلى فرض أنَّ شكوى أبي لؤلؤة حقيقية، فما تفسير وجود المغيرة بن شعبة في المدينة بدلاً من الكوفة؟ أم أنَّ وجوده في المدينة كان مجرَّد صدفة؟ ولمَ لم يوجِّه أبو لؤلؤة انتقامه من المتسبِّب المباشر في رفع الخَراج، وهو المغيرة، خصوصاً مع وجود الأخير في المدينة؟ وهل لكعب الأحبار دورٌ في اغتيال عمر؟ دعونا نكمل القصة.

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص115 - 116.

(2) وأيد كونه نصرانياً ابن عبد ربه الأندلسي، في **العقد الفريد**، ج4، ص272. وكتب المسعودي: وكان مجوسياً من أهل نهاوند. أنظر: المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط1، 2000، ج2، ص320.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص263 - 264.

كتب الطبري: فلما كان من الغد، جاءَهُ كعبُ الأحبار، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، اعهَد فإنك ميِّتٌ في ثلاثةِ أيام، قال: وما يُدريك؟ قال: أجِدُهُ في كتابِ اللهِ عزّ وجلّ التوراة! قال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة، قال: اللهم لا، ولكني أجدُ صِفتك وحليتك، وأنه قد فنى أجلك، قال وعمر لا يحسُّ وجعاً وألماً. فلما كان من الغد، جاءَهُ كعب فقال: يا أميرَ المؤمنين، ذهبَ يومٌ وبقيَ يومان، قال: ثم جاءَهُ من غد الغد فقال: ذهبَ يومان وبقيَ يومٌ وليلة، وهي لك إلى صبيحتها[1].

وكتب ابن أبي الحديد: ويروى أنَّ كعباً كان يقول: نجدُكَ في كتبنا تموتُ شهيداً، فيقول: كيف لي بالشهادة وأنا في جزيرة العرب؟![2]

قبل سرد تفاصيل عملية الاغتيال - كما رواها الطبري - لنقف قليلاً عند دور كعب الأحبار المحتمل، ونثير بعض التساؤلات:

1) إنَّ معرفة كعب الأحبار باليوم الذي سيُقتل فيه عمر غيلة، يثير علامات استفهام حول صلته بعملية الاغتيال.

2) إنَّ كتاب التوراة متوافر الآن بيد الباحثين، فأين هي العبارات الموجودة في التوراة الدَّالة على صفة عمر، ويوم أجله، وأنَّه سيموتُ شهيداً؟!

3) إنَّ إصرار كعب الأحبار على تذكير عمر يومياً - بطريق العدِّ التنازلي - بأيامه الأخيرة، يوحي بأنَّه كان يترقَّب من عمر أن يستخلف شخصاً معيناً. ومن المحتمل أنَّ تلك الشَّبكة المفترضة كانت تتوقَّع من عمر أن يعهد مباشرة إلى عثمان، دون الحاجة للدُّخول في متاهة الشورى السُّداسية، غير مأمونة العواقب.

4) إنَّ شعور عمر بالحاجة لمعرفة إذا كان اسمُهُ أو صفتُهُ وأجلُهُ مذكورين في التوراة مخالفٌ لتعاليم رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد روى أحمد في مسنده: أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وآله بكتاب أصابَهُ من بعض أهل الكتب، فقرأهُ النبي صلى الله عليه وآله، فغضب، فقال: أمتهوكون فيها يا ابنَ الخطاب، والذي نفسي بيدِهِ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبروكم بحقّ فتكذبوا به، أو بباطل فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى صلى الله عليه وآله كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني[3].

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص264.
(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج6، ص121.
(3) مسند أحمد بن حنبل، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق.

بل عمر نفسه منعَ عن كتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لخشيته - كما يُقال - من اختلاط حديثه صلى الله عليه وآله بالقرآن، واختلاطهما بكُتُب أهل الكتاب. إذن لم لجأ إلى أمثال كعب الأحبار لمعرفة بعض التفاصيل المتعلِّقة بشخصِهِ ومستقبلِهِ؟

فعن القاسم بن محمد بن أبي بكر: إنَّ عمر بن الخطاب بلغه أنَّه ظهرت في أيدي الناس كُتُب، فاستنكرها وكرِهَها، وقال: أيُّها الناس، إنه قد بلغني أنَّه قد ظهرت في أيديكم كُتُب، فأحبُّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يُبقينَّ أحدٌ عنده كتاباً إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي. قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقوّمها على أمرٍ لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرَقَها بالنار. ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب[1]. وفي الطبقات الكبرى: مثناة كمثناة[2] أهل الكتاب[3].

ويوجد نصٌ تاريخيٌّ آخر له علاقة بالأمر، فقد كتب ابن أبي الحديد:

يروى عن ابن عباس أنه قال: تبرَّم عمر بالخلافة في آخر أيامه، وخافَ العجز، وضجر من سياسة الرَّعية، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفَّاه. فقال لكعب الأحبار يوماً وأنا عنده: إنِّي قد أحببتُ أن أعهد إلى من يقوم بهذا الأمر؛ وأظنُّ وفاتي قد دنت، فما تقول في عليّ؟ أشِر عليَّ في رأيك، وأذكِرني ما تجدونه عندكم، فإنكم تزعمون أنَّ أمرنا هذا مسطورٌ في كتبكم.

فقال (كعب الأحبار): أما من طريق الرأي فإنَّه لا يصلُح؛ إنه رجلٌ متينُ الدِّين، لا يُغضي على عورة، ولا يحلُم عن زلَّة، ولا يعمل باجتهاد رأيهِ، وليس هذا من سياسة الرَّعية في شيء. وأما ما نجدهُ في كتبنا، فنجدهُ لا يلي الأمر ولا ولدُه، وإن وليَهُ كان هرجٌ شديد.

قال (عمر): كيف ذاك؟

قال: لأنه أراق الدِّماء، فحرَمَهُ اللهُ المُلكَ. إنَّ داود لما أراد أن يبني حيطان بيت المقدس أوحى اللهُ إليه: إنك لا تبنيه، لأنك أرقت الدِّماء، وإنما يبنيه سليمان.

فقال عمر: أليس بحقٍّ أراقها؟

قال كعب: داود بحقٍّ أراقها يا أميرَ المؤمنين.

---

(1) حجية السنة: 395، نقلاً عن: علي الشهرستاني، **منع تدوين الحديث**، مؤسسة الإمام علي عليه السلام، ط1، 1418هج، قم، ص35.

(2) يحتمل أن تكون مصحفة من «مشناة»، وهي الروايات الشفوية التي دونها اليهود ثم شرحها علماؤهم.

(3) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 1/ 140، نقلاً عن: علي الشهرستاني، **منع تدوين الحديث**، ص35.

قال (عمر): فإلى من يُفضي الأمر تجدونه عندكم؟

قال (كعب الأحبار): نجدهُ ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثنين من أصحابه، إلى أعدائهِ الذين حاربهم وحاربوه، وحارَبَهُم على الدِّين.

فاسترجع عمر مراراً، وقال: أتستمع يا ابن عباس؟! أما والله لقد سمعتُ من رسول الله ما يشابه هذا، سمعته يقول: «ليصعدنَّ بنو أمية على منبري، ولقد أُريتهم في منامي ينزون عليه نزوَ القِرَدة»[1]. وفيهم أنزل ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[2].

وهذه الرِّواية إن صحَّت، تثيرُ تساؤلات:

5) لم لجأ عمر إلى كعب الأحبار - اليهودي الذي تُنسب إليه الإسرائيليات - ليستشيره في صلاحية الإمام علي عليه السلام لتولِّي الخلافة؟ ما هو موقعه؟ وكيف ولماذا صار مستشاراً لعمر؟

6) إنَّ كتاب التوراة متوافر الآن بيد الباحثين، فأين هي العبارات الموجودة في التوراة الدَّالة على أنَّ علياً عليه السلام لا يلي الأمرَ وإن وليَهُ كان هرجٌ شديد، وأنَّه لا يلي الأمور لأنه أراق الدِّماء، فحرَمَهُ اللهُ المُلكَ؟! وأين هي العبارات الدَّالة على أنَّ الأمر سيؤول لا محالة إلى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله الذين حاربهم وحاربوه؟

7) ما هي مصلحة كعب الأحبار في أن يوحي لعمر بأنَّ الخلافة ستؤول إلى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وهل ثمة علاقة تربطُهُ ببني أمية؟

نعود إلى الطبري الذي كتب: فلما كان الصُّبح، خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصُّفوف رجالاً، فإذا استوت جاء هو فكبَّر، قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، وفي يدهِ خنجر له رأسان نصابه في وَسطِهِ، فضربَ عمر ستّ ضربات، إحداهنَّ تحت سرَّتِهِ، وهي التي قتلته.... ....فلما وجدَ عمر حرَّ السِّلاح سقط، وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، هو ذا، قال: تقدَّم فصلِّ بالناس، قال: فصلى عبد الرحمن بن عوف، وعمر طريحٌ، ثم احتمل فأدخل داره[3].

وفي روايات أخرى أنَّ أبا لؤلؤة طعن عمر ثلاثة طعنات، ثم انحاز إلى أهل المسجد، فطعن فيهم من يليه حتى طعنَ أحدَ عشر رجلاً سوى عمر، ثم انتحرَ بخنجرهِ.

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص51.
(2) سورة الإسراء، الآية: 60.
(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص264.

وأنَّ عمر بعد أن أُدخِلَ دارَهُ وجراحاتهُ تنزف، قال له الطبيب: اعهَد يا أمير المؤمنين عهدَكَ. وروى عبد الله بن عمر قال: كان أبي يكتُب إلى أمراء الجيوش: لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحداً جرَت عليه المواسي[1]، فلما طعنَهُ أبو لؤلؤة، قال: من بي، قالوا: غلامُ المغيرة، قال: ألم أقل لكم: لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحداً، فغلبتموني[2].

وينقل المسعودي في مروج الذهب أنَّ عبد الله بن عمر لما أيقن بدنوِّ أجل أبيه طلب منه أن يُعيِّن أحداً للخلافة، فقال له: يا أبه، استخلف على أمةِ محمد صلى الله عليه وآله، فإنه لو جاءَ راعي إبلِكَ أو غنمِكَ، وترك إبلهُ أو غنمَهُ لا راعي لها، وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة، فكيفَ بأمةِ محمد صلى الله عليه وآله فاستخلف فيهم. فأجابه: إن أستخلف عليهم، فقد استخلفَ أبو بكر، وإن أترُكهم فقد ترَكَهُم رسولُ الله صلى الله عليه وآله[3]!

أقول: كأنَّ الوجعَ قد غلب على أبي حفص، فأنساهُ أنَّ رسول الله لا يمكن أن يترك أمة محمد صلى الله عليه وآله بلا راعٍ، وأنساهُ يوم غدير خم، وقوله لعلي عليه السلام يومها: بخٍ بخٍ لك يا ابنَ أبي طالب أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة! وإن كان قد نسي يوم غدير خم، فلا ندري لمَ لم يستعرض اسم أحد من صفوة الصَّحابة من المهاجرين كعمَّار بن ياسر وأبي ذر، أو الأنصار كأبي أيوب الأنصاري وحُذيفة بن اليمان[4] والبراء بن عازب وعبادة بن الصَّامت!

---

(1) وهذه العبارة تكشف أنَّ أسباب منع عمر دخول الفرس إلى المدينة هي «أمنية» بالدرجة الأولى، خشية من التداعيات النفسية لفتح فارس.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص116 - 117.

(3) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص321.

(4) حذيفة بن حسل بن.... بن غطفان اليمان، لقب حسل باليمان قيل لأنه أصاب دماً في قومه، فهرب إلى المدينة وحالف عبد الأشهل من الأنصار، فسماه قومه اليمان لأنه حليف الأنصار وهم من اليمن، لم يشهد بدراً لأن المشركين أخذوا عليه الميثاق لا يقاتلهم فسأل الرسول صلى الله عليه وآله فأمره بالوفاء بميثاقه، قتل أبوه في أحد خطأً، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله في المنافقين، شهد الحرب بنهاوند، وكان فتح همدان والري والدينور على يده، استعمله عمر على المدائن، لما نزل به الموت جزع جزعاً شديداً وبكى بكاء كثيراً، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي أسفاً على الدنيا، بل الموت أحب إلي، ولكني لا أدري على ما أقدم على رضا أم على سخط؟ مات بعد قتل عثمان بأربعين ليلة. يقول المسعودي بأنه لما بلغ حذيفة قتل عثمان وبيعة الناس لعلي عليه السلام قال: أخرجوني وادعوا الصلاة جامعة، فوضع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي وآله، ثم قال: أيها الناس إن الناس قد بايعوا علياً، فعليكم بتقوى الله وانصروا علياً ووازروه، فوالله إنه لعلى الحق آخراً وأولاً، وإنه لخير ما مضى بعد نبيكم ومن بقي إلى يوم القيامة، ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد أني قد بايعتُ علياً! =

تنقل المصادر عن عمر أنَّهُ كان يرغب في الإيصاء لأبي عبيدة بن الجراح[1]. ففي مسند أحمد بن حنبل عن عمر أنه قال: إن أدركني أجلي وأبو عبيدة بن الجراح حي استخلفتُهُ، فإن سألني ربي: لم استخلفته؟ قلت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن لكل نبي أميناً وإنَّ أميني أبو عبيدة بن الجراح. فإن أدركني أجلي - وقد توفي أبو عبيدة - استخلفتُ معاذ بن جبل[2]، (وفي بعض الأخبار لسالم مولى أبي حذيفة)[3] فإن سألني ربي: لم استخلفته؟ قلت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن يحشر يوم القيامة بين يدي العلماء نبذة[4]، وقد ماتا في خلافتِهِ.

وعندما اقترح عليه أحدهم أن يستخلف ابنَهُ عبدالله، رفض رفضاً شديداً، مبرِّراً ذلك بعدم كفاءته لهذا المنصب. كتب الطبري: فقال له رجل: هل أدلُّك عليه، عبدالله بن عمر، فقال: قاتلك الله، واللهِ ما أردتَ الله بهذا، ويحك كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته[5].

والحقيقة أنَّهُ، إن كان بالإمكان أخذ ترشيح عمر لأبي عبيدة على محمل الجدّ - وهو بالمناسبة أمر مرجَّح جداً، فهو كان ثالث ثلاثة عندما دخل مع أبي بكر وعمر على

= وقال: الحمدُ لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم، وقال لابنيه صفوان وسعد: احملاني وكونا معه، فستكون له حروب كثيرة، فيهلك فيها خلقٌ من الناس، فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام (أنظر: **مروج الذهب**، ج2، ص381).

(1) هو - على الأرجح - عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي، شهد بدراً وأحداً، ولما دخل عمر بن الخطاب الشام ورأى أبا عبيدة وما هو عليه من شدة العيش، قال له: كلنا غيرته الدنيا غيرك يا أبا عبيدة، توفي بسبب الطاعون سنة 18هج، راجع ترجمته في **أسد الغابة**، لابن الأثير، ج5، ص249.

(2) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي الأنصاري، شهد بيعة العقبة، وبدراً وأحداً، وآخى الرسول صلى الله عليه وآله بينه وبين عبد الله بن مسعود، توفي بالطاعون في الشام سنة 18هج، تراجع ترجمته في **أسد الغابة**، لابن الأثير، ج4، ص376.

(3) راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص292. سالم مولى أبي حذيفة هو سالم بن عبيد بن ربيعة، وقيل هو سالم بن معقل، وهو مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، كان من أهل فارس! وهو معدود من المهاجرين لسبب، ومعدود من الأنصار لسبب آخر، ومعدود من قريش لأنه مولى أبي حذيفة، ومعدود من العجم لأنه منهم، وقيل بأنه رضع كبيراً لذا أجازت عائشة رضاع الكبير... أنظر ترجمته في **أسد الغابة**، لابن الأثير، ج2، ص245.

(4) **مسند أحمد بن حنبل**، مسند العشرة المبشرين بالجنة، أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(5) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص292.

الأنصار في السَّقيفة[1] - فمن الصعب أخذ ترشيح سالم مولى أبي حذيفة على محمل الجد، لأنَّ سالماً لم يكن من العرب أصلاً، والعقلية القبلية لا تسمح بخطوة من هذا القبيل أبداً. كما يصعب أخذ ترشيح معاذ بن جبل الخزرجي على محمل الجدّ أيضاً، لأنّهُ يعلم أنَّ الأوس وقريش، لن تقبل ترشيحاً من هذا القبيل، كيف وقد حدث ما حدث مع سيِّدِ الخزرج سعد بن عبادة في السَّقيفة؟! واحتجَّ عمر نفسُهُ في السَّقيفة بأنَّ قريشاً والعرب لن يقبلوا خليفة من غير وجهاء المهاجرين.

كتب الطبري: ثم احتُمِلَ (عمر) فأُدخِلَ دارَهُ، فدعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: إني أريدُ أن أعهد إليك.

فقال (عبد الرحمن): يا أمير المؤمنين نعم إن أشرت عليَّ قبلتُ منك.

قال (عمر): وما تريد؟

قال (عبد الرحمن): أنشدك الله أتشيرُ عليَّ بذلك؟

قال (عمر): اللهم لا.

قال (عبد الرحمن): واللهِ لا أدخلُ فيه أبداً.

قال (عمر): فهب لي صمتاً حتى أعهد إلى النَّفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض، ادعُ لي عليّاً وعثمان والزُّبير وسعداً، وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً، فإن جاء وإلا فاقضوا أمرَكُم.... يا عبد الله بن عمر، إن اختلفَ القوم، فكُن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتَّبِع الحزب الذي فيه عبد الرحمن[2]. ويحضُر عبد الله بن عمر مشيراً، ولا شيءَ له من الأمر[3].

وأمرَ عمرُ بن الخطاب أبا طلحة الأنصاري أن يحبس هؤلاء السِّتة حتى يُولُّوا أحدَهُم، فإن اتَّفق خمسة وأبى واحد فاضرُب عنقَهُ! وإن اتَّفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقَهُما! وإن اتَّفق ثلاثة وخالفَ ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقتُ عليه، فإن أصرَّت الثلاثة الأخرى على خِلافها فاضرب أعناقَهُما! وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتَّفقوا على أمرٍ، فاضرب أعناق السِّتة ودَع المسلمين يختاروا لأنفُسِهم[4]!

(1) وعرض أبو بكر على الأنصار أن يختاروا إما عمر بن الخطاب وإما أبا عبيدة بن الجراح، إلا أنَّ عمر أصرَّ على تقديم أبي بكر.
(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص264 - 265.
(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص293.
(4) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص118.

الآن، أقوى المرشحين السِّتة هما الإمام علي عليه السلام وعثمان[1]، وعليّ عليه السلام من بني هاشم، وعثمان من بني أمية. ويبدو لي أنَّ عمر كان يحدس أنَّ قدرة وجهاء المهاجرين على مسك زمام الأمور مهدَّدة، واحتمال رجوع الأمر إلى بني هاشم أو بني أمية بات وارداً جداً، فهو من ناحية لا يريد أن ينتهي الأمر إلى بني هاشم، كما لا يريد أن ينتهي الأمر إلى بني أمية، لذا كان يرغب في الإيصاء لأبي عبيدة أو سالم (أو معاذ) . . .لكن ما الحيلة؟ هو الآن بين خَيارين.

يبدو أنَّ عمر مالَ لبني أمية، وممثلهم عثمان بن عفان، لسابقتهِ في الإسلام من جهة، ومقبوليته من قريش وبني أمية خاصَّة من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة كان يأمل أن يكون أمر عثمان تحتَ السَّيطرة مع وجود عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص بين يديه[2].

وحين اجتمع عمرُ بأعضاءِ الشُّورى، وجَّه إليهم انتقادات لاذعة[3]، يهمُّنا ما يتعلَّق بعثمان بالتَّحديد. ينقل ابن أبي الحديد في شرحِهِ على نهج البلاغة، أنَّ عمر قال لعثمان: «هيهاً إليك، كأنِّي بك قد قلَّدَتكَ قريشُ هذا الأمرَ لحُبِّها إياكَ، فحملتَ بني أمية وبني أبي مُعيط على رقابِ الناس، وآثرتَهُم بالفيء، فسارت إليكَ عِصابةٌ من ذُؤبانِ العرب، فذبحوكَ على فِراشِكَ ذبحاً، واللهِ لئن فعلوا (أي ولَّوك) لتفعَلَن (أي تحمل بني أمية وبني أبي مُعيط على رقاب الناس)، ولئن فعلتَ ليفعلُن (أي يقتلوك على فراشك)»، ثم أخذَ بناصيتهِ فقال: فإذا كانَ ذِلَك فاذكُر قولي فإنهُ كائنٌ. وقال لهم: «إنكم إن تعاونتُم وتوازرتُم وتناصحتُم أكلتُموها وأولادكم، وإن تحاسدتُم وتقاعدتُم وتدابرتُم وتباغضتُم، غلبَكم على هذا الأمر معاويةُ بن أبي سفيان»[4]!

---

(1) حتى أنَّ عمر قال عند موته: ما أظنُّ أن يلي إلا أحد هذين الرَّجلين علي أو عثمان. أنظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص293.

(2) من الشواهد على أن عمر كان يرجح عثمان ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن الأقرع مؤذن عمر، أن عمر مرَّ على الأسقف، فقال: هل تجدونا في شيء من كتبكم؟ قال: ونجد صفتكم وأعمالكم ولا نجد أسماءكم، قال: كيف تجدوني؟ قالوا: قرنٌ من حديد، قال عمر: قرنٌ من حديد، وماذا؟ قال: أمين شديد، قال عمر: الله أكبر والحمد لله. قال: والذي بعدي؟ قال: رجل صالح **يؤثر قرباه**، فقال عمر: **يرحم الله ابن عفان**. . . . (أنظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، ج3، ص80).

(3) فمثلاً أخذ عمر على طلحة أنه نزلت فيه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

(4) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص118. يبدو لي أن هذا الخبر مختلق، والمستفيد من اختلاق أخبار من هذا القبيل، قريش، وبالتحديد حزب عبد الله بن الزبير، الذي كان يسعى دائماً=

إذن عمر كان يريد أن تبقى الخلافة بيد وجهاء المهاجرين، وإن وصلت الخلافة إلى عثمان، فهو من وجهاء المهاجرين، لكنَّهُ أيضاً من بطن قريش القوي (بني أمية)... لذا نبَّههم بأنَّهم إن تعاونوا وتآزروا بقيت الخلافة فيهم، وإن تحاسدوا وتباغضوا فالأرجح أن تخرُج الخلافة من يدِهم، وتصل إلى معاوية بن أبي سفيان، مرشَّح بني أمية القوي، الذي ازداد قوةً بعدما رسَّخ وجودَهُ في الشَّام.

وكتب ابن أبي الحديد أيضاً أنَّ عمر بعد أن وجَّه انتقادات لاذعة لأعضاء الشُّورى، وصل الدَّور إلى الإمام علي عليه السلام، فقال له: وأما أنتَ يا علي، فوالله لو وزنَ إيمانُك بإيمان أهل الأرض لرجَحَهم، فقام الإمام علي عليه السلام مولِّياً يخرُج، فقال عمر: والله إني لأعلمُ مكان رجلٍ لو ولَّيتموهُ أمرَكُم لحمَلكُم على المحجّةِ البيضاء، قالوا: من هو؟ قال: هذا المولِّي من بينِكم، قالوا: فما يمنَعُك من ذلك، قال: ليسَ إلى ذلك سبيل!

وفي خبر آخر، رواه البلاذري، أنَّ عمر لما خرجَ أهلُ الشُّورى من عندِهِ، قال: إن ولَّوها الأجلح[1] سلكَ بهم الطريق، فقال عبد الله بن عمر: فما يمنَعُكَ منهُ يا أمير المؤمنين؟ قال: أكرهُ أن أتحمَّلها حيّاً وميّتاً[2]!

مآل الأمور صار واضحاً للإمام علي عليه السلام

اجتمع أهلُ الشُّورى، وبدأوا بإجراء مباحثات لاختيار الخليفة المقبل. في هذا الشَّأن، يروي ابن عساكر في تاريخ دمشق روايات بطرق متعدِّدة عن مناشدةِ الإمام علي عليه السلام لأصحاب الشُّورى، يسألهم: أنشِدُكُم باللهِ هل فيكم أحدٌ صلى لله قبلي وصلى القبلتين؟ هل فيكم أحدٌ أخو رسول الله صلى الله عليه وآله غيري؟ أفيكم أحدٌ قدَّم بين يدي نجواهُ صدقة غيري؟ أفيكم أحدٌ كان آخر عهده برسول الله صلى الله عليه وآله حتى وضعَهُ في حفرتِهِ غيري؟.... إلى غيرِها من التَّساؤلات، والقوم يجيبونه: اللهم لا[3].

= لإبقاء الخلافة تدور بين بطون قريش الضعيفة، ويسعى دائماً لرفع مقام الخليفة الأول والثاني، والإيحاء بأن الثاني كان ملهماً، في مقابل التحفُّظ على الثالث، لأنه فضل أقرباءه، ففسح في المجال بذلك ووطأ الطريق لمجيء معاوية.

(1) الأجلح هو الذي انحسرَ شعرهُ من جانبي رأسه . وعادة ما تكون مقدمة الصَّلع بالنسبة إلى بعضهم، وربما كان علي عليه السلام في ذلك الوقت أجلح، لم يكتمل صلعه بعد.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص163.

(3) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج3، ص87 - 95.

لكن، الصُّورة صارت واضحة بالنِّسبة إلى الإمام علي عليه السلام، فقد عرفَ أنَّ القوم تظاهروا عليه مرَّة جديدة، وهذا ما نلمَسهُ بوضوح في حوارهِ مع عمِّهِ العباس.

فقد أُخرج الطبري أنَّ علياً عليه السلام ما أن خرجَ من عندِ عمر، حتى تلقاهُ عمُّهُ العباس فبادرَهُ عليه السلام قائلاً: يا عمّ لقد عُدِلَت عنا.

فقال العباس: من أعلمَكَ بذلك؟

فقال عليه السلام: قُرن بي عثمان، وقال عُمَر كونوا مع الأكثر، فإن رضِيَ رَجُلاً رَجُلاً (كما لو تنازل رجلٌ لآخر، فيظل ثلاثة)، ورَجُلان رَجُلاً (كما لو تنازل رجلان لآخر، فيظل اثنين)، فكونوا مع الذينَ فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد (= ابن أبي وقاص) لا يُخالِفُ ابنَ عمِّهِ عبد الرحمن (لأنهما ابنا عمومة، فكلاهما من بني زهرة، مضافاً إلى أنَّ أم سعد بن أبي وقاص هي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية، وهذا عامل إضافي لميل سعد إلى عثمان، خصوصاً إذا تذكرنا أنَّ علياً عليه السلام قتل الصَّناديد من أخواله)، وعبد الرحمن صِهر عثمان (لأنَّ زوجة عبد الرحمن هي أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط، وهي أخت عثمان من أمِّه) لا يختلفون، فيُولِّيها عبد الرحمن عثمان، أو يُولِّيها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخرانِ (= طلحة والزبير) معي لم ينفعاني[1] (بل من المستبعد أن يكون طلحة معه طالما أنه تيمي، وعلي عليه السلام معارض لخلافة أبي بكر التيمي، مضافاً إلى أنه قتل عمّه عمير وأخويه عثمان ومالك، لكن حتى لو وقف طلحة مع الإمام علي عليه السلام ما نفعه ذلك، لأنَّ عمر جعل الترجيح بيدِ عبد الرحمن أساساً).

الأمر اللافت حقاً، أنَّه أثناء حدوث المباحثات بين أهل الشُّورى، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصَبَهُما سعد وأقامَهُما، وقال: تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشُّورى[2]؟!

وإن صحَّت الفرضية الثالثة في مقتل عمر، التي تتحدَّث عن وجود مؤامرة، فلن يكون تفسير سعد بن أبي وقاص لجلوس عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة صحيحاً، بل سيفسَّر هذا الجلوس على أنَّه ترقُّب ومتابعة دقيقة لعواقب المؤامرة التي حاكتها هذه الشَّبكة، وأنَّ الأحداث هل تسير وفق الخطة المرسومة أم أنَّ المؤامرة جاءت بعواقب غير مطلوبة؟

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص294، أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص121.

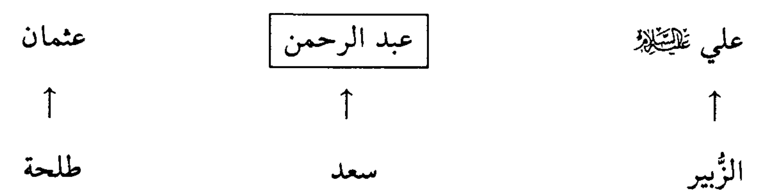
(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص295.

ما الذي حدَث بالضبط؟

كان طلحة يعلم أنه مع وجود الإمام علي عليه السلام وعثمان، لا فرصة له للوصول إلى السُّلطة، ولن يصل إليه الدَّور. وسعد كان يعلم أنه مع وجود منافسين أقوياء مثل الإمام علي عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن، لن يصل إليه الدَّور. والزُّبير يعلم بأنه مع وجود الإمام علي عليه السلام، لن يصل إليه الدَّور. لذا نجد أنَّ طلحة يتنازل لصالح عثمان، وسعد يتنازل لصالح عبد الرحمن. ولما رأى الزُّبير ذلك تنازل بدوره لصالح الإمام علي عليه السلام.

كتب الطبري: لقى عليٌّ عليه السلام سعداً، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، أسألُكَ برَحِم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وبرَحِم عمِّي حمزة منك[2]، أن لا تكونَ مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليَّ، فإنِّي أُدلي بما لا يُدلي بِهِ عثمان[3].

ماذا جرى بعد ذلك؟ قام عبد الرحمن (الذي تنازل له سعد) بإخراج نفسه من حلبة المنافسة على أن يكون رأيه هو المُرجِّح[4] بين الإمام علي عليه السلام وعثمان، فصارت النتيجة واضحة سلفاً.



باختصار: تنازل طلحة لعثمان، لا حباً له، بل بغضاً لعلي عليه السلام. وعندما رأى الزُّبير ذلك تنازل بدوره لعلي عليه السلام، ربما لحميّة النَّسب. كما تنازل سعد لعبد الرحمن، لأنَّهُما من بني زهرة. فانسحَبَ عبد الرحمن على أن يكون بيدِهِ زمام التَّرجيح بين الإمام علي عليه السلام وعثمان.

يقول ابن أبي الحديد: أوَّل ما عملَ طلحة أنه أشهَدَهُم على نفسِهِ أنه وهَبَ حقَّهُ من

---

(1) سورة النساء، الآية: 1.

(2) رحِم حمزة من سعد، هي أنَّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة، وهالة هذه هي عمَّة سعد، فحمزة إذاً ابن عمّة سعد، وسعد ابن خال حمزة. أنظر: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة، مج1، ج1، ص122.**

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص296، أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص122.

(4) حيث قال: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها. راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص295.

الشُّورى لعثمان، (لماذا؟) وذلك لعلمهِ أنَّ الناس لا يعدِلون بِهِ علياً وعثمان، وأنَّ الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام، بهبةِ أمرٍ لا انتفاعَ لهُ بِهِ، ولا تمكُّنَ لهُ مِنهُ. فقال الزُّبير في معارضته: وأنا أُشهِدُكُم على نفسي أني قد وهبتُ حقِّي من الشُّورى لعليّ، وإنما فعلَ ذلك لأنهُ لما رأى علياً قد ضَعُفَ وانخذَلَ بهبةِ طلحة حقَّهُ لعثمان، دخلَتهُ حميَّةُ النَّسب، لأنه ابن عمَّة أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفيّة بنت عبد المطلب، وأبو طالب خالهُ (وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد، يعني فاطمة عليها السلام ابنة عمَّته)، وإنما مالَ طلحة إلى عثمان لانحرافهِ عن علي عليه السلام، باعتبار أنه تيمي، وابنُ عم أبي بكر الصِّديق، وقد كان حصلَ في نفوسِ بني هاشم من بني تيم حَنَقٌ شديدٌ لأجلِ الخلافة، وكذلك صارَ في صدورِ تيم على بني هاشم، وهذا أمرٌ مركوزٌ في طبيعةِ البشر، وخصوصاً طينة العرب وطباعها، والتجربة إلى الآن تُحقِّق ذلك، فبقيَ من السِّتة أربعة.

فقال سعد بن أبي وقاص: وأنا وهبتُ حقِّي منَ الشُّورى لابنِ عمي عبد الرحمن - وذلك لأنَّهما من بني زُهرة - ولعلم سعد أنَّ الأمرَ لا يتُم لهُ، فلما لم يبقَ إلا الثلاثة. قال عبد الرحمن لعليّ وعثمان: أيُكما يُخرِجُ نفسَهُ من الخلافة، ويكونُ لهُ الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلم منهما أحد، فقال عبد الرحمن: أُشهِدُكُم أنني قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أن أختارَ أحدَكُما، فأمسكا.

فبدأ (عبد الرحمن) بعليّ عليه السلام وقال له: أُبايِعُكَ على كتابِ الله وسُنةِ رسولِ الله وسيرةِ الشَّيخين أبي بكرٍ وعُمر.

فقال عليه السلام: بل على كتابِ الله وسُنةِ رسولهِ واجتهادِ رأيي.

فعدلَ (عبد الرحمن) عنهُ إلى عثمان، فعرضَ ذلِكَ عليهِ.

فقال (عثمان): نعم.

فعادَ (عبد الرحمن) إلى علي عليه السلام، فأعادَ قولَهُ.

فعلَ ذلكَ عبد الرحمن ثلاثاً، فلما رأى أنَّ عليَّاً غير راجعٍ عما قالَهُ، وأنَّ عثمان يُنعِم لهُ بالإجابة، صفقَ على يدِ عثمان، وقال: السَّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين.

فيقال أنَّ علياً عليه السلام: قال له: واللهِ ما فعلتَها إلا لأنك رجوتَ منهُ ما رجا صاحِبُكما من صاحبهِ (يعني عمر من أبي بكر)، دقَّ اللهُ بينَكُما عِطرَ مَنشِم[1]. قيل: ففسَدَ بعدَ ذلِكَ

---

(1) «منشم» اسم امرأة بمكة كانت عطارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، فإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى بينهم، فكان يقال: «أشأم من عطر منشم»، جاء ذلك في صحاح الجوهري 5/ 2041.

بينَ عثمان وعبد الرحمن، فلم يُكلِّم أحدُهُما صاحبَهُ حتى ماتَ عبد الرحمن[1]، بل قيل أنَّ عبد الرحمن أوصى أن لا يُصلِّي عليهِ عثمان بعدَ موتهِ.

وكتب الطبري: فقال علي عليه السلام: حبَوتَهُ حبوَ دهرٍ، ليسَ هذ أوَّل يوم تظاهرتُم فيهِ علينا، فصبرٌ جميل واللهُ المستعانُ على ما تصفون، واللهِ ما ولَّيتَ عثمان إلا ليردّ الأمرَ إليك، واللهُ كلّ يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمن: يا عليّ، لا تجعل على نفسِكَ سبيلاً، فإني قد نظرتُ وشاورتُ الناسَ، فإذا هم لا يعدِلونَ بعثمان!

فخرجَ عليٌّ عليه السلام وهو يقول: سيبلغُ الكتابُ أجلَه.

فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركتَهُ، وإنه من الذين يقضُون بالحقِّ وبه يعدِلون... ما رأيتُ مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعدَ نبيِّهم! إني لأعجبُ من قريش أنَّهم تركوا رجُلاً ما أقول أنَّ أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل، أما والله لو أجدُ عليهِ أعواناً؟!

فقال عبد الرحمن: يا مقداد، اتق الله، فإني خائفٌ عليك الفتنة[2].

وفي أنساب الأشراف أنَّ علياً عليه السلام - بعد أن صفقَ عبد الرحمن على يدِ عثمان - كان قائماً فقعد، فقالَ لهُ عبد الرحمن: بايع وإلا ضربتُ عنُقَك، ولم يكُن مع أحدٍ يومئذٍ سيفٌ، فيُقال أنَّ علياً خرجَ مغضباً فلحِقَهُ أصحابُ الشُّورى، فقالوا: بايع وإلا جاهدناك، فأقبلَ معهم يمشي حتى بايعَ عثمان[3]!

ومن كلّ هذا يظهر أنَّ عمر كان قد جعل أمر الترجيح بيدِ عبد الرحمن، وهم يعلمون أنَّ علياً عليه السلام يأبى أن يجعل العمَل بسيرةِ الشَّيخين في عِداد العمَل بكتاب الله وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وآله، وأنَّ عثمان يوافق على ذلك، فيبايع عثمان بالخلافة، ويخالفُهُم الإمام علي عليه السلام فيُعرَض على السَّيف!

والشاهدُ على ذلك ما رواهُ ابن سعد في طبقاته، في ترجمتهِ لسعيد بن العاص (والذي سيقول في عهد عثمان: إنما السَّوادُ قطينٌ لقريش!!)، ما خلاصتُهُ، أنَّ سعيد بن

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ، ج1، ص118 - 119. ولمعرفة تفاصيل الخلاف بين عبد الرحمن وعثمان أنظر المصدر السابق، ص123 - 124. أيضاً: ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص305.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص297 - 298، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص122 - 123.

(3) أنظر أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج12، ص166 - 167.

العاص أتى عمر يستزيدُهُ في الأرضِ ليوسِّع دارَهُ، يقول سعيد: فزادني وخطَّ لي برجليهِ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين زدني فإنه نبتَت لي نابتة من ولدٍ وأهل، فقال (عمر): حسبُك واختبئ عندك، إنه سيلي الأمرَ من بعدي من يصِل رحِمَكَ ويقضي حاجتكَ. قال (سعيد): فمكثتُ خلافةَ عُمر حتى استُخلِفَ عُثمان وأخذَها عن شورى ورضى، فوصَلَني وأحسنَ وقضى حاجتي وأشركَني في أمانتهِ!

تذكَّر أنَّ سعيداً هذا هو الذي قال له عمر - كما أشرنا -: مالي أراكَ مُعرضاً كأنك ترى أني قتلتُ أباكَ؟ ما أنا قتلتُهُ ولكنه قتلهُ علي بن أبي طالب (في بدر)، فاعترض الإمام علي عليه السلام على ذلك واعتبرَهُ تحريضاً عليه.

لكن لماذا أصرَّ الإمام علي عليه السلام على رفض عَرض عبد الرحمن بأن يسير بسيرةِ الخليفة الأول والثاني؟

قبل أن أجيب عن هذا السُّؤال لديَّ تعليق على الشَّرط نفسه. الشَّرط الذي ابتدَعَهُ عبد الرحمن لا أساس شرعياً له على الإطلاق، لأنَّ مصادر التَّشريع المعتمدة هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله. والخليفة الأول والثاني إن كانا قد سارا على كتابِ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، فالمُهِم أن يسير الخليفة الثالث على منوالِهما. وإن كانا قد خالفا كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وآله، والخليفة الثالث مطالبٌ بأن يسير على منوالِهما المخالف لكتابِ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، فهذا تأسيس لمصدر تشريعي جديد، ولبدعةٍ بالغة الخطورة. إذن لا موضوعية لسيرةِ الشَّيخين على الإطلاق، وهي ليست مصدراً من مصادر التَّشريع. مضافاً إلى ذلك، أنَّ الشَّيخين لم يسيرا على سيرة واحدة. . .فهما قد اختلفا في ملفاتٍ كثيرة؛ منها طريقة توزيع العطاء، وطريقة التعاطي مع خالد بن الوليد، وسماح الأول بمتعة النِّساء والحج بخلاف الثاني. . . . إلخ.

الآن إذا عُدنا للإجابة عن السُّؤال، ومعرفة سبب إصرار الإمام علي عليه السلام على رفض عرض عبد الرحمن. نقول: إنَّ الإمام علي عليه السلام رفضَ العَرض لاعتباراتٍ عدّة. فهو أولاً يريد أن يقول إنَّهُ امتدادٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وآله، وليس امتداداً للأول والثاني. وثانياً حتى يُعطينا درساً بأنَّ الإصرار على المبدأ أهم بكثير من القيام ببعض التكتيكات السِّياسية، فالغاية لا تبرِّر الوسيلة كما ذهب ميكافيلي. وثالثاً حتى لا يُعطي شيكاً على بياض ويمضي على كل ما قام بهِ الأول والثاني من أفعال وسلوك وأقوال. ورابعاً - وربَّما هو الأهم - أنَّ عبد الرحمن بعرضهِ هذا كان يريد أن يقول لعليٍّ عليه السلام: هل تقبل أن تكون واجهة لقريش وراعِياً لمصالِحِها كما كان الأول والثاني؟ وبطبيعةِ الحال، الإمام علي عليه السلام يرفض تماماً هذا.

الجدير بالذكر أنَّ المغيرة بن شعبة جاءَ إلى عبد الرحمن وقال له: يا أبا محمد، قد أصبتَ إذ بايعتَ عثمان. وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمن غيرَكَ ما رضينا. فقال عبد الرحمن: كذَبت يا أعور، لو بايعتُ غيرَهُ لبايعتَهُ[1].

ويبدو لي أنَّ المغيرة كان صادقاً في كلامِهِ، لأنَّ عبد الرحمن لو بايع غير عثمان، لكان على الأرجح علياً عليه السلام، والمغيرة لا يرضى بعلي عليه السلام، والسبب في ذلك إن لم يكن متعلِّقاً بدورِهِ المحتمل في مؤامرة اغتيال عمر، التي استهدفت وصول بني أمية إلى السُّلطة، فعلى الأقل، لموقف الإمام علي عليه السلام من قضية اتهام الشهود المغيرةَ بالزِّنى، التي انتهت إلى حدِّ الشهود حدَّ القذف[2]!

هنا أيضاً إضافة مفيدة وذات دلالة، كتب الطبري وابن أبي الحديد، واللفظ للثاني: لمَّا أتى اليوم الثالث (لاجتماعاتِ الشُّورى) جمعَهُم عبد الرحمن، واجتمع الناسُ كافة.

فقال عبد الرحمن: أيُّها الناس، أشيروا عليَّ في هذين الرَّجُلين (يعني الإمام علي وعثمان).

فقال عمَّار بن ياسر: إن أردتَ ألا يختلِفَ الناسُ، فبايع علياً عليه السلام.

فقال المقداد: صدقَ عمار وإن بايعتَ علياً سمِعنا وأطَعنا.

فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح (أخو عثمان من الرَّضاعة)[3] لعبد الرحمن: إن أردتَ ألا تختلف قريش، فبايعْ عثمانَ.

وقال عبدُ الله بن أبي ربيعة المخزومي (من بني مخزوم، يعني من قريش)[4]: صدَقَ إن بايعتَ عثمان سمِعنا وأطَعنا.

فشتمَ عمَّارُ ابن أبي سرح وقالَ لهُ: متى كُنتَ تنصَحُ الإسلامَ؟!

فتكلَّم بنو هاشم وبنو أمية، وقامَ عمَّار فقال: إنَّ اللهَ أكرمَكُم بنبيِّهِ وأعزَّكُم بدينهِ، فإلى متى تصرِفونَ هذا الأمرَ عن أهلِ بيتِ نبيِّكُم؟!

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص298.

(2) سنشير إلى هذه القضية لاحقاً في المحاضرة (27).

(3) أخو عثمان من الرضاعة، كان من أخطر المشركين، أسلم وصار كاتباً للوحي ثم ارتدَّ، وهرب من المدينة إلى مكة، أهدر رسول الله دمه عند فتح مكة، وطالب بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، ثم تركه بعد شفاعة وإلحاح عثمان.

(4) وهو الذي أرسلته قريش مع عمرو بن العاص إلى الحبشة لاسترجاع المهاجرين المسلمين الذين فروا من اضطهاد قريش إلى النجاشي.

فقالَ رجلٌ من بني مخزوم: لقد عدوتَ طورَكَ يا بنَ سمية، وما أنتَ وتأمير قريش لأنفُسِها!!!

فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يفتتن الناس[1].

هذا الحوار لا يحتاج إلى تعليق، لأنَّه يتَّضح منه جلياً موقف قريش من الإمام علي عليه السلام وعثمان، وكيف أنَّ قريشاً كانت ترى أنَّ الخلافة حقٌّ خالصٌ لها، وليس من حق أمثال عمَّار بن ياسر (وهو المولى القحطاني) أن يُدلي برأيه!

هذا الأمر أكَّده ولخَّصهُ الإمام علي عليه السلام نفسه، حيث قال: «إني لأعلمُ ما في أنفسِهم، إنَّ الناسَ ينظُرونَ إلى قريش، وقريشُ تنظرُ في صلاحِ شأنِها، فتقولُ: إن وليَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرُج منهُم أبداً، وما كانَ في غيرِهم فهو متداولٌ في بطونِ قريش»![2]

يعني سيكون أمرُ الخلافة مرِناً، وسيكون هناك تداول للسُّلطة بين بطون قريش ما دام الأمر خارج نطاق بني هاشم!! التابو[3] - والمحرَّم سياسياً واجتماعياً - هو أن تصل الخلافة إلى بني هاشم!!

هذا هو الجوّ العام، يسعى لإبقاء الخلافة في بطون قريش. أما جوّ الشَّبكة المفترضة، التي قد تكون وراء مؤامرة اغتيال عمر، فهي تسعى لجرِّ السُّلطة لمصلحة بني أمية خاصَّة، بطن قريش القوي. . . . وقد تحقَّق مرادها عندما وصلت السُّلطة إلى عثمان.

تساؤلات مشروعة

يبدو لنا أنَّ نظام الشورى السُّداسي الذي فرضَهُ عُمَر بن الخطاب على واقع الأمة كان بعيداً عن نظام الشُّورى. وإلا:

لماذا لم تشترك الأمة في الانتخاب؟

ولماذا ضمَّت الشُّورى السُّداسية أغلبية من وجهاء المهاجرين القرشيين ممن لهم مواقف سلبية من الإمام علي عليه السلام؟

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص122، أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص297.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص123، أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص298.

(3) تابو Taboo هي كلمة غير عربية، أصلها من لغات سكان جزر المحيط الهادي، وتعني المُحرَّم وفق أعراف مجتمع ما أو في السياسة أو ما شابه.

ولماذا أُقصيَ الأنصارُ عن المشاركة في صنع القرار؟

ولماذا لم تضم الشورى السُّداسية أحداً من القحطانيين؟

وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن أعضاء الشُّورى فكيف تُضرب أعناقُهُم إن طالت مشاوراتهم أو اختلفوا؟ وهل ثمة مُسوِّغ شرعي لذلك؟ وهل التخُّلف عن الانتخاب مروقٌ عن الإسلام؟

ألا يوجد من الصَّحابة من مات رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنه راض ممن هو جدير بالمشاركة في الشُّورى؟

ولماذا يُجعل التَّرجيح بيدِ عبد الرحمن مع معرفة عمر ميله لصهرهِ عثمان؟

وهل يصح أن يُجعل أمر المسلمين ومصيرُهُم ومستقبلُهُم بيدِ شخصٍ واحد يُرجِّح من يشاء؟

مضافاً إلى أنَّ هذه الشُّورى أوجدت التنافس بين أعضائها وصار كلُّ واحدٍ منهم يرى نفسَهُ نِدّاً للآخر، ونفخت فيه روح الطُّموح للخلافة، فصار بعضهم يُحرِّض الناسَ على عثمان، وخرجَ بعضُهُم لحربِ الإمام علي عليه السلام في الجمل!

الإمام علي عليه السلام يشرح موقفه في خطبة الشَّقشقيَّة

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الشَّأن: «فصبرتُ على طولِ المدةِ (مدة خلافة عمر)، وشدةِ المحنةِ، حتى إذا مضى (عمر) لسبيلِهِ جعَلَها في جماعةٍ، زعمَ أني أحدُهُم، فيا للهِ وللشُّورى، متى اعترضَ الرَّيبُ فيَّ مع الأولِ منهم، حتى صِرتُ أُقرَنُ إلى هذهِ النَّظائر، لكني أسفَفتُ إذ أسفُّوا، وطرتُ إذ طاروا، فصغا رجلٌ منهم لضِغنهِ (= مال طلحة أو سعد لحِقدِهِ)، ومالَ الآخرُ لصِهرهِ (= مال عبد الرحمن إلى عثمان أخي زوجته لأمه: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط)، مع هنٍ وهنٍ (= مع تفاصيل مؤلمة يكفي أن نُكنِّي عنها)»[1].

أيضاً في خطبةٍ له يذكر فيها عليه السلام ما جرى له يوم الشُّورى بعد مقتل عمر: «وقد قال قائلٌ (= سعد بن أبي وقاص على رواية): إنَّكَ على هذا الأمرِ يا ابنَ أبي طالبٍ لحريص.

فقلتُ: بل أنتم واللهِ لأحرصُ وأبعدُ، وأنا أخصُّ وأقربُ، وإنما طلبتُ حقاً لي وأنتم تحولونَ بيني وبينَهُ، وتضرِبونَ وجهي دونَهُ.

فلما قرعتُهُ بالحجةِ في الملأ الحاضرين هبَّ كأنهُ بُهِتَ لا يدري ما يُجيبني بِهِ!

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة 3، ص49.

اللهم إني أستعديكَ على قريش ومن أعانَهُم، فإنهم قطعوا رحِمي، وصغَّروا عظيمَ منزِلَتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي»[1].

خلاصة القول أنَّ قوة وجهاء المهاجرين، بدت في أواخر خلافة عمر، في طريقِها للأفول. لذا عندما اغتيل عمر، في عمليةٍ مريبة قد تخفي وراءها مؤامرة محتملة، احتارَ عمر فيمن يخلفه. لكنه شكَّل شورى سُداسية صمَّمها بطريقة ضعُفَ فيها احتمال وصول الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة، فضلاً عن الأنصار الذين لم يُشركهم أصلاً في الشُّورى. تشكيل الشُّورى السُّداسية سيكون له تأثير خطير في نفوس أعضاء الشُّورى، لأنهم بدأوا يشعرون لأوَّل مرَّة أنَّهم منافسون حقيقيون لعليّ عليه السلام، الأمر الذي دفع بعد ذلك بعضهم إلى نكث بيعة الإمام علي عليه السلام ومحاربته في الجمل.

قلنا إنَّ وراء اغتيال عمر مؤامرة محتملة، والمتَّهمين فيها شبكة تعمل لمصلحة بني أمية. وإن لم تصح فرضية وجود شبكة وراء عملية الاغتيال، فدورُ بني أمية سيكون بالغ الوضوح في خلافةِ عثمان، وستشعر قريش - للمرَّة الأولى - بأنَّ ثمة انقلاباً حقيقياً قد قام به بنو أمية على قريش. وهذا بالتأكيد سيُمهِّد الطريق لمعاوية، ومن وراءه يزيد، ليرتكب من أجل إبقاء السُّلطة بيد بني أمية، فاجعة كربلاء.

في الفصل الآتي سنتحدَّث عن حكم عثمان، وسنرى أنَّ الخليفة الأول والثاني إن كانا هما واجهة قريش، فإنَّ الخليفة الثالث صار واجهة بني أمية على الخصوص. كما سندرس التحوُّلات الاقتصادية والاجتماعية والقِيَمية الخطيرة التي طرأت على المسلمين، بسبب استئثار بني أمية بالسُّلطة والمال، الأمر الذي أدَّى إلى ثورة انتهت بمقتل عثمان بطريقة مأسوية، ومبايعة الإمام علي عليه السلام أميراً للمؤمنين وخليفةً على المسلمين.

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة رقم 172، ص246.

الباب الثاني

الأسباب القريبة لشهادة الإمام الحسين عليه السلام



بدأنا هذه السلسلة بتقسيم خلفيات واقعة كربلاء، والأحداث والأسباب التي أدَّت إلى شهادة الإمام الحسين عليه السلام إلى أسباب بعيدة وأسباب قريبة. وقلنا إنَّا نقصُد بـ «الأسباب البعيدة» المرحلة التي تمتدّ من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى استلام عثمان الخلافة، يعني من (13 ق. هج - 35 هج)، وتُقدَّر بـ 48 سنة تقريباً. ونقصُد بـ «الأسباب القريبة» لشهادة الإمام الحسين عليه السلام، الأحداث التي تمتدّ من مرحلة خلافة عثمان حتى موت معاوية، يعني من (35 هج - 60 هج)، وتُقدَّر بـ 25 سنة تقريباً. وتبدأ كُتُب مقاتل الحسين عليه السلام عادةً من لحظة موت معاوية.

بدأت الفتوحات الكبرى مع عمر، وجاءت معها طفرة مالية، ألقت بظلالها الخطيرة على النَّسيج الاجتماعي، خصوصاً إذا لاحظنا التأثير التراكمي لتطبيق معيار عمر في التَّفضيل في العطاء، فقريش لم تعد تستأثر بالسُّلطة فقط، بل صارت تستأثر بالمال أيضاً.

في المقابل بدت قوة وجهاء المهاجرين في طريقِها للأفول، لذا عندما اغتيل عمر، احتار فيمن يخلفه. كان عمر يأمل لو كان أبو عبيدة حياً ليستخلِفَهُ، فأبو عبيدة بن الجراح من أبرز وجهاء المهاجرين، وهو من بني الحارث بن فهر، أي من بطون قريش الضَّعيفة، حالها كحال تيم وعدي، لكنه توفي في حياة عمر. وتحدَّث عمر عن أملِهِ باستخلاف سالم مولى أبي حذيفة، وفي بعض الرِّوايات معاذ بن جبل، لو كان أحدهما حياً. وقلنا بأنَّا لا يمكن أن نأخذ هذين الاسمين على محمل الجدّ، لأنَّ سالماً فارسي الأصل، ولأن العرب العدنانيين لا يقبلون قحطانياً فضلاً عن شخص غير عربي، وثانياً هو من الموالي، هو مولى لأبي حذيفة... إذن وفقاً للمعايير القبلية لا فرصة لسالم أصلاً في الوصول إلى الخلافة. كما أنَّ معاذ بن جبل، من الأنصار القحطانيين، بل هو من الخزرج الذين احتكَّ بهم عمر بقوة في السَّقيفة، وكسر شوكة زعيمهم سعد بن عبادة، وقريش لا يمكن أن تقبل مثل معاذ، إذن لا يمكن تصديق إمكانية استخلاف معاذ، وإن كان عمر - لهذه الدَّرجة متعاطفاً مع الأنصار - إذن لماذا لم يجعل لهم من الأمر شيئاً في الشُّورى السُّداسية التي شكَّلها فورَ إحساسه بدنو أجله؟

نعم، سارع عُمَر عقب طعنه إلى تشكيل شورى سُداسية يتمُّ اختيار الخليفة منها، ولو دقَّقنا في أسماء أعضاء الشُّورى، لوجدنا أنَّهُم كلهم من قريش العدنانية، وبالتحديد من

وجهاء المهاجرين، وأُدرِج من بني هاشم الإمام علي عليه السلام، حتى لا يكون تهميشُهُ سافراً، وأفقد الأنصار - وبشكل سافر - من أيِّ قدرة على التأثير في القرار، بدليل أنَّهُ لا يوجد من الأنصار حتى عضو واحد في تلك الشُّورى السُّداسية. والخلاصة أنَّ تركيبة الشُّورى تجعل الإنسان يكاد يجزم بأنَّ نتيجتَها ستكون لمصلحة عثمان أو عبد الرحمن. ويبدو أنَّ عمر كان قلقاً من أن تكون النَّتيجة لمصلحة بني أمية على المدى البعيد، لأنَّهم سيتسلَّلون، من خلال عثمان الأموي، إلى السُّلطة، لكن يبدو أنُّه أقنعَ نفسَهُ بأنَّهُ مع بقاء عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص حول عثمان، سيبقى الوضع تحتَ السَّيطرة. . . . . المُهِم أن لا يصل الإمام علي عليه السلام إلى السُّلطة، لأنَّها عندئذٍ لن تخرُج من بنيه.

نريد فيما يلي أن نتحدَّث عن حُكم عثمان، وكيفَ ساد شعور لدى وجهاء المهاجرين - بل لدى الأنصار وأهل العراق ومصر - بأنَّ القرار لم يعُد بيد بطون قريش الضَّعيفة، بل الحُكم والثروة معاً صارا بيدِ بني أمية بطن قريش القوي، إلى درجة أنَّ بعض أقرباء عُثمان من بني أمية، ممن لا سابقةَ له في الإسلام، بل لا صُحبةَ له مع رسول الله صلى الله عليه وآله، كمروان بن الحكم مثلاً، صارَ له تأثيرٌ في صُنع القرار، أكثر من كِبار الصَّحابة القرشيين كعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، فضلاً عن طلحة والزُّبير وعليّ عليه السلام.

ويمكن أن نلخِّص هذا التحوُّل الخطير بعبارة مختصرة: أبو بكر وعمر كانا واجهة قريش، لكن عثمان حدَّدَ نفسَهُ بدائرة ضيقة، فصار واجهةً لبني أمية فقط.

نريد أن ندرُس هذا التحوُّل الخطير، كما نريد أن ندرُس التحوُّلات الاقتصادية والاجتماعية والقِيَميَّة الخطيرة التي طرأت على المسلمين، بسبب استئثار بني أمية بالسُّلطة والمال، الأمر الذي أدى إلى ثورة انتهت بمقتل عثمان بطريقة مأساوية، ومبايعة الإمام علي عليه السلام خليفة على المسلمين.

ما أن استلم الإمام علي عليه السلام الخلافة، حتى اضطرَّ لخوض ثلاث حروب طاحنة في أقل من خمس سنوات، حرب الجمل مع الناكثين، وحرب صفين مع القاسطين، وحرب النَّهروان مع المارقين، ثم استشهد عليه السلام ليترك حملاً ثقيلاً للإمام الحسن عليه السلام، الذي اضطر هو الآخر لعقد صُلح مع معاوية. وندخل مع معاوية فصلاً جديداً وطويلاً من حياة المسلمين، امتد إلى عقدين، جرت خلاله ملاحقات وتصفيات لشيعة علي عليه السلام. انتهى العقد الأول بشهادة الإمام الحسن عليه السلام مسموماً، وانشغل معاوية في العقد الثاني بمحاولات متعددة لتهيئة الأجواء لتوريث السُّلطة لابنه يزيد، الذي سيرتكب أكبر فاجعة في التاريخ، فاجعة كربلاء.

(8)

عثمان: المعارضة وفتنة مقتله

من الآن فصاعداً سنشهد انقلاباً تدريجياً من بني أمية القرشية على قريش عموماً (ووجهاء المهاجرين خصوصاً). وهذا أمر بالغ الخطورة، لأنَّ عهد أبي بكر وعمر إن كان بمثابة انقلاب من وجهاء المهاجرين من بطون قريش الضَّعيفة على بني هاشم بطن قريش القوي، فإنَّ عهد عثمان بمثابةِ انقلاب من بني أمية بطن قريش القوي على قريش بأسرِها. والانقلاب الثاني أخطر من الأول بكثير، فالانقلاب الأول قام به المهاجرون القرشيون السَّابقون إلى الإسلام، والانقلاب الثاني قام به أولئك الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس واضطروا لدخول الإسلام بسبب تغيُّر موازين القوى.

تذكروا أنَّنا ندرُس خلفيات واقعة كربلاء، وكيف تسلَّل يزيد الأموي إلى السُّلطة، وقلنا بأنَّ قريش التي أسلمت بالأمس وجدَت ضالَّتها في البداية بوجهاءِ المهاجرين، كأبي بكر وعمر، والآن ها هي أمية، التي أسلم أبرز رموزها بعد فتح مكة، تجد ضالَّتها في عثمان.

وقفة مع حكم عثمان (23 – 35هج)[1]

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وخلال ربع قرن (25 سنة)، وهو مجموع حُكم أبي بكر وعمر وعثمان، نشأ جيلٌ جديد، صفاتُهُ غريبة جداً: فهو لا يعرف تفاصيل الكثير من الحوادث التي وقعت في صدرِ الإسلام، ولا يُميِّز بين الصَّحابة، حيث يتساوى في نظرهِ علي بن أبي طالب عليه السلام وعبد الرحمن بن عوف والزُّبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، فكُلُّهم من الصَّحابة، وكلُّهم - في نظر هذا الجيل - جديرون بالاحترام بالدرجة نفسها. غاية الأمر، أنَّ علياً عليه السلام يمتاز عنهم بأمر بالغ الأهمية، وهو أنَّهُ عندما حدثت الطفرة المالية، بدأ كثيرٌ من الصَّحابة بكنز الأموال، وبناء القصور، والتحوُّل نحو حياة الرَّفاهية

(1) ملاحظة: مدة حكم عثمان 12 سنة تقريباً. ملاحظة أخرى: وُلِدَ يزيد بن معاوية سنة 25 أو 26 هج، هذا يعني أنه وُلِدَ في عهد عثمان بن عفان، وكان عمرُهُ يوم واقعة كربلاء 34 - 35 سنة تقريباً.

والترَف، والتخلّي عن حالة الزُّهد والبساطة، في حين أنَّ علياً عليه السلام كان حريصاً على التصدُّق أولاً بأول بما يتوافر لديهِ من مال، لذا لم تتغيَّر حياتُهُ، وحافظ على زُهدِهِ وبساطة معيشتهِ. . . . هذا الأمر جعل علياً عليه السلام أقرب إلى قلبِ هذا الجيل من بقية الصَّحابة، بوصفهِ أنزه الصحابة مالياً ومعيشياً. طبعاً بالإضافة إلى كونِهِ أقرب من بقية الصَّحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو زوج ابنته فاطمة عليها السلام، وأبو سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام.

دعونا نتعرَّف بنحوٍ مختصر على حياة التَّرَف والبذخ التي تحوَّل لها كبار وجهاء الصَّحابة.

يقول المسعودي في مروج الذهب: بنى عثمان «دارَهُ في المدينةِ، وشيَّدَها بالحجرِ والكلس، وجعلَ أبوابَها من السَّاج والعَرعر واقتنى أموالاً وجِناناً وعيوناً بالمدينة. وذكر عبد الله بن عتبة أنَّ عثمانَ يوم قتل كانَ لهُ عند خازنهِ من المال خمسونَ ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمةُ ضياعهِ بوادي القُرى وحُنين وغيرِهما مائة ألف دينار، وخلَّفَ خيلاً كثيراً وإبلاً».

ويقول المسعودي أيضاً: «وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصَّحابة الضِّياع والدور: منهُم الزُّبير بن العوام، بنى دارَهُ بالبصرة. . . . . .وابتنى أيضاً دُوراً بمِصر والكوفة والإسكندرية. . .وبلغَ مالُ الزُّبير بعدَ وفاتهِ خمسين ألف دينار، وخلَّف الزُّبير ألفَ فَرَس، وألفَ عبدٍ وأمة».

ويقول: «وكذلِكَ طلحة بنُ عبيدِ الله التَيمي: ابتنى دارَهُ بالكوفة. . .وكان غلَّتَهُ من العراق كلّ يومٍ ألف دينار، وقيلَ أكثر من ذلك، وبناحيةِ الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيَّدَ دارَهُ بالمدينةِ وبناها بالآجُر والجِص والسَّاج».

ويقول: «وكذلِكَ عبدُ الرحمنِ بن عوف الزُّهَري: ابتنى دارَهُ ووسَّعَها، وكانَ على مربطهِ مائة فرس، ولهُ ألفُ بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغَ بعدَ وفاتهِ رُبُع ثُمنِ مالِهِ أربعة وثمانين ألفاً». (وابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة يقول: وخلَّفَ مالاً كثيراً قُطِّعَ بالفؤوس حتى مَجلَت - يعني تقرَّحَت - أيدي الرِّجال منهُ)[1].

ويضيف المسعودي: «وابتنى سعدُ بن أبي وقاص دارَهُ بالعقيق، فرفعَ سُمكَها، ووسَّعَ فضاءَها، وجعلَ أعلاها شُرُفات». ثم يقول: «وقد ذكرَ سعيدُ بنُ المسيَّب أنَّ زيدَ بنَ ثابت حينَ مات خلَّفَ من الذهبِ والفضة ما كانَ يُكسَّر بالفؤوس، غير ما خلَّف من الأموالِ

(1) ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص317.

والضِّياع بقيمةِ مائة ألف دينار»[1]. وزيد بن ثابت هذا وإن كان خزرَجياً من الأنصار، ولم يكُن من وجهاء المهاجرين، لكنهُ كان خازناً لبيتِ المال عند عثمان، وكان عُثمانياً (أنظر ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير).

نعود مرَّة أخرى، لوصف الجيل الجديد الذي نشأ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

قلنا إنَّ الإمام علياً عليه السلام كانَ في نظرِ هذا الجيل أنزَه من غيرِهِ، وأبسط في حياتِهِ، وأزهد في عيشهِ، وأقربَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيره، وهو في النِّهاية قرشي... هذا الأمر جعلَ الإمام علياً عليه السلام مُرجَّحاً في نظرِهم على بقيةِ الصَّحابة. وإذا قورن الإمام علي عليه السلام ببقيةِ أفراد قريش، لن يجد هذا الجيل شخصاً غير علي عليه السلام يجمع بين المواصفات المقبولة في المجتمع آنذاك، والمواصفات التي يريدونَها هم. ولم يكن هذا الجيل ينظُر إلى علي عليه السلام بوصفه إماماً معصوماً واجب الطاعة.

استفحلَ التفاوت الطبقي - نتيجة تطبيق معيار عمر في التَّفضيل في العطاء - في فترة حُكم عثمان بن عفان، إلى حدٍّ لا يُطاق، لمصلحة قريش عموماً، وبني أمية على وجه الخصوص. واستأثرت قريش بالحُكم والمال إلى حدٍّ سمحَ لسعيد بن العاص (وهو والي عثمان على الكوفة) أن يقول: إنما هذا السَّواد[2] (= العراق) قطينٌ[3] لقريش!! فقال له الأشتر - وهو مالك بن الحارث النَّخَعي - : «أتجعل ما أفاءَ اللهُ علينا بظلالِ سُيوفِنا ومراكزِ رماحِنا بُستاناً لكَ ولقومِك؟»[4]!

وعلينا أن نتذكَّر هذه الكلمة على الدوام: «إنما السَّواد قطينٌ لقريش»، لأنَّها ألهبت مشاعر جماهير العراق، ولخَّصَت الوضع الذي تردَّى إليه حالُ المسلمين، وكان لها أثر بالغ في تهييجهم - وغالبيتهم من قحطان ممن جُنِّدَ لفتح العراق - ضد قريش العدنانية، كما كان لها بالتأكيد أثر بالغ في الثَّورة ضد عثمان.

---

(1) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 331 - 332.

(2) كتب البلاذري: لما رأت العرب كثرة القرى والنخل والشجر، قالوا: ما رأينا سواداً أكثر، والسواد الشجر، فلذلك سمي السواد «سواداً». أنظر: البلاذري، **البلدان فتوحها وأحكامها**، ص346، وكتب: كان خراج السَّواد على عهد عمر بن الخطاب مائة ألف ألف درهم. أنظر: البلاذري، **البلدان فتوحها وأحكامها**، ص314.

(3) القطين: أتباع الرجل ومماليكه.

(4) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 335 - 336.

صوت المعترضين يرتفع

على أيِّ حال، يتحدَّث ابن قتيبة الدينوري عن وثيقةٍ كتبَها بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، رصدوا فيها التَّجاوزات، التي تورَّط فيها عثمان خلال حُكمِهِ، ولعلَّها أولُ وثيقةٍ اعتراضية مكتوبة في الإسلام. يقولُ ابن قتيبة:

«اجتمعَ ناسٌ من أصحابِ النبيِّ - عليهِ الصلاةُ والسلام - فكتبوا كتاباً، ذكروا فيه ما خالفَ فيهِ عثمان من سنةِ رسولِ الله وسُنةِ صاحبيهِ، وما كانَ من هبَتِهِ خُمس أفريقية لمروان[1] - وفيه حقُّ اللهِ ورسولهِ ومنهُم ذوو القربى واليتامى والمساكين - وما كانَ من تطاوُلِهِ في البنيان، حتى عدُّوا سبعَ دور، بناها بالمدينةِ، داراً لنائلة[2]، وداراً لعائشة[3]، وغيرِهما من أهلهِ وبناتهِ، وبُنيان مروان[4] القصور بذي خشَب (= موضع بالمدينة)، وعِمارة الأموال بها من الخُمس الواجب للهِ ولرسولهِ، وما كانَ من إفشائهِ العمل والولايات في أهلهِ وبني عمِّهِ من بني أمية[5]، أحداث وغلمة لا صُحبة لهم من الرَّسول

(1) ومروان هذا ابن طريد رسول الله ولعينُهُ، ولم يكتف عثمان بذلك بل أقطعه فدك التي حرمت منها فاطمة! فوهبها مروان لبنيه.

(2) هي نائلة بنت الفُرافصة الكلبية، زوجة عثمان بن عفان، تزوجها وهي نصرانية، وأسلمت على يديه، وأرسلت بعد مقتل عثمان كتاباً إلى معاوية مرفق معه قميص عثمان ممزقاً مليئاً بالدِّماء وأصابعها المقطعة. . . . . .واستفاد معاوية من هذا القميص والأصابع المقطعة أيما استفادة. . . وصار يقال: «قميص عثمان»، للإشارة إلى اتخاذ الذرائع للوصول إلى أهداف خاصة. أنظر: ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص300 - 301.

(3) عائشة بنت أبي بكر، زوج رسول الله صلى الله عليه وآله . . . كانت تحظى برعاية استثنائية من عمر حتى أنه فضَّلها في العطاء على بقية أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله .

(4) روى الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحدٍ مولود إلا أتي به النبي صلى الله عليه وآله ، فدعا له، فأدخل عليه مروان بن الحكم، فقال: هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، كتاب الفتن والملاحم، ح8477، ص588.

(5) فقد ولى على الكوفة سعيد بن العاص الذي قال: «إنما السواد قطينٌ لقريش»، بعدما عزل عنها الوليد ابن عقبة لاقترافه جريمة شرب الخمر، وولى عبد الله بن عامر بن كريز - ابن خاله - البصرة وكان عمره 24 - 25 سنة، بعد أن عزل عنها أبا موسى الأشعري، وولى الفاسق الوليد بن عقبة الكوفة الذي كان يجاهر بشرب الخمر، بعد أن عزل عنها سعد بن أبي وقاص، وكان أبوه من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد لقب القرآن الوليد بـ «الفاسق» في آيتين، وهو الذي صلى الصبح بالناس سكراناً أربع ركعات وقال لمن خلفه: هل أزيدكم؟، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح - أخو عثمان من الرضاعة - على مصر، وكان عبد الله هذا من أخطر المشركين وأكثرهم عداء للنبي وسخرية منه، =

ولا تجربة لهُم بالأمور، وما كانَ من الوليدِ بن عُقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح - وهو أميرٌ عليها سكران - أربعَ ركعات، ثم قالَ لهم: إن شئتُم صلاةً زدتُكُم، وتعطيلِهِ إقامة الحدّ عليه، وتأخيرِهِ ذلكَ عنه[1]، وتركِهِ المهاجرين والأنصار لا يستعملهُم على شيءٍ، ولا يستشيرُهم، واستغنى برأيهِ عن رأيهم[2]، وما كانَ من الحِمى حولَ المدينة[3]، وما كانَ من إدرارهِ القطائع والأرزاق والأُعطيات، على أقوامٍ بالمدينة ليست لهم صُحبة من النبيِّ عليهِ الصلاة والسلام[4]، ثم لا يغزون ولا يذبُّون، وما كانَ من مجاوزتِهِ الخيزران إلى السَّوط، وأنهُ أوَّل من ضربَ بالسِّياط ظهورَ الناس، وإنما كانَ ضربُ الخليفتين قبلَهُ بالدُّرة والخيزران»[5]!

ويقول المسعودي: «وقدِمَ على عثمان عمُّه الحكَم بن أبي العاص وابنُهُ مروان وغيرُهُما من بني أمية، والحكَم هو طريدُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله الذي غرَّبَهُ من المدينةِ ونفاهُ عن جوارهِ. وكانَ عُمَّالُهُ جماعة منهُم الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط على الكوفة (بعد عزل سعد ابن أبي وقاص)، وهو ممن أخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وآله أنهُ من أهلِ النار[6]، وعبدُ الله بن سعد بن

= وأقر معاوية بن أبي سفيان على الشَّام، وضم له فلسطين وحمص... وهؤلاء كلهم من بني أمية وآل أبي مُعيط.

(1) المقصود تعطيله إقامة حد شرب الخمر على واليه على الكوفة الوليد بن عقبة، الذي رد شهادة الشهود وعطل إقامة الحد عليه، حتى أقامه عليه أمير المؤمنين عليه السلام.

(2) لأن ولاته كانوا من بني أمية أو آل أبي معيط.

(3) حيث حَمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية (راجع: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج1، ص125).

(4) من عطاياه للأمويين: وهب صهره الحارث بن الحكم - أخا مروان - ثلاثمائة ألف درهم، ووهبه إبل الصدقة التي وردت إلى المدينة، وأقطعه سوقاً في يثرب تعرف بـ «مهزوز» بعد أن تصدق بها النبي على جميع المسلمين، ووهب أبا سفيان مائتي ألف من بيت المال، ووهب سعيد بن العاص مائة ألف درهم، ووهب عبد الله بن خالد بن أسيد - زوج ابنته - ستمائة ألف درهم من بيت المال، واستقرض الوليد بن عقبة - أخو عثمان من أمه - مالاً من خازن المال عبد الله بن مسعود ورفض أن يرجعها وأنب ابن مسعود على محاسبته للوليد، وعفا عن الحكم بن أبي العاص - طريد الرسول صلى الله عليه وآله - وكساه جبة خز وطيلسان ووهبه مائة ألف وولاه على صدقات قضاعة فبلغت ثلاث مائة ألف فوهبها له، أما مستشاره الخاص مروان بن الحكم فقد أعطاه خمس أفريقية، وألفاً وخمسين أوقية لا يعلم ذهباً أو فضة، وأعطاه من بيت المال مائة ألف، فجاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال يبكي فنهره تحت مبرر أنه يصل رحمه، وأقطعه فدكاً.

(5) ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ص50.

(6) أسلم عند فتح مكة. وفي تفسير للآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات، 6] =

أبي سرح على مِصر[1]، ومعاوية بن أبي سفيان على الشَّام، وعبدُ اللهِ بن عامر على البَصرة[2]، وصرفَ عن الكوفة الوليد بن عقبة (بعد صلاته بالناس سكراناً)، وولاها سعيد ابن العاص[3] (الذي قال: إنما هذا السَّواد قطينٌ لقريش)»[4].

والحقيقة أنَّ العالم الإسلامي شهدَ في عهدِ عثمان تلاعُباً غير مسبوق بالمالِ العام، حيثُ انتشرَت الشِّللية والمحسوبيات، وعادَ التميزُ القبَلي بشكلٍ سافر، وتمَّ تعيين الفُسَّاق والمستهترين بمصالحِ الأمة في مناصبَ عُليا، كما تمَّ التَّسامُح مع أولئكَ الذين عاملَهُم رَّسول الله صلى الله عليه وآله بحزمٍ وغِلظة وأخبرَ أنَّهم من أصحابِ النار. كما شهدَ العالمُ الإسلامي تفرُّداً بالرأي، وقسوةً في التعامُلِ مع الرَّعية، وانتشاراً للبِدَع، وحياةً مرفَّهة للحاكمِ وأقربائِهِ، وتعطيلاً عن إقامة الحدّ. . .الخ. وأغلب هذه الأمور، لم يعهدها المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر، كظواهر اجتماعيَّة وسياسيَّة واضحة.

حاولَ بعضُ الصَّحابة القيام بمساعٍ إصلاحية صادقة، قبلَ فوات الأوان، لكنَّها لم تُجدِ نفعاً؛ فتلكَ الوثيقة التي كتبَ الصَّحابة فيها تجاوزات عثمان، قدَّمَها عمَّار بن ياسر إليه، فكانت النتيجة أن أمرَ الأخير بضربهِ، فضُرِبَ عمَّار، وشاركَهُم عثمان في الضَّرب - على ما ينقل ابن قتيبة - إلى أن فتقوا بطنَهُ، فغُشي عليهِ، وجرُّوهُ حتى طرحوهُ على بابِ الدَّار[5].

ولم يكن حظ عبد الله بن مسعود أفضل، حيث ضُرِبَ حتى كُسِرت أضلاعُهُ! لأنهُ حاولَ الدِّفاع عن حُرمةِ بيتِ مالِ المسلمين في العراق، ثم فُرِضت عليهِ الإقامة الجبرية في

= ذكر ابن كثير أنه هو المعني بـ «الفاسق»، يقول: وَقَدْ ذَكَرَ كَثِير مِنْ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَة نَزَلَتْ فِي الْوَلِيد بْن عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط حِين بَعَثَهُ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَدَقَات بَنِي الْمُصْطَلِق.

(1) قلنا مراراً إنه أخو عثمان من الرَّضاعة، أسلم وكان كاتباً للوحي يزوِّر ما يمليه رسول الله صلى الله عليه وآله عليه، ثم ارتد وهرب إلى مكة، وأهدر رسول الله صلى الله عليه وآله دمه عند فتح مكة، وأمر بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، لكن توسَّط بشأنه عثمان بن عفان وألحَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعفو عنه.

(2) ابن خال عثمان، وزوج ابنة معاوية بن أبي سفيان، وهو الذي سيدعو طلحة والزبير للمجيئ إلى البصرة للثورة علي علي عليه السلام ونكث بيعته.

(3) قتل علي عليه السلام أباه في بدر، وتربى في حجر عثمان بن عفان، وكان من عمَّال عمر بن الخطاب على السَّواد، لما مات عثمان اعتزل الفتنة، فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقر الأمر لمعاوية، ولاه المدينة مرتين، وعزله عنها مرتين بمروان بن الحكم.

(4) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 333.

(5) ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ص51، أنظر أيضاً: ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص307.

يثرب، ومُنعَ عنهُ عطاؤهُ، وأوصى عبدُ الله بن مسعود أن لا يُصلي عليهِ عثمان[1].

وقامَ أبو ذر بالإنكار، حتى اضطُرَّ عثمان لنفيهِ إلى العراق، ثم إلى الشَّام، فاشتكى معاوية منهُ، فأعادَهُ عثمان إلى المدينة. وعندما يئِسَ عثمان من إسكاتهِ، نفاهُ إلى الرَّبَذة[2]، فخفَّ الإمام علي عليه السلام لتوديعهِ ومعهُ الحسَنان وعقيل وعبدُ الله بن جعفر، فاعترَضَهُم مروان بن الحكم ليرُدَّهُم، فثارَ الإمام علي عليه السلام وحملَ على مروان، وضربَ أُذنَي دابَّتِه وصاحَ به: «تنحَّ نحَّاكَ اللهُ إلى النار»[3]، ثم وقفَ عليه السلام مودِّعاً أباذر قائلاً له: «يا أبا ذر، إنك غضِبتَ لله، فارجُ من غضِبتَ له، إنَّ القومَ خافوكَ على دُنياهُم، وخِفتَهُم على دينِك، فاترُك ما خافوك عليه، واهربُ منهم بما خفتهم عليه، فما أحوَجَهُم إلى ما منعتَهُم، وما أغناكَ عما منعوك! وستعلم من الرابح غداً..»[4].

وإن رصدنا التَّجاوزات التي تورَّط فيها عثمان في نقاط، فيمكن وضعها على النَّحو التالي:

1. أرجعَ عمَّهُ الحكَم بن أبي العاص، وابن عمِّهِ مروان، من المنفى الذي نفاهُ رَّسول الله صلى الله عليه وآله إليه[5].

2. وهبَ مروان بن الحكم خُمس أفريقية (كانت «أفريقية» تطلق على ما يشمل حالياً تونس وشرق الجزائر وغرب ليبيا).

3. الإسراف والبذخ في المعيشة.

4. تولية أقربائه: عزل سعد بن أبي وقاص وتولية أخيه من أمِّه الفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط[6] مكانه، ثم سعيد بن العاص (على الكوفة)، وأخيهُ من الرَّضاعة عبدالله بن

---

(1) أنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج5، ص36.

(2) والسبب المباشر لنفيه حوار حاد دار بين أبي ذر وكعب الأحبار، وثارت حفيظة عثمان على طريقة رد أبي ذر على كعب. أنظر: المسعودي، **مروج الذهب**، ج3، ص338 - 339.

(3) وتشييع علي عليه السلام لأبي ذر وموقفه من مروان تسبَّب في تشنُّج عليه السلام علاقته بعثمان، بل كان الأخير يريد أن يأخذ القِود من علي عليه السلام بسبب شتمه لمروان وضرب راحلته!! أنظر: المسعودي، **مروج الذهب**، ج3، ص340 - 341.

(4) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (130)، ص188.

(5) روى الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحدٍ مولود إلا أتي به النبي صلى الله عليه وآله، فدعا له، فأدخل عليه مروان بن الحكم، فقال: هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، كتاب الفتن والملاحم، ح8477، ص588.

(6) أسلم يوم الفتح، نزلت فيه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، كان=

سعد بن أبي سرح[1] (على مصر)، وضمَّ إلى معاوية إلى جانبِ الشَّام فلسطين وحِمص.

5. المماطلة في إقامةِ الحد على أقربائهِ: كالمماطلة في إقامةِ حد شُربِ الخمر على أخيه من أمِّه الفاسق الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط.

6. تجاهُل المهاجرين (خصوصاً وجهاء الصَّحابة من قريش الذين كانت زمام الأمور بيدهم إلى الأمس القريب) والأنصار (المستضعفون أصلاً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله) في التوليةِ والمشورة.

7. التلاعُب ببيتِ المال من خلال إدراره القطائع والأرزاق والأُعطيات.

8. ضربُ الناسِ بالسِّياط عوضاً عن الخيزران والدرَّة.

9. ضربُ عمَّار بن ياسر وفتقُ بطنهِ، وضربُ عبدِ الله بن مسعود وكسرُ أضلاعهِ، ونفي أبي ذر الغفاري إلى الرَّبذة.

10. تحوُّلَهُ إلى أداةٍ بيدِ مروان بن الحكم.

كانت التَّجاوزات تتراكم بهذا الاتجاه بالتدريج، وكان الحنق الشعبي يزداد بازدياد تلك التَّجاوزات، وباتَ انقسامُ المجتمع الإسلامي إلى طبقتين عميقاً: أقلية غنيَّة مُرفَّهة (قرشية)، لا تخوض غِمار الحروب والفتوحات، وإنما تكتفي بجني الثِّمار، في مقابل أكثرية فقيرة مُعدمة، جديدة العهدِ بالإسلام، تخوضُ المعارك، وترى بأُمِّ عينيها أنَّ غيرَها يجني ثمار تضحياتها.

وقوع المحظور

كان طلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوام يقومان بتحريضِ الجماهير على عثمان[2]،

= يشرب الخمر حتى بعد إسلامه وقامت الشهادة عند عثمان على ذلك، صلى بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ وقيل شهد مع معاوية في صفين.

(1) أسلم قبل الفتح ثم ارتد مشركاً، ويوم الفتح أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتله ولو كان معلقاً بأستار الكعبة، فشفع له عثمان وسكت رسول الله صلى الله عليه وآله منتظراً من حوله ليقوم إليه فيضرب عنقه!! أنظر مثلاً: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب المغازي والسرايا، ح4362، ص56، وهذه الرواية تقول بأن الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، بوصفه خائناً لرسول الله صلى الله عليه وآله في كتابته للوحي قبل ارتداده.

(2) يروي الطبري في تاريخه عن الواقدي: لما كانت سنة 34 كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرون ويسمعون، ليس فيها أحد ينهى ولا يذب، إلا =

ثم بعدَ قتلهِ، قاما بمبايعة الإمام علي عليه السلام، ثم نكثا البيعة، بعد أن فتحَ عمر شهيتهُما للخلافة عندما أدرجَهُما في الشورى السُّداسية، وتحالفت عائشة معهما.... كلُّ ذلك بغية استرجاع سُلطة قريش التي سلبَتها بنو أمية. حتى عمرو بن العاص السَّهمي كان من المحرِّضين للثوار بدهاء[1].

لكن كيف وقع المحظور وقُتِل عثمان؟

كان وفد الثُّوار من مِصر بقيادة الصَّحابي عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي (وهو من أصحاب بيعةِ الشجرة)، ومحمد بن أبي بكر (وُلِدَ عام حجة الوداع، لذا يُمكن اعتبارُهُ من الصَّحابةِ أو التابعين وفقاً لاختلافِ تعريف كل منهما)[2]. وكان وفد ثوار الكوفة بقيادةِ الصَّحابي عمرو بن الأهثم[3]، ومالك الأشتر، وزيد بن صوحان العبدي. وكان وفد ثوار البصرة بقيادة الصَّحابي حكيم بن جبلة (وعلينا أن نتذكَّر اسم هذا الصَّحابي لأنه سيستشهد على يد الناكثين في أطراف البصرة فيما يعرف بـ«يوم الجمل الأصغر»).

واستمرَّ الحصارُ أربعين يوماً على الأقل، استنجدَ عثمان خلالَها بمعاوية[4]، لكن

= (ويذكر أسماء محدودة جداً). (**تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص375 - 376). وكان من قيادات الثوار المصريين عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله (**تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص402 - 403). وكان من الطَّاعنين على عثمان والمحرضين عليه عمرو بن العاص بعد أن عزله عن مصر واستعمل مكانه عبد الله بن سعد (**تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص292).

(1) وكان عمرو بن العاص السهمي ناقماً على عثمان لأنه عزله عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأموي، وعمرو له ارتباط خاص بمصر، لأنه كان من فاتحيها، وكان يشعر بأن له حقاً خاصاً فيها، لذا لم يستطع معاوية بعد ذلك أن يعقد صفقة مع عمرو إلا بعد أن أغراه بمصر طعمة! فرفع قميص عثمان، وصار يبكي كالنِّساء أمام أهل الشَّام على مظلومية عثمان!

(2) أمه أسماء بنت عميس وهي من أول المسلمات، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، عندما استشهد، تزوجها أبو بكر، فولدت له محمداً، فلما مات، تزوجها علي عليه السلام، فتربى محمد في حجر علي عليه السلام.

(3) كان معروفاً بالفصاحة والبلاغة، وهو القائل:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

(4) عندما ذهب إلى عثمان: عامر بن عبد الله التميمي مندوباً عن الثُّوار وطلب منه تصحيح الوضع المنحرف، يقول الطبري: فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص بن وائل السَّهمي وإلى عبد الله بن عامر فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم، فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرئ وزراء ونصحاء وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلي أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليَّ، فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا=

الأخير أبطأ عن إجابته، وحبسَ جُندَهُ في أوائلِ الشَّام، وذهبَ بنفسهِ إلى المدينةِ ليطَّلع على تطوُّرات الأحداث، وقالَ لعثمان: قدِمتُ لأعرِف رأيكَ وأعود إليهم (إلى جنده) فأَجيئُك بهم! فردَّ عثمان: لا واللهِ، ولكنَّكَ أردتَ أن أُقتل، فتقول أنا وليُّ الثأر، ارجِع فجِئني بالناس، فرَجعَ معاوية، فلم يعُد إليهِ حتى قُتل[1].

وضغطَ الثُّوار على عثمان، حتى أخذوا منهُ العهد التالي: «هذا كتابٌ من عبدِ الله عثمان أمير المؤمنين، لمن نقِمَ عليهِ من المؤمنين والمسلمين، أنَّ لكُم أن أعمَل فيكُم بكتابِ الله وسنَّةِ نبيِّهِ، يُعطى المحروم، ويُؤمَنُ الخائف، ويُردُّ المنفي، ولا يُجمَر في البعوث (= لا يُحبس الجند في الثُّغور عن العودِ إلى أهلهم)، ويُوفَّر الفيئ، وعليٌّ بن أبي طالب ضمينٌ للمؤمنينَ والمسلمين، على عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب». وشهدَ فيه كلٌّ من الزُّبير وطلحة وسعد وابن عمر وغيرهم.

لكن عثمان وبتحريض مروان نقضَ هذا العهد، حيث دخلَ عليهِ مروان وقالَ له: «تكلَّم وأعلِم الناسَ أنَّ أهلَ مِصر قد رجَعوا، وأنَّ ما بلغَهُم عن إمامِهم كانَ باطلاً، فإنَّ خُطبتَك تسيرُ في البلاد، قبل أن يتحلَّب الناسُ عليك من أمصارِهِم فيأتيكَ ما لا تستطيعُ دفعه». وامتنعَ عثمان في البدء عن إجابتهِ، لكن ما زالَ مروان يُحذِّرهُ من مغبةِ ما صنع، إلى أن استجابَ لهُ، فصعدَ المنبر، وقال ما طلبَ منهُ مروان. . . . فثارَ القوم، وعادَ الوفدُ المصري غاضِباً بعد أن تبيَّن له الأمر. وخرجَ لهم مروان وخاطبهم: «ما شأنكم؟. . . شاهَت الوجوه، تريدونَ أن تنزعوا مُلكَنا من أيدينا، اخرُجوا عنا. . .».

ونُقِلت كلمات مروان للإمام علي عليه السلام فثارَ غاضباً وأسرعَ إلى عثمان، وأحاطَ الثُّوار بدار عثمان فمنعوا عنه الماءَ والطعام[2]، وأرسلَ الإمام علي عليه السلام إليه قِربَ الماء، إلا إنَّ بعض الثُّوار دخلوا عليه، ولم يخرجوا إلا وعثمان مُضرَّجاً بدَمِهِ. وتداول الناسُ أسماءَ

= أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه (**تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص373).

(1) ابن واضح اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، منشورات الشريف الرضي، ط1، 1414هج، قم، ج2، ص 175.

(2) تذكر حادثة منع الثور الماء عن عثمان، فإن ذلك سيؤخذ ذريعة لمنع الماء عن علي عليه السلام في صفين، بل سيؤخذ ذريعة أيضاً لمنع الماء عن الحسين عليه السلام في كربلاء. . . . .كل ذلك رغم أن علياً عليه السلام كان قد أرسل قرب الماء لعثمان وهو محاصر، كما أنه عليه السلام سمح لمعاوية وجيشه بالتزود من الماء بعدما غلب عليه، كما ستعرف في أحداث معركة صفين. . . . في كل ذلك دروس وعبر، وكيف أن بعض المغرضين قد يتخذون من تصرفات بعض المتهورين ذرائع لارتكاب جرائم.

قيل أنَّها ممن دخل على عثمان، كالصَّحابي عمرو بن الحَمِق الخزاعي، والصَّحابي عبد الرحمن بن عُديس البلوي، والصَّحابي محمد بن أبي حذيفة (وهو من بني عبد شمس، ابن خال معاوية، ربَّاهُ عثمان، ثم صارَ من أشدِّ الناسِ عليه)، بالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، وكنانة بن بشر، وعمير بن ضابئ، وسودان بن حمران.

ما نريد التأكيد عليه أنَّ الإمام علياً عليه السلام، لم تكُن له سيطرة حقيقية على الثُّوار، بل حتى بعض قادة الثُّوار لم تكن لهم سيطرة حقيقية على قواعدِهم الشَّعبية، فالفوضى واللَّغط وخلط الأوراق كان هو سيد الموقف.

● موقف الإمام علي عليه السلام من فتنة مقتل عثمان

كان وضع الإمام علي عليه السلام دقيقاً جداً، فمن ناحية كان قد أقسمَ عندما عزمَ القوم على بيعة عثمان، بعد أن أكَّدَ على أنَّهُ أحقُّ الناس بالخلافة من غيره، قائلاً: «والله لأُسلمنَّ ما سلِمَت أمورُ المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلا عليَّ خاصَّة، التماساً لأجرِ ذلك وفضلِهِ، وزُهداً فيما تنافستموهُ من زُخرُفهِ وزِبرِجه»[1]، وها هي أمور المسلمين لم تعُد سالمة، وها هو الجور لم يعُد واقعاً عليه خاصَّة، فعليه إذن واجبُ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والوقوف أمام هذا الانحراف الكبير الذي بات يهدِّد وجود الأمة بأسرِها.

لكن موقفه حرجٌ من ناحية ثانية، لسببين: أولهما أنه عليه السلام وإن كان يرى نفسَهُ أحقَّ بالخلافة من غيره، إلا أنَّ أيّ تحرُّك احتجاجي سيُعطي ذريعة للملتفِّين حول عثمان، في اتِّهامه بالسَّعي نحو السُّلطة، وأنه يعرقل المسيرة، ويضع العصا في العجلة، ويُحرِّض على نكث البيعة. فالقرار لم يعُد بيدِ عثمان، وإنما بيد قرابته وأبناء عمومته، والأجواء مهيَّأة تماماً لفبركة الاتهامات الواهية. السبب الثاني - وهو الأهم - أنَّ الحركة الشَّعبية الاحتجاجية، وإن كان قد وقع الظلم عليها، لكنَّها حركة غير ناضجة، جديدة العهد بالإسلام، هائجة، يصعُب التحكُّم في مسارِها، اختلط عليها الحقّ والباطل، واختلطت عليها المعايير. وهذه النُّقطة سنتوقَّف عندها بعد قليل.

كانت الأنظار تتَّجه نحو الإمام علي عليه السلام، يريدون معرفة كيفية معالجته، لمعضلة غير مسبوقة، ألمَّت بالإسلام والمسلمين. فماذا صنع الإمام علي عليه السلام؟

حاول الإمام علي عليه السلام أن يُمسِك العصا من الوسَط ما أمكنه، فلعبَ دور الوسيط

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، رقم (74)، ص102.

أكثر من مرَّة، بين جماهير هائجة، فلتَ زمامها، ولم تعُد تستمع إلا لمن يريد أن يزيد تهييجها، أو على الأقل لمن يريد أن يتفهَّم معاناتها، وحاكمٌ لم يعُد قرارهُ بيدِهِ، بسبب الشَّيخوخة وتسلُّط المحيطين به، وبالخصوص مروان بن الحكم.

لما اجتمع الناس إليه، وشكوا ما نقموهُ على عثمان، قام الإمام علي عليه السلام ودخلَ على عثمان، وقال له:

«إنَّ الناس ورائي، وقد استسفروني (= جعلوني سفيراً) بينَك وبينَهُم، ووالله ما أدري ما أقولُ لك! ما أعرفُ شيئاً تجهَلُهُ، ولا أدُلُّك على أمرٍ لا تعرِفُهُ. إنك لتعلَم ما نعلَم، ما سبَقناكَ إلى شيءٍ فنُخبركَ عنه، ولا خَلونا بشيءٍ فنُبلِّغكه، وقد رأيتَ كما رأينا، وسمعتَ كما سمعنا، وصحبتَ رسول الله صلى الله عليه وآله كما صحبنا، وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعملِ الحقِّ منك، وأنت أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وشيجة رحمٍ منهما، وقد نلتَ من صهرِهِ ما لم ينالا. فالله الله في نفسِك! فإنَّك واللهِ ما تُبصَّرُ من عمًى، ولا تُعلَّمُ من جهل. . . . وإنَّ شرَّ الناس عند الله إمامٌ جائر، ضلَّ وضُلَّ به، فأمات سنةً مأخوذة، وأحيا بدعةً متروكة، وإنِّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يؤتى يومَ القيامة بالإمام الجائِر، وليسَ معهُ نصيرٌ ولا عاذر، فيُلقى في نارِ جهنَّم، فيدورُ فيها كما تدور الرَّحى، ثم يرتبطُ في قَعرِها»، وإني أنشِدُكَ الله، ألا تكونَ إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يُقال: يُقتل في هذهِ الأمة إمامٌ يفتحُ عليها القتلَ والقتال إلى يومِ القيامة، ويلبسُ أمورها عليها، ويبُثُّ الفتن فيها، فلا يُبصرونَ الحقَّ من الباطل، يموجونَ فيها موجاً، ويمرجونَ فيها مرجاً، فلا تكوننَّ لمروان سيقةَ، يسوقُكَ حيث شاء، بعد جلال السِّن، وتقضِّي العمر».

فقال له عثمان: كلِّم الناسَ في أن يؤجلوني، حتى أخرجَ إليهم من مظالمهم.

فقال عليه السلام: ما كانَ بالمدينةِ فلا أجلَ فيه، وما غابَ، فأجلُهُ وصولُ أمركَ إليه[1].

لكن عثمان لم يتَّخذ أيّ إجراء فعلي، يؤكِّد للناس أنَّ الأمور في طريقِها إلى الحل. بل على العكس، كان كلَّما حاول أن يتَّخِذ إجراء من هذا القبيل، إما أن يثنيه عن ذلك المقرَّبون منه - وبالخصوص مروان - أو يقومون بخطوات تزيد من نقمة الناس، وتُرسِل إليهم إشارات خاطئة، تؤكِّد لهم أنَّ الأمور بائسة بالفعل، ولا أملَ في الاصلاح، وأنَّ قرارت عثمان لم تعُد بيدِهِ، وإنما بيد آخرين لا سابقةَ لهم في الإسلام.

لما اشتدَّ الطعنُ على عثمان، بدأ الناس يهتفون باسم علي عليه السلام للخلافة، فاستأذن

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (164)، ص234 - 235.

الإمام علي عليه السلام عثمان في بعض بواديهِ يتنحى إليها - حتى لا يُتَّهم باستغلال الظرف لصالحِهِ - فأذِنَ له[1].

واشتدَّ الطعنُ على عثمان بعد خروج الإمام علي عليه السلام، أرسلَ عثمان إلى الإمام علي عليه السلام يسأله التوسُّط مرةً أخرى. وتكرَّرت الوساطات، ومن المعلوم أنَّ الوساطات حينما تتكرَّر تفقد بريقها، ويفقد الوسيط تأثيره. كان عثمان تارةً يطلب من الإمام علي عليه السلام التوسُّط، وتارة أخرى يطلُب منه الخروج من المدينة وألا يتدخَّل، لذا نجِدهُ يجيبُ ابن عباس حينما جاءه برسالة من عثمان، وهو محاصرٌ في بيته، يسأله الخروج من المدينة:

«يا بنَ عباس، ما يريدُ عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب، أقبِل وأدبر! بعثَ إليَّ أن أخرُج، ثم بعثَ إليَّ أقدِم، ثم هو الآن يبعث إليَّ أن أخرُج! والله لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكونَ آثماً»[2].

والعبارة الأخيرة تهمُّنا كثيراً: «والله لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكونَ آثماً»، لأنَّها توضِّح تماماً حقيقة المأزق. فمن ناحية هو يُدافع عن الخليفة حتى لا تتورَّط الجماهير في هتك منصب الخلافة، وحتى لا ينفتح على الأمة بابُ الفتن. لكنه من ناحية ثانية يخشى من المبالغةِ في الدِّفاع عن الخليفة، الأمر الذي قد يُعدُّ دفاعاً عن الجور، وركوناً إلى الظلم، وخذلاناً لأمةٍ مظلومة. فبدل أن يكون مأجوراً في وساطته، يصبح آثماً.

وإنصافاً للإمام علي عليه السلام لا بُدَّ أن نقول: لم يقف أحدٌ مدافعاً عن عثمان كعليّ عليه السلام، حتى أولئكَ الذين طالبوا بدمهِ بعد مقتلهِ، حتى طلحة والزُّبير وعائشة، بل حتى مروان ومعاوية. لقد كان موقف الفريق الأول يتمثَّل في استثارة الجماهير وتهييجهم، فطلحة والزُّبير وعائشة[3]، كلُّ واحد منهم، حرَّض الجماهير على عثمان. ومروان كان

---

(1) لمراجعة بعض تفاصيل خروج علي عليه السلام إلى منطقة ينبع ثم طلب عثمان عودته، راجع: ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج4، ص309.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (240)، ص358..

(3) في النصف الأول من خلافة عثمان، كانت عائشة تؤيده وتطيعه، ولا تفكر في خلافه. ثم اختلفت معه، لانقطاع الألفين الزائدة في عطائها عنها على ما ذكره اليعقوبي وابن أعثم. قال اليعقوبي: «وكان بين عثمان وعائشة منافرة، وذلك أنه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيَّرها أسوة غيرها من نساء رسول الله». في البدء والتاريخ: «كان أشدُّ الناس على عثمان: طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة، وخذله المهاجرون والأنصار، وتكلَّمت عائشة في أمره، وأطلعت شعرة من شعرات =

يحرّض عثمان على عدم التنازل للجماهير[1]، ومعاوية تباطأ في نجدةِ عثمان ليقع الثُّوار في المحظور.

في الفصل القادم سوف نُسلِّط الضَّوء على وضع المسلمين لحظة مقتل عثمان وتسلُّم الإمام علي عليه السلام الخلافة، كما سنتحدَّث عن التغيُّرات التي طرأت على فئة وجهاء المهاجرين، ثم حرب الجمل ومضاعفاتها، وتأثير ذلك في انكسار شوكة قريش لمصلحة بني أمية.

الخلاصة: عرفنا الآن أهم مُكوِّنات شخصيَّة الجماهير الثائرة ثقافياً وقبلياً واقتصادياً، وأنَّ هؤلاء كانوا يُمثِّلون جيلاً جديداً لم يحظ بتربية ثقافية وروحية ومعنوية في حياة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا الإمام علياً عليه السلام، وأنَّهم كانوا يشعُرون بالغُبن، وأنَّ قريشاً قد ظلمتهم، وانتهكت كرامتهم، وسلبتهم حقوقهم، لأنَّ المعيار الذي وضعَهُ عمر بن الخطاب في توزيع العطاء، جعل الثروة تتراكم في يد قريش العدنانية (من مكة)، على حساب باقي العرب من قحطان، كالأنصار من أهل المدينة، وأجناد العراق الذين كانوا وقود الفتوحات الكبرى. إذن الجماهير الثائرة في غالبيتهم من قحطان، والسُّلطة والمال بيد قريش العدنانية. . . . وفي طريقها لبني أمية. وعرفنا مدى استشراء الفساد الاداري والمالي - والأهم من ذلك الفساد القِيَمي والدِّيني - في أواخر حياة عثمان نتيجة أخطاء

= رسول الله صلى الله عليه وآله ونعله وثيابه، وقالت: ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم، فقال عثمان في آل أبي قحافة ما قال، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول». ومرة أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبل وعثمان قد أبلى سنته. ووصل الأمر إلى أن أصدرت فتوى صريحة بإهدار دمه، فقالت: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»، فانطلقت هذه الكلمة من فم عائشة، فانتشرت بين الناس انتشار النار في الهشيم، فتلقَّفها منها غيرها ممن لم يكن يجرؤ على التفوُّه بمثلها. وكلمة «نعثل» فيما ذكروه بمعاجم اللغة:

أ) الذكر من الضباع

ب) الشيخ الأحمق

ت) وقالوا: كان رجل من أهل مصر طويل اللحية يسمى نعثلاً

ث) وقالوا: إن نعثلاً كان يهودياً بالمدينة، شُبِّه به عثمان.

راجع التفاصيل كلها في: مرتضى العسكري، **أحاديث أم المؤمنين عائشة**، دار الزهراء، بيروت، ط2، 1992، ج1، ص90 - 152. وكتب ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أنَّ عائشة لما بلغها مقتل عثمان - وهي بمكة - قالت: أبعدَهُ الله، ذلك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد.

(1) ودور مروان في استثارة الجماهير معروف لكل من قرأ تفاصيل مقتل عثمان، ويكفي كلمة علي عليه السلام لعثمان: «فلا تكوننَّ لمروان سيقةً، يسوقُكَ حيث شاء، بعد جلال السِّن، وتقضِّي العمر».

قاتلة ارتكبها هذا الأخير، الأمر الذي أدّى إلى قتله، والتفاف الجماهير الغاضبة والثائرة حول الإمام علي عليه السلام.

نعم، دراسة فتنة مقتل عثمان، بالغة الأهمية، لأنَّ الصورة لن تتَّضِح إلا إذا عرفنا بالضَّبط حقيقة موقف الإمام علي عليه السلام من تلك الفتنة. فأكثر الفتن اللاحقة، كان سببُها ما قام به بنو أمية من خلطٍ للأوراق، استطاعوا من خلالها التسلُّل إلى السُّلطة، ابتداء من معاوية، مروراً بيزيد الذي ارتكب فاجعة كربلاء. وسنلمس بوضوح التوظيف المستمر لمقتل عثمان ومنع الماء عنه، لقتل الإمام الحسين عليه السلام ومنع الماء عنه. لكن كيف استطاعوا خلطَ الأوراق؟ وكيف استطاعوا إرباك السَّاحة؟ سنحاول في الفصل القادم الإجابة عن هذا السُّؤال.

(9)

ظروف استلام الإمام علي عليه السلام الخلافة

تحدَّثنا في الفصل الماضي عن فترة حُكم عثمان، وكيف تطوَّرت الأمور بشكل دراماتيكي إلى أن وقع ثوار العراق ومصر في المحظور، وقتلوا الخليفة الثالث عثمان بن عفان، بعد تحريض الصَّحابة للثُّوار، وتحدَّثنا عن موقف الإمام علي عليه السلام الحَرِج من تلك الفتنة.

نريدُ الآن أن نُحلِّل وضع المسلمين لحظة مقتل عثمان واستلام الإمام علي عليه السلام للخلافة، ثم نتحدَّث بعد ذلك عن التحوُّل الذي طرأ على فئة وجهاء المهاجرين، وكيف بدَت هذه الفئة تتَّجه أكثر فأكثر إلى الأفول والضَّعف.

تحليل وضع المسلمين آنذاك:

1) مجرَّد شحنة معنوية

يقول الشهيد السيِّد محمد باقر الصدر (قده): حينما نُطالع تاريخ الصَّحابة في صدر الإسلام، سوف تبهرنا أنوارُهُم في المجال الرُّوحي والفكري والنَّفسي، في مجال الجهاد والتَّضحية. لقد قدَّمت هذه الأمة من التَّضحيات - في سبيل رسالتها - ما لم تُقدِّم مثله أيّ أمة من أمم الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، الإيثار والتآخي الذي شاعَ بين المهاجرين والأنصار، التَّسابُق على الشَّهادة، لقد تفاعلوا وانصهروا، فرسموا أروع صور التَّضحية والفداء.

إلا أنَّ هذه الحالات كانت على ما يبدو مجرَّد شحنة معنوية وطاقة حرارية، كانت تمتلكها الأمة من لقاءِ قائدها العظيم، ولم تكن قائمةً على أساس متين من الوعي الحقيقي للرِّسالة العقائدية. نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُمارس عملية توعية الأمة - هذه العملية التي كانت مضغوطة - لكن ما أُنجز في هذه العملية هو إعطاء الأمة شحنة معنوية وطاقة حرارية في الإيمان بدرجة كبيرة جداً، وكان يفترض أن تُستكمل هذه العملية، بعد

وفاته صلى الله عليه وآله مباشرة، مع خلافة الإمام علي عليه السلام [1].

هذه الأمة التي عاشت مع أكمل قائد للبشرية، اكتسبت هذه الطاقة الهائلة من إشعاع رسول الله صلى الله عليه وآله، فصنعت البطولات والتَّضحيات التي يقِلُّ نظيرُها في تاريخ الإنسان. هذه النماذج الرَّفيعة إنما هي نتاجُ هذه الطاقة الحرارية التي جعلت الأمة الإسلامية تعيش أيام رسول الله صلى الله عليه وآله محنة العقيدة والصَّبر، وتتحمَّل مسؤولية هذه العقيدة بعد وفاته صلى الله عليه وآله، هذه هي طاقة معنوية وليست وعياً مترسخاً، لذا يجب أن نفرِّق بين الطاقة الحرارية والوعي.

الوعي: عبارةٌ عن الفهم الفعَّال الإيجابي التي يتأصَّل، ويستأصل جذور المفاهيم الجاهلية السَّابقة استئصالاً كاملاً. أما **الطاقة الحرارية**: فهي عبارة عن توهُّج عاطفي حارّ، بشعور قد يبلُغ في مظاهرِهِ نفس ما يبلُغه الوعي في ظواهره، فيتحيَّر المراقب، بحيث يصعُب عليه التمييز بين الأمة التي تحمِل طاقة حرارية، وأمة تتمتع بذلك الوعي، إلا بعد التبصُّر.

إلا أنَّ الفرق بين الأمة الواعية، والأمة التي تحمل طاقة حرارية، كبير. فالطاقة الحرارية - بطبيعتها - تتناقص بالتَّدريج بالابتعاد عن مركز هذه الطاقة الحرارية. والمركز الذي كان يُموِّن الأمة بهذه الطاقة الحرارية هو شخص رسول الله صلى الله عليه وآله القائد، فكان طبيعياً أن تصبح طاقة الأمة بعدَهُ في تناقُصٍ مستمر، حال الشخص الذي يتزوَّد من الطاقة الحرارية للشمس والنار، ثم يبتعد عنهما، فإنَّ هذه الحالة تتناقص عنده باستمرار. هكذا كان حال المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتاريخ الإسلام يثبت أنَّ الأمة الإسلامية كانت في حالة تناقُصٍ مستمر من هذه الطاقة الحرارية التي خلَّفها رسول الله صلى الله عليه وآله في أُمَّتِهِ حينَ وفاتهِ.

وهناك فرقٌ آخر، هو أنَّ الوعي لا تهزُّه الانفعالات، فهو يصمُدُ أمامَها، أما الطاقة الحرارية فتهزُّها الانفعالات. الطاقة الحرارية تبرُز على سطح النَّفس البشرية، أما الوعي فهو شيءٌ يثبُتُ في أعماق هذه النَّفس. ففي حالة الانفعال، سواء أكان حزناً وألماً، أم فرحاً وانتصاراً. في كلا الحالتين سوف يتفجَّر ما وراء السِّتار، ويبرُز ما كان كامناً وراء هذه الطاقة الحرارية في الأمة المُزوَّدة بهذه الطاقة فقط. أما الأمة الواعية، فوعيها يتقوَّى على مرِّ الزمن، فكلما مرَّ بها انفعالٌ جديد، أكَّدت شخصيتها الواعية في مقابل هذا الانفعال، وصبغته بما يتطلبه وعيها من موقف[2].

---

(1) محمد باقر الصدر، أئمة أهل البيت عليهم السلام، المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر (قده)، ط1، 1425هج، قم، ص 69 - 70.

(2) المصدر السابق، ص 70 - 72.

أقول: الشواهد على أنَّ الأمة الإسلامية كانت تحمل مجرَّد شحنة معنوية وطاقة حرارية، ولم تكن تحمل وعياً مستنيراً مجتثاً لأصول الجاهلية فيها... شواهد كثيرة، ويكفي أن نتذكَّر بعض المواقف التي كان يرتدُّ فيها المرء على الفور إلى القبيلة أو الفئة التي ينتمي إليها، فينادي: يا للمهاجرين، إن كان من المهاجرين، أو ينادي: يا للأنصار، إن كان من الأنصار. والحوادث التي وقعت للأمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وابتداء من خلافة عثمان على وجه الخصوص، تؤكِّد هذه المقولة. فمع ازدياد الفاصل الزَّمني عن وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بدأت الصورة الإسلامية الناصعة تتغيَّر، وبدأت ملامحها تتبدَّل، حيث اختلطت المعايير في أذهان عامة المسلمين، واختلط الحقُّ بالباطل، وأصبح المعروفُ منكراً والمنكرُ معروفاً، وفقدت الأمة زمام المبادرة، ولم تعد قادرة على التَّخطيط لمستقبلها.

وأكَّد لنا الإمام علي عليه السلام هذه الحقيقة عندما قال: «أيُّها الناس، إنا قد أصبحنا في دهرٍ عنود، وزمنٍ كنود، يُعدُّ فيه المحسِنُ مُسيئاً، ويزدادُ الظالمُ فيهِ عُتُوّاً، لا ننتفِعُ بما علِمنا، ولا نسألُ عما جهلنا، ولا نتخوَّف قارعة حتى تحلَّ بنا»[1].

2) جيلٌ جديدٌ لم ينضُج بعد

هناك نقطة أخرى لا بُدَّ أن نأخذها في الاعتبار في تحليل الواقع الإسلامي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أنَّ ثمة جيلاً جديداً بدأ يبرُز على السَّاحة في عهد عثمان الطَّويل. هذا الجيل كثيرٌ منهم لم يُوفَّق برؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحبته، إما لصغر سنِّه، وإما لكونه لم يُولَد آنذاك بعد، فبات يعدُّ من التابعين، وإما لدخوله في الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهؤلاء بمجموعهم أصبحوا يُمثِّلون أكثرية الأمة.

هذا الجيل لم يُعاصر الإسلام في بداياتِهِ، ولم يتعرَّف على الأدوار التي لعبها رموز الجيل الطليعي، ولم يتشرَّف بالتزوُّد حتى بالطاقة الحرارية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كلّ ما عاصره، هو جيلُ الصَّحابة، يحكي له قصص ماضٍ مجيد، ويفتخر بصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لكن هذا الجيل - جيل الصَّحابة - كان يفقد بريقه ووهجَهُ بالتدريج، بعدما تحلَّل من حياةِ الزُّهد، بعد فتح فارس والرُّوم.

كان الجيل الجديد وقود الفتوحات الكبيرة، والجمهور المحتج على عثمان هو من

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (32)، ص74.

هذا الجيل الجديد، الذي شاركَ في الفتوحات، وقدَّمَ التَّضحيات، لكن كان آخرون من الصَّحابة وأبنائهم «يأخذونَ العطايا ولا يَغزونَ في سبيلِ الله»[1].

إنه جمهورٌ مظلومٌ، مضطهدٌ، مستضعف. لكن من ناحيةٍ أخرى، لم يتلقَّ هذا الجيل تربية إسلامية سليمة، ولم يفتح عينيهِ على الصُّور الرائعة التي دشن من خلالها المسلمون عهدهم، ولم يتنفس هواءً نقياً، وإنما هو جيل تمَّ إهمالُهُ لفترةٍ طويلة من الزَّمن - تزيد على عقدين - وفتح عينيه على تطبيق معايير مزدوجة، وعلى مجتمع من الصَّحابة كلٌّ يدعي الفضيلةَ لنفسِهِ، فاستوى لديه الصَّحابي المضحِّي، الذي كانت له سابقة استثنائية في الإسلام، والصَّحابي الذي لم يُسلِم إلا في وقتٍ متأخر جداً، ممن شارك في حروبٍ ضد الإسلام، ولم يدخل في الدِّين إلا بعد أن قويت شوكتُهُ، وأصبح أمراً واقعاً.

هذه الأمة لم تتربَّ على الائتمام بإمام، يُشبع حاجاتها الرُّوحية والفكرية والنَّفسية، وإنما وجدت أمامَها خليفة متحيِّزاً لأبناءِ عمومتِهِ، «يخضمونَ مالَ الله خضمةَ الإبل نبتةَ الرَّبيع»[2] - بحسب تعبير الإمام علي عليه السلام - فكانت النتيجة أن أصبح كلٌّ واحدٍ إمام نفسه!

يقول الإمام علي عليه السلام: «وما لي لا أعجبُ من خطأ هذه الفِرَق على اختلافِ حُجَجِها في دينِها! لا يقتصُّونَ أثرَ نبيّ، ولا يقتدونَ بعملِ وصيّ، ولا يؤمنونَ بغيبٍ، ولا يعفون عن عيب، يعمَلونَ في الشُّبهات، ويسيرونَ في الشَّهوات، المعروفُ فيهم ما عرَفوا، والمنكرُ عندهم ما أنكروا، مفزعُهُم في المعضلات أنفسهم، وتعويلهم في المُهِمَّات على آرائِهم، كأنَّ كلّ امرئٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ فيما يرى بعُرى ثقات، وأسباب مُحكمات»[3]!

3) التشتُّت والاختلاف

الصُّورة التي رسمناها للجيل الجديد، قد تنطبق على أكثر ديار الدَّولة الإسلامية، إلا أنَّ الشَّام تختصُّ بأمرٍ إضافي. فبسبب ضعف الحكومة المركزية في عصر عثمان، استطاع معاوية في الشَّام أن يُنشئ مظاهر ملَكيَّة مستقلَّة في الشَّام، لا تشبه الوضع السِّياسي في باقي الأقاليم، مما رسَّخَ نوعاً من الانفصالية في الشَّام عن باقي أجزاء جسم الدولة الإسلامية. فالشَّام لم تعرِف حاكِماً مسلماً قبل معاوية بن أبي سفيان، وقبل أخيه يزيد،

---

(1) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص52.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (3)، ص49.

(3) المصدر السابق، رقم (88)، ص 121.

وكانت قد أُعطيت له صلاحيات استثنائية من قبل الخليفة الثاني، بدعوى أنَّ هذا يُمثِّل مظهر عزّ وجلال للإسلام في مقابل دولة القياصرة[1].

الجيل الجديد في الشَّام لم يكن غير متلقٍّ لتربية إسلامية صحيحة فحسب، وإنَّما تلقى تربية مشوَّهَة على يدِ معاوية. ولم يكن للإمام علي عليه السلام - ولا غيره من كبار الصَّحابة - أي رصيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم على الإطلاق، لأنَّ هذا الإقليم عاش الإسلام من منظار آل أبي سفيان، ولم يسمع لعليّ عليه السلام [2].

أقول: سنرى بعض صور التربية المشوَّهة عندما نصل إلى حرب صفين. بل هذا الأمر يؤكِّدهُ معاوية نفسه عندما قال لعمَّار بالمدينة:

«إنَّ بالشَّام مئة ألف فارس، كلٌّ يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائِهم وعبدانِهم، لا يعرِفونَ عليّاً ولا قرابتَهُ، ولا عمَّاراً ولا سابقتَهُ، ولا الزُّبير ولا صحابتَهُ، ولا طلحة ولا هِجرَتَهُ، ولا يهابونَ ابنَ عوفٍ ولا مالَهُ، ولا يتَّقونَ سعداً ولا دعوتَهُ»[3].

هذه العبارات تُعبِّر بصدق عن حالِ أهل الشَّام، وعلينا أن نتذكَّرها جيداً لنفهم الأحداث اللاحقة. . . . لنفهم حرب صفين، وواقعة كربلاء، وما حدَثَ بعد واقعة كربلاء عندما وصل أسارى أهل البيت عليهم السلام إلى الشَّام.

في مثل هذه الظروف، استلمَ الإمام علي عليه السلام الخلافة: فقدان عدد كبير من الصَّحابة لشحنتهم المعنوية وطاقتهم الحرارية، نشوء جيل جديد غير ناضج لم يتلقَّ تربية روحية، وواقع مليئ بالتشتُّت والفوضى والاختلاف.

قبل أن نبدأ بسَرد وتحليل الأحداث التي وقعت في عهد الإمام علي عليه السلام، نقف وقفة سريعة مع التحوُّلات التي وقعت في تركيبةِ فئة وجهاء المهاجرين، التي كان بيدِها زمام الأمور بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم نأخُذ فكرة عامة عن وضع الأمصار الكبرى آنذاك.

وجهاء المهاجرين...أين هم؟

إذا استقرأنا أسماء الشَّخصيات المهمة والمؤثرة في فئة وجهاء المهاجرين، نلاحظ ما يلي:

---

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت** عليهم السلام. ص 140.

(2) المصدر السابق، ص234 - 235.

(3) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص46.

■ أبو بكر: توفي

■ عمر: اغتيل

■ أبو عبيدة بن الجراح: مات في الشَّام بالطاعون

■ عثمان: قُتِلَ على يدِ ثوار العراق ومصر

■ عبد الرحمن بن عوف: ماتَ غضباناً على عثمان موصياً بأن لا يُصلِّي عليه

■ سعد بن أبي وقاص: اعتزلَ العمل السِّياسي رغم إصرار ابنه عمر[1] على دخول حلبة المنافسة للوصول إلى السُّلطة

■ طلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوام: فتحَ عمر شهيَّتَهُما للخلافة عندما أدرَجَهُما في الشُّورى السُّداسية.

■ أمُّ المؤمنين عائشة: تدخُل على الخط لترجيح موقف طلحة والزُّبير، وتُشكِّل معهما تحالفاً يُمثِّل مصالح قريش.

نلاحظ من ذلك أنَّ الأسماء الكبيرة - كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعبد الرحمن وسعد - لم يعد لها وجود اجتماعي. وهذا الحال فسح في المجال لاسمي «طلحة» و«الزُّبير» للتداول كاسمين مُرشحين للخلافة كبديلين لعثمان. طبعاً بالإضافة إلى الإمام علي عليه السلام.

كما سنلاحظ بدء دخول أسماء الطَّبقة الثانية من أبناء وجهاء المهاجرين على السَّاحة، ممن لا يملِكون ما يملِك آباؤهم من رصيدٍ تاريخي، ومن أبرزهم: «عبد الله بن عمر»: الذي اعتزل العمَل السياسي، لكن سيظل اسمُهُ مطروحاً للتداول، بل سيطرُحُه أبو موسى الأشعري بالفعل كبديلٍ للإمام علي عليه السلام عند التَّحكيم، و«عبد الله بن الزُّبير»: الذي سيكونُ لهُ دورٌ تحريضي أساسي في حربِ الجمل ثم بعد ذلك في منافسةِ يزيد على السُّلطة، بالإضافة إلى «محمد بن طلحة»: لكنهُ قُتِلَ مع والدِهِ في معركة الجمل، و«عبد الرحمن بن أبي بكر»: لكن مشكلتَهُ أنه شهِدَ بدراً وأحداً مع الكُفَّار، وتأخَّرَ في دخولِ الإسلام إلى صُلح الحديبية. وشاركَ مع أُختِهِ عائشة في معركة الجمل، ودفعت عائشة باسمِهِ للخلافة عندما وجدَت معاوية يُرشِّح يزيد للخلافة، إلا أنهُ مات - كما سنرى - قُبيل موت معاوية بطريقة مريبة.

أما على مستوى بني هاشم فنلحظ بدء دخول اسم الإمام «الحسن بن علي عليه السلام»

(1) وعمر بن سعد بن أبي وقاص سيكون قائد جيش عبيد الله بن زياد الذي قاتل الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء، وهنا نرصد أول اندفاعة لعمر بن سعد نحو السُّلطة من خلال الدفع بوالده لدخول حلبة المنافسة على السُّلطة.

والإمام «الحسين بن علي عليه السلام» بقوة على السَّاحة، كامتداد طبيعي لأبيهما الإمام علي عليه السلام، بل أيضاً كامتداد لجدِّهما رسول الله صلى الله عليه وآله.

الوضع في الأمصار الكبرى

من المفيد أيضاً أن نتعرَّف على وضع الأمصار الكبرى عشيَّة استلام الإمام علي عليه السلام الخلافة، وأهم الأمصار آنذاك في الحجاز: مكة والمدينة، وفي العراق: البصرة والكوفة، بالإضافة إلى الشَّام ومصر واليمن.

1. الوضع في المدينة ومكة: كانت تسود الحجاز حالة فوضى مع وجود ثوار العراق ومصر، خصوصاً بعد مقتل عثمان، عندما تدفق الثُّوار والصَّحابة لمبايعة الإمام علي عليه السلام، وتخلَّف بعضهم عن ذلك، كعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وحسَّان بن ثابت ومحمد بن مسلمة. واقترح المغيرة بن شعبة وابن عباس إبقاء عُمَّال عثمان - أو معاوية على الأقل - بُرهة من الزَّمن إلى أن يستتب له الأمر، إلا أنَّ الإمام علياً عليه السلام رفض هذا الاقتراح. وقام عليه السلام بترك الحِجاز عند بلوغهِ خبر خروج طلحة والزُّبير إلى البصرة، وأمَّرَ على المدينة سهل بن حنيف، كما أمَّرَ على مكة قُثم بن العباس.

والحجاز - بالمناسبة - فقيرة من حيث المال والجُند، في مقابل غنى العراق بالمال والجُند. فالجُند بعد قيامهم بفتح فارس، استقرُّوا بالبصرة والكوفة، وكانت إيرادات بيت المال في هذين المصرين مرتفعة جداً. لذا عندما فكَّر طلحة والزبير في الانقلاب على الإمام علي عليه السلام خرجا إلى البصرة، وعندما أراد الإمام علي عليه السلام مواجهتهما خرج إلى العراق.

2. الوضع في البصرة والكوفة: ولى الإمام علي عليه السلام على البصرة عثمان بن حُنيف، فبايع له الجمهور وقالت طائفة: لا نُبايع حتى نقتُل قتلةَ عثمان. وولى على الكوفة عمَّار بن شهاب، فصدَّهُ طلحة بن خويلد غضباً لعثمان، فرجعَ إلى الإمام علي عليه السلام، ثم كتبَ أبو موسى الأشعري - الذي كان والياً على الكوفة من قِبَل عثمان - بمبايعة أهل الكوفة إلا القليل منهم.

3. الوضع في الشَّام: كان مستقرَّاً تماماً لمعاوية، لكنه عليه السلام رغم ذلك ولى عليها: سهل بن حُنيف الذي عادَ بعد أن تلقَّتهُ خيل معاوية، ثم أمَّرَهُ الإمام علي عليه السلام على المدينة كما أشرنا.

ولمعرفة وضع الشَّام علينا أن نتذكَّر كلمة معاوية: «إنَّ بالشَّام مئة ألف فارس، كلٌّ يأخُذ العطاء، مع مثلِهم من أبنائِهم وعبدانِهم، لا يعرفونَ عليَّاً ولا قرابتَهُ، ولا عمَّاراً ولا

سابقتَهُ، ولا الزُّبير ولا صحابتَهُ، ولا طلحة ولا هِجرَتَهُ، ولا يهابونَ ابنَ عوفٍ ولا مالَهُ، ولا يتَّقونَ سعداً ولا دعوتَهُ»[1].

4. الوضع في مصر: كان عمرو بن العاص والياً عليها ثمَّ عزلَهُ عثمان، وبعد مقتلِهِ ولَّى الإمام علي عليه السلام على مصر قيس بن سعد بن عبادة، فبايع له الجمهور وقالت طائفة من أهل خربتا[2]: لا نُبايع حتى نقتُل قتلةَ عثمان. حاول معاوية استمالةَ قيس، لكن عندما فشل أشاع ميلَهُ له، وتذكُر بعض الأخبار أنَّ الإمام علياً عليه السلام بدأ يشُكُّ في وضع قيس. في المقابل تعاطى قيس مع أهل خربتا بطريقةٍ عزَّزت شكوك الإمام علي عليه السلام فيه، وعندما طلب الإمام علي عليه السلام من قيس محاربة أهل خربتا، لم يسعه الاستجابة لذلك، وطلب من الإمام علي عليه السلام عزلَهُ، فعزلَهُ عليه السلام [3] وعيَّنَ مكانَهُ محمد بن أبي بكر، ثم بعد ظهور نتيجة التَّحكيم خرجت الأمور في مصر عن السَّيطرة[4]، فاضطرَّ الإمام علي عليه السلام لعزل محمد وتعيين مالك الأشتر على مصر. وبعد شهادة مالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر، خرجَت مصر على سُلطة الإمام علي عليه السلام، وصارت تحت سيطرة معاوية.

5. الوضع في اليمن: ولى الإمام علي عليه السلام على اليمن عبيد الله بن عباس، وظلَّ الأمر مستقراً فيها إلى ما بعد حرب صفين وظهور نتيجة التَّحكيم وبدء غارات معاوية، وسيصل إليها بُسر بن أرطاة بأوامر من معاوية، ليأخذ البيعة له من أهلها، والذي سيرتكب مجازر مروِّعة بحقِّ شيعة علي عليه السلام أدمَت قلب الإمام علي عليه السلام قبل أن يدمي أشقى الأولين والآخرين رأسَهُ عليه السلام.

ونلحظ في ذلك أنَّ الوضع في الحجاز واليمن ومصر كان مُستتباً تقريباً للإمام علي عليه السلام، بل حتى وضع العراق كان مُستتباً له عليه السلام قبل وصول طلحة والزُّبير إليها، بخلاف الشَّام التي كانت خارجة على السَّيطرة ابتداء.

كما نلحظ أنَّ الإمام علياً عليه السلام قام بتولية الأنصار وبني هاشم، وهما الفئتان اللتان

---

(1) ابن قتنبة، الإمامة والسياسة، ص46.

(2) قرية بمركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة في مصر.

(3) وسنرى كيف أن قيساً بعد أن ذهب إلى المدينة عاتباً (وشمت به حسان بن ثابت) التحق بعد ذلك مع سهل بن حنيف - والي علي عليه السلام على المدينة - بعلي عليه السلام في صفين وكانت له مواقف مشهودة، وسنرى مواقفه أيضاً مع الحسن عليه السلام.

(4) في ذلك يقول عليه السلام: «وقد أردتُ توليةَ مصر هاشم بن عتبة (المرقال، لكنه استشهد في صفين)، ولو وليته إياها لما خلى لهم العرصة، ولا أنهزهم الفرصة، بلا ذم لمحمد بن أبي بكر، ولقد كان لي حبيباً، وكان لي ربيباً». نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (68)، ص98.

حُرِمتا من المناصب العليا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.. . فسَهلُ بن حُنيف الأنصاري على المدينة، وقُثم بن العباس على مكة، وعُثمانُ بن حُنيف الأنصاري على البصرة، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مصر، وعبيدُ الله بن عباس على اليمن، ثم عبد الله بن عباس على البصرة بعد الجمل.

علي عليه السلام حاكماً: (35–40 هج)[1]

قلنا فيما سبق إنَّ الجمهور الهائج المحتجّ على عثمان، القادم من الكوفة ومصر، لم يكن يعرف الإمام علياً عليه السلام حقَّ المعرفة. لم يكن يُنظر إليه إلا بوصفِهِ ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأقربَ الناس إليه. صحابيٌّ جليل، لم تلوِّثه الدنيا بزخارفها - كما لوَّثت كثيراً من الصَّحابة - كانوا ينظرون إليه على أنه بديل ملائم لعثمان، متفهِّم لمشاعرهم، ومتحسِّس لآلامهم ومظلوميتِهم. لم يكن يُنظر إليهِ على أنَّهُ المنصوب من قبل الله ورسوله صلى الله عليه وآله، بل ربَّما لم يُنظر إليه حتى كمرشَّح مُنافس لأبي بكر وعمر[2]. لقد كانت مشكلتهم مع عثمان، والزُّمرة الملتفَّة حوله، ولم يكن همُّهم إلا إزاحة هذا الكابوس الذي جثَمَ على صُدُورِهم.

بمجرد أن انتهى الجمهور الهائج من تصفية عثمان، هجموا على دار الإمام علي عليه السلام يطالبونَه بقبول البيعة. ويصف الإمام علي عليه السلام هذا الموقف بقوله:

«فتداكُّوا (= تزاحموا) عليَّ تداكَّ الإبل الهيم (= العطاش) يومَ ورودِها (= شربها

---

(1) مدة حكمه أقل من خمس سنوات بأشهر. ويروي ابن عساكر في تاريخ دمشق عن العباس بن هشام عن أبي قال: بويع علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بالمدينة يوم الجمعة حين قتل عثمان، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فاستقبل المحرم سنة ست وثلاثين (أنظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج3، ص97).

(2) فمثلاً سأل أهل الكوفة علياً عليه السلام أن ينصب لهم إماماً يصلي بهم نافلة شهر رمضان (= التراويح)، فزجرهم، وعرَّفهم أن ذلك خلاف السُّنة، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدَّموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام، فدخل المسجد ومعه الدرَّة، فلما رأوه تبادروا الأبواب وصاحوا: وا عمراه (راجع: نهج الحق وكشف الصدق، 289 - 290). وأيضاً عن علي عليه السلام: «قد عملَت الولاةُ قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسولَ الله صلى الله عليه وآله متعمدين لخلافه، ناقضين لعهده، مغيرين لسنته، ولو حملتُ الناسَ على تركها، وحوَّلتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرق عني جندي، حتى أبقى وحدي، أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله. . .» (راجع: الكليني، **روضة الكافي**، تعليق محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، ط2، 1417هج - 1997م، بيروت، ج8، ص63، حديث 21، أيضاً 8، ص56، حديث 21).

الماء)، وقد أرسلَها راعيها، وخُلِعت مثانيها (= انفلتَ حبلُها التي تُعقل به)، حتى ظننتُ أنهم قاتلي، أو بعضهم قاتلُ بعضٍ لديّ»[1].

إنه لموقفٌ مخيفٌ حقاً: جمهور هائج، يموجُ غضباً، يتطايرُ شرراً، إلى درجة أن علياً عليه السلام ظنَّ أنَّ الشَّرَر قد يطالُهُ شخصياً. ويصف الموقف في خطبة الشَّقشقيَّة:

«فما راعني إلا والناس - كعُرف الضَّبُع (= ما كثر على عنق الضَّبع من الشَّعر كناية عن كثرة الازدحام) - يَنثالونَ (= يتتابعون مزدحمين) عليَّ من كلِّ جانب، حتى لقد وُطِىءَ الحَسَنان، وشُقَّ عطفاي، مجتمعينَ حولي كربيضة الغنم»[2].

ماذا كان موقف الإمام علي عليه السلام؟ لقد رفضَ البيعة، وقال لهم:

«دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبِلون أمراً له وجوهٌ وألوان، لا تقومُ له القلوب، ولا تثبُت عليهِ العقول. وإنَّ الآفاقَ قد أغامت، والمحجةَ قد تنكَّرت، واعلموا أنِّي إن أجَبتُكم ركَبتُ بكم ما أعلَم، ولم أُصغِ إلى قولِ القائل وعتبِ العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدِكم، ولعلِّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولَّيتموهُ أمرَكُم، وأنا لكم وزيراً، خيرٌ لكم مني أميراً»[3].

لاحظ.. أنَّهُ عليه السلام يؤكد على أنَّ قبول البيعة - إن تمَّ - فهو مشروطٌ بأن يقرِّر ما يُمليهِ عليه ضميرُهُ، وما يراهُ صواباً، ولن يتأخَّر في اتخاذ القرارات المصيرية عند رأي هذا أو ذاك، لأنَّ الوضع لم يعُد يتحمَّل أي تأخير، ولن تكون تلك القرارات إلا بمثابة إنقاذ ما يمكن انقاذُهُ. فإن قبِلتُم الشَّرطَ فهو، وإلا اتركوني وسأكون أطوعكم لمن وليتموهُ أمركم.

وينقل ابن قتيبة أنَّ علياً عليه السلام رفض بيعة الجماهير الغاضبة، على أساس أنَّهم ليسوا من أهل الحلِّ والعقد، قائلاً لهم: «ليسَ ذلك لكم، إنما هو لأهل الشُّورى وأهل بدر، فمن رضيَ به أهل الشُّورى وأهل بدر فهو الخليفة، فنجتمع وننظُر في هذا الأمر»، فانصرفوا عنه، وكلَّم بعضُهُم بعضاً، فقالوا: «يمضي قتلُ عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعونَ بقتلِهِ، ولا يسمعونَ أنَّهُ بُويِعَ لأحدٍ بعده، فيثورُ كلُّ رجُلٍ منهم في ناحية، فلا نأمن أن يكونَ في ذلك الفساد، فارجعوا إلى عليٍّ، فلا تتركوهُ حتى يبايع»[4].

وبعد إصرارٍ شديدٍ من الجماهير، وبعد أن اجتمع كبار الصَّحابة في المسجد، بايع

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (54)، ص90 - 91.
(2) المصدر السابق، رقم (3)، ص49.
(3) المصدر السابق، رقم (92)، ص136.
(4) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص65 - 66.

الناس الإمام علي عليه السلام، «وكان أوّل من صعد المنبر طلحة[1]، فبايعه، وكانت أصابعهُ شلاء، فتطيَّرَ منها علي عليه السلام، فقال: ما أخلَقَها أن تنكُث، ثم بايعهُ الزُّبير وسعد، وأصحاب النبي - صلى الله عليه وآله - جميعاً»[2].

ما أُريدُ التأكيد عليه هو المشروعيَّة التامَّة لبيعة الإمام علي عليه السلام، التي لم تشُبها أيُّ شائبة، بل لعلَّها أكثرُ البيعات شعبيَّة، حيث أجمع عليها الغالبيَّة السَّاحقة من الصَّحابة وعامَّة الناس.

لقد كان الإمام علي عليه السلام واضحاً صريحاً، وهو يستشرِفُ المستقبل، مُدركاً للتحدِّيات التي ستواجهُ أصحابَهُ، فقد قال عندما بويع: «ألا وإنَّ بليتكم قد عادَت كهيئَتِها يومَ بعثَ اللهُ نبيَّهُ صلى الله عليه وآله، والذي بعثَهُ بالحقِّ، لتُبَلبَلُنَّ (= لتخلطن) بلبَلة، ولتُغَربَلُنَّ (= لتُميَّزُنَّ كما يُميَّز الدَّقيق عند الغربلة من نخالته) غربَلة، ولتُسَاطُنَّ سوطَ القِدر (= كما يُجعل شيئان في قِدرٍ ثم يُضربان بقوة ليختلطا)، حتى يعود أسفَلُكُم أعلاكم، وأعلاكُم أسفَلَكُم، وليسبقَنَّ سابقون كانوا قصروا، ليُقصِرنَ سباقون كانوا سبقوا. واللهِ ما كتَمتُ وشمةً (= كلمة)، ولا كذَبتُ كِذبة، ولقد نُبِّئتُ بهذا المقام وهذا اليوم»[3].

نعم، لقد أخبرَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذا المقام، فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، بطرق متعدِّدة، والحاكم في مستدركه، واللفظ للأول، عن أبي سعيد الخدري قال: خرجَ إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد انقطع شسعُ نعلِهِ، فدَفَعها إلى علي عليه السلام يُصلِحُها، ثم جلسَ وجلسنا حولَهُ كأنَّما على رؤوسِنا الطَّير، فقال: إنَّ منكم من يُقاتلُ على تأويلِ القرآن كما قاتلتُ على تنزيلِهِ، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسولَ الله؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو يا رسولَ الله؟ قال: لا ولكنَّهُ خاصِفُ النعل. قال: فأتينا علياً عليه السلام نُبشِّرهُ بذلك، فكأنَّهُ لم يرفَع بهِ رأسَهُ، كأنَّهُ قد سمعَهُ قبل[4].

---

(1) طلحة بن عبيد الله التيمي، آخى الرسول صلى الله عليه وآله بينه وبين الزبير بمكة قبل الهجرة، وبعد الهجرة آخى بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، لم يشهد بدراً وشهد أحداً وقيل أنه وقى الرسول صلى الله عليه وآله بنفسه واتقى عنه النبل بيده حتى شلت أصابعه.

(2) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص66.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (16)، ص57.

(4) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج3، ص132 - 133، الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ح4621، ص149 - 150.

نصيحة المغيرة بن شعبة للإمام علي عليه السلام

كتب المسعودي أنَّ ابن عباس قال: قدمتُ من مكّة بعد مقتل عثمان بخمسٍ ليال، فجئتُ عليّاً عليه السلام أدخُل عليه، فقيلَ لي: عندَهُ المغيرة بن شعبة، فجلستُ بالبابِ ساعة، فخرجَ المغيرة. . .ودخلتُ على عليٍّ عليه السلام وسلّمتُ عليه. . .فقلتُ: أخبِرني عن شأنِ المغيرة ولِمَ خلا بك؟

قال عليه السلام: جاءَني بعدَ مقتل عثمان بيومين، فقال: أخلِني (= أريد أن أجلس معك في خلوة)، ففعلت، فقال: إنَّ النُّصحَ رخيص، وأنتَ بقيَّةُ الناس، وأنا لك ناصِح، وأنا أشيرُ عليكَ أن لا تردَّ عمَّالَ عثمان عامَكَ هذا، فاكتُب إليهم بإثباتِهم على أعمالِهم، فإذا بايعوا لكَ واطمأنَّ أمرُك، عزلتَ من أحببت، وأقرَرت من أحببت. فقلتُ له: واللهِ لا أداهِنُ في ديني، ولا أُعطي الرِّياءَ في أمري. قال: فإن كُنتَ قد أبَيت، فانزَع من شِئتَ واترُك معاوية، فإنَّ لهُ جراءة وهو في أهل الشَّام مسموعٌ منه، ولكَ حجةٌ في إثباتِهِ، فقد كان عُمَر ولاَّهُ الشَّامَ كلَّها. فقلتُ له: لا واللهِ لا أستعمِل معاوية يومين أبداً. فخرجَ من عندي على ما أشارَ بهِ. ثم عادَ فقال: إنِّي أشرتُ عليكَ بما أشرتُ بهِ، وأبيتَ عليَّ، فنظَرتُ في الأمر، وإذا أنتَ مصيبٌ، لا ينبغي أن تأخُذ أمرَك بخُدعةٍ، ولا يكونُ فيهِ دِلسَة.

قالَ ابنُ عباس: فقلتُ له: أما أوَّل ما أشارَ بهِ عليك فقد نصحَك، وأما الآخِر فقد غشَّك. وأنا أُشيرُ عليكَ أن تُثبِّت معاوية، فإن بايعَ لك فعليَّ أن أقلعهُ من منزلِهِ.

قال عليه السلام: لا والله، لا أعطيه إلا السَّيف[1].

رفض الإمام علي عليه السلام لنصيحة المغيرة وابن عباس جعل المحقّقين في التاريخ يختلفون في تقدير الموقف الصائب. . .فبينما ذهب بعضهم إلى صواب موقف المغيرة وابن عباس وصحة تقديرهما للأمور، ذهب آخرون إلى صواب موقف الإمام علي عليه السلام وتقديره للأمور.

كتب العقّاد: «تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة، وذلك ما عملَ به الإمام وارتضاه. . . . فأيُّهما على خطأ وأيُّهما على صواب؟

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص352 - 353. أقول: من الآن فصاعداً سوف يبتعد المغيرة بن شعبة عن دائرة الأحداث، ولن يشهد الجمل ولا صفين. . لكن سيعود بقوة إلى واجهة الأحداث بعد استتباب الأمر لمعاوية.

سبيلُ العِلم بذلك أن نعلَم أولاً: هل كان الإمام مستطيعاً أن يقرّ معاوية في عملِهِ بالشَّام؟ وأن نعلَم بعد هذا: هل كان إقرارُهُ أدنى إلى السَّلامة والوِفاق لو أنَّه يستطيع؟

وعندنا أنَّ الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقرّ معاوية في عملِهِ لسببين:

أوَّلُهما أنَّه أشارَ على عثمان بعزلِهِ أكثر من مرَّة، وكان إقرارُهُ وإقرارُ أمثالِهِ من الولاة المستغلِّين أهم المآخِذ على حكومة عثمان، في رأيِ علي وذوي الصَّلاح والاستقامة بين الصَّحابة، وكثيراً ما اعتذرَ عثمان من إقرار معاوية بأنَّه من ولاة عُمَر بن الخطاب. . .فكان علي لا يقبل هذا العُذر، ولا يزال يقولُ له: «إنَّه كانَ أخوف لعُمَر بن الخطاب من غلامِهِ يرفأ. . .ولكنه بعد موتِ عُمَر لا يخاف».

فإذا أقرَّهُ وقد وليَ الخِلافة، فكيف يقع هذا الإقرارُ عندَ أشياعِهِ؟ ألا يقولون إنَّه طالِبُ حُكم لا يعنيه إذا وصلَ إلى بُغيتِهِ ما كان يقول وما سيقولُهُ الناس؟ وإذا هو أعرضَ عن رأيِهِ الأوَّل، فهل في وسعِهِ أن يُعرِض عن آراءِ الثائرين الذين بايعوهُ بالخِلافة لتغيير الحال والخروج من حُكمِ عثمان إلى حُكمٍ جديد؟

. . . . وندع هذا، ونزعُم أنَّ إقرار معاوية بحيلةٍ من الحِيَل مُستطاع. . .فهل هو على هذا الزَّعم أسلم وأدنى إلى الوِفاق؟

كلا. . .على الأرجح، بل على الرُّجحان الذي هو في حُكمِ التحقيق. .لأنَّ معاوية لم يعمَل في الشَّام عمَلَ والٍ يظلُّ والياً طوال حياتهِ، ويقنع بهذا النَّصيب ثم لا يتطاول إلى ما ورائه، ولكنَّهُ عمَلَ فيها عمَلَ صاحبُ الدَّولة التي يؤسِّسُها ويدعمُها له ولأبنائهِ من بعدِهِ. .فجمعَ الأقطابَ من حولِهِ، واشترى الأنصارَ بكلِّ ثمنٍ في يديه، وأحاطَ نفسَهُ بالقوةِ والثَّروة، واستعدَّ للبقاءِ الطَّويل، واغتنامِ الفرصة في حينِها. .فأيّ فرصة هو واجِدُها خيرٌ من مقتلِ عثمان والمطالبة بثأرهِ؟

. . . . وإذا كانَ هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان علي مستفيداً من إقرارِهِ في عمَلِهِ وتعريضِ نفسِهِ لغضبِ أنصارِهِ؟ لقد كان معاوية أحرى أن يستفيدَ بهذا من عليّ، لأنَّهُ يغنَمُ بهِ حُسنَ الشَّهادة لهُ وتزكيةً لهُ في الولاية، وكان يغنَمُ بهِ أن يُفسِدَ الأمرَ على علي بين أنصارِهِ، فتعلو حُجَّتُهُ من حيثُ تسقُطُ حجَّةُ الإمام»[1].

علي عليه السلام وإجراءاته العاجلة

باشر الإمام علي عليه السلام بإجراءِ تحقيقٍ فوري في مقتل عثمان؛ فقد جاء عليه السلام بنفسِهِ

(1) عباس محمود العقاد، **عبقرية الإمام علي عليه السلام**، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص95 - 96.

إلى نائلة امرأة عثمان، وسألها عما إذا كانت تعرف قتلة عثمان، فقالت له: لا أدري، دخلَ عليهِ رجالٌ لا أعرِفُهم، إلا أن أرى وجوهَهم، وكان معهم محمَّد بن أبي بكر، فدعا الإمام علي عليه السلام محمَّداً، فسألَهُ عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمَّد: صدَقَت، قد واللهِ دخلتُ عليه، فذكرَ لي أبي، فقُمتُ عنهُ، وأنا تائبٌ إلى اللهِ، واللهِ ما قتلتُهُ، ولا أمسَكتُه، فقالت: صدَق[1].

نذكرُ هذا حتى يتَّضِح أنَّ الإمام علياً عليه السلام لم يتوانَ في البحث عن قتلةِ عثمان، لكن من الواضح أنَّ من طبيعة حالات الهيَجان الشَّعبي - خصوصاً إذا كانت تُعبِّر عن حالةٍ من الانفجار العفوي - أن يقوم بعضهم بتصرُّفات لا واعية، فتجِدهُم بعد أن يتفرَّقوا، كلٌّ يلقي بالمسؤولية على غيره، ولا يُعرَف الجاني الحقيقي. لا نقول هذا لتبرير تصرُّف الجماهير الغاضبة، وإنَّما نصفُ حالة نفسية تعيشها الجماهير الغاضبة عادة، حالة أشبه ما تكون بالغوغاء، الذين يصِفُهُم الإمام علي عليه السلام: «هم الذين إذا اجتمعوا غلَبوا، وإذا تفرَّقوا لم يُعرَفوا»[2].

مضافاً إلى ذلك أنَّ هدير الجماهير لم يكن يسمح لعاقلٍ أن يستعجل في مواجهته، وهم على ما هم عليهِ من الانفعالِ والغضب، فكان لا بُدَّ أن تهدأ الأمور قليلاً حتى يتسنَّى للخليفةِ الجديد التعرُّف على القتلة، وإنزال القِصاص العادل بهم.

إذن، الإمام علي عليه السلام استعجلَ إجراء التَّحقيق، لكن لم يستعجل القصاص. وحينما طالبَ بعضُ الصَّحابة علياً عليه السلام بمعاقبة قتلة عثمان أجابَهُم قائلاً: «يا إخوتاه، إني لستُ أجهَلُ ما تعلمون، ولكن كيفَ لي بقوةٍ والقومُ المجلِبونَ على حدِّ شوكتِهِم، يملِكونَنا ولا نملِكُهم! ها هُم هؤلاءِ قد ثارَت معَهُم عِبدانُكُم، والتفَّت إليهِم أعرابُكُم، وهم خِلاَلُكم يسومونَكُم ما شاؤوا، وهل ترونَ موضِعاً لقُدرةٍ على شيءٍ تُريدونَهُ؟ إنَّ هذا الأمرَ أمرُ جاهليةٍ، وإنَّ لهؤلاءِ القومِ مادةً (= امتدادات في العراق ومصر) .... فاصبِروا حتى يهدأَ الناس، وتقعَ القلوبُ مواقِعَها...»[3].

كما قام الإمام علي عليه السلام بتطهير جهاز الدَّولة، وعزَلَ وُلاة عثمان الذين سخَّروا مُقدَّرات المسلمين لمصالِحِهم الخاصَّة، وعزَلَ معاوية بن أبي سفيان، وأقصى الانتهازيين

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ص66.
(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الكلمات القصار، ص504.
(3) المصدر السابق، رقم (168)، ص243.

وأبعدَ الطامعين، وأمَّم الأموال المختلَسَة من بيت المال، ووضَعَ يدَهُ على القطائعِ التي أقطَعَها عثمان لذوي قُرباه، وكان يقول: «والله لو وجدتُهُ قد تُزُوِّج بهِ النِّساء، ومُلِكَ بهِ الإماء لرَدَدتُهُ»[1]، وعملَ على إعادة الهرَم المقلوب، فساوى في توزيعِ العَطاء، ولم يُفضِّل لا مهاجرين على أنصار، ولا هاشمياً على غير هاشمي، ولا عربياً على أعجمي، ولا عدنانياً على قحطاني، وتعاملَ مع وُلاتِهِ بحزم ومراقبة دؤوبة مستمرَّة، وفزعت قريش وأصابها الذُّهول، وأيقنت أنَّ مصالِحَها باتت مُهدَّدة.

وعندما عُوتِبَ على التَّسوية في العَطاء، كان عليه السلام يقول: «أتأمروني أن أطلُبَ النَّصرَ بالجَورِ فيمن وُلِّيتُ عليهِ؟! واللهِ ما أطورُ بهِ (= لا أحوم حول ذلك، يعني لا آمرُ به ولا أقاربه) ما سمَرَ سميرٌ (= مدى الدهر)، وما أمَّ نجمٌ في السَّماءِ نجماً (= طالما هناك قوانين فلكية تجبر نجماً على السَّير في مسار نجم آخر)! لو كانَ المالُ لي لسوَّيتُ بينَهُم، فكيفَ وإنَّما المالُ مالُ اللهِ. . . .»[2].

موقف الإمام علي عليه السلام من الممتنعين عن بيعته

امتنع عددٌ محدود من الصَّحابة عن مبايعة الإمام علي عليه السلام، أو طلبَ إعفاءه من الخروج في أيِّ حرب معه، فماذا كانَ موقف الإمام علي عليه السلام من أولئك الذين امتنعوا عن بيعته؟ أو لم يرغبوا في السَّير معه في حروبه؟ كيف تعاملَ معهم؟ هل أجبرَهُم على البيعة؟ هل حاربَهُم على رفضِهِم لبيعتِهِ؟ أم تركَهم وشأنَهم؟

ينقل ابن الأعثم في الفتوح أنَّ عمَّار بن ياسر أقبلَ إلى علي عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الناسَ قد بايعوكَ طائعين، غير كارهين، فلو بعثتَ إلى أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ليدخُلوا فيما دخلَ فيهِ الناس من المهاجرين والأنصار؟

فقال علي عليه السلام: إنه لا حاجةَ لنا فيمن لا يرغَب فينا.

فقال له الأشتر: يا أميرَ المؤمنين، إنَّنا وإن لم يكُن لنا في السَّابقة ما لهم، فإنهم ليسوا بشيءٍ أولى من أمورِ المسلمين منَّا، وهذه بيعةٌ عامة، الخارجُ منها طاعنٌ علينا، فلا تدَعهُم أو يُبايعوا، فإنَّ الناسَ إنَّما هم باللِّسان، وغداً بالسِّنان. . . .

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الكلمات القصار، خطبة 15، ص57.
(2) المصدر السابق، (126)، ص183.

فقال عليه السلام: يا مالِك حذّي ورأيي، فإني أعرَفُ بالناسِ منك[1].

إذن الصَّحابة الذين بايعوا الإمام علياً عليه السلام، بايعوهُ طائعين غير مكرهين، ومن امتنعَ منهم عن مبايعتِهِ لم يُكرهه عليه السلام على ذلك، ولم يستجب عليه السلام لضغوطِ أصحابهِ المُقرَّبين لإجبارِ الممتنعين.

الخلاصة: حلَّلنا في هذا الفصل وضع المسلمين لحظةَ مقتل عثمان واستلام الإمام علي عليه السلام الخلافة، وعرفنا أنَّ ما كان يحمِله أغلبُ الصَّحابة آنذاك لم يكن سوى شحنة أو طاقة تشبه الوعي في أعراضِها، لكنَّها مجرَّد شحنة معنوية وطاقة حرارية، وعرفنا أنَّ ثمةَ جيلاً جديداً غير ناضج كان قد نشأ، لم يحظَ حتى بتلك الشُّحنة والطاقة، وأنَّ وضع المسلمين كان يسودُهُ التشتُّت والاختلاف. كما تناولنا أفول نجم فئة وجهاء المهاجرين، ودخول الطَّبقة الثانية منهم السَّاحة. وتناولنا الوضع في الأمصار الكبرى، ثم أخيراً تحدَّثنا عن حُكم الإمام علي عليه السلام وملابسات بيعته، والإجراءات العاجلة التي اتَّخذها، وموقِفه من الممتنعين عن بيعته.

وعرفنا أنَّ عثمان بن عفان عندما قُتِلَ[2]، كانت أوضاعُ المسلمين تموجُ اضطراباً. فما كادَ الإمام علي عليه السلام يستلم زمام السُّلطة، وتتحقَّق له بيعة عامة، حتى اضطرَّ للدُّخول في ثلاث حروبٍ طاحنة متتالية في أقلِّ من خمس سنوات: حرب الجمل[3]، مع أولئكَ الذين بايعوهُ ثم نكثوا بيعتَهُ، بذريعةِ الطَّلب بدَمِ عثمان، ويأتي على رأس الناكثين طلحة بن عُبيد الله والزُّبير بن العوام وساقوا معهم أمّ المؤمنين عائشة. ثم حرب صفين[4] في مقابل

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1992، بيروت، ج1، ص83 - 84.

(2) الأرجح أن قتل عثمان كان في ذي الحجة 35هج.

(3) خرج علي عليه السلام من المدينة إلى البصرة آخر شهر ربيع الآخر 36هج، وكانت الواقعة بعد شهرين في جمادى الآخرة 36هج، ثم انتقل من البصرة إلى الكوفة في الشهر الذي يليه رجب 36هج..

(4) في 36هج بدأت المراسلات بين علي عليه السلام في الكوفة ومعاوية في الشام، أرسل عليه السلام خلالها جريراً إليه، وظل في الكوفة أربعة شهور على الأقل إلى شوال 36هج، حيث خرج في شوال 36هج باتجاه صفين، ووصل بعد ثلاثة أشهر في محرم الحرام من 37هج (استفاد من الأشهر الحرم في المسير إلى صفين)، ومع انقضاء هذا الشهر الحرام ودخول شهر صفر بدأت معركة صفين، واستمرت إلى ما بعد منتصف صفر... خلال هذه الفترة قتل عمار بن ياسر ووقعت ليلة الهرير ورفعت المصاحف، وفي النصف الثاني من صفر كتبت وثيقة التحكيم، وأعطي الحكمان مهلة إلى انسلاخ شهر رمضان من 37هج، يعني ستة إلى سبعة شهور كاملة، وعاد علي عليه السلام إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام، واجتمع =

معاوية بن أبي سفيان الذي سيطر على بلاد الشَّام ورفض مبايعةَ الإمام علي عليه السلام بذريعة الطَّلب بدَمِ عثمان. وأخيراً حرب النَّهروان[1] ضد الخوارج الذين ضغطوا على الإمام علي عليه السلام لوقفِ حرب صفين وقبول التَّحكيم ثم كفَّروهُ لقبولهِ التَّحكيم وحاولوا الضَّغطَ عليه مرةً أخرى لاستئنافِ الحرب ضد معاوية قبل انتهاء أمد الهُدنة.

لنبدأ أولاً بحرب الجمل.

= الحكمان بدومة الجندل (تقع وسط العراق والشام)، وقبل انقضاء سنة 37هج كانت ظاهرة الخوارج قد بدأت بالبروز.

(1) بدأت محاولات عليه السلام مع الخوارج في 37هج، وفي 38هج استفحلت ظاهرة الخوارج فحاربهم علي عليه السلام في هذه السنة في النهروان، وفي السنة نفسها قتل محمد بن أبي بكر في مصر، و39 - 40 هج كانت الأسوأ بالنسبة إلى علي عليه السلام، عندما أرسل معاوية جيوشه إلى أنبار العراق والحجاز واليمن، وكان علي عليه السلام خلال هاتين السنتين يحاول علاج مضاعفات حرب صفين، ويحرض أصحابه على استئناف الحرب ضد معاوية دون جدوى، وفي 40هج استشهد عليه السلام، فكانت مدة خلافته عليه السلام خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

(10)

إرهاصات حرب الجمل

في الفصل السابق، تحدَّثنا عن ظروف وملابسات استلام الإمام علي عليه السلام الخلافة، وقلنا إنَّه اضطرَّ لدخول ثلاث حروب طاحنة على التَّوالي في أقل من خمس سنوات. في هذا الفصل نريد أن نستعرض ملابسات وظروف حرب الجمل، وأسبابها، وبيان لسان حال كلّ من الناكثين (طلحة والزبير)، وبني أمية (كمعاوية ومروان)، بالإضافة إلى الإمام علي عليه السلام، وإرهاصات هذه الحرب.

حرب الجمل (36هج)

شبَّت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، عندما قامَ بعضهم بتحميلِ الإمام علي عليه السلام مسؤولية ما جرى، رغم الجهود الكبيرة التي بذَلها عليه السلام لتفادي وقوع الفتنة ومقتل الخليفة. وبدأ الذين اتَّهموهُ بذلك بتحريضِ الناس عليهِ عليه السلام والتمرُّد على خلافتهِ ونكث بيعتهِ، أملاً في انتزاعِ الحُكم منه، أو إلجائهِ إلى تقديم بعض التنازُلات. ومما ساعد على استجابةِ بعضهم لهذا التَّحريض، اتباع الإمام علي عليه السلام سياسة صارمة في توليةِ الإمارات.

لم نكث الناكثون البيعة؟

بايعَ طلحة والزُّبير علياً عليه السلام بشكلٍ واضحٍ لا لبسَ فيه، إذن لم نكثا البيعة؟

جذور نكث البيعة تجدها في الشُّورى السُّداسية التي أرسى دعائمها عُمَر، حتى أنَّ معاوية بن أبي سفيان كان يُصرِّح بأنَّ الشُّورى السُّداسية هي أشدّ منعطفات الانحراف أثراً في تشتيت أمر المسلمين، فقد نقل ابن عبد ربّه في «العقد الفريد»:

إنَّ معاوية قال لابن حصين: أخبرني، ما الذي شتَّتَ أمرَ المسلمين، وفرَّق أهواءَهُم، وخالفَ بينهم؟

قال: نعم، قتلُ الناسِ عثمانَ.

قال معاوية: ما صنعتَ شيئاً (أي لم تعط الإجابة الصحيحة والتَّحليل الدَّقيق).

قال: فمسيرُ عليٍّ إليكَ وقتالُهُ إياك.

قال معاوية: ما صنعتَ شيئاً.

قال: فمسيرُ طلحةَ والزبير وعائشة وقتالُ عليٍّ إياهم.

قال معاوية: ما صنعتَ شيئاً.

قال: ما عندي غير هذا يا أميرَ المؤمنين.

قال معاوية: فأنا أُخبرُكَ، إنه لم يُشتِّت بينَ المسلمين، ولا فرَّقَ أهواءَهُم، ولا خالفَ بينَهُم، إلا الشُّورى التي جعلَها عُمَر إلى ستَّة نفر... فلم يكن رجلٌ منهم إلا رَجاها لنفسهِ، ورجاها لقومهِ، وتطلَّعت إلى ذلك نفسُهُ، ولو أنَّ عمرَ استخلفَ عليهم كما استخلفَ أبو بكر ما كانَ في ذلك اختلاف[1].

يعني لو أنَّ عمر استخلف عثمان مباشرة، دون أن يُدخِل المسلمين في حيرة ودوَّامة الشُّورى السُّداسية، لوصلت الخلافة بسلاسة إلى بني أمية، وانتقلت من عثمان إليَّ دون أي تعقيدات. لكن ما أطلق طموح طلحة والزُّبير للتطلُّع للخلافة، وفسح في المجال للأخذ والردّ وعقَّد الأمور علينا، هي الشُّورى التي شكَّلها عمر قبيل وفاته.

والسببُ المباشر لنكث الناكثين للبيعة تجِدهُ في نصٍّ ينقله ابن قتيبة، يقول فيه: «إنَّ الزُّبير وطلحة أتيا عليّاً عليه السلام بعد فراغ البيعة، فقالا: هل تدري على ما بايعناك؟... بايعناك على أنَّا شريكاك في الأمر

فقال علي عليه السلام: لا، ولكنَّكُما شريكان في القولِ والاستقامة، والعون على العجز والأود...

وكان الزُّبير لا يشُكُّ في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلما استبانَ لهما أنَّ علياً عليه السلام غير موليهما شيئاً، أظهرا الشّكاة.

فتكلَّم الزُّبير في ملأ من قريش، فقال: هذا جزاؤُنا من عليّ، قُمنا له في أمرِ عثمان، حتى أثبتنا عليه الذَّنب، وسبَّبنا له القتل، وهو جالسٌ في بيتهِ وكُفِيَ الأمر، فلما نالَ بنا ما أراد، جعل دونَنا غيرنا.

فقال طلحة: ما اللَّومُ إلا أنَّا كنا ثلاثة من أهل الشُّورى، كرِهَهُ أحدُنا وبايعناه، وأعطيناهُ ما في أيدينا، ومنَعنا ما في يدهِ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا»[2].

---

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص281.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص70 - 71.

إذن، كان طلحة والزُّبير يأملان أن يستعملهما الإمام علي عليه السلام على اليمن والعراق، وأن يُشاركاه في صُنع القرار، ويكون الإمام علي عليه السلام واجهة لهما وواجهة لقريش، وحينما تبيَّن لهما أنَّهُ لن يفعل، نكثا البيعة. ولم يكتفيا بذلك، بل ألَّبا الناسَ عليه، وهاجرا بصُحبة عائشة إلى البصرة، وحرَّضا أهلَها على قتالهِ.

ويبدو أنَّهما بادئ الأمر لم ينكُثا البيعة عَلَناً ، وإنَّما عتبا على الإمام علي عليه السلام لترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بغيرهما، وكان جوابه لهما: «لقد نقمتُما يسيراً، وأرجأتُما كثيراً، ألا تُخبِراني أيُّ شيءٍ كانَ لكُما فيه حقٌّ دفعتُكُما عنهُ؟ أم أيُّ قسم استأثرتُ عليكُما بهِ؟ أم أيُّ حقٍّ رفعه إليَّ أحدٌ من المسلمين ضَعُفتُ عنهُ، أم جَهِلتُهُ، أم أخطأتُ بابَهُ؟ واللهِ ما كانت لي في الخلافةِ رغبة، ولا في الولايةِ إربة، ولكنَّكُم دعوتُموني إليها، وحمَلتُموني عليها، فلما أفضَت إليَّ نظرتُ إلى كتابِ اللهِ وما وضعَ لنا، وأمَرَنا بالحُكمِ به فاتَّبعتُهُ، وما استنَّ النبي صلى الله عليه وآله فاقتديتُهُ، فلم أحتج في ذلك إلى رأيِكُما، ولا رأيِ غيرِكُما، ولا وقعَ حكمٌ جهلتُهُ، فأستشيرَكُما وإخواني من المسلمين، ولو كانَ ذلك لم أرغَب عنكُما، ولا عن غيرِكُما... فليسَ لكما واللهِ عندي ولا لغيرِكُما في هذا عُتبى. أخذَ اللهُ بقلوبِنا وقلوبِكم إلى الحقّ، وألهَمَنا وإياكُم الصَّبر»[1].

وعندما نصحَ ابنُ عباس علياً عليه السلام، في أن يستعمِلهُما على البصرة والكوفة، لاسترضائِهما، أجابه عليه السلام: «لولا ما ظهرَ لي من حرصِهما على الولاية، لكانَ لي فيهما رأي»[2].

لقد فكَّر طلحة والزُّبير في مبرِّر لخروجِهما من المدينة، ليُهيِّئا نفسيهما للخطوة التالية، فأتيا علياً عليه السلام فقالا: يا أميرَ المؤمنين، ائذن لنا في العُمرة، فإن تقُم إلى انقضائِها رجعنا إليك، وإن تسِر تبعناك، فنظرَ إليهما علي عليه السلام، وقال: نعم، والله ما العمرةَ تريدان، وإنَّما تُريدان أن تمضيا إلى شأنِكُما (أي لديكما أجندة خاصة تريدان تنفيذها)، فمضيا[3].

بعد ذلك خرجا إلى مكة، ومنها إلى البصرة يُحرِّضان أهلَها على الإمام علي عليه السلام، ويعدَّان العدَّة للحرب، تحت مبرِّر الطَّلب بدمِ عثمان، وأعانتهما على ذلك عائشة. وقد أشرنا من قبل إلى أنَّهما - بالإضافة إلى عائشة - كانا من أشدِّ الناس تحريضاً على عثمان!![4]

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، رقم (205)، ص321.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص71.

(3) المصدر السابق، ص71.

(4) كتب ابن أبي الحديد: «قالوا: أول من سمى عثمان «نعثلاً» عائشة، والنعثل: الكثير شعر اللحية =

لقد كانت حُجَّة الناكثين واهية، وعندما حاول الزُّبير - مثلاً - تبرير بيعته للإمام علي عليه السلام، بأنه بايَعَ بيدِهِ، ولم يُبايع بقلبِهِ! أجاب عليه السلام: «يزعُم أنه قد بايعَ بيدِهِ، ولم يُبايع بقلبِهِ، فقد أقرَّ بالبيعة، وادَّعى الوليجة، فليأتِ عليها بأمرٍ يُعرَف، وإلا فليدخُل فيما خرجَ منه»[1].

هذا فيما يتعلق بطلحة والزُّبير.

أما بالنسبة إلى أمِّ المؤمنين عائشة، فيذكر اليعقوبي في تاريخهِ أنَّ السببَ في وقوفها مع الناكثين أنَّ علياً عليه السلام نقصَها مما كان يُعطيها عمر بن الخطاب، وصيَّرها أسوة بغيرها من نساءِ رسول الله صلى الله عليه وآله[2]. وهذا يعني أنَّ الإمام علياً عليه السلام بعد وصولهِ إلى السُّلطة، حرَمَ عائشة من المزايا التي كانت تتمتَّع بها، تماماً كما حرَمَ قريش من تلك المزايا، فتضرَّرَت مصالحها.

هذا طبعاً بالإضافة إلى مشاعر سلبيَّة خاصَّة كانت تحمِلها تجاهَ الإمام علي عليه السلام، وفي ذلك يقول عليه السلام: «وأما فُلانة فأدرَكَها رأيُ النِّساء، وضِغنٌ غلى في صدرِها كمِرجَل القَين (= قِدر الحداد)، ولو دُعيَت لتنالَ من غيري ما أتت إليَّ لم تفعل، ولها بعدُ حرمتُها الأولى، والحسابُ على اللهِ تعالى»[3].

قرَّر الإمام علي عليه السلام أن يَصبِرَ على ناكثي بيعتِهِ، ما دام لم يؤثر ذلك في وحدة المسلمين. وقد أكَّدَ ذلك بقوله: «إنَّ هؤلاء قد تمالؤوا (= اتفقوا وتعاونوا) على سخطةِ (= بغض وكراهة) إمارتي، وسأصبِر ما لم أخَف على جماعَتِكُم، فإنَّهم إن تمَّموا على فيالة (= ضعف) هذا الرأي، انقطعَ نظامُ المسلمين، وإنما طلبوا هذهِ الدُّنيا حسَداً لمن أفاءَها اللهُ عليه، فأرادوا ردَّ الأمور على أدبارِها، ولكن علينا العمل بكتابِ الله تعالى، وسيرةِ رسول الله صلى الله عليه وآله والقيام بحقِّهِ، والنَّعشُ (= الرفع) لسنَّتِهِ»[4].

= والجسد، وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً.... قال: وروي من طرق مختلفة أنَّ عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة، قالت: «أبعده الله! ذلك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد». ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص131 - 132.

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (8)، ص54.

(2) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص175. عندما تحدَّثنا عن طريقة عمر في توزيع العطاء أشرنا في الهامش إلى تفضيل عمر لعائشة على بقية أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله في العطاء، وذكرنا هناك المصادر المتعلقة بهذه النقطة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر تشير إلى أن عثمان كان هو الذي أنقصها مما كان يعطيها عمر، لذا نقمت وحرَّضت عليه.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (156)، ص218.

(4) المصدر السابق، رقم (169)، ص244.

معاوية يدخُل على الخط

من جانب آخر، تحدَّث بعض المؤرِّخين عن رسالةٍ تحريضية أرسلها معاوية إلى الزُّبير ابن العوام يقولُ فيها:

«لعبدِ الله الزُّبير أمير المؤمنين! من معاوية بن أبي سفيان. . .سلامٌ عليك، أما بعد، فإني قد بايَعتُ لكَ أهلَ الشَّام، فأجابوا واستوسَقوا كما يستوسِقُ الجَلَب، فدُونَك الكوفة والبصرة، لا يسبِقُكَ إليها ابنُ أبي طالب، فإنَّهُ لا شيءَ بعدَ هذينِ المِصرَين، وقد بايعتُ لطلحةَ بنِ عبيدِ الله من بعدِكَ، فأَظهِرا الطَّلبَ بدم عثمان، وادعوا الناسَ إلى ذلِكَ، وليكُن منكُما الجدّ والتَّشمير، أظفرَكُما الله، وخذلَ مناوِئَكُما»[1].

الآن، نريد استعراض لسان حال الناكثين وبني أمية والإمام علي عليه السلام. وأعني بـ«لسان الحال»، قراءتهم وموقفهم الذي نفهَمُهُ من ثنايا كلامِهِم وسلوكِهِم والظروف المحيطة بهم، والطريقة التي كانوا يفكرون بها.

لسان حال الناكثين وبني أمية والإمام علي عليه السلام

● الناكثون

لسان حال الناكثين هو كالتالي: صحيح أنَّنا حرَّضنا الناسَ ضد عثمان، لكن للضَّغط عليهِ، لا لقتلهِ. . .أردنا الضَّغطَ عليه ليتنحَّى عن الخلافةِ أو يُعيد زمام الأمور لقُريش بنحوٍ ما، بعدما تحيَّز كلياً لبني أمية، ولم نكُن نُقدِّر أنَّ الأمرَ يصِل إلى قتلهِ. نعم، لم نكُن نريد قتل عثمان، لكن حتى لو قُتِل، فلا بأسَ في ذلك، إن كان قتلُهُ هو الضَّريبة التي يتعيَّن دفعُها لعودةِ زمام الأمور لقريش. فعودةُ السُّلطة لقريش - كان بالنِّسبة إلينا - أولى من بقاءِ عثمان حيّاً.

ثم بعد قتلهِ، بايعنا عليّاً عليه السلام، وكُنَّا نترقَّب منه أن يُحجِّم بني أمية ويُعيد زمام الأمور لقُريش، من خلال تنصيبِنا في مناصبَ عُليا، لكنه لم يفعل.

صحيح أنَّهُ حجَّمَ بني أمية، لكنَّهُ في المقابل أضرَّ بمصالح وامتيازات قُريش الكبرى التي كانت تتمتَّع بها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على عهد الخليفة الأول والثاني. . . . وهذا الوضع غير مقبول، لأنَّهُ سيكونُ لمصلحة الثُّوار والأنصار والقحطانيين عموماً على حسابِ قُريش العدنانية.

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص142 - 143.

كان الخليفة الأول والثاني واجهة لقريش، ورفضنا بالأمس أن يكون عثمان واجهة لبني أمية دون قريش، وكنا نتمنّى اليوم أن يكون عليٌّ عليه السلام - كما كان الخليفة الأول والثاني - واجهة لقريش، لا أن يكونَ واجهة للمسلمين عموماً، فيُساوي بينهم في العطاء ويُصادر امتيازات قريش ومكتسباتها التي حقّقتها في عهد الأول والثاني..

إذن الحل بتكاتُف قريش لمواجهةِ الإمام علي عليه السلام.

● بنو أمية

لسان حال بني أمية هو التالي: قريش هي المتسبِّبة في مقتلِ عثمان، لأنّها لم تقبَل سُلطان بني أمية، وأرادت في المقابل أن تُعيد اتجاه البوصلة لمصلحتها، فحرَّضت جماهير العراق ومصر، وجرَّأت الأنصار والقحطانيين، على عثمان وبني أمية، فأفسدَت الأمرَ عليه، الأمر الذي أدّى لقتلهِ بطريقةٍ بشعة..... والطريقة التي قُتِلَ فيها عثمان نموذجية، لكي نستفيدَ منها في استثارةِ العواطف وخلطِ الأوراق.

لكن الوضع الآن لا يسمح باتِّهام قريش، خصوصاً أنَّ من تبقّى من وجهاء المهاجرين يُريدونَ مواجهةَ الإمام علي عليه السلام لإعادةِ السُّلطة لقريش، والخصم الحقيقي المشترك لقُريش عموماً وبني أمية بالخصوص هو علي عليه السلام، لأنَّ بقاء الوضع على ما هو عليه يعني نهاية سُلطان قريش وبني أمية على السَّواء، وبقاؤُهُ بيدِ علي عليه السلام وبنيهِ من بني هاشم.

إذن لندعم مرحلياً قريشاً في صراعِها ضدّ علي عليه السلام، ولننتظِر نتيجة المعركة (كما فعل معاوية). بل ليدَعم بعضُنا هذهِ الحرب ويُحارب في صفِّ قريش في الظاهر، وليطعَنها في الظَّهر (كما فعل مروان مع طلحة).

● الإمام علي عليه السلام

لسان حال الإمام علي عليه السلام هو التالي: رغم أنَّ قريشاً سلبَتني حقي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنّي لم أنكُث بيعة أيّ خليفة من الخُلفاء الثلاثة الأوائل. ومع أنَّ الخليفة الثالث تورَّطَ في تجاوزاتٍ كبيرة، مع ذلك، كنتُ أحاول أن أُقوِّم مسيرتَهُ لمصلحة الثُوَّار، دون أن أُحَرِّضَهم عليه، ودون أن أُشَجِّعَهُ على التمادي في ظُلمِهم. بخلاف قريش التي حاربت عُثمان وحرَّضت عليه، لأنَّهُ سلبَها سُلطانها ووضعَهُ بيدِ بني أمية.

وقريش بعد أن تورَّطَت في دمِ عثمان، تريدُ الآن أن تتنصَّل من المسؤولية، تريد أن

تُحمِّلني وتُحمِّل الثُوَّار مسؤولية قتل عثمان[1]. . . . هي في البداية بايعتني وكانت تترقَّب أن أُعيدَ إليها سُلطانَها، لكن عندما وجدت أنِّي أعدِل في العَطاء، ولا أسير في توزيعِ العطاء بسيرةِ الخليفة الثاني، ووجدت أنِّي نصَّبتُ الأنصارَ وبني هاشم ولاةً على الأمصار دونَها، قلبَت لي ظهرَ المِجَنّ، ونكثَت البيعة، وألَّبَت الناسَ عليَّ. وليس بمقدور الخصوم الإتيان بدليلٍ واحدٍ على تورُّطي في دَمِ عثمان، أو ارتكابي أيَّ عمل يستحقّ نكثَ البيعة.

إن كانوا غير مقتنعين بي كخليفة، إذن لم بايعوني أصلاً وأصرُّوا على بيعتي في الوقت الذي كنتُ أقولُ للناس: دعوني والتمِسُوا غيري؟ والآن ما داموا بايعوني، ألا تُلزِمُهُم تلك البيعة من الناحيةِ الشَّرعيةِ والأدبيةِ والأخلاقية؟

لماذا لا تُريدُ قريش أن تلتزم قواعد اللُّعبة التي اخترعَت قواعِدَها وفصَّلتها على مقاسِها؟ لم تلتزم بالأمس مفاد غدير خم! ولا تريد اليوم أن تلتزم أصول اللُّعبة التي هي أسست قواعِدَها. . . . ألا وهي البيعة بعد اجتماع شورى أهل الحل والعقد!

خروج الناكثين من الحجاز إلى العراق

اجتمع الناكثونَ بمكة، وهرَبَ مروان بن الحكم - مستشار عثمان الأول - من المدينةِ والتحقَ بهم في مكة. وحاولت عائشة استمالة بعض أمهات المؤمنين للخروجِ معها، وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبدُ الله بن عمر وطلبَ إليها أن تقعُد فقعدت[2]، وحاولت عائشة استمالةَ أمّ سلمة إلا أنَّها لم تُفلِح، بل سمعَت منها كلاماً قاسياً وصريحاً[3].

ثم لمَّا عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة، طلبوا لها بعيراً يحمِلُ هودَجَها، فجاءَهُم يعلى بن أمية (وهو الداعم المالي لحركة الناكثين) ببعيرِهِ المسمى «عسكراً»[4]، وسمعت عائشة في طريقِها نباح كلاب، فقالت: ما يقال لهذا الماء الذي نحن به؟

---

(1) يروي ابن عساكر في تاريخ دمشق عن يحيى بن عروة المرادي قال: سمعت علي بن أبي طالب قال: قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأنا أرى أني أحقُّ الناسِ بهذا الأمر، فاجتمع الناسُ على أبي بكر، فسمعتُ وأطعت. ثم إن أبا بكر حضر فكنتُ أرى أن لا يعدلها عني، فولى عمر، فسمعتُ وأطعت. ثم إن عمر أصيب، فظننتُ أنه لا يعدلها عني، فجعلها في ستة أنا أحدهم، فولاها عثمان، فسمعت وأطعت. ثم إن عثمان قتل، فجاؤني فبايعوني طائعين غير مكرهين، فوالله ما وجدتُ إلا السَّيف أو الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله (أنظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج3، ص101).

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج6، ص138.

(3) المصدر السابق، ص132 - 135.

(4) المصدر السابق، ص138.

قالوا: الحوأب.

قالت: إنا للهِ وإنا إليهِ راجعون، رُدُّوني رُدُّوني، فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول وعندَهُ نساؤُهُ: «أيتكُنَّ ينبحها كلابُ الحوأب»! (وفي رواية: «إياك يا حميراء أن تكونيها»)[1].

وعزمت على الرُّجوع، فأتاها (ابنُ أختها أسماء) عبد الله بن الزبير فقال: كذبَ من زعمَ أنَّ هذا الماء الحوأب[2]، وجاء بخمسين من بني عامر فشهِدوا وحلَفوا على صدقِ عبدالله[3].

وعندما بلغَ الإمام علياً عليه السلام خروج طلحة والزُّبير إلى البصرة لقتاله، قال: «قد كنتُ وما أُهدَّد بالحَرب، ولا أُرهَّب بالضَّرب، وأنا على ما قد وعدَني ربِّي من النَّصر. واللهِ ما استعجَلَ متجرِّداً (= كأنه سيف تجرَّد من غمده) للطَّلبِ بدمِ عثمان إلا خوفاً من أن يُطالب بدمِهِ، لأنهُ مظِنَّتُهُ، ولم يكُن في القومِ أحرَصُ عليهِ منهُ، فأرادَ أن يُغالِطَ بما أجلبَ فيه ليلتَبِسَ الأمرُ ويقعَ الشكُّ.

وواللهِ ما صنعَ في أمرِ عثمانَ واحدةً من ثلاث: لئن كانَ ابنُ عفانَ ظالماً - كما كان يزعُم - لقد كان ينبغي لهُ أن يؤازِرَ قاتليهِ، وأن يُنابِذَ (= يعارض ويقاتل) ناصريهِ. ولئن كانَ مظلوماً لقد كانَ ينبغي له أن يكونَ من المُنهنهينَ عنهُ (= الزاجرين عن إتيانه)، والمُعذِرينَ فيهِ (= من يسوق مبررات مقنعة لأفعاله). ولئن كانَ في شكٍّ من الخصلتينِ،

---

(1) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيّتكُنَّ تنبح عليها كلابُ الحوأب». أخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، ط4، بيروت، 1985، مج1، ح474، ص767 - 777، وأكّد الألباني في بحثٍ مفصل صحّة هذا الحديث، واستقصى مصادره. وأخرجه الحاكم هكذا: «كيف بإحداكن إذ نبحتها كلاب الحوأب»، أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، ح4613، ص146 - 147. كما أخرج الحاكم عن أم سلمة قالت: ذكر النبي صلى الله عليه وآله خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة، فقال: أنظري يا حميراء أن لا تكوني أنت، ثم التفت إلى عليّ فقال: إن وليتَ من أمرِها شيئاً فارفق بها»، أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، ح4610، ص145 - 146. راجع أيضاً بشأن طلب عائشة الرجوع عندما سمعت صوت كلاب الحوأب، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص475، أيضاً ص485 - 486.

(2) راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص475، أيضاً ص486.

(3) أنساب الأشراف: 224. وكتب ابن أبي الحديد: «فلفّق لها الزُّبير وطلحة خمسين أعرابياً، جعلا لهم جُعلاً، فحلفوا لها، وشهدوا أنَّ هذا الماء ليس بماء الحوأب، فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام، فسارت عائشة لوجهها»، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج5، ج9، ص179.

لقد كانَ ينبغي لهُ أن يعتَزِلَهُ ويركُدَ جانباً (= عن القاتلين والناصرين)، ويدعَ الناسَ معَهُ. فما فعلَ واحدةً من الثلاث، وجاءَ بأمرٍ لم يُعرَف بابُهُ، ولم تسلَم معاذِيرُهُ»[1].

وعندما وصل طلحة والزُّبير إلى البصرة، واجههما أهلُ البصرة بكُتُبِهما التَّحريضية التي كانوا قد كتبوها ضد عثمان، وكان من أولئك الذين واجهوهم عبد الله بن حكيم التَّميمي، وكان أهل البصرة يثيرون تساؤلاً محرجاً أمامهما: كنتما بالأمس تُحرِّضانا ضد عثمان، واليوم جئتما إلينا للطَّلبِ بدَمِهِ؟!

وذكر بعض المؤرِّخين أنَّ طلحة والزبير كتبا للصَّحابي عثمان بن حُنيف (والي الإمام علي عليه السلام على البصرة) أن أخلِ لنا دارَ الإمارة. ولما نزلا البصرة، قال عثمان: نعذرُ إليهما برَجُلين، فدعا عمران بن حصين - صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله - وأبا الأسود الدؤلي، فأرسلهما إليهما. ثم انتهى معهما - بعد وقوع مناوشات - إلى كتابةِ صُلح على أنَّ لعثمان بن حُنيف دارَ الإمارة والرَّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنَّ لطلحة والزُّبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة، ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق، حتى يَقدِم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام [2].

عند مسير الإمام علي عليه السلام من المدينة إلى البصرة، كان يستنهض - من خلال الرُّسُل والكُتُب - أهل الكوفة لمواجهة الناكثين، ويشرَح لهم بشكلٍ مضغوط وموجَز حقيقة ما جرى، لذا تجِدهُ عليه السلام يكتُب لهم: «أما بعد، فإني أُخبِرُكُم عن أمرِ عثمان، حتى يكونَ سمعُهُ كعَيانِهِ: إنَّ الناسَ طعنوا عليهِ، فكنتُ رَجُلاً من المهاجرين أُكثِرُ استعتابَهُ (= استرضاءَهُ) وأُقِلُ عِتابَهُ، وكان طلحةُ والزبيرُ أهونُ سيرِهِما فيهِ الوَجيف (= ضربٌ من سير الخيل والإبل سريع)، وأرفقُ حِدائِهِما (الحداء: زجل الإبل وسوقها) العَنيف، وكانَ من عائشةَ فيهِ فلتةُ غضَبٍ، فأُتيحَ لهُ قومٌ فقتلوهُ، وبايعني الناسُ غيرَ مستكرهينَ ولا مُجبرين، بل طائعينَ مُخيَّرين...»[3].

تدهور مفاجئ في الموقف

ثم وقع تدهور دراماتيكي عندما قام طلحة والزُّبير - بالاستعانة بمروان بن الحكم - بالهجوم في منتصفِ الليل على عثمان بن حُنيف - والي الإمام علي عليه السلام على البصرة -

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (174)، ص249 - 250.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص479 - 484، أيضاً ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج5، ج9، ص180 - 185.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (1)، ص363.

في جماعةٍ معهم، في ليلةٍ مظلمة، سوداء مطيرة، فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر، وقد سبَقهم عثمان بن حُنيف إليه، وأقيمت الصلاة، فتقدَّم عثمان ليُصلِّي بهم، فأخَّرَهُ أصحاب طلحة والزُّبير، وقدَّموا الزُّبير، فجاءت السَّبابجة (وهم الشُّرَط حرس بيت المال)، فأخرجوا الزُّبير، وقدَّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزُّبير، فقدَّموا الزُّبير وأخَّروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس أن تطلع، وصاح بهم أهلُ المسجد: ألا تتَّقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس! فغلب الزُّبير وصلَّى بالناس، فلما انصرفَ من صلاتهِ، صاحَ بأصحابهِ المتسلِّحين أن خُذُوا عثمان بن حُنيف[1].

يقول ابن قتيبة: فقتلوا أربعينَ رجلاً من الحَرَس، فخرجَ عثمان، فشدَّ عليه مروان فأسرَهُ، وقتلَ أصحابَهُ، فأخذَهُ مروان، فنتفَ لحيَتَهُ ورأسَهُ وحاجِبَهُ[2].

وأرسلت عائشة إلى الزُّبير أن أقتُل السَّبابجة فإنَّهُ قد بلغني ما صنعوا بك. يقول الرَّواي: فذَبَحُهم واللهِ الزُّبير كما يُذبَحُ الغَنَم، ولِيَ ذلك منهم عبد الله ابنه (لاحظ الدَّور السَّلبي لعبد الله بن الزبير)، وهم سبعونَ رجُلاً، وبقيت طائفة منهم مستمسكين ببيت المال، قالوا: لا ندفَعهُ إليكم حتى يَقدِم أمير المؤمنين، فسارَ إليهم الزُّبير في جيشٍ ليلاً، فأوقع بهم، وأخذ منهم خمسينَ أسيراً فقتَلَهُم صبراً.

قال أبو مخنف: حدَّثنا الصقعب بن زهير قال: كانت السَّبابجة من القتلى يومئذٍ أربعمائة رجُل، قال: فكان غدر طلحة والزُّبير بعثمان بن حنيف أوَّلَ غدرٍ في الإسلام، وكان السَّبابجة أوَّلَ قومٍ ضُرِبَت أعناقُهُم من المسلمين صبراً[3].

قال: وخيَّروا عثمان بن حُنيف بين أن يُقيمَ أو يلحَقَ بعلي عليه السلام، (وفي روايةٍ أخرى أنهم لم يتركوهُ إلا بعد أن أقسمَ بالله إن قتلوهُ ليضعنَّ أخوه سهل - والي الإمام علي عليه السلام على المدينة - السَّيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يُبقي أحداً منكم)[4]، فلحقَ عثمان بن حُنيف بعليٍّ عليه السلام، وقال له: فارقتُكَ شيخاً وجِئتُك أمرَد، فقال علي عليه السلام: إنا للهِ وإنا إليه راجعون، قالها ثلاثاً[5].

ولما بلغ الصَّحابي حكيم بن جبلة ما صنع القومُ بعثمان بن حُنيف، خرجَ في ثمانمائة

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج5، ج9، ص185.
(2) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص89.
(3) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج5، ج9، ص186.
(4) المصدر السابق، ص185.
(5) المصدر السابق، ص186.

من عبد القيس مُخالفاً لهم ومُنابذاً، فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جملٍ، فسُمِّيَ ذلك اليوم يوم «الجمل الأصغر»، ويوم الإمام علي عليه السلام يوم «الجمل الأكبر». وتجالدَ الفريقان بالسُّيوف، وكانت النتيجة أن استشهدَ حكيم بن جبلة وثلاثة أخوة له، بالإضافة إلى ثلاثمائة من عبد القيس[1]!

الإمام علي عليه السلام يخرج إلى العراق

لما سارَ الإمام علي عليه السلام إلى العراق، دخل على أمِّ سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله يودِّعها، فقالت: سِر في حفظِ الله وفي كنفِهِ، فواللهِ إنَّك لعلى الحقّ، والحقُّ معك، ولولا أنِّي أكرَهُ أن أعصيَ اللهَ ورسولَهُ، فإنَّهُ صلى الله عليه وآله أمرنا أن نقرَّ في بيوتِنا لسِرتُ معك، ولكن واللهِ لأُرسِلَنَّ معكَ من هو أفضلُ عندي وأعزُّ عليَّ من نفسي، ابني عمر[2].

وطلب عمَّار بن ياسر من الإمام علي عليه السلام أن يأتي ببعض الصَّحابة، ممن اعتزل الحياة العامة، ليُكلِّمهم ليخرُجوا معه للقتال، فأذِنَ عليه السلام له. فكلَّمَ عمَّارُ عبد الله بن عمر لكن دون جدوى، وكلَّمَ سعد بن أبي وقاص فأظهرَ الكلامَ القبيح، وكلَّم محمَّد بن مسلمة ولم يُفلِح في إقناعهِ، فانصرفَ عمَّار إلى علي عليه السلام، فقال له علي عليه السلام: دَع هؤلاء الرَّهط، أما ابنُ عمرٍ فضعيف، وأما سعد فحسود، وذنبي إلى محمَّد بن مسلمة أني قتلتُ أخاهُ يومَ خيبر، مرحب اليهودي[3].

لاحظ أنَّ اعتزال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص كان يصبُّ في مصلحة قريش. لأنَّ طلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر كانوا يُمثِّلون من تبقى من فئة وجهاء المهاجرين القرشيين، وبالتالي كانوا رأس حربة قريش التي واجهت عليّاً عليه السلام .... فسعدُ بن أبي وقاص (هو من السِّتة الذين رشَّحهُم عمر للخلافة) وعبدُ الله بن عمر (هو ابنُ الخليفة الثاني، وكان اسمُهُ مطروحاً للخلافة أيضاً، كما سنجد ذلك جليّاً في التَّحكيم) أيضاً يمثِّلون قريشاً. هذا فضلاً عن معاوية بن أبي سفيان (الأموي

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج5، ج9، ص186.

(2) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ح4611، ص146. قال الحاكم: هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(3) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص73. وفي السيرة الحلبية والمغازي للواقدي أنّ مرحب اليهودي قتل محمود بن مسلمة، فأراد محمد بن مسلمة أن يقتص لأخيه بأن يُعذِّب مرحب بأن يتركه حياً بعد تقطيع أطرافه ليذوق ما أذاقه أخاه حتى يموت على هذا الحال، لكن علياً عليه السلام بادر لقتل مرحب. فربَّما هذا هو مقصود علي عليه السلام بالمشاعر السلبية التي يحملها محمد بن مسلمة تجاه علي عليه السلام .... والله أعلم.

القرشي) الذي كان قد أرسل من الشَّام رسالة تحريضية للزُّبير يعلن فيها تأييده له ولطلحة.

لذا نستطيع أن نقول إنَّ قريشاً في الجمل حاربت عليّاً عليه السلام، إما مباشرة (ومثَّلها في ذلك طلحة والزُّبير وعائشة ومروان) أو تحريضاً (ومثَّلها في ذلك معاوية) أو اعتزالاً عن القتال (ومثَّلها في ذلك سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر).

ولما أُشيرَ عليه عليه السلام بألا يتبع طلحة والزُّبير ولا يرصد لهما القتال، بيَّن عليه السلام بأنه لا يُريد أن يفسح لهما في المجال لخداعهِ والغدر به، فقال: «واللهِ لا أكونُ كالضَّبُعِ: تنامُ على طولِ اللَّدم (= صوت الحجر أو العصا تضرب في الأرض ضرباً خفيفاً)، حتى يصِلَ طالِبُها، ويختِلَهَا راصِدُها، ولكنِّي أضرِبُ بالمقبلِ إلى الحقِّ المدبرَ عنهُ، وبالسامعِ المطيعِ العاصيَ المريبَ أبداً، حتى يأتي عليَّ يومي. فواللهِ ما زلتُ مدفوعاً عن حقِّي، مستأثَراً عليَّ، منذُ قبَضَ اللهُ نبيَّهُ صلى الله عليه وآله حتى يومِ الناسِ هذا»[1].

الآن، عندما وقع الغدر بالصَّحابي عثمان بن حنيف وطُرِدَ من البصرة، واستشهد الصَّحابي حكيم بن جبلة مع أصحابهِ في يوم الجمل الأصغر، كان الإمام علي عليه السلام في الطريق إلى العراق. عندئذ اضطرَّ عليه السلام للاستعداد لقتالِهم، وشرح الموقف لأصحابه بعد أن توجَّه إلى ربِّه قائلاً:

«.. **اللهمَّ إني أستعديكَ على قريش ومن أعانَهُم، فإنهم قطعوا رَحِمي، وصغَّروا عظيمَ منزِلَتي، وأجمعوا على منازعَتي أمراً هو لي...** فخرجوا يجرُّون حُرمةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله كما تُجرُّ الأمةُ عند شرائِها، متوجِّهينَ بها إلى البصرة، فحبسا نساءَهُما في بيوتِهما، وأبرزا حبيسَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله لهما ولغيرِهما، في جيشٍ ما منهُم رجلٌ إلا وقد أعطاني الطَّاعةَ، وسمحَ لي بالبيعةِ، طائعاً غيرَ مكره، فقدِموا على عاملي بها، وخُزَّانِ بيتِ مالِ المسلمين، وغيرِهِم من أهلِها، فقتلوا طائفةً صبراً (= بعد الأسر)، وطائفةً غدراً. فواللهِ لو لم يُصيبوا من المسلمينَ إلا رجُلاً واحداً، معتمدين (= قاصدين) لقتلهِ، بلا جُرمٍ جرَّهُ، لحلَّ لي قتلُ ذلكَ الجيشِ كله، إذ حضروهُ فلم يُنكروا، ولم يدفعوا عنهُ بلسانٍ ولا بيدٍ، دَع ما أنهُم قد قتلوا من المسلمينَ مثلَ العدَّةِ التي دخلوا بها عليهم»[2].

كانت الحسرةُ تملأُ قلبَهُ... لِمَ تكون عاقبة طلحة والزُّبير - وهما من السابقين إلى الإسلام - على هذا النحو؟ لِمَ التنازُع على السُّلطان؟ وما قيمة الخلافة إن فقدَ المرءُ دينَهُ

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (6)، ص53.

(2) المصدر السابق، رقم (172)، ص246 - 247.

عند الظفر بها؟ لذا عندما وصل إلى ذي قار، وهي منطقة تقع بين البصرة والكوفة، ودخل عليه ابنُ عباس. يقول ابنُ عباس، سألني عليه السلام قائلاً: ما قيمة هذه النعل؟

فقلت: لا قيمةَ لها.

فقال عليه السلام: والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتِكُم إلا أن أقيمَ حقاً أو أدفعَ باطلاً[1].

المضحك المبكي، أنَّ البصرة حينما صفَت لطلحة والزُّبير، بعد طرد ابن حُنيف، وقتل حكيم وأصحابه، اختلفا وتشاحَّا في الصلاة، وأرادَ كلّ منهما أن يؤمَّ الناس، ولم يهدأ الخلاف بينهما إلا عندما تدخَّلت عائشة كوسيط، بأن جعلت ابن أختها عبد الله بن الزُّبير إماماً على الناس[2]! (وفي رواية أنها اقترحت أن يصلي عبد الله بن الزبير ومحمد ابن طلحة بالناس، يوماً هذا، ويوماً ذاك).

لذا تجدُ علياً عليه السلام يقول وكأنَّ سريرة طلحة والزبير منكشفة أمام ناظريه كالشمس في رابعة النهار: «كلُّ واحدٍ منهُما يرجو الأمرَ لهُ، ويَعطِفُهُ عليهِ دونَ صاحبِهِ، لا يمُتَّانِ إلى اللهِ بحَبلٍ، لا يمُدَّانِ إليهِ بسَببٍ. كلُّ واحدٍ منهُما حامِلُ ضَبٍّ (= حقد) لصاحبِهِ، وعمَّا قليلٍ يُكشَفُ قِناعُهُ به! واللهِ لئن أصابوا الذي يُريدون لينتزِعَنَّ هذا نفسَ هذا، وليأتينَّ هذا على هذا...»[3].

واستغلَّ الناكثون صفو البصرة لهم، فقاموا بتشويهِ سُمعةِ الإمام علي عليه السلام عند أهلِها، حتى أقبلَ الأحنف بن قيس في جماعةٍ من قومهِ إلى الإمام علي عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ أهلَ البصرة يقولون بأنَّكَ إن ظفرتَ بهم غداً قتلتَ رِجالَهُم، وسبيتَ ذُرِّيَّتَهُم ونساءَهُم. فقال له الإمام علي عليه السلام: ليس مثلي من يُخافُ هذا منه، لأنَّ هذا ما لا يحلُّ إلا ممن تولى وكفَر، وأهلُ البصرة قومٌ مسلمون، وسترى كيف يكونُ أمري وأمرُهُم[4].

وعندما اقترب الإمام علي عليه السلام من البصرة، أرسلَ أهلُها كُليب الجَرمي ليعلَم منه حقيقة حالهِ مع أصحاب الجمل لتزول الشُّبهة من نفوسِهم، فبيَّن له عليه السلام من أمرِهِ معهم ما علم به أنَّهُ على الحق، ثم قال له عليه السلام: بايع.

فقال: إني رسولُ قومٍ ولا أُحدِثُ حدَثاً حتى أرجع إليهم.

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (33)، ص76.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص99.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (148)، ص206.

(4) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص106.

فقال عليه السلام: أرأيتَ لو أنَّ الذين بعثوكَ رائداً تبتغي لهم مساقِطَ الغيث، فرجعتَ إليهم وأخبرتَهم عن الكلأِ والماء، فخالفوا إلى المعاطِشِ والمجادِب، ما كنتَ صانعاً؟

قال: كنتُ تارِكَهُم ومخالِفَهم إلى الكلأِ والماء

فقال عليه السلام: فامدُد إذاً يدَك.

فقال الرَّجُل: فواللهِ ما استطعتُ أن أمتنعَ عندَ قيام الحجةِ عليَّ، فبايعتُهُ عليه السلام [1].

وروي أنَّ الحارث بن حَوط أتاهُ فقال: أتراني أظنُّ أصحابَ الجمل كانوا على ضلالة؟

فقال عليه السلام: يا حارث، إنك نظرتَ تحتَكَ ولم تنظُر فوقَكَ، فحِرتَ، إنَّك لم تعرِف الحقَّ فتعرِفَ من أتاهُ، ولم تعرِف الباطلَ فتعرفَ من أتاه.

فقال الحارث: فإني أعتزلُ مع سعيد بن مالك وعبد الله بن عمر، فقال عليه السلام: إنَّ سعيداً وعبد الله بن عمر لم ينصُرا الحقَّ، ولم يخذُلا الباطل[2].

الخلاصة: بدأنا اليوم بسرد أحداث حرب الإمام علي عليه السلام الأولى بعد استلامهِ الخلافة، أعني حرب الجمل، وحاولنا الإجابة عن السُّؤال: لم نكثَ الناكثون البيعة؟ وبيَّنا لسان حال كلّ من الناكثين وبني أمية والإمام علي عليه السلام، وبيَّنا مجريات خروج الناكثين إلى العراق، وخروج الإمام علي عليه السلام على أثرهم، ثم التدهور المفاجئ في الموقف عندما قام الناكثون بالهجوم على عثمان بن حنيف والاستيلاء على بيت مال المسلمين والسَّيطرة على البصرة.

وسنرى لاحقاً أنَّ هذه المعركة التي ستنتهي لمصلحة الإمام علي عليه السلام أدَّت إلى انكسار قريش، يُمثِّلها في ذلك من تبقى من فئة وجهاء المهاجرين. كما أدَّت إلى ارتياح معاوية في الشَّام من شوكة قريش، ولم يبق له إلا أن يجتاز عقبة الإمام علي عليه السلام فإن اجتازها استتبَّ الأمرُ له، وصارت الخلافة بيده، وأصبح بمقدوره أن يُمهِّد الطريق لابنه يزيد، حتى يعتلي السُّلطة، ويرتكب فاجعة كربلاء.

في الفصل القادم سنواصل استعراض مجريات حرب الجمل، وسنُبيِّن المحاولات التي قام بها الإمام علي عليه السلام لتفادي وقوع هذه الحرب.

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (170)، ص244 - 245.

(2) المصدر السابق، (262)، ص521.

(11)

حرب الجمل

في الفصل السابق تحدَّثنا عن إرهاصات حرب الجمل، وانتهينا إلى وصول الإمام علي عليه السلام إلى العراق، وبلوغه خبر غدر الناكثين بواليه على البصرة عثمان بن حُنيف، وقتلهم حُرَّاس بيت المال، واستيلائهم عليه، وسيطرتهم على البصرة.

الصِّلة بين الجمل وكربلاء

قد لا يبدو ثمة صلة مباشرة بين حرب الجمل وواقعة كربلاء، لكن الحقيقة أنَّ واقعة كربلاء لم تكن لتقع لولا وصول بني أمية إلى السُّلطة، وبنو أمية لم يكونوا ليصلوا إلى السُّلطة لولا انكسار فئة وجهاء المهاجرين، وفئة وجهاء المهاجرين لم يكونوا لينكسروا بقوة لولا حرب الجمل. والإمام علي عليه السلام حاول بشتى الطرق تفادي هذه الحرب، ليس تفادياً لإراقة دماء المسلمين فحسب، بل ربما للإبقاء أيضاً على توازن القوى. فبقدر ما تضعف فئة وجهاء المهاجرين سيخلو الجو لبني أمية ليكونوا هم الممثلين الجُدُد لقريش، والمدافعين عن مصالحها[1].

في هذا الفصل نريد مواصلة استعراض أحداث الجمل، مع إبراز أهم الخطوات والمحاولات التي قام بها الإمام علي عليه السلام لتفادي وقوع هذه الحرب، سواء قبل وقوع الغدر بواليه عثمان، أو بعد ذلك وقبل وقوع المعركة.

كما سنستعرض بعد ذلك، أخلاق الإمام علي عليه السلام في التعامل مع الطرف المهزوم في المعركة، يكشف فيها عن أريحية خاصة وروحية عالية وتحرُّر واضح من عقلية التشفِّي والانتقام.

---

(1) وهناك جوانب ربط أخرى بين معركة الجمل وواقعة كربلاء، منها التأثير النفسي لواقعة الجمل في أهل البصرة، الذي رسخ المزاج العام الذي لم يكن لمصلحة علي عليه السلام، لذا تجد أن تفاعل أهل البصرة مع حركة الحسين عليه السلام كان محدوداً.

محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي حرب الجمل

1. كتابه إلى طلحة والزُّبير: كتب الإمام علي عليه السلام لطلحة والزُّبير كتاباً قال فيه: أما بعد، فقد علِمتُما - وإن كتَمتُما - أنّي لم أُرِد الناسَ حتى أرادوني، ولم أُبايعهم حتى بايعوني، وإنَّكما ممن أرادَني وبايعني، وأنَّ العامة لم تُبايعني لسُلطانٍ غالب، ولا لعِرَضٍ حاضر. فإن كنتما قد بايعتما طائعين، فارجعا وتوبا إلى اللهِ من قريب، وإن كنتما بايعتماني كارهين، فقد جعلتما لي عليكما السبيلَ، بإظهارِكُما الطَّاعة، وإسرارِكُما المعصية. ولعمري ما كنتما بأحقِّ المهاجرين بالتَّقيةِ والكتمان، وإنَّ دفعَكُما هذا الأمر من قبلِ أن تدخُلا فيهِ، كان أوسعَ عليكُما من خروجِكُما منه، بعد إقرارِكُما به. وقد زعمتما أنّي قتلتُ عثمان، فبيني وبينكما من تخلَّف عني وعنكما من أهل المدينة، ثم يُلزَم كلُّ امرئ بقدر ما احتمل. فارجعا أيُّها الشيخان عن رأيكما، فإنَّ الآنَ أعظمَ أمرِكُما العار، من قبل أن يتجمَّع العارُ والنار، والسَّلام[1].

ولم يُجِب طلحة والزُّبير علياً عليه السلام عن كتابه بشيء، لكنهما بعثا إليه برسالة: إنك يا أبا الحسن، قد سِرتَ مسيراً له ما بعدَهُ، ولستَ براجعٍ وفي نفسِكَ منهُ حاجة، ولستَ راضياً دونَ أن ندخُل في طاعتِك، ونحن لا ندخُل في طاعتِكَ أبداً، واقضِ ما أنتَ قاض، والسَّلام[2].

2. كتابه عليه السلام إلى عائشة: ونقل ابن أعثم أنَّ الإمام علياً عليه السلام كتب لعائشة: أما بعد، فإنك قد خرَجتِ من بيتكِ عاصيةً للهِ تعالى، ولرسوله مِحمد صلى الله عليه وآله، تطلُبينَ أمراً كان عنكِ موضوعاً، ثم تزعُمينَ أنك تُريدينَ الإصلاحَ بين المسلمين، فأخبريني ما للنِّساءِ وقَودِ العساكرِ والإصلاح بين الناس؟ وطلبتِ - كما زعمتِ - بدَم عثمان، وعثمان رجلٌ من بني أمية، وأنت امرأةٌ من بني تيم بن مُرة، ولعمري إنَّ الذي عرَّضَكِ للبلاء، وحملَكِ على المعصية لأعظمُ ذنباً من قتلةِ عثمان. وما غضِبتِ حتى أُغضِبتِ، ولا هِجتِ حتى هُيِّجتِ، فاتَّقي اللهَ يا عائشة، وارجعي إلى منزلِكِ، واسبِلي عليكِ سِترَكِ، والسَّلام[3].

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 54، ص445 - 446، أيضاً مع فروق: ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص108 - 109. أنظر: **تمام نهج البلاغة**، تحقيق السيد صادق الموسوي، مؤسسة الإمام صاحب الزمان عليه السلام في مشهد، ط1، 1418هج، طهران، كتاب رقم 14، ص782 - 784 مع فروق.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص109. أنظر **تمام نهج البلاغة**، كتاب رقم 14، ص784 مع فروق.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص109.

3. **طلبه من ابنه الحسن عليه السلام أن يخطب في أهل البصرة لتوضيح حقيقة الأمر:** نقل ابن أعثم أنَّ عبد الله بن الزُّبير خطبَ في أهل البصرة، فقال: أيُّها الناس إنَّ عليَّ بن أبي طالب هو الذي قتلَ الخليفة عثمان بن عفان، ثم إنَّهُ الآن قد جاءَكُم ليبتزَّكُم أمرَكُم، فاغضَبوا لخليفتِكُم، وامنعوا حريمَكُم، وقاتلوا على أحسابِكُم.

وبلغَ علياً عليه السلام ما تكلم به عبد الله بن الزبير، فدعا ابنَهُ الحسن عليه السلام، وقال له: بلغني أنَّ ابنَ الزُّبير قد خطبَ الناس، وذكرَ لهم أنّي أنا الذي قتلتُ عثمان بن عفان، وزعم لهم أنّي أريدُ أن أبتزَّ الناسَ أمورَهُم، وقد بلغني أنه شتَمني، فقُم يا بني فاخطُب للناسِ خطبة موجزة، ولا تشتُمَنَّ أحداً من الناس[1].

4. **رسالة شفوية أرسلها عليه السلام لعائشة عن طريق زيد بن صوحان وعبد الله بن عباس:** نقل ابن أعثم أنَّ علياً عليه السلام دعا يزيد بن صوحان وعبد الله بن عباس فقال لهما: إمضيا إلى عائشة، فقولا لها: ألم يأمُركِ اللهُ تبارك وتعالى أن تقرّي في بيتِكِ، فخُدِعتِ وانخدَعتِ، واستُنفِرتِ فنفَرتِ؟ فاتقي اللهَ الذي إليهِ مرجِعُكِ ومعادكِ وتوبي إليه، فإنه يقبلُ التوبةَ من عباده، ولا تَحمِلَنَّكِ قرابة طلحة، وحبّ عبد الله بن الزُّبير على الأعمالِ التي تسعى بِكِ إلى النار.

فانطلقا إليها، وبلَّغاها رسالة علي عليه السلام، فقالت عائشة: ما أنا برادَّة عليكما شيئاً، فإنِّي أعلمُ أنّي لا طاقةَ لي بحُجَج عليِّ بن أبي طالب، فرجَعا إليهِ وأخبراهُ الخبر[2].

5. **رسالة شفوية أرسلها عليه السلام للزُّبير عن طريق عبد الله بن عباس:** ينقل الشَّريف الرَّضي في نهج البلاغة، أنَّ عليّاً عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزُّبير يستفيئُهُ إلى طاعتهِ قبل حرب الجمل، قال له: لا تَلقَينَّ طلحة، فإنَّكَ إن تلقَهُ تجِدهُ عاقِصاً قرنَهُ (= فاتِلاً ولاوياً شعره، كناية عن التغطرس والتكبُّر)، يركَبُ الصَّعبَ (= الدَّابة الجموح) ويقول: هو الذَّلول. ولكن اَلق الزُّبير، فإنهُ ألينُ عريكةً (= طبيعة وخُلُقاً)، فقُل له: يقولُ لكَ ابنُ خالِكَ: عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا (= ما الذي صرفك عما كان بدا وظهر منك؟)[3]؟!

وعندما فشلت المحاولات المتكرِّرة قبل القتال، كان عليه السلام يقول والألم يعتِصُر قلبه:

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص110.

(2) المصدر السابق، ص112.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (31)، ص74.

«واللهِ ما أنكروا عليَّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نِصفاً، وإنهم ليطلبون حَقاً هُم تركوه، ودماً هُم سفكوه، فإن كنتُ لهم شريكاً فيه، فإنَّ لهُم نصيبَهُم منه، وإن كانوا ولَّوهُ دوني، فما الطَّلِبَةُ إلا قِبَلهم. . .إنَّ معي لبصيرتي، ما لَبَستُ وما لُبِس عليَّ. . . . فأقبلتُم إليَّ إقبالَ العُوذِ (= جمع عائذة: النتاج من الظباء والإبل، أو كل أنثى) المطافيلِ (= جمع مُطفِل: ذات الطفل من الإنسِ والوحش) على أولادِها، تقولون: البيعةَ البيعة! قبضتُ كفِّي فبسطتُّموها، ونازعتُكم يدي فجاذَبتُمُوها، اللهم إنَّهما (= طلحة والزبير) قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألَّبا (= حرضا وجمَّعا) الناسَ عليَّ، فاحلُل ما عقدا، ولا تحكُم لهما ما أبرما، وأرِهما المساءةَ فيما أمَّلا وعملا، ولقد استثبتهما (= طلبت منهما العودة إلى البيعة) قبل القتال، واستأنيتُ بهما أمامَ الوِقاع، فغمطا(= جحدا) النِّعمة، وردَّا العافية»[1].

6. تذكيره عليه السلام للزُّبير قُبيل الحرب: اصطفَّ أصحابُ الإمام علي عليه السلام، وقال لهم: لا ترموا بسَهمٍ، ولا تطعنوا برُمحٍ، ولا تضرِبوا بسيفٍ. يقول اليعقوبي في تاريخه: عندما التقى الجيشانِ، أرسلَ إليهم عليٌ عليه السلام: ما تطلبون؟ وماذا تريدون؟ قالوا: نطلبُ بدمِ عثمان، قال علي عليه السلام: لعنَ اللهُ قتلةَ عثمان.

وينقل ابن أعثم أنَّ علياً عليه السلام وقفَ بين الصفين وعليهِ قميصٌ ورِدَاء، وعلى رأسهِ عمامةٌ سوداء، وهو يومئذٍ على بغلةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله الشَّهباء، ثم نادى بأعلى صوتهِ: أينَ الزُّبيرُ بنُ العوام، فليخرُج إليَّ.

فقال الناسُ: يا أميرَ المؤمنين أتخرُج إلى الزُّبيرِ وأنت حاسرٌ، وهو مُدجَّجٌ في الحديد؟

فقال عليه السلام: ليس عليَّ منهُ بأسٌ. فأمسَكوا.

ثم نادى عليه السلام الثانية: أينَ الزُّبيرُ بنُ العوام، فليخرُج إليَّ.

فخرجَ إليه الزُّبير، ونظرت عائشة فقالت: وا ثكلَ أسماء.

فقيل لها: يا أُمَّ المؤمنين ليسَ على الزُّبيرِ بأسٌ، فإنَّ علياً بلا سلاح.

ودنا الزُّبيرُ من علي عليه السلام. . . . فقال له علي عليه السلام: يا أبا عبد الله، ما حمَلَكَ على ما صنعتَ؟

فقال الزُّبير: حملني على ذلِكَ الطَّلبُ بدمِ عثمان.

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (137)، ص194 - 195.

فقال علي عليه السلام: أنت وأصحابُكَ قتلتموهُ (يعني قريش التي جاءت به هي التي حرَّضت على قتله)، فيجب عليكَ أن تقتد من نفسِك، ولكن أنشِدُكَ باللهِ الذي لا إله إلا هو، أما تذكُرُ يوماً قالَ لك رسولُ الله صلى الله عليه وآله: يا زبير أتحبُّ علياً؟ فقلتَ: يا رسولَ الله، وما يمنَعُني من حبهِ، وهو ابنُ خالي؟! فقالَ لكَ: أما إنك ستخرُجُ عليهِ يوماً وأنت ظالم؟

فقال الزبير: اللهم بلى قد كانَ ذلِكَ.

قال علي عليه السلام: فأنشِدُكَ الله الذي أنزلَ الفرقان، أما تذكُر يومَ جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من عندِ بني عمرو بن عوف، وأنتَ معهُ، وهو آخذٌ بيدِكَ، فاستقبلتُهُ أنا، فسلمَ علي، وضحِكَ في وجهي، وضحِكتُ أنا إليهِ، فقُلتَ أنت: لا يدَعُ ابنُ أبي طالب زهوَهُ أبداً، فقالَ لكَ النبي صلى الله عليه وآله: مهلاً يا زُبير، فليسَ بهِ زهوٌ، ولتَخرُجنَ عليهِ يوماً وأنتَ ظالمٌ له[1]؟

فقالَ الزُّبير: اللهم بلى، ولكن أُنسيتُ، فأما إذ ذكَّرتني ذلِكَ، فواللهِ لأنصرفنَّ عنكَ، ولو ذكرتُ هذا لما خرجتُ عليكَ.

ثم رجعَ الزُّبيرُ إلى عائشة، وهي واقفةٌ في هودَجِها، فقالت: ما وراءَكَ يا أبا عبد الله؟

فقال الزُّبير: ورائي، واللهِ ما وقفتُ موقفاً قط، ولا شهَدتُ مشهداً من شركٍ ولا إسلام إلا ولي فيهِ بصيرة، وإني اليومَ لعلى شكٍّ من أمري، وما أكادُ أبصرُ موضعَ قدَمي.

فقالت عائشة: لا واللهِ، ولكنكَ خفتَ سيوف ابن أبي طالب، أما إنها طوالٌ حدادٌ، تحمِلُها سواعدُ نجاد، ولئن خِفتَها لقد خافَها الرِّجالُ من قبلِك.

ثم أقبلَ عليهِ ابنُهُ عبد الله، فقال: لا واللهِ، ولكنك رأيتَ الموتَ الأحمر تحتَ راياتِ ابن أبي طالب.

فقالَ لهُ الزُّبير: واللهِ يا بني إنك لمشؤوم[2]، قد عرفتُك.

فقالَ عبدُ الله: ما أنا بمشؤوم، ولكنكَ فضحتنا في العربِ فضيحةً لا تغسِل منها رؤوسَنا أبداً[3].

---

(1) في مجال تذكير علي عليه السلام الزُّبير بما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه سيقاتله وهو له ظالم، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص519، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج2، ص99.

(2) في المصدر «ميشوم».

(3) لاحظ الدور التحريضي الخطير الذي كان يلعبه عبد الله بن الزبير، فقد كان حلقة الربط بين خالته عائشة وأبيه الزبير وخاله طلحة (ليست خؤولة حقيقية)، خصوصاً تأثيره في أبيه، حتى كان علي عليه السلام يقول: ما زال الزبير رجلاً منا أهلَ البيت حتى نشأ ابنُهُ المشؤوم عبد الله (راجع، نهج البلاغة، =

فغضِبَ الزُّبيرُ من ذلك، ثم صاحَ بفرسِهِ، وحمَلَ على أصحابِ علي عليه السلام حملةً مُنكرة، فقالَ علي عليه السلام: افرِجوا لهُ فإنهُ محرجٌ، فأوسعوا لهُ حتى شقَّ الصُّفوف وخرجَ منها، ثم رجعَ فشقَّها ثانية، ولم يطعَن أحداً ولم يضرِب، ثم رجعَ إلى ابنهِ فقال: يا بُني هذهِ حملةُ جبان؟!....

ثم خرجَ الزُّبير من عسكرِهم تائباً مما كانَ منهُ.. وصارَ إلى وادي السِّباع (على مقربة من البصرة)، رآهُ ابنُ جرموز نائماً، فوثبَ إليهِ وضربَهُ بسيفهِ، ثم أخذَ سيفَهُ واحتزَّ رأسَهُ، وجاءَ بهما إلى علي عليه السلام، فأخذَ علي عليه السلام سيفَ الزُّبير، فجعلَ يُقلبُهُ وهو يقول: إنهُ لسيفٌ طالما جلا الكروب عن وجهِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله...ثم أقبلَ على ابنِ جرموز وقالَ لهُ: ويحَكَ فإنّي سمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: بشِّر قاتل ابن صفية بالنَّار. فوثبَ عمرو بن جرموز من بين يديّ علي عليه السلام وهو يقول: لا واللهِ ما ندري أنُقاتِل معكُم أم عليكُم[1]؟

7. تذكيره عليه السلام لأهل الجمل بكتاب الله وخبر الفتى الذي حمل المصحف إليهم:

نقل المؤرِّخون أنَّ الإمام علياً عليه السلام دعا بالمصحف فأخذَهُ بيدهِ ثم قال: أيُّها الناس من يأخذ هذا المصحف فيدعو هؤلاء القوم إلى ما فيه.

فوثب غلامٌ من مجاشع، يُقال له مسلم، فقال: أنا آخُذهُ يا أمير المؤمنين.

= تحقيق صبحي الصالح، حكم أمير المؤمنين، (453)، ص555. في المقابل، لاحظ تأثير طلحة في ابنه محمد (وأمه حمنة بنت جحش اخت زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعدما قتل أبصره الحسن عليه السلام قتيلاً مكبوباً على وجهه، فرده على قفاه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا فرعُ قريش والله. فقال علي عليه السلام: من هو يا بني؟ قال: محمد بن طلحة، قال عليه السلام: إنا لله وإنا إليه راجعون، ان كان ما علمته لشاباً صالحاً، قتله برُهُ بأبيهِ (راجع **أسد الغابة**، 4/ 322). لاحظ المفارقة: عبد الله بن الزبير يضل أباه، وطلحة يضل ابنه محمداً!!

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص116 - 117. وفي هذه القصَّة دروس وعبر، تقشعرُّ منها الأبدان، منها - فيما يتعلق بالزُّبير - أنَّ تاريخ الإنسان الجهادي ليس ضمانة كافية لمستقبله، بل لا بد أن يظلَّ الإنسان مراقباً دقيقاً لمساره حتى لا ينحرف بالتدريج دون أن يدري، ويصل إلى نقطة لم يكن يتصوَّر أن يصل إليها أبداً. ومنها أنَّ أقرباء الإنسان قد يكونون هم الأعداء الحقيقيين له، فعدو الزُّبير الحقيقي لم يكن علياً عليه السلام، وإنما كان ابنه عبد الله. ومنها - فيما يتعلق بابن جرموز - أنَّ الاتباع الحقيقي للإمام يكون من خلال السَّير خلفه، والاقتداء به، لا تجاوزه والسَّير أمامه، من خلال التسرُّع باجتهادات خطيرة تؤدي بالإنسان إلى النَّار. فالائتمام بالإمام يعني أن لا يكف الإنسان عن مواصلة السَّير خلفه بوعي وبصيرة، ولا يعني إطلاق العنان للعواطف والحماسة الجوفاء والقيام بممارسات غير أخلاقية - كالغدر والخيانة - بدعوى دعم ومساندة القيادة.

فقال له علي عليه السلام: يا فتى إن يدَكَ اليُمنى تقطع فتأخذه باليُسرى فتقطع، ثم تُضرب عليه بالسَّيف حتى تُقتل.

فقال الفتى: لا صبرَ لي على ذلك.

فنادى عليه السلام الثانية والمصحف في يدهِ، فقامَ إليه ذلك الفتى، وقال: أنا آخُذهُ يا أمير المؤمنين، فهذا قليلٌ في ذاتِ الله.

ثم أخذ الفتى المصحف، وانطلق به إليهم، فقال: يا هؤلاء، هذا كتابُ اللهِ عزّ وجلّ بيننا وبينكم. فضربَ رجلٌ من أصحاب الجمل يدَهُ اليُمنى فقطعها، فأخذ المصحف بشمالهِ، فقُطِعَت، فاحتضنَ المصحف بصدرهِ، فضُرِبَ على صدرهِ حتى قُتِل، وأُمُّهُ تنظرُ إليه[1].

عندئذ قال علي عليه السلام: الآن حلَّ قِتالَهُم[2].

مقتل طلحة على يد مروان

يقول ابن الأعثم: وجعلَ (طلحة) يُنادي بأعلى صوتِهِ: عبادَ الله، الصَّبر الصَّبر، إنَّ بعدَ الصَّبر النصرَ والأجر.

فنظرَ إليهِ مروان بن الحكم، فقالَ لغُلامٍ له: ويلكَ يا غلام، واللهِ إني لأعلمُ أنه ما حرَّضَ على قتلِ عُثمانَ يومَ الدَّار أحدٌ كتحريضِ طلحة، ولا قتلَهُ سواه، ولكن استُرني (وأنت) حرٌّ.

فسترَهُ الغلام، ورمى مروان بسهمٍ مسموم لطلحة بن عبيد الله، فأصابَهُ بهِ، فسقطَ طلحة لما بهِ، وقد أُغميَ عليهِ، ثم أفاقَ. . . قال: يا سبحانَ الله، واللهِ ما رأيتُ كاليوم قط، ولا دمُ قرشيٍّ أضيَع، وما أظنُّ هذا السَّهم إلا سهماً أرسلَهُ الله، وكان أمرُ اللهِ قدراً مقدروا.

فلم يزل طلحة يقولُ ذلِكَ حتى فاتَ ومات. . . . ودخلَ من ذلكَ على أهلِ البصرة غمٌّ عظيم، وكذلكَ على عائشة لأنه ابنُ عمَّتِها[3].

عائشة تقود الجيش

وتولَّت عائشة قيادة الجيش بعد انسحاب الزُّبير وهلاك طلحة، وقد تفانى بنو ضِبة والأزد وبنو ناجية في حمايتِها. يقول ابن الأعثم: فاقتتل القومُ قتالاً شديداً لم يُسمَع

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص118.

(2) أنظر خبر الفتى حامل المصحف، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص521 - 522.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص124 - 125.

بمثلهِ، وصارَ الهودجُ الذي فيهِ عائشة كأنهُ القنفُذ مما فيهِ من النَّبلِ والسِّهام، وجعلت بنو ضِبة يأخذونَ بعرَ الجمل فيشُمونَهُ، ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: ألا ترون إلى بعرِ جمل أُمِّنا كأنَّهُ المِسك الأذفَر (= شديد الرائحة)[1].

وبارزَ عبدُ الله بن الزُّبير مالكَ الأشتر، واشتبكا اشتباكاً عنيفاً حتى كان عبد الله يصرخ: اقتلوني ومالكاً[2]. وكادَ مالكُ أن يقتُلَهُ ولكنه أفلتَ في اللحظةِ الأخيرة (وكان مالك بعد ذلك يقول: لولا أنِّي كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحتُ أمةَ محمد منه).

ورأى الإمام علي عليه السلام أنَّ الحربَ لا تنتهي ما دام الجمل موجوداً، فصاح بأصحابه: اعقروا الجمل، فرغا الجملُ رُغاءً شديداً. كان عليه السلام يرى في الجمل ما يشبه عِجل بني إسرائيل، فأحرقَه وذرَّ رمادَهُ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾[3].

نتائج ومضاعفات معركة الجمل

كان لهذه الحرب نتائج ومضاعفات خطيرة، من أهمِّها أنها أشاعت الفُرقة والاختلاف بين قبائل العراق، فصارت قبائل ربيعة واليمن في البصرة، تكُنُّ أعمق البغض والكراهية لإخوانهم من ربيعة وقبائل اليمن في الكوفة، وتطالبها بما أريق من دماء أبنائها. هذا الأمر سيُرسِّخ وجود مزاج لأهل البصرة مختلف عن مزاج أهل الكوفة.

وتتحدَّث بعض المصادر التاريخية عن عشرة آلاف قتيل، نصفهم من هذا الطرف، ونصفهم من الطرف الآخر!!! كما أنَّ هذه الحرب أسقطت هيبة الحُكم، وجرأت آخرين على الخروج عليه، واستباحت حُرمة العترة الطاهرة، وأعطت معاوية الفرصة لكي يظل مراقباً لنتيجة معركة، يصطرع فيها منافسوهُ على الخلافة. . . . وإن خرج معاوية على الحُكم الآن، أو استباح هو وابنُهُ يزيد حرمة العترة الطاهرة، فهناك من مارسَ ذلك قبلَهُ.

وبالنتيجة، قريش - بتحالُفِ بطونها الضَّعيفة - خرجت من حلبة الصِّراع مهزومة، وبقيَ في الواجهة الإمام علي عليه السلام ممثلاً لبني هاشم، ومعاوية ممثلاً لبني أمية. وهذا ما سينعكس بدوره على واقعة كربلاء بدون شك.

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص127 - 128.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص533.

(3) سورة طه، الآية: 97.

أخلاق الإمام علي عليه السلام مع الجيش المهزوم

نستهدف من استعراض بعض أخلاقيات الإمام علي عليه السلام مع الجيش المهزوم في معركة الجمل - وكذا سنفعل في معركة صفين - أن يقارن القارئ بين الطريقة الإنسانية الرَّفيعة التي تعامل بها الإمام علي عليه السلام مع خصومه، والطريقة غير الأخلاقية التي تعاملت بها قريش وبنو أمية مع أهل البيت عليهم السلام في كربلاء.

نقل ابن قتيبة أنَّ جمل عائشة بعد أن عرقب، انهزم الناس، وأُسِرت عائشة، وأُسِر مروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان (بن عفان)، وموسى بن طلحة (بن عبيد الله)، وعمرو ابن سعيد بن العاص. فقال عمَّار لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أقتل هؤلاء الأسرى؟

فقال علي عليه السلام: لا أقتُلُ أسير أهل القبلة إذا رجعَ ونزَع.

فدعا بموسى بن طلحة، فقال الناسُ: هذا أولُ قتيلٍ يُقتل، فلما أُتيَ بهِ علياً قال عليه السلام: تبايع وتدخل فيما دخل فيه الناس؟

قال: نعم، فبايع وبايع الجميع وخلَّى سبيلهم.

وسأل الناسُ علياً عليه السلام ما كان عرضَ عليهم قبل ذلك فأعطاه، ثم أمر المنادي فنادى: لا يُقتلنَّ مُدبِر، ولا يُجهَز على جريح، ولكم ما في عسكرِهم وعلى نسائِهم العدَّة، وما كان لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله.

فقامَ إليهِ رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، كيفَ تحِلُّ لنا أموالُهُم ولا تحِلُّ لنا نساؤُهم ولا أبناؤُهم؟

فقال: لا يحلُّ ذلكَ لكم.

فلما أكثروا عليه في ذلك، قال: اقترعوا، هاتوا بسِهامِكُم، ثم قال: أيُّكم يأخُذ أمَّكُم عائشة في سهمِهِ؟!

فقالوا: نستغفرُ الله.

فقال: وأنا أستغفرُ الله[1].

ثم إنَّ علياً عليه السلام - على ما ينقل ابن الأعثم - دعا ببغلةِ رسول الله صلى الله عليه وآله فاستوى عليها، وأقبل إلى منزل عائشة، ثم استأذنَ ودخل، فإذا عائشة جالسة وحولها نسوة من نساء أهل البصرة وهي تبكي، وهُنَّ يبكينَ معها. ونظرت صفية بنتُ الحارث الثقفية امرأة

(1) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص97 - 98.

عبد الله بن خلف الخزاعي إلى علي عليه السلام، فصاحَت هي ومن كانَ معها من النُّسوة، وقلنَ بأجمَعِهنَّ: يا قاتِلَ الأحبة، يا مُفرِّقَ الجمع، أيتمَ اللهُ منكَ بنيك، كما أيتمتَ وُلدَ عبد الله ابن خلف.

فنظرَ إليها عليٌّ عليه السلام فعرفها فقال: أما إنِّي لا ألومُكِ أن تبغضيني، وقد قتلتُ جدَّكِ في يومِ بدر، وقتلتُ عمَّكِ يومَ أحد، وقتلتُ زوجَكِ الآن، ولو كنتُ قاتِلَ الأحبة كما تقولين، لقتلتُ من في هذه البيت، ومن في هذه الدار. . . .

ثم أقبل على عائشة فجعل يُوبِّخها. . . وتشير بعض المصادر إلى أنَّ عائشة كانت ترغب في البقاء بالبصرة، إلا أنَّ الإمام علياً عليه السلام أصرَّ على عودتها إلى المدينة - ربما حتى لا تهيِّج عليه أهل البصرة مرة أخرى، خصوصاً مع وجود عدد كبير من الموتورين[1] فيها - فدعا عليه السلام بنسوة من نساء أهل البصرة، فأمرهُنَّ أن يخرُجنَّ مع عائشة إلى المدينة، فرحلَت عائشة من البصرة في أولئكَ النسوة، وقد كان عليٌّ عليه السلام أوصاهُنَّ وأمرهُنَّ أن يتزيَّنَ بزيِّ الرِّجال، عليهِمُ العمائم، فجعلت عائشة تقول في طريقِها: فعلَ بي عليٌّ وفعل، ثم وجهَ رجالاً يرُدُّوني إلى المدينة.

فسمعتها امرأة منهُنَّ، فحرَّكت بعيرَها حتى دنَت منها ثم قالت: ويحَكِ يا عائشة، أما كفاكَ ما فعلت حتى أنك الآن تقولين في أبي الحسن ما تقولين؟

ثم تقدَّمت النُّسوة، وسفرن عن وجوههنَّ، فاسترجعت عائشة واستغفرت. . .وصارت إلى منزلها نادمة على ما كان منها. . .وكانت إذا ذكرت يوم الجمل تبكي لذلك بُكاءً شديداً، ثم تقول: ليتني لم أشهد ذلك المشهد، يا ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة[2].

وكانت عائشة - بعد ذلك - تقول: وددتُ أني كنت ثكلت عشرة مثل الحارث بن هشام وأني لم أسِر مسيري مع ابن الزُّبير[3]. وتقول أيضاً: «لولا أنَّا لم نُغيِّر شيئاً إلا آلت الأمور إلى أشدّ مما كنا فيه»[4]. وتقصد بذلك: أنَّها حاولت تغيير الأمور في خلافة عثمان، فانتهى الأمر إلى مقتله واستيلاء الإمام علي عليه السلام على الخلافة، فقالت عندما علمت بذلك: «ليتَ السماءَ أطبقت على الأرضِ»، ثم أرادت تغيير الأمور فحاربت عليّاً عليه السلام، فانتهى الأمر إلى مقتل ابن عمِّها طلحة، وابنه، وزوج أختها الزُّبير، وانكسار شوكة قريش.

(1) الموتور: هو الذي قُتِلَ له قتيلٌ فلم يدرك بدمِهِ.
(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص131 - 134.
(3) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب معرفة الصحابة، ج3، ح4609، ص145.
(4) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص208.

مواقف بعد معركة الجمل

سرد بعض المواقف التي حدثت بعد معركة الجمل، قد يخرجنا عن هدفنا الرئيس - وهو دراسة خلفيات واقعة كربلاء - لكن أجد نفسي غير قادر على تجاهلها، لأهميتها في التعرُّف على شخصية الإمام علي عليه السلام وطريقة تفكيره وتعاطيه مع الأمور.

● لما أظفر الله تعالى عليّاً عليه السلام بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددتُ أنَّ أخي فُلاناً كانَ شاهَدَنا ليرى ما نصَرَكَ اللهُ بهِ على أعدائِك.

فقال له عليه السلام: أهوى أخيكَ معنا؟

فقال: نعم

فقال عليه السلام: فقد شهِدَنا، ولقد شهِدَنا في عسكَرِنا هذا أقوامٌ في أصلابِ الرِّجالِ وأرحام النِّساءِ، سيرَعَفُ (= يجود بهم من غير انتظار) بهِمُ الزَّمان، ويَقوَى بهمُ الإيمان[1]!

● قال أبو الأسود الدؤلي: لما ظهرَ علي عليه السلام يوم الجمل، دخلَ بيتَ المالِ بالبصرة في ناسٍ من المهاجرين والأنصار، وأنا معهم، فلما رأى كثرة ما فيه، قال: غُرِّي غَيري - مراراً - ثم نظرَ إلى المال، وصعَّد فيهِ بصرَهُ وصوَّب، وقال: أقسِموهُ بينَ أصحابي خمسمائة، فقُسِّمَ بينَهُم، فلا والذي بعثَ محمداً بالحقِّ ما نقصَ دِرهماً ولا زادَ دِرهماً، كأنهُ كانَ يعرِف مبلَغَهُ ومِقدارَهُ، وكانَ ستة آلاف ألف درهم (= 6 ملايين درهم) والناسُ اثنا عشر ألفاً.

وقال حبة العرني: قسَّم عليٌّ عليه السلام بيتَ مالِ البصرة على أصحابهِ، خمسُمائة خمسُمائة، وأخذ خمسمائة درهم كواحدٍ منهم، فجاءَهُ إنسانٌ لم يحضَر الوقعة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، كنتُ شاهداً معكَ بقلبي، وإن غابَ عنك جسمي، فأعطني من الفيء شيئاً، فدفعَ إليهِ الذي أخذَهُ لنفسهِ، وهو خمسمائة درهم، ولم يُصِب من الفيء شيئاً[2].

● لما أُخِذَ مروان بن الحكم أسيراً يومَ الجمل، استشفعَ الحسن والحسين عليهُما السَّلام إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام، فكلَّماهُ فيهِ، فخَلَّى سبيلَهُ، فقالا لهُ: يبايعُكَ يا أميرَ المؤمنين؟

فقال عليه السلام: أولم يُبايعني بعدَ قتلِ عثمان؟ لا حاجةِ لي في بيعتهِ، إنها كفٌّ يهودية،

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (12)، ص55.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج1، ج1، ص153.

لو بايعني بكفهِ لغدرَ بسُبَّتِهِ (= الإست، وهما مما يحرص الإنسان على إخفائه، وكنى به عن الغدر الخفي). أما إن له إمرة، كلَعقةِ الكلبِ أنفَهُ[1]، وهو أبو الأكبُشِ الأربعة[2]، وستلقى الأمةُ منهُ ومن وُلدِهِ يوماً أحمرَ[3]!

● لما مرَّ عليه السلام بطلحة بن عُبيد الله وعبد الرَّحمن بن عتَّاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل قال: لقد أصبحَ أبو محمدٍ بهذا المكانِ غريباً، أما والله لقد كنتُ أكرَهُ أن تكونَ قريشٌ قتلى تحت بطونِ الكواكب. أدركتُ وَتري (= ثأري) من بني عبدِ مناف، وأفلتتني أعيانُ بني جُمح. لقد أتلعوا (= مدوا) أعناقَهُم إلى أمرٍ لم يكونوا أهلَهُ (= يعني الخلافة) فوُقِصوا (= كسرت أعناقهم) دونَهُ[4].

● لما قدم عليه عبد الله بن زمعة - وهو من شيعته - يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام له: إنَّ هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيءٌ للمسلمين، وجَلبُ أسيافِهِم، فإن شرِكتَهُم في حربِهِم، كان لكَ مثلُ حظِّهِم، وإلا فجُناةُ أيديهم لا تكونُ لغيرِ أفواههم[5].

● وعندما دخل عليه - بالبصرة - العلاء بن زياد الحارثي - وهو من أصحابه - يعودُهُ، فلما رأى سعةَ داره قال عليه السلام: «ما كنتَ تصنعُ بسعةِ هذه الدَّارِ في الدُّنيا، وأنت إليها في الآخرةِ كنتَ أحوج؟ وبلى إن شئتَ بلغت بها الآخرةَ: تَقري فيها الضَّيفَ، وتصِلُ فيها الرَّحِم، وتُطلِعُ منها الحقوقَ مطالِعَها، فإذا أنتَ قد بلغتَ بها الآخرة.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد.

قال عليه السلام: وما له؟

قال: لبسَ العباءة وتخلَّى عن الدُّنيا.

قال عليه السلام: عليَّ به.

فلما جاء قال عليه السلام: يا عُديَّ نفسِهِ، لقد استهامَ بك الخبيثُ! أما رحمتَ أهلَكَ وولدَكَ؟ ترى اللهَ أحلَّ لك الطيباتِ وهو يكرهُ أن تأخُذَها؟ أنتَ أهونُ على اللهِ من ذلك.

---

(1) يعني سيصبح مروان بن الحكم خليفة على المسلمين، لكن لن تطول مدة خلافته. وبالفعل، ولي الأمر، لكن لم تطل إمارته إلا تسعة أشهر، وقيل ستة أشهر، وقيل أربعة أشهر وعشرة أيام.

(2) الظاهر أنَّ المقصود هم أحفاده من عبد الملك، وهم: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة أخوة إلا هؤلاء.

(3) أي شديداً، كناية عن القتل. **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (73)، ص102.

(4) **نهج البلاغة**، صبحي الصالح، (219)، ص337.

(5) المصدر السابق، (232)، ص353.

قال: يا أميرَ المؤمنين، هذا أنت في خشونةِ ملبَسِكَ وجُشوبةِ مأكَلِك؟

قال عليه السلام: ويحك، إني لستُ كأنت، إنَّ اللهَ تعالى فرضَ على أئمةِ العدل أن يُقدِّروا أنفُسَهُم بضعفةِ الناسِ كيلا يتبيَّغ بالفقيرِ فقرُهُ»[1].

بعد معركة الجمل، أمَّرَ الإمام علي عليه السلام ابنَ عباس على البصرة، ثم انتقلَ إلى الكوفة، ونزل الرَّحبة.

الخلاصة: بدأنا الكلام عن حرب الجمل، ورصدنا سلسلة من المحاولات والخطوات التي قام بها الإمام علي عليه السلام لتفادي وقوع هذه الحرب، لكنها لم تُفلِح، واستعرضنا بعض مجرياتها، كانسحاب الزُّبير بن العوام على أثر حوار دار بينه وبين الإمام علي عليه السلام، ومقتل طلحة بن عُبيد الله على يد مروان بن الحكم، وملابسات عقر الجمل. كما تحدَّثنا عن نتائج ومضاعفات هذه الحرب، التي وإن انتهت بكسر شوكة قريش، لمصلحة الإمام علي عليه السلام في العراق، ولمصلحة معاوية في الشَّام، إلا أنَّ تأثيرها كان مُدَمِّراً في علاقات العراقيين فيما بينهم، وبالتحديد في علاقة أهل البصرة بأهل الكوفة، وسيتبلور بالتدريج ميول أهل الكوفة وأهل البصرة؛ وبالتحديد ميل أهل الكوفة لعلي عليه السلام، وميل أهل البصرة لعثمان.

نكتفي بهذا القدر من سرد مواقف حرب الجمل، وننتقل إلى حرب صفين.

(1) أي إنَّ الله تعالى أوجب على القادة والزعماء أن يعيشوا عيشة أضعف الناس وأفقرهم، حتى لا يتهيج شعور الفقير بالفقر. نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (209)، ص324 - 325.

(12)

إرهاصات حرب صفين

تحدَّثنا عن معركة الجمل التي وقعت جنوبي البصرة، وقلنا إنَّ الإمام علياً عليه السلام انتقل بعد المعركة إلى البصرة، ثم انتقل إلى الكوفة واستقرَّ بها. نريد في هذا الفصل أن نتحدَّث عن إرهاصات معركة صفين.

لكن قبل ذلك لا بُدَّ أن نبدأ بدراسة وضع المجتمع الكوفي الذي انتقل الإمام علي عليه السلام إليه، لتتبيَّن لنا طبيعة التناقضات التي وقعت بين أهلِها أثناء حرب صفين، وبعدها. دراسة ذلك ستُعينُنا أيضاً على التعرُّف على طبيعة المفارقات التي وقعت قبيل وأثناء وبعيد واقعة كربلاء.

المجتمع الكوفي

● اسم «الكوفة»

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرِها، فلم يسكُنها العرب ولا غيرهم، وإنما كان موضِعُها جزءاً من الضَّفة الغربية للفرات الأوسط، إلى الشَّرق من مدينة الحيرة. هذا السَّهل الخصيب المحصور بين الفرات شرقاً، والبادية الواسعة المطلَّة على مشارف الشَّام وعمَّان غرباً، كان موضعاً لتبادل البضائع بين الفرس من جهة، وأصحاب الإبل البدو من جهة أخرى، وللاتصال بين الجماعات العربية المنتشرة في البادية، وأهل القرى من الآراميين الذين سكنوا هذه المنطقة قديماً.

وقد انتشرت في هذا السَّهل، قريباً من هذا الموضع، ديارات ودساكر صغيرة[1]، منها كُويفة بن عمرو، وهو رجلٌ من الأزد، كان كسرى برويز لمَّا انهزمَ نزلَ بهِ فقَراهُ ابن عمرون، فلما رجعَ أبرويز إلى مُلكِهِ، أقطعَهُ ذلك الموضع. وكُويفة ابن عمرو هذه هي

(1) دساكر: جمع دسكرة، بناء للأعاجم كالقصر حوله بيوت فيها الشَّراب والملاهي يكون للملوك.

التي مرَّ عليها سعد بن أبي وقاص، حين كان يبحث عن موضعٍ لجُندِهِ، بعدما كان المسلمون معه قد استولوا على المدائن.

في المقابل يقول البكري (في معجم ما استعجم): «إنَّما سُمِّيت الكوفة لأنَّ سعداً لما افتتح القادسية، نزلَ المسلمون الأنبار، فآذاهم البقّ، فخرجَ وارتاد لهم موضع الكوفة، وقال: تكوَّفوا، أي اجتمعوا، والتكوُّف: التجمُّع».

وقيل بأنَّ العرب كانوا يسمون «الرَّملة الحمراء» كوفة، كما يشير إلى ذلك القاموس المحيط.

حالياً، تبعد الكوفة 170 كم جنوبي بغداد، و10 كم شمال شرقي النَّجف.

● نشأة الكوفة وطبيعتها

تمَّ تخطيط الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص[1]، بعد تخطيط البصرة بسنتين أو ثلاث.

وكان العرب يُسمُّون العراق «بلاد السَّواد»، لأنَّ المقبل عليهِ من الغرب كان يرى من بعيد سواداً كثيفاً، لا يصل إليه حتى يعلم أنَّ ما كان يراهُ إن هو إلا صنوف متراصَّة من النَّخيل، قامت على ضفتي الفرات.

والكوفة تُشرِف على سهلٍ واسع، فيه العشب، وفيه الأزهار والرياحين، يُساعِد على نُموِّها أرضٌ خصبة، وأمطار غزيرة، وجداول كثيرة، تأتي بالماء من النَّهر إلى حيث الدساكر والديارات المبثوثة. طبيعة الكوفة هذه، شجَّعت الرُّهبان أن يبنوا دياراتهم فيها، فلم تكن الديارات تُبنى إلا حيث يتوافر الماء، ويكثر النَّبات. من تلك الديارات، دير الجماجم، وهو بظاهر الكوفة على طريق البرّ الذي يسلك إلى البصرة.

وقد استرعى جمال البقعة أنظار العرب المهاجرين إليها، وقد وقع اختيار سعد بن أبي وقاص عليها مسكناً لجُندِهِ، لأنَّها تجمع بين طبيعة الحضر وطبيعة البدو، وتصلُح أن تكون مُتحوَّلاً من الحياة البدوية الخالصة إلى الحياة الحضرية الناعمة، ولأنَّهُ لا يفصِلُها عن المدينة - قاعدةِ الخلافة - فاصلٌ طبيعي كالبحار والأنهار.

---

(1) دور سعد في فتح بلاد فارس، قد يفسر لنا لم كان استقرار ابنه عمر (قائد الجيش المحارب للحسين عليه السلام) في العراق؟ ولم كان طموحه في ولاية الرَّي. فكما أنَّ عمرو بن العاص كان له تعلُّق خاص بمصر بعد دورهِ المميَّز في فتحها، كذلك عمر بن سعد كان له تعلُّقٌ خاص بالعراق وبلاد فارس بعد دور أبيهِ المميَّز في فتحها.

● تركيبتها السكانية

كان أكثر الذين انتقلوا إلى الكوفة من عرب الجنوب، يُعدُّونَ عشرين ألفاً، اثنا عشر ألفاً منهم من اليَمانيين (من قحطان)، وثمانية آلاف من المُضَريين (من عدنان)، كما تنصُّ عليه رواية الشُعبي في معجم البلدان، والفتوح للبلاذري. إن صحَّ ذلك، فهذا يعني أنَّ نسبة **القحطانيين إلى المجموع الكلي لعرب الكوفة كانت 60%، في حين أنَّ نسبة العدنانيين كانت 40%.**

وصارت الكوفة قبلة أنظار العرب وزعمائهم وقادتهم، ففيها نزلت البيوتات العربية الأربعة: آل زرارة الدارميون، وآل زيد الفزاريون، وآل ذي الجدين الشيبانيون، وآل قيس الزبيديون.

وفي الكوفة هبط سبعون رجلاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، ممن شهدوا بدراً، وثلاث مئة من أصحاب الشَّجرة، كما ذكر ابن الفقيه في البلدان. وفي مقدِّمة من نزلها من الصَّحابة: عمَّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، وقد بعثَ بهما عمر، ليكون الأوَّل أميراً، والثاني مؤذناً ووزيراً[1]. ولم تطل ولاية عمَّار على الكوفة إلا سنة وتسعة أشهر، قام عمر بعدها بعزلِهِ ونصَّب مكانَهُ المغيرة بن شعبة.

ولعلَّ السبب في أن كانت الكوفة متَّجه الأنظار، هو أنَّ القيادة العامة لجيوش المسلمين كان مقرُّها الكوفة، وأنَّها كانت مركز الحركات العسكرية. وقد عُرِفَت بمكانتِها العسكرية حتى كانوا يُسمُّونها «كوفة الجُند».

وقيام هذه الجماعات الضخمة من المهاجرين بأمور الدِّفاع وتنظيم الحركات العسكرية، شغلهم عن شؤون الحياة الحضرية، وأطال عهد البداوة فيهم، وما يستتبع ذلك من بقاء العصبيات، والتمسُّك بالبطولة والتفاخر بالأنساب.

وبقاء العصبيات العربية في بيئة الكوفة يُفسِّر لنا كثيراً من الحوادث التاريخية،

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص227. قد يقال: بأن هذا ينقض ما قلناه من أنَّ عمر لم يول أحداً من القحطانيين لحساب العدنانيين. والجواب عن ذلك: أنَّا لم نقل ذلك، وإنما قلنا إنَّ عمر لم يُوَلِّ أحداً من الأنصار، وعمَّار بن ياسر مثلاً هو من المهاجرين. صحيح أن وجهاء المهاجرين من عدنان، والأنصار من قحطان، لكن بعض المهاجرين - ممن لا ينحدر من قريش - كان من قحطان، وعمَّار بن ياسر من أولئك. نعم، نحن قلنا إنَّ معيار عمر في تفضيل العطاء كان على المدى الطويل لمصلحة العدنانيين على حساب القحطانيين، ولمصلحة المهاجرين على حساب الأنصار، لكن عمر - ربما - لم يتعمَّد التحيُّز لأجل التحيُّز، وإنما أراد ترجيح السَّابقين في الإسلام والأقرب نسباً لرسول الله صلى الله عليه وآله، لكن تطبيق هذا المعيار كانت له عواقب كارثية، كما رأينا.

والشَّغب المتواصل الذي عُرِفَت به الكوفة، ويُفسِّر لنا الاضطرابات وعدم الاستقرار في الحياة الكوفية. ويُفسِّر لنا سخط عمر بن الخطاب عندما كان يقول: من عذيري من أهل الكوفة، إن استعملتُ عليهمُ القويَّ فَجَّروهُ، وإن ولَّيتُ عليهمُ الضعيفَ حقَّروه[1]!

ما أن دبَّت الحياة في المصر الجديد حتى توافد الناس عليه من كلِّ صوب، فأخذ المجتمع فيه يتعقَّد شيئاً فشيئاً، حتى أصبح في بُرهةٍ زمنيةٍ محدودة من الأمصار الإسلامية الرَّئيسية.

وكان إلى جانب المجموعة العربية في هذا المصر، مجموعات أخرى احتاج إليها مجتمع الكوفة، أو احتاجت هي إلى الاستقرار والعمل فيه. فالعرب الأولون الذين سكنوا الكوفة كانوا هم الأداة العسكرية التي تمَّت بها الانتصارات، يتألَّف منهم عنصر الأشراف، ومنهم طبقة زعماء القبائل، وطبقة رؤساء الجيش، وأصحاب الألوية، ومنهم طبقة الجند.

أما نواحي الحياة الأخرى التي يحتاج إليها هذا المجتمع، فأغلب الظَّن أنها كانت تقوم بها عناصر أجنبية من العناصر المغلوبة، أو التي هاجرت إلى هذا المصر الجديد، لتقوم بقسطها في إنعاش الحياة الاقتصادية.

وكان قوام هذه المجموعات غير العربية:

1. عناصر فارسية: وهي المجموعة الكبرى بين هذه المجموعات، وكان كثير منها يعيش في هذه المنطقة وما جاورها قبل تمصير الكوفة، وكان يشتغل في الزِّراعة واستغلال الأراضي الصَّالحة فيها. فلما تمَّ الفتح على أيدي المسلمين، ومُصِّرَت الكوفة، وفد أربعة آلاف ممن كانوا يعملون في الجيش الفارسي، وقد شهدوا القادسية مع رستُم، ورأوا ما آلت إليه الامبراطورية الفارسية بعد انهزام جيوشها، ومقتل قائدها رستم، فأرادوا الدُّخول في الإسلام، يحيون حياة المسلمين، ففاوضوا سعداً في ذلك، فأعطوا ما سألوا، وفُرِضَ لهم في العطاء. **وكان لهم نقيب يقال له «ديلم»، فقيل «حمراء ديلم»**، ثم أخذ عددُهُم يزداد ويكثُر بالتدريج[2].

2. عناصر سريانية: كانوا يسكنون في الجزيرة وفي الديارات المنبثة فيها، وكان نصارى الكوفة على طائفتين نساطرة، وهم الحضر، ويعاقبة، وهم البدو. وقد أقام هؤلاء في الكوفة، فدخل منهم من دخل في الإسلام، وبقي منهم من بقي في ذمته، فحفظ الإسلام دماءهم وأموالهم.

---

(1) البلاذري، البلدان فتوحها وأحكامها، ص323.

(2) المصدر السابق، ص324.

3. عناصر نبطية: واختلف الباحثون في الأصل الذي انحدر منه النَّبط، فمنهم من قال إنهم آراميون، ومنهم من قال إنهم عرب كانوا يستخدمون الآرامية لغة كتابة. وهم الصَّابئة.

4. عناصر يهودية ونصرانية: وفدوا على الكوفة من نجران (اليمن)، وأقاموا في محلَّة في الكوفة نسبت إليهم، وهي النجرانية.

وكان كثير من هؤلاء الأجانب صيارفة، وصاغة، ووِرّاقين (ناسخي كتب)، وتمارين (يبيعون التَّمر)، وسوّاقين (يبيعون السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشَّعير)، وقصَّارين (وهم محورو الثِّياب)، ورسَّامين... إلخ.

توالي الاضطرابات السِّياسية في الكوفة (بعد مقتل عثمان وحروب الإمام علي عليه السلام وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وثورة المختار الثقفي وحركة مصعب بن الزبير وثورة زيد بن علي... إلخ)، دفع بالأجانب إلى الاتجاه نحو البصرة، لأنَّهم وجدوا فيها حياة مستقرة آمنة.

كثرة الأجانب في البصرة، واشتراك البصريين في الأعمال التجارية التي هيأها لهم مركز البصرة، ووقوعها في مفترق الطرق التجارية، تتلاقى عندها من الشَّمال والجنوب والشرق والغرب... كل ذلك جعل من سكان البصرة بالتدريج، سواء أكانوا عرباً أم موالي، شعباً شبه موحَّد، وجعل البصرة مجتمعاً مفتوحاً أكثر من مجتمع الكوفة.

والكوفة - مع ضعف الاتصال بين عناصرها العربية والأجنبية - صارت أكثر تحرُّجاً من أهل البصرة في الأخذ بثقافات الأجانب، لكثرة من فيها من الصَّحابة والفقهاء وأهل الدِّين. فصار أهل الكوفة أصحابَ فقهٍ وحديث وقراءة، وأهل البصرة أصحابَ علومٍ وفلسفات وكلام ورأي، ربما لأنَّهم أكثر اختلاطاً بالأجانب من أهل الكوفة، وأسرع إلى الأخذ من الثَّقافات الأجنبية، لتوافر مصادرها عندهم، وكثرة انتقالاتهم للكسب والتجارة.

هذه العوامل أحكمت أسباب الاختلاف والتنافس بين المصرين، فكان من نتائج هذا التنافس أنهم كانوا يتناظرون في مجالس الخلفاء، حيت تجتمع وفودُهُم في دواوينِهِم، وكان الخلفاء يستمتعون بهذا النوع من المناظرات، وربما ظاهروا فريقاً على فريق، لأسباب تدعوهم إلى ذلك.

ما نريد التأكيد عليه الآن، وقبل أن نبدأ بسرد مجريات حرب صفين، أنَّ عليّاً عليه السلام ما استعان بالكوفة في حرب الجمل، ثم حرب صفين، إلا لأنَّها المورد البشري والمالي الأساسي الذي يمكن أن يمُدَّ أيّ قائد عسكري؛ فهي مقرٌّ للعسكر المُجرَّبين في

الفتوحات، وفيها بيتُ مالٍ غني بالإيرادات الآتية من أرض زراعية ثريَّة، وهي من ناحية ثالثة قريبة من البصرة، التي تشبهها من حيث غنى المورد البشري والمالي. لكن ما يُرجِّح الكوفة على البصرة، هو أنَّ المزاج العام فيها يميل لمصلحة الإمام علي عليه السلام، ولعل نسبة عدد القحطانيين في الكوفة إلى المجموع الكلي لعربِها، أعلى من نسبة عددهم في البصرة إلى المجموع الكلي لعربِها.

لذا تجد أنَّ الثوار الذين يريدون أن يُحقِّقوا آنذاك نجاحات حقيقية، يبدؤون من العراق، إما من البصرة أو الكوفة. بخلاف الحجاز الذي كان فقيراً بشرياً ومالياً. وهذه النُّقطة كانت من مرجِّحات حركة الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة دون غيرها.

الإمام علي عليه السلام في الكوفة

يروي ابن عساكر في تاريخ دمشق عن المدائني عبارة رائعة لرجُلٍ دخلَ على الإمام علي عليه السلام عند وصوله إلى الكوفة. يقول المدائني: لما دخلَ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام الكوفة، دخلَ عليه رجلٌ من حُلفاء العرب، فقال: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، لقد زيَّنتَ الخلافة وما زانتكَ، ورفعتَها وما رفعتكَ، وهي كانت أحوج إليك منكَ إليها[1]!

كان أهل العراق كثيراً ما يسألون الإمام علي عليه السلام عن موقفهِ من سلب الخلافة منهُ بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان غالباً ما يجيب إجابات مقتضبة، لحساسيَّة الموضوع، فقد كان يُدرك أنَّ الجماهير إن كانت ساخطة على عثمان، فإنَّها ما زالت تنظُر بقداسة خاصَّة إلى الخليفة الأول والثاني[2].

وكان عليه السلام يُؤكِّد في كلِّ مناسبة عدم رغبته الخاصَّة في الخلافة، وأنَّهُ لولا قيام الحُجَّة عليه بتوافر المناصرين من جند العراق، ولولا الميثاق الذي أخذَهُ اللهُ سبحانه على

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج3، ص115.

(2) فمثلاً سأل أهل الكوفة علياً عليه السلام أن ينصب لهم إماماً يصلي بهم نافلة شهر رمضان (= التراويح)، فزجرهم، وعرفهم أن ذلك خلاف السنة، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام، فدخل المسجد ومعه الدرة، فلما رأوه تبادروا الأبواب وصاحوا: وا عمراه (راجع: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج6، ج12، ص178). وأيضاً عن علي عليه السلام: «قد عملَت الولاةُ قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسولَ الله صلى الله عليه وآله متعمدين لخلافه، ناقضين لعهده، مغيرين لسنته، ولو حملتُ الناسَ على تركها، وحوَّلتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرق عني جندي، حتى أبقى وحدي، أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسول الله...» (راجع: الكليني، **روضة الكافي**، ج8، ص63، حديث 21، أيضاً 8، ص59، حديث 21).

العلماء بأن يقفوا مع المظلوم بوجه الظالم الذي يريد سلب المظوم حقَّهُ، لترك الأمر كله، لأولئك الذين يتنازعون على الدُّنيا الدَنيَّة.

لذا تجده في الخطبة المعروفة بـالشَّقشقيَّة (والشَّقشقة شيءٌ يُخرِجهُ البعير من فيهِ إذا هاج)، يقول عليه السلام بعد أن تحدَّث باقتضابٍ عما جرى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله: «. . . . أما والذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَّسمة، لولا حضور الحاضر، وقيامُ الحجةِ بوجودِ الناصر، وما أخذَ اللهُ على العلماءِ ألا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالم، ولا سغَبِ مظلوم، لألقيتُ حبلَها على غاربِها، ولسقيتُ آخِرَها بكأسِ أوَّلها، ولألفيتُم دُنياكُم هذه أزهدَ من عفطةِ عنز!

قالوا: وقامَ إليهِ رجلٌ من أهل السَّواد عند بلوغهِ إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً (قيل أنَّ فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها)، فأقبل ينظُرُ فيه (فلما فرغ من قراءته) قال له ابنُ عباس: يا أميرَ المؤمنين، لو اطَّردتَ من خُطبتِكَ من حيثُ أفضيتَ.

فقال عليه السلام: هيهات يا ابنَ عباس، تلك شقشقةٌ هدَرَت ثم قرَّت!

قال ابن عباس: فواللهِ ما أسفتُ على كلامٍ قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغَ منهُ حيثُ أراد»[1].

نعم، كان الإمام علي عليه السلام يتجنَّب الدُّخول في التفاصيل، لأنَّ ثمة صورة نموذجية كانت قد رُسِمَت للخليفة الأول والثاني في مقابل سورة سلبية رُسِمَت للخليفة الثالث، ولم يكن يريد أن يُدخِل أهل العراق في جدلٍ داخلي وتشويشٍ ذهني حول المواضيع الخلافية، وإنما أرادَ لهم أن يتَّحِدوا في مواجهة التحدِّيات الحالية، وبالخصوص فتنة بني أمية.

لذا عندما سأله رجلٌ من بني أسد - وهو من أهل العراق - قاصداً معرفة تفاصيل السَّقيفة ومجرياتها: كيف دفعَكُم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقُّ به؟

يُجيب عليه السلام: «يا أخا بني أسد، إنك لقلِقُ الوَضين (= الوضين: بطان يشد به الرَّحل على البعير كالحزام للسَّرج، فإذا قلق واضطرب اضطرب الرَّحل فكثر تململ الجمل وقلَّ ثباتُهُ في سيرهِ)، تُرسِل (= تُطلِق الكلام) في غيرِ سَدَد (= دون مراعاة الظروف والمناسبات)، ولك بعدُ ذُمامةُ الصهر (= حماية قرابة المصاهرة) وحقُّ المسألة، وقد استعلمتَ فاعلم: أما الاستبدادُ علينا بهذا المقام ونحنُ الأعلَونَ نسباً، والأشدونَ برسول الله صلى الله عليه وآله نوطاً (= تعلقاً والتصاقاً)، فإنها كانت أثَرَةً شحَّت عليها نفوسُ قومٍ، وسخَت عنها نفوسُ آخرين، والحكمُ للهِ، والعودُ إليهِ القيامةُ. . . .

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة (3)، ص50.

وهلُمَّ الخطبَ في ابن أبي سفيان، فلقد أضحكني الدَّهرُ بعد إبكائه، ولا غرو والله، فيا له خطباً يستفرغُ العجَبَ، ويُكثِرُ الأوَدَ (= الاعوجاج)! حاول القومُ إطفاءَ نورِ اللهِ من مصباحِهِ، وسدَّ فوَّارِهِ من ينبوعِهِ، جدَّحوا (= خلطوا) بيني وبينهم شِرباً وبيئاً (= يوجب شربه من الوباء)، فإن ترتفع عنا وعنهم محنُ البلوى، أحمِلهُم من الحقِّ على محضهِ، وإن تكن الأخرى، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[1].

وعندما كان يرُدُّ على شُبُهات معاوية، ويُحَدِّد مسار حركته السِّياسية وحدود التَّسامح مع المعارضة، كان عليه السلام يقول: «أيُّها الناس، إنَّ أحقَّ الناسِ بهذا الأمرِ أقواهُم عليه، وأعلَمُهُم بأمرِ اللهِ فيه، فإن شغبَ شاغِبٌ استُعتِب (= طلب منه الرضا بالحق)، فإن أبى قوتِل. ولعمري لئن كانتِ الإمامةُ لا تنعقِدُ حتى يحضُرَها عامَّةُ الناس (= كما كان يطلب معاوية، الذي ادَّعى أنَّ أهلَ الشَّام لم يُستشاروا في بيعته)، فما إلى ذلكَ سبيل، ولكن أهلها يحكُمونَ على من غابَ عنها، ثم ليس للشاهِدِ أن يرجِع، ولا للغائِبِ أن يختار. ألا وإنِّي أُقاتِلُ رجُلين: رجُلاً ادَّعى ما ليسَ له، وآخرَ منعَ الذي عليه.

أوصيكم عبادَ الله بتقوى اللهِ فإنها خيرُ ما تواصى العبادُ به، وخيرُ عواقِبِ الأمورِ عند الله، وقد فُتِحَ بابُ الحربِ بينكم وبينَ أهلِ القبلة، ولا يحمِلُ هذا العلمَ إلا أهلُ البصرِ والصَّبرِ والعلمِ بمواضِعِ الحق...

ألا وإنَّ هذه الدُّنيا التي أصبحتم تتمنَّونها وترغبون فيها، وأصبحت تُغضِبُكم وتُرضيكم، ليست بدارِكم، ولا منزلكم الذي خُلقتُم له ولا الذي دُعيتُم إليه... ولا يخِننَّ أحدُكم خنِينَ (= ضرب من البكاء يردّد به الصوت من الأنف) الأمةِ على ما زُويَ (= قُبض) عنه منها، واستتمُّوا نعمةَ اللهِ عليكم بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ والمحافظةِ على ما استحفَظَكم من كتابه. ألا وإنه لا يضُرُّكم تضييعُ شيءٍ من دُنياكم بعد حِفظكم قائمةَ دينِكم. ألا وإنَّه لا ينفَعُكم بعدَ تضييعِ دينِكم شيءٌ حافظتُم عليه من أمرِ دُنياكم. أخذَ اللهُ بقلوبِنا وقلوبِكُم إلى الحقِّ، وألهمنا وإياكمُ الصَّبر»[2].

نعم، كانت قريش تريد أن يكون عليٌّ عليه السلام واجهة لها - كما كان الخليفة الأول والثاني - وكان ثوار أهل العراق يريدون أن يكون عليٌّ عليه السلام واجهة لهم - بعد معرفتهم بعدم إمكانية إيصال أحد منهم إلى سدَّة الخلافة - كانوا يريدونَهُ لأنفُسِهم، وكان عليه السلام يُريدُهم لله تعالى: «لم تكن بيعتُكم إيايَ فلتةً (كما جرى مع الخليفة الأول)، وليس أمري

(1) سورة فاطر، الآية: 8. **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (162)، ص231 - 232.
(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (173)، ص247 - 249.

وأمرُكم واحداً (= لسنا على موجة واحدة)، إني إريدُكُم لله، وأنتم تُريدونني لأنفُسِكم. أيُّها الناس أعينوني على أنفسِكم، وأيمُ اللهِ لأُنصِفنَّ المظلومَ من ظالمِهِ، ولأقودنَّ الظالم بخِزامتِهِ (= حلقة تُجعل في أنف البعير ليسهل قياده) حتى أورِدَهُ منهلَ الحقِّ وإن كان كارهاً»[1].

حرب صفين (37هج)

ذكر المؤرِّخون أنَّ النعمان (بن بشير بن سعد الخزرجي. تذكَّر أنَّ بشير كان أول من آزر أبا بكر في السَّقيفة وبادر إلى بيعته، وابنه النعمان هذا سيُكافأ بأن يكون والياً لمعاوية على الكوفة إلى لحظة قدوم مسلم بن عقيل إليها) لما قدِمَ على معاوية بكتاب نائلة زوجة عثمان، تذكُرُ فيهِ دخولَ القوم عليه، وما صنعَ محمد بن أبي بكر من نتفِ لحيتهِ، في كتابٍ قد رقَّقت فيه وأبلغت، حتى إذا سمِعَهُ السَّامع بكى حتى يتصدَّع قلبُهُ، وبقميص عثمان مخضَّباً بالدَّمِ ممزَّقاً، وبأصابعها مقطوعة، وعقدت شعرَ لحيته في زرِّ القميص.... . .وضع معاوية القميص على المنبر وصعد وجمع الناس، ونشرَ عليهم القميص، وذكَرَ ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس وشهقوا، حتى كادت نفوسُهُم أن تزهق، ثم دعاهُم إلى الطَّلب بدَمِهِ، فقام إليه أهل الشَّام فقالوا: هو ابنُ عمِّك، وأنتَ وليّهُ، ونحنُ الطَّالبون معكَ بدمهِ[2].

يقول الطبري: وبكَوا سنةً، وهو (= القميص) على المنبر، والأصابع معلَّقة فيه، وآلى الرِّجال من أهل الشَّام ألا يأتوا النِّساء، ولا يمسّهم الماء للغُسل إلا من احتلام، ولا يناموا على الفرش، حتى يقتُلوا قتلةَ عثمان، ومن عرض دونهم بشيء، أو تفنى أرواحُهُم. فمكثوا حولَ القميص سنة، والقميص يُوضع كلَّ يوم على المنبر[3].

وجاء الحجَّاج بن خُزَيمة (وهو من المُدافعين عن عثمان في المدينة) معاوية فقال له: يا معاوية إنك تقوى على علي عليه السلام بدون ما يقوى بهِ عليك، لأنَّ من معكَ لا يقولونَ إذا قُلتَ، ولا يسألونَ إذا أمرتَ، ولأنَّ من مع علي عليه السلام يقولونَ إذا قالَ، ويسألونَ إذا أمرَ، فقليلٌ ممن معكَ خيرٌ من كثيرٍ ممن معه[4].

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (136)، ص194.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص99.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص561. أقول: ألا يذكرنا هذا بحال قريش بعد معركة بدر، ألم يقسموا بأخذ الثأر، وألا يقربوا النِّساء حتى ينتقموا من محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه؟!

(4) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص102.

ووصفُ الحجَّاج بن خُزَيمة لأصحاب معاوية وأصحاب علي عليه السلام - كما سنرى - دقيق، فجماهيرُ الشَّام مستسلمة تماماً لمعاوية، في حين أنَّ جماهير العراق كانت في حالة ثورية يصعب إلجامُها والسَّيطرة عليها.

ومن المهم دائماً أن نتذكَّر صفات الجماهير الملتفَّة حول الإمام علي عليه السلام، ويمكن أن نلخصها بما يلي:

1. جماهير مستضعفة مظلومة كان لها دور كبير في فتح فارس، لكن لم تأخذ حقَّها من العطاء.

2. مُحبة للإمام علي عليه السلام.

3. جماهير لم تتلقَّ تربية روحية وفكرية وعقائدية ولم تعرِف الكثير من تفاصيل تاريخ الإسلام... بعبارة موجزة: جماهير بسيطة وجاهلة.

4. جماهير تحترم الخليفة الأول والثاني، وتنقم على الخليفة الثالث، وعلى بني أمية عموماً.

5. في حالة ثورية يصعُبُ إلجامُها.

6. النَّزعة القبلية راسخة في عقلِهم، وطريقة توزيع الجُند في الكوفة بعد الفتوح ساهمت في ترسيخ هذه النَّزعة

7. أصول الغالبية الكبرى منهم من قحطان (= اليمن).

الخلاصة: درَسنا في هذا الفصل باقتضاب وضع المجتمع الكوفي (اسم الكوفة، نشأتها وطبيعتها، تركيبها السُّكاني)، وأشرنا إلى بعض الكلمات التي كان يتجنَّب الإمام علي عليه السلام فيها أن يدخُل في تفاصيل خلافِهِ مع الخليفة الأول والثاني، وأنَّهُ عليه السلام كان يريد للجماهير أن تُركِّز على فتنة بني أمية.

دراستُنا للمجتمع الكوفي، وتطوُّر الأحداث حتى وقوع حرب صفين، والأحداث التي تلت هذه الحرب، أمر بالغ الأهمية لفهم واقعة كربلاء. فالحسين عليه السلام استهدف في مسيره من مكة الكوفة، استجابة لرسائل أهلها، ومن أسباب خُذلان أهل الكوفة للحسين عليه السلام التعقيدات النَّفسية والاجتماعية والسِّياسية التي جرت في صفين، وما بعد صفين، مروراً بشهادة الإمام علي عليه السلام وصُلح الإمام الحسن عليه السلام، حتى موت معاوية... وهذا ما سندرسه في الفصول اللاحقة.

في الفصل المقبل سوف نستعرض محاولات الإمام علي عليه السلام لتجنُّب حرب صفين، وسيتَّضح من خلال ذلك بعض تفاصيل الأحداث وتطوُّراتها، إلى أن وقعت المواجهة المسلَّحة بين أهل العراق بقيادة الإمام علي عليه السلام، وأهل الشَّام بقيادة معاوية.

(13)

محاولات لتفادي الحرب

تحدثنا في الفصل السابق عن وضع المجتمع الكوفي، الذي انتقل إليه الإمام عليه السلام بعد حرب الجمل، ونريد أن نسرد في هذا الفصل محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي حرب صفين، مع دسٍّ بعض التفاصيل، حتى تظل الأحداث متسلسلة.

محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي حرب صفين

يمكن أن نُحصي في كتاب نهج البلاغة ستة عشر كتاباً من الإمام علي عليه السلام لمعاوية وثلاثة كتب منه عليه السلام لعمرو بن العاص، يستهدف أغلبها تفادي حرب صفين ويستهدف بعضها الآخر تنظيم تفاصيل قبول التَّحكيم بعد رفع المصاحف، وفيها عبارات كثيرة تُذكِّر معاوية وعمرو باللهِ سبحانه وتعالى وتُحذِّرهُما من الانسياق خلف شهوة السُّلطان. وهذه الكُتُب هي جزء من سلسلة طويلة من خطوات قام بها الإمام علي عليه السلام لتفادي الحرب أو معالجة مضاعفاتها.

في النِّقاط التالية سوف نُلاحق تلك الخطوات، وسيتبيَّن من خلال تطوُّر الأحداث كم كانت إراقة دم المسلمين أمراً مؤرِّقاً للإمام علي عليه السلام؟ وكم سلبَ منه ذلك طعمَ النَّوم؟

تقول بعض الأخبار إنَّ الإمام علياً عليه السلام أقام بالكوفة شهوراً يُجري الكُتُب فيما بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص[1].

1. **كتابُهُ عليه السلام الأول لمعاوية**: تذكر التواريخ أنَّه جاء في كتاب الإمام علي عليه السلام الأول لمعاوية: «أما بعدُ، فإنَّ بيعتي لزمتك وأنا بالمدينة وأنتَ بالشَّام، وذلك أنَّهُ بايعني القومُ الذين بايعوا أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، فليس للشاهدِ أن يختار، ولا للغائبِ أن يردَّ...»[2].

(1) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، 1990، بيروت، ص80.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 6، ص366 - 367، نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص29.

فلما وردَ كتابهُ عليه السلام إلى معاوية فقرأه، رفع رأسه إلى الرَّسول وقال: أظنُّكَ ممن قتل عثمان بن عفان.

فقال الرَّسول الأنصاري: وأنا أظنُّك يا معاوية ممن استنصرَكَ عثمان فلم ينصُرهُ، ولكن خذَلَهُ وقعدَ عنه.

فغضبَ معاوية من ذلك، وقال: ارجع إذاً إلى صاحبِكَ بغيرِ جواب، فإنَّ رسولي في إثرك إن شاء الله. . . . . .

ثم إنَّ معاوية انتخب رجُلاً من بني عبس له لسانٌ طلِق، فكتبَ «بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم»، لا أقل ولا أكثر، ودفعَها إلى العبسي وأرسله إلى علي عليه السلام، فخرج العبسي إلى الكوفة حتى دخلَ على علي عليه السلام وعنده وجوه المهاجرين والأنصار. . . فقيل له: هات ما عندك.

فقال العبسي: عندي واللهِ من الخبر أنّي تركتُ بالشَّام ألفَ شيخٍ خاضِبين لِحاهم بدُمُوعِ أعيُنِهم على قميصِ عثمان، وأنَّهم عاهدوا اللهَ عزّ وجلّ أنَّهم لا يشيمون سُيوفَهم في أغمادِها أبداً حتى يقتُلوا من قتلَ عثمان، يوصي بهِ الميِّتُ الحيَّ ويرِثُهُ الحيُّ عن الميِّتِ. . .

فقال علي عليه السلام: ويحكَ يا أخا بني عبس فيُريدونَ بذلك ماذا؟

فقال العبسي: يريدونَ والله خيط رقبتك.

فقال له علي عليه السلام: ترِبَت يداك وجدَبَ فوك.

ثم وثبَ إليهِ رجُلٌ يُقالُ له صِلة بن زفر العبسي (وهو صاحب حذيفة بن اليمان) فقال له: بئسَ الوافد أنت يا أخا بني عبس لأهل الشَّام، وبئس العون لمعاوية، أتُخوِّف المهاجرين والأنصار ببكاءِ الرِّجال على قميص عثمان، فواللهِ ما قميصُ عثمان بقميصِ يوسُف، ولا بكاؤُهُم عليهِ كبُكاء يعقوب، ولئن بكوا عليهِ بالشَّام فقد خذلوهُ بالحِجاز. . . .

وهمَّ الناسُ بالعبسي، وقاموا إليه بالسُّيوف.

فقال علي عليه السلام: دعوهُ فإنَّهُ رسول، ولكن خذوا منه الكتاب.

فأُخِذَ الكتابُ من يدهِ ودُفِعَ إلى علي عليه السلام، فلما فضَّهُ لم يرَ فيه شيئاً أكثر من «بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم»، فعَلِمَ أنَّ معاوية يُحاربه، وأنه لم يُجبه إلى شيءٍ، فقال عليه السلام: لا حولَ ولا قوَّة إلا باللهِ العليِّ العظيم، حسبي اللهُ ونعمَ الوكيل. . . .

ثم إنَّ العبسي رسول معاوية قام إلى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين والله لقد

أقبلتُ وأنا أشدُّ الناس عليك حنقاً لما أخبرني عنك أهلُ الشَّام، وقد واللهِ أبصرتُ الآنَ ما فيه أهلُ الشَّام من الضَّلال، وما أنتَ عليه من الهُدى، ولا واللهِ ما كنتُ بالذي أفارِقُكَ أبداً، ولا أموتُ إلا تحتَ رِكابِك[1].

2. **الإمام علي عليه السلام يكتُب للمرة الثانية لمعاوية وسلسلة محاولات وسيطه المفاوض جرير البَجَلِي التي استغرقت مهمَّتهُ أربعة أشهر كاملة**: ينقل ابن الأعثم أنَّ الإمام علياً عليه السلام كتبَ لمعاوية للمرة الثانية، فكان مما ذكرَ في كتابه: «فقد علمتَ أنَّ الشُّورى للمهاجرين والأنصار دونَ غيرِهم، فإذا اجتمعوا على رجُلٍ فسمَّوهُ إماماً كانَ للهِ عزَّوجلَّ رضا... ولعمري لئن نظرتَ بعقلِكَ لعلِمتَ أني أبرأُ الناس من دمِ عثمان، وقد علمتَ أنكَ من أبناءِ الطُّلقاء الذين لا تحِلُّ لهمُ الخلافة، وقد وجَّهتُ إليكَ بجرير بن عبد الله البَجَلِّي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، وأحبّ الأشياء إليَّ فيكَ العافية، إلا أن تتعرَّض للبلاء، فإن تعرَّضت قابلتُك، واستعنتُ اللهَ عليك، ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم، والسَّلام»[2].

ثم طوى الكتاب وختمَهُ ودفعَهُ إلى جرير...حتى دخل جرير على معاوية، فسلَّمَ فردَّ عليه معاوية السَّلام، وقرَّبَهُ وأدناه، ثم قال: هاتِ ما عندك يا جرير.

فقال جرير: واللهِ إنَّهُ قد اجتمعَ لابن عمِّك علي بن أبي طالب أهلُ الحَرَمين (مكَّة والمدينة)، وأهلُ العِراقين (البصرة والكوفة)، وأهلُ الحجاز وأهلُ اليمن، فلم يبقَ في يديك إلا هذهِ الحصون التي أنت عليها، ولو سالَ عليها سيلٌ من أوديتِهِ لغرقها، وقد أقبلتُ إليكَ أدعوكَ إلى ما يُرشِدُكَ ويهديك إلى اتِّباعِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب...

فأخذ معاوية الكتابَ فقرأهُ حتى أتى على آخرهِ، ثم أقبل على جرير فقال: يا أبا عمرو، أنظُرُ في ذلكَ وتنتظر أنت أيضاً، وأستطلعُ رأيَ أهل الشَّام[3].

.... فلما أصبح جرير أقبل إلى المسجدِ الأعظم، فاجتمعَ اليهِ النَّاسُ، وحضرَ معاوية، فجعلَ جريرُ يعِظُهُم ويدعوهم إلى بيعةِ علي عليه السلام .... فلما سمعَ معاوية كلامَ جرير وثبَ.... وقال: أيُّها الناس قد علِمتُم أنِّي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص142 - 145.

(2) في نهج البلاغة وكتاب وقعة صفين هذا الكتاب - مع بعض الفروق الطفيفة - هو استكمال للكتاب الأول. راجع: **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، كتاب 6، ص367، نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص29 - 30.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص154 - 156.

وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ولم أقم على خزايةٍ قط، وقد قُتِلَ عثمان مظلوماً، وأنا وَلِيُّهُ، واللهُ عز وجل يقول: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[1] وأنا أُحِبُّ أن تُعلِموني بما أنفُسِكُم من قتلِ عثمان.

فوثبَ إليه الناس من جنباتِ المسجد فقالوا: نحنُ كُلُّنا طالبونَ بدَمِ عثمان[2].

وبلغَ ذلك علياً عليه السلام، فأراد أن يُعجِّل بالمسير إلى الشَّام، فأشار إليه عامَّةُ الناس بالمقام بالكوفة، إلا هؤلاء الخمسة نفر: الأشتر النخعي، وعدِي بن حاتم الطائي، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي، وسعيد بن قيس الهَمداني، وهانئ بن عروة المَذحِجي، فإنَّهُم قاموا إلى علي عليه السلام فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ هؤلاء الذينَ أشاروا عليك بالمقام، إنَّما يخافون حرب أهل الشَّام، وليس في حربِهِم شيءٌ هو أخوفُ من الموت، ولسنا نريدُ إلا الموت، فسِر بنا إليهم، وفَّقكَ اللهُ لما تُحِبُّ وترضى.

فأطرقَ عليٌّ عليه السلام ساعة، ثم قال: إنه ليس يتهيأ لي المسير إليهم ورسولي عندَهُم، وقد وقَّتُّ لرسولي وقتاً لا يتأخَّرَ عنهُ إلا مخدوعاً أو عاصياً، فاسكنوا ولا تعجلوا[3].

وفي نهج البلاغة أنه عليه السلام قال: «إن استعدادي لحربِ أهل الشَّام، وجريرٌ عندهم، إغلاقٌ للشام، وصرفٌ لأهلهِ عن خيرٍ إن أرادوه. ولكن وقَّتُّ لجريرٍ وقتاً، لا يُقيمُ بعدهُ إلا مخدوعاً أو عاصياً. والرأيُ عندي مع الأناة (= التثبت والتأني) فأرودُوا (= أرفقوا)، ولا أكرَهُ لكمُ الإعداد.

ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمرِ وعينَهُ (= مثلٌ عربيٌّ في الاستقصاء والتأمل والتفكير)، وقلبتُ ظهرَهُ وبطنَهُ، فلم أرَ لي فيه إلا القتالَ أو الكفرَ بما جاءَ محمدٌ صلى الله عليه»[4].

3. معاوية يُماطل جريراً وعليٌّ عليه السلام في انتظار رسوله جرير: يقول المؤرِّخون. . .وجعل جرير كلما استعجل معاوية واستحثَّهُ ردّ الجواب، يقول معاوية: ويحك أبا عمرو، لا تعجل، وأبلغني ريقي حتى أنظُر في أمري، وأستطلع رأي أهل الشَّام، ثم إنِّي أُجيبُ صاحِبَكَ عن كتابهِ، وكرامته لك[5].

ثم كتبَ معاوية إلى عمرو بن العاص، وعمرو يومئذٍ بفلسطين، «أما بعد، فقد كانَ

(1) سورة الإسراء، الآية: 33.
(2) راجع، نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص31 - 32.
(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص157 - 159.
(4) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (43)، ص84.
(5) أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص33.

من أمرِ عثمانَ بن عفان ما علِمتَ، وإنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ قد اجتمعَ إليهِ رافضةُ أهلِ الحجازِ وأهلُ اليمنِ والبصرة والكوفة[1]، وقد وجَّهَ إلينا رسولَهُ جرير بن عبد الله، ولم أُجبهُ إلى هذهِ الغايةِ بشيءٍ، حبَستُ نفسي عليك، فأقدِم على بركةِ اللهِ وعونهِ لأُشاوِرَكَ، وأستعينَ على أمري برأيِكَ، والسَّلام»[2].

فلما وردَ كتابُ معاويةَ على عمرو بن العاص، وقرأهُ، دعا ابنيهِ عبدَ الله ومحمداً، فاستشارَهُما في ذلك، فقال عبد الله: .... ليسَ ينبغي لكَ أن تكونَ حاشيةَ معاوية على دُنياً زائلة عن أهلِها (رغم أنَّ عبد الله بن عمرو كان معروفاً بالاستقامة نسبياً، لكنه سينساقُ مع أبيهِ ويصطفّ معه في صفين ليحارب عليّاً عليه السلام، كما فعل محمد بن طلحة مع أبيهِ في الجمل)... وقالَ ابنُهُ محمد: أما أنا فأقولُ إنَّك شيخُ قريش وصاحِبُ أمرِها... فالحَق بجماعةِ من أهلِ الشَّام، فكُن يداً من أيديها واطلُب بدمِ عُثمانَ بن عفان، فلستَ أقلّ من معاوية. فأطرَقَ عمرو ساعة ثم قال: أما أنتَ يا عبدَ الله، فأشَرت عليَّ بما هو خيرٌ لي في ديني، وأما أنتَ فأشَرت عليَّ بما هو خيرٌ في دُنياي، وسأنظُرُ في ذلك[3].

وسارَ عمرو حتى قَدِمَ على معاوية فقرَّبَهُ وأدناهُ ورفَعَ مجلِسَهُ.... وقالَ لهُ معاوية: هاتِ فبايعني.

فقال عمرو: لا واللهِ ما أُعطيكَ من ديني شيئاً أو آخُذَ مِنكَ مِثلَهُ، فهاتِ ما الذي تُعطيني؟

فقالَ معاوية: أُعطيكَ رِضاكَ.

قالَ عمرو: رضايَ أرضُ مِصر (وفي رواية: مصر طُعمة، يعني حلاوة وقوفي معك).

فقالَ معاوية: إنَّ مِصرَكَ كالعراق (وفي رواية: يا أبا عبد الله، إنِّي أكرَهُ أن تتحدَّث العربُ عنكَ أنَّك إنَّما دخلتَ في هذا الأمرِ لغرضِ الدُّنيا).

قال عمر: صدقت إنَّها لكذلك (= مصر كالعراق)، ولكنَّها تكون لي إذا كانت العراقُ لك[4].

---

(1) نرصد في هذه الرسالة استخدام معاوية مصطلح «الرَّافضة» - ربما لأول مرة في التاريخ - للإشارة إلى شيعة الإمام علي عليه السلام.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص159.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص159 - 160. أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص34، أيضاً الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص560.

(4) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص161 - 162.

وتمَّت الصفقة، وكتبَ لهُ كتاباً، وكتب معاوية: «على أن لا ينقُضَ شرطٌ طاعة» (= طاعتُكَ لي تكون مطلقةً غير مشروطة)، وكتب عمرو «على أن لا تنقُضَ طاعةٌ شرطاً» (= إعطاؤُكَ مِصر طُعمة شرطٌ مطلق واجِبُ التنفيذ غير مُقيَّد بطاعتي لك)، وكايدَ كلُّ واحد منهما صاحبه(1).

وفي الحقيقة، كان معاوية بن أبي سفيان بحاجةٍ لإغراء عمرو بن العاص بمصر، لأنَّ وقوف عمرو مع معاوية تضحية يُقدِّمها الأول للأخير، لأنَّ عمرو سهميٌّ من قريش، التي حرَّضَت بالأمسِ على عثمان لأنهُ تحوَّلَ إلى واجهةِ بني أمية. فوقوفُ عمرو مع معاوية سيصُبُّ لمصلحةِ بني أمية، لا قريش، فلا بُدَّ أن يكونَ هُناكَ عِوَضٌ مناسِبٌ لذلِك.

ومن ناحية ثانية، كانَ معاوية بحاجة لعمرو، لا لمشورتهِ ودهائهِ فحسب، بل ليكونَ مفتاحاً لهُ لكسبِ قُريشٍ إلى صفِّهِ في معركته ضد الإمام علي عليه السلام. فوقوف عمرو مع معاوية رسالة لقريش بأنَّ عمرو رغمَ أنه ظُلِمَ من عثمان عندما عزلَهُ عن مِصر، مع ذلك، ها هو يُطالب بدمِ عُثمانَ، ويقِف بصفِّ معاوية. . .إذن جبهة معاوية ليست جبهة بني أمية فحَسب، بل جبهةَ قريش. . .هكذا كانَ معاوية يريد أن يوحي للقرشيين. . . . لكن ما كان لهذهِ الحيلة أن تنطلي على القرشيين، أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص.

نعود إلى الموضوع، يقولُ المؤرِّخون: لما تمَّت الصفقة بين معاوية وعمرو، غضبَ مروان بن الحكم، ثم دخلَ على معاوية، فقال: مالي لا أُشترى كما يُشترى غيري؟ فقال معاوية: إني إنما أبتاعُ الرِّجالَ لك، فسكتَ مروان(2).

من الآن فصاعداً، وابتداء من شراء عمرو بن العاص، سوف نلاحظ أنَّ معاوية سينشر ثقافة شراء الضَّمائر والذِّمم في أرجاء المجتمع الإسلامي، وهو أمرٌ لم يكُن مألوفاً في السَّابق.

4. وكانت لمعاوية محاولات لاستمالة المعتزلين (وأبرزهم من قريش) وتحريضهم على قتال الإمام علي عليه السلام: منها ما كتبَهُ لابن عمر: «أما بعدُ، فإنه لم يكُن أحدٌ من قريش أحبَّ إليَّ أن يجتمع عليهِ الأمة بعد قتلِ منكَ. ثم ذكرتُ خذلَكَ إياهُ (= خذلانك لعثمان) وطعنَكَ على أنصارهِ، فتغيَّرتُ لك. وقد هوَّنَ ذلِكَ عليَّ خِلافُكَ على عليٍّ، ومحا عنكَ بعضَ ما كانَ مِنك. فأعِنَّا - رحِمَكَ اللهُ - على حقِّ هذا الخليفة المظلوم، فإني لستُ أريدُ الإمارةَ عليك، ولكني أُريدُها لك. فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين. .».

---

(1) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص40.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص163، أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص42.

لاحظ أنَّ معاوية يُوزِّع الولاءات كما يشاء، فيقول لابن عمر: بأنَّكَ وإن كنت غير موالٍ لعثمان، لكن وقوفَكَ ضدّ علي عليه السلام، سيجعلنا نتسامح معك، لنعتبرك موالياً للخليفةِ المظلوم، وطريقكَ لإثبات الوَلاء هو أن تسير في طريق المطالبة بدمه!!

فأجابه ابن عمر: «أما بعدُ، فإنَّ الرأيَ الذي أطمعَكَ فيَّ هو الذي صَيَّرَكَ إلى ما صيَّرَكَ إليه. إني تركتُ علياً في المهاجرينَ والأنصار، وطلحةَ والزبير، وعائشةَ أم المؤمنين، واتَّبَعتُك! أما زعَمتَ أني طعنتُ على عليٍّ، فلعمري، ما أنا كعليٍّ في الإيمانِ والهجرة، ومكانهِ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ونكايتهِ في المشركين. ولكن حدَثَ أمرٌ لم يكُن من رسولِ الله صلى الله عليه وآله إليَّ فيهِ عهدٌ. ففزَعتُ فيهِ إلى الوقوف. وقُلتُ: إن كانَ هُدىً ففضلٌ تركتُهُ، وإن كانَ ضلالةً فشرٌّ نجوتُ منهُ، فأَغنِ عنا نفسَك»(1).

ومن محاولات معاوية استمالة قريش، ما كتبَهُ لسعد بن أبي وقاص: «أما بعد، فإنَّ أحقَّ الناسِ بنصرِ عثمان أهلُ الشُّورى من قريش (= الشُّورى السُّداسية التي أسَّسها عمر)، الذين أثبتوا حقَّهُ واختاروهُ على غيرهِ، وقد نصرَهُ طلحةُ والزبيرُ (= وقاما بالمسؤولية على أتم وجه!) وهما شريكاكَ في الأمرِ ونظيراكَ في الإسلام، وخَفَّت لذلِكَ أمُّ المؤمنين، فلا تكرَهَنَّ ما رضوا، ولا ترُدَنَّ ما قبِلوا، فإنا نرُدُّها شورى بينَ المسلمين».

فأجابَهُ سعد: «أما بعد، فإنَّ عُمَرَ لم يُدخِل في الشُّورى إلا من يَحِلُّ لهُ الخلافة من قريش (= لم يدخل أمثالك من الطُّلقاء ممن اتَّفقت كلمة المهاجرين والأنصار على استبعادهم)، فلم يكُن أحدٌ منا أحقَّ بها من صاحبهِ إلا باجتماعِنا عليه (= أي المعيار في الاختيار اتفاق كلمة وجهاء المهاجرين من أعضاء الشُّورى السُّداسية)، غيرَ أنَّ علياً قد كانَ فيهِ ما فينا، ولم يكُ فينا ما فيهِ. وهذا أمرٌ (= منهج الشُّورى السُّداسية) قد كرِهنا أوَّلَهُ وكرِهنا آخره. فأما طلحة والزُّبير فلو لزِما بيوتَهُما كانَ خيراً لهما، والله يغفِرُ لأمِّ المؤمنينَ ما أتَت»(2).

---

(1) أقول: بل حاول عمرو بن العاص معه أيضاً لتحريضه لطلب الخلافة، لكن عبد الله بن عمر رد عليه: أف لك، أخرج من عندي، ثم لا تدخل علي، ويحك، إن ديني ليس بديناركم ولا درهمكم، وإني أرجو أن أخرج من الدنيا ويدي بيضاء نقية (راجع: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 4/ 164)، وكان يقول في مرضه الذي مات فيه: ما أجدني آسى على شيء من أمر الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية (راجع: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، 4/ 187). لاحظ أنه لم يندم على عدم مقاتلته أصحاب الجمل، لأنهم يمثلون قريشاً، وإنما ندم على عدم مقاتلة الفئة الباغية، لأنهم في حقيقة الأمر بنو أمية، التي انقلبت على قريش.

(2) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص71 - 75.

وكذا كتبَ إلى محمَّد بن مسلمة محاولاً استمالتهُ وتحريضهُ[1].

5. علي عليه السلام يُحذِّر جريراً من فسح المجال لمعاوية لكسب الوقت للتهيُّؤ للحرب:

يقول ابن الأعثم.... .وكان معاوية أتى جريراً في منزلهِ فقال: إني قد رأيتُ رأياً (= لدي صفقة جديدة لعليّ عليه السلام).

قال جرير: هاتَهُ.

قال: اكتُبُ إلى صاحبِكَ يجعَل لي الشَّام ومصر جِباية، فإذا حضرَتهُ الوفاة لم يجعَل لأحدٍ بعدَهُ بيعة في عُنُقي، وأُسَلِّمُ لهُ هذا الأمر، وأكتُبُ إليهِ بالخلافة (= يُسلِّمني الشَّام ومصر على أن أبايعه بالخلافة بشرط أن لا ألتزم بالخليفةِ الذي يليه).

فقال جرير: اكتُب ما أردتَ، وأكتُبُ معك.

فكتبَ معاوية بذلكَ إلى عليّ عليه السلام.

جواب الإمام علي عليه السلام عن هذه الصفقة كان موجَّهاً لجرير، قال فيه: أما بعدُ يا جرير، فإنَّ معاويةَ إنَّما أرادَ بكتابهِ هذا أن لا يجعَل لي في عُنُقهِ بيعة (= ليكون هو الخليفة بعدي)، وأن يختارَ من أمرهِ ما يُحِب (= يريد أن يكون-كما يقال-لاعباً حراً)، وإنما احتبسكَ عندَهُ ليذُوقَ أهلَ الشَّام، وقد علمتَ يا جرير أنَّ المغيرةَ بنَ شُعبة أشارَ عليَّ وأنا بالمدينةِ أن أستعمِلَ معاوية على الشَّام، فلم أفعَل، ولم يكُن اللهُ تباركَ وتعالى ليَراني وأنا أتَّخِذُ المُضِلِّينَ عضُداً، فانظُر إن بايَعَكَ الرَّجُلُ، وإلا فأقبِل ولا تكُن رَخوَ الجَنان (= ضعيف القلب)، والسَّلام[2].

في هذه الأثناء، بعث محمد بن أبي بكر - بوصفه ابن الخليفة الأول - رسالة شديدة اللَّهجة لمعاوية، وردَّ عليه معاوية برسالة أشدّ لهجة، كشف فيها عن «المسكوت عنه»، فكان مما كتبَ محمد لمعاوية: «من محمدِ بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر.... أنتَ اللعينُ ابنُ اللعين، لم تزَل أنتَ وأبوكَ تبغِيان لدينِ اللهِ الغوائل، وتجتهدانِ في إطفاءِ نورِ الله، وتجمعانِ على ذلِكَ الجُموع، وتبذُلانِ فيهِ المال، وتُحالِفانِ في ذلك القبائل، على هذا ماتَ أبوك، وعلى ذلك خلَفتَهُ.... فكيفَ - يا لكَ الويل - تعدِل نفسَكَ بعليٍّ، وهو وارثُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ووصيُّهُ وأبو وُلدِهِ...».

فردَّ عليه معاوية: «من معاويةَ بن أبي سفيان إلى الزَّاري على أبيهِ محمد بن أبي بكر... فقد كُنَّا وأبوكَ معنا في حياةِ نبيِّنا، نرى حقَّ ابنَ أبي طالبٍ لازِماً لنا، وفضلَهُ

---

(1) راجع، نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص76 - 77.

(2) أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص52.

مبرَّزاً علينا، فلما اختارَ اللهُ لنبيهِ ما عندَهُ، وأتمَّ لهُ ما وعدَهُ، وأظهرَ دعوتَهُ، وأفلَجَ حُجتَّهُ، قبَضَهُ اللهُ إليهِ، فكانَ أبوكَ وفاروقه أوَّل من ابتزَّهُ وخالَفَهُ، على ذلِكَ اتفقا واتَّسَقا، ثم دَعواهُ إلى أنفُسِهِما فأبطأ عنهما، وتلكَّأ عليهِما، فهمَّا بهِ الهُمُوم، وأرادا بهِ العظيم، فبايَعَهُما وسَلَّم لهُما، ولا يُشرِكانهِ في أمرِهِما، ولا يُطلِعانهِ على سِرِّهِما، حتى قُبِضا وانقضى أمرُهُما.

ثم أقاما بعدَهُما ثالِثَهُما عثمانَ بن عفان، يهتدي بهديِهِما، ويسيرُ بسيرَتِهما، فعِبتَهُ أنتَ وصاحِبُك (يعني الإمام علي عليه السلام)، حتى طمعَ فيه الأقاصي من أهلِ المعاصي. . . .

. . .أبوكَ مَهَّدَ مِهادَهُ (= هو الذي عبَّدَ هذا الطريق)، وبنى مُلكَهُ وشادَهُ، فإن يكُن ما نحنُ فيهِ صواباً فأبوكَ أوَّلُهُ. وإن يكُن جَوراً فأبُوك أُسُّهُ ونحنُ شركاؤُهُ، فبهديهِ أخَذنا، وبفعلهِ اقتدينا، رأينا أباكَ فعلَ ما فعل، فاحتذينا مثالَهُ، واقتدينا بفعالهِ، فعِب أباكَ بما بدا لك، أو دَع، والسَّلامُ على من أناب، ورجَعَ عن غوايتِهِ وناب»[1].

6. صبرُ الإمام علي عليه السلام على رسولهِ جرير يكاد ينفَد ومعاوية يُدخِل شُرَحبيل في المعادلة: عندما شعرَ الإمام علي عليه السلام بأنَّ معاويةَ يُماطِلُ جريراً، أرسلَ لجريرٍ كتاباً آخرَ، كتبَ فيه: «أما بعدُ يا جرير، فإذا أتاكَ كتابي فاحمِل معاوية على الفَصل، وخُذهُ بالأمرِ الجَزم (أو الحزم)، ثم خيِّرهُ بين حربٍ مُجلِيَة أو سِلم مُخزِية، فإن اختارَ الحربَ فانبِذ إليه، وإن اختارَ السِّلمَ فخُذ بيعتَهُ، وأقبِل إليَّ، والسلام»[2].

فلما وردَ الكتاب على جرير أخذَهُ وأتى بهِ إلى معاوية، فأقرأهُ إياه، ثم قال: يا معاوية أما إنِّي قد تأنيتُكَ إلى وقتي هذا، ولا واللهِ ما أظنُّ قلبَكَ إلا مطبوعاً، وإني أراكَ قد وقفتَ على الحقِّ والباطل وقوفَ رجُلٍ جبَّارٍ ينتظرُ شيئاً في يدِ غيرِهِ، ولا أظُنُّكَ مُبايعاً حتى لا تجِد بُدّاً. . .وهذا كتابُ أمير المؤمنين وقد وردَ عليَّ، فإما أن تُبايع حتى أعلمَ ذلك، فأكتُبُ إلى صاحبي ببيعتِكَ، وإما أن تختارَ الحربَ، فأعمَل على حسبِ ذلك.

فقالَ معاوية: نعم وكرامة أبي عمرو، واللهِ ما انتظاري إلا على رجُلٍ واحدٍ، وهو شُرَحبيل بن السَّمط بن الأسود بن جبلة الكِندي، وذلك أنهُ سيدٌ من ساداتِ أهل الشَّام، ولا أحبُّ أن أقطعَ أمراً دونَهُ[3].

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج2، ج3، ص110 - 111، أيضاً نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص118 - 121.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص164 - 165. الألفاظ مأخوذة من تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 30، ص809. راجع أيضاً: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص55.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص166.

ثم دعا معاوية عمرو بن العاص فقال: أبا عبد الله هاتِ الآن ما ترى في عليٍّ بن أبي طالب؟

فقال عمرو: أرى فيهِ خيراً، إنه قد أتاك هذا، خيرُ أهلِ العراق جرير، ومن عندِ خيرِ الناس، علي بن أبي طالب، وردُّ هذهِ البيعة خطرٌ شديد، وأمرٌ عظيم، ورأسُ أهل الشَّام اليوم شُرَحبيل بن السَّمط الكندي، وهو عدوٌّ لجرير، فأرسِل إليهِ، وعَبِّئ لهُ رجالاً من ثقاتِك، يشهَدونَ أنَّ علياً قتلَ عثمان، وليكُن المُستَشهَدونَ من أهلِ الرِّضا (= لهم مصداقية عند الناس)، فإنَّها كلمةٌ جامعة، فإن علَقَت الشَّهادةُ بقلبهِ، لا يُخرِجُها شيءٌ أبداً[1].

فجمعَ معاوية رؤساء الشَّام ثم قال: أتدرونَ لماذا جمعتُكُم؟

قالوا: لا عِلمَ لنا بذلك.

فقال: إن شُرَحبيل بن السَّمط، سيدٌ من ساداتِ قومهِ، وهو عدوٌّ لجريرِ بن عبد الله البَجَلّي، وقد عزَمتُ أن أكتُبَ إليه (= إلى شُرَحبيل) ليصيرَ إليَّ، فإذا قدِمَ عليَّ أخبرتُهُ أنَّ علياً قتلَ الخليفةَ عثمان بن عفان، فإن طلَبَ مني شهادة، كنتُم أنتمُ الشُّهود لي على ذلك.

فقال القوم: كُفيتَ يا معاوية، فوَجِّه إليه.

فعندها كتبَ إليه معاوية، وشُرَحبيل يومئذٍ بمدينةِ حِمص.

ثم سارَ شُرَحبيل حتى دخلَ على معاوية، فقرَّبَهُ معاوية وأدناهُ، ثم قال: يا أبا السَّمط إنَّ جرير بن عبد الله قد أتى من الكوفةِ يدعو إلى بيعةِ علي بن أبي طالب عليه السلام، ولسنا نشُكُّ في عليٍّ عليه السلام أنهُ خيِّرٌ فاضِل لولا أنهُ قتلَ الخليفةَ عثمان بن عفان، وقد حبَستُ نفسي عليك، لأنَّكَ رجلٌ من ساداتِ كندة، وأنا واحدٌ منكُم، أرضى بما ترضَون، وأكرهُ ما تكرهون، فهاتِ ما عندك؟

فقال شرحبيل: إن سمِعتُ مقالَتَكَ، ولستُ أقضي على غائبٍ، ولكن تؤخِّرني الليلةَ حتى أُصبح، وأسأل غيرَكَ عن هذا الأمر، فإن شهِدَ عندي رجُل من سادات أهل الشَّام أنَّ علياً عليه السلام قتلَ عثمان، صدَّقتُكَ وقاتلتُ بينَ يديك أنا وجميع من أطاعَني من قومي[2].

ثم انصرفَ شُرَحبيل إلى رحلهِ، فلما أصبحَ وجَّه إليهِ معاوية بالقومِ الذين أعدَّهُم لهُ - في ترجمة شُرَحبيل في «أسد الغابة» أنَّ من الشُّهود بُسر بن أبي أرطاة ويزيد بن أسد جد خالد القسري وأبا الأعور السُّلمي وغيرهم - فشَهِدوا عندَهُ أنَّ علياً عليه السلام قتلَ عثمان.

فعِندَها أقبلَ شُرَحبيل حتى دخلَ على معاوية، فقال: يا هذا لقد شَهِدَ عندي العدول

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص167.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص169 - 170.

أنَّ عليّاً قتلَ الخليفةَ ظُلماً، وواللهِ لئن أنتَ بايعتَهُ لنُخرِجنَّك من الشَّام، فاردُدِ الرَّجُلَ (يعني جريراً) إلى صاحبِهِ (يعني الإمام علياً عليه السلام)، فواللهِ ما لصاحبِهِ عندَنا إلا السَّيفُ!

وهكذا صار شُرحبيل أكثر حماسة من معاوية في المطالبة بدَم عثمان!! والسَّبب يكمن في عُمق عداوة شُرَحبيل لجرير. . .هذه العداوة وظَّفها معاوية بدهاءٍ شديد في سبيل تحقيق أغراضه.

يقول ابن أعثم: وأقبلَ شُرَحبيل حتى دخلَ على جرير، فقالَ لهُ: يا هذا، لقد جئتَ بأمرٍ مُلفَّق، أردتَ أن تُلقينا في لهواتِ الأسد، وأردتَ أن تخلِطَ الشَّامَ بالعِراق، ولقد أطريتَ من ذِكرِ صاحِبِك علي عندَ أهل الشَّام، ما ظنُّوا أنه على ما تقول، حتى صحَّ عندَنا أنهُ هو الذي قتلَ الخليفةَ عثمان بن عفان.

فضحكَ جرير ثم قال: أما قولُكَ بأني جئتُ بأمرٍ مُلفَّق، فكيفَ يكونُ مُلَفَّقاً وقد اجتمعَ عليهِ المهاجرونَ والأنصار، وقوتِلَ عليهِ طلحة والزُّبير. وأما قولُكَ أني أردتُ أن أخلِطَ الشَّامَ بالعراق، فإنَّ خلطَهُما على الحق خيرٌ من تفريقِهِما على الباطل. وأما قولُكَ أنَّ صاحبي قتلَ عثمان بن عفان، فواللهِ ما في يديك شيءٌ من ذلِكَ إلا القذفُ من مكانٍ بعيد، واللهُ سائِلُكَ عن ذلك يومَ القيامة. ولكنَّك يا شُرَحبيل مِلتَ إلى الدُّنيا كما مالَ غيرُك، وشيءٌ كانَ في نفسِكَ عليّ، وستعلَمُ عن قريبٍ أنَّ ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

7. جرير يعودُ إلى عليٍّ عليه السلام بعد أن أعطي معاوية فرصة إبرام صفقة مع عمرو وإضلال شُرَحبيل سيد كندة: يقول ابن الأعثم. . . . . ثم أرسل معاوية إلى جرير أن الحَق بصاحِبِك[2]، فأخبِرهُ بالذي سمِعتَ من مقالةِ أهل الشَّام، فأمرَ جريرُ فقَدِمَت أثقالُهُ ثم استوى على فرسهِ وسارَ حتى قدِمَ على عليٍّ عليه السلام بعدَ عشرين ومائة ليلة (يعني استغرقت مهمَّة جرير التفاوضية أربعة أشهر كاملة).

فأخبرَ جريرُ علياً عليه السلام بأخبارِ معاوية، وما سمِعَ من أهلِ الشَّام، فقال الأشتر: واللهِ يا أميرَ المؤمنين لو كُنتَ أرسلتَني إلى معاوية لكنتُ خيراً لكَ من هذا الذي أرخى خِناقَهُ، وأقامَ حتى لم يدَع باباً مفتوحاً إلا أغلَقَهُ، ولا مُغلَقاً إلا فتَحَهُ.

فقال جرير: أما واللهِ لو كُنتَ مكاني لقتلوك، لأنِّي سمِعتُهُم يقولون بأنَّك مِمن قتَلَ عثمان. . . فلِمَ لا تأتيهمُ الآن؟

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص170 – 171، أيضاً راجع: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص44 – 48.

(2) أيضاً راجع: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص56.

فقال الأشتر: وكيفَ آتيهِم وقد أفسدتَهُم...

وجرى بين الأشتر وجرير جدلٌ طويل وكلامٌ كثير كانت نتيجتُهُ أن لحقَ جرير بقِرقسيا (البصيرة حالياً في سوريا) واعتزلَ القوم[1].

ولما بلغ الإمام علياً عليه السلام ما اتهمَهُ بنو أمية بالمشاركة في دم عثمان قال: «أولم ينهَ بني أمية علمُها بي عن قَرفي (= عيبي)، أو ما وَزَعَ الجُهّالُ سابِقَتي عن تُهمتي! ولَمَا وعَظَهُمُ اللهُ بهِ أبلغُ من لساني. أنا حجيجُ المارقين، وخصيمُ الناكثينَ المرتابينَ، على كتابِ اللهِ تُعرَضُ الأمثال، وبما في الصدورِ تُجازى العِباد»[2].

8. سماح الإمام علي عليه السلام لسعيد بن قيس الهمداني[3] أن يكتُب لشُرَحبيل محذراً ومنبِّهاً: يقول ابن الأعثم ... ثم أقبلَ معاويةُ على شُرَحبيل فقال: ... أريدُ مِنكَ أن تكتُب إلى مدائنِ الشَّام فتُعَلِّمَهُم بما كان من إجابَتِهم، فلعلَّهُم أن يغضبوا للخليفةِ المظلوم، فقال شُرَحبيل: لا ولكن أسيرُ إليهم بنفسي، فأُحرِّضَهُم على ذلك!

ثم سارَ شُرَحبيل حتى دخَلَ حِمص، ثم نادى في أهلِها فجَمعَهُم... فأجابَهُ أهلُ حِمص بأجمَعِهِم، وجعلَ شُرَحبيل لا يأتي مدينة من مدائنِ الشَّام إلا دعاهُم إلى نصرِ معاوية، وحرَّضَهُم على قتالِ علي بن أبي طالب، حتى اجتمعَ إليهِ خلقٌ كثير، فأقبلَ بهم إلى معاوية، فبايعوهُ على أنهم يُقاتلونَ بين يديهِ، ويموتونَ تحتَ ركابهِ....[4].

وأقبلَ سعيدُ بن قيسِ الهَمداني إلى عليٍّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ شُرَحبيل رجلٌ عميُّ القلب، قد سارَ في مدائنِ الشَّام فاستَنفَرَهُم إلى حربِنا، فإذن لي أن أكتُب إليهِ كِتاباً فلعلِّي أُشكّكهُ في ما هو فيه.

فقال علي عليه السلام: أكتُب ما أحببت.

فكانَ مما كتَبَ سعيد لشُرَحبيل: «عبأ لكَ معاويةُ رجالاً لا يَعرِفونَ الحَلالَ ولا يُنكِرونَ الحرامَ، فاختَدَعوكَ وشَهِدوا عِندَكَ أنَّ علياً عليه السلام قتلَ عثمان! ولو نظَرتَ بعَقلِكَ لعلِمتَ أنَّ ذلِكَ باطلٌ وزور. ولو أنَّ علياً عليه السلام قتلَ عثمان لما بايعَهُ المهاجرونَ والأنصار، وهم واضعونَ أسيافَهُم على عواتِقِهم، يُقاتلونَ معهُ من خالفَهُ من أهلِ البصرة

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص171 - 172. أيضاً راجع: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص59 - 61. الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص561.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (75)، ص103.

(3) من رجالات الإمام علي عليه السلام، يرجح بعض المحققين وفاته بين 41 - 45 هج.

(4) راجع، نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص50.

وغيرهم. فلا تكُن رأسَ الخطية ومِفتاحَ البَليّة، فإني ما زلتُ لكَ ناصِحاً وعليكَ مُشفِقاً، والسلام».....

فلما انتهى الكتابُ إلى شُرَحبيل، أخذَهُ فأتى بهِ معاوية، فأقرأَهُ إياه.

فقال معاوية: لا عليك، هو سيدٌ في هَمدان، وأنت سيدٌ في كِندة، فأجِبهُ على كتابهِ....

فكتبَ إليهِ شُرَحبيل، فكانَ مما كتَب: «أما قولي بأنَّ علياً عليه السلام قتلَ عثمان، فإني أخَذتُ ذلِكَ عن الثِّقات من أهلِ الرِّضى، ولا يُقالُ للشاهدِ من أينَ قُلت؟ فأما المهاجرون والأنصار، فلَهُم ما في أيديهم من بيعةِ علي عليه السلام، ولنا ما في أيدينا من بيعةِ معاوية، والسَّلام»[1].

الخلاصة: لم يكد الإمام علي عليه السلام يفرغ من حرب الناكثين (طلحة والزبير وعائشة) حتى جعل يتأهَّب لحرب القاسطين (معاوية وعمرو بن العاص)، ورأى عليه السلام أن يُغادر البصرة إلى الكوفة ليجعلها عاصمة له ليستعد لحرب معاوية.

وأوفد الإمام علي عليه السلام إلى معاوية يدعوهُ للدُّخول فيما دخلَ فيه المسلمون من مبايعته، ورأى معاوية أنه لا يستطيع مواجهة الإمام علي عليه السلام إلا إذا انضمَّ إليه الدَّاهية عمرو بن العاص (السَّهمي) الذي كان واجداً ومُحرِّضاً على عثمان لأنه عزله عن مصر، فعرض عليه معاوية صفقة بأن يقف معه في حرب علي عليه السلام على أن تكون له ولاية مصر، فما أن وصل عمرو بن العاص إلى الشَّام حتى جعل يبكي أمام أهلها كما تبكي المرأة وهو يقول: واعثماناه أنعى الحياء والدين (كما ينقل الطبري في تاريخه)[2].

وكان جواب معاوية للإمام علي عليه السلام رفضَ الدُّخول في الطَّاعة، وتحميله عليه السلام مسؤولية دم عثمان، وطلبَ منه أن يدفع إليهِ قتلة عثمان، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين. وألهبَ معاوية مشاعر أهل الشَّام عندما نشر قميص عثمان ملطَّخاً بدمائهِ على المنبر، وملحقاً به أصابع زوجته نائلة، فصار الناس يضُجُّون بالبكاء والعويل، واستخدم الوُعَّاظ والشَّخصيات العامة فجعلوا يُهوِّلون أمره، ويدعون الناسَ إلى الأخذ بثأره[3].

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص173 - 176.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص559.

(3) كمثال على الشخصيات العامة شُرَحبيل بن السَّمط، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، فقد تم الاستفادة من كونه ابن الخليفة الثاني استفادة كبيرة، ووظف معاوية خوف وهرب عبيد الله من علي عليه السلام بسبب قتله الهرمزان بعد اغتيال أبيه لمجرد اشتباه عبيد الله في تورط الهرمزان في اغتياله. للتفاصيل أنظر: نصر ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص82 - 83.

لقد كانت أكثر الصِّعاب التي واجهها الإمام علي عليه السلام انشقاق معاوية، وتخلُّف الشَّام بأسره، عن الانضمام إلى بيعته. هذا التناقض، شقَّ المجتمع الإسلامي في الدَّولة الإسلامية إلى شقَّين، ووجد في كلٍّ منهما جهازٌ سياسي وإداري لا يعترف بالآخر[1]. فمعاوية لم يعصِ علياً عليه السلام لأنه عُزل عن الولاية، وإنما كان ذلك في أكبر الظن جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد للأموية على الإسلام[2].

في المقابل، قام الإمام علي عليه السلام بسلسلة من المحاولات لتفادي حرب صفين. وكان أبرزُها وأطولُها، محاولة جرير البَجَلِّي، التي استغرقت أربعة أشهر، لكنها لم تُسفِر عن شيء، بل فسحَت في المجال لمعاوية للاستفادة من الوقت وعقد صفقة مع عمرو وإضلال شُرحبيل، الذي قام بدورهِ بتحريض أهل الشَّام لحرب الإمام علي عليه السلام. وتحدَّثنا عن محاولة معاوية لاستمالة قريش من خلال الكتابة لعبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص، لكن حيلته لم تنطل عليهما.

في الفصل القادم سنواصل سرد محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي الحرب، وسنتحدَّث عن الرَّسائل الكتبية والشفوية والوفود الشخصية والجماعية التي كانت تترى على معاوية من قبل الإمام علي عليه السلام، وما جرى من أحداث قبيل حرب صفين.

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت** عليهم السلام، ص152 - 153.

(2) المصدر السابق، ص141.

(14)

محاولات جديدة لتفادي الحرب

كنا نتحدث في الفصل السابق عن وساطة جرير البَجَلي، رسول الإمام علي عليه السلام لمعاوية، وما أسفرَ عنها من فسح الوقت الكافي لمعاوية لإبرام صفقة مع عمرو بن العاص، والتَّخطيط لإضلال شُرَحبيل الكِندي.

في هذا الفصل نريد مواصلة سرد محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي حرب صفين. فبعد عودة جرير، ومحاولة سعيد الهَمداني غير الناجحة لتنبيه شُرَحبيل، استأنف الإمام علي عليه السلام مراسلاته مع معاوية، بعدما وردَهُ من معاوية رسالة يُصرِّح له فيها بأن ليس في نيَّتِهِ، ولا في نيَّة أهل الشَّام، البيعةَ له، ما لم يتم الاقتصاص من قتلة عثمان، والعودة إلى الشُّورى!

1. خمس مراسلات جديدة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية قبل خروج الأخير إلى صفين: كتبَ ابن الأعثم أنَّ معاويةَ كتبَ إلى الإمام علي عليه السلام «.... إنما أفسَدَ عليك بيعتي خطيئَتُك في عثمان (= ما يدفعني لعدم مبايعتك ما تورَّطت فيه في أمر عثمان)، وإنما كانَ أهلُ الحِجاز همُ الحُكَّام على النَّاس حينَ صارَ الحقُّ فيهم، فلما تركوهُ صارَ أهلُ الشَّامِ هُمُ الحُكَّام على أهلِ الحِجاز وغيرِهم من النَّاس. ولعمري ما حُجَّتُكَ عليَّ كحُجَّتكَ على طلحة والزُّبير، ولا حُجَتُّكَ على أهلِ الشَّام كحُجَّتك على أهلِ البصرة، لأنَّ طلحةَ والزُّبير قد كانا بايعاكَ ولم أُبايِعْك، وبايَعَكَ أهلُ البصرة ولم يُبايِعْكَ أهلُ الشَّام. وأما فضلُكَ في الإسلام، وقرابَتُك من الرَّسول صلى الله عليه وآله وموضِعُكَ من بني هاشم فلستُ أدفَعُهُ، والسَّلام»[1].

يقول العقاد: «من ردّ معاوية هذا، تبدو النِّية الواضحة في فتح أبواب الخِلاف واحِداً بعدَ آخر. كُلما أُغلِقَ بابٌ منها بقِيَ من ورائهِ بابٌ مفتوح. فتسليمُ قتلة عثمان لا يكفي، لأنَّ عليّاً نفسَهُ متهمٌ بالإغراءِ والتخذيل. وبراءةُ عليٍّ من هذهِ التُّهمة لا تكفي، لأنَّ المرجع

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص186 - 187.

بعد ذلك إلى الشُّورى والنظر في البيعةِ من جديد. وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي، لأنَّ الحقَّ قد خرجَ منهم إلى أهلِ الشَّام، وهم الحُكَّامُ على الناس، لأنَّهم يحكُمونَ لمعاوية ولا يحكُمونَ لغيرِهِ. ومن ثَمَّ بطَلَت الحُججُ والرَّسائل، كما تبطُل كلُّ حجةٍ وكلُّ رسالة، عندما يُقال باللسانِ غير ما يجولُ في الصدور»[1].

أما فيما يتعلَّق باتهامهِ عليه السلام بالتورُّط في التَّساهُل مع قتلة عثمان، يقول العقاد: «طالبوهُ بالقوَد (= القصاص)، ولم يُبايعوهُ، مع أنَّ القوَد لا يكونُ إلا من وليِّ الأمر المُعتَرف لهُ بإقامةِ الحدود»[2]. فإن كانوا ممن اعترفَ بشرعيةِ ولايتهِ، فعليهم أن يُمهِلوهُ حتى تستقرّ لهُ الأمور، ثم يسألوهُ القِصاص. وإن لم يعترفوا بشرعيةِ ولايتهِ، فلم يُطالبونَهُ بالقِصاص إذن؟!

ردَّ الإمام علي عليه السلام على معاوية كاتباً له: «زعَمتَ أنهُ إنَّما أفسدَ عليكَ بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنتُ إلا رجُلاً من المهاجرين، أورَدتُ كما أوردوا، وصدَرتُ كما صدروا، وما كانَ اللهُ ليجمَعَهُم على ضلالٍ، ولا يضرِبَهُم بعمىً. وأما ما زعمتَ أنَّ أهلَ الشَّام هم الحُكَّامُ على أهلِ الحجاز، فهاتِ رجُلين من قُرَيشِ الشَّام يقبلانِ الشُّورى، أو تحِلُّ لهمُ الخلافة، فإن زعَمتَ ذلِكَ كذَّبَك المهاجرونَ والأنصار، وإلا فأنا آتيكَ بِهم من قريشِ الحجاز. وأما ما ميَّزتَ بينَكَ وبينَ طلحةَ والزُّبير، وبينَ أهلِ البصرة وأهلِ الشام، فالأمرُ في ذلِكَ إليَّ واحدٌ، لأنَّ بيعةَ العامة لا يُستثنى فيها النَّظَر، ولا يُستأنَفُ فيها الخَبَر. وأما فضلي في الإسلام، وقرابتي من الرَّسول صلى الله عليه وآله، وموضعي من بني هاشم، فلو استطَعتَ دَفعَهُ لفَعَلتَ، والسَّلام»[3].

فردَّ عليهِ معاوية بجراءةٍ مثيرة: «أما بعدُ، فاتَّقِ اللهَ يا عليّ، ودَعِ الحَسَدَ، ولا تُفسِدَنَّ سابقةَ قِدَمِكَ في الإسلام، بشِرَّةِ حديثِك، فإنَّ الأعمالَ بخواتيمِها، ولا تُلحِدَنَّ بباطلٍ من حقِّ من لا حقَّ له، فإنكَ إن تفعل ذلك لن تضُرَّ إلا نفسَك، ولا تمحَق إلا عملَك. ولعمري ما مضى لكَ من السَّوابِقِ الحسنة لحقيقٌ أن يردَعَك عما قد اجترأتَ عليهِ من سفكِ الدماء، وإجلاءِ أهلِ الحق عن الحلِّ والحَرَم، فاقرأ سورةَ الفلق، وتعوَّذ باللهِ من شرِّ ما خلَق، ومن شرِّ نفسِك، والحاسدِ إذا حسَد. . . . . والسَّلام»[4].

---

(1) عباس محمود العقاد، **عبقرية الإمام علي**، ص78.

(2) المصدر السابق، ص101.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص188. أنظر تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 58، ص843 - 846 مع فوارق.

(4) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص189.

ونلاحظ ابتداءً من رسالةِ معاوية هذه أنَّ مستوى الخطاب بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية قد تغيَّر. ولو كانت الرَّسائل شخصيَّة وخاصَّة بينهما، لرُبما كان الإمام علي عليه السلام قد توقَّفَ عن الجدَل مع معاوية. . . . لكن أظنُّ بقوة أنَّ تلك الرَّسائل كانت تُتَداوَل بين جماهير الطَّرفين، فكأنَّ كل واحد منهما كان يريدُ أن يوصِل رسائل معينة، ليس لشخصِ الآخر، وإنما لجماهيرِ الطَّرف الآخر.

وقد ردَّ الإمام علي عليه السلام عليه كاتباً: «أما بعدُ، فقد أتَتني مِنكَ موعظةٌ مُوَصَّلةٌ (= ملفقة من كلامٍ مختلف وصل بعضه ببعض، ينطوي على مفارقات، كالثوب المُرقَّع)، ورسالةٌ مُحبَّرةٌ (= مُزيَّنة)، نمَّقتَها (= حسنت كتابتها) بضلالِك، وأمضيتَها بسوءِ رأيك. . . . ولولا علمي بِكَ، وما قد سبَقَ من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فيكَ مما لا مرَدَّ لهُ دونَ نفاذِهِ، إذاً لوعظتُك. ولكن عِظَتي لا تنفع من حقَّت عليهِ كلمةُ العذاب، ولم يخَف العقاب، ولم يَرجُ للهِ وقاراً، ولم يخَف منهُ حذاراً. وأما تحذيرُكَ إيايَ أن يحبَطَ عمَلي وسابِقَتي في الإسلام، فلعَمري لو كنتُ الباغي عليكَ لكانَ لكَ أن تُحذِّرني ذلك، ولكنّي وجدتُ اللهَ تعالى يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[1] . . . . وأما شقُّ عصا هذهِ الأمة، فأنا أحقُّ أن أنهاكَ عنهُ. . . . والسَّلام»[2].

فردَّ معاوية بنحو أكثر جرأة حيث كتب: «أما بعدُ، فإنَّ الرَّينَ على قلبِك، والغطاءَ على بصرِك، والشِرَّةَ على سيمتِك، والغدرَ من سجيَّتِك، فأبشِر بالحرب، واصبر للضَّرب، فواللهِ ليرجِعنَّ الأمرُ إلى ما قد علِمت، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3] فهيهاتَ هيهاتَ يا عليّ، أخطأتَ التَّمنّي، وهوى قلبُكَ فيمن هوى. . . والسَّلام»[4].

فردَّ عليهِ الإمام علي عليه السلام كاتباً: «أما بعدُ، فإنكَ قد رأيتَ مُرورَ الدُّنيا وانقضاءَها، وتصرُّمَها وتصَرُّفَها بأهلِها فيما مضى منها. وخيرُ ما اكتسبتَ مما بقيَ من الدُّنيا ما أصابَ العباد الصالحون الصادقون فيما مضى منها من التَّقوى. . . . فكيفَ أنتَ صانعٌ إذا تكشَّفَت عنكَ جلابيبُ (= جمع جلباب، وهو الثوب فوق جميع الثياب) ما أنتَ فيه من دُنيا قد تبهَّجَت (= تحسنت) بزينَتِها، وخدَعَت بلذَّتِها. . .دعَتكَ فأجَبتَها، وقادَتكَ فاتَّبعتَها، وأمرَتكَ فأطَعتَها. . . . وقد دعوتَ إلى الحرب، فإن كُنتَ صادقاً فيما تسطُر،

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص189 - 190. أنظر تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 58، ص843 - 846 مع فوارق.

(3) سورة الأعراف، الآية: 128.

(4) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص190.

ويُعينُك عليهِ الأبتران أخو بني سهمٍ وابنُ النابغة، فدَعِ الناسَ جانِباً وابرُز لما دعوتَني إليهِ من الحربِ، والصَّبرِ على الضَّربِ. . .فأنا عليُّ بنُ أبي طالب، وأنا أبو الحسن والحسين، قاتِلُ جَدّكَ عُتبة، وأخيكَ حنظَلة، وعمّك شَيبة، وخالكَ الوليد، شَدخاً (= كسراً في الرطب) يومَ بدر، وما أنتَ منهم ببعيد، وذلك السَّيفُ معي، وبذلِكَ ألقى عَدُوِّي. . . والسَّلام»[1].

نلاحظ في رسالة الإمام علي عليه السلام الأخيرة أنَّ معركة بدر ما زالت حاضرة في الوجدان. معاوية من جانبه ردَّ مُتَّهِماً عمَّاراً وأصحابهُ بأنهم هم المُحرِّضون لعليّ عليه السلام، فأنا وأنت يا علي عليه السلام قرشيان عدنانيان، فما بالك تقبل بأن تكون الصَّوت الناطق للأرذلين القحطانيين، هؤلاء يفترض أن يستخدموا كأدوات، لا أن تكون الصَّوت الناطق لهم، كتب معاوية: «أما بعدُ، فقد أبيتَ في الغيِّ إلا تمادِياً لابنِ السَّوداء - عمَّار بن ياسر - وأصحابِهِ، وقد علِمتَ بأنه ما يدعوكَ إلى ذلِكَ إلا مصرعكَ وحينكَ الذي لا بُدَّ لكَ منه، فإن كُنتَ غير مُنتهٍ فازدَد غيَّاً. . . وأنتَ راكبٌ لأسوأ الأمور، ومعضوضِلٌ عن الحقِّ بغيرِ فكرةٍ في الدِّين ولا رويَّة، ثم تكونُ العاقبةُ لغيرِك، والسَّلام»[2].

فردَّ الإمام علي عليه السلام: «أما بعدُ، فإنَّكَ من كافرٍ وُلِدتَ، فقريبٌ أشبَهتَ أباكَ وأجدادَك، وعمَّكَ وأخاكَ وخالَك، إذ حمَلَهُمُ الشكُّ وتمنِّي الأباطيل بالجحودِ على نبيِّ اللهِ عليهِ السَّلام، فصُرِعوا مصارِعَهُم. . . وأنا صاحِبُهم في تِلكَ المواطن، والفالُّ لحدِّهِم، والقاتِلُ لصناديدِهم. . . وأنتَ خلفَهُم، فبِئسَ الخَلَفُ يتبَعُ السَّلف، في نارِ جهنم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

فردَّ معاوية كاتباً: «أما بعدُ، فقد طالَ في الغيِّ إدراجُكَ، وعن الحربِ إبطاؤُكَ، وعن النِّفاقِ تقاعُسُكَ، وعن الوقوفِ جِداتُك، تُوعِدُ وعيدَ البطَلِ المُحامي، وتروغُ رَوغانِ الثَّعلبِ المواري. . . . »[4].

فردَّ عليهِ الإمام علي عليه السلام كاتباً: «أما بعدُ، فالعجبُ لما تتمنَّى، وما يبلُغني عنكَ، وما أعرَفَني بمنزِلِكَ التي أنتَ إليها كائن. وليسَ إبطائي عنكَ إلا لوقتٍ أنا بهِ مُصدِّقٌ، وأنتَ بهِ مُكذِّب. وكأنِّي بِكَ وأنتَ تعُجُّ في الحربِ عجيجَ الجِمالِ بأثقالِها، وكأنِّي بِكَ

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص190 - 191. أنظر تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 50، ص833 - 835. مع فوارق.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص191.

(3) سورة البقرة، الآية: 258. ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص191.

(4) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص191.

وأنتَ تدعوني - يا ابنَ آكلة الأكباد - جزَعاً من اللِّقاءِ المتتابع. . . . »[1].

فقالَ عمرو بنُ العاص لمعاوية: ويحَكَ يا معاوية، إلى كَم تُكاتِبُ عليّاً، فواللهِ لو اجتمعَ عليهِ كلُّ كاتِبٍ بأرضِ الشَّام، لما قدَروا على إجابتهِ، فحسبُكَ من مُكاتبتِهِ، واعزِم على محاربَتِهِ أو مسالمَتِهِ[2].

2. خروج الطَّرفين والاختلاف النَّوعي بين الجيشين: يقول بعض المؤرِّخين . . . . وسارَ معاويةُ بخيلهِ ورَجلِهِ حتى نزَلَ بصِفِّين (في سوريا جنوبي مدينة الرقة)، في ثلاثةٍ وثمانينَ ألفاً، وذلكَ لأيامٍ خلَت من المُحرَّم، فسَبَقَ إلى سُهولةِ الأرض، وسَعةِ المرعى، وقُربِ الفُرات، ثم إنهُ بنىً بُنياناً لهُ، وضرَبَ القِبابَ والخِيام والفساطيط، وبُنِيَت المعالف للخَيل، واجتمعت إليهِ العساكِر من أطرافِ البلاد، فصارَ في عشرين ومائة ألف. .[3].

وكتبَ الإمام علي عليه السلام إلى عُمَّالهِ في الآفاق يأمُرُهم بالمسيرِ إليه، وحثَّ الناس على الجهادِ معهُ، وعندما وضعَ رِجلَهُ في الرِّكاب دعا قائلاً: «اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ من وَعثاءِ (= مشقة) السَّفر، وكآبةِ المُنقلَب (= الرُّجوع)، وسوءِ المنظَر في الأهلِ والمالِ والوَلَد. اللهُمَّ أنتَ الصاحِبُ في السَّفر، وأنتَ الخليفةُ في الأهل، ولا يجمَعهُما غيرُك، لأنَّ المُستخلَفَ لا يكونُ مُستَصحَباً، والمُستصحَبَ لا يكونُ مُستخلفاً»[4].

ثم عسكَرَ عليه السلام بالنُّخيلة[5]، وفيها خطبَ قائلاً: « . . . . أما بعدُ، فقد بعثتُ مُقدِّمَتي (= صدر جيشي)، وأمرتُهُم بلُزومِ هذا المِلطاط (= حافة الوادي وساحل البحر) حتى يأتيهِم أمري، وقد رأيتُ أن أقطَعَ هذهِ النُّطفة إلى شِرذمةٍ (= النفر القليلون) منكُم، مُوطِّنينَ أكنافَ دِجلة (= يجعلون جوانب دجلة وطناً)، فأُنهِضَهُم معكُم إلى عدُوِّكُم، وأجعلَهُم من أمدادِ القوَّةِ لكُم»[6]. ولم يبرَح عليه السلام النُّخَيلة حتى قدِمَ عليه ابنُ عباس بأهلِ البصرة.

ونادى الإمام علي عليه السلام في الناسِ بالرَّحيل، فرحَلَ الناسُ، وكان تحرُّكه عليه السلام من النُّخيلة لخمسٍ مضَين من شوال سنة 36هج، وهم يومئذٍ تسعون ألفاً، ثمانمائة رجُل من

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص192.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص192. أنظر الرسائل المتبادلة بين الطرفين قبل خروجهما: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص86 - 91.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص194.

(4) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (46)، ص86.

(5) من الآن فصاعداً سيتردد كثيراً اسم «النخيلة»، وهي منطقة تقع قرب الكوفة، في الطريق منها إلى كربلاء، وكانت تعتبر منطقة لتجمُّع الجند والعساكر للانطلاق في أي مهمة عسكرية.

(6) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (48)، ص87.

الأنصار، وتسعمائة ممن بايَعَ تحتَ الشجرة (فيهم أكثر من ثمانين بدرياً)[1]. من هؤلاء البدريين سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار.

أقول: هذا يعني أنَّ عدد الصَّحابة في جيش الإمام علي عليه السلام كان كبيراً جداً... هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، إذا صحَّت هذه الأرقام، فهذا يعني أنَّ نسبة المهاجرين البدريين إلى المجموع الكلي من الصَّحابة الذين كانوا في جيش الإمام علي عليه السلام هي 19.5%، في حين أنَّ نسبة الأنصار البدريين هي 80.5%، وإذا تذكرنا أنَّ كل الأنصار هم من قحطان، في حين أنَّ أغلب المهاجرين من عدنان (فبعضهم من قحطان كعمَّار بن ياسر مثلاً)، فعندئذ نعرف أنَّ نسبة الصَّحابة البدريين من قحطان في جيش الإمام علي عليه السلام تتجاوز قطعاً 80.5%.

في الطريق، مرَّ الإمام علي عليه السلام وأصحابُهُ على كربلاء: يروي أحمد بن حنبل في مُسندِهِ عن عبد الله بن نجي عن أبيه أنه سارَ مع علي عليه السلام، وكان صاحب مطهرتِهِ، فلما حاذى نينوى، وهو منطلقٌ إلى صفين، فنادى عليٌّ عليه السلام: إصبِر أبا عبد الله، إصبر أبا عبد الله بشطِّ الفرات! قلتُ: وماذا قال؟ قال: دخلتُ على النبيِّ صلى الله عليه وآله ذاتَ يومٍ وعيناهُ تفيضان، قلتُ: يا نبيَّ الله أغضبكَ أحد؟ ما شأنُ عينيك تفيضان؟ قال: بل قامَ مَن عندي جبريل قبلُ، فحدَّثني أنَّ الحُسين يُقتلُ بشطِّ الفرات، قال فقال: هل لكَ أن أُشِمَّكَ من تربتِهِ؟ قال قلت: نعم، فمدَّ يدهُ فقبضَ قبضةً من ترابٍ فأعطانيها، فلم أملك عينيّ أن فاضتا[2].

وَيقول هرثَمة بن سُلَيم: غزَونا مع عليِّ بنِ أبي طالب عليه السلام غزوةَ صفين، فلما نزَلنا بكربلاء صَلى بنا صلاةً، فلما سلَّم، رفعَ إليهِ من تُربَتِها فشَمَّها، ثم قال: واهاً لكِ أيتُها التُّربة، ليُحشَرنَّ مِنكِ قومٌ يَدخلونَ الجنةَ بغيرِ حساب[3].

فلما رجعَ هرثمة من غزوتهِ إلى امرأتهِ - وهي جَرداء بنت سمير وكانت شيعةً لعليٍّ عليه السلام - فقالَ لها زوجُها هَرثمة: ألا أُعجِبُكِ من صديقِكِ أبي الحسن؟ لمَّا نزَلنا كربلاء رفَعَ إليهِ من تُربتِها فشَمَّها وقال: واهاً لكِ يا تُربة، ليُحشَرنَّ مِنكِ قومٌ يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حساب. وما عِلمُهُ بالغيب؟ فقالت: دَعنا مِنكَ أيُّها الرَّجُل، فإنَّ أميرَ المؤمنين لم يقُل إلا حقاً.

فلما بعثَ عُبيدُ اللهِ بن زياد البَعثَ الذي بعثَهُ إلى الحسينِ بن عليٍّ عليه السلام وأصحابِهِ،

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص201.

(2) مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، ومن مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(3) راجع قريباً منه، ابن أبي شيبة، المصنَّف، 8/ 633، رقم 260.

قال: كنتُ فيهم في الخيلِ التي بعثَ إليهم، فلما انتهيتُ إلى القومِ وحُسينٍ وأصحابِهِ، عرفتُ المنزلَ الذي نزَلَ بِنا عليٌّ فيهِ، والبقعةَ التي رفعَ إليهِ من تُرابها، والقولَ الذي قالَهُ، فكَرِهتُ مسيري، فأقبلتُ على فرَسي حتى وقفتُ على الحُسينِ، فسلَّمتُ عليهِ، وحدَّثتُهُ بالذي سمعتُ من أبيهِ في هذا المنزل، فقالَ الحُسين: معنا أنتَ أو علينا؟ فقلت: يا ابنَ رسولِ الله، لا معكَ ولا عليك، تركتُ أهلي ووُلدي أخافُ عليهم من ابنِ زياد. فقال الحُسينُ: فولِّ هرَباً حتى لا تَرى لنا مقتَلاً، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يرى مقتَلَنا اليومَ رجلٌ ولا يُغيثنا إلا أدخلَهُ اللهُ النار، قال: فأقبلتُ في الأرضِ هارِباً حتى خفِيَ عليَّ مقتلُهُ[1]!

ويقول سعيد بن وهب: عندما تحرَّكَ عليٌّ عليه السلام إلى صفين، بعثَني مِخنَف بن سُلَيم إليهِ عليه السلام، فأتَيتُهُ بكربلاء، فوجدتُهُ يُشيرُ بيدِهِ ويقول: ها هُنا، ها هُنا.

فقالَ لهُ رجلٌ: وما ذلِكَ يا أميرَ المؤمنين؟

قال: ثقلٌ لآلِ محمدٍ ينزِلُ ها هُنا، فويلٌ لهم مِنكُم، وويلٌ لكُم منهُم.

فقالَ لهُ الرَّجُل: ما معنى هذا الكلام يا أميرَ المؤمنين؟

قال عليه السلام: «ويلٌ لهم منكم» تقتُلونَهُم، و«ويلٌ لكم منهم» يُدخِلُكمُ اللهُ بقتلِهِم إلى النار.

وعن الحسنِ بن كثير عن أبيهِ أنَّ عليّاً عليه السلام أتى كربلاء، فوقفَ بها، فقيل: يا أميرَ المؤمنين، هذهِ كربلاء.

قال: ذاتُ كربٍ وبلاء.

ثم أومأَ بيدِهِ إلى مكانٍ، فقال: ها هُنا موضِعُ رِحالِهم، ومناخُ رِكابِهم. وأومأَ بيدِهِ إلى موضعٍ آخر، فقال: ها هُنا مِهراقُ دِمائِهم[2].

ومن المواقف المعبِّرة التي وقعت له في الطريق، أنه عندما وصل الإمام علي عليه السلام إلى المدائن، دخل صور في الحائط، قال عليه السلام: كانت هذه كنيسة؟

قالوا: نعم، كان يشركُ فيها اللهُ كثيراً.

قال عليه السلام: وكان يُذكرُ فيها اللهُ كثيراً[3].

---

(1) نصر بن مزاحم، وقعة صفين ص140 - 141.

(2) المصدر السابق، ص141 - 142.

(3) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 9/ 213.

فلاحظ كيف ننظر نحنُ إلى الجانب السَّلبي من أديان الآخرين ومعابدهم، لكن الإمام علي عليه السلام كان ينظر إلى الجانب الإيجابي أيضاً.

3. الإمام علي عليه السلام يطلُب من حُجر بن عدِي وعمرو بن الحَمِق الخُزاعي الكف من البراءة من أهل الشَّام ولعنِهم: يقول ابن الأعثم .... بعد أن خطبَ عليٌّ عليه السلام بأصحابهِ خطبةً بليغة، وتناوبَ أصحابُهُ على التعليقِ وإبداء الرَّغبة في مواجهةِ الأعداء، وثبَ الصحابي عبدُ الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وقدَّمَ تشخيصاً دقيقاً للحال، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ أهلَ الشَّام لو كانوا للهِ عزّ وجلّ يُقاتلون، وإياهُ يُريدون، لما خالفونا، ولكنَّهُم إنَّما يُقاتلِونَنا على دُنياهُمُ التي في أيديهِم، وعلى إحَنٍ وترات، وعداوة يجِدُونَها في صدورِهم، ويُضمِرونَها في أنفُسِهم. ثم قال: أيُّها الناس، وكيفَ يُبايعُ معاويةُ علياً، وقد قتلَ أخاهُ وخالَهُ وجدَّهُ وعمَّ جدِّهِ في يومِ بدر؟! واللهِ ما أظُنُّ أنهم يُبايعونَ عليَّاً أبداً، أو يقطَع هاماتِهم، ويكسو حواجِبَهُم بعمَدِ الحديد.

فعندها خرَجَ حُجر بن عدِي وعمرو بن الحَمِق الخُزاعي، فجعلا يُظهِران البراءةَ من أهلِ الشَّام، واللعنةَ لهم، فأرسلَ إليهِما عليٌّ عليه السلام أن كُفَّا عما يبلُغني عنكُما، فأقبلا إلى عليٍّ عليه السلام، وقالا: يا أميرَ المؤمنين ألَسنا على الحق؟

قال: بلى.

قالا: فلِمَ تمنَعنا عن شَتمِهِم ولعنِهِم؟

فقال عليه السلام: لأني أكرَهُ لكم أن تكونوا سبَّابين، ولكن لو وصفتُم أعمالَهُم، وذكرتُم أحوالَهُم، لكانَ ذلكَ أصوبَ في القول، وأبلَغَ في العُذر، ولو قُلتم: اللهُمَّ احقِن دماءَنا ودِماءَهُم، وأصلِح ذاتَ بينِنا وبينِهم، واهدِهِم من ضلالَتِهم، حتى يعرِفَ الحقَّ من جهِلَهُ، ويرعَوي عن الغيِّ والعدوانِ من لهجَ به[1].

فقالا: يا أمير المؤمنين، فإنَّنا نقبَلُ عظتَكَ ونتأدَّبُ بأدَبِك[2].

في هذا الموقف درسٌ أخلاقيٌّ بليغ، ينبغي أن نستفيد منه جميعاً في سلوكنا مع الخصوم.

بعد ذلك يقول ابن الأعثم ونصر بن مزاحم أنَّ عمرو بن الحَمِق قال لعليّ عليه السلام: إني واللهِ يا أميرَ المؤمنين، ما أجبتُكَ ولا بايعتُكَ على قرابةٍ بيني وبينك، ولا إرادةِ مالٍ

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (206)، ص323.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص200. نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص103 - 104. أنظر تمام نهج البلاغة، كلام له عليه السلام رقم127، دون ذكر لاسم حجر وعمرو، ص 655 - 656. مع فوارق.

تؤتينيه، ولا التماسِ سلطانٍ يرفعُ ذكري به، ولكن أجبتُكَ لخصالٍ خمس: أنَّكَ ابنُ عمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وأوَّلُ من آمنَ به، وزوجُ سيدةِ نساءِ الأمة فاطمة بنت محمَّد صلى الله عليه وآله، وأبو الذُّرية التي بقيت فينا من رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وأعظمُ رجُلٍ من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو أني كُلِّفتُ نقلَ الجبال الرَّواسي، ونزح البحور الطوامي، حتى يأتي عليَّ يومي في أمرٍ أُقوِّي بهِ وليَّكَ، وأُوهِنُ به عدوَّكَ، ما رأيتُ أني قد أديتُ فيه كل الذي يحقُّ عليَّ من حقِّكَ.

فقال علي عليه السلام: اللهمَّ نوِّر قلبَهُ بالتُّقى، واهدِهِ إلى صراطٍ مستقيم، ليت أنَّ في جندي مئة مثلُكَ.

فقال حجر: إذاً واللهِ يا أمير المؤمنين، صحَّ جُندُكَ، وقلَّ فيهم من يغِشُّك[1].

4. عودة مسلسل المراسلات مع معاوية بعد وصول الإمام علي عليه السلام إلى الرَّقة[2] (شمال صفين): يقول ابن الأعثم .... سارَ عليٌّ عليه السلام حتى دخلَ الرَّقة، فوجدَ أهلَها يومئذٍ عُثمانية، وهواهُم مع معاوية، فلما نظروا إلى خيلِ عليٍّ عليه السلام قد وافتهُم، غلَّقوا بابَ المدينة، وتحصَّنوا فيها.

فنزلَ عليٌّ عليه السلام على شاطئِ الفرات، ثم كتبَ إلى معاوية: «... أما بعدُ، فإنَّ للهِ عباداً آمنوا بالتنزيلِ، وعَرَفوا التأويل، وتفقَّهوا في الدِّين، فبيَّنَ اللهُ فضلَهُم في القرآنِ الحكيم، وأنتَ يا معاوية وأبوكَ في ذلِكَ الزَّمان أعداء الرسول صلى الله عليه وآله، مُكذِّبونَ بالكتابِ المُبين، مُجتمعونَ على حربِ المسلمين..... ثم إنَّ أولى الناس بأمرِ هذهِ الأمة قديماً وحديثاً أقرَبُهُم من رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وأعلَمُهُم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأفقَهُهُم في دينِ الله، وأوَّلُهُم إسلاماً، وأفضَلُهم جهاداً.... فاتقوا اللهَ الذي إليهِ تُرجعون.... ألا وإنِّي أدعوكُم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وسُنةِ نبيهِ محمد صلى الله عليه وآله، وحَقنِ دماءِ هذهِ الأمة، فإن قبِلتُم أصبتُم رُشدَكُم، واهتدَيتُم لحظِّكُم، وإن أبيتُم إلا الفُرقة، وشق عصا هذهِ الأمة، فلن تزدادوا من اللهِ إلا بُعداً، ولن يزدادَ الرَّبُ عليكُم إلا سُخطاً، والسلام»[3].

فردَّ عليهِ معاوية رداً فيهِ جرأةٌ مثيرة كتبَ فيه: «أما بعدُ، فإنَّ الحسَدَ عشرةَ أجزاء، تسعةٌ منها فيكَ، وواحدٌ في سائرِ الناس، وذلكَ أنهُ لم تكُن أمورُ هذهِ الأمة لأحدٍ بعدَ

---

(1) ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص103.

(2) مدينة الرقة تقع شمال وسط سوريا، على الضفة الشمالية لنهر الفرات، على بعد حوالى 160 كم شرق مدينة حلب.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص216 - 217. تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 48، ص826 - 828. والألفاظ لتمام النهج.

النبي صلى الله عليه وآله إلا ولهُ قد حسَدتَ، وعليهِ قد بغَيتَ. عرَفنا ذلِكَ مِنكَ في نَظَرِكَ الشَّزَر، وقولِكَ الهَجر، وتنفُّسِكَ الصُّعداء، وإبطائِكَ على الخُلفاء، تُقادُ إلى البيعةِ، كما يُقادُ الجملُ الشارِد، حتى تُبايع وأنتَ كارِهٌ، ثم إنِّي لا أنسى فعلَكَ بعثمانِ بن عفان. . . .»[1].

طبعاً هنا يحاول معاوية فتح ملفات قديمة تتعلَّق بعلاقة الإمام علي عليه السلام مع الخليفة الأول والثاني، حتى يُحدِث بلبلة في صفوف جيش علي عليه السلام. لكن ما كانت لتنطلي هذه المحاولات على الإمام علي عليه السلام، فكان ردُّهُ عليه السلام يجمع بين الصِّدق وعدم التَّصريح بما يضُرُّ بحال جيشهِ.

كتب الإمام علي عليه السلام: «أما بعدُ، . . . . وذكرتَ حسَدي على الخُلفاء وإبطائي عنهُم وبغيي عليهِم. فأما الحسَدُ والبغيُ عليهِم، فمعاذَ اللهِ أن أكونَ أسرَرتُهُ أو أعلنتُهُ؛ بل أنا المحسودُ والمبغيُّ عليهِ. (وإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فيكونَ العُذرُ إليك). وأما الإبطاءُ عنهُم والكراهةُ لأمرِهِم، فإني لستُ أعتذِرُ منهُ إليك، ولا إلى الناس، وذلِكَ لأنَّ اللهَ جلَّ ذِكرُهُ لما قَبَضَ نبيَّهُ محمَّداً صلى الله عليه وآله اختلفَ الناسُ، فقالت قريش: مِنَّا الأمير، وقالتِ الأنصار: مِنَّا الأمير. فقالت قريش: مِنَّا محمَّدٌ صلى الله عليه وآله فنحنُ أحقُّ بالأمرِ منكُم، فعَرَفَت ذلِكَ الأنصار، فسَلَّمت لقريشٍ الولايةَ والسُّلطان. فإذا استحقُّوها بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله، دونَ الأنصار، فإنَّ أولى الناس بمحمَّدٍ صلى الله عليه وآله أحقُّ بها منهُم، وإلا فإنَّ الأنصارَ أعظمُ العربِ فيها نصيباً. . . . (وقُلتَ أني كنتُ أُقادُ كما يُقادُ الجملُ المخشوش (= الجمل الذي يجعل في أنفه خشبة لينقاد) حتى أُبايع، ولعمرُ اللهِ لقد أردتَ أن تذُمَّ فمدَحت، وأن تفضَح فافتضَحت. وما على المسلمِ من غضاضةٍ (= نقص) في أن يكونَ مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينهِ، ولا مُرتاباً بيقينهِ. وهذهِ حُجتي إلى غيرِكَ قصدُها، ولكني أطلقتُ لك منها بقدَرِ ما سنحَ من ذِكرِها)[2].

وأما ما ذكرتَ من أمرِ عثمان، وقطيعتي رَحِمي، وتأليبي الناسَ عليهِ، فإنَّ عثمانَ عمَلَ ما قد علِمتَ من الحدَث، فصنعَ الناسُ بهِ ما قد رأيتَ من التغيير. وإنَّك لتعلَمُ يا معاوية، أنِّي قد كنتُ في عُزلةٍ عنهُ، يسَعُني من ذلِكَ ما وَسِعَ أصحابَ محمدٍ صلى الله عليه وآله، إلا أن تتجنَّى فتجنَّى ما بدا لك. . . . »[3].

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص217. تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 49، ص828 - 832. والألفاظ لتمام النهج.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (28)، ص387 - 388. ما بين القوسين من نهج البلاغة، ويبدو أن المؤرِّخين خلطوا خطبتين معاً في واحدة، أو أنها كانت واحدة لكن جعلوها اثنتين.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص218.

فردَّ معاوية محاولاً إحراج الإمام علي عليه السلام أمام أصحابه بكيل المديح للخليفة الأول والثاني، فضلاً عن الثالث، وكأنَّه صار هو الناطق الرَّسمي باسمهم والمحامي عنهم: «أما بعدُ، فإنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى اصطفى مُحمَّداً صلى الله عليه وآله بعلمِهِ، وجعلَهُ الأمينَ على وحيِهِ، والرَّسولَ إلى خلقِهِ، واجتبى لهُ من المهاجرينَ وخيارِ المسلمينَ أعواناً، وزراءَ وأصحاباً، أيَّدَهُ بهِم، فكانوا عندَهُ على قَدرِ فضائِلِهم ومنازِلِهم في الإسلام. فكانَ أفضَلَ أصحابِهِ في إسلامِهِ، وأنصَحَهُم للهِ ورسولِهِ صلى الله عليه وآله الخليفةُ من بعدِهِ أبي بكر الصدِّيق وخليفةَ الخليفة عُمر بن الخطاب، وثالث الخلفاء عثمان بن عفان. فأما الصِدِّيق والفاروق، فما زِلتَ لهُم مُبغِضاً عدُوَّاً حتى مَضيا لسبيلِهما محمودَين.

ثم بغَيتَ أشدَّ البغي على ابنِ عمِّك عُثمان بن عفان، فكانَ الواجِبُ أن لا تفعل بِهِ ذلِكَ لقرابتِهِ وصهرِهِ، فقطَعتَ رَحِمَهُ، وقبَّحتَ محاسِنَهُ، وألَّبتَ الناسَ عليهِ. . . . وأُقسِمُ باللهِ قسَماً صادِقاً أن لو قُمتَ في أمرِهِ مُقاماً واحِداً، فنهَنهتَ (= زجرت) عنهُ الناس، لما عدَلنا بِكَ أحَداً من الناس، ولكنَّكَ أحبَبتَ قتلَهُ، والدليلُ على ذلِكَ تعظيمُكَ لأقدارِ قتلتِهِ، فهُم عضُدَكَ وأنصارُكَ، ويدُكَ وبِطانتُك. ثم إنَّكَ تنتفي وتتبرأ من دمِهِ، فإن كُنتَ صادِقاً، مَكِّنَّا من قتلةِ عُثمان حتى نقتُلَهُم بِهِ، ونحنُ أسرعُ الناسِ إجابةً لك، فإن فعلتَ ذلكَ كانَ الأمرُ على ما تريد، وإلا فليسَ لكَ ولأصحابِكَ عندي إلا السَّيف، والسَّلام»[1].

فردَّ عليهِ عليه السلام رداً مُفحِماً كتبَ فيه: «أما بعدُ، فإنهُ أتاني كِتابُكَ تذكُرُ فيهِ اصطفاءَ اللهِ نبيَّهُ محمداً صلى الله عليه وآله لدينهِ، وتأييدَهُ إيَّاهُ بمن أيَّدَهُ، وما أنعمَ عليهِ في الوحي والهُدى، فالحمدُ للهِ الذي صدَقَ لهُ الوعد. . . . حتى ظهرَ أمرُ اللهِ وهُم كارهون. وكانَ أشَدُّ الناسِ عليهِ أُسرَتَهُ الأدنى فالأدنى من قومِهِ، إلا من عصمَ اللهُ منهُم. ولقد خبَّأَ لنا منكَ الدَّهرُ خبئاً مُعجِباً، إذ طفِقتَ (= أخذت) تُخبِرُنا عن بلاءِ اللهِ في نبيهِ محمد صلى الله عليه وآله وفينا، فكأنَّكَ في ذلِكَ كجالِبِ التَّمرِ إلى هَجَرَ (= مثل قديم، وهجر هي البحرين أو مدينة بالبحرين كثيرة النَّخل).

ذكرتَ أنَّ أفضلَ أصحابِهِ خليفَتُهُ الصدِّيق، وخليفةُ خليفتِهِ الفاروق. ولعمري إنَّ مكانَهُما في الإسلام لعظيم، وإنَّ مُصابَهُما لشديد، رحِمَهُما اللهُ وجزاهُما بأحسنِ أعمالِهما. وذكَرتَ أنَّ عثمانَ كانَ لهُما في الخلافةِ ثالثاً، فذكرتَ لهؤلاءِ فضلاً إن هو تمَّ اعتزَلَك، وإن نقَصَ لم يلحَقكَ ثَلمُهُ. وما أنتَ والصِّديق. . . وما أنتَ والفاروق. . . وأما عثمان فإن كانَ مُحسِناً فسيلقى ربَّاً شكُوراً يُضاعِف لهُ في الحسَنات ويمحو عنهُ السيِّئات،

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص219.

وإن كانَ مُسيئاً فسيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاظَمُهُ ذنبٌ أن يغفِرَهُ. ولكني لأحبُّ أن تُخبِرني يا ابنَ هند، ما للطُّلقاءِ وأبناءِ الطُّلقاءِ والأحزاب، والمفاضلة بينَ المهاجرين الأولين؟!

.... وكُنتَ تسألني عن قتلةِ عثمان، وليسَ لكَ أن تسأل ذلِك، ولا إلى أن أدفَعَهُم إليك، وإنما ذلِكَ إلى ورثةِ عثمان وأولادهِ، وهم أولى بطلبِ دمِ أبيهِم منكَ. فإن زعَمتَ أنك أقوى على الطَّلبِ بدَمِ عُثمان، فادخُل فيما دخَلَ فيهِ المهاجرونَ والأنصار، وحاكِمِ القومَ إليَّ، أحمِلُكَ وإياهُم على كتابِ اللهِ عزّ وجلّ وسُنةَ نبيهِ محمَّد صلى الله عليه وآله....»[1].

من ناحية أخرى، تحدَّث ابن الأعثم عن أنَّ علياً عليه السلام عندما وصل إلى الرَّقة، نزلَ راهبٌ هناكَ من صومعتِهِ، فقالَ لعليٍّ عليه السلام: إنَّ عندنا كتاباً نتوارَثُهُ عن آبائِنا، كتبَهُ أصحابُ عيسى بن مريم، أعرُضهُ عليك؟

قال عليه السلام: نعم.

فقرأ الراهب ما تحدَّثت بهِ كُتُبُ أصحابِ عيسى عليه السلام من بعثِ نبيٍّ في الأميين، واختلافِ أمتهِ من بعدهِ، حتى يمُرَّ رجلٌ من أمتهِ بشاطئِ هذا الفُرات، يأمُرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكر، الدُّنيا أهونُ عليهِ من الرَّماد في يومٍ عصَفت فيه الرِّيح، والموتُ أهونُ عليهِ من شُرب الماءِ على الظمآن، وأنَّ من أدركَ ذلِكَ العبدُ الصالح فليَنصُرَهُ، فإنَّ القتلَ معهُ شهادة.

فبكى عليه السلام ثم قال: الحمدُ للهِ الذي لم أكُن عندَهُ منسيّاً، الحمدُ اللهِ الذي ذكرني عندَهُ في كتُبِ الأبرار.

ومضى الراهبُ معهُ، فكانَ فيما ذكروا يتغدّى مع عليٍّ عليه السلام ويتعشى، حتى أُصيبَ يومَ صفين، وصلى عليهِ عليه السلام ودفنَهُ، وقال: هذا مِنَّا أهلَ البيت. واستغفرَ لهُ مِراراً[2].

5. **الإمام علي عليه السلام <u>لم يجبر أهل الرَّقة على عقد الجِسر على الفرات</u>:** يقول ابن الأعثم وغيره... .ثم دعا عليٌّ عليه السلام أهلَ الرَّقة فقال: اعقدوا لي جِسراً على هذا الفُرات حتى أعبُرَ عليهِ أنا وأصحابي إلى قتالِ معاوية.

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص219 - 221. تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 49، ص828 - 832. مع فوارق.

(2) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص147 - 148، ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج2، ج3، ص119. أقول: لكن لم أعثر في الأناجيل المتداولة على شيء من هذا القبيل، فإن كانت الرِّواية التاريخية هذه صحيحة، فربما خفي علينا بعض ما كان موجوداً عند بعض الرُّهبان، وإلا قد تكون من اختلاق بعض الرُّواة.

فأبوا ذلِكَ. وعلِمَ عليٌّ عليه السلام هوى أهلَ الرَّقة في معاوية، فتركَهُم ونادى في أصحابهِ: نمضي لكي نعبُر على جسرِ مِنبج[1].

فخرجَ الأشترُ إلى أهلِ الرَّقةِ مُغضباً، وقال: واللهِ يا أهلَ الرَّقة لئن لم تعقدوا لأميرِ المؤمنين جِسراً لأجَرِّدَنَّ فيكُمُ السَّيفَ، ولأقتُلَنَّ الرِّجالَ ولأحوِينَّ الأموال.

فلما سمِعَ أهلُ الرَّقة ذلك، قال بعضُهم لبعضٍ: إنَّ الأشترَ واللهِ يفي بما يقول.

ثم إنهم ركَبوا خلفَ علي بن أبي طالب، فردُّوهُ، وقالوا: ارجع يا أميرَ المؤمنين فإنَّنا عاقدونَ لكَ جِسراً. فرجَعَ عليٌّ عليه السلام إلى الرَّقة، وعقدوا لهُ جِسراً على الفرات، ونادى في أصحابهِ أن اركَبُوا، فركَبَ الناسُ، وعبرَتِ الأثقالُ كلّها، وعبرَ الناسُ بأجمَعِهِم، وعليٌّ عليه السلام واقفٌ في ألفِ فارسٍ من أصحابهِ، ثم عبرَ آخِر الناس[2].

6. الإمام علي عليه السلام يوصي الأشتر بأن لا يبدأ القوم بالقتال ثم اشتعال معركة صفين: كتب ابن الأعثم: ونزَلَ عليٌّ عليه السلام على شاطئِ الفُرات، حِذاءَ مدينةِ الرَّقة، وبلغَ ذلكَ معاوية، فدعا بأبي أعورَ السُّلَمي، فضمَّ إليهِ جيشاً كثيفاً من أهلِ الشَّام، ثم قال: سِر بهذا الجيش نحوَ علي عليه السلام، فلعلَّكَ أن تواقِعَهُ وقعةً قبلَ مصيرهِ إلينا. فسارَ أبو الأعور في جُندٍ من أهلِ الشَّام يريدُ عليّاً عليه السلام، وبلغَ ذلكَ عليّاً عليه السلام، فدعا زياد بن النَّضِر وشُرَيح بن هانئ، فضمَّ إليهِما جيشاً وقدَّمَهُما بين يديهِ نحو أبي الأعور، فسارا حتى إذا بلغا إلى الموضعِ الذي فيهِ أهلُ الشَّام، نظرا إلى جيشٍ عظيم، فلم يُقاتلا، وبعثا إلى عليٍّ عليه السلام فأخبراهُ بذلِكَ.

فدعا عليٌّ عليه السلام بالأشترِ النَّخَعي، فقال: يا مالِك إنَّ زيادَ بن النَّضِر وشُرَيح بن هانئ، أرسلا إليَّ يُعلماني أنهما لقِيا أبا الأعور في جُندٍ من أهلِ الشَّام كثيف، وقد أخبرني الرَّسولُ أنهُ تركَ القومَ متواقفين، فالنَّجاء النَّجاء إلى أصحابِكَ، فإذا أتيتَ القومَ، فلا تبدأهُم بقتالٍ حتى يبدؤوك، ثم ادْعُهم وأعذِر إليهم مرةً بعدَ أخرى، فإن أجابوكَ إلى ما تُريد، فالحمدُ للهِ على ذلِكَ، وإن أبَوا إلا القتال، فاستَعِن باللهِ عزّ وجلّ عليهِم، فألقِهم بحدٍّ وجدٍّ، وابعَث إليَّ بخَبَرِكَ، وما يكونُ منكَ ومن أمرِكَ، والسَّلام[3].

---

(1) تقع مِنبج في الشمال الشرقي من حلب، وتبعد عنها 80 كم، وهي مدينة عريقة ازدهرت واندثرت أكثر من مرة. لها جذور حضارية وثقافية عميقة في التاريخ.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص226. نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص151 - 152. ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج2، ج3، ص122.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص228.

كتب ابن الأعثم إنَّ أبا الأعور عندما نظرَ إلى جُندِ أهلِ العراق قد وافوا، صاحَ بأصحابهِ: احمِلوا على هؤلاءِ الكِلاب، فحمَلَ القومُ بعضَهم على بعضٍ، فاقتتلوا قتالاً شديداً (لاحظ أننا ما زلنا في شهر مُحرَّم الذي يحرُمُ فيه القتال). واستمرَّ القتالُ الضَّاري إلى اللَّيل، فلما كانَ وجهُ السَّحَر انهزَمَ أبو الأعور في أصحابهِ، حتى صارَ إلى معاوية، فأخبرَهُ ما كانَ من أمرهِ، فقال معاوية: فكيفَ رأيتَ حربَ القوم؟ فقال: يا معاوية لا تسأل عن شيءٍ فإنَّ الخطرَ عظيم[1].

الخلاصة: كُنَّا نواصل سرد أحداث معركة صفين، ومحاولات الإمام علي عليه السلام لتفاديها، واستعرضنا مراسلات جديدة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، تضمَّنت حُجَج معاوية، فمعاوية حسب رأيه - وخلافاً للناكثين - لم يكن في المدينة أصلاً، ولم يُبايع عليّاً عليه السلام، حتى نقول بوجوب وفائه بالبيعة. وعلى هذا فمعاوية - وغيره ممن لم يشهد البيعة - لم يلتزم بعقدِ البيعة، حتى نُلزمه بما ألزَمَ نفسَهُ. مضافاً إلى ذلك أنَّ معاوية اتَّهم عليّاً عليه السلام بالتورُّط في دَمِ عثمان، ومعاوية بوصفه ابن عمٍ لعثمان، يعتبر نفسه وليَّ الدَّم.

وذكرنا في المقابل ردود الإمام علي عليه السلام على تلك الحُجَج، فمن بايع عليّاً عليه السلام، هم من بايع أبا بكر وعمر وعثمان، فلم يكُن للشاهدِ أن يختار ولا للغائبِ أن يرُد، وإنما الشُّورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجُلٍ وسمَّوه إماماً، كان لله رضى. موقفه عليه السلام واضح؛ معيار شرعية الحاكم في الإسلام إن كان هو النَّصب الإلهي، فهذا ينطبق عليه عليه السلام لحظة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. وإن كان معيار شرعية الحاكم شورى أهل الحلِّ والعقد، فهذا قد تحقَّق بعد مقتل عثمان. فعليٌّ عليه السلام هو الحاكم الشرعي بكلِّ المقاييس، ولا يحلُّ لأيِّ مسلم أن يتجاهل النَّصب الإلهي - إن كان هو المعيار المعتمد - أو اختيار أهل الحل والعقد - الذي جرت عليه سيرةُ المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله - بدعوى أنه لم يكن حاضراً لحظةَ الاختيار، لأنَّ الشُّورى إن كانت لأهل الحلِّ والعقد، فمعاوية ليس منهم أصلاً، حتى يُقال أنه تمَّ تجاوز رأيه. أما بالنِّسبة إلى مقتل عثمان، فهو أبرأ الناس من دمهِ. إذن فعلى أيِّ أساس يستند معاوية في رفضِهِ مبايعة علي عليه السلام؟!

ثم تحدَّثنا عن خروج الطَّرفين من العراق والشَّام باتجاه صفين، والاختلاف النَّوعي بين جُند الجيشين، وتحدَّثنا عن مرور الإمام علي عليه السلام بكربلاء، وأنه عليه السلام عندما سمع بعض أصحابه يسبُّ الخصوم من أهل الشَّام نهى عن ذلك.

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص228 - 230.

في الفصل القادم سنواصل سرد أحداث معركة صفين، وسنبدأ من قطع معاوية الماء عن الإمام علي عليه السلام وجيشه، بحُجَّة أنَّ عثمان قُتِل عطشاناً! وهي الحجَّة ذاتها التي ستستخدم لمنع الماء عن الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في كربلاء.

(15)

مناوشات ثم انطلاق حرب صفين

وصلنا في الفصل السابق إلى لحظة وصول الإمام علي عليه السلام إلى الرَّقة القريبة جداً من صفين، ثم عبوره الجِسر مع جندهِ لصفين، وتحدَّثنا عن بداية المناوشات بين الجيشين، واستمرار المراسلات الحادَّة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية.

نريد في هذا الفصل مواصلة سرد أحداث صفين، ونبدأ من حيث انتهينا، وبالتحديد من لحظة منع معاوية الماء عن الإمام علي عليه السلام وجيشه.

لكن قبل ذلك، أريد أن أذكر موقفاً ذا دلالة، يرويهِ أسماء بن حكيم الفزاري، حيث قال: كُنَّا بصفين مع عليٍّ عليه السلام، تحتَ راية عمَّار بن ياسر، ارتفاعَ الضُّحى، وقد استظللنا برداءٍ أحمر، إذ أقبلَ رجلٌ يستقرئُ الصفَّ، حتى انتهى إلينا، فقال: أيُّكم عمَّار بن ياسر؟

فقال عمَّار: أنا عمَّار.

قال: أبو اليقظان؟

قال عمَّار: نعم.

قال: إنَّ لي إليكَ حاجة، فأنطِق بِها سِرّاً أو عَلانية؟

قال عمَّار: اختَر لنفسِك أيُّهما شئت.

قال: لا بل علانية.

قال عمَّار: فانطِق.

قال: إنِّي خرَجتُ من أهلي مُستبصِراً في الحقِّ الذي نحنُ عليه، لا أشكُّ في ضلالةِ هؤلاءِ القوم، وأنَّهُم على الباطلِ، فلم أزَل على ذلِكَ مُستبصراً، حتى ليلتي هذهِ، فإني رأيتُ في منامي مُنادياً تقدَّمَ، فأذَّن وشهِدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمداً رسولُ الله، ونادى بالصلاةِ، ونادى مُناديهم مثل ذلك، ثم أُقيمت الصلاة، فصلَّينا صلاةً واحدة، وتلَونا كتاباً واحداً، ودعوَنا دعوةً واحدة. فأدرَكَني الشكُّ في ليلَتي هذهِ، فبِتُّ بليلةٍ لا يعلمُها إلا الله تعالى، حتى أصبحتُ، فأتيتُ أميرَ المؤمنين، فذكرتُ ذلكَ له، فقال: هل لقِيتَ عمَّارَ بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالقه، فانظُر ماذا يقولُ لكَ عمَّار؟ فجئتُكَ لذلك.

فقال عمَّار: تعرِفُ صاحب الرَّايةِ السَّوداء المقابلة لي؟ فإنَّها راية عمرو بن العاص، قاتلتُها مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله ثلاثَ مرات، وهذهِ الرَّابعة، فما هي بخيرِهِنَّ، ولا أبرِّهِنَّ، بل هي شرُّهُنَّ وأفجَرُهُنَّ (يعني هذه الرَّاية أكثرُ شراً وفجوراً من رايتِهم عندما كانوا مشركين صريحي الكفر، ربما لسببين: أولهما أنهم الآن يدَّعونَ الإسلام ويُبطنون شيئاً آخر، وثانيهما لأنَّها راية بني أمية خاصة دون قريش عامة). أشَهِدتَ بدراً وأحداً ويوم حنين، أو شَهِدها أبٌ لك، فيُخبِرُكَ عنها؟

قال: لا.

قال عمَّار: فإنَّ مراكِزَنا اليوم على مراكزِ رايات رسولِ الله صلى الله عليه وآله يومَ بدرٍ، ويومَ أُحُدٍ ويومَ حُنين، وإنَّ مراكز رايات هؤلاء على مراكزِ راياتِ المشركينَ من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيهِ؟ واللهِ لوددتُ أنَّ جميعَ من فيهِ ممن أقبلَ مع معاوية يريدُ قتالَنا، مُفارقاً للذي نحنُ عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطَّعتُهُ وذبحتُهُ. واللهِ لدماؤُهم جميعاً أحلُّ من دمِ عصفور، أفترى دمَ عصفورٍ حراماً؟

قال: لا بل حلال.

قال عمَّار: فإنَّهُم حلالٌ كذلك، أتراني بيَّنتُ لك؟

قال: قد بيَّنتَ لي.

قال: فاختَر أي ذلك أحبَبت.

فانصرَفَ الرَّجُل، فدعاهُ عمَّار ثم قال (وكأنه يريد تهيئة الرَّجُل لمضاعفات حرب صفين): أما إنَّهم سيضرِبونَكُم بأسيافِهم، حتى يرتابَ المبطلونَ منكُم، فيقولوا: لو لم يكونوا على حقٍّ ما أُظهروا علينا. واللهِ ما هُم من الحقِّ على ما يقذى عينَ ذُبابٍ، واللهِ لو ضربونا بأسيافِهِم، حتى يُبلِغونا سعَفات هجَر (نخيل البحرين، كناية عن الاضطرار للانسحاب في المعركة) لعلِمنا أنَّا على حقٍّ وأنَّهُم على باطل[1].

تذكَّر هذه القصَّة، وأبقِها حاضرة في ذهنك، ولاحظ استعانة الإمام علي عليه السلام بعمَّار لبثِّ الوعي في أوساط الجُند ولثبيت قلوبهم وشدِّ عزائمهم، لأنَّا سنستفيد من ذلك عندما نصل إلى تحليل أسباب التدهور المفاجئ لوضع جيش الإمام علي عليه السلام.

1. معاوية يحول بين جيش الإمام علي عليه السلام والماء بذريعة مقتل عثمان عطشاناً والإمام علي عليه السلام لا يرُدُّ بالمِثل: يقول ابن أعثم وآخرون . . . .نزَلَ عليٌّ عليه السلام في

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج5، ص146 - 147.

صفين بالعساكرِ والأثقال، وذلك في النِّصفِ من المُحرَّم (37هج)، وأمرَ معاويةُ أصحابَهُ، فنزلوا على شاطئِ الفرات، وحالوا بينَ عليٍّ عليه السلام وأصحابِهِ وبينَ الماء. وأرسلَ أصحابُ عليٍّ عليه السلام بالعبيدِ والأحرارِ ليستقوا الماءَ من الفرات، فإذا هُم بأبي الأعور، وقد صفَّ خيلَهُ على شاطئِ الفرات، وحالَ بينَهُم وبينَ الماء. فرجعَ العبيدُ إلى مَوَاليهِم يُخبرونَهُم بذلك، ووثبَ الناسُ إلى عليٍّ عليه السلام يُخبرونَهُ بذلك.

فقامَ عليه السلام وقال: «قد استَطعموكُمُ القتال، فأقِرُّوا على مذلَّةٍ، وتأخيرِ محَلَّةٍ، أو رَوُّوا سُيوفَكُم من الدماءِ تَروَوا من الماء، فالموتُ في حياتِكُم مقهورين، والحياةُ في موتِكُم قاهرين، ألا وإنَّ معاويةَ قادَ لُمةً من الغُواة، وعمَّسَ عليهِمُ الخبَرَ، حتى جعلوا نُحورَهُم أغراضَ المنيَّةِ»[1].

ودعا عليٌّ عليه السلام صعصعةَ بنَ صوحان العَبدي وقالَ لهُ: انطَلِق إلى معاوية، وقُل لهُ إنَّ خَيلَكَ قد حالَت بينَنا وبينَ الماء، ولو كُنَّا سَبقناكَ لم نحُل بينَكَ وبينَهُ، فإن شِئتَ فخَلِّ عن الماء حتى نستوي فيهِ نحنُ وأنتَ، وإن شِئتَ قاتلناكَ عليهِ، حتى يكونَ لِمَن غلَب، وتركنا ما جِئنا لهُ من الحرب.

فأقبلَ صعصعة فقال: يا معاوية إنَّ أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقولُ لَك: إنَّنا سِرنا مَسيرَنا هذا، وإنِّي أكرَهُ قِتالَكُم قبلَ الإعذارِ إليكُم، فإنَّك قدِمتَ خيلَك، فقاتَلتنا من قبلِ أن نُقاتِلَك، وبدأتَنا بالقتالِ ونحنُ من رأيِنا الكفّ حتى نعذِرَ إليك، ونَحتجَّ عليك، وهذه مرَّةً أُخرى قد فَعلتُموها، حُلتُم بينَ الناسِ والماء، وأيمُ اللهِ لنَشربنَّ منهُ شِئتَ أم أبيت، فامنُن إن قدِرتَ عليهِ من قبلِ أن تُغلَب، فيكونُ الغالِبُ هو الشَّارِب.

فقال معاوية لعمرو بن العاص: ما ترى أبا عبد الله؟

فقال عمرو: أرى أنَّ علياً لا يظمأ وفي يدهِ أعِنَّةُ الخيل، وهو ينظُرُ إلى الفراتِ دونَ أن يشرَبَ منهُ، وإنما جاءَ لغيرِ الماء، فخَلِّ عن الماءِ حتى يشرَب ونشرَب.

فقال الوليد بن عقبة[2]: يا معاوية إنَّ هؤلاء منعوا عثمانَ بن عفان الماءَ أربعينَ يوماً، وحصروهُ، فامنَعهُم إياهُ حتى يموتوا عطَشاً، واقتُلهم قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يؤفكون. . . . . . .

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (51)، ص88.

(2) تذكر أنه هو الذي وصفه القرآن بـ«الفاسق» في الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ. . .﴾، وهو الذي ولاه عثمان على الكوفة، وشهدوا عليه بشرب الخمر، وصلى بهم صلاة الفجر أربع ركعات.

يقول نصر بن مزاحم، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح[1] - وهو أخو عثمان من الرَّضاعة - : امنعهم الماءَ إلى اللَّيل، فإنَّهم إن لم يقدِروا عليه رجعوا، وكان رجوعُهم هزيمتَهم، امنعهم الماءَ منعهُم اللهُ يومَ القيامة.

فقال صعصعة بن صوحان: إنما يمنعهُ اللهُ يومَ القيامة الكفرةَ الفجرةَ شربةَ الخمر، ضربكَ وضربَ هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة - فتواثبوا إليه يشتُمونَهُ ويتهدَّدونَهُ، فقال معاوية: كفوا عن الرَّجل فإنَّهُ رسول[2].

لاحظ أنَّ منع الماء عن أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم صار سُنَّة لبني أمية، وستظهر بشكل سافر في كربلاء، والذريعة جاهزة: منع الماء عن عثمان، وكأنَّ من منع الماء عن عثمان هم أهل البيت عليهم السلام !!

يقول ابن الأعثم: ثم أخذَ معاويةُ عمامتَهُ عن رأسهِ مُغضباً وقال: لا سَقى اللهُ معاويةَ ولا أباهُ من حوضِ محمدٍ إن شَربَ عليٌّ وأصحابُهُ من ماءِ الفرات إلا أن يُقتلوا عليهِ!

فوثبَ رجلٌ من الشَّام - يُقالُ لهُ المَعرِّي بن الأقبَل بن الأهوَل - فقال: ويحَكَ يا معاوية واللهِ لو سبَقَكَ عليٌّ إلى الماءِ، فنزلَ عليهِ من قَبلِكَ إذاً لما منَعَكَ منهُ أبداً. . . . . ألا تعلم أنَّ فيهمُ العبيدَ والإماءَ والضعيف ومن لا ذنبَ لهُ، هذا واللهِ أوَّلُ البغي والفُجور، واللهِ لقد حمَلتَ من لا يُريدُ قِتالَكَ على قِتالِكَ بمَنعِكَ هذا الماء، فإن شِئتَ فاغضَب وإن شِئتَ فارضَ، فإنِّي لا أدعُ القولَ بالحقِّ، ساءَك أو سرَّك.

فأمرَ معاويةُ بقتلِ هذا الرجل، فوثَبَ قومٌ من بني عمِّهِ فاستوهبوهُ منهُ، فوَهَبَهُ لهُم، فلمَّا كانَ من الليلِ هرَب إلى عليٍّ عليه السلام فصارَ معَهُ.

وانصرَفَ أصحابُ عليٍّ عليه السلام من عندِ معاوية بالخيبة، فاغتمَّ عليٌّ عليه السلام لما أصابَ أصحابَهُ من العَطشِ. وتقدَّمَ الأشعثُ والأشتر فحرَّضا أهلَ العراقِ على القتال، فاقتتلوا مع أهلِ الشَّام قتالاً شديداً، فقُتِلَ من أهلِ الشَّامِ جماعة، وغرقَ منهُم في الفراتِ مثلُ ذلك، وولَّوا الأدبارَ منهزمين، وصارَ الماءُ في يدِ عليٍّ عليه السلام وأصحابهِ.

ثم أقبلَ عمرو بنُ العاص على معاوية فقال: ما تقولُ الآن إن منَعَكَ عليٌّ الماءَ، كما منَعتَهُ إياهُ.

---

(1) تذكر أنه هو المرتد الذي أهدر رسول الله صلى الله عليه وآله دمه يوم فتح مكة، ونزلت فيه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، ثم ولاه عثمان مصر.

(2) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص161. أنظر أيضا: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج3، ص569.

فقال معاوية: دَع عنكَ هذا، ولكن ما ظنُّك يا هذا بعليٍّ؟

فقال عمرو: ظنّي والله بعليٍّ أنهُ لا يَستَحِلُّ مِنكَ مثلَ الذي استَحلَلتَ مِنهُ، لأنهُ إنَّما جاءَ بغيرِ الماء، وقد كُنتُ أشَرتُ عليكَ في بدءِ الأمرِ أن لا تمنَعهُ الماءَ فخالَفتَني... فقلَّدتَ نفسَك عاراً، يُحدَّثُ بهِ إلى آخرِ الأبد.

وأرسلَ عليٌّ عليه السلام إلى أصحابهِ أن خلُّوا بينَهُم وبينَ الماءِ، ولا تمنَعُوهُم إياهُ. فكانَ أصحابُ عليٍّ عليه السلام وأصحابُ معاوية يرِدُونَ الماءَ بالقِرَبِ والأسقية، يستَسقُونَ الخيلَ والإبل، ما يُؤذي أحدٌ منهُم أحداً[1].

وحاولَ معاوية خديعةَ أصحاب علي عليه السلام بأن رَمى بسهم إلى عسكَرِ الإمام علي عليه السلام فيهِ: «أما بعدُ، يا أهلَ العراق، فإنَّ معاويةَ يُريدُ أن يُفَجِّرَ عليكُمُ الفُراتَ فيُغرِقَكُم، فخُذوا حِذرَكُم، والسَّلام».

فوقعت بلبلة في صفوفِ أصحاب الإمام علي عليه السلام، ورغمَ أنهُ عليه السلام حذَّرَهُم أنَّها خِدعة، إلا أنهم قرروا تركَ أماكِنِهم، فتركُوها، فما لبثَ أصحاب معاوية أن أخذوا تلكَ الأماكن الاستراتيجية المُطِلَّة على الفرات. عندها أدركَ أصحابُ علي عليه السلام خطأهُم، فاستأذنوهُ للقتالِ لاستعادةِ تلكَ المواقع، فأذِنَ لهم، فاسترجَعوها، ووصلوا إلى الماءِ مرةً أخرى. وعندما اقترحَ الأشعثُ منعَهُم الماءَ هذهِ المرَّة أجابَ عليه السلام: إنَّ الخَطبَ أعظمُ من مَنعِهِمُ الماءَ، فلا تمنَعُوهمُ الماءَ ولا تُكافوهُم بصنيعِهِم[2].

وهنا نطرحُ سؤالاً: هل قدَّرَ بنو أمية للإمام علي عليه السلام وأهل بيتهِ هذا الموقف عندما كان بإمكانِهِم منع الماء عنهم مرَّتين ومع ذلك لم يفعلوا؟!! أم سيفعلون مع الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ما لم يستطيعوا فعله مع الإمام علي عليه السلام وأصحابه؟! بأبي من مات على شطِّ الفرات عطشاناً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان عليه السلام يقول في صفين لأصحابه، أمثال عمَّار ومالك وصعصعة وابن التيهان وحجر: «أنتمُ الأنصارُ على الحقِّ، والإخوانُ في الدِّين، والجُننُ يومَ البأس، والبِطانةُ دونَ الناس، بكم أضربُ المُدبرَ، وأرجو طاعةَ المُقبِل، فأعينوني بمُناصَحةٍ خليّةٍ من الغِش، سليمةٍ من الرَّيب، فواللهِ إني لأولى الناسِ بالناس»[3].

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص231 - 240.

(2) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص240 - 244. أنظر في مجال منع معاوية وجيشه الماء عن علي عليه السلام وجيشه، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص160 - 186، أيضاً: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص566 - 569.

(3) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (118)، ص175.

2. الإمام علي عليه السلام يُرسِل سعيد بن قيس الهَمداني وبِشر بن عمرو الأنصاري لدعوةِ معاوية للطَّاعة والجماعة: يقول ابن الأعثم وغيره . . . . . دعا عليٌّ عليه السلام سعيد بن قيس الهمداني وبِشر بن عمرو الأنصاري، فقالَ لهُما: انطلِقا إلى معاوية، فادعُواهُ إلى اللهِ عزَّ وجَل وإلى الطَّاعةِ والجماعة، واحتَجَّا عليهِ، وانظُرا ما رأيهِ؟ وعلى ماذا قد عزَم؟

فأقبلا حتى دخلا على معاوية، فتقدَّم بِشر بن عمرو فقال: يا معاوية إنَّ الدُّنيا غدَّارةٌ غرَّارة، سفيهةٌ جائِرَة، وعنكَ زائِلة، وإنَّك راجِعٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فمُحاسِبُكَ على عملِكَ ومُجازيكَ بما قدَّمَت يدَاك.

فقطعَ معاويةُ عليهِ الكلامَ ثم قال: فهلاً بهذا أوصيتَ صاحِبَك؟

فقال الأنصاري: يا سُبحانَ العظيم، إنَّ صاحِبي ليسَ مثلك، إنَّهُ أحَقُّ بهذا الأمرِ منكَ، للفَضلِ في الدِّين والسَّابقةِ في الإسلام والقرابةِ من الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال معاوية: فتقولُ ماذا؟

قال: أقول إني آمُرُكَ بتقوى اللهِ وإجابة الحَق والدُّخولِ فيما دخلَ فيهِ المهاجرونَ والأنصار والتابعون، فإنَّ ذلِكَ أسلمُ لكَ في دُنياكَ وآخِرتَك.

فقال معاوية: ويبطُلُ دمُ عُثمان؟ لا واللهِ لا كانَ ذلِكَ أبداً، وما لكُما ولا لصاحِبِكُما عندي إلا السَّيف، فاخرُجا عني[1].

3. عليٌّ عليه السلام يُرسِلُ هذهِ المرَّة وفداً جَماعياً للقاءِ معاوية: عندما عادَ سعيد الهَمداني وبِشر الأنصاري يُخبِرانِ عليّاً عليه السلام بما جرى معهُما، دعا بشَبَثِ بن رِبعي الرِّياحي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وزياد بن خصفة التميمي، وعَدِّي بن حاتم الطائي، فأرسَلَهُم إلى معاوية وقال: اعذِروا إليهِ وأنذِروهُ قبلَ الإقدام على الحرب.

فجاءَ القومُ حتى دخلوا على معاوية، وتقدَّمَ عدي بن حاتم فقال: يا معاوية، إننا قد أتيناكَ ندعُوكَ إلى أمرٍ يجمع اللهُ بكَ كلمَتَنا، ونَحقِنُ بهِ دِماءَ المسلمين، ونَدعُوكَ إلى أفضلِ الناسِ سابقةً، وأحسَنَهُم في الإسلامِ أثَراً، وقد اجتمعَ الناسُ إليهِ، وأرشَدَهُم اللهُ تعالى بالذي رأوا، فاتَّقِ اللهَ يا معاوية، وانتَهِ عما قد أزمَعتَ عليهِ من قَبلِ أن يُصيبَكَ اللهُ وأصحابَكَ بما اصابَ بِهِ أنصارَ الجَمَل.

فقال معاوية: كأنَّك إنما جئتَ مُتهدِّداً، كلا واللهِ يا عُديّ، إني لابنُ صخر بن حرب، ما يُقعقَعُ لي بالشَّنان (جمع «شن»، قربة جافة تحرك لتخرج صوتاً لإفزاع الإبل لحثِّها على

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص244 - 245.

السَّير)، أما إنَّك من المُجلِبينَ على عثمان، وأنا أرجو أن تكونَ ممن يقتُلهُ الله.

وتحدَّث الآخرون أيضاً، لكن من دونِ جدوى، فخرجَ القومُ من عند معاوية، فصاروا إلى عليٍّ عليه السلام فأخبروهُ بالذي كانَ بينهُم وبينَ معاوية من الكلام[1].

4. **وفدُ معاوية يرفُض الاستماع إلى الإمام علي عليه السلام**: يقول ابن الأعثم وغيره. . . . وإذا بحبيبِ بن مسلمة الفِهري وشُرَحبيل بن السِّمط ومعَن بن يزيد قد أقبلوا، حتى دخلوا على عليٍّ عليه السلام فسلَّموا وجلَسوا، ثم تكلَّم حبيب بن مَسلمة فقال: أما بعدُ فإنَّ عثمانَ بن عفان كانَ خليفةً يعمَلُ بكتابِ اللهِ عزّ وجلّ، وينتهي إلى أمرِ الله، فاستثقلتُم حياتَهُ، واستبطأتُم وفاتَهُ، فعدَوتُم عليهِ فقتلتموهُ، فادفَع إلينا قتلةَ عثمان حتى نقتُلَهُم بهِ، فإن قُلتَ: إنَّك لم تقتُلهُ، فاعتزِل الناس واحتبِس في منزِلك، حتى يكونَ هذا الأمرُ شورى بينَ الناس يُولُّونَ أمرَهُم من أجمعَ عليهِ رأيُهُم. . . . .

وقال شرُحَبيل: أفتشهَدُ أنَّ عثمان قُتِلَ مظلوماً؟

فقال له علي عليه السلام: لا يخلو عُثمانُ ظالماً أو مظلوماً.

قالا: فمن لم يشهَد أنَّ عثمانَ مظلومٌ فنحنُ براءُ منهُ.

ثم وثبَ القومُ.

فقال علي عليه السلام: فاسمعوا عني حتى أُخبِرَكُم عن عثمان.

فقال حبيب بن مسلمة: لسنا نُحِبُّ أن نسمَعَ منكَ شيئاً.

فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[2].

فخرَجَ القومُ من عندِ عليٍّ عليه السلام، فأقبلَ عليه السلام على اصحابهِ، فقال: لا يكُن هؤلاء أولى بالجدِّ في ضلالتِهِم منكُم في حقِّكُم وطاعةِ ربِّكُم[3].

5. **الإمام علي عليه السلام ينبِذ إليهم على سَواء بعدَ انقضاء الشَّهرِ الحَرام**: يقول ابن الأعثم وغيره . . . . لما انقضى شهر المُحرَّم وأهلَّ هلال صفَر، بعثَ عليٌّ عليه السلام رجُلاً من أصحابهِ يُقالُ لهُ مرثَد بن الحارث، حتى وقفَ قريباً من عسكرِ معاوية، ثم نادى بأعلى صوتهِ عندَ غُروبِ الشَّمس: يا أهلَ الشَّام، إنَّ أميرَ المؤمنين علي يقولُ لكم: إنا قد كَففنا

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص245 - 246.

(2) سورة النمل، الآيتان: 80 - 81.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص246 - 247. أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص3 - 5.

عنكُم في هذا الشَّهر الحَرام، فلم تكُفُّوا عنا، ووالله ما كفَفنا عنكُم شكّاً في أمرِكُم، ولا جُبناً عنكُم، وإنما كَففنا لخروجِ هذا الشَّهر المُحرَّم، ولتَرجِعوا إلى الحقِّ، واحتَجَجنا عليكُم بكتابِ اللهِ عزّ وجلّ فلم تنتَهوا عن الطُّغيانِ ،والظُّلم والعُدوان، والكَذبِ والبُهتان، ولم تُجيبوا إلى حقٍّ ولا بُرهان، فإنا قد نبَذنا إليكُم «على سواءٍ إنَّ اللهَ لا يُحبُّ الخائنين»[1].

فعَلِمَ أهلُ الشَّام أنَّ علياً عليه السلام يُحارِبُهُم، وأنَّهُ إنَّما كانَ ينتَظِرُ انسلاخَ الشهر، ففزَعوا إلى معاوية[2].

6. وصايا الإمام علي عليه السلام الأخلاقية لمقاتليه: وبدأت معركة صفين - التي استمرَّت إلى ما يزيد على عشرة أيام - بنُزولِ مُقاتلٍ من هذا الجانِب في مقابل مُقاتِلٍ من الجانب الآخر، فقُتِلَ مولىً لعثمان يُقالُ لهُ أحمر، وحُرَيث غُلامُ معاوية (أقرب غِلمانهِ إلى قلبهِ)، وعمرو بنُ الحُصَين (من أبرز فرسان الشَّام)، ثم خرَجَ ذو الكلاع في ألفِ رجُلٍ من قبائلِ اليمن، فنادى عليٌّ عليه السلام بأعلى صوتهِ: يا آلَ هَمدان.

فأجابوهُ: لبيكَ لبيكَ يا أميرَ المؤمنين.

فقال عليه السلام : عليكُم بهذهِ الخيل فإنَّ معاويةَ قصَدَكُم بها خاصَّة دونَ غيرِكُم.

فاختَطَلَ القومُ، واشتبكَ القتالُ ساعةً، ثم حطَّمتهُم خيل همدان فدفعَتهُم إلى حريمِ معاوية، وقد قُتِلَ منهُم مقتلة عظيمة، وجاءَ الليلُ فحجزَ بينَ الفريقين.

فجمعَ عليٌّ عليه السلام قبائلَ همدان بينَ يديهِ ثم أقبلَ عليهم فقال: أنتُم دِرعي ورُمحي وسِناني وجُنَّتي، واللهِ لو كانت الجنةُ في يديَّ لأدخلتُكُم إيَّاها خاصَّة، يا معشرَ همدان. . . .

فلما كانَ من الغدِ زحَفَ الناسُ بعضهُم إلى بعضٍ.

7. الإمام علي عليه السلام يعرض على معاوية المبارزة حقناً لدماءِ المسلمين: يقول ابن الأعثم وغيره. . . .إنَّ عليَّاً عليه السلام نادي: ويحَكَ يا معاوية هلُمَّ إليَّ فبارِزني، ولا يُقتَلَنَّ الناسُ فيما بينَنا.

فقال عمرو: اغتَنِمهُ منتهزاً، قد قتلَ ثلاثةَ أبطالٍ من العرب، وإني أطمعُ أن يُظفِرَكَ اللهُ بهِ.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 58.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص248.

فقال معاوية: ويحَكَ يا عمرو، واللهِ إن تريدُ إلا أن أُقتَلَ فتُصيبَ الخلافةَ بعدي، إذهب إليهِ فمِثلي لا يُخدَع[1].

يقول ابن الأعثم: عندما سمِعَ معاوية كلامَ علي عليه السلام قال: واللهِ لقد دعاني إلى النِّزالِ حتى استحييتُ من قريش.

فقالَ لهُ أخوهُ عُتبة: إلهَ عن كلامِ علي حتى كأنَّك لم تسمَعهُ، فإنَّكَ تعلمُ أنه قد قتَلَ غُلامَكَ حُرَيثاً، وفضحَ عمرو بن العاص، وليسَ أحدٌ من العربِ يقدِمُ على مبارزةِ علي إلا وهو من نفسهِ آيس، فإياكَ ومبارزَتَهُ، فإنهُ واللهِ لئن برَزتَ إليهِ لا شمَمتَ رائحةَ الحياةِ بعدَها أبداً.

وجعلَ أهلُ الشَّامِ ينهَونَ معاوية عن مبارزةِ علي عليه السلام [2].

الخلاصة: استعرضنا في هذا الفصل سلسلة من أحداث صفين؛ فمعاوية بدأ بالحؤول دون وصول الإمام علي عليه السلام وجيشه إلى الماء، وعندما وصل عليه السلام وجيشه إلى الماء بالقوَّة، فسحَ في المجال لمعاوية وجيشه للتزوُّد منه، ولم يمنع عنهم الماء، وحينما خدع معاويةُ أصحابَ علي عليه السلام واستعادَ الماء، منع الماء مرة أخرى عن الإمام علي عليه السلام وأصحابه، وعندما استأذن أصحابُ عليٍّ علياً عليه السلام باستعادة الماء بالقوَّة وأذن لهم، استعادوهُ، ومرة أخرى لم يمنع الإمام علي عليه السلام الماءَ عن الآخرين.

ثم وقفنا عند الوفود التي أرسلها الإمام علي عليه السلام لمعاوية لتفادي حرب صفين، الوفد الأول والثاني، ثم عرضنا لاستقبال الإمام علي عليه السلام لوفد معاوية الذي جاء فقط ليَسمَع إقراراً من الإمام علي عليه السلام بمظلومية عثمان، وأعرض عن سماع وجهة نظره عليه السلام في الأمر. ورأينا كيف أنَّ الإمام علي عليه السلام كان يُتهم بأنَّهُ يُماطل في بدء بالحرب كراهية للموت، إلا أنَّ الأمر انكشف عندما انتهى شهر محرم وأهل هلال صفر، وأعلن عليه السلام الشروع الرَّسمي في الحرب وأن تأخيرها كان احتراماً للشهر الحرام.

في الفصل القادم، سنحاول مواصلة سرد وساطات وقف الحرب، ومجريات الحرب الطَّاحنة، إلى لحظة رفع المصاحف لوقف الحرب بعد أن ضرَسَت جيش معاوية.

---

(1) ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص316.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص332.

(16)

جهود وساطة لوقف حرب صفين

تحدَّثنا في الفصل السابق عن محاولة معاوية - في صفين - منع الماء عن الإمام علي عليه السلام وجيشه، وموقف الإمام عليه السلام إزاء ذلك، كما تحدَّثنا عن الوفود التي أرسلها الإمام علي عليه السلام لمعاوية، ومضمون الرَّسائل الشَّفوية التي نقلوها إليه، في مقابل موقف الوفد الذي أرسله معاوية للإمام عليه السلام، كما تكلَّمنا عن سلسلة من المناوشات جرت بين الطَّرفين، ثم إعلان الإمام علي عليه السلام بدء الحرب العامَّة بعد انتهاء شهر محرَّم الحرام، ودعوته عليه السلام لمعاوية للمبارزة لحقن دماء المسلمين.

نواصل في هذا الفصل سرد أحداث حرب صفين، ونبدأ بالمحاولة التي قام بها بعض الصَّحابة للوساطة بين الطرفين.

1. علي عليه السلام لم يرفض محاولة أبي هريرة (أو أبي أُمامة الباهلي) وأبي الدَّرداء لأخذ قتلة عثمان وتركهما ليريا بنفسِهما حالة جيشه عليه السلام [1]: يقول ابن الأعثم . . . .

فلما كانَ من الغدِ أقبلَ أبو هريرة (وفي صفين لابنِ مزاحم: أبو أُمامة الباهلي) وأبو الدَّرداء حتى دَخلا على معاوية، فقالا له: يا معاوية عَلامَ تُقاتل علياً عليه السلام وهو أحقُّ بهذا الأمرِ مِنكَ لسابِقتهِ في الدِّين وفضيلتهِ في الإسلامِ وهو رجلٌ من المهاجرينَ السَّابقين، وأنتَ رجلٌ طليقٌ وكان أبوكَ من الأحزاب؟

فقال معاوية: إني لستُ أزعُمَ أنّي أحقُّ بهذا الأمرِ منهُ، وإني لأعلَمُ أنَّ علياً لَكَما وصفتُما، ولكنّي أُقاتِلهُ حتى يدفَع إليَّ قتلةَ عُثمان، فإذا فعلَ ذلك كنتُ أنا رجُلاً من المسلمين، أدخُلُ فيما دخَلَ فيهِ الناس.

فقالا: يا هذا، فإنَّنا نكفيكَ هذا الأمر.

ثم أقبلا على عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، فسلَّما عليهِ، وقالا: يا أبا الحسن، إنَّ لكَ

---

(1) وتوجد محاولة شبيهة بهذه المحاولة، قام بها أبو مسلم الخولاني، أوردها الدينوري في كتابه الأخبار الطوال، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ص152 - 153.

فضلاً لا يُدفَع، وشرَفاً لا يُنكر، وقد سِرتَ سيرَ من لا يَشبَهُكَ إلى رجلٍ سفيهٍ، ومعهُ قومٌ سُفهاء لا يُبالونَ بما قالوا، ولا بما قيلَ لهم، وقد زَعمَ معاويةُ أنَّ قتلةَ عُثمان عندَكَ وفي عَسكَرِكَ، فادفَعهُم إليهِ، فإن فعَلتَ ذلِكَ وقاتَلَكَ معاويةُ بعدَ ذلك عَلِمنا أنهُ ظالمٌ متعدٍ.

فقال علي عليه السلام: إني لم أحضَر عُثمانَ في اليومِ الذي قُتِلَ فيهِ، ولكن هل تعرِفانِ مَن قَتلَهُ؟

فقالا: بلَغَنا أنَّ مُحمَّد بن أبي بكر فيمَن دخلَ عليه، وعمَّار بن ياسر، وعَدِّي بن حاتم، وعمرو بن الحَمِق، وفُلاناً وفلاناً.

فقال علي عليه السلام: فانطَلِقا إليهِم فخُذُوهُم.

فأقبلَ أبو هريرة وأبو الدَّرداء إلى هؤلاءِ القوم، فأخذُوهم، وقالا لهُم: أنتُم مِمَن قتلَ عُثمان، وقد أمَرَنا أميرُ المؤمنين بأخذِكُم!

فوقعَت الصَّيحةُ في العَسكَرِ بهذا الخبر، فوثَبَ من عسكرِ علي عليه السلام أكثر من عشرةِ آلاف رَجُلٍ في أيديهم السُّيوف، وهم يقولون: نحنُ كُلُّنا قتلنا عثمان.

فبقيَ أبو هريرة وأبو الدَّرداء متحيِّرين. . . .فخرجا من عسكرِ علي عليه السلام وهما يقولان: هذا الأمرُ لا يتم أبداً[1].

ويبدو أنَّهما يقصدان من ذلك، أنَّ اعتقال المتَّهمين في قتل عثمان ليس أمراً عمليَّاً أبداً، لأنَّ الواقع القلق في جيش الإمام علي عليه السلام لا يسمح بالقيام بخطوة من هذا القبيل.

2. الإمام علي عليه السلام يأذن لأبي نوح بالكلام مع ذي الكلاع الحميري ويُحذِّره من التَّبكيت (= الجدل العقيم والتعنيف بالكلام): يقول ابن الأعثم. . . . فأصبحَ القومُ، فدنا بعضُهم من بعضٍ، ومع عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام يومئذٍ رجلٌ من حِميَر يُكنى بـ«أبي نوح»، وكانَ مُفوَّهاً مُتكلماً، وكانَ لهُ فضلٌ وقَدرٌ وطاعةٌ في الناس، فقالَ لعليٍّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين أتأذَنُ لي في كلامِ ذي الكلاع، فإنهُ رجلٌ من قومي، وهو سيدٌ عندَ أهلِ الشَّام، فلعلِّي أُشكِّكَهُ في ما هو فيه؟

فقالَ لهُ علي عليه السلام: يا أبا نوح، إنَّ ردَّ مثل ذي الكلاع شديدٌ عندَ أهلِ الشَّام (= أي أخشى أن يكون لنقاشك الحامي معه مضاعفات سلبية عند أهل الشَّام)، فإن أحببتَ لقاءَهُ فالقه بالجميل، وإيَّاك والتَّبكيت.

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص284 - 286. أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص190.

عندما بدأ الحوارُ بينهما، طلبَ ذو الكلاع أن يلتقي عمَّار بن ياسر مع عمرو بن العاص، لأنهُ كان قد سمِعَ من عمرو - أيام عُمَر - حديثاً في عمَّار بأنَّ الفئة الباغية تقتُلُه. . . فقامَ الصبَّاح الحِميَري إلى معاوية فقالَ لهُ: إني أرى لكَ أن لا تأذَن لذي الكلاع أن يلقى أبا نوح، فإنه قد طمعَ فيه، وأخافُ أن يُشكِّكَهُ في دينهِ. فقال معاوية: إنِّي قد نهيتُهُ فلم ينتهِ عن ذلكَ. . . .

والقصةُ في ذلكَ طويلةٌ، لكن كان من أبرز نتائج لقاء عمَّار بن ياسر مع عمرو بن العاص والجدَل الحامي الذي دارَ بينَهُما، هو إفحام عمَّار لعمرو، الأمر الذي أعقبَهُ انسحاب الحُصين بن مالِك والحارث بن عوف من عسكرِ معاوية، فصارَ أحدُهُما إلى حِمص والآخر إلى مِصر، وأظهرا التوبةَ والقَسَمَ على عدمِ مُقاتلة علي عليه السلام.

فدعا معاويةُ عمرو فقال: يا هذا إنَّك أفسدتَ أهلَ الشَّامِ عليَّ، أكُلُّ ما سمِعتَ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله تقولُهُ وترويهِ، ما أكثر ما سمِعنا منهُ فلم نروِهِ.

فقال عمرو: يا هذا واللهِ لقد رَويتُ هذا الحديث وأنا لا أظُنُّ أنَّ صِفِّينَ تكون، ولستُ أعلَمُ الغيبَ[1].

الطريف في الأمر أنَّ عمرو كان يُبرِّر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في عمَّار لذي الكِلاع بقولهِ: إنَّهُ سيرجِع إلينا ويُفارق أبا تراب. وذلك قبلَ أن يُصابَ عمَّار، فلما أُصيبَ عمَّار في هذ اليوم أُصيبَ ذو الكِلاعِ أيضاً، فكانَ عمرو يقولُ لمعاوية: واللهِ ما أدري بقتلِ أيِّهما أنا أشدُّ فرحاً؟ واللهِ لو بَقيَ ذو الكِلاعِ حتى يُقتلَ عمَّار لمالَ بعامةِ قومهِ إلى عليٍّ ولأفسدَ علينا أمرنا[2].

3. الإمام علي عليه السلام يُشتَم في صفين لأنهُ لا يصلي! يقول ابن الأعثم. . . . . . دنا القومُ في صِفين بعضُهم من بعض، ودعا عليٌّ عليه السلام بهاشِم بن عُتبة بن أبي وقاص (المِرقال)[3]، فأعطاهُ الرَّاية، فأخذَ هاشِمُ الرَّايةَ وتقدَّم، وكانَ هاشِم أعوَر، وذلك أنهُ أُصيبَ بعينهِ يومَ اليرموك في جيشِ عمر بن الخطاب، فخرجَ إليهِ رجلٌ من أصحابِ معاوية، وجعلَ يشتُم علياً عليه السلام، ويقولُ القبيح.

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص296 - 306.

(2) ابن مزاحم، **وقعة صفين**، ص.

(3) قارن موقف هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (المرقال) المُشرِّف بموقف عمّه سعد السَّلبي من الإمام علي عليه السلام، وبموقف ابن عمّه عمر بن سعد من الإمام الحسين عليه السلام الذي بلغ أدنى درجات الانحطاط.

فقال له هاشم: يا هذا إنَّ هذا الكلام بعدَهُ الخِصَام، فاتَّقِ اللهَ، ولا تشتُم فإنَّكَ راجعٌ إلى ربِّك، وإنهُ مُسائِلُكَ عن هذا الموضع، وعن هذا الكلام.

فقالَ الشَّامي: وكيفَ لا أشتُمُكُم ولا ألعَنكُم وقد بلَغَني عن صاحِبِكُم أنهُ لا يُصلِّي وأنَّكُم لا تُصَلُّون.

أقول: لاحظ إلى أيِّ حدٍّ كان أهل الشَّام مُضَلَّلين؟ وإلى أيِّ حدٍّ زُوِّدوا بمعلومات مغلوطة؟! وإلى أيِّ حدٍّ تمَّ التلاعُب بعقولِهِم؟!

فقالَ لهُ هاشم: يا هذا الرَّجُل، أما قولُكَ إنَّنا ما نُصلِّي، فواللهِ ما فينا أحدٌ يؤخِّرُ الصلاةَ عن وقتِها طرفةَ عين، وأما قولُكَ عن صاحِبِنا إنهُ لا يُصلِّي، فواللهِ إنهُ لأوَّلُ ذَكَرٍ صلَّى من هذهِ الأمة، بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وإنهُ لأفقَهُ خلقِ الله في دينِ الله، وأولاهُم برسولِ الله صلى الله عليه وآله، وليسَ معَهُ أحدٌ إلا وهو قارئٌ لكتابِ الله، عالِمٌ بحُدودِ الله، ولا يغُرَّنَكَ هؤلاء الأشقياء المغرورون.

فقال الشَّامي: يا هذا ما أظُنُّكَ واللهِ إلا وقد نصَحتني في ديني، ولكن هل من توبة؟

قال: نعم، إن تُبتَ تابَ اللهُ عليك، فإنهُ «هو الذي يقبَلُ التوبةَ عن عبادِهِ ويعفو عن السَّيئات»[1].

فقنَّعَ الشَّاميُّ فرسَهُ، وركضَ فصارَ إلى عليٍّ عليه السلام، فكانَ معهُ[2].

نعم لقد كانت الاتهامات التي يتلقَّاها الإمام علي عليه السلام من معاوية وأصحابه تترى، وكان بعضها غير قابل للتَّصديق لأيِّ إنسان يعرف شيئاً يسيراً عن تاريخ الإسلام. لكنَّها، مع ذلك، كانت تنطلي على أهل الشَّام. من تلك الاتهامات، ما كان يُردِّدهُ عمرو بن العاص من أنَّ عليّاً عليه السلام امرؤٌ فيه دُعابة وأنه تلعابة يُعافِس ويُمارِس!

في ردِّه على اتهامات عمرو، كان عليه السلام يقول: «عجَباً لابنِ النَّابغة، يزعُمُ لأهلِ الشَّام أنَّ فيَّ دُعابة (= كثير المزاح) وأنِّي امرؤٌ تِلعابة (= كثير اللَّعب)، أُعافِسُ وأُمارِس (= أضاربُ الناس مزاحاً وأغازل النِّساء)! لقد قالَ باطلاً، ونطَقَ آثِماً. . . .أما والله إنِّي ليمنَعُني من اللَّعبِ ذِكرُ الموت، وإنهُ ليمنعُهُ من قولِ الحقّ نِسيانُ الآخرةِ، إنه لم يُبايع معاويةَ حتى شرَطَ أن يُؤتِيَهُ آتيةً (= عطية)، ويرضَخ لهُ على تركِ الدِّينِ رضيخة (= يعطيه في المقابل شيئاً قليلاً)»[3].

---

(1) سورة الشورى، الآية: 25.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص348 - 349. أنظر أيضاً قصة اتهام علي عليه السلام بعدم الصلاة، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص30.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (84)، ص115.

4. محاولات إيقاف الحرب بعد اختلال موازين القوى لمصلحة الإمام علي عليه السلام :

يقول ابن الأعثم . . . .أقبلَ معاويةُ على عمرو بن العاص فقال: يا أبا عبد الله قد أكَلتنا واللهِ هذهِ الحروب، ولا أرانا نأخُذُ العراقَ إلا بهلاكِ الشَّام[1].

حاول معاوية وعمرو الكتابةَ لابن عباس لخديعتهِ واستمالتهِ، لكن دون جدوى. فكتب معاويةُ لعليٍّ عليه السلام : «أما بعدُ، فلو أنَّكَ علِمتَ وعلِمنا أنَّ هذهِ الحروبَ تبلُغُ منكَ ومِنَّا ما بلغَت ما كانَ جنَيناها بعضُنا على بعض، والآن فقد تهيأ لنا أن نُصلِحَ ما بقيَ ونَدَع ما مضى، وقد كنتُ سألتُكَ الشَّامَ، على أن لا تُلزِمَني طاعة ولا تبِعة، فأبيتَ عليَّ، وإنِّي اليومَ أسألُكَ ما سألتُكَ بالأمس، فقد واللهِ ذهبَ الأخيارُ والرِّجال، وإنما نحنُ بنو عبدِ مناف، وليسَ لبعضِنا على بعضٍ فضلٌ».

فردَّ الإمام علي عليه السلام : «أما بعدُ، فقد جاءَني كِتابُكَ تذكُرُ فيهِ أنَّك لو علِمتَ وعلِمنا أنَّ الحربَ تبلُغُ بِنا وبِكَ ما بلغت لم يجنِها بعضُنا على بعضٍ، فإنَّا وإياكَ، يا معاوية، نلتَمِسُ من الحربِ غايةً لم نبلُغها بعد. . . . وأما طلبُكَ إليَّ الشَّامَ، فإنِّي لم أكُن لأُعطِيَكَ اليومَ ما منعتُكَ أمس. وأما قولُكَ إنَّ الحربَ قد أكلَتِ العرَب إلا حُشاشاتِ أنفُسٍ بقِيَت، ألا فمَن أكَلَهُ الحقُّ فإلى الجنَّة، ومن أكَلَهُ الباطِلُ فإلى النار. وأما استواؤُنا في الحربِ والرِّجال، فإنَّك لستَ بأمضى على الشكِّ منِّي على اليقين، وليسَ أهلُ الشَّام بأحَرصَ على الدُّنيا من أهلِ العراقِ على الآخِرة. وأما قولُكَ أننا بنو عبدِ مناف، وليسَ لبعضِنا فضلٌ على بعض، فكذلِكَ نحنُ، فلعمري إننا بنو أبٍ واحدٍ، ولكنَ ليسَ أميةُ كهاشم، ولا حربٌ كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المُهاجِر كالطَّليق، ولا المُحِق كالمُبطِل. . . وفي أيدينا بعدُ فضلُ النبوة التي أذلَلنا بها العزيز. . . . والسلام»[2].

فلما وصلَ الكتابُ إلى معاوية ندِمَ على ما كتبَ بهِ إلى علي عليه السلام ، وشَمتَ بهِ عمرو ابنُ العاص[3].

كتب الدينوري: «وكانَ أهلُ العراقِ وأهلُ الشَّام أيامَ صِفين إذا انصرفوا من الحرب، يدخُلُ كلُّ فريقٍ منهُم في الفريقِ الآخر، فلا يعرِض أَحدٌ لصاحبهِ، وكانوا يطلِبونَ قتلاهم، فيُخرِجونَهُم من المعركةِ، ويدفِنونَهُم»[4].

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص379.
(2) أنظر تمام نهج البلاغة، كتاب رقم 60، ص852 - 853.
(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص385 - 386.
(4) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص167.

وهذا يكشف عن حقيقةٍ مهمَّةٍ، لها دورُها في تطوُّر الأحداث، وهو أنَّ ثمة تواصلاً كان يحصل بين أفراد الجيشين؛ فقد كانوا يتلاقون ويتحاورون ليلاً، ويتبادلون المعلومات والتحليلات.

5. الردُّ اللطيف لعليٍّ عليه السلام على عرضِ الشَّامي بأن يخلُّوا بينَهُ وبينَ العراق ويُخلِّي عليٌّ بينهم وبين الشَّام: يقول ابن الأعثم... ..فخرجَ رجلٌ من أهلِ الشَّام، حتى وقفَ بينَ الصَّفين ثم نادى بأعلى صوتِهِ: يا أبا الحسن، إليَّ أكلِّمُك.

فخرجَ إلى عليٍّ عليه السلام حتى اختلَف عنقا فرسَيهِما، فقالَ لهُ الشَّامي: يا أبا الحسن، إنَّ لكَ فضلاً وقِدَماً في الإسلام، وهجرةً وسابقةً، وأخوةً وقرابةً من رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فلا يُساميكَ أحدٌ ولا يُدانيك، فهل لكَ في أمرٍ أعرِضهُ عليك، يكونُ فيهِ حقنُ دِماءِ هذهِ الأمة، وتأخيرُ هذهِ الحروب، إلى أن ترى في ذلكَ رأيَك؟

فقال علي عليه السلام: وما ذاك؟

قال: أن ترجِعَ إلى عِراقِكَ، ونَرجِع إلى شامِنا، فنُخلِّي بينَك وبينَ العراق، وتُخلِّي بينَنا وبينَ الشَّام؟

فقال عليٌّ عليه السلام: لقد علِمتُ أنَّك إنما عرَضتَ هذا نصيحةً وشفقةً، ولكن قد أهمَّني هذا الأمر، وأسهَرَني وضرَبتُ أنفَهُ وعينَهُ، فلم أجِد إلا القتال أو الكُفر بما أنزلَ اللهُ عز وجل. إنَّ اللهَ لم يرضَ من أوليائِهِ أن يُعصى في الأرضِ وهم سكوتٌ مذعنونَ لهُ، لا يأمرونَ بالمعروفِ ولا ينهَونَ عن المنكر، فوجدتُ القتالَ أهونَ عليَّ من معالجةِ الأغلالِ في نارِ جهنَّم.

فرجعَ الشَّامي وهو يقول: إنا لله وإنا إليهِ راجعون[1].

لاحظ أنَّ عليّاً عليه السلام الذي استنفد كل المحاولات لتفادي حرب صفين... عندما وقعت هذه الحرب، وأوقعت على الطرفين خسائر فادحة، ومالت الكفة بصعوبة بالغة لمصلحة جيش الإمام علي عليه السلام، يريد معاوية الآن وقف الحرب... .فإنه صار هو داعية سلام، وصار الإمام علي عليه السلام داعية حرب!!

6. الإمام علي عليه السلام يستقبل وفدَ معاوية المفاوض بعد تغيُّر موازين المعركة لمصلحته: بعد إراقة نهر من الدِّماء، أرسلَ معاويةُ وفداً رفيع المستوى لمفاوضةِ الإمام علي عليه السلام، منهم: عمرو بن العاص، وعُتبة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن بن خالد بن

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص389.

الوليد، وحبيب بن مَسلمة، والضحَّاك بن قيس، وجماعة من عربِ الشَّام، فأقبَلوا حتى وقفوا قريباً من عسكرِ علي عليه السلام، ثم بعثوا إليهِ يسألونَهُ أن يأذَنَ لهم في كلامهِ.

فقال علي عليه السلام: ما أمنَعهُم من ذلِكَ.

فأقبلوا حتى دخلوا العسكَرَ، ثم صاروا إلى عليٍّ عليه السلام، وهو في خيمتهِ، فسلَّموا فردَّ عليهِمُ السَّلامَ، ومجلِسُهُ يومئذٍ غاصٌّ بالمهاجرينَ والأنصار، فقال: تكلَّموا بما أحبَبتُم. . . .

فتكلَّمَ عمرو فكانَ مما قال: وأيمُ اللهِ إنَّنا لنعلَمُ أنَّ علياً ومن معَهُ من المهاجرينَ والأنصار قد كانَت لهم سوابِق قديمة عظيمة، وفضلٌ لا يُجهَل، وقد رأينا رأياً نسألُ اللهَ تعالى فيهِ التوفيقَ لما يُحبُّ ويرضى، ولعلَّ اللهَ تبارك وتعالى يحقِنُ دماءَنا، ويُصلِح ذاتَ البين.

ثم تكلَم شُرَحبيل بن السَّمط فكانَ مما قال: أما بعدُ، يا معشَر أهل العراق، فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالى قد جعلَ بينَنا حُقوقاً عِظاماً من الأرحامِ الماسَّة، والأنسابِ القريبة، والأصهار الشابِكة، وقد علِمنا يا أبا الحسن أنَّ لكَ سابقة مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وصِهراً وقرابة. . . وقد رأينا أن تَنصَرِفَ عنا يا أبا الحسن أنتَ ومن معَك، فنُخلِّي بينَكُم وبينَ عراقِكُم وحِجازِكُم، وتُخلُّونَ بينَنا وبينَ شامِنا، ونحقِن دماءَ المسلمين. . .

فقال علي عليه السلام: واللهِ لقد نظرتُ في هذا الأمرِ، فضرَبتُ ظهرَهُ وبطنَهُ، وأنفَهُ وعينَهُ، حتى لقد منَعني النوم، فما وجدْتُهُ يسَعُني إلا قتالُكُم أو الكفر بما جاءَ بهِ محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم. وأيمُ اللهِ لوددتُ أني فديتُ حقنَ دماءِ المسلمين بمُهجتي. ولكن قولوا لصاحِبِكُم هذا حتى يخرُجَ إلى هذهِ الصَّحراءَ ثم إني أدعو اللهَ ويدعو هو أيضاً، أن يقتُلَ مِنَّا المحق المُبطِل، ثم إنِّي أُبارِزُهُ فأيُّنا قتلَ صاحِبَهُ ملتُم معهُ بأجمَعِكُم، فواللهِ لا يُقاتِلُ مع معاوية أحدٌ إلا أكبَّهُ اللهُ غداً في نارِ جهنَّمَ.

فالتفتَ الشَّاميُّ إلى أصحابهِ، فقال: ما يُقعِدكُم، انهضوا فواللهِ ما عند هذا الرَّجُل إلا السَّيف.

فوثَبَ أهلُ الشَّام وهم يقولون: هلَكَتِ العربُ وربِّ محمَّد[1].

وأرسلَ عُبيدُ الله بن عمر بن الخطاب[2] إلى الحسنِ بن علي عليه السلام أنَّ لي إليكَ حاجة

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص401 - 403.

(2) وسبب التحاق عبيد الله بن عمر بمعاوية أن أباه عندما قتل، شك وارتاب في أن الهرمزان اشترك مع أبي لؤلؤة في قتل أبيه، فبادر إلى قتل الهرمزان، واحتار عثمان في دم الهرمزان، وقيل أنه عفا عن =

فالقِني. فلقِيَهُ الحسنُ عليه السلام، فقالَ لهُ عُبيد الله: إنَّ أباكَ قد وترَ قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنِئَهُ الناس، فهل لكَ في خلعِهِ وأن تتولى أنتَ هذا الأمر؟!

فقال: كلا واللهِ، لا يكونُ ذلك. ثم قال: يا ابنَ الخطاب، واللهِ لكأني أنظرُ إليكَ مقتولاً في يومِكَ أو غدِك...

قال نصر: فواللهِ ما كانَ إلا بياض ذلكَ اليوم حتى قُتِلَ عُبيد الله[1].

وصارت حرب صفين أكثر حرارة وحماسة، لكن مع وقوع خسائر باهظة، وكان عليه السلام يوصي أصحابه قائلاً: «أيُّ امرئٍ منكم أحسَّ من نفسِهِ رباطةَ جأشٍ عند اللقاء، ورأى من أحدٍ من إخوانِهِ فشلاً فليذُبَّ عن أخيهِ بفضلِ نجدتِهِ التي فُضل بها عليه كما يذُبُّ عن نفسِهِ، فلو شاءَ اللهُ لجعلَهُ مثلَهُ. إنَّ الموتَ طالبٌ حثيثٌ لا يفوتُهُ المقيم، ولا يُعجِزُهُ الهارب. إن أكرمَ الموتِ القتل. والذي نفسُ ابنِ أبي طالبٍ بيدِهِ، لألفُ ضربةٍ بالسيفِ أهونُ عليَّ من ميتةٍ على الفراشِ في غيرِ طاعةِ الله»[2]!

وفي يوم من أيام صفين، صلى علي عليه السلام الغداة ثم زحفَ إليهم، فلما أبصروهُ قد خرجَ استقبلوهُ بزُحُوفِهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إنَّ خيلَ أهلِ الشَّام حمَلَت على خيلِ أهلِ العراق، فاقتطعوا من أصحابِ علي عليه السلام ألفَ رجُلٍ أو أكثر، فأحاطوا بهم وحالوا بينَهُم وبينَ أصحابِهم فلم يروهُم، فنادى عليٌّ عليه السلام يومئذٍ: ألا رجلٌ يشري نفسَهُ للهِ ويبيعُ دنياهُ بآخرتهِ؟

فأتاهُ رجلٌ من جُعفٍ، يُقالُ له عبد العزيز بن الحارث، على فرسٍ أدهَم كأنهُ غراب، مقنَّعاً في الحديد، لا يُرى منهُ إلا عيناه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، مُرني بأمرٍ، فواللهِ ما تأمُرُني بشيءٍ إلا صنعتُهُ.

فقال علي عليه السلام.... أبا الحارث، شدَّ اللهُ رُكنَك، احمِل لي على أهلِ الشَّام، حتى تأتي أصحابَكَ، فتقولُ لهم: أميرُ المؤمنين يقرأُ عليكمُ السَّلام، ويقولُ لكم: هلِّلوا وكبِّروا

= عبيد الله، وكان رأي علي عليه السلام أن يقتل في مقابل الهرمزان، لذا هرب إلى معاوية خوفاً من قصاص علي عليه السلام. وطبعاً معاوية استفاد من وجوده، فهو عدوي قرشي، وهو بحاجة إلى قرشيين من غير بني أمية، خصوصاً إن كان ذلك القرشي ابن الخليفة الثاني، حتى يؤكد في اذهان الناس الانطباع بأنه امتداد له.

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج3، ج5، ص132.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (123)، ص179 - 180. وفي الخطبة التي تليها (124) وصاياه عليه السلام للمقاتلين، وفيها ملاحظات بالغة القيمة والأهمية يستفيد منها المقاتلون على مرِّ الأزمان.

من ناحيتِكُم، ونُهلِّل نحنُ ونُكبِّر من ها هُنا، واحمِلوا من جانبِكُم ونحمِل من جانبِنا على أهلِ الشَّام.

فضربَ الجعفيُ فرسَهُ، حتى إذا قامَ على السَّنابِكِ، حملَ على أهلِ الشَّام المحيطين بأصحابِ علي عليه السلام، فطاعَنَهُم ساعةً وقاتَلَهُم، فانفرجوا لهُ حتى أتى أصحابَهُ، فلما رأوا استبشروا بهِ وفرِحوا، وقالوا: ما فعلَ أميرُ المؤمنين؟

قال: صالحٌ، يُقرئكم السَّلام، ويقولُ لكم: هلِّلوا وكبِّروا واحمِلوا حملةَ رجُلٍ واحدٍ من ذلكَ الجانِب.

وحمَلوا على أهلِ الشَّام من ثمَّ، وحملَ عليٌّ عليه السلام من ها هُنا في أصحابهِ، فانفرجَ أهلُ الشَّامِ عنهُم، فخرجوا، وما أُصيبَ منهم رجُلٌ واحد. ولقد قُتِلَ من فرسانِ أهلِ الشَّام يومئذٍ زُهاءَ سبعمائة رجُل.

شهادة عمَّار بن ياسر

ثم إنَّ عمَّاراً خرجَ إلى الناس فقال: اللهُمَّ إنكَ تعلَم، أنِّي لو أعلمُ أنَّ رضاكَ في أن أقذِف بنفسي في هذا البحر لفعلتُهُ. اللهُمَّ إنكَ تعلم، أنِّي لو أعلمُ أنَّ رِضاكَ في أن أضعَ ظِبةَ سيفي في صدري، ثم أنحني عليها حتى تخرُجَ من ظهري، لفعَلت. وإني لا أعلمُ اليومَ عملاً هو أرضى لكَ من جهادِ هؤلاء الفاسقين، ولو أعلمُ أنَّ عملاً من الأعمالِ هو أرضى لكَ منهُ لفعلتُهُ[1].

ومن المعلوم أنَّ أهل المكر والدَّهاء لديهم قدرة فائقة على تزييف الحقائق وإظهار الحق بصورة الباطل، وهم في كثير من الأحيان رُوَّاد في مجال تحريف مسار النَّاس عن الصِّراط المستقيم إلا من عصم الله. . . .إليك حادثة شهادة عمَّار نموذجاً.

روى البخاري في صحيحهِ (في كتاب الجهاد والسير) عن أحدِ الصحابة قوله: كُنَّا (عند بناءِ المسجد النبوي في المدينة) ننقُل لبن المسجد لبِنة لبِنة، وكان عمَّارٌ (بن ياسر) ينقُل لبِنتينِ لبِنتين، فمرَّ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ومسحَ عن رأسهِ الغُبارَ وقال: «ويحَ عمَّار تقتُلُهُ الفئةُ الباغية، عمَّارٌ يدعوهُم إلى اللهِ ويدعونَهُ إلى النار»[2].

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص26.

(2) أنظر أيضاً: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج2، 121 - 122، والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب قتال أهل البغي، ح2653، ص187 - 188، أيضاً ج3، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب عمار بن ياسر، ح5659، ص476، ح5660، ص477.

الحديثُ واضحٌ لا لبس فيه، الفئة التي تقتل عمَّاراً هي فئة باغية تدعوه إلى النار وهو في قبالها يدعوها إلى الله سبحانه وتعالى.

عندما وقعت حرب صفين بين أهل العراق بقيادة الخليفة الشَّرعي بكلِّ المقاييس الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومساندة عدد كبير من المهاجرين والأنصار من ناحية، وأهل الشَّام بقيادة معاوية بن أبي سفيان ومساندة عمرو بن العاص من ناحية أخرى. . . . كان الصَّحابي الجليل عمَّار بن ياسر الذي تجاوز التِّسعين من عمره الشريف، وبسبب انتشار حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في حقِّهِ، بمثابة بوصلة[1]. وكان عدد معتدّ به من أفراد الجيشين يراقب مصير عمَّار عن كثب، ليقطع الشَّك باليقين ويعرف ما إذا كان يسير في الاتجاه السليم أم لا، مصطفَّاً مع الفئة الباغية أم لا[2].

عندما زحف الناس بعضهم إلى بعض، واقتتلوا بالسِّهام والنَّبل والرِّماح والسُّيوف، نادى عمَّار: أيُّها الناس هل من رائحٍ إلى الجنة؟ فخرج معه خمس مئة رجُل، فاستسقى

---

(1) روى الحاكم عن خالد العرني قال: دخلتُ أنا وأبو سعيد الخدري على حذيفة، فقلنا: يا أبا عبد الله، حدِّثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله في الفتنة؟ قال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: دوروا مع كتاب الله حيث ما دار. فقلنا: فإذا اختلف الناس فمع من نكون؟ فقال: انظروا الفئة التي فيها ابن سمية، فالزموها، فإنه يدور مع كتاب الله. قال: قلت: ومن ابن سمية؟ قال: أوما تعرفه؟ قلت: بينه لي، قال: عمار بن ياسر، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعمار: يا أبا اليقظان، لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية عن الطريق. راجع: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب قتال أهل البغي، ح2652، ص187. قد يقال: لماذا لم يربط حذيفة بن اليمان الناس بعلي عليه السلام وربطهم بعمار؟ أقول: ربما وجد حذيفة أنَّ ربط الناس بعمار أجدى من ربطهم بعلي عليه السلام، لحساسية بعضهم منه، لكون علي عليه السلام قرشياً عدنانياً، ولكون عمار قحطانياً أقرب إلى أهل العراق من الناحية القبلية، وما دام عمار دائماً مع علي عليه السلام، وما دام علي عليه السلام مع القرآن يدور حيث دار، فلا بأس بربطهم بعمار، خصوصاً إذا كان الأمر مستنداً إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه تقتله الفئة الباغية.

(2) ما يثير الاستغراب هو متابعة عدد كبير من أفراد الجيشين لمصير عمَّار، حتى يتأكدوا من هوية الفئة الباغية، وبالتالي معرفة سلامة موقفهم من انحرافه. . . ولا أدري لم لم يعتبروا علياً عليه السلام الخليفة الشرعي هو مؤشر البوصلة خصوصاً مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله بحقه: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصى علياً فقد عصاني» (الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، ح4617، ص148)، و«علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض» (الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، ح4628، ص152)، و«اللهم أدر الحق معه حيث دار» (الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، ح4629، ص152)، و«أنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة» (الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج4، ح3642، ص158).

عمَّار، فأتاه غلام له بإداوة فيها لبن، فلما رآه كبَّر، وقال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يقول: «آخِرُ زادَكَ من الدُّنيا لَبن»، ثم جعلَ يقول: اليومَ ألقى الأحِبة مُحمَّداً وحِزبَهُ.

استشهدَ عمَّار، فاتضحت الرُّؤية تماماً في جيش علي عليه السلام، وتؤكِّد بعض الأخبار، أنَّ بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله نزلوا إلى ميدان المعركة بمجرَّد سماعهم خبر شهادة عمَّار.

في المقابل حصلَ ارتباكٌ شديدٌ في أوساط جيش معاوية، لأنَّ بعض أفراد جيشه كان مُستذكراً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان من المُرجَّح أن ينتقل عدد منهم إلى معسكر علي عليه السلام، منهم - كما أشرنا - ذو الكلاع الذي قُتِلَ في وقتٍ متزامن مع شهادة عمَّار، حتى قال عمرو بن العاص: والله يا معاوية ما أدري بقتلِ أيِّهما أنا أشدُّ فرَحاً، والله لو بقي ذو الكلاع حتى يُقتل عمَّار لمالَ بعامةِ قومهِ إلى عليّ، ولأفسدَ علينا جُندَنا. إذن بعد شهادة عمَّار كان جيش معاوية مهدَّداً من الداخل... هنا حرَّكَ معاوية قدراته في المكر وفسَّر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله بنحوٍ مغلوط حتى يُنقِذ الموقف.

يقول ابن الأعثم في «الفتوح»: قال عمرو بن العاص لمعاوية: قد قُتِلَ عمَّار.

فقال معاوية: قتلُ عمَّار ما كان ضارِّي (= ليس مضراً بي).

فقال: ألا تعلم أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله قال لعمَّار «تقتلك الفئة الباغية» وأن «آخِر زادِكَ عسٌّ من لَبَن».

فقال معاوية: إنما قتلَهُ من جاءَ بهِ إلى الحرب!

فقال عبد الله بن عمرو: وكذلك حمزة بن عبد المطلب يوم أُحُد إنما قتلَهُ النبيّ صلى الله عليه وآله ولم يقتُله وحشي؟!

فقال معاوية لعمرو: نحِّ عنا ابنك هذا المُوسوِس الذي لا يدري ما يقول[1]!

وينقل ابن قتيبة الدينوري في «الإمامة والسياسة» أنَّ معاوية التفت إلى أهل الشَّام فقال: إنما نحنُ الفئةُ الباغية التي تبغي دمَ عثمان!

هكذا استطاع معاوية بن أبي سفيان إقناع جيشه بأنَّ عليَّاً عليه السلام هو الذي قتل عمَّاراً وليس هو، لأنَّ عليَّاً عليه السلام هو من جاء به إلى صفين، وتناسى أن هذا المنطق يستلزم

---

(1) التفاصيل ذاتها أو قريب منها رواها الحاكم في مستدركه، راجع: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب عمار بن ياسر، ح5659، ص476، ح5660، ص477، ح2663، ص194. أنظر أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص26 - 29.

اتهام رسول الله صلى الله عليه وآله بقتل حمزة لأنه هو من جاء به إلى أُحُد!! وإن كان بعضهم مُصِرّاً على القول بأنَّ معاوية يمثل الفئة الباغية، فهي باغية بالفعل، لكن تبغي الثأر لدم عثمان!! وتناسى الآية: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1]!

نعم، عندما يُعمِل أهل المكر والدَّهاء قدراتهم على تزييف الحقائق وتشويه الوقائع وإظهار الحق بصورة الباطل ويقوم برَسم صورة عن الضَّحية وكأنَّه هو الجلاَّد، عندئذٍ يكون الناس بحاجةٍ إلى بصيرةٍ نافذة لتمييز المُحق من المُبطِل. . . .يا ترى كم عدد السِّياسيين في العالم الذين يُعمِلون تلك القدرات ويسيرون على خطى معاوية؟ وماهي نسبة الجماهير التي تنطلي عليها المغالطات وتنساق خلف هذا النمط من السِّياسيين وتتورَّط في المهالك؟!

الخلاصة: تناولنا في هذا الفصل بعض أحداث صفين المهمَّة، كمحاولة أبي هريرة (أو أبي أمامة الباهلي) وأبي الدرداء اعتقال قتلة عثمان لوضعِ حدٍّ لحرب صفين المستعِرة، وإذن الإمام علي عليه السلام لأبي نوح أن يُكلِّم نظيره الحميري، وشتم الإمام علي عليه السلام والاتهامات السَّخيفة التي كان يُتَّهم بها والتي كانت موضع تصديق من أهلِ الشَّام.

ثم تناولنا تطوُّرات الأحداث عندما مالت الكفَّة في الحرب لمصلحة الإمام علي عليه السلام، وكتابة معاوية لعلي عليه السلام يعرض عليه ما عرَضَ عليه سابقاً من أن يُخلي له الشَّام في مقابل أن يبايعه، ثم الوفد الذي أرسله معاوية ليعرِض العَرضَ ذاتَهُ على الإمام علي عليه السلام، في المقابل كان عليه السلام يعرض على معاوية المباهلة ثم المبارزة ليحقن دماء المسلمين، وأخيراً تحدَّثنا عن قصة الجعفي، وشهادة عمَّار بن ياسر التي كانت حدثاً مهمّاً من أحداث معركة صفين.

في الفصل القادم سنتناول ليلة الهرير، وهي أخطر ليلة وقعت في صفين، بلغ فيه الاصطكاك العسكري ذروته، وما أسفر عنه من رفعٍ للمصاحف، وإيقافٍ للحرب.

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(17)

ليلة الهرير وفتنة رفع المصاحف

تحدَّثنا في الفصل السابق عن بعض أحداث حرب صفين، ونريد في هذا الفصل أن نشرع في الحديث عن اللَّيلة الحاسمة في تلك الحرب، التي تسمى بـ«ليلة الهرير»، وعن مجريات الوقف المفاجئ لتلك الحرب، الذي جاء على إثر رفع المصاحف.

يتحدَّث المؤرخون عن قتال طويل شديد الضَّرواة في ليلة الهرير. دعونا نسترسل في سرد تلك الأحداث، لنعرف تفاصيل تلك المعارك الضارية.

ليلة الهرير[1] ثم رفع المصاحف والإمام علي عليه السلام يأذن للأشعث بالقدوم على معاوية ويستجيب لضغوط عسكره حتى لا يحملهم على ما يكرهون.

يقول ابن الأعثم وغيره . . . .وأصبحَ الناسُ، وطلعت الشمسُ، وذلكَ في الخميس، ودعا عليٌّ عليه السلام بدرعِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فلبِسَهُ، وبسيفِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فتقلَّدَهُ، وبعمامةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فاعتجَرَ بها، ثم دعا بفرسِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فاستوى عليه، وجعلَ يقول: أيُّها الناس، من يبيعُ نفسَهُ بربحِ هذا اليوم؟ فإنهُ يومٌ لهُ ما بعدَهُ من الأيام. . . **ألا إنَّها إِحَنٌ بدرية، وضغائِنُ أُحدِية، وأحقادٌ جاهلية، وثبَ بها معاويةُ حينَ الغفلة، ليذكُرَ بها ثارات بني عبد شمس** ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[2].

أقول: لاحظ ربط الإمام علي عليه السلام المباشر بين معركة بدر، التي جاءت معركة أحد كتداعٍ من تداعياتها، مع معركة صفين التي هو فيها الآن.

فقال المهاجرون والأنصار: يا أميرَ المؤمنين، إننا كُنَّا نُقاتل معكَ إلى السَّاعةِ على بصيرةٍ ويقين أنَّكَ على الحقِّ الواضح، والآن فقد ازدَدنا بصيرةً ويقيناً، إذ قُتِلَ بينَ يديكَ عمَّار بن ياسر، فتقدَّم أمامَنا، وها نحنُ من ورائِك.

. . . . ثم حملَ عليٌّ عليه السلام . . . حملةَ رجُلٍ واحدٍ، فما بقِيَ لأهلِ الشَّام صفٌّ إلا

---

(1) أنظر خطبة علي عليه السلام ليلة الهرير في نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (66)، ص97.

(2) سورة التوبة، الآية: 12.

انتُقِضَ وهمَدت الناس، واحمرَّت حوافِرَ الخيلِ بالدماء... وزالتِ الشَّمس، وذهبَ وقتُ الصلاة، والحربُ قائمة على ساق، وصاحَ عليٌّ عليه السلام بالمهاجرينَ والأنصار: إنَّ الفِرارَ من الحربِ في مثلِ هذا اليوم ارتدادٌ عن الحق، ورغبةٌ عن دينِ الإسلام....

فتقدَّم الصَّحابيُّ الجليل أبو الهيثم بن التيِّهان[1] فقاتَلَ حتى قُتِل. ثم تقدَّم الصَّحابيُّ الجليل خُزيمة بن ثابت ذو الشهادتين[2] فقاتلَ حتى قُتِل، وتقدَّم خالِد وخَلدة ابنا أبي خالد الأنصاري فقاتلا حتى قُتِلا جميعاً، واستشهدَ الصَّحابيُّ عبدُ الله بن وَرقاء الخُزَاعي مع أخيهِ عبد الرحمن. وكان قد قُتِلَ قبلَ ذلك الصَّحابيُّ الجليل عمَّار بن ياسر، والصَّحابيُّ الجليل هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص، المعروف بـ«المِرقال». كما استشهد في ذلك اليوم ابنا الصَّحابي الجليل حُذيفة بن اليمان: صفوان وسعد، الذي كان قد أوصاهما قبيل موته بملازمة الإمام علي عليه السلام.

وبكى الأشترُ، فقالَ لهُ عليٌّ عليه السلام: ما يُبكيك، لا أبكى اللهُ عينيك؟

فقال: أبكي يا أميرَ المؤمنين، أبكي لأنِّي أرى الناسَ يُقتلونَ بينَ يديكَ، وأنا لا أُرزَقُ الشَّهادة فأفوزُ بها.

فقالَ لهُ علي عليه السلام: أبشِر بالخيرِ يا مالِك...[3].

وعندما رأى الإمام علي عليه السلام ابنَهُ الحسن عليه السلام يتسرَّع إلى الحرب قال: «أملِكوا عنِّي هذا الغُلام لا يهُدَّني، فإنني أنفَسُ بهذين - يعني الحسن والحسين عليهما السلام - على الموتِ لِئَلاَّ ينقطِعَ بهِما نسلُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله»[4].

كلُّ قبيلة تقاتل أختها

وفي محاولة من جيش معاوية لتحييد خثعم العراق، يقول نصر: إنَّ عبدَ الله بن حنَش الخثعمي، رأس خثعم الشَّام، أرسلَ إلى أبي كعب الخثعمي، رأس خثعم العراق: إن شِئتَ توافقنا فلم نقتَتِل، فإن ظهرَ صاحِبُكم كُنَّا معكُم، وإن ظهرَ صاحِبُنا كُنتُم معنا، ولا يقتُلُ بعضُنا بعضاً، فأبى أبو كعبٍ ذلك.

---

(1) الأوسي الأنصاري، شهد العقبة، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

(2) الأوسي الأنصاري، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل: يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا؟ قال: يا رسول الله، أنا أصدقك بخبرِ السماء ولا أصدقُكَ بما تقول، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: شهادته شهادةُ رجلين. وقال الزهري: إن خزيمة بن ثابت رأى فيما يرى النائم كأنه يسجد على جبهة النبي صلى الله عليه وآله، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله، فاضطجع صلى الله عليه وآله له وقال: صدق رؤياك، فسجد على جبهته صلى الله عليه وآله.

(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص412.

(4) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (207)، ص323.

عندمنا اشتدَّ القتالُ بينهم، هجمَ رجلٌ من خثعم الشَّام على أبي كعب، فطعنَهُ فقتلَهُ، ثم انصرفَ يبكي ويقول: يرحمُكَ الله أبا كعب، لقد قتلتُكَ في طاعةِ قوم أنتَ أمسُّ بي رحِماً منهُم، وأحبُّ إليَّ منهُم نفساً، ولكنِّي واللهِ لا أدري ما أقول؟ ولا أرى الشيطان إلا قد فتَننا، **ولا أرى قريشاً إلا وقد لعِبت بنا**[1]!

وأرجو أن تُركِّز أيُّها القارئ على كلمته: «ولا أرى قريشاً إلا وقد لعبت بنا»، لأنَّ هذا المنطق سيتفشى في جيش علي عليه السلام، وسيكون من الأسباب الرئيسية للضَّغط عليه لقبول التَّحكيم.

يقول بعض المؤرِّخين: وقامتِ الفُرسانُ في الرِّكبِ، فاصطفقوا بالسُّيوفِ، وارتفعَ الرَّهجُ، وثارَ القتالُ، وتضعضعت الرايات، وغابَت الشمس، وذهبت مواقيتُ الصلاة حتى ما كانَ في الفريقينِ أحدٌ يصلي في ذلكَ اليوم، ولا سجدَ للهِ سجدةً، ولا كانت الصلاة إلا بالتَّكبيرِ والإيماءِ نحو القبلة، وهجمَ عليهمُ اللَّيل، واشتدَّت الحربُ، وهذهِ ليلةُ الهَرير، فجعلَ بعضُهم يهِرُّ على بعضٍ، ويعتنِق بعضُهم بعضاً، ويكدِمُ بعضُهم بعضاً.

وجعلَ المشايخُ من أهلِ الشَّام يُنادونَ في تلكَ الغمرات: يا قوم، اللهَ الله في البقية، اللهَ الله في الحُرَم والذُّرية، والناسُ يقتَتِلونَ ليلتهم تِلكَ حتى أصبحوا وقد قُتِلَ من القوم ستة وثلاثونَ ألفاً من جحاجِحةِ العرب، وليسَ فيهم أحدٌ يكيعُ عن صاحبهِ. فطلعَت الشمسُ وتعالى النَّهار، والسُّيوفُ تأخذُ هامَ الرِّجال.

معاوية يلجأ إلى مشورة عمرو

فقال معاويةُ لعمرو: الله، ويحكَ أبا عبد الله، أينَ حِيَلكَ التي كنتُ أعرِفُها منك؟

فقال عمرو: تريدُ ماذا؟

قال: أريدُ أن تسكُن هذهِ الحروب فقد أُبيدَ أهلُ الشَّام....

فقال عمرو: إن أحبَبتَ ذلك، فمر بالمصاحِفِ أن تُرفَعَ على رؤوسِ الرِّماح، ثم ادعُ إليها، فإنَّك إن فعلتَ ذلِكَ لم يُقاتِل أحدٌ أحداً، فهذه حيلتي ومكيدتي التي لم أزَل أدَّخِرها لَك، فعجِّل برفعِ المصاحِف... .(وفي تاريخ الطبري: فإن أبى بعضُهم أن يقبَلها، وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبَل، فتكونُ فرقة تقعُ بينَهُم، وإن قالوا: بلى نقبَل ما فيها، رفَعنا هذا القتال عنَّا وهذهِ الحرب إلى أجلٍ أو إلى حين)[2].

---

(1) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص257.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص34.

كتب الدينوري: «قالوا: فرُبطت المصاحف، فأول ما رُبِطَ مصحفُ دمشق الأعظم، رُبِطَ على خمسةِ رِماح، يحمِلُها خمسة رِجال، ثم ربطوا سائرِ المصاحف، جميع ما كانَ معهم، وأقبلوا في الغَلَس (= بداية بزوغ الفجر)، نظرَ أهلُ العراقِ إلى أهلِ الشَّام قد أقبلوا وأمامَهُم شبيةٌ بالرَّايات، فلم يدروا ما هو، حتى أضاءَ الصَّباح، فنظروا، فإذا هي المصاحِف»[1].

ثمَّ نادوا: يا معشرَ العرب، اللهَ اللهَ في نسائكم وبناتكم، فمن للرُّوم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم؟ اللهَ اللهَ في دينِكم. هذا كتابُ الله بيننا وبينكم.

فقال علي عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنَّهم ما الكتاب يُريدون، فاحكُم بينَنا وبينَهُم إنك أنت الحكَمُ الحقُّ المبين[2].

هذه اللَّحظة، لحظة رفع المصاحف، هي اللَّحظة التي حدَث بعدها تدهور دراماتيكي في وضع جيش علي عليه السلام الدَّاخلي.

عندها وثبَ الأشعث بن قيس[3] إلى عليٍّ عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، أجِب القومَ

---

(1) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص174.

(2) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص478 - 479.

(3) الأشعث بن قيس ارتد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسر وجيئ به إلى أبي بكر، فمنَّ عليه بإطلاق سراحه، وزوجه أخته أم فروة، لكنه في آخر حياته، وهو على فراش الموت، عبر عن ندمه لأنه لم يضرب عنق الأشعث، لأنه - بحسب تعبيره - :«لا يرى شيئاً من الشر إلا أعان عليه». (أنظر: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص132، 137). وكان الأشعث عاملاً لعثمان على آذربايجان، وكان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث، ولما بويع الإمام علي عليه السلام كتب إليه رسالة قال له فيها: «وإن عملَكَ ليسَ لك بطُعمة ولكنه أمانة، وفي يديكَ مالٌ من مالِ الله، وأنت من خُزَّان الله عليه حتى تُسلِّمه إليَّ»، فلما قرأه قال لبعض أصحابه: إنه قد أوحشني وهو آخذٌ بمال آذربايجان. وأراد الأشعث اللحوق بمعاوية فمنعه بعض أصحابه حتى قدم على الإمام علي عليه السلام وهو معزولٌ عن الولاية، فصار في نفس الأشعث على الإمام علي عليه السلام بسبب عزله عن آذربايجان. وعندما كان الإمام علي عليه السلام يتكلم على منبر الكوفة، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث بن قيس فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك. فخفض عليه السلام إليه بصرهُ ثم قال: «ما يُدريك مما علي مما لي، عليكَ لعنةُ اللهِ ولعنةُ اللاعنين، حائكٌ ابنُ حائك، منافقٌ ابنُ كافر. والله لقد أسرَكَ الكُفرُ مرة والإسلامُ أخرى، فما فداكَ من واحدةٍ منهما مالُكَ ولا حسبُك. وإن امرأً دل على قومِهِ بالسَّيف، وساقَ إليهمُ الحتف، لحريٌّ أن يمقُتَهُ الأقرب، ولا يأمَنَهُ الأبعد» (**نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (19)، ص61).
وعن الصادق عليه السلام: إنَّ الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام، وابنته جعدة سمَّت الحسن عليه السلام، ومحمد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام. الكليني، **روضة الكافي**، ج8، 167. وينقل المفيد في الإرشاد أن حجر بن عدي كان بائتاً في ليلة شهادة الإمام علي عليه السلام في المسجد، فسمع =

إلى كتابِ الله، وإلا واللهِ لم يرمِ معكَ يمانيٌّ بسهمٍ، ولم يضرِب معكَ بسيفٍ، ولم يطعَن معكَ برُمحٍ[1].

أقول: لاحظ كلمة «يماني»، وتعني قحطانياً، والقحطانيون هم العصَب الرئيس في جيش علي عليه السلام.

فقال علي عليه السلام: ويحكَ واللهِ ما رفعوا لكُم هذه المصاحِف إلا خديعةً ومكيدة.

فقال الأشعث: لا واللهِ ما نأبى ذلِكَ أبداً، فإن شِئتَ فاذَن لي أن آتي معاوية فأسألهُ عن هذهِ المصاحف لماذا رُفِعَت؟

فقال علي عليه السلام: ذاك إليك....

ثم تقدَّمَ رجلٌ من أهلِ الشَّام على فرسهِ وفي يدهِ مصحفٌ قد فتَحَهُ، ثم وقفَ بينَ الجمعين، وجعلَ يقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2]....

يقول المؤرِّخون: وماجَ الناسُ في عسكرِ علي عليه السلام. فقالت جماعة: قد أكلَتنا هذهِ الحروب وقلَّ الرِّجال. وقال قومٌ: نُقاتِلُ اليومَ على ما قاتَلنا أمس وإن لم يَبقَ مِنَّا إلا القليل....

كان اقتراح عمرو بن العاص التَّحكيم، في وقت ملائم تماماً لتفجير الصِّراع داخل جيش علي عليه السلام؛ فالخسارة البشرية الفادحة التي ألحقتها الحرب بجيش علي عليه السلام - رغم أنَّ خسائر جيش معاوية كانت أكثر - كانت عاملاً نفسيَّاً مهمَّاً لقبول التَّحكيم. وهكذا وُجِد في جيش علي عليه السلام فريقان: فريق يطلب إيقاف الحرب وتحكيم كتاب الله، تحت مبرِّر حقن دماء المسلمين، ويأتي على رأسهم الأشعث بن قيس، وفريق يصرُّ على مواصلة الحرب، ويأتي على رأسهم مالك الأشتر.

الفريق الذي كان يُطالِب بايقاف الحرب، وتحكيم كتاب الله، كان فريقاً ضاغطاً، ويتوسَّع باستمرار، والفريق الآخر كان يقِلُّ أنصاره بالتدريج.

= الأشعث بن قيس يقول لابن ملجم: النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح، فأحس حجر بما أراد الأشعث فقال له: قتلته يا أعور؟! وخرج مبادراً ليمضي إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسبقه ابن ملجم فضربه بالسَّيف.

(1) وكان الأشعث قد خطب قبل رفع المصاحف خطبة انطلقت عيون معاوية بها إليه، فقال معاوية: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلنَّ الروم على ذرارينا ونسائنا، وليميلنَّ أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، اربطوا المصاحف على أطراف القنا. أنظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص480 - 481.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

قام الإمام علي عليه السلام إلى أصحابه قائلاً : عبادَ الله، إنِّي أحقُّ من أجابَ إلى كتابِ الله ولكنَّ معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي مُعيط وحبيب بن مسلمة وابنَ أبي سرح، ليسوا بأصحابِ دينٍ ولا قرآن، إنِّي أعرفُ بهم منكم، صحبتُهم أطفالاً، وصحبتُهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال. إنَّها كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل، إنَّهم واللهِ ما رفعوها لأنَّهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعةً واحدة، فقد بلغ الحقُّ مقطعه، ولم يبقَ إلا أن يُقطعَ دابرُ الذين ظلموا[1].

ثم وثبَ إلى عليٍّ عليه السلام يومئذٍ ما يقرب من عشرين ألف مقنَّع بالحديد، شائِلينَ سُيوفَهُم على عواتِقِهم، قد اسودَّت الدُّنيا حولَهُم من كثرةِ الغُبار، ومعهُم عِصابة من القُرَّاء الذين صاروا بعدَ ذلِكَ خوارج، فقالَ لهُ رجلٌ منهم: يا علي، أنتَ تعلَم أننا إنَّما قتلنا عثمانَ بن عفان حينَ غَلَبَنا وأبى علينا أن يعمَلَ بما في كتابِ الله أو يُجيبَ إليه، أجِبِ القومَ إلى ما دَعوكَ إليهِ من كتابِ الله، فقد أنصَفوك، وإلا واللهِ دَفعناكَ إليهِم برغمِكَ أو قتلناكَ كما قتلنا عُثمانَ بن عفان، واللهِ لنفعلنَّها بِكَ إن لم تُجِب القومَ إلى كتابِ الله.

فنظرَ عليٌّ عليه السلام ساعة، ثم قال: «أيُّها الناس، إنهُ لم يزَل أمري معَكُم على ما أُحِبُّ، حتى نهكتكُمُ الحربُ، وقد، واللهِ، أخذَت منكُم وتركَت، وهي لعدوِّكُم أنهَكُ. لقد كنتُ أمسِ أميراً، فأصبحتُ اليومَ مأموراً، وكنتُ أمسِ ناهياً، فأصبحتُ اليومَ منهيّاً، وقد أحبَبتُمُ البقاءَ، وليس لي أن أحمِلَكُم على ما تكرهون»[2].

قالوا: فابعَث إذاً إلى الأشتر، فادعُهُ إليك فإنهُ ما يغِيرُ عن الحرب. وقد كانَ الأشترُ رحمه الله، أشرفَ على دخولِ عسكرِ معاوية.

فأرسلَ إليهِ عليٌّ عليه السلام رسولاً أن ارجِع، فقالَ الأشتر للرَّسول: قُل لأميرِ المؤمنين ليسَ هذا وقت ينبغي لكَ أن تُزيلَني فيهِ عن موقفي.

فارتفعَ الرهجُ وعلَتِ الأصواتُ من ناحيةِ الأشتر، فقالَ القومُ: إنما سألناكَ أن تردَّ الأشتر، ولم نسألكَ أن تأمُرَهُ بالحرب.

فقالَ عليٌّ عليه السلام : وكيفَ علِمتُم أنِّي أمرتُهُ بالحرب؟ هل رأيتموني وأنا أُسارُّ الرَّسول؟ ألَم أُكَلِّمهُ وأنتم تسمعون؟

قالوا: فابعَث إليهِ فليأتِكَ وإلا واللهِ اعتزَلناك.

---

(1) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص489. انظر أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص34.
(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (208)، ص323 - 324.

أقول: ومعنى اعتزال هؤلاء هو خروج وانسحاب آلاف المقاتلين من جيش علي عليه السلام وتفرُّق جيشه وتشتُّتهم في مواجهة معاوية وجيشه!

فقال عليٌّ عليه السلام لرجُلٍ من أصحابهِ: اذهَب إليهِ فقُل لهُ ويحَكَ أقبِل فإنَّ الفتنةَ قد وقعَت.

فجاءَهُ الرَّسولُ بالرِّسالةِ من عندِ عليّ عليه السلام فقالَ الأشتر: لعلَّ أميرَ المؤمنين إنَّما يدعوني لأجلِ هذهِ المصاحِف التي رُفِعت؟

قالَ الرَّسول: نعم فارجِع.

فقالَ الأشتر: أما واللهِ لقد علِمتُ حينَ رُفِعَت أنَّها ستُلقي خِلافاً وفُرقة... ثم قالَ للرَّسول: ويحَك أمهِلني ساعة فإنِّي تقاربتُ من الفتح....

فقالَ الرَّسول: فارجِع فإنَّ القُرَّاءَ قد قالوا لهُ: ابعَث إلى الأشتر فيأتِك وإلا قَتلناكَ كما قتلنا عثمان.

فانصرفَ الأشترُ مُغضباً، فقال: ويحَكُم فأمهِلوني ساعةً فلقد أحسَستُ بالفتحِ وأيقَنتُ بالظَّفَر.

قالوا: لا... إذاً ندخُل معكَ في خطيئَتِكَ فإنَّهم قد دَعُونا إلى كتابِ اللهِ عزّ وجلّ.

ثم أقبلَ على أُولئِكَ القُرَّاء فقال: يا أصحابَ الجِباهِ السُّود، كُنَّا نظنُّ أنَّ صلاتَكُم زهادةً في الدُّنيا وتشوُّقاً إلى الآخرة، وأنا واللهِ فلا أرى فِرارَكُم إلا إلى الدُّنيا، فقُبحاً لكُم وبُعداً، كما بَعِدَ الظالمون.

فسبُّوهُ وسبَّهُم، وضربوا بسياطِهم وجهَ فرسِهِ وضربَ بسوطهِ وُجوهَ دَوابِّهم، وهمُّوا بهِ وهمَّ بهم... وكادَت الفتنةُ أن تقعَ بينَ القومِ حتى سكَّنَهُم عليٌّ عليه السلام وقال: كُفُّوا عنهُ مالَكُم ومالَهُ.

.... فكانَ معاويةُ بعدَ ذلك يقول: واللهِ لقد رجعَ عني الأشتر يومَ رفعِ المصاحف وأنا أريدُ أن أسألهُ أن يأخُذَ لي الأمانَ من عليّ، وقد همَمتُ ذلِكَ اليوم بالهَرَب[1].

كتب اليعقوبي: «فقال الأشعث: واللهِ لئن لم تُجبهم انصرَفتُ عنكَ. ومالَت اليمانية مع الأشعث، فقال الأشعث: والله لتُجيبَنَّهم إلى ما دعَوا إليه، أو لندفعنَّك إليهم برُمَّتِك.

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص413 – 421. أنظر أيضاً: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص490 – 492.

فتنازعَ الأشتر والأشعث في هذا كلامًا عظيماً، حتى كادَ أن يكون الحرب بينهم، وحتى خافَ عليٌّ عليه السلام أن يفترقَ عنهُ أصحابُهُ، فلما رأى ما هو فيه أجابَهُم إلى الحكومة»[1].

ما الذي جرى بالضبط؟

دعونا هنا نتوقَّف قليلاً في سرد الأحداث، لنُحلِّل ونتساءل ما الذي جرى وجعل الأحداث تتَّجِه لوقف الحرب؟

لقد لعبت عدَّة عوامل دوراً في وقف الحرب، وبروز حالة الشَّك في نيات الإمام علي عليه السلام، ثم تفكُّك جيشه عليه السلام بالتدريج. هذا الشَّك، وهذا التفكُّك، سيلقيان بظلالهما بقوة على وضع العراق الدَّاخلي بعد ذلك، فهذا الشَّك ثم التفكُّك كان بداية لسلسلة من الأحداث المؤلمة والمرَّة، كظهور فئة الخوارج، ثم شهادة الإمام علي عليه السلام، وصُلح الإمام الحسن عليه السلام، بل سيمتد تأثيرها إلى واقعة كربلاء أيضاً... بل أستطيع أن أتجرأ وأقول: ما زال المسلمون يدفعون ثمن هذا الخطأ التاريخي حتى هذا اليوم... فما الذي جرى بالضبط؟ ولماذا حصل هذا التَّدهور الدَّراماتيكي؟

إليك أبرز العوامل المؤدية إلى الشكِّ في نيات الإمام علي عليه السلام، التي أدَّت بدورها إلى الضغط عليه لإيقاف الحرب، ثم تفكُّك الجيش بالتدريج.

1. شهادة كبار الصَّحابة - ليلة الهرير أو قبيلها أو بعيدها - ممن كان له تأثير كبير في الرأي العام في أوساط جيش علي عليه السلام، كعمَّار بن ياسر وأبي الهيثم بن التيهان وخُزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وعبد الله بن بديل الخزاعي. شهادة هؤلاء - وأمثالهم - جعلت الرأي العام في جيش علي عليه السلام يخرُج عن نطاق السَّيطرة.

فالصَّحابة الكبار أمثال هؤلاء كان لهم تأثيرٌ كبير في الرأي العام، وكان لهم دورٌ مؤثِّر في تقوية العزائم، وتثبيت القلوب، وتوعية العقول، وكانت لديهم معرفة عميقة وقديمة بالإمام علي عليه السلام وتاريخه، وكانوا يتفاعلون بنحوٍ عفوي وسريع مع متطلباته كخليفة شرعي وقائد عسكري، وكانت لديهم ثقة مطلقة به عليه السلام... وقد رأينا أنَّ بعض أفراد الجيش عندما كانت تجتاحُهُ الشُّكوك، كان الإمام علي عليه السلام يوجِّهُهُ نحو عمَّار مثلاً. لكن عندما نالت هذه الطَّبقة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الشَّهادة، فقد الإمام علي عليه السلام كابحاً مهماً ومؤثِّراً في الجماهير.

---

(1) ابن واضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص189.

لذا، عندما قام إليه رجلٌ من أصحابه، فقال: نهيتنا عن الحكومة، ثم أمرتنا بها، فلم ندرِ أي الأمرين أرشد؟

حينها صفَقَ الإمام علي عليه السلام إحدى يديه على الأخرى، وقال والحسرة تملأُ قلبه: «هذا جزاءُ من تركَ العُقدة: (= ما حصل عليه التعاقد)... أريدُ أن أُدواي بكُم وأنتم دائي، كناقِشِ الشَّوكةِ بالشَّوكة، وهو يعلمُ أنَّ ضِلعَها معها:. اللهم قد ملَّت أطباءُ هذا الدَّاء الدَّوِيِّ (= المؤلم الشديد)، وكلَّت النَّزعةُ بأشطانِ الرَّكِّي (= ضعفت القدرة على شد حبال البئر). (ثم يبدأ بإثارة مسألة فقدان فئة نوعيَّة في صفين والشُّعور بافتقادهم والحاجة إلى وجودهم في مثل الظروف التي يمُرُّ بها سلام الله عليه) أينَ القومُ الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوهُ، وقرؤوا القرآنَ فأحكموهُ، وهُيِّجوا إلى الجهاد فولهوا ولَهَ اللِّقاح (= الناقة) إلى أولادِها... مُرهُ العيونِ من البُكاء، خُمصُ البطونِ من الصِّيام، ذُبلُ الشفاه من الدُّعاء، صُفرُ الألوانِ من السَّهَر، على وجوهِهِم غبرةُ الخاشعين. أولئكَ إخواني الذَّاهبون، فحقَّ لنا أن نظمأ إليهم، ونعضَّ الأيدي على فِراقِهم»[1].

كان عليه السلام يقول بعد ذلك لمن تبقَّى من أهل الكوفة: «انظروا أهلَ بيت نبيكم فالزَموا سمتَهُم، واتَّبِعوا أثَرَهُم... .لقد رأيتُ أصحابَ محمدٍ صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يُشبههم منكم! لقد كانوا يُصبِحون شُعثاً غُبراً، وقد باتوا سُجَّداً وقياماً، يُراوحون بين جباهِهِم وخُدودِهِم، ويقفونَ على مثلِ الجمرِ من ذكرِ معادِهِم! كأنَّ بين أعيُنِهم رُكَب المِعزى من طولِ سُجودِهم! إذا ذُكرَ اللهُ هملَت أعينُهم حتى تبُلَّ جيوبَهُم، ومادوا كما يميدُ الشَّجرُ يومَ الرِّيحِ العاصفِ، خوفاً من العقاب، ورجاءً للثواب»[2].

كان يفتقدهم بشِدَّة، ويقول قبل أسبوع من شهادته عليه السلام: «أين إخواني الذينَ ركبوا الطَّريق، ومضَوا على الحقِّ؟ أين عمَّار؟ وأين ابنُ التيِّهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤُهم من إخوانِهم الذين تعاقدوا على المنيَّة، وأُبرِدَ برؤوسِهم إلى الفجَرة». ثم يضرب بيدِهِ على لحيتِهِ الكريمة، ويُطيلُ البُكاء، ثم يقول: «أوِّهِ على إخواني الذينَ تلوا القرآنَ فأحكموهُ، وتدبَّروا الفرضَ فأقاموهُ، أحيَوا السُّنة، وأماتوا البِدعة، دُعُوا للجهادِ فأجابوا، ووثقوا بالقائدِ فاتَّبعوهُ». ثم يُنادي بأعلى صوته: «الجهادَ الجهادَ عبادَ الله، ألا وإنِّي معسكرٌ في يومي هذا، فمن أرادَ الرَّوَاحَ إلى اللهِ فليخرُج»[3].

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، رقم (121)، ص177.
(2) المصدر السابق، (97)، ص143.
(3) المصدر السابق، رقم (182)، ص263 - 264.

إذن العامل الأول لتدهور وضع جيش علي عليه السلام هو شهادة كبار الصَّحابة، ممن كان يُعوِّل عليهم في الشدائد وفي إرشاد الرأي العام.

2. حرب صفين لم تكن حرباً كباقي الحروب التقليدية آنذاك، تستغرق ساعات أو يوماً كاملاً، وإنَّما حربُ استنزاف، طالت كثيراً، أربعين يوماً تقريباً، عشرة أيام منها على الأقل كانت شديدةَ الضراوة.

وكان بين الجيشين تكافؤٌ نسبي في القوة، ولم يكن حسمُ المعركة أمراً سهلاً لأيٍّ طرف منهما. ولم تمِل الكفَّة في الحرب لمصلحة جيش علي عليه السلام إلا بعد وقت طويل، حصل خلاله مضاعفات داخلية خطيرة، هيَّأت الأجواء لوقوع البلبلة والتدهور اللاحق.

إذن العامل الثاني للتدهور طول أمد الحرب، نظراً للتكافؤ النِّسبي بين الجيشين من الناحية العسكرية.

3. الخسائر الفادحة التي لحقت بالطَّرفين أثَّرَت في المعنويات كثيراً، خصوصاً عندما نتذكَّر أنَّ الطرفين كانا يلتقيان ليلاً وتدورُ بينهما أحاديث وحوارات وتبادل للقتلى.

فبعض التقديرات[1] تتحدَّث عن أنَّ عدد القتلى من جيش علي عليه السلام فقط في صفين بلغ خمسة وعشرين ألفاً. ورغم أنَّ عدد القتلى في جيش معاوية كان أعلى من ذلك بكثير، إلا أنَّنا لا نلحظ وقوع مضاعفات خطيرة في جيشه، كالتي وقعت في جيش علي عليه السلام. وسنشير بعد قليل إلى الأسباب المحتملة لذلك.

وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى أهل الأمصار يقصُّ فيه ما جرى في صفين: «فقلنا: تعالوا نداوِ ما لا يُدركُ اليومَ بإطفاءِ النائرة (= الفتنة المشتعلة)... فقالوا: بل نداويهِ بالمُكابرة، فأبوا حتى جنحَت (= أقبلت) الحربُ وركدَت (= استقرت)، ووقدَت نيرانُها وحمِشَت (= شبَّت)، **فلما ضرستنا** (= عضتنا أضراسها) **وإياهم، ووضعت مخالِبَها فينا وفيهم،** أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهُم إليه، **فأجَبناهُم إلى ما دعوا، وسارعناهُم إلى ما طلبوا**»[2].

إذن العامل الثالث للتَّدهور هو الخسائر الفادحة التي كابدتها جميعُ الأطراف.

4. الدَّور الذي كان لعبه بعض المعتزلين أو المُعوِّقين قبل الخروج إلى العراق أو قبل الوصول إلى صفين، كأبي موسى الأشعري.

---

(1) نصر بن مزاحم، صفين، ص558.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (58)، ص448.

فقد كان هناك أناس من الصَّحابة على قدر كبير من الورع والتَّقوى في نظر الناس، كان هؤلاء الناس... يوحون للجماهير بأنَّ المعركة ليست صحيحة، وأنَّ القاعدَ في المعركة خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من السائرِ والضَّارب، هذا الإيحاء من قبل أبي موسى الأشعري - مثلاً - كان له قوة أكبر بكثير من الايحاء المقابل من قبل عمَّار بن ياسر، لأنَّ إيحاء عمَّار بن ياسر يُكلِّف الموت، يُكلِّفك أن تتنازل عن حياتك، أما الايحاء من أبي موسى الأشعري فهو يكفيكَ بذل هذه الحياة، يقول لك: حافظ على حياتِك، ابتعد عن الأخطار، اذهب واجلس في بيتِك ودع الإسلام مع أخطاره وأعدائه...

هذا الإنسان الاعتيادي البسيط الشَّاك يُفضِّل إيحاء أبي موسى الأشعري وأمثاله على إيحاء عمَّار بن ياسر وأمثاله، لأنَّه يريد أن يحتفظ بحياته. فيتعمَّق الشَّك على أساس من إيحاء أمثال أبي موسى الأشعري وعبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص.

لقد كان ثمة صدى - لأولئك المعتزلين - يتردَّد كصوت داخلي يهزُّ مسامع المقاتلين، ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

إذن العامل الرابع لتدهور الوضع، الذي ساعد على نمو الشَّك في نيات الإمام علي عليه السلام، يكمُن في قوة إيحاء أمثال أبي موسى الأشعري وعبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقاص، في قبال إيحاء أمثال عمَّار بن ياسر ومالك الأشتر. الايحاء الأول في الظاهر لا يُكلِّفُ شيئاً، والايحاء الثاني يُكلِّفُ الإنسانَ حياته.

5. إنَّ الخسائر الفادحة كانت بيد أبناء القبيلة نفسها، فخثعم العراق كانت تقاتل أختها خثعم الشَّام، وأزد العراق كانت تقاتل أختها أزد الشَّام.... وهكذا بقية القبائل، ومن الصَّعب تحمُّل أن تكون الخسائر على يدِ أبناء القبيلة نفسها. وإليك توضيح ذلك:

كان عددٌ من القبائل مُقسَّماً إلى قسمين: قسمٌ في العراق وقسمٌ في الشَّام. هذا الوضع يعني أنه إذا تفجَّر الصِّراع بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، وقتَلَ فردٌ من خثعم من جيش علي عليه السلام فرداً من الأزد من جيش معاوية، فمن المحتمل جداً أن تثأر الأزد من جيش علي عليه السلام من هذا الخثعمي. فأفضل طريق لتجنُّب الصِّراع الدَّاخلي في جيش علي عليه السلام هو أن تكفيهِ كلّ قبيلة في جيشه أبناء عمومتها في جيش معاوية. لكن هذا

(1) سورة آل عمران، الآية: 156.

يتطلَّب صبراً ونفساً رسالياً طويلاً، وروحاً تربَّت على التَّضحية والفداء في سبيل ربِّها ودينِها وهدفِها وقيادتِها.

فإذن الإمام علي عليه السلام بين طريقين: إما أن يترُك المعركة تسير بطبيعتِها بين جيشهِ وجيش معاوية، دون أي إجراءات احترازية مُسبقة، والنتيجة المباشرة لذلك هو أن يتفجَّر سريعاً صراعٌ داخلي في جيش علي عليه السلام بين القبائل. والخيار الثاني هو أن تكفيه كل قبيلة في جيشِهِ أبناء عمومتها من جيش معاوية، وهذا يعني أنَّ جيشَ علي عليه السلام لن يتحمَّل حرب استنزاف، لأنَّ حرباً كهذه ستُولِّد بالتدريج تململاً ورفضاً، على أساس أنَّ بعض الأفراد يقتلونَ أبناء عمومتهم، يثكلونَ أمهاتهم ويرمِّلونَ نساءهم ويُيتِّمون أبناءهم.

فاختار الإمام علي عليه السلام الطريق الثاني على أمل أن ينتهي من حرب معاوية قبل أن يصل جيشُهُ إلى تلك اللحظة النَّفسية التي ستُؤثِّر في موازين القوى ميدانياً، وقال للأزد «اكفوني الأزد» وقال لخثعم «اكفوني خثعم»، وأمرَ كلّ قبيلة من أهل العراق أن تكفيه اختها من أهل الشَّام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشَّام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى تكون بالشَّام ليس منهم بالعراق واحد، مثل بجيلة لم يكن منها بالشَّام إلا عدد قليل فصرفهم إلى لخم[1].

ووقعَ ما خشِيَ الإمام علي عليه السلام وقوعه، لقد تعبَ جيشُهُ من الحرب عندما رأى الخسائر الفادحة، وعندما وجد الجيش أنَّ الضحايا هم من القحطانيين، بدأ يشكُّ في نيات الإمام علي عليه السلام، عندما وجد القحطاني نفسه يقتُلُ أخاهُ القحطاني من جيش معاوية، وأنَّ رأسي النِّزاع (علياً عليه السلام ومعاوية) من عدنان، وفي النِّهاية سواء كان النصر لعليّ عليه السلام أو لمعاوية فإنَّ النَّصرَ لقريش، وقحطان هي الخاسر الأكبر.

هذا الشُّعور - الشُّعور بأنَّ قريشاً تلاعبت بالقحطانيين واستخدمتهم كأداة في صراعِها الخاص - كان موجوداً عند أجناد العراق والشَّام معاً، لكن جيش علي عليه السلام كان أكثر قابلية على التفكُّك. . . .لماذا؟

الجواب: لسببين على الأقل؛ السبب الأول يعود إلى طبيعة التَّربية التي تلقَّاها أهلُ الشَّام، وطبيعة المعلومات المغلوطة التي زُوِّدوا بها.

فأهل الشَّام منذ دخولهم الإسلام لم يعرفوا إلا معاوية، وأخاه يزيد من قبله. وكان معاوية قد صوَّر لهم أنَّه كاتب الوحي وخالُ المؤمنين والناطق باسم الإسلام، وربَّاهم على الطَّاعة العمياء له، لذا نجده يقول لعمَّار في المدينة قبل مقتل عثمان: «إنَّ بالشَّام مئة ألف

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص9.

فارس، كلٌّ يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائِهم وعبدانِهم، **لا يعرِفونَ علياً ولا قرابتَهُ، ولا عماراً ولا سابقتَهُ**، ولا الزُّبير ولا صحابتَهُ، ولا طلحة ولا هِجرَتَهُ، ولا يهابونَ ابنَ عوفٍ ولا مالَهُ، ولا يتَّقونَ سعداً ولا دعوتَهُ»[1].

وتجد الحجَّاج بن خُزيمة يقول لمعاوية بعد مقتل عثمان: «يا معاوية إنك تقوى على علي عليه السلام بدون ما يقوى بهِ عليك، **لأنَّ من معكَ لا يقولونَ إذا قُلتَ، ولا يسألونَ إذا أمرتَ، ولأنَّ من مع علي** عليه السلام يقولونَ إذا قالَ، ويسألونَ إذا أمرَ، فقليلٌ ممن معكَ خيرٌ من كثيرٍ ممن معه»[2].

وكتب المسعودي أنَّ رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعيرٍ له إلى دمشق، في حالة منصرفهم عن صفين، فتعلَّق به رجلٌ من دمشق، فقال: هذه ناقتي، أُخِذَت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية. وأقام الدِّمشقي خمسين رجلاً بيِّنة يشهدون أنَّها ناقتُهُ. فقضى معاوية على الكوفي، وأمرهُ بتسليم البعير إليه. فقال الكوفي: أصلحكَ الله، إنَّه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكمٌ قد مضى. ودسَّ إلى الكوفي بعد تفرُّقِهم فأحضرهُ، وسألهُ عن ثمن بعيرهُ، فدفع إليه ضعفهُ، وبرَّهُ وأحسن إليه، وقال له: **أبلغ علياً أنِّي أقاتِلهُ بمائة ألف، ما فيهم من يُفرِّق بين الناقةِ والجمل**[3]!! كتب العقَّاد معلقاً: «إن كان في هذه القصص بعض المبالغة، فهي مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها، وليس مبالغة الخلق والافتراء»[4].

ومعاوية من ناحية ثانية كان قد ألهبَ حماسة أهل الشَّام عندما صوَّر لهم أنَّهم يقومون بمهمَّة أخلاقية مقدَّسة تتمثَّل في نُصرة الخليفة المظلوم، ورأينا استخدامه قميص عثمان والدِّماء الملطَّخة عليه وأصابع زوجته نائلة أيَّما استخدام. . . .إذن هذا هو السبب الأول لتفكُّك جيش علي عليه السلام دون جيش معاوية. . . يكمن في طاعة أهل الشَّام العمياء لمعاوية.

السبب الثاني يعودُ إلى طبيعة توزيع الجُند في العراق، الذي كان يختلف عن طبيعتِهِ في الشَّام.

ففي العراق، وبعد الفتوح مباشرة، عندما أراد سعد بن أبي وقاص تمصير الكوفة،

---

(1) ابن قتبة، **الإمامة والسياسة**، ص46.

(2) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص102.

(3) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص41. قال أهل اللغة: «الناقة» الأنثى من الإبل، و«الجمل» الكبير من الإبل إذا بلغ أربع سنوات، و«الإبل» و«البعير» يشمل الجمل والناقة كالإنسان للرجل والمرأة. ويكتب المسعودي في الموضع نفسه: «وقد بلغ من أمرهم (= أهل الشَّام) في طاعتهم له (= لمعاوية) أنَّه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء!!».

(4) عباس محمود العقاد، **عبقرية الإمام علي** عليه السلام، ص49.

قسمها وفقاً لتركيب الجُند القبَلي، فصارت الأحياء تتوزَّع حسب التنوُّع القبلي، فتجد حياً لخثعم، وحياً للأزد. . . .إلخ. بخلاف الشَّام، فبعد الفتوح مباشرة، تمَّ توزيع الجند مناطقياً، فصارَ يقال «جُندُ الشَّام»، «جُندُ الأردن»، «جُندُ حمص». . . .إلخ، الأمر الذي سمح بالتمازُج القبَلي. وكانت طبيعة توزيع الجُند في العراق القائم على أساس قبَلي، تُرسِّخ العقلية القبلية، والعاطفة العشائرية، التي جاء الإسلام ليلجِمَها ويُنظِّم عنفوانَها. في حين أنَّ طبيعة الجُند في الشَّام القائم على أساس مناطقي، كانت تُساعد الجُند على تجاوز العقلية القبَلية، والعاطفة العشائرية، ليتَّجه الجميع نحو العقلية الحضرية، التي ترتبط بالمكان أكثر من ارتباطها بالعِرق والعشيرة.

لذا نجد أنَّ أحد زعماء الأزد خطبَ في قومِهِ عندما كلَّفهم الإمام علي عليه السلام قتال إخوانِهِم في صفوف معاوية: «إنَّ من الخطأِ الجليل والبلاءِ العظيم أننا صُرِفنا إلى قومِنا وصُرِفوا إلينا، **واللهِ ما هي إلا أيدينا نَقطَعُها بأيدينا، وما هي إلا أجنِحَتنا نجُذُّها بأسيافِنا**، فإن نحنُ لم نؤاسِ جماعتَنا ولم نُناصح صاحِبَنا كفَرنا، وإن نحنُ فعلنا فعِزَّنا أبَحنا ونارَنا أخمَدنا»[1].

وسنرى بعد ذلك، أنَّ الحالة النَّفسية في جيش الإمام علي عليه السلام ستزداد سوءاً بعد حرب النَّهروان - التي جاءت بعد صفين وظهور نتيجة التَّحكيم - لأنَّ الخوارج هم من القحطانيين المنشقِّين عن جيش علي عليه السلام، فمن بقيَ من القحطانيين في جيش علي عليه السلام اضطرَّ لقتال أخوانهم وأبناء عمومتهم الذين انشقُّوا عنهم بالأمس.

عندما نتحدَّث عن خسائر فادحة في جيش علي عليه السلام والخوارج، فنحن نتحدَّث عن خسائر في صفوف القحطانيين بالدرجة الأولى، لأنَّ أغلب جنود الطرفين من قحطان.

في المقابل كان الإمام علي عليه السلام يُذكِّر جيشَهُ بأنَّ المسلمين ابتُلوا بمثلِ هذا البلاء في صدر الإسلام، وأنَّ هذا الدِّين لم يقف على رجليه إلا بعد تقديم هذا النوع من التَّضحيات، يقول عليه السلام: «**لقد كُنَّا مع رسولِ الله** صلى الله عليه وآله وسلم نقتُل آباءَنا وأبناءَنا وإخوانَنا وأعمامَنا، ما يَزيدُنا ذلكَ إلا إيماناً وتسليماً. . . ولقد كان الرَّجلُ مِنَّا والآخرُ من عدوِّنا يتصاولانِ تصاوُلَ الفَحلين يتخالَسانِ أنفُسَهُما، أيُّهما يَسقي صاحِبَهُ كأسَ المنون، فمرةً لنا من عدوِّنا، ومرةً لعدوِّنا منا. . . .ولعمري لو كُنَّا نأتي ما أتَيتُم (= من الجزع وقلة الصبر والتأثر لقتل الأقارب) **ما قامَ للدِّينِ عمود، ولا اخضرَّ للإيمان عود**»[2].

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص 18.
(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، رقم (56)، ص91 - 92.

نعم، فمما ساهم في تعميقِ الشَّك أيضاً أنه كان هناك نزاعٌ تقليدي بين بني أمية وبني هاشم، نزاع عاشَهُ بنو أمية وبنو هاشم قبل الإسلام، والناس حينما أخذت تفتش عن نقطة ضعف في المعركة، بدأت الأذهان تثير الشَّك في أن تكون المعركة بين علي عليه السلام ومعاوية نتيجة استمرارية لصِراعٍ تقليدي بين قبيلتين، بين بني أمية وبني هاشم.

وكنَّا قد نقلنا سابقاً أنَّ أبا كعب رئيس خثعم العراق لما قتل، لم يستطع قاتله أن يمنع نفسه من البكاء والانصراف وهو يقول: «رحمَكَ الله، أبا كعب، لقد قتلتُكَ في طاعةِ قومٍ أنتَ أمسُّ بي رحِماً منهُم، وأحبُّ إليَّ نفساً منهُم، **ولا أرى قُريشاً إلا قد لعِبت بنا**»[1]، وقلنا إنَّ الشعور بأنَّ قريشاً العدنانية تلاعبت بالقحطانيين، تفشَّى في أوساط جيش علي عليه السلام. واللِّقاءات الدائمة والمستمرة بين جند الطرفين ربَّما لعبت دوراً في انتقال عدوى هذا الشُّعور لجند علي عليه السلام.

وتجلَّى هذا واضحاً عندما رفض جنده عليه السلام مرشحه للتَّحكيم: عبدالله بن عباس، بذريعة أنه قُرَشي، واقترحوا بدلاً منه أبا موسى الأشعري القحطاني[2].

كان الإمام علي عليه السلام الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الدَّاخل وتصفية الانحراف من الخارج، يريد أن يوعِّي الجماهير ويفهمها بأنَّ المعركة ليست معركة زعامة شخصيَّة، وليست معركة وجود خاص، وليست معركة قبيلته أو عشيرته أو أمجاده، وإنما هي معركة رسالة السَّماء، معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد في سبيلها الأنبياء.

... هذا الإمام العظيم بدأ المعركة على أساس أنَّ الجماهير بدأت تحسّ بهذه الأبعاد للمعركة وطبيعتها، ولكن بعد أن تعبت، وأرهقها خط الكفاح، وقدَّمت لعليّ عليه السلام وللإسلام كثيراً من التَّضحيات التي قد لا يمكن أن يُقدِّمها كثير من المجتمعات، إلا أنَّ النَّفَس لم يكن طويلاً، نفَس هذه الجماهير احتبس، بينما الانحراف كان ذا نفس طويل. انقطعَ نفَسُ هذه الجماهير عندما تعبت... وأخذت تشعر بأنَّها طلقت الدُّنيا - طلَّقت الأبناء والأموال والثَّروات - في سبيل قضية لا تمسُّ مصالحهم الشخصيَّة. هذه الرَّغبة النفسيَّة - في أن يوقفوا الجهود ويُريحوا أنفسهم - تخلقُ شكَّاً ومبرِّرات غير منطقية. وهذه المبرِّرات غير المنطقية هي نتيجة الرَّغبة النَّفسيَّة في أن يتبدَّل الحال، ويعود الوضع إلى ما كان عليه قبل أعباء هذا الخط وتحمُّل مسؤولياته.

---

(1) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص 290.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص36.

ولا غرابة في أن يتعب أهل العراق وإن كانوا على حقٍّ، ويصمد أهل الشَّام وإن كانوا على باطل؛ لأنَّ الصّبر في القتال كان دائماً - مع التَّقوى - شرطاً قرآنياً ضرورياً لنزول المدَد الغيبي وتحقُّقِ النَّصر[1]. وما دام أهل العراق لم يصبروا وأخلُّوا بهذا الشَّرط، لم تعد سُنَّة المدَد الغيبي والنَّصر جارية في حقِّهم.

إذن هذا هو العامل الخامس والأهم لتدهور الوضع، وظهور حالة الشَّك في أوساط جيش علي عليه السلام: التركيبة القبَلية للجيشين، التي تنحدر من قحطان، والتي اضطرَّت المرء لقتال أبناء عمومته، في حين أنَّ عليّاً عليه السلام ومعاوية ينحدران من أصل قبَلي آخر (= عدنان)، وهذا الأصل القبَلي الآخر مُتَّهم بالاستئثار - بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله - بالسُّلطةِ والمال. لقد ساد جيش علي عليه السلام شعور بأنَّهم تحوَّلوا في هذه الحرب إلى أداةٍ بيدِ قريش، وأنَّ الحرب هذه لا تعنيهم، ولا تمسّ مصالحهم الشخصيَّة.

6. حيلة عمرو بن العاص في رفع المصاحف، التي جاءت في وقت بالغ الحرَج لجيش علي عليه السلام.

لكن ما كان لهذا العامل أن يفعل فعله وأن يؤثِّر لو كان أفراد جيش علي عليه السلام على درجة عالية من الوعي والقُدرة على التَّحليل السِّياسي والعسكري. كان افتقاد عدد كبير من أفراد جيش علي عليه السلام للوعي هو سبب نجاح هذه الحيلة، وهذا سيؤدي إلى بروز ظاهرة الخوارج.

إذن هذا هو العامل السادس، حيلة من طرف، لا يواجهها وعي من طرف آخر. وهو عامل مباشر وسريع التأثير، لأنَّ العوامل الأخرى كانت قد تفاعلت في داخل جيش علي عليه السلام بقدر جعل رفع المصاحف بمثابة الجزء قبل الأخير للعلَّة التامة، كما يقول المناطقة.

7. الدور الذي لعبه بعض المنافقين في جيش علي عليه السلام، كالأشعث بن قيس، الذي كان يدورُ بين أفراد جيش علي عليه السلام ليقنعهم بضرورة وقف الحرب والاحتكام لكتاب الله سبحانه.

فقد لعبَ الأشعث بن قيس وأمثاله دوراً في بثِّ روح التخاذُل في النفوس، وراح يضع في ذهن الجيش أنَّ على علي عليه السلام وقف الحرب وقبول التَّحكيم، فكان هذا الدَّور بمثابة الجزء الأخير للعلَّة التامة، كما يقول المناطقة.

---

(1) لاحظ مثلاً قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران، 125].

بل واصل الأشعث لعب هذا الدور، المؤثِّر في تصدُّع جبهة علي عليه السلام، بعد صفين، عندما ظهر الخوارج، وكان الإمام علي عليه السلام يحاول مسايرتهم ومداراتهم، وفي المقابل كان الأشعث يقوم بإلهاب مشاعرهم بإشاعته أنَّ عليّاً عليه السلام مؤيِّدٌ لوقف الحرب وقبول التَّحكيم، في وقتٍ بالغ الدِّقة والحرج. وأشاع مرة أخرى أنَّ عليّاً عليه السلام أخطأ عندما لم يتسامح مع أهل النَّهروان ويتغاضى عنهم وهم قلة لا يُشكِّلون خطراً عليه. لقد ساهم تحريض الأشعث وأمثاله في إحداث تصدُّع في صفوف جبهة علي عليه السلام وشحن نفوس أولئك الذين تربطهم بالقتلى أنساب وقرابات بالكراهية والعداء لعليّ عليه السلام، بل ربما حمَّلَ بعضهم عليّاً عليه السلام المسؤولية وطالبه بالثأر.

وهذا عامل سابع وأخير لتصدُّع جيش علي عليه السلام، ولنمو الشَّك لدى الجماهير في نياته عليه السلام.

كل هذه العوامل، وعوامل أخرى أيضاً، ساعدت على أن يكون هذا الإمام العظيم مشكوكاً فيه من قبل الجماهير، فكان الإمام علي عليه السلام يصعد المنبر ليدعو الناس إلى الجهاد فلا يتحرَّك أحد، كان يستثير هِمَمَهم وعزائمهم فلا يستجيبون، لأنَّهم بدأوا يشُكُّون، والشكُّ في القائد هو أقسى ما يُمنى به القائد المخلص[1].

بدأوا بالتثاقل عن الجهاد، واختلاق الأعذار للتخلُّف عن القتال، وانتهى الأمر بهم إلى رفض الانصياع لأوامر القائد والتمرُّد. و«نهج البلاغة» غنيٌّ بالخطب الحاكية عن تلك الحالة المرَّة التي عاشها الإمام علي عليه السلام بعد حرب صفين إلى استشهاده.

الخلاصة: تحدَّثنا اليوم عن ليلة الهرير، ونيل كبار الصَّحابة للشَّهادة في صفين بين يدي الإمام علي عليه السلام، وأنَّ الكفَّة في النِّهاية مالت لمصلحة جيش علي عليه السلام، إلا أنَّ تفاعل عدَّة عوامل، جعل رفع المصاحف مؤثِّراً جداً في التَّدهور الدَّراماتيكي الذي حصل في جيش علي عليه السلام. ثم شرحنا تلك العوامل التي أدَّت إلى سريان حالة الشَّك في نيات الإمام علي عليه السلام في أوساط جُنده، ثم التفكُّك التدريجي لجيشه عليه السلام.

في الفصل المقبل سنتحدَّث عن مجريات وقف الحرب، والتَّحكيم، واستفحال ظاهرة الخوارج، التي انتهت إلى حرب النَّهروان.

---

(1) راجع: محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص 239 - 241.

(18)

الهُدنة وترتيبات وقف حرب صفين

تكلَّمنا في الفصل الماضي عن ليلةِ الهرير، ورفعِ المصاحف، ثم اضطرار الإمام علي عليه السلام لإيقافِ الحرب. واستعرضنا مجموعة من العوامل، ساهمت معاً في إثارة الشُّكوك في نيات الإمام علي عليه السلام، ثم ساهمت في تفكُّك الجيش بالتدريج.

نريد في هذا الفصل مواصلة الكلام عن صفين، وسنبدأ من لحظة قبول الإمام علي عليه السلام وقف الحرب وتوقيع الهُدنة.

بُعَيد وقف الحرب

بعد مناوشات واشتباكات قوية بدأت في النِّصف الأول من محرم، تحوَّلت بعد ذلك إلى معارك ضارية وحرب شاملة في الأيام العشرة الأُوَل من صفر، وقَّع الطَّرفان في النِّصف الثاني من صفر تقريباً وثيقة هُدنة[1].

تنصُّ تلك الوثيقة على أن يتِمَّ اختيارُ حكَمَين، يحكُمَانِ بكتابِ اللهِ تعالى وسنَّةِ نبيِّهِ صلى الله عليه وآله، على أن يُمهَل الحكمان ثمانية أشهر، من لحظةِ إقرار الوثيقة (النِّصف الثاني من صفر) إلى انسلاخِ شهر رمضان. وتأخُذ الوثيقة عليهما أن ينزِلا عندَ حُكمِ اللهِ تعالى وكتابِهِ، يُحييا ما أحيا القرآن، ويُميتا ما أماتَ القرآن، وأن يَحكُما بالحقِّ لا بالهوى[2].

عند كتابة وثيقة الهدنة، اختصمَ الطَّرفان في تسمية الإمام علي عليه السلام بـ «إمرة المؤمنين»، حتى تضاربوا بالأيدي، فقبِلَ الإمام علي عليه السلام محوَ اسمهِ من إمارةِ المؤمنين، محتجّاً بذلك بسُنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله عندما محا اسمَهُ من الرِّسالةِ في صُلحِ الحديبية، فكما

(1) الطبري ينقل أنَّ كتاب الهُدنة كتب في الثالث عشر من صفر سنة 37. أنظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص40.

(2) لمعرفة نصّ الهدنة راجع، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص38. أيضاً: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص504 - 506.

أنَّ محو رسول الله صلى الله عليه وآله لاسمهِ من الرِّسالة لا يُذهِب برسالتهِ، فكذلك محو اسم الإمام علي عليه السلام من إمرةِ المؤمنين لا يُذهِب بإمرتهِ[1].

وكان لكتابة صحيفة الهُدنة، خصوصاً مع ملاحظة التَّضحيات والخسائر المُرَّة، تأثير سلبي مباشر في بعض أفراد جيش علي عليه السلام، بحيث فقد بعضهم توازُنَهُ، كتب ابن قتيبة الدينوري: «فلما كتبَ الكاتِبان، أقبلَ رجلٌ من بني يشكر، على فرسٍ لهُ أبلَق، حتى وقفَ بين الصَّفَين على الإمام علي عليه السلام، فقالَ: «يا علي، أكفرٌ بعدَ إسلام؟! ونقضٌ بعدَ توكيد؟! ورِدَّةٌ بعدَ معرفة؟! أنا من صحيفتِكُما بريء، وممن أقرَّ بها بريء، ثم حملَ على أصحابِ معاوية، فطعنَ منهُم، حتى إذا عطشَ أتى عسكرَ علي عليه السلام، فاستَسقى فسُقيَ، ثم حملَ على عسكرِ علي عليه السلام، فطعنَ فيهم، حتى إذا عطشَ أتى عسكرَ معاوية، فاستَسقى فسُقي»[2].

وخرج الأشعث بن قيس في الناس بذلك الكتاب يقرؤهُ على الناس، ويعرِضُهُ عليهم، ويمُرُّ به على صفوف أهل الشَّام وراياتهم، فرضوا بذلك. ثم مرَّ به على صفوف أهل العراق وراياتهم يعرِضُهُ عليهم، فبدأت الأصوات تنطلق: لا حكمَ إلا لله، لا نرضى ولا نُحكِّم الرِّجال في دين الله، أين قتلانا يا أشعث؟ وفي هذه اللحظة بالذات بدأت فئة الخوارج بالظهور. وظنَّ علي عليه السلام أنَّهم قليلون لا يُعبأ بهم، فما راعَهُ إلا نداءُ الناسِ من كلِّ جهةٍ وفي كلِّ ناحية: لا حكمَ إلا لله، الحكمُ للهِ يا علي لا لك، لا نرضى بأن يحكم الرِّجال في دين الله[3].

واختارَ الإمام علي عليه السلام عبد الله بن عباس حَكَماً من طرفِهِ، إلا أنَّ أصحابَهُ رفضوا ذلك، وضغطوا عليه للقبول بأبي موسى الأشعري[4]، فقالَ لهم علي عليه السلام: إنَّكُم قد عصيتُموني في أوَّلِ الأمر فلا تعصوني الآن، إنِّي لا أرى أن أُولِّي أبا موسى.

فقالَ الأشعث وزيد بن حصين الطائي ومسعر بن فدكي: لا نرضى إلا بهِ فإن ما كان يُحذِّرُنا وقَعنا فيهِ.

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص37 - 38.

(2) ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ص153.

(3) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص512 - 513.

(4) هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري، من أهل اليمن، قدم إلى المدينة أيام فتح خيبر، وكان والياً لعمر على البصرة، ثم أقره عثمان عليها ثم عزله واستعمل مكانه ابن عامر، فسار من البصرة إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص وطلبوا من عثمان أن يستعمله عليهم فاستعمله، فلم يزل على الكوفة حتى قتل عثمان، فعزله علي عليه السلام عنها.

فقال عليه السلام: فإنهُ ليسَ لي بثقة، قد فارَقني، وخذَّلَ الناسَ عنِّي، ثم هرَبَ مني حتى آمنتهُ بعدَ أشهُرٍ، ولكن هذا ابنُ عباس نوَلِّيه ذلك.

قالوا: ما نبالي أنت كنتَ أم ابن عباس، لا نريدُ إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنى منه إلى الآخر.

فقال عليه السلام: فإني أجعلُ الأشتر (يعني إن لم تقبلوا وسيطاً عدنانياً من طرفي، وهو ابن عباس، فهاكم وسيطاً قحطانياً، وهو مالك الأشتر)

قال الأشعث: وهل سعَّرَ الأرضَ غير الأشتر[1]؟!

رفضوا ابن عباس، ورفضوا مالك الأشتر، فاضطرَّ عليه السلام في النِّهاية للقبول بأبي موسى، في حين اختارَ معاوية عمرو بن العاص.

كتب اليعقوبي في ذلك: «وقالَ عليٌّ عليه السلام: أرى أن أُوجِّه بعبدِ الله بن عباس، فقالَ الأشعث: إنَّ معاويةَ وجَّهَ بعمرو بن العاص، **ولا يحكُم فينا مُضَريَّان** (= عدنانيان)، ولكن تُوجِّه أبا موسى الأشعري (= القحطاني)، فإنهُ لم يدخُل في شيءٍ من الحرب، وقالَ علي عليه السلام: إنَّ أبا موسى عدوٌّ، وقد خذَّلَ الناسَ عنِّي بالكوفة، ونهاهُم أن يخرُجوا معي، قالوا: لا نرضى بغيرهِ، فوجَّهَ عليٌّ عليه السلام أبا موسى. . . . »[2].

نعم، لقد كان لأبي موسى الأشعري تاريخ سيّئ مع الإمام علي عليه السلام؛ فقد كان له دورٌ بارز في تثبيط هِمَم الناس في الكوفة، عن نُصرة الإمام علي عليه السلام يوم الجمل، بدعوى أنَّ النائم في هذه الفتنة خيرٌ من اليقظان، والقاعد خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من السَّاعي، والسَّاعي خيرٌ من الراكب. فأرسل إليه الإمام علي عليه السلام يومَها رسالة، يؤنِّبه على هذا الموقف، ويُحذِّره من الاقصاء إن استمرَّ في تثبيط الناس، كتبَ الإمام علي عليه السلام: «. . إذا قدِم رسولي عليك، فارفع ذيلَكَ، واشدُد مِئزَرَكَ، واخرُج من جُحرِكَ، واندُب من معكَ، فإن حقَّقت فانفُذ، وإن تفشَّلتَ فابعُد. . . اعقل عقلَكَ، وأملِك أمرَكَ، وخُذ نصيبَكَ وحظَّكَ، فإن كرِهتَ، فتنحَّ إلى غير رَحبٍ ولا نجاة. . »[3].

نعود إلى صفين، يقول المؤرِّخون: ثم إنَّ الناسَ دفنوا قتلاهُم، وأمرَ عليٌّ عليه السلام من يُنادي في الناسِ بالرَّحيل[4].

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص36.

(2) ابن واضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص189. أنظر أيضاً: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص500، وفيها كلمة الأشعث: «لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقومَ السَّاعة».

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (63)، ص453.

(4) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص43.

يقولُ عمارة بن ربيعة واصفاً حال جند علي عليه السلام: «خرجوا مع عليٍّ عليه السلام إلى صفين وهم مُتوادُّونَ أحِبَّاء، فرجَعوا مُتباغِضينَ أعداء، ما برِحُوا من عسكرِهِم بصفين حتى فشا فيهمُ التَّحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعونَ الطريقَ كلَّهُ، ويتشاتمونَ ويضطربونَ بالسِّياط، يقولُ الخوارج: يا أعداءَ الله أدهنتُم في أمرِ الله عزّ وجلّ وحكَّمتُم؟! وقال الآخرون: فارقتُم إمامَنا وفرَّقتُم جماعتَنا، فلما دخلَ عليٌّ عليه السلام الكوفة لم يَدخُلوا معهُ حتى أتوا حروراء (على بعد فرسخ من الكوفة)»[1].

ويقول المسعودي في مروج الذهب: «ولما وقع التَّحكيم، تباغضَ القومُ جميعاً، وأقبلَ بعضُهُم يتبرَّأُ من بعض: يتبرأ الأخُ من أخيهِ، والابنُ من ابنهِ، وأمر عليٌّ عليه السلام بالرَّحيل، لعلمهِ باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النِّظام لأمورهم، وما لحقهُ من الخلاف منهم... وتضارب القومُ بالمقارعِ ونعالِ السُّيوف، وتسابُّوا، ولامَ كلّ فريق منهم الآخر في رأيه، وسارَ عليٌّ يؤمُّ الكوفة، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشَّام»[2].

هذا المشهد المؤلم والمؤسف يُساعِدُنا على فهم الفوضى التي سرَت في أوساط جيش علي عليه السلام، والتي تضاعفت بعد ظهور نتيجة التَّحكيم، كما سنرى بعد قليل.

مواقف بعد عودة الإمام علي عليه السلام من صفين

ثم مضى علي عليه السلام غيرَ بعيدٍ، فلقيَهُ عبدُ الله بن وديعة الأنصاري (كانت له صحبة)، فدَنا منهُ وسلَّمَ عليهِ وسايَرَهُ، فقال عليه السلام له: ما سمِعتَ الناسَ يقولونَ في أمرِنا؟ (لاحظ مرة أخرى اهتمام الإمام علي عليه السلام بمعرفة انعكاس مجريات صفين على المجتمع الكوفي).

قال: منهمُ المُعجَب بهِ، ومنهمُ الكارِه لهُ، كما قالَ عزّ وجلّ: «ولا يزالونَ مختلِفينَ إلا من رحِمَ ربُّك»[3].

فقال عليه السلام له: فما قولُ ذوي الرأي فيه؟ (أي أريد معرفة رأي عام النُّخب وأهل الحل والعقد في الكوفة).

قال: أما قولُهم فيه، فيقولون: إنَّ علياً كانَ لهُ جمعٌ عظيمٌ ففرَّقَهُ، وكانَ لهُ حِصنٌ حصينٌ فهدَمَهُ، فحتى متى يبني ما هدَّم؟ وحتى متى يجمَع ما فَرَّق؟ فلو أنهُ كانَ مضى بمن أطاعَهُ - إذ عصاهُ من عصاه - فقاتلَ حتى يظفرَ أو يهلكَ إذاً كانَ ذلِكَ الحزمُ

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص45 - 46.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص391.

(3) سورة هود، الآيتان: 118 - 119.

فقال عليه السلام: أنا هدَمتُ أم هُم هدَموا؟! أنا فرَّقتُ أم هم فرَّقوا[1]؟! (لاحظ كيف ينم الكلام عن شعور عميق بالمرارة).

● نقلَ عبد الرحمن بن جندب عن أبيه: ثم مضَينا حتى إذا جُزنا بني عوف، إذا نحنُ عن أيماننا بقُبورٍ سبعة أو ثمانية، فقالَ عليٌّ عليه السلام: ما هذهِ القبور؟

قال قُدامة بن العجلان الأزدي: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ خبَّابَ بن الأرت[2] تُوفِّي بعدَ مخرَجِكَ، فأوصى بأن يُدفنَ في الظَّهر، وكانَ الناسُ إنما يدفِنونَ في دورِهم وأفنيتِهم، فدُفِنَ بالظَّهرِ رحمه الله، ودُفِنَ الناسُ إلى جنبهِ.

فقال علي عليه السلام: يرحَم اللهُ خبَّاب بن الأرت، فلقد أسلمَ راغباً، وهاجرَ طائِعاً، وقنعَ بالكفاف، ورضيَ عن الله، وعاشَ مجاهداً[3].

● ثم إنَّ علياً عليه السلام أقبلَ حتى حاذى سكَّة الثوريين، فسمِعَ بُكاءً، فقال عليه السلام: ما هذهِ الأصوات؟

فقيلَ لهُ: هذا البكاءُ على قتلى صفين.

فقال عليه السلام: أما إنِّي أشهدُ لمن قُتِلَ منهم صابِراً محتسِباً بالشَّهادة.

ثم مرَّ عليه السلام بالفائشيين، فسمِعَ الأصوات، فقالَ مثلَ ذلكَ، ثم مضى حتى مرَّ بالشِبَّاميين فسمِعَ رجَّةً شديدة، فوقفَ، فخرجَ إليهِ حرب بن شُرَحبيل الشِبَّامي، فقالَ عليه السلام: أيغلِبكُم نساؤكم؟ ألا تنهَونَهُنَّ عن هذا الرَّنين؟

فقال: يا أميرَ المؤمنين، لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدَرنا على ذلِكَ، ولكن قُتِل من هذا الحي ثمانونَ ومائة قتيل، فليسَ دارٌ إلا وفيها بُكاء، فأما نحنُ معاشِرَ الرِّجال فإنَّا لا نبكي ولكن نفرَح لهُم، ألا نفرَح لهُم بالشَّهادة؟

قال عليه السلام: رحِمَ اللهُ قتلاكُم وموتاكُم.

وأقبلَ يمشي (حرب الشِبَّامي) معهُ وعليٌّ عليه السلام راكِبٌ، فقالَ لهُ عليه السلام: ارجع.

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص44. أيضاً نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص529 - 530.

(2) كان قيناً يطبع السيوف، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يألفه ويأتيه، فأُخبرت مولاته بذلك، فكانت تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال صلى الله عليه وآله: اللهم انصر خباباً، فاشتكت مولاته أم أنمار رأسها، فكانت تعوي مثل الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدة المحماة فيكوي بها رأسها. شهد خباب بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، حكم أمير المؤمنين عليه السلام، (43)، ص476.

ووقفَ ثم قالَ لهُ: ارجع، فإنَّ مشيَ مثلِكَ مع مِثلي فتنةٌ للوالي ومذلةٌ للمؤمن[1].

● مع عودته عليه السلام من صفين، وعندما أشرف على القبور بظاهر الكوفة، نادى عليه السلام: يا أهلَ الدِّيارِ الموحِشة، والمَحالِّ المقفِرة (= الأماكن الخالية من السكان والنبات)، والقبورِ المظلمة، يا أهلَ التُّربةِ، يا أهلَ الغربة، يا أهلَ الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتُم لنا فرَطٌ (= متقدمون) سابق، ونحنُ لكم تبعٌ لاحِق. أما الدُّورُ فقد سُكِنت، وأما الأزواجُ فقد نُكِحت، وأما الأموالُ فقد قُسِمت، هذا خبرُ ما عِندَنا، فما خبرُ ما عِندَكم؟

ثم التفتَ عليه السلام إلى أصحابِهِ فقال: أما لو أُذِنَ لهُم في الكلامِ لأخبروكم إنَّ «خيرَ الزادِ التَّقوى»[2].

● وفي حديث يكشف عن حالة الاهتزاز العقديّ والبلبلة الفكرية التي فرضت نفسها على شيعة علي عليه السلام بعد صفين، ينقل الرُّواة أنَّ علياً عليه السلام كان جالساً بالكوفة، بعد مُنصَرَفِهِ من صفين، إذ أقبل شيخٌ فجثا بين يديه، ثم قال له: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرِنا إلى أهل الشَّام، أبقضاء من الله وقدر؟

فقال علي عليه السلام: أجل يا شيخ، ما علوتُم تلعة، ولا هبطتُم بطنَ واد، إلا بقضاءٍ من الله عزّ وجلّ وقدرِهِ.

فقال له الشيخ: عندَ اللهِ أحتسبُ عنائي يا أميرَ المؤمنين.

فقال له عليه السلام: مه يا شيخ، فوالله لقد عظَّمَ اللهُ لكم الأجر في مسيرِكُم وأنتم سائرون، وفي مقامِكُم وأنتم مقيمون، وفي مُنصرَفِكُم وأنتم مُنصَرِفون، ولم تكونوا في شيءٍ من حالاتِكُم مُكرهين، ولا إليهِ مضطَّرين.

فقال له الشيخ: وكيف لم نكُن في شيءٍ من حالاتنا مُكرَهين، ولا إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟!

فقال له عليه السلام: وتظنُّ أنه كان قضاء حتماً، وقدراً لازماً، إنه لو كان كذلك لبطلَ الثوابُ والعقابُ، والأمرُ والنَّهيُ والزَّجرُ من الله، وسقطَ معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمُذنِب، ولا محمَدَة للمُحسن، ولكان المذنبُ أولى بالإحسانِ من المُحسن، ولكان المُحسن أولى بالعقوبةِ من المُذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، خُصماء الرَّحمن، وحزب الشَّيطان، وقدرية هذه الأمة ومجوسها. إنَّ الله تبارك وتعالى كلَّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مُكرَهاً،

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص45. أيضاً نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص531 - 532.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الكلمات القصار، (130)، ص492.

ولم يملّك مفوِّضاً، ولم يخلِق السَّماوات والأرض وما بينهُما باطلاً، ولم يبعث النبيِّين مبشِّرين ومُنذِرين عبثاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

فأنشأ الشيخ يقول:

أنت الإمامُ الذي نرجو بطاعتِهِ يومَ النجاةِ من الرَّحمنِ غفرانا

أوضحتَ من أمرِنا ما كان مُلتبساً جزاكَ ربُّكَ بالإحسانِ إحسانا[1]

التقاء الحكَمين

لم يلتق أبو موسى الأشعري عمرو بن العاص، إلا بعد أن نبَّهَ الكثيرون أبا موسى وحذَّروهُ من مكر عمرو وحيله ودهائه، وأنَّ الوقوع في أيِّ فخ ينصبه عمرو سينعكس تأثيرُهُ المدمِّر على الخلافة كلها، وعلى العراق بأسره، وعلى وضع الإسلام كلّه، وأنَّ أيَّ انكسار في هذا المجال، لن يُجبر في المستقبل. يقول ابن الأعثم في هذا المجال:

بعثَ عليٌّ عليه السلام مع أبي موسى شُرَيح بن هانئ، فلما صارَ في بعضِ الطريق، أقبلَ عليهِ شريحٌ، فقالَ لهُ: أبا موسى، إنك قد نُصِبتَ لأمرٍ لا يُجبَرُ صَدعُهُ، ولا تُستقالُ عثرتُهُ، فاعلم أنَّكَ إن قُلتَ شيئاً لكَ أم عليك لزِمكَ حقُّهُ، وزالَ عنكَ باطِلُهُ، فاتقِ اللهَ، وانظُر كيفَ تكون، فإنك رُمِيتَ بعمرو بن العاص، وهو رجلٌ لا دينَ له، لأنهُ باعَ دينَهُ بدُنياه، فإياكَ أن يخدَعكَ، فإنهُ خدّاعٌ مكّار[2].

عندما وصلوا إلى دومة الجندل (المحطّة التي اتّفقوا أن يلتقي عندها الحكَمان)، كان عمرو بن العاص قد سبَقَهُم إليها، فقالَ أبو موسى لأصحابهِ: انصرفوا رحِمَكُم الله، فإني لستُ أُبقي غاية في النَّصيحةِ لهذه الأمة إن شاءَ اللهُ تعالى.

فودَّعهُ الناس، وفيمن ودَّعَهُ يومئذٍ الأحنف بن قيس، فقالَ لهُ الأحنف: اعرِف خطرَ هذا المسير، فإنَّ لهُ ما بعدَهُ، واعلم بأنَّكَ إن ضيَّعتَ العراق، فلا عِراقَ، فاتَّقِ اللهَ، فإنَّهُ يجتمِعُ لكَ أمر الدُّنيا والآخرة، وانظُر إذا لقيتَ عمرو بن العاص، فلا تبتدِرهُ بالسَّلام، حتى يكون هو الذي يبدَؤك. . . . فقالَ أبو موسى: إني قد سمِعتُ كلامَكَ، وعرفتُ نصيحتَك، فارجِع راشِداً يرحَمك الله. .[3].

(1) الكليني، **أصول الكافي**، ج 1، ص155، ح1. أيضاً راجع مع اختلاف في الألفاظ: **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الكلمات القصار، (78)، ص481.

(2) أنظر أيضاً: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص534.

(3) أنظر أيضاً نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص536 - 537.

رغم كل هذه النَّصائح والتحذيرات، يقول ابن الأعثم: فأقبلَ أبو موسى، فلما رآهُ عمرو استقبلَهُ، فسلَّم عليهِ أبو موسى، ومدَّ أبو موسى يدَهُ إلى عمرو فصافَحَهُ وحيَّاهُ وضَمَّهُ إلى صدرهِ، ثم قال: يا أخاه، طالَ عهدي بك، فقبَّحَ اللهُ أمراً فرَّقَ بيننا. ثم أقعَدَهُ عمرو على فراشهِ، وأقبلَ عليهِ يُحدِّثهُ ساعة، ثم دعا عمرو بالطعام، فأكلا جميعاً، وانصرفَ أبو موسى إلى رحلِهِ، ثم لم يزالا يجتمعانِ كلَّ يوم، فيتحدَّثانِ وينصرفان، فأقاما على ذلكَ أياماً كثيرة، حتى ارتابَ الناس، وغمَّهُم ذلك. . . .

وبلغَ معاوية أنَّ عمراً يريدُ الأمرَ لنفسهِ، فضاقَ لذلكَ ذرعاً ولم يدرِ ما يصنَع. . . وصاحَ الناسُ على أبي موسى وعمرو بن العاص، وقالوا: إنكما قد أبطأتُما بهذا الأمرِ كثيراً، وإننا نخافُ انقطاعَ المُدَّة ولم تصنعا شيئاً، فتعودَ الحربُ إلى ما كانت.

عندها أقبلَ عمرو حتى دخلَ على أبي موسى، فقالَ لهُ: . . . إن قالَ قائلٌ بأنَّ معاويةَ من الطُّلقاء وكان أبوهُ من الأحزاب فقد صدَق، وإن قالَ قائِلٌ إنَّ عليّاً أقرَّ قتلةَ عثمان عندَهُ، وقتلَ أنصارَهُ يومَ الجمل فقد صدَق، ولكن هل لكَ أن تخلعَ صاحِبَك عليّاً، وأنا أخلع صاحبي معاوية، ونجعلُ هذا الأمرَ في يدِ عبدِ الله بن عمر بن الخطاب، فإنهُ رجلٌ زاهدٌ عابدٌ، ولم يبسُط في هذهِ الحروبِ لساناً ولا يداً.

أقول: عمرو بن العاص يريد في الحقيقة أن يجعل الخلافة لبني أمية، وبالتَّحديد لمعاوية، وهذا الأمر لا يرضى به أبو موسى. إذن لا بُدَّ من حيلة يحتال بها على أبي موسى، وهذا العرض - الذي قدَّمه عمرو بن العاص - ينسجم تماماً مع التوجُّهات المسبَقة لأبي موسى الأشعري، فأبو موسى كان يرغب في أن يُعيد الخلافة لقريش المنكسِرة التي كان يمثِّلها وجهاء المهاجرين، وعبد الله بن عمر، مثله، لم يتورَّط في الفتن، وهو يعتبر امتداداً لفئة وجهاء المهاجرين، وابن الخليفة الثاني، لذا أجابه: أحسَنتَ رحِمَكَ الله، وجزاكَ بنصيحتِكَ خيراً، فنعمَ ما رأيت.

قال عمرو: فمتى تُحِبُّ أن يكونَ هذا الأمر؟

فقال أبو موسى: ذاكَ إليك، إن شئتَ الساعة، وإن شئتَ غداً، فإنهُ يومُ اثنين، وهذا يومٌ مبارك.

وانصرفَ عمرو إلى رحلهِ، فلما كانَ من الغَد أقبلَ إلى أبي موسى. . . واجتمعَ الناسُ لاستماعِ الكلام. . . .قالَ أبو موسى: قُم يا عمرو فاخلع صاحِبَك، فإنَّنا على ما كُنَّا عليهِ أمس.

فقالَ عمرو: سُبحانَ الله، أقومُ أنا من قَبلِكَ، وقد قدَّمَكَ اللهُ عليَّ في الإيمانِ والهجرة؟! لا بل قُم أنتَ فتكلَّم بما أحبَبتَ، وأقومُ أنا من بعدِك.

فوثبَ أبو موسى قائماً... فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس... قد علِمتُم ما كانَ من الحروبِ التي لم تُبقِ على بَرٍّ ولا تقي، ولا مُحِقٍّ ولا مُبطِل، ألا وإني قد رأيتُ أن نخلعَ عليّاً ومعاوية، ونجعلَ هذا الأمرَ في يدِ عبدِ الله بن عمر بن الخطاب[1]، فإنهُ رَجلُ لم يبسُط في هذهِ الحروبِ لساناً ولا يداً، ألا وإنّي قد خلعتُ عليّاً من الخلافة، كما خلعتُ خاتمي هذا من إصبعي والسّلام.

وقامَ عمرو بن العاص، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، وقال: أيُّها الناس هذا عبدُ اللهِ بن قيس، أبو موسى الأشعري، وافِدُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وعامِلُ عمرَ بن الخطاب، وحَكَمُ أهلِ العراق، وقد خلعَ صاحِبَهُ عليّاً من الخلافة، كما زَعمَ أنهُ خلعَ خاتِمَهُ من إصبَعهِ (وفي رواية: وإنّي أخلعُ صاحبَهُ كما خلَعهُ)، ألا وإنّي قد أثبَتُّ معاويةَ في الخلافة، كما أثبَتُّ خاتَمي هذا في إصبَعي، ثم قعَد.

فضجَّ أهلُ العراق وقالوا: هذه خديعة، ونحنُ لا نرضى بهذا.

فقالَ أبو موسى: عليكَ غضبُ الله، فواللهِ ما أنتَ إلا كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[2] (وفي وقعة صفين لنصر بن مزاحم: فقال له عمرو: إنّما مثلُكَ مثل ﴿ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[3])[4]... وتشاتما جميعاً، ودخلَ عمرو من ساعتِهِ إلى رحلِهِ... وشمَتَ أهلُ الشّامِ بأهلِ العراق.

.... وبلغَ ذلِكَ علياً عليه السلام، فقال: أما أنا فقد أخبرتُكُم الأمرَ قبلَ أن يكون، وقد جَهَدنا أن يكونَ الحكَمُ غير أبي موسى، فأبيتُم عليَّ وجئتموني بهِ مُبرنَساً، وقُلتم: قد رضِينا بهِ، فاتَّبعتُ رأيَكُم، والآن، فلا سبيلَ لنا إلى حربِ القوم، إلى انقضاءِ المُدةِّ التي كانت بينَنا وبينَهُم.... وصارَ أبو موسى الأشعري إلى مكة، وأقامَ بها حياءً من عليٍّ بن أبي طالب[5].

هنا بدأت مرحلة جديدة من الصِّراع، فقد عتبَ الإمام علي عليه السلام - في خطبة له - على أصحابهِ قائلاً: «الحمدُ للهِ، وإن أتى الدَّهرُ بالخَطبِ الفادِحِ، والحدَثِ الجليل.. أما

---

(1) وفي وقعة صفين لنصر بن مزاحم أنّه قال: «ونستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين، فيولّون أمورهم من أحبّوا». ص545 - 546.

(2) سورة الأعراف، الآية: 176.

(3) سورة الجمعة، الآية: 5.

(4) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص546.

(5) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص435 - 444.. أيضاً نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص544 - 546. الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص49 - 52.

بعدُ، فإنَّ معصيةَ الناصحِ الشَّفيق، العالِمِ المجرِّب، تُورِثُ الحسرةَ، وتُعقِبُ النَّدامة، وقد أمرتُكم في هذهِ الحُكُومةِ أمري، ونخلتُ لكم مخزونَ رأيي، لو كان يُطاعُ لِقصيرٍ أمرٌ. فأبيتُم عليَّ إباءَ المخالفينَ الجُفاة، والمنابذينَ العصاة، حتى ارتابَ الناصِحُ بنُصحِهِ، وضَنَّ الزَّندُ بقدحِهِ»[1].

بعد ذلك أعلن الإمام علي عليه السلام أنَّ الحكمين تجاوزا الحقّ، وخلّفا القرآن وراء ظهريهما، مع علمِهما أنَّ التحكيم كان مشروطاً، بأن يكون أساسُهُ القرآن، لأنَّ الحربَ توقَّفت بمبرِّر تحكيم كتاب الله. إذن هو غير ملزم بحُكم الحكَمين، طالما لم يلتزما بالشَّرط، حيث قال: «أجمعَ رأيُ ملئِكُم على أنِ اختاروا رجُلَين، فأخذنا عليهِما أن يُجعجِعا عندَ القرآن، ولا يُجاوِزَاهُ، وتكونُ ألسِنَتُهُما معَهُ، وقلوبُهُما تبَعَهُ، فتاها عنه، وتركا الحقَّ وهما يُبصرانِهِ، وكان الجَورُ هواهُما، والاعوجاجُ رأيَهُما، وقد سبقَ استثناؤنا عليهِما في الحُكمِ بالعدل، والعملِ بالحقِّ، سُوءَ رأيِهِمَا وجورَ حُكمِهِما..»[2].

عندئذ قرَّر الإمام علي عليه السلام استئناف القتال ضد معاوية، إلا أنَّهُ بعد توجُّههِ إلى الكوفة، امتنعت الخوارج من الدُّخول إليها، وذهبوا إلى قرية حروراء، كما ذهب قسم منهم إلى معسكر النُّخيلة اعتراضاً عليه عليه السلام.

ما كان ينتظره الناس من الحكَمين

عندما نُحلِّل الوظيفة الرئيسية المترقَّبة من الحكمين، يبدو لنا أن الناس كانوا ينتظرون ما يلي:

1) دراسة الأسباب التي أدَّت إلى مقتل الخليفة عثمان، وهل كان هناك مُبرِّر لقتلِهِ أم لا؟

2) بيعة الناس في المدينة لعليّ عليه السلام بعد مقتل عثمان، هل وقعت فعلاً أم لا؟ وإن وقعت فهل كانت عن جبرٍ وإكراه أم لا؟

3) إذا كانت خلافة علي عليه السلام شرعية - بمنطق السَّقيفة والشُّورى - فهل كان موقف معاوية مُبرَّراً عندما رفض بيعة المهاجرين والأنصار وأخَّرَ بيعتَهُ إلى أن يأخُذ بالثأر؟ هل كان مبرَّراً اشتراطه على علي عليه السلام دفع قتلة عثمان وكأنَّهُ هو الخليفة الشَّرعي؟ ألا يُجسِّد هذا الموقف حالة الرَّفض والبغي على الخليفة المفترض الطَّاعة وقد أخبرنا القرآن بحُكم الباغي؟

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (35)، ص79 - 80.

(2) المصدر السابق، رقم (177)، ص256.

4) إذا ثبت أنَّ عثمان قتل مظلوماً وأنه يجب الاقتصاص من قتلتِهِ، فعندئذٍ يقع الكلام في أنَّ وظيفة الاقتصاص والأخذ بالثأر هل هي وظيفة الخليفة الشَّرعي علي عليه السلام أم وظيفة معاوية؟ ووليُّ الدَّم هل هم وُلد عثمان أم معاوية؟

5) لنفترض أنَّ الاقتصاص من قتلة عثمان هي وظيفة الخليفة الشرعي علي عليه السلام، فهل كان عليه السلام قادراً على تنفيذ حكم القصاص؟

6) إذا كان طلحة والزُّبير في نكث البيعة وإخراج زوج رسول الله صلى الله عليه وآله من بيتِها وطرد عثمان بن حُنيف من البصرة وقتل الحرس... إذا كانا معذورَين وإن كانا مُخطئين، فلم لا يصِحُّ تبرير عمل قتلة عثمان بالخطأ في الاجتهاد، خصوصاً إذا علِمنا أنَّ قادة الثُّوار المحاصرين لبيت عثمان كانوا من الصَّحابة؟!

7) على فرض وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، فهل للخليفة الشرعي صلاحية العفو عن القصاص وإبداله بالدِّية كما فعل عثمان في حقِّ عبيد الله بن عمر حين قتل الهرمزان وجُفينة بنت أبي لؤلؤة بلا ذنب[1]؟

8) على فرض وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وأنَّ العفو عن القصاص ليس من صلاحيات الخليفة الشرعي، فلماذا لم يُقترح جدول زمني معين أو مُهلة محدَّدة لكي يقوم علي عليه السلام بالاقتصاص من القتلة بعد أن يُبايع معاوية الخليفة الشرعي؟

المضاعفات الخطيرة لظهور نتيجة التَّحكيم

فور الإعلان عن نتيجة التَّحكيم، التي بدت فيها الخديعة واضحة وجليَّة، برزت سلسلة من المضاعفات الخطيرة، وصارت كلُّ مشكلة تلِدُ سلسلة من المشكلات بنحو انشطاري.

أولاً فيما يتعلَّق بمعاوية

فور وصول عمرو بن العاص من دومةِ الجندل، واطلاع معاوية على مجريات التَّحكيم، والمشهد الذي انتهت عنده عملية التَّحكيم، بدأ الأخير يتعامل مع الناس على أنَّه الخليفة الشَّرعي للمسلمين بموجب التَّحكيم، فالتَّحكيم أعطى مبرِّراً قوياً لمعاوية، ليقول للناس: أنظروا، لقد احتكمنا إلى كتاب الله تعالى، وكانت النتيجة لمصلحتي، لكن الطرف الآخر لا يريد أن ينصاع للنتيجة، عندما وجد أنَّ نتيجة التَّحكيم ليست في مصلحته قلبَ الطَّاولة ورفض تلك النتيجة. فعلى كتاب الله تعالى، أنا خليفة المسلمين الشَّرعي.

---

(1) جعفر السبحاني، **بحوث في الملل والنحل**، لجنة إدارة الحوزة العلمية بقم المقدسة، ط1، 1412هج، قم، ج5، ص98 - 99.

أما ورقة المطالبة بدَم عثمان والثأر له، فقد انتهى مفعولُها، ولم تعُد هناك حاجة لرفع تلك الورقة، لأنَّ الغرض قد تحقَّق، وهو انتزاع الشَّرعية، ولو بنحو غير مشروع!!

لذا، بدأ معاوية سلسلة من الغارات، على العراق، والحجاز، واليمن، وأرسل جيشاً لمصر لمواجهة محمد بن أبي بكر (والي علي عليه السلام)، وصارت الكفَّة تميل يوماً بعد يوم لمصلحة معاوية على حساب الإمام علي عليه السلام.

ثانياً استفحال ظاهرة الخوارج

لاحظنا أنَّ حالة الخروج والتمرُّد والعصيان بدأت في أرض صفين، فالكثيرون أرادوا من الإمام علي عليه السلام إيقاف المعركة وقبول التَّحكيم وإلا تركوا عليّاً عليه السلام بصفين وعادوا إلى العراق. رفض بعضهم الرُّضوخ لضغوط المطالبين بوقف الحرب، وأرادوا من الإمام علي عليه السلام أن يستمر في المعركة، مهما كانت النتائج، ولم يتحمَّلوا ولم يتفهَّموا موقفه عليه السلام وحرصه على عدم تفكُّك الجيش عندما قرَّر إيقاف الحرب. بعضهم الآخر أعلن التمرُّد والعصيان عندما رأى مرونة الإمام علي عليه السلام لحظة كتابة وثيقة الهُدنة، عندما سمح بمحو اسمه من إمارة المؤمنين. وتجلى التنازُع والاختلاف بنحوٍ واضح في طريق عودة الجُند من صفين إلى العراق، عندما رفضت جماعة منهم دخول الكوفة، واستقرُّوا في حروراء.

لكن مع ذلك، كان هناك حدّ أدنى معقول من السَّيطرة، وكان هناك عدد كبير من الجُند بقوا مع الإمام علي عليه السلام بانتظار نتيجة التَّحكيم. لكن بعد أن ظهرت النتيجة المُرَّة، والطريقة التي خدَعَ بها عمرو أبا موسى، صارت العراق في مهبِّ الريح، وصارت خلافة الإمام علي عليه السلام في نظر الناس تحت السُّؤال، بعد كلّ التَّضيحات التي قُدِّمَت في صفين، والدِّماء الزاكيات التي أُريقت فيها.

في هذه اللحظة، فقد الكثيرون توازُنَهُم، وانضمَّ الآلاف إلى الخوارج، وأراد الكثيرون الانضمامَ إليهم، إلا أنهم جبنوا عن ذلك، وآثروا السَّلامة.

كثيرٌ منهم أراد من الإمام علي عليه السلام أن يعود فوراً لمواصلة حرب أهل الشَّام، لكن الإمام علياً عليه السلام بيَّن لهم أنَّه ليس في وسعِهِ استئناف حرب أهل الشَّام إلا بعد انقضاء مدة الهُدنة... لكن عدداً من الخوراج لم يقبل ذلك قط.

من بقي مع الإمام علي عليه السلام صار في حيرةٍ من أمرِهِ، هل يبدأ بحلِّ المشكلة الدَّاخلية الطارئة (الخوارج)؟ أم يعود إلى مواصلة حرب أهل الشَّام؟ الإمام علي عليه السلام من جهتِهِ كان يعدُّ العدَّة لمواصلة حرب أهل الشَّام، لكنه كان ينتظر انقضاء الهُدنة فقط، ولم

يكن راغباً في الانشغال بمعارك داخلية مع الخوارج. إلا أنَّ ثمة تطوُّرات خطيرة قام بها الخوارج، جعلت علياً عليه السلام يُعيد ترتيب الأولويات، فوجد أنَّ الأفضل إنهاء ظاهرة الخوارج، وحسم هذا الملف، قبل انقضاء مدَّة الهُدنة، حتى إذا ما انقضت مدَّة الهُدنة، انعطفَ وتفرَّغَ لحربِ أهل الشَّام... .على هذا النحو كان يُخطِّط الإمام علي عليه السلام.

ثالثاً الوضع الدَّاخلي لجيش علي عليه السلام

أدَّت نتيجة التَّحكيم إلى حالة انهيار معنوي كبير، ويأس عميق لا حدودَ له بين أفراد الجيش. فلم تعُد لديهم رغبة في القتال البتة، مهما كانت المبرِّرات، وصار الإمام علي عليه السلام يعاني الأمرَّين في استنهاض الهِمَم للقتال. لقد شعروا أنَّ المعضلة التي أوقعوا أنفُسَهم فيها غير قابلة للحلِّ مطلقاً، وأنَّهم كلَّما أرادوا علاج الموقف بطريقتهم الخاصَّة، ازدادَ الموقفُ تعقيداً والوضعُ دماراً.

فها هم قاتلوا أهلَ الشَّام قتالاً ضارياً، ولم تُسفِر المعركة - في نظرهم - إلا عن عددٍ كبيرٍ من القتلى، وها هم قبلوا التَّحكيم، فكانت النتيجة عكسيَّة، عندما باعَ الحكَمُ العراقي خليفةَ المسلمين الإمام علياً عليه السلام بوهمِ استبدالهِ بعبدِ اللهِ بن عُمَر، وقدَّم العراق لمعاوية على طبقٍ من ذهب، وفرَّط بدماءِ شهداءِ صفين. فمن يقاتلون؟ هل يُقاتلون أهلَ الشَّام الذين لم تُسفِر المواجهة معهم عن شيء؟ أم يُقاتلون الخوارج والمتمرِّدين وهم أصدقاءُ الأمس ورُفقاء الدَّرب وأبناءُ العمومة (كلهم من قحطان)؟ أم يُقاتلون أبا موسى الأشعري الذي انسحبَ حياءً إلى مكة بعد أن تسبَّب في خلطٍ مدمِّرٍ للأوراق؟ أم يُقاتلونَ عليَّاً عليه السلام الذي ساقَهم لحربِ صفين، ثم استجاب لهم وقبِلَ التَّحكيم، ثم استجاب لهم مرة أخرى عند اختيار الحَكَم؟

انتابت الجيش حالة من الحيرة والضَّياع والتخبُّط، وعدد مهم من خُطَب الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حاول علاج حالةِ التِّيه هذه.

الخلاصة: تحدَّثنا في هذا الفصل عن مضامين وثيقة الهُدنة التي جاءت بعد حرب صفين الضَّارية، وملابسات اختيار الحَكَمين، وحال جُند علي عليه السلام عند عودَتِهم، كما تحدَّثنا عن مُجريات التَّحكيم، وما أسفرت عنه تلك العملية من نتائج، وما أدَّت إليه من مضاعفات خطيرة، جعلت الوضع يخرُج عن السَّيطرة إلى حدٍّ كبير.

في الفصل القادم نريد أن نعرض لمعضلةِ الخوارج، ثم نتحدَّث بتفصيل أكبر عن الوضع النَّفسي الذي انتابَ جيش علي عليه السلام بحيث صاروا لا يستجيبون لندائِهِ واستنهاضِهِ رغم كلّ المحاولات التي قام بها.

(19)

الخوارج وحرب النَّهروان

تحدَّثنا في الفصل الماضي عن الهُدنة، التي جاءت على خلفيَّة رفع المصاحف وقبول الإمام علي عليه السلام وقف حرب صفين. وتحدَّثنا عن ملابسات اختيار الحَكَمين، وحال جُند علي عليه السلام عند عودَتِهم. وسردنا بعض المواقف بعد عودة الإمام علي عليه السلام من صفين. كما تحدَّثنا عن مُجريات التَّحكيم، وما أسفرت عنه تلك العملية من نتائج، وما أدَّت إليه من مضاعفات خطيرة، جعلت الوضع يخرُج عن السَّيطرة إلى حدٍّ كبير. نريد في هذا الفصل أن نستعرض ظاهرة الخوارج بوصفِها نموذجاً واضحاً يُجسِّد تلك المضاعفات الخطيرة لحرب صفين.

معضلة الخوارج

قلنا إنَّ طرفي التَّحكيم اتفقا على كتابة الصُّلح، وإيقاف الحرب إلى أن يحكُم الحَكَمان، وأُخذَت المواثيق على هذا الصُّلح، وأمهلَ المسلمون الحكَمين مدَّة مُحدَّدة. حينها جاءت عصابة من قُرَّاء العراق وقد سلُّوا سيوفَهم واضعيها على عواتِقِهم وقالوا: يا أميرَ المؤمنين، ما ننتظر بهؤلاء القوم أن نمشي إليهم بسيوفِنا حتى يحكُمَ اللهُ بينَنا وبينَهُم بالحقّ.

فقال لهم علي عليه السلام: قد جعلنا حُكمَ القرآن بيننا وبينهم، ولا يحلُّ قتالهُم حتى ننظر بمَ يحكُم القرآن[1].

وكان عليه السلام يرد عليهم قائلاً: «إنَّا لم نُحَكِّم الرِّجَالَ، وإنَّما حكَّمنا القرآن، هذا القرآنُ هو خطٌّ مستورٌ بين الدَّفتين، لا ينطِقُ بلسانٍ، ولا بُدَّ له من تَرجُمان، وإنما ينطِقُ عنه الرِّجَال... وأما قولُكُم: لم جعلتَ بينَكَ وبينَهُم أجلاً في التَّحكيم؟ فإنَّما فعلتُ ذلك ليتبيَّنَ الجاهِلُ، ويتثبَّتَ العالِمُ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلِحَ في هذهِ الهُدنةِ أمرَ هذهِ الأمة، ولا

(1) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص497.

تؤخَذُ بأكظامِها (= مخرج أنفاسها)، فتعجَلَ عن تبيُّن الحقّ، وتنقادَ لأوَّلِ الغيّ»[1].

لكن لما ظهرت نتيجة التَّحكيم، تفاقَمَ الأمر، وظهرت اتجاهات معارضة مُتعدِّدة في جيش علي عليه السلام، يجمَعُها النّقاط التالية:

1) التَّظاهُر ضدّ الإمام علي عليه السلام تحتَ شعار «لا حُكمَ إلا لله» في المسجدِ وخارجه، خصوصاً عند قيام الإمام علي عليه السلام بإلقاء الخُطَب.

2) تكفير الإمام علي عليه السلام وأصحابه الخُلَّص الذين ظلُّوا أوفياء له.

3) تأمين أهل الكتاب وإرهاب المسلمين وقتل الأبرياء.

وجاء عليّاً عليه السلام زرعة بن برج الطائي وحرقوص بن زهير - وهما من قادة الجمهور الثائر على عثمان - وقالا له: لا حُكمَ إلا لله.

فقال علي عليه السلام: لا حُكمَ إلا لله.

فقال له حرقوص: تُب من خطيئتِك، وارجع عن قضيَّتِك، واخرُج بنا إلى عدوِّنا نقاتلهم حتى نلقى ربَّنا.

فقال علي عليه السلام: قد أردتكم على ذلِكَ فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينَهُم كِتاباً، وشرَطنا وأعطينا عهودَنا ومواثيقَنا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

فقال حرقوص: ذلكَ ذنبٌ ينبغي أن تتوبَ منه.

فقال علي عليه السلام: ما هو ذنبٌ، ولكنه عجزٌ من الرأي، وضعفٌ من الفعل، وقد تقدَّمتُ إليكم فيما كان منه، ونهيتُكُم عنه.

فقال زرعة: أما والله يا عليّ، لئن لم تدَع تحكيمَ الرِّجال في كتابِ الله، قاتلتُكَ بذلكَ أطلُبُ وجهَ اللهِ ورضوانَهُ[3].

عند تلك اللحظة باتت ظاهرة الخوارج معقَّدة، فهم الآن يُطالبونَهُ بالعودة لمواصلة القتال، ويرفضون التَّحكيم بعد أن كانوا قد فرضوهُ على الإمام علي عليه السلام. بعضُهُم طالبَهُ بذلك في صفين بعد إقرار كتاب التَّحكيم مباشرة، وبعضُهُم في طريق العودة وقبل أن تظهر نتيجة التَّحكيم، وكثيرٌ منهم طالبوهُ بذلك بعد ظهور نتيجة التَّحكيم لكن قبل أن تنقضي

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (125)، ص182.

(2) سورة النحل، الآية: 91.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص52 - 53.

المُهلة التي التزمَ بها الإمام علي عليه السلام في هدنتِهِ. قبل ظهور نتيجة التَّحكيم لم تكن بذور الشُّبهة تجد أرضية واسعة بين أفراد جيش علي عليه السلام، لكن بعد ظهور نتيجة التَّحكيم، وجدت الأرضية لنمو بذور تلك الشُّبهة.

وعندما قال له البرج بن مسهر الطائي - وكان من الخوارج - بحيث يسمعه: لا حكم إلا الله، ردَّ الإمام علي عليه السلام: «اسكُت قبَّحكَ اللهُ يا أثرَم (= ساقط الثنية من الأسنان)، فواللهِ لقد ظهرَ الحقُّ فكُنتَ فيهِ ضئيلاً شخصُك، خفِيّاً صوتُكَ، حتى إذا نعرَ (= صاح) الباطِلُ نجمتَ (= ظهرت) نجومَ قرنِ الماعز (= على غفلة دون شرف ولا شجاعة ولا قِدَم)؟!»[1].

وقال عليه السلام عندما سمع هذه الكلمة تتكرَّر على لسان الخوارج «لا حُكمَ إلا لله»: «كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل، نعم إنَّهُ لا حُكمَ إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرةَ إلا لله، وإنَّهُ لا بُدَّ للنَّاسِ من أمير، برٍّ أو فاجِر»[2].

يريد بذلك أنَّ المغالطة التي وقعوا فيها تتمثَّل في أنَّهم خلطوا بين من له تطبيق التَّشريع، بمن له حقّ التَّشريع... فبالتأكيد لا يحقّ التَّشريع بالأصالة إلا للهِ تعالى وحدَهُ لا شريكَ له، أما على مستوى تطبيق التَّشريع، فميدانياً، لا يمكن أن يقوم بتطبيق التَّشريع إلا أمير، فإن كان براً، طبق التَّشريع بنحوٍ سليم، وإن كان فاجراً، انحرَفَ عن تطبيق التَّشريع. ولكن في كلِّ الأحوال لا بُدَّ للناس من أمير، ولو كان فاجراً، لأنَّه أهونُ من ضرر وقوع الهرج والمرج.

لقد قابل الإمام علي عليه السلام الخوارج في البدء باللِّين، وكان يرُدُّ على الشِّعارات التي كان يعلو صوتُها أثناء خُطَبِهِ بقوله: «أما إنَّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتُمونا: لا نمنعكم مساجدَ اللهِ أن تذكروا فيها اسمَهُ، ولا نمنعكم الفيئَ ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتِلُكم حتى تبدؤنا»، ثم يرجع إلى مكانِهِ الذي كان من خُطبَتِهِ[3].

التَّطاول اللَّفظي على الإمام علي عليه السلام

من مظاهر حالة الفلتان التي ظهرت عند ظهور نتيجة التَّحكيم، التَّطاول اللَّفظي والأدبي على الإمام علي عليه السلام... والتواريخ تسجِّل لنا سلسلة من تلك المواقف:

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (184)، ص268.

(2) المصدر السابق، (40)، ص82.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص53.

1) فعندما كان الإمام علي عليه السلام يتكلَّم على منبر الكوفة، فمضى في بعض كلامه شيءٌ اعترضَهُ الأشعث بن قيس فيه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذهِ عليكَ لا لك. فخفضَ عليه السلام إليه بصرَهُ ثم قال: «ما يُدريكَ ما عليَّ مما لي، عليكَ لعنةُ اللهِ ولعنةُ اللّاعنين، حائكٌ ابنُ حائك، منافقٌ ابنُ كافر. والله لقد أسرَكَ الكُفرُ مرةً والإسلامُ أخرى، فما فداكَ من واحدةٍ منهما مالُكَ ولا حسَبُك. وإنَّ امرأً دلَّ على قومِهِ بالسَّيف، وساقَ إليهمُ الحَتفَ، لحريٌّ أن يمقُتَهُ الأقرب، ولا يأمنَهُ الأبعد»[1].

2) جاء الخرِّيت بن راشد النَّاجي إلى الإمام علي عليه السلام وقد جرَّده من لقب أمير المؤمنين قائلاً: يا علي، واللهِ لا أطيعُ أمركَ، ولا أُصلِّي خلفَكَ، وإنِّي غداً مفارِقٌ لك... فناظرَهُ علي عليه السلام وحاول إقناعَهُ دون جدوى... .ثم تطوَّر أمر الخرِّيت بعد ذلك وتعقَّد، إلى أن لحق بساحل بحر فارس، ولم تتم تصفية ملفه إلا عندما قام معقل بن قيس الرِّياحي بتعبئة الجنود وزحفَ نحوَهُ مع أتباعهِ وهزمَهُم هزيمةً منكرة، قُتِلَ فيها الخرِّيت، وتفرَّق من بقيَ من أتباعه (ويقول المسعودي إنَّ الخريت مع أصحابه ارتدُّوا إلى النَّصرانية). وسيأتي تفصيل ذلك عندما نتحدَّث عن مصقلة بن هبيرة الشَّيباني (في المحاضرة: 21).

3) روي أنَّ صاحباً لعلي عليه السلام يقال له همَّام بن عباد - وكان رجلاً عابداً - قال يوماً: يا أميرَ المؤمنين، صِف لي المتَّقين حتى كأنِّي أنظر إليهم. فتثاقلَ عليه السلام عن جوابه ثم قال: يا همَّام اتق الله وأحسن فـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2]. فلم يقنَع همَّام بهذا القول حتى عزَمَ عليه، فخطبَ عليه السلام خطبةً طويلة بليغة ومؤثِّرة وصفَ فيها المتقين... .فصعقَ همَّام رحمه الله صعقةً كانت نفسُهُ فيها. فقال علي عليه السلام: أما واللهِ لقد كنتُ أخافُها عليه، ثم قال: هكذا تصنعُ المواعظُ البالغةُ بأهلِها. فقال له قائل: فما بالُكَ أنتَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال عليه السلام: ويحكَ إنَّ لكلِّ أجلٍ وقتاً لا يعدوهُ وسبباً لا يتجاوَزُهُ، فمهلاً، لا تعُد لمثلِها، فإنَّما نفثَ الشَّيطانُ على لسانِك[3].

4) روي أنَّه عليه السلام كان جالساً في أصحابهِ، فمرَّت بهم امرأة جميلة، فرَمَقَها القومُ بأبصارِهم، فقال عليه السلام: إنَّ أبصارَ هذه الفحولِ طوامحُ، وإنَّ ذلك سببُ هبابِها، فإذا نظرَ

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (19)، ص61 - 62. وأشرنا فيما مضى أنَّ الأشعث بن قيس ارتدَّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في ناس من كندة، فحورب ضمن أهل الرِّدة، وأخذ الأمان لسبعين من قومه ونسي أن يأخذ الأمان لنفسه، فجاؤوا به إلى أبي بكر، فعفا عنه وزوَّجه أخته أم فروة، ثم ندم أبو بكر ندماً شديداً، وتمنى وهو على فراش الموت، لو أنه لم يعف عنه، وضرب عنقه بالسَّيف.

(2) سورة النحل، الآية: 128.

(3) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (193)، ص303 - 306.

أحدُكُم إلى امرأةٍ تُعجِبُهُ فليلامِس أهلَهُ، فإنَّما هي امرأة كامرأتِهِ. فقال له رجلٌ من الخوارج: قاتلَهُ اللهُ كافِراً ما أفقهَهُ، فوثبَ القومُ ليقتلوهُ، فقال عليه السلام: رويداً، إنما هو سبٌّ بسبٍّ، أو عفوٌ عن ذنبٍ[1].

5) كتب الطبري أنَّ حكيم بن عبد الرحمن البكائي - كان يرى رأي الخوارج - أتى عليًّا ذاتَ يوم وهو يخطُب، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]. فقال علي عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[3].

لقد تنبَّأ رسولُ الله صلى الله عليه وآله بظاهرة الخوارج، فعندما وقف صلى الله عليه وآله يُقسم غنائم خيبر، جاءه ذو الخويصرة (الذي صار من أبرز قادة الخوارج)، فقال له: ما عدلتَ منذُ اليوم! فقال عمر: ألا أقتله يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّه سيكونُ لهذا ولأصحابِهِ نبأ، وقال: تحقر صلاة أحدكم في جنبِ صلاتهم، وصوم أحدكم في جنبِ صيامهم، ولكن لا يجاوز إيمانُهم تراقيهم، وقال: سيخرُج من ضئضئ هذا الرَّجُل قومٌ يمرقونَ من الدِّينِ كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة[4].

وكانت آراء الخوارج تنحصر - في البدء - في ثلاثة أصول: تكفير مُرتكِب الكبيرة، إنكار مبدأ التَّحكيم، وتكفير عثمان وعليّ عليه السلام ومعاوية وطلحة والزُّبير ومن سارَ على دربِهم ورضيَ بأعمال عثمان وتحكيم علي عليه السلام.

خوارج حروراء

بينا الإمام علي عليه السلام ينتظر انقضاء المدَّة بينه وبين معاوية ليرجع إلى حربه، تحرَّك 4 آلاف من النُّسَّاك وخرجوا من الكوفة وقالوا: لا حُكمَ إلا لله، ثم انضمَّ إليهم 8 آلاف، فصار القومُ في اثني عشر ألفاً، ونزلوا بحروراء (على بعد ميلين من الكوفة). وأعلنوا حالة التمرُّد والعصيان ورفضهم إمرة الإمام علي عليه السلام.

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (420)، ص 550.

(2) سورة الزمر، الآية: 65.

(3) سورة الروم، الآية: 60. الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص54.

(4) نقله أهل السير وأصحاب الصحاح والمسانيد، ورواه البخاري في صحيحه، ج6، في تفسير سورة البراءة، تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، ص67. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، ح2644، ص184، ح2645، ص184، ح2647، ص185، ح2649، ص186، ح2650، ص186، ح2659، ص193.

وعندما أرسل الإمام علي عليه السلام رجُلاً من أصحابه، يعلم له علم أحوال قوم من جُند الكوفة، قد همُّوا باللِّحاق بالخوارج، وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام، فلما عاد إليه الرَّجُل قال له: أمِنوا فقطنوا (= فأقاموا)؟ أم جبنوا فظعنوا (= فرحلوا)؟

فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: «بُعداً لهم كما بعِدَت ثمود. أما لو أُشرِعت الأسِنَّةُ إليهم، وصُبَّت السُّيوفُ على هاماتِهم، لقد ندِموا على ما كانَ منهم. إنَّ الشيطانَ اليومَ قد استفلَّهم، وهو غداً متبرئٌ منهم، ومتخلٍّ عنهم، فحسبُهم بخروجِهم من الهدى، وارتكاسِهم في الضلالِ والعمى، وصدِّهم عن الحقّ، وجِماحِهم في التِّيه»[1].

محاولات الإمام علي عليه السلام لتفادي حرب خوارج حروراء

1. **إرسال ابن عباس كمناظِر مع الخارجي عتَّاب الأعور الثَّعلبي**: يقول ابن الأعثم..... دعا عليٌّ عليه السلام بعبد الله بن عباس، فأرسله إليهم وقال: يا ابنَ عباس امضِ إلى هؤلاءِ القوم، فانظُر ما هُم عليه، ولماذا اجتمعوا؟

فأقبلَ ابنُ عباس، حتى إذا أشرَفَ عليهم، ونظروا إليه، ناداهُ بعضُهُم وقال: ويلَكَ يا ابنَ عباس، أكفَرتَ بربِّك، كما كفرَ صاحِبُكَ عليُّ بن أبي طالب؟

فقال ابن عباس: إني لا أستطيع أن أُكلِّمَكُم كلّكم، ولكن أنظروا أيُّكم أعلم بما يأتي ويذر فليخرُج إليَّ حتى أُكلِّمَهُ.

فخرج إليه عتَّاب الأعور الثَّعلبي، ودار حوار طويل بينهما، ثم صاح الخوارج: هيهات يا ابنَ عباس، نحن لا نتولَّى عليّاً بعد هذا اليوم أبداً، فارجع إليه وقل له فليخرُج إلينا بنفسِهِ حتى نحتجَّ عليه، ونسمعَ كلامَهُ ويسمَعَ من كلامِنا، فلعلَّنا إن سمعنا منه شيئاً نظَرنا إما أن نرجع عما اجتمعنا عليه من حربِهِ أو لا.

فخرجَ عبد الله بن عباس إلى عليٍّ عليه السلام فخبرَهُ بذلك[2].

2. **حضور الإمام علي عليه السلام الشَّخصي إلى حروراء في مائة رجُل من أصحابهِ وحواره مع ابن الكوَّاء مع عشرة من أصحابه**: يقول ابن الأعثم ... .فركبَ علي عليه السلام إلى القوم في مائة رجل من أصحابهِ حتى وافاهم بحروراء، فلمَّا بلغَ ذلك الخوارج ركبَ

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (181)، ص259 - 260.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص477 - 480.

عبد الله بن الكوَّاء في مائة رجُل من أصحابهِ حتى واقفه، فقال له علي عليه السلام : يا ابنَ الكوَّاء إنَّ الكلامَ كثير، أبرز إليَّ من أصحابك حتى أُكلِّمك.

قال ابن الكوَّاء: وأنا آمنُ من سيفِك؟

قال عليه السلام : نعم وأنت آمن من سيفي.

فخرج ابنُ الكوَّاء في عشرة من أصحابه، ودنَوا من عليٍّ عليه السلام ، وذهب ابن الكوَّاء ليتكلَّم، فصاح به رجُلٌ من أصحاب علي عليه السلام وقال: اسكُت حتى يتكلَّم من هو أحقُّ بالكلامِ منك. فسكتَ ابنُ الكوَّاء.

وتكلَّمَ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، فذكرَ الحربَ الذي كانت بينَهُ وبين معاوية، وذكرَ اليومَ الذي رُفِعَت فيه المصاحف، واتفاقهم على الحكَمين، ثم قال له علي عليه السلام : ويحكَ يا ابن الكوَّاء، ألم أقُل لكم في ذلكَ اليوم الذي رُفِعَت فيه المصاحف إنَّ أهلَ الشَّام يُريدونَ أن يخدعوكُم بها؟ ألم أقُل لكم بأنَّهم قد عضَّهمُ السِّلاح وكاعوا (= جبنوا) عن الحرب، فذروني أناجِزهم؟ فأبيتُم عليَّ وقُلتُم: إنَّ القومَ قد دعونا إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأجِبهُم إلى ذلك، وإلا لم نُقاتِل معَكَ، وإلا دفعناكَ إليهم، فلمَّا أجبتُكم إلى ذلك أردتُّ أن أبعثَ ابنَ عمي عبد الله بن عباس ليكونَ لي حكَماً، فإنَّه رجُلٌ لا يعتني بشيءٍ من عرَضِ هذه الدُّنيا، ولا يطمَعُ أحدٌ من الناس في خديعتِهِ، فأبى عليَّ منكُم من أبى، وجئتُموني بأبي موسى الأشعري، وقُلتُم قد رضينا بهذا، فأجبتُكُم إليهِ وأنا كاره، ولو أصبتُ أعواناً غيرَكُم في ذلكَ الوقت لما أجبتُكم، ثمَّ إنِّي اشترطتُ على الحكَمين بحضرَتِكُم أن يحكُما بما أنزلَ الله من فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ، أو السُّنة الجامعة، فإن هُما لم يفعلا ذلك فلا طاعةَ لهما عليَّ، أكان ذلكَ أم لم يكُن؟

فقال ابنُ الكوَّاء: صدَقتَ قد كانَ هذا بعينِهِ، فلم لا ترجع إلى حربِ القوم، إذ قد علِمتَ أنَّ الحكَمين لم يحكُما بالحقِّ، وأنَّ أحدَهُما خدَعَ صاحبَهُ؟

فقال علي عليه السلام : إنَّه ليس إلى حربِ القومِ سبيل إلى انقضاء المدَّة التي ضُرِبَت بيني وبينهم.

قال ابن الكوَّاء: فأنتَ مُجمِعٌ على ذلك؟ (أي عازم على مواصلة حرب معاوية بعد انقضاء المدة؟)

قال عليه السلام : وهل يسَعُني إلا ذلك؟ انظُر يا ابنَ الكوَّاء إنِّي أصبتُ أعواناً وأقعُدُ عن حقِّي؟!

فعندها امتطى ابنُ الكوَّاء فرسَهُ، وصارَ إلى عليٍّ عليه السلام مع العشرة الذين كانوا معه،

ورجعوا عن رأي الخوارج، وانصرفوا مع عليٍّ عليه السلام إلى الكوفة، وتفرَّقَ الباقون وهم يقولون: لا حُكمَ إلا لله، ولا طاعةَ لمن عصى الله[1].

فقال لهم عليه السلام: «أصابَكُم حاصبٌ، ولا بقي منكم آثرٌ، أبَعدَ إيماني بالله، وجهادي مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله أشهدُ على نفسي بالكُفر، «لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين»، فأوبُوا شرَّ مآب، وارجعُوا على أثَرِ الأعقاب. أما إنَّكُم ستلقَونَ بعدي ذُلاً شاملاً، وسيفاً قاطِعاً، وأثَرَةً يتَّخِذُها الظالمونَ فيكم سُنَّة»[2].

حسم ملف خوارج النَّهروان

وقع التطوُّر الدراماتيكي، والطلاق البائن بين الإمام علي عليه السلام والخوارج، عندما انحازَ الخوارج إلى النَّهروان مع 12 ألف مقاتل وقتلوا في طريقِهم عبد الله بن خبَّاب بن الأرت وبقروا بطن زوجته وهي حبلى متمٌّ وقتلوا ثلاث نسوة من طيئ[3]. . . . عندها تحوَّلَ الخوارج إلى ظاهرةٍ إرهابيةٍ خطرةٍ لا يمكن السُّكوت عنها، ولا التَّسامُح معها، تبثُّ الفوضى والذُّعر بين الناس، وتدفع باتجاه الهرج والمرج.

عندما جاءت علياً عليه السلام الأخبار عن الأفعال الشَّنيعة للخوارج الذين كانوا مجتمعين في النَّهروان، كان عليه السلام على أهبة الاستعداد للمسير إلى الشَّام، لمواصلة حرب معاوية. عندها ألحَّ أصحابُ علي عليه السلام من كبار قادة جيشه على مناجزة هؤلاء ثم المسير إلى الشَّام، لأنَّه من غير المناسب أبداً المسير إلى معاوية ووضعهم الدَّاخلي على هذا الحال من انعدام الأمن، فقالوا له: يا أميرَ المؤمنين، علامَ تدَع هؤلاء وراءَنا يخلفوننا في أموالِنا وعيالِنا؟! سِر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم، سِرنا إلى عدوِّنا من أهل الشَّام[4]. وبالفعل استجابَ عليه السلام لهذه المشورة.

بدأ الإمام علي عليه السلام يخطُب بأصحابِهِ ويُعلن عن خروجِهِ لحرب الخوارج، لكن استجابة قومه كادَت أن تكون معدومة. فمواجهة معاوية بالنسبةِ إليهم أقرب إلى مزاجِهِم من مواجهة أصدقاء الأمس وأعداء اليوم. فخطبَ عليه السلام مرةً أخرى ووبَّخَ أصحابَهُ حتى

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص480 - 481. راجع أيضاً: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب قتال أهل البغي، ح2656، ص189 - 190، أيضاً ح2657، ص190 - 192.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (58)، ص92 - 93.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص60 - 61.

(4) المصدر السابق، ج4، ص61.

ذرفت عيناه، ثم نزل عن المنبر وهو يقول: صِرتُ إلى قومٍ إن أمرتُهُم خالفوني وإن اتَّبعتُهم تفرَّقوا عني، جعلَ اللهُ لي منهُم فرَجاً عاجلاً.

ثم وثبَ عليه السلام فدخلَ منزِلَهُ مغموماً.

ودخلَ إليه جماعة من فُرسان اصحابه، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين لا يسؤك الله، ها نحنُ بين يديك، فسِر بنا إلى أعداءَ الله - إذا شئت - لترى منا ما تُحِبّ.

ثم تقدَّمَ إليه رجُلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الناسَ قد ندموا على ما كانَ من تثبيطِهِم وقعودِهِم عن نُصرَتِك، على أنَّ الحظَّ في ذلك لهم، فلو عاوَدتَهُم بالخطبةِ لعلَّهم كانوا يرتدعون، ويرجعون إلى محبَّتِك.

فلما كانَ من غدٍ خرجَ عليه السلام حتى دخلَ المسجد الأعظم، وهو غاصٌّ بأهلِهِ، فخطبَ خُطبتَهُ الثالثة، فأجابه 4 آلاف فخرجَ بهم إلى النَّهروان[1].

علمُ النُّجوم[2] ومحاولة تخويف الإمام علي عليه السلام من حرب الخوارج

قال للإمام علي عليه السلام بعضُ أصحابه لما عزمَ على المسير إلى الخوارج: إن سرتَ يا أميرَ المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمُرادِكَ من طريق علم النُّجوم! (ربما أراد القائل تثبيطه عليه السلام عن الخروج وتخويفه بنتائج صفين أو أراد التهرُّب من الخروج معه).

فقال عليه السلام: أتزعمُ أنك تهدي إلى السَّاعةِ التي من سارَ فيها صُرفَ عنه السُّوء؟! وتُخوِّفُ من السَّاعةِ التي من سار فيها حقَّ به الضُّر؟! فمن صدَّقكَ بهذا فقد كذَّبَ القرآن، واستغنى عن الاستعانةِ بالله في نيلِ المحبوب ودفعِ المكروه؛ وتبتغي في قولِكَ للعاملِ بأمركَ أن يوليكَ الحمدَ دون ربِّهِ، لأنك - بزعمكَ - أنتَ هديتَهُ إلى السَّاعةِ التي نالَ فيها النَّفع، وأمِنَ الضُّر!!

أيُّها الناس، إياكم وتعلُّم النُّجوم، إلا ما يُهتدى به في بَرٍّ أو بحر، فإنَّها تدعو إلى الكهانة، والمُنجِّمُ كالكاهن، والكاهنُ كالسَّاحر، والسَّاحرُ كالكافر، والكافرُ في النار! سيروا على بركةِ الله[3]!

محاولات الإمام علي عليه السلام تفادي حرب خوارج النَّهروان

1. <u>الإمام علي عليه السلام يبعث بغلامِهِ إلى الخوارج يعظهم دون جدوى:</u> يقول ابن

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص482 - 486.

(2) ما يسمى بـ«علم النجوم» هو التنبؤ بالحوادث المستقبلية عن طريق مراقبة حركة النجوم والكواكب.

(3) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (79)، ص105.

الأعثم. . . . سارَ عليٌّ عليه السلام حتى نزلَ على فرسخين في النَّهروان، ثم دعا بغلامِهِ، فقال له: إركَب إلى هؤلاءِ القوم، وقُل لهم عني: ما الذي حمَلَكُم على الخروج عليَّ؟ ألم أقصِد في حُكمِكُم؟ ألم أعدِل في قسمِكُم؟ ألم أُقسم فيكم فيئَكُم؟ ألم أرحَم صغيرَكُم؟ ألم أُوقِّر كبيرَكُم؟ ألم تعلموا أنِّي لم أتَّخِذكُم خولاً، ولم أجعل مالَكُم نفلاً؟ وانظُر ما يردُّون عليك، وإن شتموكَ فاحتمِل، وإياكَ أن ترُدَّ على أحدٍ منهم شيئاً.

فأقبلَ غلامُ علي عليه السلام، حتى أشرفَ على القومِ بالنَّهروان، فقال لهم ما أمرَهُ عليه السلام به.

فقالَ له الخوارج: ارجع إلى صاحبِك، فلسنا نُجيبُهُ إلى شيءٍ يريدُهُ أبداً، وإنا نخافُ أن يرُدَّنا بكلامِهِ الحسَن كما ردَّ إخواننا بحروراء[1]!

2. **الإمام علي عليه السلام يكتُب إلى الخوارج كتاباً مطالباً تسليم قتلة ابن خبَّاب وعبد الله بن وهب الرَّاسبي يُجيبُ بالرَّفض والاستعداد للحرب:** بمجرَّد أن رجعَ غلام علي عليه السلام وأخبرَهُ بما سمعَ من القوم، كتبَ عليه السلام إليهم: «. . . . وقد جعلتُماني (الخطاب موجَّه لعبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير) في حالةٍ من ضلَّ وغوى، وعن طريقِ الحقِّ هوى، خرجتُما عليَّ مخالفين بعد أن بايُعتماني طائعين غير مكرهين، فنقضتُما عهودَكُما، ونكثتُما أيمانَكُما، ثم لم يكفِكُما ما أنتما فيه من العمى وشقِّ العصا، حتى وثبتُما على عبد الله بن خبَّاب فقتلتماهُ، وقتلتما أهلَهُ وولدَهُ بغير ترَّة (= داهية) كانت منه إليكُما، ولا دخَل (= غدر)، وهو ابنُ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، ولن يُغني القعودُ عن الطَّلبِ بدَمِهِ، فادفعا إلينا من قتلَهُ وقتلَ أهلَهُ وولدَهُ، وشركَ في دمائِهِم، ولا تقتُلا أنفُسكما على عمى وجهل، فتكونا حديثاً لمن بعدكما. وباللهِ أُقسِمُ قسَماً صادقاً، لئن لم تدفعا إلينا قاتل صاحبنا عبد الله بن خبَّاب، لم أنصرف عنكُما، دون أن أقضي فيكما أربي، وباللهِ أستعين، وعليه أتوكَّل، والسَّلامُ والرَّحمةُ من الواحدِ الخلاق على النبيِّين، وعلى عبادِهِ الصَّالحين». ثم طوى الكتاب، وختمَهُ. . . . وأرسلَهُ[2].

3. **الإمام علي عليه السلام يُرسِل ابن عباس ثانية إلى النَّهروان قُبيل الحرب لموعظتهم:** وعندما وصل الجواب السَّلبي من الخوارج، وأنهم عازمونَ على حربِهِ عليه السلام، عندها نادى الإمام علي عليه السلام أصحابَهُ، وأمرَهُم بالمسيرِ إلى النَّهروان، فرحَلَ عليه السلام ورحلَ الناسُ

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص487.
(2) المصدر السابق، ج1، ص488 - 489.

معه. . . .ثم عبَّأ عليه السلام اصحابَهُ ميمنة وميسرة وقلباً وجناحاً، ثم دعا بعبد الله بن عباس، فقال له: تقدَّم إلى هؤلاء، واحتجَّ عليهم، وانظُر ماذا يقولون؟

فقال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين أفأُلقي عني حلَّتي هذه، وألبِسُ دِرعي، فإنِّي أخافُ القومَ على نفسي؟

فقال عليه السلام: إنِّي لا أخافُهُم عليك، فتقدَّم فها أنا ذا من ورائك.

فتقدَّمَ عبد الله بن عباس، حتى واجَهَ القوم، وسألهم: أيُّها الناس ما الذي نقمتُم على أمير المؤمنين؟. . . .

قالوا: نقمنا عليهِ أشياء كثيرة، لو كانَ حاضراً لكفَّرناهُ بهِنَّ.

فالتفتَ ابنُ عباس إلى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد سمعتَ الكلام، فأنت أحقُّ بالجواب[1].

4. عليٌّ عليه السلام يُخاطب أهلَ النَّهروان مباشرة ويرُدُّ على شُبُهاتِهم: يقول ابن الأعثم. . . بعد محاولة ابن عباس، ودعوته لعليّ عليه السلام للكلام معهم مباشرة، تقدَّم عليه السلام حتى واجَهَ القومَ، فسلَّم عليهم، فردُّوا عليه السلام، ثم قال: أيُّها الناس، أنا عليُّ بن أبي طالب، فتكلَّموا بما نقمتُم عليَّ. (أكُلكم شهدَ معنا صفين؟

فقالوا: منَّا من شهِدَ ومنَّا من لم يشهَد

قال عليه السلام: فامتازوا فرقتين، فليكُن من شهَد صفين فرقة، ومن لم يشهَدها فرقة، حتى أكلِّمَ كُلاً منكُم بكلامهِ.

ثم نادى الناس، فقال عليه السلام: أمسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتِكم إليَّ، فمن نشدناهُ شهادةً فليقُل بعِلمِهِ فيها. . . .)[2].

فقالوا: إنَّ أوَّلَ ما نقمنا بهِ عليك، أنَّا قاتلنا يومَ البصرة (حرب الجمل) بينَ يديك، فلما أظفرَكَ اللهُ بهم، أبحتَنا ما كان في عسكرِهِم، ومنعتَنا النِّساء والذُّرية، فكيفَ تستَحِلُّ ما كان في المعسكر ولا تستحِلُّ النِّساءَ والذَّرية؟

فقال لهم علي عليه السلام: يا هؤلاء إنَّ أهلَ البصرة قاتلونا وبدأوا بقتالِنا، فلما أظفرني اللهُ بهم، قسمتُ بينكم سلبَ من قاتلَكُم، ومنعتُكُم النِّساءَ والذُّرية، لأنَّ النِّساءَ لم يُقاتلن، والذُّرية وُلِدوا على فطرةِ الإسلام، فمنعتُكُم الذُّرية والنِّساء لأجلِ ذلك، وقد رأيتُ رسولَ

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص496 - 497.
(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (122)، ص178.

الله صلى الله عليه وآله منَّ على أهلِ مكة يوم فتحها، فلم يسبِ نساءَهُم ولا ذُرِّيتَهُم، وإذا كان النبيُّ منَّ على المشركين، فلا تعجبوا مِنِّي إذا مَنَنتُ على المسلمين، فلم أسبِ نساءَهُم ولا ذُرِّيتَهُم.

فقالوا: فإنا نقمنا عليك غيرَ هذا، نقمنا عليكَ يوم صفين في وقتِ الكتاب الذي كتبتَهُ بينَكَ وبين معاوية، أنَّكَ قُلتَ لكاتِبك: اكتُب «هذا ما تقاضى عليهِ أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان»، فأبى معاوية أن يقبلَ أنَّكَ أمير المؤمنين، فمَحوتَ اسمَكَ من الخِلافة، وقُلتَ لكاتِبك: اكتُب «هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان»، فإن لم تكُن أميرَ المؤمنين فأنتَ أميرُ الكافرين، ونحنُ مؤمنون، ولا يجب أن تكونَ أميراً علينا.

فقال علي عليه السلام: يا هؤلاء، إنَّكُم قد تكلَّمتُم، فاسمعوا الجواب، أنا كنتُ كاتِب النبيّ صلى الله عليه وآله يومَ الحُدَيبية، فقالَ لي النبيّ صلى الله عليه وآله: اكتُب «هذا ما اصطلحَ عليهِ محمدٌ رسولُ الله وأهلُ مكة». فقالَ لهُ أبو سفيان: إنِّي لو علمتُكَ يا محمَّد رسولَ الله لما قاتلتُك، ولكن اكتُب في صحيفتِكَ باسمِكَ واسمِ أبيك، فأمرني النبيُّ صلى الله عليه وآله فمحَوتُ الرِّسالة من الكتاب وكتبتُ «هذا ما اصطلحَ عليهِ محَمَّدُ بنُ عبدالله وأهلُ مكة»، وإنَّما محوتُ اسمي من الخِلافة، كما محا النبيُّ اسمَهُ من الرِّسالة، فكانت لي بِهِ أُسوة.

قالوا: فإنا نقَمنا عليكَ غيرَ هذا، إنَّكَ قُلت للحكمين: أُنظُرا إلى كتابِ الله، فإن كنتُ أفضلَ من معاوية، فأثبتاني في الخِلافة، وإن كان معاوية أفضلَ مني فأثبتاهُ في الخِلافة، فإن كُنتَ شاكَّاً في نفسِكَ أنَّ معاويةَ أفضلُ منك، فنحنُ فيكَ أعظمُ شكَّاً.

فقال لهم علي عليه السلام: إنما أردتُ بذلك النَّصفة لمعاوية، لأنِّي لو قلتُ للحكمين: احكُما لي وذرا معاوية لا يرضى بذلك، ولو كانَ النبيُّ صلى الله عليه وآله قال للنَّصارى لما قدِمُوا عليه من نجران: تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم، كانوا لا يرضون بذلك، ولكنه أنصفَهُم فقال: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1] فأنصفَهُم من نفسِهِ، وكذلك أنصفتُ أنا معاوية، ولم أعلم بما أرادَ عمرو بن العاص من خديعتِهِ لصاحبي.

قالوا: فإنا نقَمنا عليكَ غيرَ هذا، إنك حكَّمتَ حَكَماً في حقٍّ هو لك.

فقال عليه السلام: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حكَّمَ سعد بن معاذ في بني قريظة، ولو شاءَ لم يفعل، فحَكَمَ فيهم سعد بقتلِ النِّساء والرِّجال، وسبي الذُّرية والأموال، وإنما أقمتُ حَكَماً كما أقامَ النبيُّ صلى الله عليه وآله لنفسِهِ حكَماً، فهل عندكم شيءٌ غير هذا تحتجُّون بِهِ عليَّ؟

(1) سورة آل عمران، الآية: 61.

فسكتَ القومُ، وجعل بعضُهُم يقولُ لبعض: صدَقَ فيما قال، ولقد دحضَ جميع ما احتججنا عليه، ثم صاحَ القومُ من كلِّ ناحية وقالوا: التوبةَ التوبةَ يا أميرَ المؤمنين[1].

حرب النهروان (38هـ)

وفي نهج البلاغة أنَّ الإمام علي عليه السلام قال لهم: «... ألم تقولوا عند رفعِهِمُ المصاحف حيلةً وغيلةً ومكراً وخديعةً: إخوانُنا وأهلُ دعوتِنا، استقالوا واستراحوا إلى كتابِ اللهِ سبحانه، فالرأيُ القبولُ منهم والتنفيسُ عنهم؟

فقلتُ لكم: هذا أمرٌ ظاهِرُهُ إيمان، وباطِنُهُ عدوان، وأولُهُ رحمة، وآخرُهُ ندامة، فأقيموا على شأنِكُم، والزموا طريقتَكم، وعُضُّوا على الجهادِ بنواجذِكم، ولا تلتفتوا إلى ناعقٍ نعَق، إن أُجيب أضَلَّ، وإن تُرِكَ ذَلَّ؟

وقد كانت هذه الفعلةُ، وقد رأيتُكم أعطيتُمُوها. واللهِ لئن أبيتُها ما وجبت عليَّ فريضَتُها، ولا حمَّلني اللهُ ذنبَها. وواللهِ إن جئتُها إنِّي للمُحِقُّ الذي يُتَّبَع، وإنَّ الكتابَ لمعي، ما فارقتُهُ مُذ صحِبتُهُ. فلقد كنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وإن القتلَ ليدورُ على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزدادُ على كلِّ مصيبةٍ وشدَّةٍ إلا إيماناً، ومُضيّاً على الحقِّ، وتسليماً للأمر، وصبراً على مضَضِ الجِرَاح. ولكنَّا إنَّما أصبحنا نقاتِلُ إخواننا في الإسلامِ على ما دخلَ فيهِ من الزَّيغِ والاعوجاج، والشُّبهةِ والتأويل، فإذا طمِعنا في خصلةٍ يلُمُّ اللهُ بها شعثَنا، ونتدانى بها إلى البقيَّةِ فيما بينَنا، رغِبنا فيها، وأمسكنا عمَّا سِواها»[2].

لقد حذر الإمام علي عليه السلام الخوارجَ من خطورة التكفير قائلاً لهم: «**وإن أبيتُم إلا أن تزعموا إنِّي أخطأتُ وضللتُ، فلم تُضلِّلون عامةَ أمةِ محمَّد** صلى الله عليه وآله بضلالي، وتأخُذُونَهم بخطئي، وتُكفِّرونَهم بذنوبي؟! سيوفُكُم على عواتِقِكم تضعونَها مواضِعَ البُرءِ والسُّقم، وتخلِطونَ من أذنبَ بمن لم يُذنب؟ وقد علمتُم أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله رجمَ الزَّاني المُحصَن ثم صلى عليهِ ثم ورثَهُ أهلَهُ، وقتلَ القاتِل وورثَ ميراثَهُ أهلَهُ... .فأخذَهُم رسولُ اللهِ بذنوبِهم، وأقامَ حقَّ اللهِ فيهم، ولم يمنعهُم سهمَهُم من الإسلام، ولم يُخرِج أسماءَهم من بين أهلِهِ....

وحذَّرهم عليه السلام من المصير الذي سيُلاقونَهُ إن هم أصرُّوا على حربِهِ، فقال لهم: «أنا نذيرٌ لكم أن تُصبِحوا صرعى بأثناءِ هذا النَّهر، وبأهضامِ هذا الغائط، على غير بيِّنةٍ من

---

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص497 - 499.

(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (122)، ص178.

ربِّكُم، ولا سُلطانٍ مُبينٍ معكُم: قد طوَّحَت بكُم الدَّار، واحتبلَكُم المقدار، وقد كنتُ نهيتُكُم عن هذهِ الحُكُومة، فأبيتُم عليَّ إباءَ المنابذين، حتى صرفتُ رأيي إلى هواكُم، وأنتُم معاشرُ أخِفَّاءُ الهام، سُفهَاءُ الأحلام، ولم آتِ - لا أبا لكم - بُجراً، ولا أردتُ لكم ضُرَّاً»[1].

فاستأمن إليه منهم ثمانية آلاف، وبقيَ على حربه أربعة آلاف. وأقبل الإمام علي عليه السلام إلى هؤلاء المستأمنين فقال: اعتزلوا عني في وقتِكُم هذا، وذروني والقوم[2].

فاعتزلَهُ هؤلاء، وعزمَ عليه السلام على حرب من بقي من الخوارج.

وقيلَ للإمام علي عليه السلام: إنَّ القومَ عبروا جسر النَّهروان.

فقال عليه السلام: مصارِعُهُم دونَ النُّطفة (= ماء النهر)، واللهِ لا يفلِتُ منهم عشرة، ولا يهلكُ منكم عشرة[3].

ووقعت الحرب، وكانت نتيجة المعركة لمصلحة الإمام علي عليه السلام، وخسائِرُها - كما أخبر عليه السلام تماماً - أقل من عشرة ناجين من الخوارج، وأقل من عشرة قتلى من جيش علي عليه السلام[4]!

لقد كانت حربُ الإمام علي عليه السلام في النَّهروان طاحنة، قتل فيها رجال الفساد والضَّلال واستأصل شأفتهم. لكن لم يكن الخوارج كلهم موجودين فيها، بل كانوا متفرِّقين في البصرة، ونقاط مختلفة من العراق، فقاموا بعد ذلك بانتفاضات ضدّ الإمام علي عليه السلام وعُمَّاله، لذا لما قيلَ للإمام علي عليه السلام بعدَ النَّهروان مباشرة: يا أميرَ المؤمنين، هلكَ القومُ بأجمعِهِم.

قال عليه السلام: كلا والله! إنهم نطفٌ في أصلابِ الرِّجال، وقرارات النِّساء، كلما نجمَ منهم قرنٌ قُطع، حتى يكونَ آخرهُم لصوصاً سلابين[5].

وبالفعل، استمرَّت ظاهرة الخوارج طويلاً، حتى بعد شهادة الإمام علي عليه السلام. التفُّوا

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (36)، ص80.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص497 - 499.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (59)، ص93.

(4) روى الحاكم عن مالك بن الحارث يقول: شهدتُ علياً يوم النهروان، طلب المخدَّج فلم يقدر عليه، فجعل جبينه يعرق وأخذه الكرب، ثم إنه قدر عليه، فخرَّ ساجداً فقال: والله ما كذَبتُ ولا كُذِبت. أنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج2، كتاب قتال أهل البغي، ح2658، ص192.

(5) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (60)، ص93.

في البدء حول الإمام الحسن عليه السلام، لكن عندما سرَت إشاعة أنَّ الإمام الحسن عليه السلام يريد أن يعقدَ صُلحاً مع معاوية، شعرَ الخوارج بالانكشاف وأنَّ هذا الصُّلح سيشكِّلُ خطراً داهِماً على كيانِهِم ووجودِهم. لأجلِ ذلك حاولوا قتل الإمام الحسن عليه السلام كما قتلوا أباه عليه السلام، ووضعوا سيوفَهُم على عواتقهم لمحاربة النِّظام الجديد المتمثِّل بمعاوية، كما حاربوا النظام القديم المتمثِّل بعليّ عليه السلام. فالخوارج كانوا ينظرون إلى الإمام علي عليه السلام ومعاوية بمنظارٍ واحدٍ بعد قضية التَّحكيم، وإن كان الإمام علي عليه السلام في نظرهم إماماً عادلاً قبلَ التَّحكيم.

بل ستلقي ظاهرة الخوارج بظلالها على واقعة كربلاء أيضاً. والمفاجأة الحقيقية هي أنَّ بعض الشَّخصيات المعروفة التي حاربت مع الإمام علي عليه السلام في صفين، وأبلت فيها بلاءً حسناً، صارت خوارج متذبذبين، يعيشون فوضى دينية وفكرية وأخلاقية... هؤلاء الخوارج سيتحوَّلون بعد ذلك إلى قادة ميدانيين في صفِّ عبيد الله بن زياد، لقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته. ومن أبرز تلك الأسماء: شبث بن ربعي، وشمر بن ذي الجوشن. فانظر وتأمَّل مع أيِّ زمرة يقاتل الإنسان، ثم مع أيِّ زمرة ينتهي به المطاف... ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]!!

على أيِّ حال، بعد النَّهروان، أوصى الإمام علي عليه السلام بعدم الانشغال بالخوارج، لأنَّ ثمَّة تحديات أخطر، وقد خطبَ عليه السلام في ذلك خطبة أكَّد فيها على أنَّ قريشاً ستندم لأنَّها لم تقف معه لمواجهة فتنة بني أمية، وقال:

«أما بعدَ حمدِ اللهِ والثناءِ عليه، أيُّها الناس، **فإني فقأتُ (= قلعت) عينَ الفِتنةِ، ولم يكُن ليجترئَ عليها أحدٌ غيري** بعد أن ماجَ (= امتد) غيهَبُها (= ظلمتها)، واشتدَّ كَلَبُها (= شرّها وأذاها، والكلَب مرض يصيب الكلاب، فكل من عضته أصيب به فجن ومات إن لم يبادر للدواء). فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيدِهِ لا تسألوني عن شيءٍ فيما بينَكُم وبينَ السَّاعة، ولا عن فئةٍ تهدي مئة وتُضِلُّ مئة إلا أنبأتُكم بناعِقِها (= الداعي إليها) وقائدِها وسائِقِها، ومُناخِ رِكابِها، ومحطِّ رِحالِها، ومن يُقتل من أهلِها قتلاً، ومن يموتُ منهم موتاً.... إنَّ الفتنَ إذا أقبلَت شبَّهت (= اشتبه فيها الحق بالباطل)، وإذا أدبرَت نبَّهت، يُنكَرنَ مُقبلات، ويُعرفنَ مُدبرات... ألا وإنَّ أخوفَ الفتنِ عندي عليكم فتنةُ بني أمية، فإنها فتنةٌ عمياءُ مظلمة، عمَّت خُطَّتُها (= أمرها)، وخصَّت بليَّتُها، وأصابَ البلاءُ من أبصرَ فيها، وأخطأ البلاءُ من عميَ عنها. وأيمُ الله لتجدُنَّ بني أمية لكم أربابَ

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 24.

سوءٍ بعدي، كالنابِ الضَّروس (= الناقة المسنة السيئة الخلق بعض حالبها)... .تَرِدُ عليكم فتنتُهُم شوهاءَ مخشيَّة (= قبيحة المنظر مرعبة)، وقِطَعاً جاهليَّة، ليس فيها منارُ هدى، ولا علمٌ يُرى. نحنُ أهلَ البيتِ منها بمنجاة، ولسنا فيها بدُعاة، ثم يُفرجها الله عنكم كتفريجِ الأديم (= كسلخ الجلد) بمن يسومُهُم خسفاً (= يوليهم ذلاً) ويسوقُهُم عنفاً... **فعندَ ذلك تودُّ قريشٌ - بالدُّنيا وما فيها - لو يرونني مُقاماً واحداً، ولو قدرَ جزرِ جزور (= ناقة مجزورة)، لأقبلَ منهُم ما أطلبُ اليومَ بعضَهُ فلا يُعطونيه!»**[1].

وحتى بعد ضربة عبد الرَّحمن بن ملجم الخارجي، كان عليه السلام يقول: لا تُقاتِلوا الخوارجَ بعدي، فليسَ من طلبَ الحقَّ فأخطأَهُ (= الخوارج)، كمن طلبَ الباطلَ فأصابَهُ (= معاوية وأصحابه)[2]. بمعنى أنَّ انحراف الخوارج عن الحقِّ لم يكن شيئاً مُدبَّراً من ذي قبل، وإنما سذاجة القوم وجهلهم جرَّهم إلى هذا المستنقع، فكانوا يطلبون الحقَّ في أول الأمر، لكن أخطأوا في طلبهِ عندما دخلوا في حبائل الشَّيطان والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء، بخلاف معاوية وأصحابه، فإنَّهُم كانوا يطلبون الباطل ويركبون الغي عن تقصيرٍ وعلمٍ وتعمُّد.

في هذه الأثناء، وبعد أن تجاوز الإمام علي عليه السلام عقبةَ الخوارج، معيداً بعضَهم - من خلال الحوار العقلاني المباشر - إلى جادَّة الصواب، ومحارِباً بعضهم الآخر بوصفِهم ظاهرة اجتماعية خطرة، كان معاوية - بناء على نتيجة التَّحكيم - يتعاطى مع العالَم الإسلامي على أنَّه الخليفة الشَّرعي. وعلى هذا الأساس بدأ بشنِّ سلسلة من الغارات على العواصم والمناطق المهمَّة بهدف بسط السَّيطرة وانتزاع البيعة من الناس، ولو كرهاً.

في الفصل المقبل سوف نتناول تلك الغارات بالشَّرح والتَّوضيح.

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (93)، ص137 - 138.
(2) المصدر السابق، (61)، ص94.

(20)

غارات معاوية

تحدَّثنا في الفصل الماضي عن معركة النَّهروان، واضطرار الإمام علي عليه السلام للانعطاف إلى الجبهة الداخلية لمعالجة معضلة الخوارج.

انشغال الإمام علي عليه السلام في علاج معضلة الخوارج، فسحَ في المجال لمعاوية، لكي يقوم بشنِّ سلسلة من الغارات الدَّموية الخطيرة، استهدف منها بسط سيطرته على العالَم الإسلامي، إما من خلال إيقاع الفوضى والاضطراب، وإما لانتزاع البيعة لنفسِهِ من الناس ولو بالقوَّة.

نريد في هذا الفصل أن نستعرض تلك الخطوات والغارات التي قام بها معاوية، والتي وقعت بعد ظهور نتيجة التَّحكيم وقبل شهادة الإمام علي عليه السلام، واستمرَّت سنتين تقريباً من (38 هج)[1] إلى (40 هج)[2]، وسترون أنَّ زمام المبادرة صار بيد معاوية، وتحوَّل الموقف، فبدَل أن يكون معاوية في موقع الدِّفاع والإمام علي عليه السلام في موقع الهجوم، صار الأمرُ بالعكس، معاوية وأهلُ الشَّام يهاجمون، والإمام علي عليه السلام وأهل العراق يدافعون. وسنُقسِّم هذه المرحلة من حياةِ الإمام علي عليه السلام إلى ملفات: ملف مصر، ملف العراق، ملف الحجاز، ثم نعود مرة أخرى إلى ملف العراق، لنصل في نهاية المطاف إلى ملف اليمن.

أولاً: ملف مصر

ملف مصر من الملفَّات المُرَّة والمؤلمة جدّاً للإمام علي عليه السلام، فبادئ ذي بدء، وبعد بيعتهِ عليه السلام في المدينة، وقبل أن يخرُج إلى العراق بعثَ إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة[3].

---

(1) زعم الواقدي والطبري أنَّ اجتماع الحكمين كان في شعبان 38هج. أنظر مثلاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص52.

(2) وشهادة الإمام علي عليه السلام كانت في رمضان 40هج.

(3) أشرنا أنَّ قيساً كان له موقف في السَّقيفة مع عمر بن الخطاب، دافع عن أبيه، وستكون له مواقف في مصر وصفين، وسيكون له دور أيضاً في خلافة الحسن عليه السلام القصيرة. في تولية قيس مصر، راجع:=

حاول قيس مهادنة أهل خربتا[1]، ذوي الميول العُثمانية، الذين رفضوا مبايعة الإمام علي عليه السلام حتى يتم القصاص من قتلة عثمان. وحاول معاوية من جهته - بعد خروج الإمام علي عليه السلام إلى العراق - استمالة قيس، خوفاً من أن يُطوِّقه قيس من المغرب (مصر)، والإمام علي عليه السلام من المشرق (العراق)، لكن دون جدوى[2]. فأشاع أنَّ قيساً من أصحابِهِ وشيعتِهِ بدليل التعامل الرَّفيق الذي يتعامل به مع أهل خربتا.

وبلغَ ذلك علياً عليه السلام. يقول بعض المؤرِّخين إنَّهُ عليه السلام ارتابَ في موقف قيس، فأمرَهُ أن يحسِم أمر أهل خربتا، إلا أنَّ قيساً لم ير المصلحةَ في ذلك، فأصرَّ عليه السلام، فطلبَ قيس من الإمام علي عليه السلام أن يعفيه من منصبِهِ إن كان مُرتاباً في أمرِهِ، فعزَلَهُ، فخرجَ قيس من مصر إلى المدينة، وبقيَ بها، حتى انتهى الإمام علي عليه السلام من معركة الجمل، فذهبَ هو وسهل بن حُنيف (والي عليّ عليه السلام على المدينة) والتحقا معاً بعليّ عليه السلام في صفين[3].

بعثَ الإمام علي عليه السلام محمد بن أبي بكر إلى مصر، والياً عليها من طرفِهِ[4]. عندما وصلَ محمد إلى مصر، بعثَ إلى أهل خربتا رسولاً، فقتلَ أهلُها الرَّسول، ثم خرجت الأمور في مصر عن سيطرة محمد بن أبي بكر.

كان الإمام علي عليه السلام يريدُ تولية هاشم بن عُتبة المِرقال على مصر[5]، لكن هاشماً استُشهِد في صفين، فاضطرَّ عليه السلام لإرسال رسالة إلى مالكِ الأشتر على عجَل، يُخبِرهُ بحال مصر، وأنَّ محمداً شابٌ لا خبرةَ له في الأمور، وأنَّ مصر بحاجة لحزم ومعالجة وضعها بحكمة وخبرة وروِيَّة، فاستجاب مالِك لذلك، وأرسلَ عليه السلام عهداً لمالك في كيفية إدارة الأمور، وهذا العهد صار من الوثائق الخالدة في التَّاريخ[6].

عرف معاوية بأنَّ مالكاً في الطريق إلى مصر، فطلب من الجايستار (أو الدِّهقان) - وهو

= ابن هلال الثقفي، الغارات، تحقيق عبد الزهراء الخطيب، دار الأضواء، ط1، 1407هج - 1987م، بيروت، ص127.

(1) تقع قرية خربتا بمركز كوم حمادة في محافظة البحيرة. هذه المحافظة تقع في شمال غربي القاهرة، ويمر فيها طريق القاهرة - الاسكندرية الزراعي والصحراوي.

(2) بشأن الرسائل المتبادلة بين معاوية وقيس، راجع: ابن هلال الثقفي، الغارات، ص131 - 134.

(3) راجع: ابن هلال الثقفي، الغارات، ص134 - 139.

(4) أنظر كتابه عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر في **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (27)، ص383.

(5) انظر كلامه عليه السلام في **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (68)، ص98.

(6) أنظر **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (53)، ص426. أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص71.

في طريق مصر - أن يكفيهِ أمرَ مالك، فدسَّ الجايستار السُّمَّ بالعسَل وقدَّمهُ لمالِك، الذي شرِبَهُ، فماتَ رحمهُ الله مسموماً[1]. وبقدر ما أثارَ موت مالك الأشتر الفرحَ والسُّرور في الشَّام، أثارَ الحُزن والأسى في قلب الإمام علي عليه السلام [2]. وقام معاوية في الشَّام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمنيان، قُطِعَت إحداهُما يوم صفين، يعني عمَّار بن ياسر، وقُطِعَت الأخرى اليوم، يعني الأشتر[3].

عندما استشهد مالك الأشتر، كان محمد بن أبي بكر ما زالَ في مصر[4]، فأرسلَ معاوية عمرو بن العاص لملاحقتهِ في جيشٍ جرَّار، وتخلَّى أصحابُ محمد عنه، فاستفرد به جيش عمرو بن العاص، وبالتحديد معاوية بن حُديج الكندي، وكان محمد عطشاناً فطلبَ الماء، فرفض ابن حُديج تزويده بقطرةِ ماء بذريعةِ أنَّ عثمان ماتَ عطشاناً وأنَّ محمداً من المتورِّطين في قتل عثمان. حاول عبد الرَّحمن بن أبي بكر أن يستنقذ أخاهُ محمداً لكنه لم يُفلِح[5]، بسبب إصرار ابن حُديج على قتلهِ، وكانت النَّتيجة أن استشهد، وبعد أن نالَ الشَّهادة، أدخل ابن حديج جسَدَه الشَّريف في جوفِ حمارٍ ميِّت، وأُحرِقَ بالنَّار[6]!

---

(1) راجع: ابن هلال الثقفي، الغارات، ص167 - 168.

(2) كان عليه السلام يقول عندما جاءه نعي الأشتر: مالك، وما مالك! واللهِ لو كانَ جبلاً لكان فنداً (= المنفرد من الجبال)، ولو كان حجراً لكان صلداً، لا يرتقيه الحافر، ولا يُوفي عليه الطائر. **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (443)، ص554.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص71 - 72.

(4) أنظر الرسالة التي كتبها الإمام علي عليه السلام لمحمد يُحدِّثه فيها عن مبرِّرات عزله واستبداله بالأشتر، يقول فيها: «أما بعد، فقد بلغني موجِدتكَ من تسريحِ الأشتر إلى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد، ولا ازدياداً لك في الجد، ولو نزعتُ ما تحتَ يدكَ من سلطانك، لوليتُكَ ما هو أيسرُ عليك مؤونة، وأعجبُ إليك ولاية. إنَّ الرَّجُل الذي كنتُ وليته أمر مصر، كان رجُلاً لنا ناصحاً، وعلى عدوِّنا شديداً ناقِماً، فرحمه الله، فلقد استكمل أيامه، ولاقى حِمامَهُ، ونحن عنه راضون....»، تحقيق صبحي الصالح، (34)، ص407. وعندما استشهد محمد بن أبي بكر أقيمت الاحتفالات في الشَّام فرحاً وسروراً، وكان الإمام علي عليه السلام يقول: إن حُزننا عليه على قدرِ سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضاً، ونقصنا حبيباً، **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (325)، ص532.

(5) وهذا ربما من الشواهد على انكسار قريش وبروز قوة بني أمية، وإلا لكان لوساطة عبد الرحمن تأثير في استنقاذ محمد.

(6) ابن هلال الثقفي، الغارات، ص179 - 187، أيضاً الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص78 - 79. كتب الطبري: فلما بلغ ذلك عائشة جزعت جزعاً شديداً، وقنتت عليه في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو، ثم قبضت عيال محمد إليها، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها. أقول: رغم أنَّ عائشة لم تكن مؤيدة لتوجُّهات أخيها محمد بن أبي بكر الموالية لعلي عليه السلام، لكن شهادتَهُ كانت أوَّل شرخ وقع في العلاقة بين عائشة ومعاوية، وسيزداد الشَّرخُ اتساعاً ليتحوَّل إلى ما يشبه قطيعة =

وبشهادة مالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر خرجَت مصر عن سيطرة الإمام علي عليه السلام تماماً، ودخلت تحت سيطرة معاوية.

وفي ذلك كتبَ الإمام علي عليه السلام لعبد الله بن عباس يُخبِرهُ بما حدَثَ وشاكياً له أصحابَهُ: «أما بعد، فإنَّ مصر قد افتُتِحت، ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استُشهِد، فعندَ الله نحتسِبهُ ولداً ناصحاً، وعامِلاً كادحاً، وسَيفاً قاطعاً، ورُكناً دافعاً. وقد كنتُ حثثتُ الناسَ على لَحاقِهِ، وأمرتُهم بغياثِهِ قبلَ الوقعة، ودعوتُهم سِرّاً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارِهاً، ومنهم المعتلُّ كاذِباً، ومنهم القاعدُ خاذِلاً. أسألُ الله تعالى أن يجعل لي منهُم فرَجاً عاجلاً، فواللهِ لولا طمعي عند لقائي عدوِّي في الشَّهادة، وتوطيني نفسي على المنيَّة، لأحببتُ ألا ألقى مع هؤلاءِ يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً»[1].

ثانياً ملف العراق

تشيرُ بعض الأخبار إلى أنَّ أولى غارات معاوية كانت بالعراق، بعد ظهور نتيجة التَّحكيم. ووقعت غارة الضحَّاك بن قيس الفهري[2]، قبل مواجهة الإمام علي عليه السلام لخوارج النَّهروان.

وذلك أنَّ معاوية لما بلغَهُ أنَّ عليّاً عليه السلام بعدَ تحكيم الحكمين في طريقهِ إلى الشَّام، هالهُ أمره، فخرجَ من دمشق معسكِراً، ومكثَ مع أصحابهِ يجيلون الرأيَ يومين أو ثلاثة حتى قدِمَت عليهم عيونهم أنَّ عليّاً عليه السلام اختلفَ عليهِ أصحابُهُ، وفسدَ عليهِ جُندهُ وأهلُ مصرهِ، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمرَ الحكومة، وتفرَّقوا أشدَّ الفرقة، وأنه عليه السلام رجعَ عنكم إليهم، فكثُر سرور النَّاس في الشَّام بانصرافهِ عنهم، وما ألقى الله من الخلاف بينهم[3].

فعند ذلك دعا معاوية الضحَّاك بن قيس، وقال له: سِر حتى تمُر بناحية الكوفة، وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدتَهُ من الأعرابِ في طاعةِ عليٍّ عليه السلام فأغِر عليه، وإن

= عندما يضغط معاوية لتوريث السُلطة ليزيد، ويرفض عبد الرحمن بن أبي بكر - الذي كان إلى صفّ أخته عائشة في حرب الجمل - ذلك، لتدور بعد ذلك الشُبهات حول معاوية في موت عبد الرحمن.

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (35)، ص408.

(2) من أبرز رجالات معاوية، وهو الذي سيصلي عليه عند موته بانتظار قدوم يزيد الذي كان خارج الشَّام، ثم يصطدم بمروان بن الحكم بعد موت يزيد، ويلقى الموت على يديه، لتنتقل الخلافة بعد ذلك إلى مروان ونسله. بشأن غارة الضحاك، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص104.

(3) ابن هلال الثقفي، الغارات، ص288 - 290.

وجدتَ لهُ مَسلَحة[1] أو خيلاً فأغِر عليها، وإذا أصبحتَ في بلدةٍ فأمسِ في أخرى، ولا تُقيمنَّ لخيلٍ بلغكَ أنها قد سُرِّحت إليكَ لتلقاها فتقاتلها.

فسرَّحَهُ فيما بين ثلاثةِ آلاف إلى أربعة آلاف، فأقبلَ الضحَّاك، فنهبَ الأموال، وقتلَ من لقي من الأعراب، ثم أقبلَ فلقي عمرو بن عُميس الذهلي (ابن أخي الصحابي عبد الله ابن مسعود) فقتلهُ عند القُطقُطانة[2] وقتلَ معهُ ناساً من أصحابهِ.

وخرجَ الإمام علي عليه السلام يستصرخَ الناس، فخطبَ بهم قائلاً: «أيُّها الناسُ، المجتمعةُ أبدانُهُم، المختلفةُ أهواؤُهُم، كلامُكُم يُوهي الصُمَّ الصِّلابَ، وفِعلُكُم يُطمِعُ فيكُمُ الأعداءَ. تقولونَ في المجالسِ: كيتَ وكيت (= كناية عن الحديث)، فإذا جاءَ القتالُ قلتم: حِيدي حَيَادِ! (= كلمة يقولها الهارب عند الفرار)، ما عزَّت دعوةُ من دعاكُم، ولا استراحَ قلبُ من قاساكُم، أعاليلُ بأضاليلَ (= تتعلَّلون بأباطيل لا جدوى منها وبأعذار واهية)، وسألتموني التَّطويلَ (= المطل أو المماطلة)، دفاعَ ذِي الدَّينِ المَطُول (= كالمدين الذي يتأخر عن أداء دينه بلا عذر)، لا يمنعُ الضَّيمَ الذليلُ، ولا يُدرَكُ الحقُّ إلا بالجِدِّ! أيَّ دارٍ بعدَ دارِكُم تمنعون، ومع أيِّ إمامٍ بعدي تُقاتلون؟ المغرورُ واللهِ من غرَرتموه، ومن فازَ بكم فقد فازَ واللهِ بالسَّهمِ الأخيب (= من سهام الميسر الذي لا حظ له)، ومن رمى بكُم فقد رمى بأفوقَ ناصِلٍ (= السهم الذي لا فوق ولا نصل له يطيش ولا يصيب الهدف)، أصبحتُ واللهِ لا أُصدِّقُ قولَكُم، ولا أطمعُ في نصرِكم، ولا أُوعِدُ العدوَّ بكم. ما بالُكم؟ ما دواؤُكم؟ ما طبُّكم؟ القومُ رجالٌ أمثالُكم. أقَولاً بغيرِ علم؟ وغفلةً من غيرِ ورع؟ وطمعاً في غيرِ حق؟»[3].

فقامَ إليهِ حُجر بن عدي الكندي، وتكلَّمَ بما تهلَّل بهِ وجهُ علي عليه السلام، فقال له عليه السلام: لا حرمَكَ اللهُ الشَّهادة، فإني أعلمُ أنك من رجالِها[4]. وعقدَ عليه السلام لحُجر على أربعةِ آلاف، ووجَّهَهُ للقاءِ الضَّحاك، وكانت النتيجة أن فرَّ الضحاكُ هارباً، بعد أن قُتِلَ من أصحابه بضعة عشر رجُلاً[5].

وقد شرحَ الإمام علي عليه السلام ذلك في رسالةٍ جوابيةٍ لأخيه عقيل، كتبَ لهُ فيها:

---

(1) المسلحة: كل موضع مخافة، يقف فيه الجند بالسِّلاح، للمراقبة والمحافظة.

(2) «القطقطانة»: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف. ياقوت الحموي. في طريق من يريد الشَّام من الكوفة، ثم يرتحل منها إلى عين التَّمر.

(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (29)، ص72 - 73.

(4) ابن الواضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص196.

(5) راجع حول غارة الضحاك: ابن هلال الثقفي، الغارات، ص292 - 294.

«فسرَّحتُ إليهِ جيشاً كثيفاً من المسلمين، فلما بلغهُ ذلك، شمَّرَ هارباً، ونكصَ نادماً، فلحقوهُ ببعض الطريق... **فدَع عنكَ قريشاً وتركاضَهُم في الضَّلال، وتَجوالَهُم في الشِّقاق، وجِماحَهُم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حَربي، كإجماعِهِم على حربِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله قبلي، فجزَت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رَحِمي، وسلبوني سُلطانَ ابنِ أمي...**»[1].

ووجَّهَ معاويةُ النعمانَ بنَ بشير[2]، فأغارَ على مالِك بن كعب الأرحَبي، وكان عاملُ علي عليه السلام على مَسلَحة عين التَّمر[3]، فندبَ عليٌّ عليه السلام فقال: يا أهلَ الكوفة، انتدبوا إلى أخيكم مالك بن كعب، فإنَّ النعمانَ بن بشير قد نزلَ بهِ في جمعٍ ليسَ بكثير، لعلَّ الله أن يقطع من الظالمين طرَفاً. فأبطأوا ولم يخرجوا.

فصعدَ عليه السلام المنبر فتكلم كلاماً خفياً لا يُسمع، فظنَّ الناسُ أنهُ يدعو الله، ثم رفعَ صوتهُ فقال: أما بعدُ يا أهل الكوفة، أكُلَّما أقبلَ مَنسَر[4] من مناسِرِ الشَّام، أغلقَ كلُّ امرئٍ بابَهُ، وانجَحَرَ في بيتهِ انجحارَ الضَّب والضَّبُع الذليل في وجارِهِ؟! أُفٍ لكم. لقد لقيتُ منكُم، يوماً أُناجيكم، ويوماً أُناديكم... «مُنيتُ بمن لا يُطيع إذا أمرتُ، ولا يُجيبُ إذا دعوتُ، لا أبالكُم! ما تنتظرونَ بنصرِكُم ربَّكُم؟ أما دينٌ يجمَعُكُم؟ ولا حميةَ تُحمِشُكُم؟ أقومُ فيكم مُستصرخاً، وأُناديكم متغوِّثاً، فلا تسمعونَ لي قولاً، ولا تُطيعونَ لي أمراً...»[5].

فلما دخلَ عليه السلام بيتَهُ، قامَ عَدي بن حاتم فقال للناس: هذا واللهِ الخُذلان القبيح!

ثمَّ دخلَ عَدي إليهِ فقال: يا أميرَ المؤمنين، معي ألفَ رجُلٍ من طي لا يعصُونني، وإن شئتَ أن أسيرَ بهم سِرت؟

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (36)، ص409.

(2) بشأن غارة النعمان بن بشير، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص102.

(3) «عين التمر»: هي بلدة تقع في محافظة كربلاء في العراق وتبعد مسافة 40 كم غربي مدينة كربلاء. قال عنها ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان: «بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضع يقال له «شفاثا»، منهما يُجلَب القسب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جداً، وهي على طرف البريَّة، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة 12 للهجرة». توجد في عين التمر عيون الماء النَّقية الصالحة للشُّرب، وبها أنواع نادرة من الأسماك الصغيرة والملونة. ينابيع المياه ما زالت تتدفق من باطن الأرض منذ آلاف السنين. وتعتبر منطقة عين التمر إحدى أهم وأجمل الواحات الصَّحراوية وفيها أنواع مختلفة من بساتين التمور. سكن هذه المنطقة بنو أسد الذين دفنوا الحسين عليه السلام، ويقال إنَّ منها حبيب بن مظاهر الأسدي والشاعر الكميت الأسدي.

(4) المِنسر: ما ينسر به الطائر الجارح الأشياء، وهو كالمنقار لغير الجارح، أيضاً الجماعة من الخيل. والمَنسر: جماعة اللصوص.

(5) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (39)، ص81 - 82.

فقال عليٌّ عليه السلام: جزاكَ اللهُ خيراً. . . فخرجَ عَدي إلى النُّخيلة، وأغارَ على أدنى الشام[1].

ثالثاً ملف الحجاز

وبعثَ معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري في جريدةِ خيل[2]، وأمرَهُ أن يقصدَ المدينة ومكَّة، فسارَ في ألف وسبعمائة، فلما أتى عليّاً عليه السلام الخبرُ، وجَّه المُسَيَّب بن نجبة الفزاري (الذي سينال الشَّهادة بعد واقعة كربلاء مع التوَّابين)، فقالَ له: يا مُسيَّب، إنك ممن أثِقُ بصلاحهِ وبأسِهِ ونصيحتِهِ، فتوجَّه إلى هؤلاءِ القوم وأثِر فيهم، وإن كانوا قومَكَ (لأنَّ عبد الله بن مسعدة والمسيب كلاهما فزاريان، لاحظ أنَّ عليّاً عليه السلام يريد من ذلك ما أرادَهُ في صفين، أعني أن تبقى المسألة داخل القبيلة الواحدة، بحيث لا تُفتح ملفات وثارات جديدة بين القبائل).

فقالَ لهُ المُسيَّب: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ من سعادتي أن كنتُ من ثقاتِك.

فخرجَ المُسيَّب في ألفي رجل، فلقوا عبد الله بن مسعدة، وجرى قتالٌ بينهما إلى أن انهزمَ ابن مسعدة، فتحصَّن بتيماء، وأحاطَ المُسيَّب بالحِصن، فناداهُ: يا مُسيَّب، إنما نحنُ قومُك، فليمُسُّكَ الرَّحم، فخلى لابنِ مسعدة وأصحابَهُ الطريق ونجا من الحِصن. فلما جنَّهم الليل، خرجوا حتى لحقوا بالشام، وصبَّحَ المُسيَّب الحصن، فلم يجد أحداً، فقالَ لهُ أصحابُهُ: داهنتَ واللهِ يا مُسيَّب في أمرِهم، وغششتَ أميرَ المؤمنين، وقدَمَ على عليٍّ عليه السلام، فقالَ له عليه السلام: يا مُسيَّب كُنتَ من نُصَّاحي، ثم فعلتَ ما فعلت[3]!

ودعا معاوية برجُلٍ من ساداتِ أهل الشَّام، يقال له يزيد بن شجرة الرَّهاوي[4]، فقال: يا يزيد إني أريدُ أن أوجِّه بكَ إلى مكة لتُقيمَ للناسِ الحجَّ بها، وتنفي عامل علي بن أبي طالب عليه السلام، وتأخُذُ لي هنالكَ البيعة بالسَّمعِ والطاعة والبراءةِ من علي عليه السلام.

وضمَّ معاوية إليه ثلاثة آلاف فارس. اقتربَ يزيد بن شجرة مع أصحابهِ من مكَّة،

---

(1) ابن الواضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص195. حول غارة النعمان بن بشير راجع: ابن هلال الثقفي، الغارات، ص307 - 317.

(2) أي خيل لا رجالة فيها. بشأن غارة عبد الله بن مسعدة الفزاري، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص103 - 104.

(3) ابن الواضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص196 - 197.

(4) بشأن توجه يزيد بن شجرة الرهاوي إلى مكة، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص104 - 105.

وكان قُثم بن العباس عليها من قبل الإمام علي عليه السلام. وأرسل الإمام علي عليه السلام رسالة لقُثم يقول له فيها: «أما بعد، فإنَّ عيني - بالمغرب - كتبَ إليَّ يُعلِمُني أنه وُجِّهَ إلى الموسم أناسٌ من أهل الشَّام العُمي القلوب، الصُّم الأسماع، الكُمهِ الأبصار، الذين يلبسونَ الحقَّ بالباطل، ويُطيعون المخلوقَ في معصيةِ الخالق... فأقِم على ما في يديكَ قيامَ الحازمِ الصَّليب، والناصحِ اللَّبيب، التابعِ لسُلطانهِ، المطيعِ لإمامهِ. وإياكَ وما يُعتذرُ منه، ولا تكن عند النعماءِ بطِراً، ولا عند البأساءِ فشِلاً، والسَّلام»[1].

لكن أصحاب قُثم أخبروه بمجيئ يزيد بن شجرة، وجسَّ نبضَهم فرأى أنَّ أهل مكَّة لن يقفوا معه (لأنَّ هواهم قرشي أموي لا علوي)، فقرَّر قُثم الخروج من مكَّة بانتظار المَدد من الإمام علي عليه السلام.

فبلغَ ذلك عليّاً عليه السلام فقامَ عليه السلام في أصحابهِ يستنهِضُهُم، فأرسلَ إليهِ بمَعقِل بن قيس، وانتدَبَ له ألف وسبعمائة رجُل من فُرسان العرب، فخرجَ القومُ من الكوفة في أوَّل يوم من ذي الحجة، لكن عندما وصلوا بنحوٍ سريع قرب مكَّة، كان موسم الحج قد انتهى بسلام بعدما طلب يزيد بن شجرة من قُثم بن العباس اعتزالَ الصلاة والتراضي بشخصٍ محايد.

رابعاً ملف العراق مرة أخرى

بعد إطلاق سراح الأسرى كان يُعتقد أنَّ معاوية لن يغير بعد ذلك. لكن بعد شهر تقريباً، وجَّه معاوية من جديد برجُلٍ من أصحاب الشَّام، يُقالُ له سُفيان بن عوف الغامدي[2]، في خيلٍ عظيمة، وأمرَهُ بالمسير والغارة على أداني العراق، ومن ثمَّ قتل من يقدِر عليه من شيعةِ علي عليه السلام.

فسارت خيلُ الشَّام حتى انتهت إلى هَيت[3]، وكانَ عامِلُ علي عليه السلام عليها كُميل بن زياد النَّخَعي، فلما بلغَهُ أنَّ خيلَ الشَّام قد تقاربت من هَيت، خلَّفَ عليها رجُلاً من أصحابهِ في خمسينَ فارساً، وسارَ يريدُ خيلَ أهل الشَّام.

وكانت خطوة كميل خطأً عسكرياً فادحاً، لأنَّ سفيان الغامدي بعد أن أغارَ على

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (33)، ص406 - 407.

(2) بشأن غارة سفيان بن عوف الغامدي، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص103، أيضاً ابن هلال الثقفي، الغارات، ص320 - 325.

(3) مدينة عراقية تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي بمسافة 70 كم، وتبعد عن بغداد مسافة 190 كم. تعد من أهم مدن التاريخ الإنساني القديم، كانت من مدن المناذرة، تكثر في مدينة هيت بساتين النخيل والفاكهة وهي ذات خيرات واسعة.

أطراف هَيت، ولم يتبعهُ أحد، أغارَ على الأنبار، وقتلَ بها جماعة من أصحابِ علي عليه السلام، منهم رجلٌ يقالُ له حسَّان البكري، وأخذ من الأنبار ما أخذ، وولَّى منصرفاً إلى الشَّام.

وبلغَ ذلك علياً عليه السلام، فهمَّ أن يسيرَ إليهِ بنفسهِ، وبالفعل سار ماشياً حتى أتى النُّخيلة، فأدركَهُ الناس، وقالوا: يا أميرَ المؤمنين نحنُ نكفيكَهم.

فقال عليه السلام: ما تكفونني أنفسَكُم، فكيفَ تكفونني غيرَكم؟ إن كانتِ الرَّعايا قبلي لتشكو حيفَ رُعاتِها، وإنَّني اليومَ لأشكو حيفَ رَعِيَّتي، كأنني المقُودُ وهمُ القادة، أو الموزوعُ وهم الوَزَعةُ[1]...[2].

ثم قامَ عليه السلام مُستصرخاً الناس قائلاً: «.... ألا وإني دعوتُكُم إلى قتالِ هؤلاءِ القوم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وإعلاناً، وقلتُ لكم: اغزوهُم قبل أن يغزوكم، فواللهِ ما غُزِيَ قومٌ قط في عُقرِ دَارِهم إلا ذَلُّوا، فتواكلتُم وتخاذلتُم حتى شُنَّت عليكمُ الغارات، ومُلِكَت عليكمُ الأوطان. وهذا أخو غامد، وقد وردَت خيلُهُ الأنبارَ، وقد قتلَ حسَّان بن حسَّان البكري، وأزالَ خيلَكُم عن مسالِحِها. ولقد بلغني أنَّ الرَّجُلَ منهم كان يدخلُ على المرأةِ المُسلمة، والأخرى المُعاهَدة، فينتزِعُ حِجلها وقُلبَها وقلائدها ورُعُثَها، ما تمتنعُ منهُ إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين، ما نالَ رجُلاً منهم كَلمٌ، ولا أُريقَ لهم دمٌ. فلو أنَّ امرأً مُسلماً ماتَ من بعدِ هذا أسَفاً ما كانَ بهِ ملوماً، بل كانَ بهِ عندي جديراً. فيا عَجباً، عجباً - واللهِ - يُميتُ القلبَ، ويجلِبُ الهمَّ من اجتماعِ هؤلاءِ القومِ على باطلهم، وتفرُّقِكُم عن حقِّكُم، فقُبحاً لكم وترَحاً... ... فإذا أمرتُكُم بالسَّيرِ إليهم في أيام الحر قُلتم: هذهِ حَمارَّةُ القيظ، أمهِلنا يُسَبَّخْ عنا الحر، وإذا أمرتُكُم بالسَّيرِ إليهم في الشتاء قلتم: هذه صَبارَّةُ القُر، أمهِلنا ينسَلِخ عنا البرد، كلُّ هذا فراراً من الحَرِّ والقُرِّ، فإذا كنتم من الحرِّ والقُرِّ تفِرُّونَ، فأنتم واللهِ من السَّيفِ أفَرُّ!

يا أشباهَ الرِّجالِ ولا رِجال، حلومُ الأطفال، وعقولُ ربَّاتِ الحِجال (= النِّساء)، لوددتُ أني لم أرَكُم، ولم أعرِفكُم[3]، معرفةً واللهِ جرَّت ندَماً، وأعقبت سدَماً (= الهمّ مع أسف أو غيظ). قاتلكمُ الله! لقد ملأتُم قلبي قيحاً وشحنتُم صدري غيظاً، وجرَّعتموني

(1) الوزعة يعني الحاكم.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (261)، ص520.

(3) وكأنه يقول: ما الذي جاء بي إلى العراق، فالشَّخصية الكوفية آنذاك كانت تختلف عن الشخصية المدنية التي كانت تعرف علياً عليه السلام ويعرفها... وكأنَّ علياً عليه السلام كان غريباً في تلك الأجواء.

نُغَبَ (جمع نغبة أي جرعة) التَّهمامِ (= الهم) أنفاساً (= جرعة بعد جرعة)، وأفسدتُم عليَّ رأيي بالعصيانِ والخِذلان، حتى لقد قالت قريش: إنَّ ابنَ أبي طالب رجلٌ شجاعٌ ولكن لا علمَ لهُ بالحرب.

للهِ أبوهم، وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً (= ممارسة ومعاناة)، وأقدمُ فيها مَقاماً منِّي، لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العِشرين، وهاأنذا قد ذرَّفتُ (= زدت) على الستِّين، ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع»[1].

ودعا بسعيد بن قيس الهمداني، فضمَّ إليه خيلاً من فرسان الكوفة، وأمرَهُ أن يطلبَ القوم. فسارَ سعيد مع أصحابهِ يطلب سفيان الغامدي، لكن هذا الأخير كان قد غادر العراق وتجاوز منطقة صفين.

وكتبَ الإمام علي عليه السلام في ذلك إلى كُميل مُعاتباً: «... فقد صِرتَ جسراً لمن أرادَ الغارة من أعدائِكَ على أوليائِك، غيرَ شديدِ المنكِب، ولا مَهيبِ الجانِب، ولا سادٌّ ثُغرةً، ولا كاسِرٍ لعدوٍّ شوكَةً، ولا مُغنٍ عن أهل مِصرِهِ، ولا مُجزٍ عن أميرِهِ»[2].

بعد ذلك بأيام وجَّه معاوية برجُلٍ من أهل الشَّام، في خيل، ووصل الخبر لكُميل، فاستعدَّ له، والتقت خيلُ العراق مع خيلِ أهل الشَّام، واقتتلوا قتالاً شديداً، كانت الغلبة في ذلك القتال لكُميل وأصحابه. فأرسلَ إليه الإمام علي عليه السلام رسالة يشكرُهُ فيها على حُسنِ بلائهِ، ويطلبُ منه أن لا يخطو بعد هذا لحربِ عدوِّهِ خطوة إلا بعد استئذانه[3].

خامساً ملف اليمن

لما سمعَ شيعة عثمان في صنعاء اليمن بغاراتِ معاوية على الجزيرة، خالفوا عليّاً عليه السلام وأظهروا البراءةَ منه، ومنعوا زكاة أموالِهم، وكان عبيد الله بن العباس عليها من قبلِ الإمام علي عليه السلام، فأخبرَ عليّاً عليه السلام، فدعا عليه السلام بيزيد بن أنس الأرحَبي، وقال له: ألا ترى إلى صُنعِ قومِكَ باليمن ومخالفتهم عليَّ وعلى عامِلي؟

فقال يزيد: واللهِ يا أميرَ المؤمنين إنَّ ظني بقومي لحُسنُ طاعتِك، وإن شئتَ سِرتُ إليهم بنفسي، وإن شئتَ كتبتَ إليهم، ونظرتَ ما يكونُ من جوابِهم...

فقال علي عليه السلام: أكتُبْ إليهم.

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خطبة (27)، ص69 - 70.
(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (61)، ص450 - 451.
(3) ابن الأعثم، الفتوح، ج1، ص446 - 454.

فكتبَ إليهم عليه السلام، وقدمَ عليهم رسولُ علي عليه السلام، ونصحَهُم وذكَّرهُم اللهَ تعالى وحذَّرهُم من إرسال يزيد الأرحبي مع جيش. فقالوا: يا هذا إنا سمِعنا كلامكَ، فاذهب إلى عليٍّ عليه السلام فليبعث إلينا من شاء، فإنا على بيعةِ أمير المؤمنين عثمان بن عفان. ثم كتبوا إلى معاوية: «أما بعد، فالعجلَ العجل، وجِّه إلينا من قِبَلِكَ، لنُبايعك، وإلا كتبنا إلى عليٍّ فاعتذرنا إليهِ مما كانَ منا».

يقول ابن الأعثم: عندها دعا معاوية بُسر بن أبي أرطاة الفِهري[1]، وهو أحدُ فراعنة الشَّام، فعقدَ لهُ وضمَّ إليه أربعة آلاف رجُل، ثم قال له: سِر إلى اليمن سيراً عنيفاً، حتى تأخذ بيعةَ الناس، فإنهم قد خالفوا علياً عليه السلام، وانظر أن تجعل طريقكَ على مكَّة والمدينة، فلا تنزلنَّ بلداً أهلهُ في طاعةِ علي عليه السلام إلا بسط لسانكَ عليهم، حتى يظُنُّوا أنكَ محيطٌ بهم وأنه لا نجاةَ لهم منك، ثم اصفح عنهم وادعُهُم إلى البيعة، فمن أبى عليكَ فاستعمل السَّيف، واقتُل كل من نابذك حتى تدخُل أرضَ اليمن.

فخرجَ بُسر بن أبي أرطاة من دمشق يريدُ المدينة، فلما أحسَّ أبو أيوب الأنصاري (وهو من قِبلِ علي عليه السلام) بخيلِ بُسر أنها شارفت المدينة، خرجَ منها، وخرجَ أهلُ المدينة إلى بُسر يستقبلونهُ خوفاً منهُ على أنفُسِهم، فلما نظرَ إليهم صاحَ بهم ثم قال: شاهَت الوجوه... وأمرَ بدورِ قومٍ من الأنصار فحُرِّقت وهُدِّمَت، ثم دعا الناسَ إلى بيعةِ معاوية فبايعوهُ، حتى أنَّ جابرَ بنَ عبد الله الأنصاري بايعَ تقيّةً بعد أن نصحتهُ أم سلمة بذلك. وبعد أن أخذَ البيعة من أهلِ المدينة جمعَهُم ثم قال: يا أهلَ المدينة، إني قد صفحتُ عنكم، وما أنتُم لذلكَ أهل، لأنهُ ما من قوم قُتِلَ إمامُهم (= عثمان) بينَ أظهرهم فلم يدفعوا عنهُ بأهلٍ أن يُعفى عنهم... ثم استخلفَ عليهم أبا هريرة!

ثم سارَ من المدينة يريدُ مكَّة، وبها يومئذٍ قُثم بن العباس (من قبل علي عليه السَّلام)، فلما أحسَّ بخيلِ بُسر أنها شارفت مكَّة، خرجَ منها، وخرجَ إليهِ أشرافُها، فلما نظرَ إليهم انتهرَهُم وشتَمَهُم...

ونظرَ بُسر إلى غُلامين من أحسنِ الغِلمان هيئةً وجمالاً، وهما هاربان، فقال: عليَّ بِهما، فلما عرفَ أنهما ابنا عُبيد الله بن عباس، قال: اللهُ أكبر، أنتما ممن أتقرَّبُ بكُما وبسفكِ دمائِكُما إلى اللهِ تعالى، ثم أمرَ بهما فذُبحا ذَبحاً، وبلغَ ذلك أُمَّهُما فجزعَت عليهما طويلاً.

---

(1) بشأن غارة بسر بن أبي أرطاة، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص106 - 107، أيضاً ابن هلال الثقفي، الغارات، ص404 - 443.

أقول: نذكُر هذه النُّقطة، حتى نرى بعد ذلك، موقف عبيد الله بن عباس من الإمام الحسن عليه السلام، فرغم أنَّ عبيد الله تلقى طعنة من معاوية عندما قتل بُسر ابنيه، إلا أنَّهُ سيقبل بعد ذلك أن يقوم بدور الخائن للإمام الحسن عليه السلام وينضم إلى صفِّ معاوية!!.

وأقامَ بُسر بمكة أياماً، ثم قال: يا أهلَ مكة، اعلموا أني قد صفحتُ عنكم، بعد أن كانَ رأيي استئصالَكُم، فإياكُم والخلاف، فواللهِ لئن خالفتم لأقتُلنَّ الرِّجالَ منكم، ولأحوينَّ الأموال، ولأخرِبَنَّ الدِّيار، ولأفنينَّ الصِّغارَ والكِبار.

ثم سارَ يريدُ الطائف، فاستقبلهُ المغيرة بن شعبة، فلم يؤذِ أحداً من أهلِها. ثم سارَ إلى نجران، وبها يؤمئذٍ رجُلٌ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له عَبدان، فسمَّاهُ النبي صلى الله عليه وآله عبد الله، وكان من شيعةِ علي عليه السلام، فقتلهُ بُسر، وقتلَ ابناً له يُسمى مالِكاً، ثم جعلَ يتهدَّد أهل نجران ويقول: يا إخوانَ اليهود والنصارى، أما واللهِ لئن بلغني عنكُم أمرٌ أكرَههُ من ولايتكم علي بن أبي طالب، لأرجعنَّ عليكم بالخيلِ والرَّجِل، ثم لأُكثِرَنَّ فيكُم القتل، فانظروا لأنفسِكُم، فقد أعذرَ من أنذر.

ثم سارَ بُسر إلى همدان، وبها قومٌ من أرحَب من شيعةِ علي عليه السلام، فقتلهُم عن آخرِهِم. ثم سارَ إلى السّراة، وبها يومئذٍ خلقٌ من شيعةِ علي عليه السلام فقتلهم عن آخرِهِم. ثم سارَ يريدُ صنعاء، وبها يومئذٍ عبيدُ الله بن عباس (من قبل علي عليه السلام)، فخرجَ منها عبيدُ الله، فجعلَ بُسر يلتقط كل من كان بصنعاء من شيعةِ علي عليه السلام فيقتلهم حتى لم يُبقِ منهم أحداً. وكذا فعل في حضرَموت.

ولما تواترت على الإمام علي عليه السلام الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدِمَ عليه عاملاهُ على اليمن، وهما عبيدُ الله بن عباس وسعيد بن نمران لما غلبَ عليهما بُسر بن أرطاة، قام عليه السلام على المنبر ضجِراً بتثاقلِ أصحابهِ عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، فقال عليه السلام: «ما هي إلا الكوفة، أقبِضُها وأبسُطُها، إن لم تكوني إلا أنتِ، تهُبُّ أعاصِيرُكِ، فقبَّحك الله.... أُنبئت بُسراً قد اطَّلعَ اليمنَ، وإني واللهِ لأظنُّ أنَّ هؤلاءِ القومَ سُيدالونَ منكُم[1] باجتماعِهِم على باطِلِهم، وتفرُّقِكُم عن حقِّكُم، وبمعصيَتِكُم إمامَكُم في الحق، وطاعتِهِم إمامَهُم في الباطل، وبأدائِهِمُ الأمانة إلى صاحبِهِم وخيانتِكُم، وبصلاحِهِم في بلادِهِم وفسادِكم. فلو ائتمنتُ أحدَكُم على قَعبٍ[2] لخشيتُ أن يذهبَ بعِلاقتِهِ[3].

---

(1) ستكون لهم الدولة والغلبة عليكم.

(2) القدح الضخم.

(3) ما يعلق منه من ليف أو نحوه.

اللهمَّ إني قد مللتُهُم وملُّوني، وسئِمتُهُم وسَئِموني، فأبدِلني بهم خيراً منهم، وأبدِلهُم بي شراً مني، اللهم مِث قلوبَهُم كما يُماثُ الملحُ في الماء، أما واللهِ لوددتُ أنَّ لي بكم ألفَ فارسٍ من بني فِراس بن غنمٍ.... » ثم نزلَ عليه السلام من المنبر[1].

وكان يقول عليه السلام: «أريدُ أن أداويَ بكُم وأنتم دائي، كناقشِ الشَّوكةِ بالشَّوكة، وهو يعلمُ أن ضلعَها معها: (أي كالشَّوكة كلما أردت إخراجها ازدادت توغُّلاً، وهو مثل يُضرب للرَّجُل الذي يخاصم الآخر ثم يستعين عليه بمن هو من قرابته أو أهل مشربه!). اللهم قد ملَّت أطباءُ هذا الدَّاءِ الدَّوِيِّ[2]، وكلَّتِ النزعةُ بأشطانِ الرَّكيِّ[3]. أينَ القومُ الذين دُعوا إلى الإسلامِ فقبِلوهُ، وقرؤوا القرآنَ فأحكموهُ، وَهِيجُوا إلى الجهادِ فوَلِهوا ولهَ اللِّقاحِ[4] إلى أولادِها...»[5].

وعندما لم يجبه أحد، قال عليه السلام: أوليسَ من العجبِ أن معاوية يأمرُ فيُطاع، ويدعو فيُجاب، وآمُرُكم فتخالفون، وأدعوكُم فلا تُجيبون، ذهبَ واللهِ أولو النُّهى والفضلِ والتُّقى، الذين كانوا يقولونَ فيصدُقون، ويُدعونَ فيُجيبون، ويلقونَ عدُوَّهُم فيصبرون، وبقيتُ في حُثالةِ قومٍ لا ينتفعونَ بموعظة، ولا يُفكِّرونَ بعاقبة، لقد هممتُ أن أشخُصَ عنكم، فلا أطلُبُ نصرَكُم ما اختلف الجديدان (= الليل والنَّهار)[6].

وثبَ إليهِ حارثة (أو جارية) بن قُدامة السَّعدي، فقال: يا أميرَ المؤمنين، مُرني بأمرك، فإني لكَ حيث أحببت.

فقال علي عليه السلام: لعمري أنتَ لها، فإنك ميمونُ النقيبة، مباركُ الأثر، حسنُ النية، صادقُ العشيرة.

ثم ضمَّ إليهِ علي عليه السلام ألفي فارس... فخرجَ حارثة من العراق يريدُ مكة، وبلغَ ذلك بُسر، فخرجَ عن بلاد اليمن... وقد قتلَ من الناس بأرض اليمن وغيرها نيفاً عن ثلاثين ألفاً من شيعةِ علي عليه السلام[7].

الخلاصة: تكلَّمنا في هذا الفصل عن الخطوات والغارات التي قام بها معاوية بعد

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (25)، ص66 - 67.

(2) الدوي: المؤلم الشديد.

(3) ضعفت القدرة على شد حبل البئر.

(4) اللقاح: الناقة.

(5) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (121)، ص177.

(6) ابن أعثم، **الفتوح**، ج1، ص462 - 463.

(7) المصدر السابق، ص463 - 464.

ظهور نتيجة التَّحكيم، في مصر، في العراق، في الحجاز، وفي اليمن، ومعاناة الإمام علي عليه السلام الشَّديدة والمريرة في استنهاض أصحابه. هذه الظُّروف والملابسات ستُساعدنا - إلى حدٍّ كبير - على فهم دوافع ومبرِّرات صُلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، وكيف آلت السُّلطة إلى معاوية، الذي مهَّد بدوره الطريق لابنه يزيد.

وعلينا أن نتذكَّر أنَّ معركة النَّهروان عندما وقعت كانت غارات معاوية في بداياتها. فغارةُ الضحَّاك بن قيس على العراق سبقت معركة النَّهروان، لكن بقية غارات معاوية - التي شنَّها على العواصم الأخرى - حدثت أثناء وبعد معركة النَّهروان.

(21)

أزمات متلاحقة وشهادة الإمام علي عليه السلام

في الفصل الماضي تحدَّثنا عن غارات معاوية التي شنَّها على مصر والعراق والحجاز واليمن، بعد ظهور نتيجة التَّحكيم، كشواهد واضحة على حالة الفلتان الأمني.

في هذا الفصل نريد استعراض جوانب أخرى من حالة الاضطراب التي سادت أجواء العراق بعد معركة صفين وقبل شهادة الإمام علي عليه السلام، أي من 38 إلى 40 هج. نريد أن نتحدَّث عن شواهد لحالة **الفلتان السِّياسي والمالي والعسكري**، ونبين أنَّ معالجة الانهيار القِيَمي كان على رأس أولويات الإمام علي عليه السلام، لأنه الأساس لكلِّ حالات الفلتان المختلفة، وهو الأساس لمسلسل الخيانات وظاهرة الهروب إلى معاوية، وسيكون الأساس لشهادة الإمام الحسين عليه السلام وفاجعة كربلاء. كافح الإمام علي عليه السلام في قبالِ ذلكَ وجاهدَ وصبَر، وأخبرَ الناسَ بما يستشرِفهُ من مستقبل، وبما سيُواجهونَهُ من مصائب جرَّاء هذا التخاذُل.

سنتعرَّف في هذا الفصل على قصة الخِرِّيت وهروب مصقلة، كشاهد على حالة **الفلتان السِّياسي**، وطعنة من عبد الله بن عباس لعليّ عليه السلام، كشاهد على حالة **الفلتان المالي**. ثم نعود لنتحدَّث عن تثاقُل جيش علي عليه السلام إلى الأرض كلَّما دعاهُم للقتال، كشاهد على حالة **الفلتان العسكري**. وأخيراً نتحدَّث عن استشراف الإمام علي عليه السلام لمستقبل الأمة بعد هذه السلسلة المُرَّة من الحوادث، ثم عن شهادته عليه السلام.

ما ذكرناه في الفصل السابق، وما سنذكره في هذا الفصل، سيُعيننا على فهم واستيعاب الظُّروف والملابسات التي أدَّت بالإمام الحسن عليه السلام إلى قبول عقد الصُّلح مع معاوية، وسيطرة معاوية الكاملة على مقاليد الحُكم، والأجواء التي سمحت له بتوريث السُّلطة لابنه يزيد.

أزمة خروج الخِرِّيت وهروب مصقلة

من الأزمات الخانقة والمرَّة، التي تُعبِّر عن حالة الفلتان السِّياسي التي واجهها الإمام علي عليه السلام، ما يمكن أن نُطلِق عليه «أزمة الخرِّيت»، وتداعياتها التي انتهت إلى «هروب

مصقلة» إلى معاوية. فما هي أزمة الخِرِّيت؟ ومن هو مصقلة؟ ولماذا هرب إلى معاوية؟

● قصة خروج الخرِّيت

كتب الطبري في تاريخه ضمن أحداث سنة 38هج[1]، وابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة نقلاً عن كتاب «الغارات» لابن هلال الثقفي، واللفظ للأخير: لما بايعَ أهلُ البصرةَ عليّاً عليه السلام بعد الهزيمة (في حرب الجمل)، دخلوا في الطَّاعة غيرَ بني ناجية، فإنهم عسكروا، فبعثَ إليهم علي عليه السلام رجُلاً من أصحابه في خيلٍ ليُقاتِلهُم، فأتاهم فقال: ما بالُكُم عسكرتُم، وقد دخلَ الناسُ في الطَّاعةِ غيرَكم؟

فافترقوا ثلاثَ فرق. فرقة قالوا: كُنَّا نصارى فأسلمنا، ودخلنا فيما دخلَ الناسُ فيه من الفتنةِ، ونحنُ نبايعُ كما بايعَ الناس. فأمرَهُم فاعتزلوا.

وفرقة قالوا: كُنَّا نصارى فلم نُسلم، وخرجنا مع القومِ الذين كانوا خرجوا... فأخرجونا كَرهاً، فخرَجنا معهُم، فهُزموا، فنحنُ ندخُلُ فيما دَخلَ الناسُ فيه، ونعطيكُمُ الجزيةَ كما أعطيناهُم. فقال: اعتزلوا فاعتزلوا.

وفرقة قالوا: كُنَّا نصارى، فأسلمنا فلم يُعجِبنا الإسلام، فرجَعنا إلى النَّصرانية، فنحنُ نُعطيكُم الجزية كما أعطاكم النَّصارى. فقال لهم: توبوا وارجِعوا إلى الإسلام، فأبوا، فقُتِلَ مقاتلتهم، وسُبيَ ذراريهم، وقدِمَ بهم على علي عليه السلام.

كان الخرِّيت بن راشد النَّاجي، أحد بني ناجية، قد شهدَ مع علي عليه السلام صفين، فجاء إلى عليٍّ عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من أصحابهِ، يمشي بينَهُم حتى قامَ بين يديهِ فقال: لا واللهِ لا أطيعُ أمرَكَ، ولا أُصلّي خلفكَ، وإنّي غداً لمُفارقٌ لك.

فقال له عليه السلام: ثكلتك أمُّك، إذن تنقضُ عهدَكَ، وتعصي ربَّكَ، ولا تضُرُّ إلا نفسَكَ، أخبرني لم تفعل ذلك؟

قال: لأنكَ حكَّمتَ في الكتاب، وضعُفتَ عن الحقِّ إذ جدَّ الجدّ، وركنتَ إلى القومِ الّذين ظلموا أنفُسَهم. فأنا عليكَ رادٌّ، وعليهم ناقِم، ولكم جميعاً مباين.

فقال له عليه السلام: ويحك! هلُمَّ أدارِسُكَ وأُناظِرُكَ في السُّنن، وأُفاتِحُك أموراً من الحقِّ أنا أعلمُ بها منك. فعلّكَ تعرِف ما أنتَ الآنَ لهُ منكرٌ، وتبصرُ ما أنتَ الآنَ عنهُ عمٍ وبهِ جاهل.

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص86 - 100.

قال: فإنّي غادٍ عليك غداً.

قال عليه السلام: اغدُ، ولا يستهوينَّكَ الشَّيطان، ولا يتقحمنَّ بك رأيُ السُّوء، ولا يستخفّنكَ الجُهلاء الذين لا يعلمون، فواللهِ إن استرشدتَني واستنصحتَني وقبِلتَ منّي لأهدينّك سبيلَ الرَّشاد.

فخرجَ الخِرّيت من عندهِ مُنصرِفاً إلى أهلهِ.

..... (يقول الرَّاوي عبد الله بن قُعين عن مجريات اليوم التالي) قال عليه السلام لي: دَعهُ فإن قبِلَ الحقَّ ورجع، عرفنا لهُ ذلك، وقبِلناه منهُ.

فقلتُ: يا أمير المؤمنين فلم لا تأخذهُ الآن، فتستوثق منهُ؟

فقال عليه السلام: إنّا لو فعلنا ذلك بكلِّ من يُتَّهم من الناس ملأنا السُّجونَ منهم، ولا أراني يسعُني الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبَتهُم حتّى يُظهِروا لي الخلاف.

(يقول ابن قعين) فسكتُّ عنه وتنحَّيتُ فجلستُ مع أصحابي هُنيئةً، فقال عليه السلام: ادنُ مني. (يقول ابن قعين) فدَنوتُ، فقال عليه السلام لي مُسِرّاً: إذهب الى منزلِ الرَّجل فاعلَم ما فعل، فانّه قلَّ يومٌ لم يكن يأتيني فيهِ قبل هذهِ السَّاعة.

فأتيتُ إلى منزلهِ، فإذا ليسَ في منزلهِ منهم ديّار، فدُرتُ على أبوابِ دورٍ أخرى، كان فيها طائفة من أصحابهِ، فإذا ليسَ فيها داعٍ ولا مُجيب.

فأقبلتُ إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام، فقال لي حين رآني: أوَطنوا فأقاموا؟ أم جبُنوا فظعنوا.

فقلت: لا بل ظعنوا.

فقال عليه السلام: أبعدَهم الله كما بعِدَت ثمود. أما والله لو قد أشرعت لهم الأسِنَّة وصُبت على هامِهم السُّيوف، لقد ندِموا، إنَّ الشَّيطانَ قد استهواهُم وأضلَّهم، وهو غداً متبرّئٌ منهم، ومتخل عنهم.

ما حدث بعد ذلك هو أنَّ قرظة بن كعب الأنصاري - أحد عُمَّالهِ عليه السلام - كتبَ إليه يُخبِرهُ بأنَّ الخِرّيت وأصحابه تعرَّضوا لمُسلم فقتلوهُ، وتعرَّضوا لرَجُلٍ من أهل الذِّمة فخَلُّوا عنه. فأرسل عليه السلام رسالة إلى زياد بن خصفة يخبرهُ فيها بأنَّ الخِرّيت وأصحابه قتلوا رجُلاً من أهل السَّواد مُسلِماً مصلّياً، فإذا أنتَ لحقتَ بهم، فاردُدهم إليَّ، فإن أبوا فناجِزهُم، واستعن باللهِ عليهم، فإنهم قد فارقوا الحقَّ، وسفكوا الدَّمَ الحرام، وأخافوا السَّبيل.

وبالفعل خاضَ زياد بن خصفة معارك ضارية ضد الخِرّيت وأصحابه، وفرَّ الخِرّيت،

وأرسلَ الإمام علي عليه السلام معقِل بن قيس ليلحق به، فواصلَ الخِرِّيت فرارَهُ إلى سيفٍ من أسياف البحر، فكتبَ عليه السلام إلى معقِل بأن يتبع آثارَهم، ولا يزال يطلبهم حتى يقتُلهم أو يَنفيهم من أرضِ الإسلام. واستطاع الخِرِّيت أن يستقطب من جديد عدداً كبيراً من بني ناجية. وعثرَ عليهم معقِل، وأخرج رايةَ أمانٍ فنصبَها، وقال: من أتاها من الناس فهو آمنٌ إلا الخِرِّيت وأصحابهُ الذين نابذوا أوَّلَ مرة.

وفي نهاية المطاف كانت الغلبة لمعقِل بن قيس؛ فمن كان مسلِماً خلاَّه وأخذَ بيعتَهُ وخلى سبيلَ عيالهِ، ومن كان ارتدَّ عن الإسلام عرضَ عليه الرُّجوع إلى الإسلام أو القتل، فأسلموا، فخلَّى سبيلَهم وسبيل عيالاتهم، وعمدَ إلى النَّصارى وعيالاتهم فاحتملهم معه. وجاء بالخِرِّيت فضربَ عُنُقَهُ.

قصة هروب مصقلة

ثم أقبل معقِل بن قيس بالأسارى - وهم خمسمائة إنسان - حتى مرَّ على مصقلة بن هبيرة الشَّيباني، وهو أحد عُمَّال علي عليه السلام، فبكى إليهِ النِّساءُ والصبيان، وتصايحَ الرِّجال: يا أبا الفضل، يا حامِلَ الثِّقل، يا مؤوي الضعيف، وفَكَّاك العُصاة، امنُن علينا، فاشترِنا واعتِقنا.

فقال مصقلة: أقسمُ باللهِ لأتصدقنَّ عليهم، إنَّ اللهَ يجزي المتصدِّقين.

ثم إنَّ مصقلة بعثَ برسولٍ إلى معقِل، وعرَضَ على معقِل ألفَ ألفَ درهم، فأبى عليه، فلم يزل يُراوِدهُ حتى باعَهُ إيَّاهم بخمسمائة ألف درهم، ودفعَ معقِل الأسارى لمصقلة، وقال معقل لمصقلة: عجِّل بالمالِ إلى أمير المؤمنين عليه السلام . . . وأقبل معقِل إلى أميرِ المؤمنين فأخبرَهُ بما كانَ من الأمر، فقال له عليه السلام: أحسنتَ وأصبت ووُفِّقت.

وانتظر الإمام علي عليه السلام مصقلة أن يبعثَ بالمال، فأبطأ به، فكتب عليه السلام يذكِّرهُ بالأمر، وطلبَ منه إما أن يُسلِّم المال أو يقدِم عليه. فجاء مصقلة إلى الكوفة، وأدَّى إليه مائتي ألف درهم، وعجزَ عن الباقي. . . .وانتهى به الأمر أن هرب ولحق بمعاوية!!

عندئذ قال عليه السلام: «قبَّحَ اللهُ مصقلة، فعلَ فعلَ السَّادةِ، وفرَّ فِرارَ العبيد! فما أنطقَ مادِحَهُ حتى أسكتَهُ، ولا صدَّقَ واصِفهُ حتى بكَّتَه (= قرَّعه وعنَّفه)، ولو أقامَ لأخذنا ميسورَهُ، وانتظرنا بمالهِ وُفُورَهُ»(1).

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (44)، ص85.

معاناة الإمام علي عليه السلام مع جيشه

بعدما أوضحنا حالة الفلتان السِّياسي، ننتقل الآن إلى شرح حالة الفلتان العسكري، الذي اتضح إلى حدٍّ كبير عندما تحدَّثنا عن غارات معاوية وحالة الفلتان الأمني.

حالة الفلتان العسكري واضحة تماماً في خُطَب الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، التي تحكي عن معاناتهِ مع جيشهِ، واستنفاده كلّ السُّبل والطُّرق لتحفيز الجيش واستنفاره لهم لقتال معاوية... لكن دون جدوى. خذ على سبيل المثال هذا المقطع من الخطبة التالية.

يقول عليه السلام: «أفٍّ لكُم، لقد سئِمتُ عتابَكُم، أرضيتُم بالحياةِ الدُّنيا من الآخرةِ عِوَضاً؟... إذا دعوتُكم إلى جهادِ عدُوِّكم دارَت أعيُنُكم (اضطربت من الجزع) كأنَّكم من الموتِ في غَمرةٍ (= شدة)، ومن الذُّهولِ في سكرةٍ. يُرتَجُ (= يُغلق) عليكم حَواري (= المخاطبة ومراجعة الكلام) فتعمهون (= تصابون بعمى البصيرة والحيرة)، وكأنَّ قلوبَكُم مألوسة (= مخلوطة بمس الجنون)، فأنتُم لا تعقلون. ما أنتم لي بثقةٍ سجيسَ (= مهما تقلبت) اللَّيالي، وما أنتم برُكنٍ يُمالُ بكم (= على العدو بقوتكم)، ولا زوافرُ (= عشيرة وأنصار) عِزٍّ يُفتقرُ إليكم. ما أنتم إلا كإبلٍ ضلَّ رُعاتُها، فكلَّما جُمعت من جانبٍ انتشرَت من آخر. لبئسَ - لعمرُ اللهِ - سُعرُ (= موقدو) نارِ الحربِ أنتم! تُكادون ولا تكيدون، وتُنتقصُ أطرافُكم فلا تمتعضون (= تغضبون). لا يُنامُ عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون....»[1].

طعنة الصَّديق الأخيرة

يتحدَّث المؤرِّخون عن طعنةٍ تلقَّاها الإمام علي عليه السلام من أقرب أصحابهِ وأهلهِ، تتمثَّل في عملية اختلاس كبيرة من بيت المال، ينسِبُها بعضهم إلى «عبد الله بن عباس»[2]. إذا غضضنا النَّظر عن هُويَّة المختلِس الذي وجَّه هذه الطَّعنة للإمام علي عليه السلام، يمكن القول انَّ هذه الحادثة تُمثِّل شاهداً على حالة الفلتان المالي الذي واجَهَهُ الإمام علي عليه السلام في المرحلة الأخيرة في فترةِ حُكمِهِ. أجواء الفلتان المالي تبرز عادة عندما يلمَس بعضهم حالة من الفلتان الأمني والسِّياسي، فينتهز الفرصة.

ينقل لنا نهج البلاغة رسالة مهمَّة وخطيرة كتبَها الإمام علي عليه السلام لأحدِ عُمَّاله، يقول

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (34)، ص78 - 79

(2) بشأن هذه الحادثة المؤلمة، أنظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص108 - 109.

له فيها: «أما بعدُ، فإني كنتُ قد أشركتُكَ في أمانتي، وجعلتُكَ شِعاري وبِطانَتي، ولم يكُن رجُلٌ من أهلي أوثقَ منكَ في نفسي لمواساتي وموازَرتي، وأداء الأمانةِ إليَّ، فلما رأيتَ الزمانَ على ابنِ عمِّكَ قد كلِبَ (= اشتد)، والعدوَّ قد حرِبَ (= استأسد)، وأمانةَ الناسِ قد خَزيت (= هانت)، وهذهِ الأمةُ قد فنَكَت وشغرَت (= خلت من الخير)، قلبتَ لابن عمِّك ظهرَ المِجنِّ (= التِّرس، وظهر التِّرس يبرز للخصم لا للصديق، كناية عن الانقلاب المفاجئ في الموقف) ففارقتَهُ من المفارقين، وخذلتَهُ مع الخاذلين، وخُنتَهُ مع الخائنين، فلا ابنَ عمِّكَ آسيتَ، ولا الأمانةَ أديتَ.

وكأنك لم تكن اللهَ تريدُ بجهادِكَ، وكأنك لم تكن على بيِّنةٍ من ربِّك، وكأنك إنما كنتَ تكيدُ هذه الأمةَ عن دُنياهم، وتنوي غرَّتهم عن فيئِهم. فلما أمكنتكَ الشدَّةُ في خيانةِ الأمة أسرَعتَ الكرَّة، وعاجلتَ الوثبة، واختطفت ما قدَرتَ عليه من أموالِهم المصونة لأراملِهم وأيتامهِم اختطافَ الذئب الأزلِّ (= الخفيف الوركين سريع الوثبة) داميةَ المِعزى الكبيرة، فحمَلتَهُ إلى الحجازِ رحيبَ الصدرِ بحِملهِ، غيرَ متأثِّمٍ من أخذِهِ، كأنك - لا أبا لغيرِكَ - حدَرتَ إلى أهلِكَ تُراثَكَ من أبيكَ وأمِّك.

فسبحان الله! أما تؤمنُ بالمعاد؟ أوما تخافُ نقاشَ الحساب؟ أيُّها المعدود - كان - عندنا من أولي الألباب، كيف تُسيغُ شراباً وطعاماً؟ وأنتَ تعلمُ أنك تأكُلُ حراماً، وتشرَبُ حراماً، وتبتاعُ الإماءَ وتنكِحُ النِّساءَ من أموالِ اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين، الذينَ أفاءَ اللهُ عليهم هذه الأموال، وأحرزَ بهم هذه البلاد.

فاتَّقِ اللهَ واردُد إلى هؤلاءِ القومِ أموالَهُم، فإنَّك إن لم تفعل، ثم أمكنني اللهُ منك، لأُعذِرنَّ إلى اللهِ فيك، ولأضربنَّكَ بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلا دخلَ النارَ! وواللهِ لو أنَّ الحسنَ والحسينَ فعلا مثلَ الذي فعلتَ ما كانت لهما عندي هوادةٌ، ولا ظفِرا مني بإرادة، حتى آخُذَ الحقَّ منهما، وأُزيحَ الباطِلَ عن مظلمتهما.

وأُقسمُ بالله ربِّ العالمين، ما كان يسُرُّني أنَّ ما أخذتَهُ من أموالِهم حلالٌ لي، أترُكهُ ميراثاً لمن بعدي، فضحِّ رويداً (= كلمة تقال لمن يؤمر بالتؤدة والأناة)، فكأنك قد بلغتَ المدى، ودُفنتَ تحتَ الثَّرى، وعُرِضَت عليك أعمالُكَ بالمحلِّ الذي يُنادي الظالمُ فيه بالحسرةِ، ويتمنى المُضيِّعُ فيه الرَّجعة، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾»[1] [2]!

يقول ابن أبي الحديد: «وقد اختلفَ الناسُ في المكتوبِ إليهِ هذا الكتاب، فقال

(1) سورة ص، الآية: 3.

(2) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (41)، ص412 - 414.

الأكثرون: إنَّهُ عبدُ الله بن العباس رحمه الله، ورووا في ذلك روايات، واستدلُّوا عليه بألفاظٍ من ألفاظ الكتاب. . . .وقد روى أرباب هذا القول أنَّ عبد الله بن عباس كتبَ إلى عليٍّ عليه السلام جواباً من هذا الكتاب، قالوا: وكان جوابه:

أما بعد، فقد أتاني كتابُكَ، تعظم عليَّ ما أصبتُ من بيتِ مالِ البصرة، ولعمري إنَّ حقي في بيت المال أكثر مما أخذتُ، والسَّلام.

قالوا: فكتب إليه علي عليه السلام:

أما بعد، فإنَّ العجبَ أن تُزيِّن لك نفسك أنَّ لكَ في بيتِ مالِ المسلمين من الحقِّ أكثر مما لرجُلٍ واحدٍ من المسلمين، فقد أفلحتَ إن كان تمنيك الباطل، وادعاؤكَ ما لا يكون يُنجيك من المأثم، ويُحلُّ لك المحرَّم، إنك لأنتَ المهتدي السَّعيد إذاً! وقد بلغني أنَّكَ اتَّخذتَ مكَّةَ وطَناً، وضربتَ بها عَطناً، تشتري بها مولّدات مكَّة والمدينة والطائف، تختارَهنَّ على عينِك، وتُعطي فيهنَّ مال غيرك، فارجع هداكَ الله إلى رُشدِك، وتُب إلى اللهِ ربِّك، واخرج إلى المسلمين من أموالِهم، فعما قليل تُفارقُ من ألفت، وتترُكُ ما جمعت، وتغيبُ في صدَعٍ من الأرض غيرَ موسَّدٍ ولا ممهَّد، قد فارقتَ الأحباب، وسكنتَ التُّراب، وواجَهتَ الحساب، غنيَّاً عما خلَّفت، فقيراً إلى ما قدَّمت، والسَّلام.

قالوا: فكتب إليه ابن عباس:

أما بعد، فإنك قد أكثرتَ عليَّ، وواللهِ لأني ألقى الله قد احتويتُ على كنزِ الأرض كلها، وذهبها وعقيانها ولُجَينها، أحبّ إليَّ من أن ألقاهُ بدمِ امرئٍ مسلم. والسَّلام.

وقال آخرون، وهم الأقلون: هذا لم يكُن، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليّاً عليه السلام ولا بايَنَهُ ولا خالفَهُ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قُتِلَ علي عليه السلام . . . . . وهذا عندي هو الأمثل والأصوب.

وقد قال الراوندي: المكتوبُ إليه هذا الكتاب هو عبيدُ الله بن العباس لا عبد الله، وليس ذلك بصحيح، فإنَّ عبيدَ الله كان عامل علي عليه السلام على اليمن. . . ولم يُنقَل عنهُ أنَّهُ أخذَ مالاً، ولا فارقَ طاعة.

وقد أشكل عليَّ أمرُ هذا الكتاب، فإن أنا كذَّبتُ النَّقلَ وقلتُ: هذا كلامٌ موضوعٌ على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفتُ الرُّواة، فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد كرَّ في أكثر كتب السِّيَر. وإن صرفتُهُ إلى عبدِ الله بن عباس، صدَّني عنهُ ما أعلَمهُ من ملازمتهِ لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياتهِ وبعدَ وفاتهِ. وإن صرفتُهُ إلى غيرهِ، لم أعلم إلى من

أصرِفهُ من أهلِ أمير المؤمنين عليه السلام، والكلامُ يُشعر بأنَّ الرَّجُلَ المخاطَب من أهلِهِ وبني عمِّهِ، فأنا في هذا الموضع من المتوقِّفين»[1].

وقد روى الكشِّي هذه المراسلات، وفيها أنَّ المقصود هو عبد الله بن عباس، وكذلك روى الكليني رواية ضعيفة السَّند عن الإمام الباقر عليه السلام تُشير إلى عدم استقامة عبد الله بن عباس.

وقد علَّقَ السيد الخوئي - قدس سره - على ما رواهُ الكشِّي بقوله: «هذه الرِّواية وما قبلها من طرق العامة، وولاء ابنُ عباس لأمير المؤمنين وملازمته له عليه السلام هو السَّبب الوحيد في وضع هذه الأخبار الكاذبة، وتوجيه التُّهم والطعون عليه، حتى أنَّ معاوية... كان يلعنه بعد الصلاة مع لعنهِ عليّاً والحسنين وقيس بن سعد بن عبادة والأشتر! كما عن الطبري وغيره. وأقل ما يقال فيهم أنَّهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله فكيف كان يلعَنُهُم ويأمُرُ بلعنِهم»؟!

كما علَّقَ - قدس سره - على رواية الكليني بعد تضعيفه لها بأنَّ آثار الوضع عليها ظاهرة... ثم انتهى قدس سره إلى النتيجة التالية: «والمتحصَّل مما ذكرنا أنَّ عبد الله بن عباس كان جليلَ القدر مُدافِعاً عن أمير المؤمنين والحسنين عليهم السلام، كما ذكرَهُ العلامة وابن داود»[2].

ومن المتردِّدين في كون الكتاب موجَّهاً لعبد الله بن عباس العلامة المجلسي صاحب كتاب بحار الأنوار، لاستبعادِهِم أن يكون وصل الحال بعبد الله بن العباس إلى الوضع الذي يجعله مخاطَباً بهذه العبارات.

في المقابل، المحقِّق ميرزا حبيب الله الخوئي قال: «ومما يوجِب الأسف المُحرِق هذا الكتاب المخاطَب به أحد خواصه من بني عشيرته، والأكثر على أنَّهُ عبد الله بن عباس، فالظاهر أنَّهُ لما كتب عليه السلام إليه كتابه بعد مقتل محمد بن أبي بكر، وقد مرَّ آنفاً، أيسَ ابن عباس من إدامة حكومته العادلة، وعلم أنَّ الحكومة تقع في يدِ أعدائِهِ وأعداء بني هاشم، وأقل ما ينتقمون منهم منعهم عن حقوقِهِم وإيقاعهم في ضيق المعاش وضنك العيش، فادَّخَر من بيت مال البصرة مقادير يظهر من كتابه عليه السلام أنَّها كثيرة تسع لابتياع العقار في مكَّة والمدينة والطائف، وابتياع العبيد ونكاح الأزواج. وقد أثَّرَ عملُهُ هذا في قلبِهِ الشَّريف، حيث يتوجَّه إلى تأمين معاش عشرات الألوف من الأرامل والأيتام قُتِلَ

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص99 - 101.

(2) السيد الخوئي، **معجم رجال الحديث**، منشورات مدينة العلم في قم المقدسة، ط3، 1403هج - 1983م، بيروت، ج10، ص236 - 239.

أزواجُهُن وآباؤهم في معارك الجمل وصفين، ولا كفيلَ لهُنَّ في معاشِهن...»[1].

وابن ميثم البحراني أكَّدَ على أنَّ القول بأنَّ الكتاب لم يكن موجَّهاً لعبد الله بن عباس، والقول بأنَّ الكتاب موجَّه إلى عبيد الله بن عباس، لا مستند لهما. أما الأول فهو مجرَّد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نُسِبَ إليه، ومعلومٌ أنَّ ابنَ عباس لم يكن معصوماً، وعليّاً عليه السلام لم يكن ليراقب في الحقِّ أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثّل بالحسنِ والحسين عليه السلام في ذلك، فكيفَ بابنِ عمِّه... وأما الثاني فإنَّ عبيد الله كان عامِلاً له عليه السلام باليمن ولم يُنقَل عنه مثل ذلك[2].

السيد صادق الموسوي - مؤلف كتاب تمام نهج البلاغة - ذكر أيضاً بأنَّ هذا الكتاب موجَّه إلى عبد الله بن عباس[3].

والله أعلم.

معالجة الانهيار القِيَمي

كان على رأس أولويات الإمام علي عليه السلام معالجة الانهيار القِيَمي الذي أصابَ الأمة، فغدرُ طلحة والزُّبير بعثمانِ بن حنيف قبل معركة الجمل، وغدرُ معاوية وعمرو قبل وأثناء وبعد معركة صفين، ثم غدرُ أصحابه عليه السلام وأقرب النَّاس إليه، لم يكُن خارجاً عن سياق هذا الانهيار القِيَمي الذي استشرى في نهاية حُكم عثمان، وصار يُمارس عمليّاً، وهو أمر لم تألفه حتى العادات العربية الأصيلة، عندما كانوا يُلزِمونَ أنفُسَهم ببعض القيود في الحروب، وفي العلاقات فيما بينهم.

وسيبلغ الانهيار القِيَمي ذروته في كربلاء، عندما يصيح الإمام الحسين عليه السلام: إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافونَ المَعاد، فكونوا أحراراً في دُنياكُم إن كُنتُم عُرُباً كما تزعُمون.

لقد استشرت ظاهرة الغَدر بشكل غير مسبوق، وفي ذلك يقول عليه السلام: «أيُّها الناس، إنَّ الوفاءَ توأمُ الصِّدق (= يولد معه في حملٍ واحد)... ولقد أصبحنا في زمانٍ قد اتَّخذَ أكثرُ أهلِهِ الغدرَ كَيساً (= فطنة وذكاء وشطارة).... قاتَلُهم الله، قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ (=

---

(1) العلامة حبيب الله الخوئي، **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1424هج - 2003م، بيروت، ج20، ص70 - 71.

(2) ابن ميثم البحراني، **شرح نهج البلاغة**، مكتبة فخراوي، ط1، 1428هج - 2007م، المنامة، ج5، ص 867.

(3) السيد صادق الموسوي، **تمام نهج البلاغة**، ج7، ص71.

البصير بتحول الأمور وتقلبها) وجهَ الحيلةِ ودُونَها مانِعٌ من أمرِ اللهِ ونهيِهِ، فيدَعُها رأيَ عينٍ بعدَ القُدرةِ عليها، وينتهِزُ فرصَتَها من لا حَرِيجةَ (= من لا تحرز وتحرج من الإثم) لَهُ في الدِّين»[1].

عندها بدأ ينظر الناس إلى معاوية بوصفة أدهى من الإمام علي عليه السلام، لذا تجده عليه السلام يقول: «واللهِ ما معاويةُ بأدهى مِنِّي، ولكنهُ يغدُرُ ويفجُر، ولولا كراهيةُ الغدرِ لكنتُ أدهى الناس. ولكن كلُّ غدرةٍ فُجرةٍ، وكلُّ فُجرةٍ كُفرةٌ، «ولكلِّ غادرٍ لواءٌ يُعرفُ به يومَ القيامةِ»، واللهِ ما أُستَغفَلُ بالمكيدةِ، ولا أُستغمزُ بالشديدةِ (= لا يستضعفني شديد القوة)»[2].

مسلسل الخيانات وظاهرة الهروب والالتحاق بمعاوية

وعندما بلغ الإمام علي عليه السلام أنَّ المنذر بن الجارود العبدي قد خانَ في بعض ما ولاهُ من أعمالهِ، كتبَ له يقول: «أما بعدُ، فإنَّ صلاحَ أبيكَ غرَّني منكَ، وظننتُ أنك تتَّبع هَديَهُ، وتسلُكُ سبيلهُ. . . ولئن كان ما بلغني عنكَ حقاً، لجمَلُ أهلِكَ وشِسعُ نعلِك خيرٌ منك، ومن كان بصفتِكَ فليس بأهلٍ أن يُسدَّ به ثغرٌ، أو يُنفذَ به أمر، أو يُعلى له قدرٌ، أو يُشركَ في أمانة، أو يؤمن على جباية، فأقبل إليَّ حين يصلُ إليك كتابي هذا، إن شاء الله»[3].

أقول: بالمناسبة، المنذر بن الجارود العبدي سيكرِّر خيانته مع الإمام الحسين عليه السلام، عندما يرسل الإمام الحسين عليه السلام للمنذر رسالة خاصَّة - مع مولاه سليمان أبو (أو ابن) رُزين - بوصفه أحد رؤساء الأخماس في البصرة، فيقوم المنذر بإطلاع عبيد الله بن زياد - والي يزيد على البصرة آنذاك - على هذه الرِّسالة، وتسليم رسول الإمام الحسين عليه السلام له، وتكون النتيجة أن يُقتل سليمان - مولى الحسين عليه السلام - صبراً وينال الشَّهادة، ليصبح أوَّل شهيد في الحركة الحسينية، قبل أن يصل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته إلى كربلاء.

نعود إلى الإمام علي عليه السلام . . . . .

عندما اعتقدَ الناسُ أنَّ الدُّنيا قد فتحت ذراعيها لمعاوية، فمن أرادَ الدُّنيا ومتاعها فعليه الالتحاق بركبه، كان الإمام علي عليه السلام يقول: «حتى يظنَّ الظَّان أنَّ الدُّنيا معقولةٌ على بني أمية (= مقصورة عليهم، مُسخَّرة لهم، كأنَّهم شدُّوها بعقال كالنَّاقة)، تمنحُهُم

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (41)، ص83.
(2) المصدر السابق، (200)، ص318.
(3) المصدر السابق، (71)، ص461 - 462.

دَرَّها (= لبنها)، وتُورِدُهُم صفوَها، ولا يُرفعُ عن هذهِ الأمة سوطُها ولا سيفُها، وكذبَ الظانُّ لذلكَ. بل هي مجَّةٌ (= شربة سرعان ما يرمي بها الإنسان) من لذيذِ العيش، يتطعَّمُونَها بُرهةً، ثم يلفِظُونَها جُملةً!»[1].

وعندما بلغ الإمام علي عليه السلام أنَّ رجالاً من أنصارهِ في المدينة يتسلَّلون إلى معاوية، كتبَ لعاملهِ سهل بن حُنيف - الذي توفي قبل شهادته عليه السلام - يقول: «أما بعد، فقد بلغني أنَّ رِجالاً من قِبلِكَ يتسلَّلونَ إلى معاوية، فلا تأسَف على ما يفوتُكَ من عدَدِهِم، ويذهبُ عنك من مَدَدِهِم، فكفى لهم غيّاً، ولكَ منهُم شافياً، فِرارُهُم من الهُدى والحقّ، وإيضاعُهُم إلى العَمى والجهل، وإنما هم أهلُ دُنيا مُقبِلونَ عليها، مُهطعونَ إليها، وقد عرفوا الحقَّ ورأوهُ، وسمِعُوهُ ووَعَوهُ، فعلموا أنَّ الناسَ عندنا في الحقِّ أسوة، فهربوا إلى الأثَرة، فبُعداً لهم وسُحقاً. . . .»[2].

وسنرى أنَّ مسلسل الخيانات وظاهرة التسلُّل إلى معسكر معاوية ستستفحل بعد شهادته عليه السلام، وتجعل الأوضاع بالغة التعقيد على الإمام الحسن عليه السلام . .

معاناة الإمام علي عليه السلام واستشرافه المستقبل

على ضوء سلسلة الأحداث الأخيرة التي وقعت، والتي ظهرت كتداعيات لحرب صفين، بدأ الإمام علي عليه السلام في أيامه الأخيرة يستشرف مستقبل الأمة، ويُخبِر أصحابَهُ بما ستؤول إليه الأمور.

كان عليه السلام يُحذِّر من بني أمية وطغيانها، ويقول: «واللهِ لا يزالون حتى لا يدَعوا لله مُحرَّماً إلا استحلُّوهُ، ولا عَقداً إلا أحلُّوهُ، وحتى لا يبقى بيتُ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا دخلَهُ ظُلمُهم، ونبا بهِ سوءُ رَعيِهم، وحتى يقومَ الباكيان يبكيان: باكٍ يبكي لدينهِ، وباكٍ يبكي لدُنياهُ، وحتى تكونَ نُصرةُ أحدِكُم من أحدِهِم كنُصرةِ العبدِ من سيِّدِهِ. . .»[3].

وفي السِّياق ذاته يقول عليه السلام: «فعند ذلك لا يبقى بيتُ مدَرٍ ولا وبَرٍ (= كناية عن أهل الحضر والبادية) إلا وأدخلَهُ الظلمةُ تَرحةً (= حزناً)، وأولجوا فيه نقمةً، فيومئذٍ لا يبقى لهم في السَّماءِ عاذِر، ولا في الأرضِ ناصِر. أصفيتُم بالأمر غيرَ أهلِهِ، وأورَدتُموهُ غيرَ موردِهِ، وسينتَقِمُ اللهُ ممن ظلَم، مأكلاً بمأكل، ومشرباً بمشرب، من مطاعِمِ العلقَم،

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (87)، ص120.
(2) المصدر السابق، (70)، ص461.
(3) المصدر السابق، (98)، ص43 - 144.

ومشاربِ الصَّبرِ (= عصارة شجرة مر) والمَقِرِ (= سم)، ولباسِ شعارِ الخوف، ودَثارِ السَّيف (= يعني استباحة الدِّماء بالهوى)، وإنَّما هم مطايا الخطيئاتِ وزوامِلِ (= جمع زاملة وهي ما يحمل عليها الطعام من الإبل) الآثام. فأُقسِمُ ثمَّ أُقسم، لتنخمنَّها أميةُ من بعدي كما تُلفَظُ النُّخامةُ، ثم لا تذوقُها ولا تطعَمُ بطعمِها أبداً ما كرَّ الجديدان (= الليل والنهار)»[1].

وقال عليه السلام في موضع: «يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبقى فيهم من القرآنِ إلا رَسمُهُ، ومن الإسلام إلا اسمُهُ، ومساجدُهُم يومئذٍ عامرةٌ من البِناء، خرابٌ من الهُدى، سُكَّانُها وعُمَّارُها شرُّ أهلِ الأرض، منهُم تخرُجُ الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يَرُدُّونَ من شذَّ عنها فيها، ويسوقونَ من تأخَّرَ عنها إليها، يقولُ اللهُ سبحانه: فبي حفلتُ لأبعثَنَّ على أولئك فتنة تترُكُ الحليمَ فيها حيرانَ، وقد فعل. ونحنُ نستقيلُ اللهَ عثرةَ الغفلة»[2].

شهادة أمير المؤمنين عليه السلام (40هـ)

بعدما انتهى الإمام علي عليه السلام من حرب النَّهروان، قال أصحابه: «يا أمير المؤمنين، نفدَت نبالُنا، وكلَّت سيوفُنا، ونصلت أسِنَّة رماحِنا، وعاد أكثرُها قصدا، فارجع إلى مصرنا (= الكوفة)، فلنستعد بأحسن عدَّتنا.....

فأقبلَ عليه السلام حتى نزل النُّخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفُسَهم وأن يُقِلُّوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوِّهم، فأقاموا أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالاً من وجوه الناس قليلاً، وترك العسكر خالياً، فلما رأى عليه السلام ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيهُ في المسير[3].

في أواخر حياته عليه السلام، عندما جمعَ الناس وحضَّهم على الجهاد، سكتوا مليّاً، فقال عليه السلام: «ما بالُكم؟ لا سُدِدتم لرُشد، ولا هُديتم لقصد، **أفي مثلِ هذا ينبغي لي أن أخرُج؟**»[4].

وفي خطبة له عليه السلام يقول لهم: «أما والذي نفسي بيدِهِ، ليظهرنَّ هؤلاءِ القومُ عليكُم، ليس لأنهم أولى بالحقِّ منكم، ولكن لإسراعِهِم إلى باطلِ صاحِبِهم، وإبطائِكُم عن حقي... .صاحِبُكُمُ يطيعُ اللهَ وأنتم تعصُونَهُ، وصاحبُ أهلِ الشَّام يعصي اللهَ وهُم

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (158)، ص223 - 224.
(2) المصدر السابق، (369)، ص540.
(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص67.
(4) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، (119)، ص 175.

يُطيعونَهُ، لوَدِدتُ واللهِ أنَّ معاويةَ صارفني بكم صرفَ الدينارِ بالدِّرهم، فأخذَ مني عشرةً منكم، وأعطاني رجُلاً منهم... يا أشباهَ الإبلِ غابَ عنها رُعاتُها، كلما جُمِعَت من جانبٍ تفرَّقت من آخر..»[1].

هذا الظلم جعله في أواخر عمره يشعر بغربة شديدة، فبدأ يستذكر أصحابه الخلَّص، الذين بدأوا معه الطريق، وتساقطوا شهداء أثناء المسيرة، فقال قبل استشهاده بأسبوع تقريباً: «أيُّها الناس، إني قد بَثَثتُ لكم المواعظ التي وعَظَ الأنبياء بها أُمَمَهُم، وأدَّيتُ إليكم ما أدَّت الأوصياءُ إلى من بعدهم، وأدَّبتُكم بسَوطي فلم تستقيموا، وحدَوتُكم بالزَّواجِر فلم تستوسقوا، للهِ أنتُم. أتتوقَّعونَ إماماً غيري يطأُ بكمُ الطَّريق، ويُرشِدكُم السَّبيل؟؟... أينَ إخواني الذين رَكبوا الطَّريق، ومضوا على الحق؟ أينَ عمَّار؟ وأين ابنُ التيِّهان؟ وأين ذو الشَّهادتين؟ وأينَ نُظراؤُهم من إخوانِهم الذينَ تعاقدوا على المنيَّة، وأُبرِدَ برؤوسِهم إلى الفجَرة».

ثم ضربَ بيدِهِ على لحيتهِ الكريمة، فأطالَ البكاء، ثم قال: «أوِّهِ على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموهُ، وتدبَّروا الفرض فأقاموهُ، أحيوا السُّنة، وأماتوا البِدعة، دُعُوا للجهادِ فأجابوا، ووثقوا بالقائدِ فاتَّبعوهُ». ثم نادى بأعلى صوته: «الجهادَ الجهادَ عبادَ الله، ألا وإنِّي معسكِرٌ في يومي هذا، فمن أرادَ الرَّواحَ إلى اللهِ فليخرُج»[2].

وخرج من خرج من الناس إلى معسكراتِهم في النُّخَيلة استعداداً للقتال ومنتظرين انسلاخ شهر رمضان المبارك من سنة أربعين لهجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعقدَ للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرِهم على أعدادٍ أُخَر. وبقيَ الإمام علي عليه السلام في الكوفة ينتظرُ انسلاخَ الشَّهر المبارك، فما دارت الجمعة حتى وقعت الفاجعة عندما ضرَبَ أشقى الأولين والآخرين عليّاً عليه السلام بالسَّيف على رأسِهِ الشَّريف في 19 من شهر رمضان.

قال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضُرِبَ فيه: «ملكَتني عيني وأنا جالسٌ، فسنَحَ لي رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، فقلتُ: يا رسولَ الله، ماذا لقيتُ من أُمَّتِكَ من الأوَدِ (= الاعوجاج) واللَّدَد (= الخصام)؟ فقال: ادعُ عليهم، فقلت: أبدَلَني اللهُ بهم خيراً منهم، وأبدَلَهُم بي شراً لهم مني»[3].

---

(1) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، رقم (97)، ص141 - 142.
(2) المصدر السابق، رقم (182)، ص263 - 264.
(3) المصدر السابق، (70)، ص99.

وعندما قامَ إليهِ في يوم ما رجُلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله عنها؟

فأجاب عليه السلام: «إنه لما أنزلَ اللهُ سبحانه، قولهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]، علمتُ أنَّ الفتنةَ لا تنزِلُ بنا ورسولُ الله صلى الله عليه وآله بين أظهُرِنا.

فقلتُ: يا رسولَ الله، ما هذه الفتنةُ التي أخبرَكَ اللهُ تعالى بها؟

فقال: يا عليّ، إنَّ أُمَّتي سيُفتنونَ من بعدي.

فقلت: يا رسولَ الله، أوليسَ قد قُلتَ لي يومَ أُحُد حيثُ استُشهدَ من استُشهِدَ من المسلمين، وحيزت عني الشَّهادة، فشقَّ ذلك عليَّ، فقلت لي: أبشِر، فإنَّ الشَّهادةَ من ورائِكَ؟

فقال لي: إنَّ ذلك لكذلك، فكيف صبرُكَ إذن؟

فقلتُ: يا رسولَ الله، ليس هذا من مواطِنِ الصبر، ولكن من مواطِنِ البُشرى والشكر.

وقال لي: يا عليّ، إنَّ القومَ سيُفتنونَ بأموالِهم، ويمُنُّونَ بدينِهم على ربِّهم، ويتمنون رحمتَهُ، ويأمنونَ سطوتَهُ، ويستحلونَ حرامَهُ بالشُّبهاتِ الكاذبة، والأهواءِ الساهية، فيستحلون الخمرَ بالنبيذ، والسُّحتَ بالهدية، والربا بالبيع.

فقلت: يا رسولَ الله، فبأيِّ المنازل أُنزِلُهُم عند ذلك؟ أبمنزِلةِ ردَّة أم بمنزلةِ فتنة؟

فقال: بمنزلةِ فتنة»[2].

وروى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك قال: «دخلتُ مع النبي صلى الله عليه وآله على عليِّ بن أبي طالب يعودُهُ وهو مريض، وعندَهُ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فتحوَّلا حتى جلسَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال أحدُهُما لصاحبِهِ: ما أراه إلا هالك (= أي سيموت من شدَّة المرض)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّهُ لن يموتَ إلا مقتولاً، ولن يموتَ حتى يُملأ غيظاً»[3].

وروى أيضاً عن الإمام علي عليه السلام: إنَّ مما عهدَ لي النبي صلى الله عليه وآله أنَّ الأمةَ ستغدِرُ بي بعدَهُ[4].

(1) سورة العنكبوت، الآية: 2.
(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (156)، ص220.
(3) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ج3، كتاب معرفة الصحابة، ح4673، ص170.
(4) المصدر السابق، ح4676، ص171.

آخر كلمات الإمام علي عليه السلام بعد ضربة ابن ملجم

وعلى فراش الشَّهادة، قال عليه السلام وصاياه الأخيرة: «وصيَّتي لكم: أن لا تُشرِكوا باللهِ شيئاً، ومحمدٌ صلى الله عليه وآله فلا تُضيِّعوا سُنتَهُ. أقيموا هذَينِ العَمودين، وأوقدوا هذَين المِصباحين، وخلاكُم ذمٌّ.

أنا بالأمسِ صاحِبُكُم، واليومَ عبرةٌ لكم، وغداً مُفارِقُكُم. إن أبقَ فأنا وليُّ دَمي، وإن أفنَ فالفناءُ ميعادي، وإن أعفُ فالعفوُ لي قُربة، وهو لكم حسنة، فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]؟!

واللهِ ما فجأني من الموتِ واردٌ كرهتُهُ، ولا طالعٌ أنكرتُهُ، وما كنتُ إلا كقاربٍ ورَد، وطالبٍ وجَد، «وما عندَ اللهِ خيرٌ للأبرار»[2].

وقال عليه السلام: يا بني عبد المطلب، لا ألفينَّكُم تخوضونَ دِماءَ المسلمين خوضاً، تقولون: «قُتِل أميرُ المؤمنين»، ألا لا تقتُلُنَّ بي إلا قاتلي. انظروا إذا أنا متُّ من ضربتِهِ هذه، فاضربوهُ ضربةً بضربة، ولا تُمثِّلوا بالرَّجُل، فإني سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلبِ العقور»[3].

خاتمة: الإمام علي عليه السلام مع قاتله

أختم هذا الفصل، ببعض ما ذكره المؤرِّخون حول طريقة تعاطي الإمام علي عليه السلام مع قاتله. تحدَّث ابن الأعثم في فتوحهِ عما جرى بعد أن ضرَبَ عبد الرحمن بن ملجم المرادي عليّاً عليه السلام بالسَّيف على رأسه فكتب: «... حتى أقعدوه (أقعد المصلون عبد الرَّحمن بن ملجم) بين يدَي عليّ، فقال له: أخا مراد، بئسَ الأميرُ كنتُ لك؟

قال: لا يا أميرَ المؤمنين.

قال: ويحَكَ ما حملَكَ على أن فعلتَ ما فعلت؟....

فسكتَ المُرادي ولم يقُل شيئاً.

فقال علي عليه السلام: «وكانَ أمرُ اللهِ قدَراً مقدوراً....»[4].

---

(1) سورة النور، الآية: 22.
(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (23)، ص378 - 379.
(3) المصدر السابق، (47)، ص421 - 422.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 38.

ثم أمرَ بهِ علي عليه السلام إلى السِّجن، وقال: احبِسوهُ فنِعمَ العَونُ معنا كان لنا على عدونا . . . . .

قال: فكان عليٌّ رضي الله عنه يتفقَّدهُ، ويقول لمن في منزلهِ: «أرسلتُم إلى أسيرِكُم طعاماً؟»[1].

حتى أنَّه أوصى الحسنَ والحسينَ عليهما السلام: «انظروا إذا أنا مُتُّ من ضربتهِ هذه، فاضرِبوهُ ضربةً بضربة، ولا يُمثَّل بالرَّجُل، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول «إياكم والمُثلة ولو بالكلبِ العقور»[2].

ننتهي من رحلتنا هذه إلى أنَّ علياً عليه السلام لم يدخر جهداً في سبيل تفادي الحروب الثلاث التي خاضها (الجمل، صفين، النَّهروان). لم يترك عليه السلام وسيلة إلا استنفدها، ولم يترك باباً للسِّلم إلا طرقه: أرسل بكثافة الرَّسائل الكتبية، والرَّسائل الشفوية، والوفود، مُذكِّراً الجميع بالحقائق وباللهِ سبحانه وتعالى، ومُحذِّراً من البغي والانسياق خلف الدُّنيا، كما حاول في كثير من الأحيان إعادة الخصوم إلى الحقِّ بالحوار المباشر. نجحَ عليه السلام في محاولاته هذه بكسب أفراد وجماعات لصفِّه، أو نجحَ في تحييدِهم على الأقل: ففي الجمل استطاع مثلاً تحييد الزُّبير، وفي صفين استطاع أن يكسَب أفراداً عندما كانت حُجُب التَّضليل ترتفع عن بصائرِهم، وفي حروراء والنهروان استطاع إعادة ثمانية آلاف مقاتل إلى جادَّة الصواب، وهو ما تُقدَّر نسبتُهُ بثلثي جيش الخوارج. . . . وهو نجاح - بحسب الإمكانات الإعلامية المتاحة آنذاك - منقطع النظير، بل مُذهِل أيضاً.

لنر الآن، كيف سيكون الحال مع الإمام الحسن عليه السلام؟ وكم سيكونُ العبءُ ثقيلاً عليه؟

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج1، ص507.

(2) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (47)، ص421 - 422. وثمة تفاصيل أخرى بشأن شهادة الإمام علي عليه السلام، راجع: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص110 - 115.

(22)

ظروف تولي الإمام الحسن عليه السلام السُّلطة

نحن الآن على أعتابِ مرحلةٍ جديدة، هذه المرحلة - التي تبدأ مع صُلح الإمام الحسن عليه السلام - تختلف عن المراحل السَّابقة في نواح كثيرة. وستَّتضح أوجه الاختلاف عندما ندرُس - على ضوء ما تقدَّم - الظروف والملابسات التي أدَّت بالإمام الحسن عليه السلام إلى عقد الصُّلح مع معاوية، ثم ندرُس في فصولٍ لاحقة السِّياسة العامة لمعاوية في فترة حُكمِهِ، والأحداث المهمَّة والخطيرة التي جرَت بعد صُلح الإمام الحسن عليه السلام حتى موت معاوية، ولعل من أهمِّها محاولات معاوية الدؤوبة لتوريث السُّلطة ليزيد.

تولِّي الإمام الحسن عليه السلام السُّلطة (40-41هج)

تولَّى الإمام الحسن عليه السلام السُّلطة بعد شهادة الإمام علي عليه السلام لمدة قصيرة، تُقدَّر بثمانية أشهر وعشرة أيام بين (40- 41 هج). حتى نعرف ما جرى خلال هذه المدَّة لا بُدَّ أن ندرس ظروف توليه عليه السلام السُّلطة.

سنتحدَّث في هذا الفصل عن ظروف تولي الإمام الحسن عليه السلام السُّلطة، والمحاولة التي قام بها عليه السلام لعلاج الشَّك الذي انتابَ العراقيين في نيات القيادة، ونتساءل عن سبب عدم استعجال الإمام الحسن عليه السلام الحرب ضدّ معاوية، ثم ندرُس أسباب تنامي الشَّك في نيات القيادة بعد شهادة الإمام علي عليه السلام، لننتهي إلى النتيجة التي انتهى إليها الإمام الحسن عليه السلام، والتي تتمثَّل بضرورة قبول الصُّلح كأفضل خيار في تلك الظروف.

لسان حال كل طرف

رأينا فيما مضى، أنَّ متاعب الإمام علي عليه السلام الحقيقية مع أصحابه بدأت في حرب صفين. وما جرى بعد ذلك من أحداث، يمكن النَّظر إليها على أنَّها تداعيات لهذه الحرب.

كان لسان حال معاوية قبل التَّحكيم يقول لجيش علي عليه السلام: تعالوا لنحتَكِم إلى

كتاب الله تعالى. وبعدَ التَّحكيم كان لسان حاله يقول: إنَّ علياً قبِلَ الدُّخول في لعبة، لكن انظروا، لمَّا جاءت النتيجة لغير مصلحتِهِ، قلب الطاولة عليَّ، لم يلتزم قواعد اللُّعبة، وقرَّر استئناف الحرب عليَّ.

قبل التَّحكيم، كان لسان حال الذين تمرَّدوا من جيش علي عليه السلام وخرجوا عليه يقول: لنَقبَل العَرض الذي قدَّمَهُ معاوية. إنَّه يُريدُنا أن نحتَكِم لكتاب الله، وهل يمكن لمُسلِم أن يرفض الاحتكام لكتاب الله؟! وبعد وقف الحرب، كان لسان حالهم: لقد خدَعَنا معاوية عندما رفع المصاحف وطالب بالاحتكام إلى كتاب الله، وانطلَت علينا الحيلة حين قبلنا التَّحكيم، وها نحنُ الآن قد استوعبنا الدَّرس جيداً، وفهمنا اللُّعبة القذرة. إذن على علي عليه السلام أن يتوب إلى الله وينقُض الهُدنة، ويعود للحرب قبل أن تظهر نتائج التَّحكيم وقبل انقضاء المُهلة، لأنَّ الهُدنة غير مشروعة أصلاً.

كان الإمام علي عليه السلام يردُّ عليهم بلسان الحال: أنتم الذين ألجأتموني إلى قبول التَّحكيم، عندما مارستم عليَّ كل أنواع الضُغوط لوقف الحرب، وكنتُ حينَها أُحذِّركُم مراراً وتكراراً بأنَّها مجرد خدعة، لكنَّكم لم تُصدِّقوني، إلى درجة أنَّكم هدَّدتموني بالقتل إن لم أقبل وقف الحرب، فأوقفتُ الحرب مُكرهاً. لكن الآن بعد أن قبلنا التَّحكيم، لا يُمكِنُني العودة إلى ساحة المعركة من جديد - كما تريدون - إلا بعد أن تظهر نتائج التَّحكيم، لأنَّ العودة إلى المعركة قبل ظهور نتائج التَّحكيم تكون نقضاً للهُدنة، وهو أمر لا يُمكن أن أقوم به.

وعندما ظهرت نتائج التَّحكيم، كان لسان حالهم: على علي عليه السلام أن يتوب إلى الله تعالى لأنَّهُ قبل أصلاً التَّحكيم، وإن لم يتب فهو - والعياذ بالله - كافر تجب محاربَتُهُ، تماماً كما تجب محاربة معاوية، لأنَّهما في النِّهاية هما سبب المأساة!

وكان الإمام علي عليه السلام يردُّ عليهم: لقد وضعنا للحَكَمين ضوابط معينة، وصلاحيات محدَّدة، أهمُّها الالتزام بكتاب الله سبحانه. ولأنّهما تجاوزا تلك الضَّوابط والصَّلاحيات، ولم يلتزما قواعد اللعبة، فنتيجة التَّحكيم غير مُلزِمة أصلاً. تعالوا لنعود الآن إلى حرب معاوية، لأنَّنا أصبحنا في حِلٍّ بعد أن تجاوز الحكَمان صلاحياتهما، ولنُهيِّئ أنفُسَنا جيداً إلى حين انقضاء المُهلة، ثم نستأنف حربنا ضدّ معاوية من جديد.

وكان جواب الخوارج: لا نعودُ للحرب معكَ حتى تتوبَ إلى الله تعالى. وكان ردُّ الإمام علي عليه السلام: أنا عندما قبلت وقف الحرب كنتُ مكرهاً، ولم أُذنب حتى أتوب إلى الله تعالى.

وإذا أردنا تحليل الموقف النَّفسي لجيش علي عليه السلام من الداخل، يمكن القول إنَّ

أسوأ لحظات حرب صفين كانت عندما بدأ جيش علي عليه السلام يشُكُّ شكاً واسع النطاق، بأنَّ المعركة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية هي بالفعل معركة رسالية[1]!

فالعراقيون - من أصحاب علي عليه السلام - قدَّموا تضحيات جسيمة، بذلوا أموالَهم ونفوسَهم ودماءَهم، آلالف من العراقيين ماتوا وقُتِلُوا، عشرات من الأطفال يُتِّموا، آلاف من النساء أصبحنَ أرامل، آلاف من البيوت والعوائل تهدَّمت، كثير من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والويلات حلَّت بهؤلاء المسلمين، نتيجة ماذا؟ ولأجل ماذا[2]؟. . . حتى ينتهي الأمر لأحدِ القرشيين: علي أو معاوية. . . على هذا النحو صاروا يُفكِّرون.

كان جيشُ علي عليه السلام في حال تفكُّك، كلَّما حاول أن يجمعهم تفرَّقوا. وكلما حاول أن يُوحِّد كلمتهم تشتَّتوا. وهو يعرف أن بإمكانهِ - بطريقة ما - أن يُعيدَ للجيش وحدَتَهُ، لكن الثَّمن الذي سيُدفع لا يمكن لشخص مثل الإمام علي عليه السلام أن يدفعه. . إنه الانحراف عن الجادَّة، والسَّير في السُّبُل الملتوية. وبالتالي ظروف الجيش الذي تركه الإمام علي عليه السلام للحسن عليه السلام كانت بالغة التعقيد والدِّقة ومُحيِّرة لعليّ عليه السلام نفسه.

ويمكن التعبير عن تلك الظروف بعبارة موجزة للإمام الحسن عليه السلام ذكرَها لجيشهِ في المدائن حينَ خطبَهُم قائلاً:

«. . . كنتم في مسيرِكُم (إلى صفين) دينُكُم أمامَ دُنياكُم، فأصبحتُم اليومَ دُنياكُم أمامَ دينكم. . . .أصبحتم بين قتيلين: قتيلٌ بصفين تبكونَ له، وقتيلٌ بالنهروان تطلبونَ منا ثأرَهُ، والباكي خاذلٌ، والباقي ثائرٌ. ألا وإنَّ معاوية دعانا إلى أمرٍ ليس فيهِ عزٌّ ولا نصفة، فإن أردتُم الموتَ ردَدناهُ عليهِ وحاكمناهُ إلى اللهِ عزّ وجلّ بظباءِ السُّيوف، وإن أردتُم الحياة قبلناهُ وأخذنا لكمُ الرِّضا. فناداهُ القومُ من كلِّ جانب: البقية البقية»[3].

هذا النَّص، يؤكِّد أنَّ جيش علي عليه السلام انقسم إلى قسمين، باكٍ على ما جرى في صفين، وناقم على ما جرى في النَّهروان. القسم الأول الناقم في حال ثورة وتمرُّد ورفض وعدم انضباط وغير منصاع للأوامر، وربما متجاسر ومتطاول على مقام الإمام علي عليه السلام، ثم من بعدِهِ متجاسر ومتطاول على مقام الإمام الحسن عليه السلام. هذا القسم

---

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص159.

(2) المصدر السابق، ص163 - 165.

(3) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج2، ص13، أيضاً ابن طاووس، **الملاحم والفتن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط5، 1398هج - 1978م، بيروت، ص 192، باختلاف يسير بين المصدرين.

يتساءل متعجباً: كيف يجرُؤ علي عليه السلام في النَّهروان على قتل أصحاب الأمس الذين قاتلوا معه في صفين؟ كيف يجرُؤ على قتل قرَّاء القرآن ذوي الجباهِ السُّود؟

ويتناسى هؤلاء أنَّ علياً عليه السلام لم ينعطف إلى الجبهة الداخلية إلا بعد أن أخلَّ هؤلاء الخوارج بالأمن، فخشي أن تخرج العراق من خلفه عن سيطرته، وهو يواجه معاوية في الشَّام. الكثير من هؤلاء ظلُّوا في جيش علي عليه السلام، خوفاً من عواقب خروجهم عليه، لكن قلوبهم كانت متعاطفة مع الخوارج... وبعضهم سيتحوَّلون إلى قتلة للحسين عليه السلام.

القسم الثاني باكٍ على ما جرى في صفين، وغارق في شكوكِهِ في نيات الإمام علي عليه السلام ومن بعده الإمام الحسن عليه السلام، لم يفق بعد من هول الصَّدمة، صدمة خسائر صفين، ثم النِّهاية التي انتهت إليها، من تحكيم، ثم حيلة انطلَت على أبي موسى الأشعري... هذا الباكي يتفهَّم موقف الإمام علي عليه السلام من الخوارج، لكن يشعر بخيبة الأمل واليأس وعدم جدوى مواصلة الجهاد ضد معاوية، وبالتالي فهو خاذلٌ لعليّ عليه السلام ومن بعدِهِ للحسن عليه السلام.

وفاتَ هؤلاء أنَّ أخطر وأهم سلاح في الصِّراع العسكري هو المعنويات، فإن انهارَت المعنويات انهارَ الجيش، وإن كانت المعنويات مرتفعة استطاع الجيش تحقيق الكثير من الفُتوحات والمعجزات. وفاتَهم أنَّ أكبر خطأ ارتكب في صفين هو عدم الالتزام بأوامر القائد (وهو ذاته سبب خسارة المسلمين في معركة أحد)، وأنَّهم لو تداركوا هذا الخطأ، والتفُّوا من جديد حول الإمام علي عليه السلام، ومن بعدِهِ الإمام الحسن عليه السلام، فإنَّه كان بمقدورهم تحقيق انجازات وفتوحات كبيرة... كثيرٌ من هؤلاء سيتحوَّلون إلى أدوات بيد قتلة الإمام الحسين عليه السلام، يُساقون إلى كربلاء كالقطيع الذي لا حول له ولا قوة ليشهد بأُمِّ عينيه أكبر فاجعة في تاريخ المسلمين.

محاولة الإمام الحسن عليه السلام معالجة الشَّك في أوَّل خطبة له

يقول المدائني: لما توفي علي عليه السلام خرجَ عبد الله بن العباس[1] إلى الناس، فقال: إنَّ أميرَ المؤمنين عليه السلام توفي، وقد تركَ خلفاً، فإن أحببتُم خرجَ إليكم، وإن كرِهتُم فلا أحدَ

(1) يوجد هنا كلام في أن المقصود هل هو عبيد الله بن العباس أم عبد الله بن العباس؟ إن كان المقصود هو عبيد الله بن العباس، فما يوجد في بعض المصادر يكون تصحيفاً، وإن كان المقصود هو عبد الله ابن العباس بالفعل، فقد يقال بأن الأخير كان في الحجاز إن صح الكلام بأنه اختلس من بيت المال في أواخر حياة علي عليه السلام. على أي حال لو كان المقصود هو عبد الله بن العباس، فهذا يضعف احتمال صحة ما قيل بشأن عبد الله بن عباس واختلاسه من بيت المال وذهابه إلى الحجاز في هذه المرحلة.

على أحد، فبكى الناس وقالوا: بل يخرُج إلينا، فخرجَ الحسنُ عليه السلام فخطبَهُم[1]....

أقول: لاحظ كيف يعرض عبد الله بن عباس الإمام الحسن عليه السلام على الجماهير: «وقد تركَ (عليٌّ) خلفاً، فإن أحببتُم خرجَ إليكم، وإن كرِهتُم فلا أحدَ على أحد». هذا النحو من العَرض يكشف كم استخفَّت الجماهير بمقام الإمام علي عليه السلام فكيف الحال بمقام الإمام الحسن عليه السلام في نظرِهم؟

وروي عن أبي مخنف قوله: «خطبَ الحسنُ بن علي عليه السلام صبيحة الليلة التي قُبض فيها أميرُ المؤمنين علي عليه السلام، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، وصلى على رسولِ الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: «لقد قُبضَ في هذهِ الليلة رجلٌ لم يسبِقْه الأولون بعَمَل، ولا يُدرِكُهُ الآخِرونَ بعَمَل، لقد كانَ يُجاهِدُ مع رسولِ الله فيقيهِ بنفسهِ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوجِّهُهُ برايتهِ، فيكنُفُهُ جبرئيل عن يمينهِ وميكائيل عن يسارهِ، فلا يرجِع حتى يفتحَ اللهُ على يديه. ولقد تُوفي عليه السلام في الليلةِ التي عُرِجَ فيها بعيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قُبِض يوشع بن نون وصي موسى، وما خلَّفَ صفراءَ ولا بيضاء[2] إلا سبعمائة درهم فضُلت من عطائهِ، أرادَ أن يبتاعَ بها خادِماً لأهلِهِ»، ثم خنقتهُ العبرة فبكى وبكى الناسُ معه.

الإمام الحسن عليه السلام يريد من عباراته السَّابقة أن يكشف النِّقاب للجماهير عن أنَّ عليّاً عليه السلام كان مسدَّداً من السَّماء، وهو أكبر بكثير من أن يُشكّ في نياته، وأكبر بكثير من أن يخوضَ حرباً لمصلحةٍ شخصية.

وأراد بعد ذلك أن يقول لتلك الجماهير بأني امتدادٌ لهذه المسيرة، وأنَّ الحربَ التي سأخوضُها هي أيضاً حربٌ رسالية تتجاوز المصالح الشَّخصية. فقال عليه السلام: «أنا ابنُ البشير، أنا ابنُ النذير، أنا ابن الداعي إلى اللهِ بإذنه، أنا ابنُ السِّراج المنير، أنا من أهل بيتٍ أذهبَ اللهُ عنهم الرِّجس وطهَّرهم تطهيراً، أنا من أهل بيتٍ افترضَ اللهُ حُبَّهم في كتابهِ فقال عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[3] فالحسنةُ مودَّتنا أهلَ البيت».

ثم جلسَ، فقامَ عبد الله بن عباس بين يديه فقال: معاشِرَ الناس، هذا ابنُ نبيِّكم ووصي إمامِكم فبايعوهُ. فاستجابَ له الناس وقالوا: ما أحبَّهُ إلينا وأوجبَ حقَّهُ علينا! وتبادروا إلى البيعةِ له بالخِلافة[4].

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج 16، ص 13.
(2) كناية عن الذَّهب والفضة.
(3) سورة الشورى، الآية: 23.
(4) المفيد، **الإرشاد**، ج1، ص 7 - 8.

لاحظ أنَّ عبد الله بن عباس يقترح على الجماهير مبايعة الإمام الحسن عليه السلام، ويضع اسم الإمام الحسن عليه السلام في أفواهِها. أما الجماهير نفسُها فلم تمانع، لا لأنَّها تؤمن بأنَّ الإمام الحسن عليه السلام هو الوصي والإمام بعد علي عليه السلام، بل لأنَّها لم تجد شخصاً يملأ الفراغ نسبياً غير الإمام الحسن عليه السلام في ظلِّ تلك الظروف.

لماذا لم يستعجل الإمام الحسن عليه السلام الحرب ضد معاوية؟

هناك فرقٌ بين اتهام الإمام الحسن عليه السلام بأنه كان يريدُ الصُّلحَ منذ البداية، وأنَّه رجلٌ يكرَهُ الحربَ ويُحِبُّ السِّلم من ناحية، وأن نقول إنَّ الإمام الحسن عليه السلام لم يستعجل الحرب ضدّ معاوية. قُلنا - فيما سبق - إنَّ اتهام الإمام الحسن عليه السلام بأنَّه رجلٌ يكرَهُ الحربَ ويُحِبُّ السِّلمَ، لا يتنافى مع الايمان بعصمته فحسب، بل يتنافى أيضاً مع الحقائق التاريخية.

صحيح أنَّ الإمام الحسن عليه السلام لم يخرُج فورَ مبايعته لقتال معاوية، بل تمهَّل قليلاً، وتذكُر الرِّوايات أنه تمهَّل شهراً أو شهرين أو ثلاثة أو أربعة على اختلاف تقدير الرِّوايات. هذا التمهُّل دعا عبد الله بن عباس للكتابةِ إلى الإمام الحسن عليه السلام يحُثُّه على قتالِ معاوية[1].

(1) يقول عبد الله بن عباس في رسالته للإمام الحسن عليه السلام: «أما بعد، فإن المسلمين ولَّوكَ أمرَهُم بعد علي عليه السلام، فشمِّر للحرب، وجاهِد عدوَّك، وقارب أصحابك، واشترِ من الظنين دينَه بما لا يثلم لك ديناً، ووالِ أهل البيوتات والشَّرف، تستصلح به عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحق، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل وعز الدين - خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين، وعز الفاجرين. واقتَد بما جاء به أئمة العدل، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس، فإن الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً، ما لم تبطل حقاً.

واعلم أنَّ علياً أباك إنما رغِبَ الناسُ عنه إلى معاوية، أنه أساء بينهم في الفيء، وسوى بينهم في العطاء، فثقُلَ عليهم، واعلم أنك تُحارب من حاربَ اللهَ ورسولَهُ في ابتداء الإسلام، حتى ظهرَ أمرُ الله، فلما وُحِّد الرب، ومُحِقَ الشِّرك، وعزَّ الدين، أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن، مستهزئينَ بآياته، وقاموا إلى الصلاةِ وهم كُسالى، وأدَّوا الفرائض وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لا يعزّ في الدين إلا الاتقياء الأبرار، توسَّموا بسيما الصَّالحين، ليظن المسلمون بهم خيراً، فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم، وقالوا حسابهم على الله، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد مُنيتَ بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، واللهُ ما زادَهُم طول العمر إلا غيّاً، ولا زادَهُم ذلك لأهلِ الدِّين إلا مقتاً، فجاهِدهُم ولا ترضَ دَنِيَّة، ولا تقبل خسفاً، فإنَّ علياً لم يُجب إلى الحكومة حتى غُلِبَ على أمرِهِ فأجاب، وإنَّهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلما =

لكن لماذا تمهَّلَ الإمام الحسن عليه السلام في الخروج ضد معاوية؟

يقول الشهيد السيِّد الصدر (قده) إنَّ السبب يعود على الأرجح إلى رغبةِ الإمام الحسن عليه السلام في الاستفادة من الوقت لمعالجة شك جيشه في نيات القيادة. يقول الصدر: «أنا أُقدِّر وأظُنُّ أنَّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلَّم مسؤولية الحُكم كانَ عازماً أن لا يتسرَّع في خوضِ معركةٍ مُسلَّحة مع معاوية، كان يودُّ أن تؤجَّل المعركة إلى أمدٍ طويل، وذلك لكي يُصفِّي أو لكي يحاول أن يُصفِّي هذا الشَّك جداً، لكي يتفرَّغ إلى الظروف الدَّاخلية وإلى المجتمع الذي يحكُمه، ويحاول أن يُخفِّف من حِدَّة هذا الشَّك، ويقضي على منابعهِ، ويُعالج بعض أسبابهِ ويُنعش من جديد نفسيَّة الفرد المُسلِم في داخل هذا المجتمع، حتى إذا استطاعَ في نهاية الشَّوط أن يكسب درجة معقولة من الاقتناع بالأطروحة حينئذ يبدأ معركتهُ المُسلَّحة مع معاوية، وهذا هو الذي جعله لا يُعلن عزمَهُ على الحربِ من اللَّحظةِ الأولى»[1].

سوف نُركِّز في كلامنا الآن على أسباب تنامي الشَّك في نيات القيادة مع خلافة الإمام الحسن عليه السلام.

أسباب تنامي الشك بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام

قلنا إنَّ شك الجماهير في نيات الإمام علي عليه السلام بدأ في صفين، لكن هذا الشَّك تنامى أكثر فأكثر بعد شهادة علي عليه السلام وانتقال الخلافة إلى الإمام الحسن عليه السلام. سأذكر الآن خمسة أسباب لتنامي الشَّك، وسأستعين بالتحليل الذي قدَّمه الشهيد السيِّد الصدر (قده) مع تقديمٍ وتأخير، وإضافة شواهد تاريخية في بعض الأحيان.

السبب الأول: إنَّ الإمام الحسن عليه السلام حينما تسلَّمَ مقاليد الحُكم، كان هناك كيانٌ سياسيٌّ قائم يحكُم في العالَم الإسلامي. وهذا الكيان يتمثَّل في حُكم الشَّام الذي كان يقودُهُ معاوية. وهذا الكيان الذي يقودُهُ معاوية اكتسبَ في نظر أهل الشَّام ثوب الخلافة بعد التَّحكيم عقب معركة صفين. ولهذا أخذ معاوية يعيش مع قاعدتهِ كما يعيش الخليفة مع رعيَّتهِ.

كان هناك كيانان سياسيَّان حاكِمان في العالَم الإسلامي: أحدُهُما يقودُهُ الإمام

= حكَموا بالهوى، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجلُهُ، ولا تخرجنَّ من حقٍّ أنت أولى به، حتى يحولَ الموت دون ذلك، والسَّلام». ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص 14.

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص 264.

الحسن عليه السلام، والآخر يقودُهُ معاوية. الإمام علي عليه السلام كان استمراريّة لوجودٍ سياسيٍّ أسبق، وخلافةٍ مشروعةٍ أسبقُ زمناً من هذا الكيان السِّياسي القائم بالشَّام. لكن بعد أن خلا الميدان من الإمام علي عليه السلام، وجاء الإمام الحسن عليه السلام ليتسلَّم مقاليد الحُكم، كان في الذِّهنية العامَّة والتصوُّر العام عند الإنسان العادي المسلم، أنَّ هناك كياناً يملأ الفراغ إلى حدٍّ ما، فلا بُدَّ من التفكير من جديد.

فشعر العراقيون بأنَّهم بين خيارين: إما بناء كيان سياسي جديد بقيادةِ الإمام الحسن عليه السلام، وإما الالتحاق بالكيان القائم الذي يقودُهُ معاوية. مثل هذا الشُّعور لم يكن موجوداً في أيام الإمام علي عليه السلام، لأنَّ الكيان السِّياسي القائم في الشَّام طُرِحَ في أيام الإمام علي عليه السلام، وكان هو الطارئ. لكن الآن، في ذهن الإنسان العادي، صار كيان الإمام الحسن عليه السلام كأنَّهُ هو الطارئ على الكيان السِّياسي القائم.

السبب الثاني: يتمثَّل في الاعتبارات الشَّخصية القائمة في الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام. فهما في منطق العصمة سواء، وفي منطق النَّص الإلهي سواء، لكنَّهما في نظر الجماهير وقتئذٍ لم يكونا سواء.

نحن نعلم أنَّ الحُكم الذي كان يُمارِسه الإمام علي عليه السلام، لم يكن قائماً على أساس نصٍّ إلهي أو العصمة، وإنما كان استمراراً لخطِّ السَّقيفة. غاية الأمر أنَّ هذه الجماهير التي أخطأت حظَّها في المرَّة الأولى، وفي المرَّة الثانية، وفي المرَّة الثالثة، أصابت حظَّها في المرَّة الرابعة. هذه التَّجرُبة التي تقوم على أساسِ مفهومٍ جماهيري - لا على أساس نظرية العصمة والنَّص الإلهي - تدخُل في تقييم الحاكِم اعتبارات كثيرة كانت تعيشها الجماهير عن الإمام علي عليه السلام ولا تعيش مثلَها عن الإمام الحسن عليه السلام:

سوابقُ الإمام علي عليه السلام وصحبتُهُ الطَّويلة لرسولِ الله صلى الله عليه وآله، مواقِفهُ البطوليَّة العظيمة، وسُلطتُهُ الرُّوحية. لكن الإمام الحسن عليه السلام نظراً لصِغَرِ سِنِّهِ، وعدم وجود تاريخ مُماثِل له من هذا القبيل، لم يكن عليه السلام يملك القُدرة على إخضاع النُّفوس بالشكل الذي كان يُتاح للإمام علي عليه السلام.

مضافاً إلى ذلك، أنَّ البيعة التي حصل عليها الإمام علي عليه السلام، كانت أوضح شرعيَّة في نظر الجماهير - التي تُؤمن باتجاه السَّقيفة - من شرعية بيعة الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنَّ بيعة علي عليه السلام تمَّت في المدينة وعلى يدِ الصَّحابة، ولم يختلف في ذلك إلا أناس قليلون جداً، وكان عدد كبير من الصَّحابة لا يزالُ موجوداً على المسرح الاجتماعي والسِّياسي.

أقول: بعض أجزاء خطبة القاصعة تكشف لنا جانباً من الرَّصيد التاريخي للإمام

علي عليه السلام، الذي كان يُذَكِّر به الجماهير، في حين أنَّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن يملِك مثل هذا الرَّصيد في نظر تلك الجماهير. يقول عليه السلام في تلك الخطبة:

«أنا وضعتُ في الصِّغَرِ بكلاكِلِ العرب (= صدورهم، كناية عن الأكابر منهم)، وكسرتُ نواجمَ قرونِ (= القرون الظاهرة الرفيعة، كناية عن أشراف القبائل) ربيعةَ ومُضَر، وقد علمتُم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابةِ القريبة، والمنزلةِ الخصيصة. وضَعني في حِجرِهِ وأنا ولدٌ يَضُمُّني إلى صدرِهِ، ويَكنُفُني في فراشِهِ، ويَمُسُّني جسدَهُ، ويُشِمُّني عَرفَه (= رائحته الزكية). وكان يمضَغُ الشيءَ ثم يُلقمنيه، وما وجدَ لي كذبةً في قول، ولا خطلةَ (= تسرعاً) في فعل. ولقد قرنَ اللهَ به صلى الله عليه وآله من لدُن أن كان فطيماً أعظمَ ملَكٍ من ملائكتهِ، يسلُكُ به طريقَ المكارم، ومحاسِنَ أخلاقِ العالم، ليلَهُ ونهارَهُ. ولقد كنتُ أتَّبِعهُ اتِّباعَ الفصيل (= ولد الناقة) أثرَ أُمِّهِ، يرفَعُ لي في كلِّ يومٍ من أخلاقِهِ علَماً، ويأمُرُني بالاقتداءِ به. ولقد كان يُجاوِرُ في كل سنةٍ بحِراءَ، فأراهُ ولا يراهُ غيري. ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الاسلام، غيرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وخديجةَ وأنا ثالثُهُما، أرى نورَ الوحيِ والرسالة، وأشمُّ ريحَ النبوة»[1].

هذا الرَّصيد التاريخي لم يكن يملِكهُ الإمام الحسن عليه السلام في ذهن أهل العراق.

والحقيقة أنَّ اللُّغة التي استخدَمَها معاوية في رسائله للإمام الحسن عليه السلام، تكشِف عن السَّببين السَّابقين لتنامي الشَّك في الإمام الحسن عليه السلام. أعني كون كيان معاوية السِّياسي أسبق مقارنة بكيانِ الإمام الحسن عليه السلام الطارئ وفقاً للذهنيَّة العامَّة، مضافاً إلى عدم وجود رصيد تاريخي للحسن عليه السلام مقارنةً بعليّ عليه السلام في نظر تلك الجماهير. وبالتالي الحُجَج التي يسوقها معاوية الآن لتبرير مواجهتِهِ للحسن عليه السلام، تختلف عن الحُجَج التي ساقَها لتبريرِ حربِهِ ضدّ علي عليه السلام.

ففي رسالة الإمام الحسن عليه السلام الأولى لمعاوية، نجد أنَّ الإمام الحسن عليه السلام يدعو معاوية إلى مبايعتهِ، بعد أن بايعَهُ أهلُ العراق بوصفهِ امتداداً لأبيهِ الإمام علي عليه السلام. ويتعرَّض في هذه الرِّسالة إلى الظُّلم الذي لحقَ بأهل البيت عليهم السلام من قريش بعد وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم يُشيرُ إلى أنَّ الخلفاءَ الأوائل إن كان لهم ثمة حُجج يتمسَّكونَ بها، فإنَّك يا معاوية لا تملِك ما يملكون من رصيدٍ حتى تحتجَّ بحُجَجِهم. جاء في الرسالة:

«فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى بعثَ محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين، فأظهرَ بِهِ الحقّ، وقمعَ بِهِ

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، ص 300 - 301.

أهلَ الشِّرك، وأعزَّ بهِ العرب عامَّة، وشرَّف من شاءَ منهم خاصَّة، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾[1].

فلمَّا قبضَهُ اللهُ عزوجل تنازَعت العربُ من بعدِهِ، فقالت الأنصار: منَّا أميرٌ ومنكم أمير، فقالت قريش: نحنُ أولياؤهُ وعشيرتُهُ، فلا تُنازعونا سلطانَهُ، فعرفت العربُ ذلكَ لقريش (وأنَّ الحجةَ لهم في ذلكَ على من نازعَهُم أمرَ محمد صلى الله عليه وآله). ثم جاحدَتنا قريش ما عرفَهُ العربُ لهم (ثم حاججنا نحنُ قريشاً بمثلِ ما حاججت بهِ العرب، فلم تُنصفنا قريش إنصافَ العربِ لها)، وهيهات ما أنصفَتنا قريش، وقد كانوا ذوي فضيلة في الدِّين وسابقة في الإسلام (فأمسكنا عن منازعتِهم مخافةً على الدِّين، أن يجدَ المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً يثلمونَهُ بهِ، أو يكون لهم بذلك سببٌ لما أرادوا بهِ من فساده) فرحمةُ الله عليهم.

فالآن فلا غروَ أنَّ منازَعتكَ إيَّانا بغيرِ حقٍّ في الدِّين معروف، ولا أثرَ في الإسلامِ محمود (وأنت ابنُ أعدى قريش لرسولِ الله صلى الله عليه وآله ولكنَّ اللهَ خيَّبكَ وستُردُّ فتعلم لمن عُقبى الدار. تاللهِ لتلقينَّ عن قليلٍ ربَّك، ثم ليجزينك بما قدَّمت يداك، وما اللهُ بظلامٍ للعبيد)، والموعدُ لله بيننا وبينك، ونحن نسألهُ أن لا يؤتنا في هذهِ الدنيا شيئاً يُنقِصنا به في الآخرة.

.... وبعدُ فإنَّ أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب لما نزلَ بهِ الموت، ولأني هذا الأمرَ من بعدهِ. فاتَّقِ اللهَ يا معاوية، وانظُر لأمةِ محمدٍ صلى الله عليه وآله ما تحقِن بهِ دماءَهم وتُصلِح بهِ أمورَهُم (وإنما حملني على الكتابِ إليك الإعذارُ فيما بيني وبينَ اللهِ سبحانه وتعالى في أمرك)، والسَّلام».

ثم دفع الإمام الحسن عليه السلام كتابَهُ هذا إلى رجُلين من أصحابهِ... ووجَّهُما إلى معاوية ليدعواه إلى البيعة، والسَّمعِ والطاعة.

أجاب معاوية على رسالة الإمام الحسن عليه السلام، مُعترِضاً على اتِّهام كبار الصَّحابة بمُنازَعتِهِم لأهل البيت عليهم السلام، مبيناً أنَّ الحُجج التي يتمسَّك بها على أحقيَّتِهِ بالخلافة، تتمثَّل في كونهِ أكبر سنّاً، وأطول تجربةً وأكثر دهاءً من الحسن عليه السلام، مستثمراً بذلك نتائج عملية التَّحكيم التي أسفرت عن اتفاق الحكَمين على خلعِ الإمام علي عليه السلام عن الخلافة. ويلاحظ هنا أنَّ مسألة دَم عثمان قد طويت تماماً!! فهذا الشِّعار، وهذا القميص، كان قد استنفد أغراضه، ولم تعد ثمة حاجة لطرحِهِ من جديد.

جاء في رسالة معاوية للحسن عليه السلام: «أما بعدُ، فقد فهمتُ كتابَكَ، وما ذكرتَ بهِ

(1) سورة الزخرف، الآية: 44.

محمداً صلى الله عليه وآله، وهو خيرُ الأولينَ والآخِرين، فالفضلُ كلهُ فيه صلى الله عليه وآله. وذكرتَ تنازُع الأمرِ من بعدِهِ، فصرَّحَت منهم بأبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبي عبيدة الأمين، وطلحة والزُّبير، وصُلحاء المهاجرين. وكرِهتُ ذلكَ لكَ أبا محمد، وذلكَ أنَّ الأمة لمَّا تنازعت الأمرَ من بعدِ نبيِّها محمد صلى الله عليه وآله، علِمَت أنَّ قريشاً أحَقُّها بهذا الشَّأن، لمكانِ نبيِّها منها، ثم رأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدِّين من المسلمين أن يولُّوا هذا الأمر أعلمَها بالله، وأخشاها له، وأقدَمَها إسلاماً، فاختاروا أبا بكر الصديق. ولو علِموا مكانَ رجُلٍ هو أفضل من أبي بكر يقومُ مقامَهُ، ويذبُّ عن حوزةِ الإسلام كَذَبِهِ، لما عدَلوا ذلكَ عنهُ.

فالحالُ بيني وبينك على ما كانوا عليه (كأنه يريد أن يقول: كما أنَّ قريشاً استأثرت بالخلافة وأقصتكُم عنها، وأنتم قبلتُم الأمر الواقع، فالحال الآن كذلك، فأنا امتدادٌ لقريش، فاقبل أنت الأمر الواقع). ولو علمتُ أنكَ أضبَط لأمرِ الرَّعية، وأحوط على هذهِ الأمة وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جميع الأمور، لسلَّمتُ لكَ هذا الأمر من بعدِ أبيك، (لكني قد علمتَ أني أطولُ منك ولاية، وأقدمُ منكَ لهذهِ الأمة تجربةً، وأكثرُ منك سياسةً، وأكبرُ منك سناً[1]. فأنتَ أحقّ أن تُجيبني إلى هذهِ المنزلة التي سألتني)، لأني قد علمتُ بأنك إنما تدَّعي ما تدَّعيه بحقِّ أبيك، وقد علمتَ أنَّ أباك سارَ إلينا محارباً لنا، ثم صارَ من أمرِهِ إلى أن اختارَ رجُلاً واخترنا رجُلاً ليحكُما بما يصلح عليهِ أمر الأمة، وتعود به الإلفة والجماعة، وأخَذنا على الحَكَمين بذلك عهدَ اللهِ وميثاقه، وأخذا من مثل ذلك على الرِّضا بما حكَما. ثم إنَّهما اتفقا على خلعِ أبيك، فخلعناهُ، فكيف تدعُوني إلى أمرٍ إنَّما تطلبهُ بحقِّ أبيك، وقد خرجَ أبوكَ منه؟ فانظُر لنفسِك أبا محمد ولدينِك، والسَّلام»[2].

السبب الثالث: تسلَّمَ الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم عقيب أبيهِ مباشرةً، والجماهير البسيطة استوحَت من ذلك أنَّ القصة قصة بيت في مقابل بيت، هاشم في مقابل أمية، وليست قصة إسلام في مقابل جاهلية.

لذا نجد أنَّ الذي منعَ عليّاً عليه السلام من الإعلان الرَّسمي والسِّياسي على مستوى الجماهير عن خليفتهِ الإمام الحسن عليه السلام هو تفادي مثل هذا التصوُّر. ولهذا أوصى بإمامة الحسن عليه السلام إلى الحواريين الذين يُؤمنون بالنظرية الإسلامية الصحيحة للإمام، بوصفهِ الحُجَّة من قبل الله من بعدِهِ، لا بوصفه حاكِماً ورئيساً للدولة.

---

(1) كان عمر الحسن عليه السلام 37 سنة عندما بويع.

(2) ابن أعثم، الفتوح، ج2، ص 5 - 6. الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط3، 1998م، بيروت، ص 64 - 67.

أقول: لاحظ على سبيل المثال، باب الإشارة والنَّص على الحسن بن علي عليه السلام، في أصول الكافي، تجد أنَّ علياً عليه السلام أوصى للحسن عليه السلام وهو على فراش الموت وأشهد على وصيتِهِ الحسين عليه السلام ومحمَّداً (ابن الحنفية) وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ودفعَ إلى الحسن عليه السلام كُتُبه وسلاحه. ولا تجد ما يدُلُّ على أنَّ عليّاً عليه السلام أعلن بشكل رسمي أنَّ الإمام الحسن عليه السلام هو الوصي من بعدهِ، لتفادي التصوُّر المغلوط الذي قد ينسبِق لأذهان الجماهير.

لكن مجيئ الإمام الحسن عليه السلام عقب أبيهِ مباشرة، كان في نظر الجماهير شاهداً جديداً على أنَّ معركة صفين ما هي إلا حلقة من حلقات مسلسل الصِّراع بين بني هاشم وبني أمية. وسواء انتصر هذا أو ذاك، فكلاهُما من قريش العدنانية، والجماهير في أعمِّها الأغلب من قحطان.

السبب الرابع: لم يكن الإمام الحسن عليه السلام قد تسرَّعَ للإعلان عن عزمهِ على الحرب مع معاوية والاشتباك المُسلَّح معه. هذا الأمر استغلَّه معاوية، وأشاعَ على أساسه أنَّ الإمام الحسن عليه السلام يُفكِّر في الصُّلح. وكانت لهذه الإشاعة مساهمة كبيرة جداً في توسيع نطاق الشَّك عند المسلمين، وتردُّدهم في أن تكون القضية التي يحاربون من أجلها قضية يشُكُّ فيها القائد نفسه[1].

لقد أشرنا فيما مضى إلى أنَّ الإمام الحسن عليه السلام لم يخرج فور مبايعته لقتال معاوية، والرِّوايات تذكر أنه تمهَّل فترة تمتد من شهر إلى أربعة أشهر، على اختلاف تقدير الرُّواة والمؤرِّخين.

العامل الخامس: لحظة الفراغ. فالإمام علي عليه السلام ملأ بمركزهِ السِّياسي التجربة؛ كان كل إنسان في التجربة مشدوداً بواقع حياته إلى الاعتراف بسُلطة الإمام وشرعيته وأحقيته. لكن عندما فُقِد الإمام في لحظةٍ مفاجئة، من دون سابق أي تمهيد أو إعداد لهذا الخط، عاش المسلمون حينما انطفأت الشعلة - نتيجة اغتيال الإمام - لحظةَ فراغٍ سياسي. حينما خلت السَّاحة من الإمام أخذ يحسّ المسلمون بأنَّهم أصبحوا في مركزٍ يدفعُهم للتَّفكير من جديد في الطَّريق الذي لا بُدَّ أن يختاروه... .طريق معاوية أم طريق الحسن عليه السلام... في حين أنَّ استمرارية الحاكِم كانت تمنع من أن يشعروا بذلك.

ضرورة الصُّلح

لن أتحدَّث الآن عن مسلسل الخيانات الذي وقع في جيش الحسن عليه السلام، وتسلُّل

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص 257 - 261.

بعض قادة جيشه إلى معاوية، ولن أتحدَّث عن استغلال معاوية للمال السِّياسي في شراءِ الذِّمم والضَّمائر، ولن أتحدَّث عن محاولات الاغتيال التي تعرَّض لها الإمام الحسن عليه السلام من أفرادٍ محسوبين على جيشهِ.

سأترُك ذلك كلّه إلى فصل لاحق. لكن أريد أن أُؤكِّد على أنَّ الإمام الحسن عليه السلام أحسَّ أنَّ بقاء التَّجربة الإسلامية العلَوية أصبح شيئاً مُتعذِّراً، وأنَّ انسحابه من الميدان أصبح شيئاً ضرورياً لأجل الإسلام نفسه، وذلك لأنَّ هذه التَّجربة مع هذا الشَّك لا يمكن أن تعيش، فلا بُدَّ أن يُقضى على هذا الشَّك ثم تُستأنف التَّجربة.

ولم يكن بالإمكان أن يُقضى على هذا الشَّك المرير المستعصي إلا بأن ينسحب الإمام الحسن عليه السلام وخط الإمام علي عليه السلام من المعركة، حتى تنكشِف أطروحة معاوية وأهداف معاوية. بعد هذا يرى المسلمون بأُمِّ أعيُنِهم، هؤلاء الذين يعيشونَ الحسَّ أكثر مما يعيشون العقل، يعيشونَ بعُيونِهم أكثر مما يعيشونَ بعقولهم، يرونَ بعُيونِهم أنَّ المعركة التي كان يقودُها الإمام علي عليه السلام مع معاوية هي معركة الإسلام مع الجاهليَّة، لا معركة شخص مع شخص، ولا مصلحة مع مصلحة، ولا عشيرة مع عشيرة. كان لا بُدَّ في منطق التجربة من أن يُحارَب هذا الشَّك ثم تُستأنف التجربة.

ولم يكن بالإمكان، ولا بإمكان اليوم وليس بإمكان أي يوم، أن تنجح تجربة رسالية يقودها قائد يحمل بيدهِ رسالة - هي أكبر من قدرات الأشخاص وأكبر من مصالحهم الخاصَّة - ما لم يكسب مُسبقاً الاقتناع بصحة هذه الرِّسالة وبأهدافها وبضرورتها. ولم يكن بإمكان التجربة السِّياسية وقتئذٍ، من خلال مواصلة وجودها في المعركة أن تكسب هذا الاقتناع. هذا الاقتناع الذي لم يستطع الإمام الحسن عليه السلام أن يكسبه أو أن يحول دون فقدانه بالتدريج، ولهذا كان من الضَّروري أن ينحسِر ظِلُّ الإمام علي عليه السلام عن ميدان الحُكم، لكي تنكشِف أطروحة معاوية، وبعد ذلك يعرف المسلمون أنَّ هذه الأطروحة التي جاهدَ في سبيلها الإمام علي عليه السلام هي أطروحة وجودهم وعقيدتهم ورسالتهم ومصالحهم الحقيقية غير المنظورة لهم، وعندئذٍ يكون بالإمكان استئناف العمل من جديد على أساس اقتناعٍ مسبق[1].

أقول: لذا نجد الإمام الحسن عليه السلام يُلخِّص موقفه قائلاً: «إني أرى الناسَ يقولون إنَّ الحسنَ بن علي عليه السلام بايعَ معاوية طائِعاً غير مُكرَه، وأيمُ اللهِ ما فعلتُ حتى خذَلَني أهلُ

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص 269 - 270.

العراق، ولولا ذلكَ ما بايعتُهُ ولا طرفةَ عين»[1].

الخلاصة أنَّا حلَّلنا في هذا الفصل الوضع العام بعد شهادة الإمام علي عليه السلام وقبيل صُلح الإمام الحسن عليه السلام، وهي الفترة التي امتدَّت ما بين 40-41 هج. فقد تولّى الإمام الحسن عليه السلام الخلافة في ظروفٍ بالغةِ التَّعقيد، ومع جماهير ملأها الشَّك وعدم الإيمان الكامل برساليَّة المعركة ضد معاوية، وبوضوح أهداف هذه المعركة، ولا تتجاوب دينياً وإسلاميَّاً مع هذه المعركة. فإذا أضفنا إلى هذا، الفارق بين شخصيَّة الإمام علي عليه السلام وشخصية الإمام الحسن عليه السلام، لا الفارق بينهما في حساب الله سبحانه وتعالى، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما إمامٌ معصومٌ عند الله، وإنما الفارق بينهما بحسب الرَّصيد التاريخي في أذهان الناس أنفسهم، فإنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يملِكُ رصيداً تاريخياً في نفوس الناس لا يملِك مثله الإمام الحسن عليه السلام. إذا أضفنا هذا إلى ذاك، وأضفنا كون تولي الإمام الحسن عليه السلام للزَّعامة الدينية بعد الإمام علي عليه السلام قوَّى أن تكون الشُّبهة قبَلية، وأنَّ المعركة هي معركة بين بيتٍ وبيت، لا معركة شخص يُمثِّل الرِّسالة مع شخصٍ يُمثِّل الجاهلية... .إلى جانب أنَّ المسلمين لم يكونوا مؤمنين وقتئذٍ بفكرة النَّص من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله... ولم يكن تولِّي الإمام الحسن عليه السلام للزَّعامة بنظرِهِم كإمام منصوص عليه، بل كإمام على أساس من الخطِّ العام للسَّقيفة... وحينئذٍ رأوا بأنَّ الإمامة انتقلت من أبٍ لابنهِ، مما أكَّدَ طبيعةَ المعركة على أساس كونها معركة بيتٍ مع بيت. كل هذا عقَّدَ الموقف، وجعل الشَّك يتصاعَد في المقام، إلى درجة أنَّ خوض معركة منتصرة مع هذا الشَّك أصبحت مستحيلة[2].

لن أتحدَّث عن التطوُّرات الميدانية التي أدت إلى اتخاذ قرار الصُّلح، ولن أتحدَّث عن الصُّلح وبنودِهِ، والوضع الجديد الذي نشأ جرَّاء الصُّلح. أترُك تفصيل ذلك إلى الفصول اللاحقة.

---

(1) ابن طاووس، الملاحم والفتن، ص 110.

(2) محمد باقر الصدر، أئمة أهل البيت عليهم السلام، ص 241 - 242..

(23)

تطوُّرات ميدانية أدَّت إلى الصُّلح

تحدَّثنا عن ظروف تولي الإمام الحسن عليه السلام الخلافة. نريد اليوم دراسة التطوُّرات الميدانية التي أدَّت إلى صُلح الإمام الحسن عليه السلام. في البداية لا بُدَّ أن نتعرَّف على مُكوِّنات جيش الحسن عليه السلام. ومن خلال معرفة هذه المُكوِّنات نستطيع أن نتصوَّر تسلسُل تلك التطوُّرات التي وقعت بشكل مُتسارع.

مكوِّنات جيش الحسن عليه السلام

كتب أبو الفرج الأصفهاني: «وخرجَ الناسُ فعسكروا، ونشطوا للخروج، وخرجَ الحسنُ عليه السلام إلى العسكر، واستخلفَ على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمرَهُ باستحثاثِ الناس وإشخاصِهِم إليه، فجعلَ يستحثُّهم ويستخرجُهُم حتى التأم العسكر»[1].

يقول المفيد في كتابه «الإرشاد»، موضِّحاً مكوِّنات جيش الحسن عليه السلام: «ثم خفَّ معهُ أخلاطٌ من الناس، بعضُهُم شيعةٌ لهُ ولأبيهِ عليهما السلام، وبعضُهُم مُحكِّمة (خوارج) يُؤثِرونَ قتالَ معاوية بكلِّ حيلة، وبعضُهُم أصحابُ فِتن وطمَع في الغنائم، وبعضُهُم شُكاك، وبعضُهُم أصحابُ عصبية اتبعوا رؤساءَ قبائِلِهم لا يرجعونَ إلى دين»[2].

إذا توقفنا قليلاً لدراسة مكوِّنات جيش الحسن عليه السلام، وهو انعكاس لمكوِّنات المجتمع الكوفي آنذاك، سنجده خليطاً من الطوائف التالية:

● **الحزب الأموي:** وأكبر المنتسبين إليه عمرو بن حُريث المخزومي، وعمارة بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، وحُجر بن عمرو، وعُمر بن سعد بن أبي وقاص، وأبو بردة ابن أبي موسى الأشعري، وإسماعيل وإسحاق ابنا طلحة بن عبيد الله وأضرابهم.

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ، ص70.

(2) المفيد، **الإرشاد**، ج 2، ص 10.

وفي هذا الحزب عناصر قوية من ذوي النفوذ والأتباع، كان لها أثرها فيما نكبت به قضية الإمام الحسن عليه السلام من دعاوات ومؤامرات وشقاق.

● الخوارج: وهم أعداء الإمام علي عليه السلام منذ حادثة التَّحكيم، كما هم أعداء معاوية. ومن أقطاب هؤلاء في الكوفة: شبث بن ربعي، وشمر بن ذي الجوشن.

وكان الخوارج أكثر أهل الكوفة لجاجة على الحرب، منذ يوم البيعة، وهم الذين شرطوا على الإمام الحسن عليه السلام عند بيعتهم له حرب الحالِّين الضالِّين - أهل الشَّام - فقبض الإمام الحسنُ عليه السلام يدَهُ عن بيعتهم على الشَّرط، وأرادها «على السَّمعِ والطاعة وعلى أن يُحاربوا من حاربَ ويُسالموا من سالم». فأتوا الحُسين عليه السلام أخاه، وقالوا له: «ابسط يدك نُبايعكَ على ما بايعنا عليهِ أباكَ يومَ بايعناه، وعلى حربِ الحالِّين الضَّالين أهل الشَّام»، فقال الحسين عليه السلام: «معاذَ الله أن أُبايعكم ما دامَ الحسنُ حياً». فانصرفوا إلى الحسن عليه السلام ولم يجدوا بُدّاً من بيعتهِ على شرطه[1].

● الشكَّاكون: طائفة من سكان الكوفة ومن رعاعها المهزومين، الذين لا نيَّة لهم في خيرٍ ولا قُدرةَ لهم على شرّ، ولكن وجودَهُم لنفسِهِ كان شرّاً مستطيراً وعوناً على الفساد وآلة مسخَّرة في أيدي المفسدين. يقول تعالى عن أمثال هذه الفئة: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (= فساداً وشراً) وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ (= ولأفسدوا علاقاتكم وأوضاعكم الداخلية) يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ (= ضعفاء الإيمان والعقول يستمعون لهم ويتأثرون بهم) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2].

● الحمراء: وهم عشرونَ ألفاً من مَسلحة الكوفة، ليسوا عرَباً، وإنما هم المُهجَّنونَ من موالٍ وعبيد، ولعلَّ أكثرهم من أبناء السَّبايا الفارسيات اللائي أُخِذن في «عين التَّمر» و«جلولاء» من سنة 12-17 هج، فهم حملة السِّلاح سنة 41 وسنة 61 في أزمات الحسن والحسين عليه السلام في الكوفة، وهم شرطة زياد الذين فعلوا الأفاعيل بالشِّيعة سنة 49 هج وما بعدها.

● شيعة الحسن عليه السلام: وهم الأكثر عدداً في عاصمةِ الإمام علي عليه السلام، وفي هؤلاء جمهرة من بقايا المهاجرين والأنصار، لحقوا عليّاً عليه السلام إلى الكوفة، وكان لهم من صحبتهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يفرض لهم المكانة الرَّفيعة في الناس. ومن أقطابهم: قيس ابن سعد بن عبادة الأنصاري (صحابي)، وعَدِيّ بن حاتم الطَّائي (صحابي)، وحُجر بن

---

(1) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص 183 - 184.

(2) سورة التوبة، الآية: 47.

عدي الكندي (صحابي قتله معاوية بعد صُلح الحسن)، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي (صحابي قتله معاوية بعد صُلح الحسن)، وسعيد بن قيس الهمداني، وحبيب بن مظاهر الأسدي (استشهد في كربلاء)، والمسيَّب بن نجبة (استشهد في ثورة التوَّابين)... وآخرون من هذا الطراز[1].

دعونا الآن ننتقل لدراسة التطوُّرات الميدانية، والأسباب المباشرة التى أدَّت بالإمام الحسن عليه السلام إلى أن يتَّخذ قراراً بالصُّلح مع معاوية.

التطوُّرات الميدانية التي أدت إلى صُلح الإمام الحسن عليه السلام

1. جواسيس معاوية على الكوفة والبصرة

من الخطوات التي قام بها معاوية بعد بيعة الناس الإمام الحسن عليه السلام إرساله الجواسيس. يقول المفيد في إرشادهِ: «لما بلغَ معاوية بن أبي سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس الحسن عليه السلام، دسَّ رجلاً من حِمير إلى الكوفة، ورجلاً من بلقين (= بنو القين) إلى البصرة، ليكتُبا إليهِ بالأخبار، ويُفسِدا على الحسن عليه السلام الأمور. فعرفَ ذلك الحسن عليه السلام، فأمر باستخراج الحميري من عند حجَّام بالكوفة، فأُخرِجَ فأمرَ بضربِ عُنُقِهِ، وكتبَ إلى البصرة، فاستخرج القيني من بني سُليم، وَضُرِبَت عُنُقه»[2].

وكتبَ الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية بهذا الشَّأن رسالة جاء فيها:

«أما بعد، فإنك دسَستَ الرِّجال للاحتيالِ والاغتيال، وأرصدتَ العيون كأنك تُحِبُّ اللقاء، وما أوشكَ ذلك، فتوقَّعهُ إن شاءَ الله.....»[3].

لاحظ أنَّ هذه الرِّسالة تردُّ على الادِّعاء القائل بأنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يريدُ بالأساس الصُّلح مع معاوية، وأنه لم يكن عازماً أصلاً على مواصلة الحرب التي بدأت بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية.

على أيِّ حال، توقفت المراسلات بين معاوية والإمام الحسن عليه السلام، وخرجَ معاوية من الشَّام متوجِّهاً نحو العراق، واستنفر الإمام الحسنُ عليه السلام جيشَهُ للقتال.

قيل أنَّ خروج معاوية وقعَ بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة الإمام علي عليه السلام، لكن

---

(1) راضي آل ياسين، **صلح الحسن** عليه السلام، منشورات ناصر خسرو، ط4، 1399هـ - 1979م، بيروت، ص68 - 73.

(2) المفيد، **الإرشاد**، ج2 ص 9.

(3) المفيد، **الإرشاد**، ج2 ص 9. الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص 63.

روايات أخرى تتحدَّث عن خروج معاوية بعد شهر أو شهرين وحتى أربعة أشهر. وكتبَ معاوية إلى عُمَّالهِ على النواحي بنُسخةٍ واحدة:

«من عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلانِ بن فلان ومن قِبَله من المسلمين. سلامٌ عليكم. فإني أحمدُ إليكمُ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو. أما بعدُ، فالحمدُ للهِ الذي كفاكُم مؤنة عدوِّكُم وقتل خليفتكم، إنَّ الله بلُطفهِ، وحُسن صنعهِ، أتاحَ لعليٍّ بن أبي طالب رجُلاً من عبادهِ، فاغتالهُ فقتلهُ، فتركَ أصحابَهُ متفرِّقينَ مختلفين، وقد جاءَتنا كتبُ أشرافِهم وقادَتِهم يلتمسونَ الأمانَ لأنفُسِهم وعشائِرهم. فأقبِلوا إليَّ حينَ يأتيكم كتابي هذا بجُهدِكُم وجُندِكُم وحُسن عِدَّتِكُم، فقد أصبتُم بحمدِ اللهِ الثأرَ، وبلغتُمُ الأملَ، وأهلكَ اللهُ أهلَ البغي والعدوان، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته».

ويتَّضِح من هذه الرِّسالة - إن صدقَ معاوية في المعلومات التي ذكرها - أنَّ كُتُب رؤساء القبائل في العراق، التي كانت تطلب منه الأمان، بدأت ترِد إليه من هذه اللَّحظة.

2. الإمام الحسن عليه السلام يأمُر بالخروج إلى النُّخيلة

على أي حال، بعد وصول هذهِ الرسالة إلى عُمَّال معاوية في النواحي، «اجتمعت العساكر إلى معاوية، فسارَ بها قاصداً إلى العراق، وبلغَ الحسن خبرهُ ومسيرهُ نحوهُ، وأنه قد بلغَ جسر منبج[1]، تحرَّكَ عند ذلك، وبعث حُجر بن عدي فأمر العُمَّال والناسَ بالتهيُّؤ للمسير، ونادى المنادي: الصلاة جامعة!

فأقبلَ الناسُ يثوبونَ ويجتمعون. وقال الحسن عليه السلام: إذا رضِيَت جماعةُ الناس فأعلِمني. وجاءَهُ سعيد بن قيس الهمداني، فقال له: اخرُج. فخرجَ الحسنُ عليه السلام، وصعدَ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنَّ اللهَ كتبَ الجهادَ على خلقهِ، وسمَّاهُ كُرهاً، ثم قالَ لأهلِ الجهاد من المؤمنين: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، فلستُم أيُّها

---

(1) تقع منبج في الشمال الشرقي من حلب و تبعد عنها 80 كم. تشتهر بسهولها الخصبة كما تشتهر بأقنيتها الرومانية الشهيرة التي تدعى حالياً «تترب» و عددها 22 وقد جفَّت كلها اليوم، وكانت تروي حوالى 300 هكتار من الأراضي المنبسطة. وهي مدينة عريقة ازدهرت واندثرت أكثر من مرة وعادت. . . . . لها جذور حضارية وثقافية عميقة في التاريخ و كانت محطة تجارية هامة على طريق نقل البضائع ما بين بلاد الرافدين و طرق وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وفلسطين ومصر أيام الإمبراطورية الآشورية، وخاصة في أيام ملوكها العظام نبوخذ نصر وشلمنصر، اللذين جعلا من منبج قاعدة عسكرية وتجارية لنقل البضائع وخاصة خشب الأرز إلى بلاد آشور، وبقيت حتى أيام الرومان مركزاً تجارياً لتسويق البضائع إلى البادية وبلاد الرافدين، ومركزاً عسكرياً لحماية القوافل التجارية.

(2) سورة الأنفال، الآية: 46.

الناس نائلينَ ما تُحِبُّونَ إلا بالصَّبرِ على ما تكرهون. بلغني أنَّ معاوية بلغَهُ أنا كُنا أزمعنا على المسيرِ إليه، فتحرَّكَ لذلك. اخرُجوا رحِمَكُمُ الله إلى معُسكرِكُم بالنُّخَيلة حتى ننظُر وتنظُروا، ونرى وتروا.

قال (الراوي): وإنَّهُ في كلامِهِ ليتخوَّف خُذلانَ الناس له، قال: فسكتوا فما تكلَّمَ منهم أحد، ولا أجابَهُ بحَرف.

أقول: يكشف هذا الموقف بوضوح، أنَّ جيش الحسن عليه السلام يعاني المشاكل ذاتها التي عاناها جيش علي عليه السلام، لأنَّه الجيش نفسه، فالعزائم فاترة، والقلوب يملؤها الشَّك.

يقول الرَّاوي: فلما رأى ذلك عَدِيّ بن حاتم، قامَ فقال: أنا ابنُ حاتم! سبحانَ الله! ما أقبحَ هذا المقام! ألا تُجيبونَ إمامَكُم وابن بنتِ نبيِّكُم؟! أينَ خُطباء مُضَر؟ أين المسلمون؟ أين الخوَّاضونَ من أهلِ المِصر؟ الذين ألسِنَتُهم كالمخاريق في الدَّعةِ، فإذا جدَّ الجدُّ فروَّاغون كالثَّعالب، أما تخافونَ مقتَ الله ولا عيبَها وعارَها؟

ثم استقبلَ (عدي بن حاتم) الحسنَ بوجهِهِ، فقال: أصابَ اللهُ بك المراشِد، وجنَّبَك المكارِه، ووفَّقكَ لما يُحمدُ ودُّهُ وصدرُهُ، قد سمعنا مقالتَكَ، وانتهينا إلى أمرِكَ، وسمِعنا لكَ وأطعنا فيما قلتَ وما رأيت، وهذا وجهي إلى مُعسكري، فمن أحبَّ أن يوافيني فليُواف.

ثم مضى (عدي بن حاتم) لوجهِهِ، فخرجَ من المسجد ودابَّتُهُ بالباب، فركِبَها ومضى إلى النُّخيلة، وأمرَ غُلامَهُ أن يلحقهُ بما يُصلِحهُ، وكان عدي بن حاتم أوَّل الناسِ عسكراً.

وقامَ قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ومعقِل بن قيس الرِّياحي وزياد بن صعصعة التيمي، فأنَّبوا الناسَ ولاموهم وحرَّضوهم، وكلموا الحسنَ عليه السلام بمثلِ كلام عدي بن حاتم في الإجابةِ والقبول.

فقال لهمُ الحسن عليه السلام: صدقتُم رحِمَكُمُ الله! ما زِلتُ أعرِفُكُم بصدقِ النِّية والوفاء والقبول والمودَّة الصحيحة، فجزاكُمُ اللهُ خيراً. ثم نزل[1].

3. تأمير عُبيد الله بن العباس

سارَ الحسن عليه السلام في عسكرٍ عظيم وعدَّة حسنة، حتى نزلَ دير عبد الرحمن، فأقام به ثلاثاً حتى اجتمعَ الناس. ثم دعا عُبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، فقال له: يا ابنَ

---

(1) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص69 - 70.

عم، إني باعثٌ إليك اثني عشرَ ألفاً من فرسانِ العرب وقُرَّاء المِصر، الرَّجُلُ منهم يزيدُ الكتيبة، فسِر بهم، وألِن لهم جانِبَك، وابسُط لهم وجهَك، وافرِش لهم جناحَك، وأدنِهم من مجلِسِك، فإنهم بقيةُ ثقات أميرِ المؤمنين، وسِر بهم على شطِّ الفرات حتى تقطع بهمُ الفرات، ثم تصير إلى مَسكِن، ثم امضِ حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنتَ لقيتهُ فاحبِسهُ حتى آتيك، فإني على أثرِكَ وشيكاً، وليكُن خبركَ عندي كلَّ يوم، وشاور هذين - يعني قيس بن سعد (بن عبادة) وسعيد بن قيس (الهمداني) - وإذا لقيتَ معاوية فلا تُقاتِلهُ حتى يُقاتِلك، فإن فعلَ فقاتِلهُ، وإن أُصِبتَ فقيسُ بنُ سعدٍ على الناس، وإن أُصِيبَ قيسُ بنُ سعد فسعيدُ بنُ قيسٍ على الناس[1].

روى الطبري عن الزُّهري: وكان الحسنُ لا يرى القتال، ولكنَّهُ يريدُ أن يأخذ لنفسهِ ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة، وعرفَ الحسنُ أنَّ قيس بن سعد لا يُوافِقه على رأيه، فنزعَهُ وأمَّرَ عبد الله بن عباس (يبدو أنَّ ثمة تصحيفاً هنا والمقصود: عبيد الله ابن عباس)، فلما علِمَ عبد الله (عبيد الله) بن عباس بالذي يريدُ الحسن عليه السلام أن يأخُذهُ لنفسِهِ، كتبَ إلى معاوية يسألهُ الأمان ويشترط لنفسِهِ الأموال التي أصابَها، فشرطَ ذلك له معاوية[2].

أقول: أختلف تماماً مع هذا التَّحليل، أرى أنَّه يتعمَّد تصوير الإمام الحسن عليه السلام على أنَّه كان يريد أساساً الصُّلح بغض النظر عن الظروف والملابسات، وإلا فالهدف الذي أرادَهُ الإمام الحسن عليه السلام - وفقاً لهذا التَّحليل - لا يتطلَّب تسيير جيوش، بل يكفي إرسال رُسُل يُفاوضون معاوية. نعم، يبقى ثمة سؤال: لم أمَّر الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله ابن عباس، ولم يؤمِّر قيساً؟

الجواب: الإمام الحسن عليه السلام كان مع أبيهِ عليه السلام في صفين وما بعد صفين، ولمسَ بشكل مباشر عدم تماسُك الجبهة الدَّاخلية والحالة النَّفسية لأهل العراق، وربَّما كان عليه السلام يتوقَّع أن تحصل تطوُّرات قد تضطرُّه لعقد الصُّلح، وحينَها قد لا يكون ثمةَ ضمان بأن يلتزم قيس بن سعد بوقف الحرب والانسحاب وقبول الصُّلح. وهناك شواهد سابقة ولاحقة على طريقة استجابة قيس للأوامر، منها موقفه من أمر الإمام علي عليه السلام بحسم ملف أهل خربتا في مصر، ومنها موقفه قُبيل وأثناء وبعد صلح الحسن عليه السلام. بل إن الطبري نفسه كتب: قيل إن أول من بايعه (= بايع الحسن عليه السلام) قيس بن سعد، فقال له:

---

(1) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص71.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص121.

ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عزوجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، وقتال المحلِّين! فقال له الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، فإنَّ ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت، وبايعه الناس[1]. لكن الأمر الذي لم يكُن في الحسبان قط، هو خيانة عبيد الله بن عباس، التي سنأتي إليها بعد قليل.

كتب الأصفهاني: وسارَ عُبيدُ الله حتى انتهى إلى شينور، حتى خرجَ إلى شاهي، ثم لزمَ الفرات والفلُّوجة، حتى أتى مَسكِن.

سوف نعود إلى عُبيد الله بن عباس وما جرى في مَسكِن، لكن في الفقرة التالية سنتوقف عند الإمام الحسن عليه السلام وما جرى في معسكرِهِ بعد خروجِهِ من الكوفة.

4. اختبار الإمام الحسن عليه السلام لأصحابِهِ وما قام به وفد معاوية

كتب الأصفهاني: «وأخذَ الحسنُ على حمَّام عُمَر حتى أتى دير كعب، ثم بكر، فنزلَ ساباط دون القنطرة، فلما أصبحَ نادى في الناس: الصلاةُ جامعة! فاجتمعوا، فصعدَ المنبر فخطبهم فقال:

الحمدُ للهِ كُلَّما حمِدَهُ حامد، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله كلما شهدَ له شاهد، وأشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أرسلَه بالحقِّ، وائتمنهُ على الوحي صلى الله عليه وآله . أما بعد، (أيُّها الناس، إنكم بايعتموني على أن تُسالموا من سالمتُ، وتُحاربوا من حاربت)[2]، فواللهِ إنِّي لأرجو أن أكونَ قد أصبحتُ بحمدِ الله ومنِّهِ وأنا أنصحُ خلق الله لخلقهِ، وما أصبحتُ محتمِلاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة، ألا وإنَّ ما تكرهونَ في الجماعةِ خيرٌ لكم مما تُحبُّونَ في الفُرقة، ألا وإني ناظرٌ لكم خيراً من نظرِكُم لأنفُسِكُم، فلا تُخالِفوا أمري، ولا ترُدُّوا عليَّ رأيي. غفرَ اللهُ لي ولكم، وأرشدَني وإياكُم لما فيهِ المحبة والرضا[3]. ثم نزل.

أقول: لاحظ أنَّ خطاب الإمام الحسن عليه السلام فيه تصريحٌ واضح عن مشاعرهِ وما يحمِله قلبُهُ من مودَّة ومحبة، وربَّما أراد بذلك مسح وتجاوز ما وقَرَ في النُّفوس بسبب تداعيات حرب صفين والنَّهروان. لكن كيف سيقرأ جيشه هذا الخطاب المليء بالمودَّة والرَّحمة؟

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص121.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 7.

(3) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص71 - 72.

يقول (الرَّاوي): فنظرَ الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ، وقالوا: ما ترونَهُ يريد بما قال؟
قالوا: نظُنُّهُ يريدُ أن يُصالح معاوية، ويُسلِّم الأمرَ إليهِ، كفرَ واللهِ الرَّجُل!
ثم شدُّوا على فُسطاطِهِ، فانتهبوهُ[1].

وفي روايةٍ أخرى: فلما سمعَ الناسُ هذا الكلام من الحسن عليه السلام كأنهُ وقعَ بقلوبِهم أنَّهُ خالع نفسهُ من الخلافة، ومُسلِّم الأمرَ لمعاوية، فغضبوا لذلكَ، ثم بادروا إليهِ من كلِّ ناحية، فقطعوا عليهِ الكلام، وانتهبوا عامَّةَ أثقالهِ، وخرَقوا ثيابَهُ، وأخذوا مِطرَفاً كانَ عليه، وأخذوا أيضاً جاريةً كانت معه، وتفرَّقَ عنهُ عامةُ أصحابهِ[2].

وفي روايةٍ ثالثة: فلما سمعَ أصحابهُ ذلك، نظرَ بعضُهُم إلى بعضٍ، فقالَ من كان معَهُ ممن يرى رأيَ الخوارج: كفَرَ الحسنُ كما كفرَ أبوه من قبلهِ[3]!

لكن قبل أن نتحدَّث عما جرى من تطاولٍ على مقام الإمام الحسن عليه السلام بعد خُطبتِهِ، ينقل لنا اليعقوبي صورة ثانية، تتحدَّث عن حادثة أخرى بوصفها هي السَّبب في انفلات الزِّمام في عسكرِ الحسن عليه السلام وتطاولهم عليه. يقول اليعقوبي في تاريخه:

«وجَّهَ معاوية إلى الحسنِ المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الله بن أمِّ الحكم، وأتوهُ وهو بالمدائن نازلٌ في مضاربهِ. ثم خرَجوا من عندهِ وهم يقولونَ ويُسمِعونَ الناس: إنَّ اللهَ قد حقنَ بابنِ رسولِ الله الدِّماء، وسكَّنَ بهِ الفتنة، وأجابَ إلى الصُّلح. فاضطربَ العسكرُ، ولم يُشكِّك الناسُ في صِدقِهم، فوثبوا بالحسنِ فانتهبوا مضارِبَهُ وما فيها»[4].

وفي صورةٍ ثالثة، يقولُ الطبري: «فبينا الحسنُ عليه السلام في المدائن، إذ نادى مُنادٍ في العسكر: ألا إنَّ قيسَ بن سعد قُتِل فانفروا، فنفروا ونهبوا سُرادِق الحسن عليه السلام حتى نازعوهُ بساطاً كان تحتَهُ...»[5].

وسواء كان التطاول على الإمام الحسن عليه السلام وقعَ بعد خطبته التي كانت ملأى بالمودَّة والرَّحمة، أو كان السَّبب هو الإشاعة التي أطلقها وفدُ معاوية بين أفراد جيش الحسن عليه السلام، أو كان السَّبب هو الإشاعة التي نُشرت عن مقتل قيس بن سعد، فإنَّ

---

(1) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص72.
(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 7.
(3) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص200.
(4) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص 215.
(5) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص122.

المؤرِّخين يتَّفقون على أنَّ هؤلاء الغوغاء «أخذوا مُصلاهُ من تحتهِ، ثم شدَّ عليهِ عبد الرحمن بن عبدالله بن جعال الأزدي، فنزعَ مطرَفَهُ (= رداء من خز) عن عاتقهِ، فبقيَ جالِساً مُتقلِّداً سيفَهُ بغيرِ رداء، (واختلفَ الناسُ فصارت طائفة معهُ، وأكثرُهم عليه.

فقال عليه السلام : الله أنتَ المستعان، فأمرَ بالرَّحيل) فدعا بفرَسِهِ، فرَكِبَهُ، وأحدقَ به طوائفُ من خاصتهِ وشيعتهِ، ومنعوا منهُ من أرادَهُ، ولاموهُ وضعَّفوهُ لما تكلَّمَ به.

فقال: ادعوا لي ربيعة وهمدان. فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناسَ عنه، ومعهم شوبٌ (= خليط) من غيرهِم.

فلما مرَّ في مظلم ساباط، قامَ إليهِ رجلٌ من بني أسد، ثم من بني نصر بن قُعين يُقالُ له جرَّاح بن سِنان، وبيدهِ مِعوَل (أو مِغوَل: سيف دقيق له قفا يكون غمدُهُ كالسوط)، فأخذَ بلجامِ فرسهِ، وقال: اللهُ أكبر! يا حسن أشركَ أبوك، ثم أشركتَ أنت. وطعنهُ بالمِعوَل (كادَت أن تأتي عليه)[1]، فوقعت على فخذهِ، فشقَّتهُ حتى بلغت أربيَتَهُ (= أصل الفخذ)، وسقطَ الحسنُ عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضربَ الذي طعنَهُ بسيفٍ كانَ بيدهِ، واعتنقهُ، فخرَّا جميعاً إلى الأرض. فوثبَ عبدُ الله بن الأخطل الطائي، ونزعَ المِعوَل من يدِ جرَّاح بن سنان، فخضخضهُ به، وأكبَّ ظبيان بن عُمارة عليه، فقطعَ أنفهُ، ثم أخذا له الآجُر، فشدخا رأسَهُ ووجهَهُ حتى قتلوه.

(وأفاقَ الحسنُ عليه السلام من غشيتهِ، فعصَّبوا جُرحَهُ وقد نزفَ وضعُف) وحُمِلَ الحسنُ عليه السلام على سريرٍ إلى المدائن، وبها سعيدُ بن مسعود الثقفي والياً عليها من قِبَلهِ (عم المختار بن أبي عبيد)، وقد كانَ عليٌّ عليه السلام ولاَّهُ المدائن، فأقرَّهُ الحسنُ عليه السلام عليها، فأقامَ عندَهُ يُعالِجُ نفسَهُ[2].

أقول: ما جرى على الإمام الحسن عليه السلام من تطاول من أهل العراق، يمكن النَّظر إليه على أنَّه من إرهاصات كربلاء... فثقافة التطاوُل والعنف اللَّفظي التي بدأت في أواخر خلافة الإمام علي عليه السلام ، والتي تطوَّرت إلى التجرؤ على اغتياله، هي نفسها الثَّقافة التي جرَّأت هؤلاء على الإمام الحسن عليه السلام ، وهي ذاتها التي سينطلق منها قتلة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

5. ما يُنسَب إلى المختار:

ينقل الطبري أنَّ المختار قال لعمِّه: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 8

(2) أنظر أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص 16.

قال: توثق الحسنَ وتستأمن بهِ إلى معاوية. فقال له سعد: عليكَ لعنةُ الله أثِبُ على ابنِ بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فأوثقه! بئسَ الرَّجُلُ أنت[1]. ونقلَ ما يقرب منه ابن الجوزي في التَّذكِرة، وابن سعد في الطبقات[2].

أقول: كنتُ في البدء أميل إلى أنَّ هذه الرِّواية مكذوبة على المختار، لكن الشيخ الصَّدوق روى في علل الشَّرائع أنَّهُ عندما جاءوا بالحسن عليه السلام وهو مطعونٌ في فخذِهِ إلى عمِّ المختار، قال المختار لعمِّهِ: «تعال نأخُذ الحسن ونُسلِّمهُ إلى معاوية فيجعل العراقَ لنا، فبدرَ بذلكَ الشِّيعة من قولِ المختار لعمِّهِ، فهمُّوا بقتل المختار، فتلطَّف عمُّهُ لمساءلةِ الشِّيعة بالعفوِ عن المختار، ففعلوا»[3].

وينقل السيد المرتضى في كتاب «تنزيه الأنبياء» ما يقرُب من ذلك، على ما نقله عنه المجلسي في بحار الأنوار[4].

6. خيانة عبيد الله بن عباس العظمى

دعونا الآن نترك معسكر الحسن عليه السلام، وننتقل إلى عبيد الله بن العباس الذي أرسلَهُ الإمام الحسن عليه السلام مع جيشٍ للتَّصدي لمعاوية. كتب الأصفهاني في مقاتل الطالبيين:

«ثم إنَّ معاوية، وافى حتى نزل قرية يقال لها الحبوبية بمَسكِن، فأقبلَ عُبيد الله بن العباس حتى نزل بإزائهِ. فلما كانَ من غدٍ وجَّهَ معاوية بخيلهِ إليه، فخرجَ إليهم عُبيدُ الله فيمن معه، فضربَهُم حتى ردَّهُم إلى معسكرهِم.

فلما كانَ الليلُ أرسلَ معاوية على عُبيدِ الله بن العباس أنَّ الحسنَ قد راسلني في الصُّلح، وهو مسلمٌ الأمرَ إليَّ، فإن دخلتَ في طاعتي الآن كنتَ متبوعاً، وإلا دخلتَ وأنت تابع، ولكَ إن جئتني الآن أن أُعطيكَ ألفَ ألفَ درهم، يُعجَّل لك في هذا الوقت النصف، وإذا دخلتُ الكوفة النصفُ الآخر.

فانسلَّ عبيدُ الله إليهِ ليلاً (عبيد الله هذا الذي قتل بُسر بن أرطاة - الذي أرسله معاوية - ولديه)، فدخلَ عسكرَ معاوية، فوفى لهُ بما وعدَهُ.

وأصبحَ الناسُ ينتظرونَ عُبيد الله أن يخرُج فيُصلي بهم، فلم يخرُج حتى أصبحوا.

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص 122.
(2) أنظر حواشي كتاب **بحار الأنوار**، ج44، ص28 - 29.
(3) الصدوق، **علل الشرايع**، دار البلاغة، باب 160 ، ص 221.
(4) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج44، ص27 - 28.

فطلبوهُ فلم يجِدُوهُ، فصلى بهم قيسُ بن سعدُ بن عبادة، ثم خطبهم[1] فثبَّتهم، وذكرَ عُبيد الله فنالَ منهُ، ثم أمرَهُم بالصَّبرِ والنهوض إلى العدو، فأجابوهُ بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدوِّنا على اسمِ الله، فنزلَ فنهضَ بهم.

وفي رواية اليعقوبي: أنَّ عُبيد الله صارَ إلى معاوية في ثمانيةِ آلاف من أصحابه[2].

هنا يثار التساؤل التالي: هل سارَ عبيد الله بمفردهِ ليلاً إلى معسكر معاوية؟ أم سار مع ثمانية آلاف من أصحابه؟

قولان: لكن الأرجح أنهُ سارَ بمفردهِ ليلاً، وأدى انسلالُهُ هذا، مضافاً إلى ما وصل إليهم من أخبار طعن الإمام الحسَن عليه السلام في فخذهِ، إلى انسلالِ ثمانية آلاف من أصحابهِ.

«وجعلَ قيسُ ينتظِرُ الحسنَ بن علي أن يقدِم عليه، وهو لا يعلم ما الذي نزلَ به».
(قال الرَّواي) فبينا هو كذلك، إذ وقعَ الخبرُ في العسكرين أنَّ الحسنَ بن عليٍّ قد طُعِنَ في فخذهِ، وأنه قد تفرَّقَ عنهُ أصحابُهُ.

فاهتمَّ قيسُ بن سعد أن يشغلَ الناسَ بالحربِ لكي لا يذكروا هذا الخبر، فزحفَ القومُ بعضُهم إلى بعض، فاختلطوا للقتال. فقُتِلَ من أصحابِ معاوية جماعة، وجُرِحَ منهم بشرٌ كثير، وكذلك من أصحابِ قيس بن سعد، ثم تحاجزوا.

وأرسلَ معاوية إلى قيس، فقال: يا هذا على ماذا تُقاتلنا، وتقتُل نفسَكَ وقد أتانا الخبر اليقين بأنَّ صاحِبَكَ قد خلعَهُ أصحابُهُ، وقد طُعِنَ في فخذهِ أشفى منها على الهلاك، فيجب أن تكُفَّ عنا، ونكُفَّ عنك إلى أن يأتيكَ علمُ ذلك.

(قال الرَّواي) فأمسكَ قيسُ بن سعد عن القتال، ينتظرُ الخبرَ. قال (الرَّواي) وجعلَ أهلُ العراق يتوجَّهونَ إلى معاوية قبيلةً بعد قبيلة، حتى خفَّ عسكرُهُ، فلما رأى ذلك كتبَ إلى الحسنِ بن علي، يُخبرهُ بما هو فيه[3].

سنعود بعد قليل لشرح موقف الإمام الحسن عليه السلام بعد وصول كتاب قيس.

الآن، إذا أردنا أن نستخدم لُغة الأرقام لمعرفة كيف اختلَّت موازين القوى العسكرية بشكلٍ خطير لمصلحة معاوية، نقول: إنَّ جيشَ الحسن عليه السلام في مَسكِن كان مكوناً من 12 ألفاً، في قبال جيش معاوية المكوَّن من 60 ألف مقاتل، فتكون نسبة جيش

---

(1) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص72 - 73.
(2) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص 214.
(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 8 - 9.

الحسن عليه السلام إلى جيش معاوية ابتداء هي 20%، أي الخمس. ثم فرَّ من جيش الحسن عليه السلام 8 آلاف، إذن نسبة الفرار هي الثلثان، فصار عدد المتبقِّين 4 آلاف في قبال جيش معاوية المكوَّن من 60 ألف مقاتل، فتُصبح نسبة جيش الحسن عليه السلام إلى جيش معاوية بعد عمليات الفرار أقل من 10%.

7. محاولة معاوية شراء قيس

يقول اليعقوبي في تاريخه: وجَّهَ معاوية إلى قيس بن سعد ألفَ ألفَ درهم على أن يصيرَ معهُ أو ينصرفَ عنهُ، فأرسل إليهِ بالمال، وقال له: أتخدَعُني عن ديني[1]؟!

نعود لرواية الأصفهاني. يقول الرَّاوي: «وخرجَ إليه بُسر بن أرطاة في عشرين الفاً، فصاحوا بهم (= صاح أهل الشَّام بأهل العراق): هذا أميرُكُم (= عبيد الله) قد بايعَ، وهذا الحسن قد صالحَ، فعلامَ تقتلونَ أنفُسَكم؟!

فقال لهم قيس بن سعد: اختاروا إحدى اثنتين، إما القتال مع غيرِ إمام، وإما أن تبايعوا بيعةَ ضلال، فقالوا: بل نُقاتِل بلا إمام، فخرجوا فضربوا أهلَ الشَّام حتى ردُّوهم إلى مصافِّهم».

وكتبَ معاوية إلى قيس يدعوهُ ويُمنِّيه، فكتبَ إليه قيس: لا واللهِ لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينكَ الرُّمح، فكتبَ إليه معاوية (لما يئس منه):

«أما بعد، فإنك يهوديٌّ ابنُ يهودي[2]، تُشقي نفسَكَ وتقتُلُها فيما ليسَ لك، فإن ظهرَ أحبُّ الفريقينِ إليكَ نبذكَ وغدرَكَ[3]، وإن ظهرَ أبغَضُهُم إليكَ نكَّلَ بكَ وقتلك[4]. وقد كانَ أبوكَ أوترَ غير قوسِه، ورمى غير غرضِه، فأكثرَ الحَزَّ[5] وأخطأ المِفصَل، فخذلهُ قومُهُ[6]، وأدركَهُ يومُهُ، فماتَ بحوران طريداً غريباً، والسَّلام».

فكتبَ إليه قيس بن سعد:

---

(1) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 214.

(2) تعريض به لكونه من يثرب التي كان يسكنها اليهود.

(3) إن انتصر الحسن عليه السلام القرشي نبذك وغدرك، لأنَّ قريش نبذت وغدرت بالأنصار، خصوصاً الخزرج.

(4) إن انتصرت أنا (معاوية) فسوف أُنكِّل بك وأقتُلك على إصرارِك على حربي، وثأراً لقريش من الخزرج لما فعلت في بدر وغيرها.

(5) عندما انبرى لقتال قريش في بدر وما بعدها.

(6) عندما انقلب عليه الأوس ووجهاء المهاجرين في السَّقيفة وأوشكوا أن يقتلوه تحت أقدامهم.

«أما بعد، فإنما أنتَ وثنٌ ابنُ وثن[1]، دخلتَ[2] في الإسلام كُرهاً، وأقمتَ فيه فَرَقاً، وخرجتَ منهُ طَوعاً، ولم يجعل اللهُ لكَ فيه نصيباً، لم يقدُم إسلامُكَ، ولم يحدُث نفاقُك، ولم تزل حرباً للهِ ورسولِهِ، وحزباً من أحزابِ المشركين، فأنتَ عدو الله ورسولِهِ والمؤمنينَ من عباده. وذكرتَ أبي، فلعمري ما أوترَ إلا قوسَهُ، ولا رمى إلا غرضَهُ، فشغبَ عليهِ من لا يُشقُّ غبارُهُ، ولا يُبلغُ كعبُهُ[3]. . . . وزعمتَ أني يهوديٌّ ابن يهودي، وقد علمتَ وعلِمَ الناسُ أني وأبي أعداءُ الدِّين الذي خرجتَ منه (= الكفر)، وأنصارُ الدِّين الذي دخلتَ فيه وصِرتَ إليه (= الإسلام)، والسَّلام».

فلما قرأ معاوية كتابهُ غاظَهُ، وأراد إجابتَهُ. فقال له عمرو: «مهلاً، فإنك إن كاتبتهُ أجابكَ بأشدِّ من هذا، وإن تركته دخلَ فيما دخلَ فيه الناس، فأمسِك عنه»[4].

يقول اليعقوبي في تاريخه: «وكان معاوية يدُسُّ إلى عسكرِ الحسن عليه السلام من يتحدَّث أنَّ قيس بن سعد قد صالحَ معاوية وصارَ معه، ويُوجِّه إلى عسكرِ قيس من يتحدَّث أنَّ الحسنَ عليه السلام قد صالحَ معاوية وأجابَهُ»[5].

أقول: لنتأمَّل قليلاً في حربِ الشَّائعات، وندرُس تأثير شائعات من هذا القبيل في أولئك الذين كانوا مع قيس في مَسكِن، وتأثيرها في أولئك الذين كانوا مع الإمام الحسن عليه السلام في المدائن. . . .

أولئك الذين كانوا يحاربون مع قيس، عندما يجدون أنَّ قائدهم الأساسي (عبيد الله ابن العباس) قد استسلم وسلَّمَ الأمرَ إلى معاوية، ويسمعونَ أنَّ الإمام الحسن عليه السلام قد أُصيبَ في فخذِهِ وكادَ أن يُقتل. . . لا نلومُهُم إذا أخذوا احتمال تسليم الإمام الحسن عليه السلام الأمرَ إلى معاوية بجدِّية.

وأولئك الذين كانوا قد بقوا مع الإمام الحسن عليه السلام، عندما يرون بأُمِّ أعيُنِهم تعرُّض الإمام الحسن عليه السلام لمحاولة اغتيال جِدِّية كادت تودي بحياته، ويلمسون بنحوٍ مباشر الفوضى العارِمة التي تسود جيش الحسن عليه السلام، ويسمعون من ناحيةٍ أخرى أنَّ عبيد الله

---

(1) تعريض به لكونه ممن عبد الأصنام في مكة.

(2) وفيه مدح للمسلمين من الأوس ووجهاء المهاجرين، كي يقطع الطريق أمام معاوية من الاصطياد في الماء العكر، كما يقولون.

(3) وبالتالي لا تقارن نفسك بالسَّابقين إلى الإسلام من وجهاء المهاجرين والأوس وغيرهم.

(4) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص73 - 74، أيضاً: ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج 16، ص 22 - 25.

(5) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص 214.

ابن العباس قد ارتكب الخيانة العظمى واستسلم لمعاوية، وأنَّ ثلثي الجيش قد انسلَّ إلى معاوية، فلا نلومُهُم إذا أخذوا إشاعة استسلام قيس بن سعد بجِدِّية. . . .

نعم، كانت حرب إشاعات، نمت سريعاً، واشتعلت كالنار في الهشيم. ونجح معاوية في توظيف الإشاعات وتحريكِها وانتهاز الفُرصَة أيَّما نجاح.

إذا أضفنا إلى حرب الإشاعات عدم رَّغبة قسم كبير من جيش الحسن عليه السلام في القتال، والذِّكريات المؤلِمة لحرب صفين، والوعود والأماني التي كان يعِدُهُم بها معاوية، ودعوته لهم، نستطيع أن نفهم حالة التفكُّك السَّريع لجيش الحسن عليه السلام والفوضى التي ألمت به.

يقول تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1] و﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾..[2]!

8. رسائل رؤساء القبائل إلى معاوية وتوالي الخيانات

وينقل الصَّدوق في عِلَل الشَّرائع: «ودسَّ معاوية إلى عمرو بن حُريث والأشعث بن قيس وحجَّار بن أبجر وشبث بن ربعي دسيسة[3]، وآثرَ كلّ واحدٍ منهم بعينٍ من عيونه، إنك إذا قتلتَ الحسن، فلكَ مائة ألف درهم، وجُندٌ من أجناد الشَّام، وبنتٌ من بناتي. فبلغَ الحسن عليه السلام ذلك، فاستلأمَ (= لبس اللأمة)، ولبسَ درعاً وكفَّرها (= سترَها)، وكان يحترِز ولا يتقدَّم للصلاةِ بهم إلا كذلك. فرَماهُ أحدُهُم في الصلاةِ بسَهمٍ، فلم يثبُت فيهِ لما عليهِ من اللأَّمة»[4].

وقال المفيد في إرشاده: «وكتبَ جماعةٌ من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطَّاعة له في السِّر، واستحثوهُ على السَّيرِ نحوَهم، وضمنوا له تسليمَ الحسن عليه السلام عند دُنُوِّهم من عسكرِهِ أو الفتك به، وبلغَ الحسن عليه السلام ذلك.

ووردَ عليه كتابُ قيس بن سعد (بشأن انسلال عبيد الله بن العباس وتأثير وصول خبر طعنه في فَخذِهِ) فازدادت بصيرةُ الحسن عليه السلام بخُذلان القوم له، وفساد نيَّات المُحكِّمة فيهِ بما أظهروهُ له من السبِّ والتكفير واستحلالِ دمِهِ ونهبِ أموالِهِ. ولم يبقَ معه من يأمن

(1) سورة النساء، الآية: 120.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(3) بعض هؤلاء سيصبح من قتلة الحسين عليه السلام بعد أن كانوا من أنصار علي عليه السلام في صفين... هنا نرصد الانحراف الواضح في بداياته.

(4) الصدوق، علل الشرايع، باب 160، ص 220 - 221.

غوائِلهُ إلا خاصَّة من شيعتهِ وشيعة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهم جماعة لا تقومُ لأجنادِ الشَّام»(1).

وهكذا توالَت الخيانات في جيش الإمام الحسن عليه السلام، ومن تلك الخيانات «أنَّ الحسنَ عليه السلام بعثَ إلى معاوية قائداً من كِندة في أربعة آلاف، فلمَّا نزلَ الأنبار بعثَ إليهِ معاوية بخمسمائة ألف درهم، ووعدَهُ بولاية بعض كور الشَّام والجزيرة، فصارَ إليه في مائتين من خاصته. ثم بعث عليه السلام رجُلاً من مُراد ففعل كالأوَّل، بعدما حلفَ الأيمانَ التي لا تقومُ لها الجبال أنه لا يفعل، وأخبرَهُم الحسن عليه السلام أنه سيفعل كصاحبِهِ»(2).

انطلاقاً من هذه المعطيات، وهذا التَّدهور الدراماتيكي، وهذا المسلسل الخطير من الخيانات، اضطرَّ الإمام الحسن عليه السلام أن يتجرَّع السُّم ويقبل الصُّلح مع معاوية.

الخلاصة: تحدَّثنا في هذا الفصل عن أسباب صُلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، ويمكن إيجاز ذلك في الأسباب التالية:

1. ضعف أنصار الإمام الحسن عليه السلام وتخاذلهم وعدم انصياعهم لأوامره بعد تأثير دسائس وإشاعات معاوية فيهم، وبهذا سوف لا تجدي المقاومة بل سوف تتحتَّم الانتكاسة أمام مكر معاوية، وعلى الإمام الحسن عليه السلام أن يُحافظ على بقاء هذا الخط وتناميه في مجتمع يسودُهُ مكر معاوية وخدائعه.

2. ويترتَّب على انتكاسة جيش الإمام الحسن عليه السلام استشهاده مع الخُلَّص من أهل بيته وأصحابه، أو أسرهم وبقاؤهم أحياء في سجن معاوية، أو إطلاق سراحهم مع بقائهم في موقع الضَّعف بعد الامتنان عليهم بالحُرِّية. وكل هذه السيناريوهات غير مقبولة. فالاستشهاد - مثلاً - إذا لم يترتَّب عليه أثر مشروع عاجل أو آجل فلا مُبرِّر له.

3. صيانة الثُّلة المؤمنة بحقَّانية أهل البيت عليهم السلام، وحفظهم من التَّصفية والإبادة الأموية الشَّاملة بعد إحراز بقاء الحقد الأموي لبني هاشم ومن يحذو حذوهم، كما أثبتته حوادث التاريخ الإسلامي الدَّامي(3).

---

(1) المفيد، **الإرشاد**، ج2، ص 12 - 13.

(2) محسن الأمين، **أعيان الشيعة** 4/ 22. أيضاً أنظر: قطب الدين الراوندي، **الخرائج والجرائح**، ج2، ص575.

(3) طبعاً المؤمنون تعرضوا لتصفية رغم الصلح (كشهادة حُجر بن عدي وعمرو بن الحَمِق وميثم التمار... إلخ)، لكن لو لم يتم الصُّلح وحال جيش الحسن عليه السلام ما ذكرنا، لوقعت تصفية شاملة وملاحقات أشد وأقسى مما وقع، لاحظ أيضاً أنه استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام عشرون من أصحاب الإمام علي عليه السلام وهي نسبة عالية من أنصاره عليه السلام.

4. حقن دماء المسلمين حيث لا تجدي الحرب مع الفئة الباغية.

5. كشف واقع المخطَّط الأموي، وتحصين الأمة الإسلامية ضدّه، بعد أن مهَّدت الخلافة لسيطرة صبيان بني أمية على زمام قيادة الأمة المسلمة، والتلاعب بمصير الكيان الإسلامي.

6. ضرورة تهيئة الظُّروف الملائمة لمقارعة الكفر والنِّفاق المستتر من موقع القُوَّة[1].

في الفصل التالي نريد أن نرى ما الذي قام به الإمام الحسن عليه السلام لتنفيذ القرار الذي انتهى إليه، وهو الصُّلح مع معاوية؟ وما هي البنود التي حرصَ عليه السلام على أن تكون مُتضمَّنة في عقدِ الصُّلح؟ وإلى أيِّ حدٍّ التزم الطرف الآخر بنود هذا الصُّلح؟

---

(1) المجمع العالمي لأهل البيت، أعلام الهداية، الإمام الحسن عليه السلام، ط1، 1422هج، قم، ص 158 - 159.

(24)

صُلح الإمام الحسن عليه السلام وبنوده

بدأنا في الفصل السابق بسرد تسلسل الأحداث والتطوُّرات الميدانية التي أدَّت إلى اتخاذ الإمام الحسن عليه السلام قرار الصُّلح مع معاوية، وقُلنا بأنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد خرجَ من الكوفة مع جيشِهِ لقتال معاوية، وأرسلَ قبل ذلك عبيد الله بن العباس مع جيشٍ لصدٍّ وإيقاف معاوية عن التقدُّم نحو العراق. . . وتحدَّثنا عن خيانة عبيد الله بن العباس وانسلاله إلى معسكر معاوية، ثم انسلال عدد كبير من أفراد هذا الجيش إلى معاوية، وبقاء قيس بن سعد حائراً مع ما بقي من الجيش، خصوصاً عندما وردت أنباء عن تعرُّض الإمام الحسن عليه السلام لمحاولة اغتيال وإصابته في فخذِهِ وانتهاب رَحلِهِ.

نريد في هذا الفصل استكمال سرد تلك الأحداث والتطوُّرات، لنتحدَّث بعد ذلك عن بنود الصُّلح ومُبرِّراتها، ودخول معاوية الكوفة وما جرى بعد دخولِهِ إليها، ثم نختم بالمعْتَرِضين على الصُّلح من أصحاب الحسن عليه السلام وجواب الإمام الحسن عليه السلام عن تلك الاعتراضات.

الإمام الحسن عليه السلام يتجرَّع السُّم بقبولِهِ الصُّلح

من الخطوات التي قام بها معاوية، أنَّهُ كتبَ إلى الإمام الحسن عليه السلام وأطلعَهُ على خيانات رؤساء القبائل، ورغبتهم في تسليمِهِ له، ومعرفته بمحاولات الاغتيال التي تعرَّض لها، جاء في كتابه:

«أما بعدُ، فإنَّ الله عزّ وجلّ يفعل في عباده ما يشاء ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1]، فاحذر أن تكونَ منيَّتُكَ على يدِ رِعاع الناس، وايئس من أن تجد فينا غميزة (= مطعن)، وإن أنتَ أعرضتَ عما أنت فيه وبايعتني وفيتُ لك بما وعدت، وأجزتُ لك ما شرطت. . . .ثم الخلافة لكَ من بعدي، فأنت أولى الناسَ بها، والسَّلام»[2].

(1) سورة الرعد، الآية: 41.
(2) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 68.

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام برسالة جاء فيها:

«أما بعدُ، فقد وصلَ إليَّ كتابُكَ، تذكرُ فيهِ ما ذكرت، فتركتُ جوابَكَ خشيةَ البغي عليك، وباللهِ أعوذُ من ذلك، فاتبع الحقَّ تعلم أنّي من أهلهِ، وعليَّ إثمٌ أن أقول فأكذِب، والسَّلام».

بعد أن وصل إلى الحسن عليه السلام كتاب معاوية، ووردته أنباء مسلسل الخيانات في جيشه، في هذا السِّياق يروي الديلمي في أعلام الدين، وابن الأثير في أسد الغابة ما يقرُب منه، أنَّ الإمام الحسن عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما واللهِ ما ثنانا عن قتال أهلِ الشَّام ذِلةٌ ولا قِلَّة، ولكن كنا نُقاتِلُهُم بالسَّلامةِ والصَّبر، فشيبَ السَّلامةُ بالعداوة، والصَّبرُ بالجَزَع، وكنتُم تتوجَّهون معنا ودينُكم أمامَ دُنياكُم، وقد أصبحتمُ الآنَ ودُنياكُم أمامَ دينِكم، وكُنَّا لكُم وكُنتُم لنا، وقد صِرتُم اليومَ علينا. ثم أصبحتُم تصُدُّون قتيلين: قتيلاً بصفين تبكونَ عليه، وقتيلاً بالنَّهروان تطلبونَ بثأرِهِ، فأما الباكي فخاذِل، وأما الطالِب فثائِر.

وإنَّ معاوية قد دعا إلى أمرٍ ليسَ فيه عزٌّ ولا نَصِفة، فإن أردتُمُ الحياةَ قبلناهُ منه، وأغضضنا على القَذى، وإن أردتُمُ الموتَ بذلناهُ في ذاتِ الله، وحاكمناهُ إلى الله......

فنادى القومُ بأجمعِهِم، بل البقيةَ والحياة»[1].

ويروي الصَّدوق أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد حذَّر أصحابَهُ من عواقب هذه التطورَّات، فقال في مناسبةٍ: ويلكُم واللهِ معاوية لا يفي لأحدٍ بما ضمِنَهُ في قتلي، وإني أظنُّ أني إن وضعتُ يدي في يدهِ فأُسالِمَهُ لم يتركني أدين لدينِ جدِّي صلى الله عليه وآله، وإنِّي أقدِرُ أن أعبُدَ اللهَ وحدي، ولكنِّي كأنِّي أنظرُ إلى أبنائِكُم واقفينَ على أبوابِ أبنائِهِم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعلهُ الله لهم، فلا يُسقونَ ولا يُطعمون، فبُعداً وسُحقاً لما كسبتهُ أيديكم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2]. فجعلوا يعتذونَ بما لا عُذرَ لهم فيه[3].

أيضاً بعدما قرأ الإمام الحسن عليه السلام كتاب قيس بن سعد، وعلِمَ بخيانة عبيد الله بن عباس، وتأثير خبرِ طعنِهِ في فخذِهِ في معنويات أتباعه، والإشاعات والحرب النَّفسية التي أطلَقَها معاوية، وانسلال قبيلة تلو الأخرى من جيش قيس، أرسلَ إلى وجهاءِ أصحابِهِ، فدعاهُم، ثم قال:

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج44، ص21 - 22. أيضاً ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج2، ص15 - 16.
(2) سورة الشعراء، الآية: 227.
(3) الصدوق، **علل الشرايع**، باب 160، ص 221.

يا أهلَ العراق ما أصنع بجماعتِكُم معي، وهذا كتابُ قيسِ بن سعد يُخبرُ بأنَّ أهلَ الشَّرفِ منكُم قد صاروا إلى معاوية، أما واللهِ ما هذا بمُنكَرٍ منكم، لأنَّكُم أنتمُ الذينَ أكرهتُم أبي يومَ صفين على الحَكَمين، فلما أمضى الحُكُومة، وقبِلَ منكُم، اختلفتُم، ثم دعاكُم إلى قتالِ معاوية ثانيةً فتوانَيتُم، ثم صارَ إلى ما صارَ إليهِ من كرامةِ الله إياه، ثم إنَّكُم بايعتموني طائعينَ غيرَ مكرهين، فأخذتُ بيعتَكُم، وخرجتُ في وجهي هذا، واللهُ يعلم ما نويتُ فيه، فكانَ منكُم ما كان. يا أهلَ العراق، فحسبي منكُم، لا تغرُّوني في ديني، فإني مسلمٌ هذا الأمرَ إلى معاوية.

قال، فقال له أخوهُ الحسين: يا أخي أُعيذُكَ باللهِ من هذا، فقال الحسن: واللهِ لأفعلنَّ، ولأُسَلِمَنَّ هذا الأمر إلى معاوية(1).

يقول زيد بن وهب الجهني أنه بعد أن جُرِحَ الإمام الحسن عليه السلام في المدائن، سألتُهُ عن الموقف الذي سيتَّخذُهُ في هذه الظروف، فأجاب عليه السلام: «أرى واللهِ معاوية خيراً لي من هؤلاء، يزعُمُونَ أنَّهم لي شيعة، ابتغَوا قتلي، وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي. واللهِ لأن آخُذ من معاوية عهداً أحقِنُ بهِ دَمي وآمَنُ بهِ في أهلي، خيرٌ من أن يقتُلوني، فيضيعُ أهلُ بيتي وأهلي. واللهِ لو قاتلتُ معاوية لأخذوا بعُنُقي حتى يدفعوني إليهِ سِلماً، فواللهِ لأن أسالِمَهُ وأنا عزيزٌ خيرٌ من أن يقُتلني وأنا أسيرُهُ، أو يمُنَّ عليَّ فتكون سُبَّةً على بني هاشم إلى آخرِ الدَّهر، ومعاوية لا يزال يمُنُّ بها وعقِبَهُ على الحيِّ منا والميِّت...»(2).

نعم، اتَّخذ الإمام الحسن عليه السلام قرار الصُّلح بعدما كان عازماً على مواصلة الحرب مع معاوية، وذلك عندما رأى ردود أفعال جيشه عند اختبارِهِم، وعندما وجد أنَّ جيشَهُ باتَ مزيجاً غير متجانس من أمويين وخوارج وشكَّاكين وحمراء. وتأكَّدَ خيارُهُ أكثر عندما خطبَ في ساباط وثارت الجماهير عندما فهِمَت أنَّهُ يريدُ الصُّلح، فقام بعضُهُم وشدُّوا على فُسطاطِهِ وانتهبوهُ حتى أخذوا مُصلاَّهُ من تحتِهِ، ثم بعد ذلك قامَ بعضُهُم بطعنِهِ في فخذِهِ طعنةً كادت تودي بحياتِهِ، فضلاً عن محاولة اغتياله بسَهمٍ وهو في الصلاة، وعزَمَ بعضُهُم على اعتقالِهِ وتسليمِهِ إلى معاوية، وانتشرت الإشاعات في مَسكِن والمدائن، وانهارت المعنويات وتفشَّت حالة الفوضى العارِمة. وصارت الصُّورة بالغة الوضوح بعد اطِّلاعِهِ على رسائل رؤساء القبائل إلى معاوية. وكان لخبرِ خيانة عبيد الله بن العباس (وهو قائد جيشه في مسكِن) وفرار ثمانية آلاف من جيشِهِ، ثم خيانة الرَّجُل الكِندي، والرَّجُل

(1) ابن الأعثم، الفتوح، ج2، ص 9.

(2) الطبرسي، الاحتجاج: تحقيق إبراهيم بهادري ومحمد هادي به، انتشارات أسوة، ط1، 1413هج، قم، ج2، ص10.

المُرادي (وهي خيانات على مستوى القادة)، كان لذلك كلّه الأثر الأكبر في حَسمِ خَيارِهِ.

لكن كيف تمَّت عملية الصُلح؟ ما هي بنود الصُلح؟ وإن لم يكن ليَفي معاوية بشيءٍ منها، فما فائدة تأكيد الإمام الحسن عليه السلام على هذهِ البنود؟ وماذا جرى بعد تسليم الأمر إلى معاوية؟ ومن الذي اعترضَ على الصُلح عليه السلام ولماذا اعترضَ من اعترض؟ وما هي المُبرِّرات التي ساقها الإمام الحسن عليه السلام ليشرح موقِفَهُ؟

هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عنها في الفقرات القادمة.

الإمام الحسن عليه السلام يقبل عرض معاوية بشروط

يروي الصَّدوق أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كتبَ إلى معاوية في الهُدنةِ والصُلح، وجاء في كتابه:

«أما بعد، فإن خَطبي انتهى إلى اليأسِ من حقٍّ أُحييه، وباطلٍ أُميتُهُ، وخطبُكَ خطبُ من انتهى إلى مرادِهِ، وإنني أعتزلُ هذا الأمر وأُخلِّيه لك، وإن كانَ تخليتي إياهُ شرّاً لكَ في معادِك، وليَ شروطٌ أشرُطُها، لا تُبهِظنَّكَ إن وفيتَ لي بها بعهدٍ. . . . وستندَم يا معاوية كما ندمَ غيرُكَ ممن نهضَ في الباطلِ أو قعدَ عن الحقِّ حين لم ينفعِ الندم، والسَّلام»[1].

ويقول المفيد في الإرشاد: «وأنفذَ (معاوية) إليهِ بكُتُبِ أصحابهِ التي ضمنوا لهُ فيها الفتكَ وتسليمَهُ إليه، واشترطَ لهُ على نفسِهِ في إجابتهِ إلى صُلحهِ شروطاً كثيرة، وعقدَ لهُ عقوداً كانَ الوفاءُ بها مصالح شاملة، فلم يثق بهِ الحسن عليه السلام وعلِمَ احتيالهُ بذلك واغتيالهُ، غير أنه لم يجِد بُدّاً من إجابتهِ إلى ما التمسَ (من ترك) الحرب وإنفاذ الهُدنة، لما كانَ عليهِ أصحابُهُ مما وصفناهُ من ضعفِ البصائر في حقِّهِ والفساد عليهِ والخُلفَ منهُم له، وما انطوى كثيرٌ منهم عليهِ في استحلالِ دَمِهِ وتسليمهِ إلى خصمهِ، وما كانَ في خُذلانِ ابنِ عمِّهِ له ومصيرهُ إلى عدوِّه، وميل الجمهور منهم إلى العاجلةِ وزُهدهُم في الآجلة»[2].

وكتب ابن الأعثم: «ثم دعا الحسن بن علي بعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن اخت معاوية، فقال له: صِر إلى معاوية، فقُل لهُ عنِّي: إنكَ إن أمَنتَ الناسَ على أنفُسِهم وأموالِهم وأولادِهم ونسائِهم بايعتُكَ، وإن لم تُؤمِّنهم لم أُبايعك.

قال: فقدِمَ عبد الله بن الحارث على معاوية فخبَّرَهُ بمقالةِ الحسن عليه السلام، فقال لهُ

(1) الصدوق، علل الشرايع، باب 160، ص 221.

(2) المفيد، الإرشاد، ج2، ص 14.

معاوية: سَل ما أحببت، فقال له: أمرني أن أشرِط عليكَ شروطاً، فقال معاوية: وما هذهِ الشُّروط؟ فقال: إنَّهُ مسلمٌ إليكَ هذا الأمر على أنَّ لهُ ولايةَ الأمرِ من بعدِك، ولهُ في كلِّ سنة خمسة آلاف درهم من بيتِ المال، ولهُ خراج دار أبجُرد من أرضِ فارس، والناسُ كلُّهم آمنونَ بعضُهم من بعض، فقال معاوية: قد فعلتُ ذلك.

قال: فدعا معاوية بصحيفةٍ بيضاء، فوضعَ عليها طينة وختَمَها بخاتمهِ، ثم قال: خُذ هذهِ الصَّحيفة فانطلِق بها إلى الحسن، وقُل لهُ فليكتُب فيها ما شاءَ وأحبَّ، ويُشهِد أصحابَهُ على ذلك، وهذا خاتمي بإقراري»[1].

بنود الصُّلح ومُبرِّراتها

إذا درسنا ما ذكرَهُ المؤرِّخون من بنودٍ للصُّلح، نجد أنَّ تلكَ البنود يمكن فرزُها إلى خمسةِ بنودٍ أساسية. تفاوتت المصادر التَّاريخية في صياغةِ كلِّ بندٍ من تلك البنود. ويبدو لي أنَّ ثمة دوافع وراء هذا الاختلاف في الصِّياغة، كما سترى.

المادة الأولى: تسليمُ الأمر إلى معاوية على أن يعمَل بـ«كتابِ الله وسُنَّة رسولِهِ» (المدائني كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة)[2] وتضيف بعض المصادر «سيرة الخلفاء الصَّالحين» (الفتوح لابن الأعثم)[3].

ولنا على هذا البند ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: أنَّ هذا البند لا يتضمَّن إلزام الإمام الحسن عليه السلام بالبيعةِ لمعاوية، بل يكتفي بتسليم الأمر له... وبعبارة أخرى فسح الطريق لمعاوية لتولِّي السُّلطة دون إعاقة أو اعتراض من طرف الإمام الحسن عليه السلام.

الملاحظة الثانية: أنَّ اشتراط العمل بسيرةِ الخلفاء لا ينسجِم مع منطق أهل البيت عليهم السلام. فهذا الإمام علي عليه السلام قد عُرِضَت عليه الخلافة بعد اغتيال عمر، واشترط عبد الرحمن بن عوف عليهِ العمَل بسيرة الشَّيخين، فرفضَ عليه السلام، وكانت النَّتيجة أن انتهت الخلافة لعثمان. وبالتالي لا يمكن القَبول بأنَّ الإمام الحسن عليه السلام قد اشترط على معاوية ذلك. إلا إذا قُلنا إنَّه اشترطَ عليهِ ذلك حتى ينكشف أمام الناس أنَّ معاوية لن يُخالفَ كتابَ الله وسنةَ رسولهِ فحسب، بل سيُخالف حتى سيرة الخُلفاء. مع ذلك، هذا

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 9 - 10.
(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج6، ص14.
(3) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص10.

احتمال ضعيفٌ جداً، وهذه الإضافة هي على الأرجح من مؤرِّخين أو رواة ينتمون لمدرسة عبد الله بن الزُّبير (قريش المنكسرة)، الذي كان يتبنَّى هذا الاتجاه، ليظل المسار العام لمصلحة قريش، لا لمصلحة بني أمية وحدها.

المادة الثانية: أن يكونَ الأمرُ للحسين من بعدِهِ (أسد الغابة لابن الأثير[1]، تاريخ الخلفاء للسُّيوطي[2]، والإصابة للعسقلاني[3]، ودائرة معارف لوجدي)[4]، وإن حدثَ بِهِ حدثٌ فلأخيهِ الحُسين (عمدة الطالب لابن المهنا)[5]، وليسَ لمعاوية أن يعهَد بِهِ إلى أحد (المدائني كما يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة)[6]. وتضيفُ بعض المصادر إلى أنَّهُ ليس لمعاوية أن يعهد لأحدٍ من بعدِهِ عهداً، أن «يكونَ الأمرُ من بعدِهِ شورى بين المسلمين» (الفتوح لابن الأعثم)[7].

وتعليقُنا على هذا البند هو التالي: من المسلَّم به أنَّ الإمام الحسن عليه السلام اشترطَ على معاوية أن لا يعهَد لأحدٍ من بعدِهِ، وأن يكونَ الأمرُ من بعدِهِ للحسن عليه السلام. لكن ما يُقال من أنَّه عليه السلام اشترطَ أن يكون الأمرُ شورى بين المسلمين، هو على الأرجح إضافة من مؤرِّخين أو وراة ينتمون إلى مدرسة عبد الله بن الزبير (قريش المنكسرة)، الذي كان يتبنَّى هذا الاتجاه، ليظل المسار العام لمصلحة قريش، لا لمصلحة بني أمية خاصة. وستوظَّف هذه الإضافات المزعومة بعد موت معاوية، لإضفاء الشَّرعية على حركة عبد الله بن الزُّبير ضد يزيد، الذي أسَّس - بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء - دولة في الحجاز استمرَّت بضع سنوات.

المادة الثالثة: أن يترُكَ سبَّ أمير المؤمنين[8] والقنوت عليهِ في الصَّلاة وأن لا يذكُرَ

(1) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج2، ص13.
(2) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص226.
(3) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج2، ص12 - 13.
(4) محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، ج3، ص443.
(5) ابن المهنا، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**، ص52.
(6) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص14.
(7) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص10.
(8) يروي ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال مروان بن الحكم: ما كان في القومِ أحدٌ أدفع عن صاحبنا من صاحبكم - يعني علياً عن عثمان - قال: قلت له: فما لكم تسُبُّونَهُ على المنابر؟ قال: لا يستقيم الأمرُ إلا بذلك!! (أنظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة الإمام علي عليه السلام، تحقيق محمد باقر المحمودي، دار التعارف، بيروت، ج3، ص99).

عليّاً إلا بخير (مقاتل الطالبيين للأصفهاني[1]، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد[2]، وقال آخرون إنَّهُ أجابه أنه لا يشتِم عليّاً وهو يسمَع، تاريخ الأمم والملوك للطبري)[3]، وعلى أنَّهُ لا يبتغي للحسن عليه السلام ولأخيهِ الحسين عليه السلام، ولا لأحدٍ من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سِرّاً ولا علانيةً، ولا يُخيفُ أحداً منهم في أفقٍ من الآفاق (الفتوح لابن الأعثم)[4].

ونستنتج من هذا البند أنَّ سُنَّة سبّ الإمام علي عليه السلام الخبيثة كانت قد بدأت قبل أن يستتبَّ الأمرُ لمعاوية، واستمرَّت هذهِ السُّنة بعد صُلح الإمام الحسن عليه السلام عقوداً طويلة إلى أن استلمَ عمر بن عبد العزيز الخلافة، كما سنرى فيما بعد.

المادة الرابعة: أن يكونَ لهُ (= للحسن) ما في بيت مالهِ بالكوفة وخراج دار أبجرد (تاريخ الأمم والملوك للطبري[5]، وفي الأخبار الطُّوال: أن يحمِل لأخيهِ الحسين في كلّ عام ألفي ألف، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس)[6]، وأن يقضي ديونهُ (تاريخ الخلفاء للسُّيوطي، ص226)[7].

ويذكر الشيخ الصَّدوق (قده) تبريراً لهذا البند أنَّ «الدار أبجرد خطبٌ في شأن الحسن عليه السلام، بخلافِ جميع فارس». ويرى آخرون أنَّ مبرر هذا البند أنَّ دار أبجرد لم تُفتَح عُنوة، بل صالَحَ أهلُها على ما صرَّح البلاذري في فتوح البلدان. ولم يكن يريد الحسن عليه السلام أن يأكل وأصحابه من عطاء أراض مفتوحة عنوة[8].

المادة الخامسة: أن لا يأخُذَ أحداً من أهل العراق بإحنة، وأن يؤمِّن الأسودَ والأحمرَ ويحتملَ ما يكونُ من هفواتِهم (الأخبار الطُّوال)[9] على أن لا يُطالِب أحداً من أهلِ المدينة والحجاز والعراق بشيءٍ مما كانَ أيامَ أبيه (تاريخ الخلفاء للسُّيوطي)[10]،

---

(1) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص75.
(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص26.
(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص122.
(4) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص10.
(5) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص122.
(6) أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص202.
(7) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص226.
(8) راجع: المجلسي، **بحار الأنوار**، ج44، ص10.
(9) أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص202.
(10) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص226.

وعلى أنَّ الناسَ آمنونَ حيثُ كانوا من أرضِ الله في شامِهم وعِراقِهم وتُهامِهم وحِجازِهِم وعلى أنَّ أصحابَ علي وشيعتَهُ آمنونَ على أنفُسِهم وأموالِهم ونسائِهم وأولادِهم (الفتوح لابن الأعثم[1]، تاريخ الأمم والملوك للطبري)[2].

ويتَّضِح من هذا البند حرص الإمام الحسن عليه السلام على محاصرة تداعيات الأحداث التي جرَت في فتنة مقتل عثمان، والحروب التي تلت ذلك، حتى لا تنفلت الأمور أكثر من ذلك، وينفتح الباب أمام تصفية الحسابات القبَلية، وتوريث الثارات... إذن هذا البند وضع لحماية الناس عموماً، ولحماية شيعة علي عليه السلام على وجه الخصوص، من تلك التداعيات.

● هل بايع الإمام الحسن عليه السلام معاوية؟ أم صالحَهُ وسلَّم الأمرَ إليه؟

هذا سؤال أثارَهُ بعض المحقِّقين في التاريخ، وقالوا بأنَّا لا نجدُ دليلاً تاريخياً حاسماً على أنَّ الإمام الحسن عليه السلام بايع معاوية (وإن أشارت بعض المصادر إلى ذلك)، بل ما ثبتَ تاريخياً هو أنَّ الإمام الحسن عليه السلام صالحَ معاوية على أن يُسلِّم الأمرَ له.

وقد يُستدَلُّ على أنَّ المسألة لم تنطو على مبايعة ما ورد في بعض المصادر من أنَّ الإمام الحسن عليه السلام اشترط على معاوية أن لا يُسمِّيه «أمير المؤمنين»، كما اشترَطَ عليهِ أن لا يقيم عندَهُ شهادة[3].

والحقيقة أنَّ هناك فرقاً كبيراً بين مبايعة معاوية كخليفة، وتسليم الأمر من خلال الانسحاب من الحياةِ السِّياسية العامة لمصلحة طرفٍ معين. الحالة الأولى تنطوي على اعترافٍ بشرعيَّة سُلطة الحُكم بنحوٍ من الأنحاء، في حين أنَّ الحالة الثانية تعني الاذعان لموازين القوى الجديدة، والتعاطي معها بمرونة وفق المصلحة العامة، دون الاعتراف بشرعيَّة الطَّرف الآخر بأيِّ نحوٍ من الأنحاء.

وعلى هذا الأساس قد يُقال إنَّ هناك فرقاً بين موقف الإمام علي عليه السلام عندما بايع أبا بكر، وموقف الإمام الحسن عليه السلام عندما سلَّمَ الأمرَ لمعاوية.

وحتى لو قلنا بأنَّ الإمام الحسن عليه السلام طلب من أصحابه مبايعة معاوية، فهذا لا يعني أنَّهُ عليه السلام بايعَهُ، لأنَّ معاوية كان يكتفي من الإمام الحسن عليه السلام أن يُسلِّم لهُ الأمر علناً

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص10.
(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص128.
(3) راضي آل ياسين، **صلح الحسن** عليه السلام، ص272.

وبشكلٍ صريح، لأنَّ هذا القدر - بحساب معاوية - كان يعني في الذِّهن العام نحواً من المبايعة. . . . وهذا القدر كان كافياً لمعاوية.

إذن عندما يفهم بعض المؤرِّخين والباحثين من سلوك الإمام الحسن عليه السلام أنه بايع معاوية، فنحن لا نلومُهُم على ذلك، لأنَّ سلوكه عليه السلام قد يعطي هذا الانطباع. ومعاوية كان يكتفي بحصول هذا الانطباع وإن لم يبايع الإمام الحسن عليه السلام فعلاً.

مفاوضات شاقَّة لأخذ البيعة من قيس

كتب ابن الأعثم: «وسارَ معاوية في جيشهِ حتى وافى الكوفة، فنزلَ بها في قصر الإمارة، ثم أرسلَ إلى الحسنِ بن علي عليه السلام فدَعاه، وقال: هلمَّ أبا محمد إلى البيعة.

فأرسلَ إليهِ الحسن: أبايعُكَ على أنَّ الناسَ كلَّهم آمنون؟

فقال معاوية: الناسُ كلهم آمنون إلا قيس بن سعد، فإنهُ لا أمان لهُ عندي!

فأرسلَ الحسنُ إليه: إني لستُ مبايعاً أو تؤمِّنَ الناسَ جميعاً، وإلا لم أبايعك.

قال (الرَّاوي) فأجابهُ معاوية إلى ذلك[1].

«وأحضِرَ الناسُ لبيعتهِ (بيعة معاوية)، وكان الرَّجُلُ يحضُر فيقول: واللهِ يا معاوية إني لأبايعكَ وإني لكارهٌ لكَ.

فيقول (معاوية): بايع، فإنَّ اللهَ قد جعلَ في المكروهِ خيراً كثيراً»[2]!

قال الأصفهاني: ولما تمَّ الصُّلحُ بين الحسن عليه السلام ومعاوية، أرسلَ إلى قيس بن سعد يدعوهُ إلى البيعة، فأتي به - وكان رجُلاً طويلاً يركبُ الفرس المسرف ورِجلاهُ تخُطَّان في الأرض وما في وجههِ طاقة شعر وكان يُسمى خصيّ الأنصار - فلما أرادوا أن يدخلوه إليه، قال (قيس): إني حلفتُ ألا ألقاهُ إلا بيني وبينَهُ الرُّمح أو السَّيف، فأمرَ معاوية برُمحٍ وسيفٍ فوُضِعا بينه وبينه ليبرَّ يمينَهُ.

كتب الأصفهاني: لما صالح الحسنُ عليه السلام معاوية، اعتزلَ قيسُ بن سعد في أربعةِ آلافِ فارس وأبى أن يُبايع.

فلما بايعَ الحسنُ عليه السلام أدخلَ قيس ليبايع، فأقبلَ على الحسن عليه السلام، فقال: أفي حِلٍّ أنا من بيعتِك؟

---

(1) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 11.

(2) **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص 216.

فقال عليه السلام: نعم.

فأُلقي لقيسٍ كرسيٌّ، وجلسَ معاوية على سريرِهِ، فقالَ لهُ معاوية: أتُبايع يا قيس؟

قال (قيس): نعم.

فوضعَ يدَهُ على فخذِهِ، ولم يمُدَّها إلى معاوية. فجثا معاوية على سريرِهِ، وأكبَّ على قيسٍ حتى مسحَ يدَهُ على يدِهِ، وما رفعَ إليهِ قيسٌ يدَهُ[1].

«فقالَ لهُ معاوية: يا قيس إني قد كنتُ أكرَهُ أن يجتمعَ الناسُ عليَّ وأنت حيٌّ.

فقال قيس: وأنا واللهِ يا معاوية قد كنتُ أكرَهُ أن يصيرَ هذا الأمرُ إليكَ وأنا حيٌّ»[2].

معاوية يدخُل الكوفة ويكشِف حقيقةَ نياته

كتب أبو الفرج الأصفهاني: وسارَ معاوية حتى نزلَ بالنُّخيلة، وجمعَ الناسَ بها فخطبَهُم قبلَ أن يدخُلَ الكوفة خطبةً طويلة لم ينقلها أحدٌ من الرُّواة تامة. . . . . .

عن الشَّعبي قال: خطب معاوية حين بويع له فقال: ما اختلفت أمةٌ بعدَ نبيِّها إلا وظهرَ أهلُ باطلِها على أهلِ حقِّها. ثم انتبهَ فندم، فقال: إلا هذهِ الأمة فإنَّها وإنَّها. . . .

عن أبي إسحاق قال: سمعتُ معاوية بالنُّخيلة يقول: ألا إنَّ كلَّ شيءٍ أعطيتُهُ الحسنَ ابنَ علي تحتَ قدَميَّ هاتين لا أفي بهِ. . . . .

عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد سويد، قال: صلَّى بنا معاوية بالنُخيلة الجمعة في الضَّحن، ثم خطبنا، فقال: إنِّي واللهِ ما قاتلتُكُم لتُصَلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحُجُّوا، ولا لتُزَكوا، إنكم لتفعلونَ ذلك، وإنما قاتلتُكُم لأتأمَّرَ عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون[3].

وروى المدائني فقال: خطبَ معاوية أهل الكوفة فقال: يا أهلَ الكوفة، أترونني قاتلتُكُم على الصلاةِ والزكاةِ والحج، وقد علِمتُ أنكم تُصَلُّونَ وتُزَكُّون وتَحُجُّون، ولكنني قاتلتُكُم لأتأمَّرَ عليكم وعلى رِقابِكُم، وقد آتاني اللهُ ذلكَ وأنتم كارهون، ألا إنَّ كلَّ مالٍ أو دمٍ أُصيبَ في هذهِ الفتنة فمطلولٌ، وكلَّ شرطٍ شرطتهُ فتحتَ قدَميَّ هاتين، ولا يُصلح

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص79 - 80. أيضاً ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص28 - 29.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 12.

(3) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص76 - 77. أيضاً ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص 27.

الناسَ إلا ثلاث: إخراجُ العطاءِ عند محلِّهِ، وإقفالُ الجنود لوقتِها، وغزو العدو في دارِهِ، فإنهم إن لم تغزوهم غزوكم[1].

«فغضبَ الناسُ من كلامِ معاوية، وضجُّوا وتكلَّموا، ثم شتموا معاوية، وهمُّوا بِهِ في وقتِهم ذلك، وكادت الفتنة أن تقع، وخشيَ معاوية على نفسهِ، فندَمَ على ما تكلَّم بِهِ أشدَّ الندم»[2].

أقول: من الواضح تماماً من كلام معاوية، وردود أفعال الناس، أنَّ معاوية لم يكن يعرف وضع أهل العراق حقَّ المعرفة، ولم يكن قد أدركَ حتى ذلك الوقت حدود الوضع المنفلِت والمضطرب، وإلا لكان أكثر حذراً واحتياطاً، ولما كان كشفَ عن نياته بهذا القدر من الوضوح.

وروى المدائني قال: سألَ معاويةُ الحسنَ بن علي بعدَ الصُّلح أن يخطبَ الناس، فامتنع، فناشدَهُ أن يفعل[3]، فوضعَ لهُ كرسي، فجلسَ عليه، ثم قال (بعدَ أن حمد الله): أيُّها الناس، إنَّ ربَّ عليٍّ كانَ أعلمَ بعليٍّ حينَ قبضهُ إليه، ولقد اختصّهُ بفضلٍ لم تعتادوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقتهِ.

فهيهات هيهات! طالما قلبتُم له الأمور حتى أعلاهُ اللهُ عليكم وهو صاحِبكُم، وعدوكم في بدرٍ وأخواتِها، جرَّعَكم رَنقاً، وسَقاكم عَلقاً، وأذلَّ رِقابَكُم، وأشرقكُم بريقِكُم، فلستُم بملومينَ على بُغضهِ. وأيمُ الله، لا ترى أمةَ محمدٍ خفضاً[4] ما كانت سادَتُهم وقادَتُهم في بني أمية، ولقد وجَّه اللهُ إليكم فتنةً لن تصدُروا عنها حتى تهلكوا، لطاعَتِكُم طواغيتكم، وانضوائِكُم إلى شياطينِكم، فعندَ اللهِ أحتسبُ ما مضى وما يُنتظر من سوءِ دَعَتِكم، وحيفِ حُكمِكُم.

ثم قال: يا أهلَ الكوفة، لقد فارقكُم بالأمسِ سهمٌ من مرامي الله، صائبٌ على أعداءِ الله، نكّالٌ **على فُجّار قريش، لم يزل آخِذاً بحناجرها، جاثِماً على أنفاسِها**، ليسَ بالملومةِ في أمرِ الله، ولا بالسروقةِ لمالِ الله، ولا بالفروقةِ في حربِ أعداءِ الله، أعطى الكتابَ

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص 9.

(2) ابن الأعثم، **الفتوح**، ج2، ص 13.

(3) وأظن أنه أصر عليه ليستخف به لأنه يعرف - كما يقال - أن في لسان الحسن عليه السلام ثقلاً كالفأفأة، وكان سلمان الفارسي يقول: أتته من قبل عمه موسى بن عمران عليه السلام (راجع ابن أبي الحديد، ج16، ص18).

(4) خفضُ العيش: سهولة العيش، وهو الدعة وسعة العيش. والخفض أيضاً هو التواضع.

خواتِمَهُ وعزائِمَهُ، دعاهُ فأجابَهُ، وقادَهُ فاتبعَهُ، لا تأخذهُ في اللهِ لومةُ لائم، فصلواتُ اللهِ عليه ورحمتُهُ. ثم نزل.

فقال معاوية: أخطأ عَجِلٌ أو كاد، وأصابَ مُثبتٌ أو كاد، ماذا أردتُ من خطبة الحسن[1]؟!

كتب الأصفهاني: حدَّثنا فضل، قال حدَّثني يحيى بن معين، قال حدَّثنا أبو جعفر الأبار، عن إسماعيل بن عبد الرحمن وشريك بن أبي خالد، وقد روى عنه إسماعيل بن أبي خالد، عن حبيب بن أبي ثابت قال: لما بُويعَ معاوية، خطبَ فذكرَ علياً عليه السلام، فنالَ منهُ، ونالَ من الحسن عليه السلام، فقام الحسينُ عليه السلام ليرُدَّ، فأخذ الحسنُ عليه السلام بيدهِ فأجلسَهُ.

ثم قام عليه السلام فقال: أيُها الذاكرُ علياً، أنا الحسنُ وأبي عليّ، وأنتَ معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمُّك هند، وجدِّي رسولُ الله وجدُّك حرب، وجدَّتي خديجة وجدَّتُكَ قتيلة، فلعنَ اللهُ أخمَلنا ذِكراً، وألأمنا حسَباً، وشرّنَا قدماً، وأقدَمَنا كُفراً ونفاقاً.

فقال طوائفُ من أهلِ المسجد: آمين!

قال فضل: فقال يحيى بن معين: ونحن نقولُ آمين.

قال أبو عبيد: ونحنُ نقولُ آمين.

قال أبو الفرج: وأنا أقول: آمين[2]!

المعترضون على الصُّلح من أصحابِ الحسن عليه السلام

يقول المؤرِّخون: «وبعثَ معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصُّلح، فدعواهُ إليه، فزهَّداهُ في الأمر، وأعطياهُ ما شرطَ له معاوية... فأجاب (الحسن) إلى ذلك، وانصرفَ قيسُ بن سعد فيمن معهُ إلى الكوفة، وانصرفَ الحسنُ أيضاً إليها، وأقبلَ معاوية قاصداً نحوَ الكوفة، واجتمعَ إلى الحسن عليه السلام وجوهُ الشِّيعة وأكابرُ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونَهُ، ويبكونَ إليهِ جزعاً مما فعلهُ.

قال أبو الفرج... حدثني... سُفيان بن أبي ليلى (وفي خبر آخر أنَّ القائل هو سليمان بن صُرَد[3]، وفي خبرٍ ثالث أنَّ القائل هو أبو عامر سعيد بن النتل)[4] قال: أتيتُ

---

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص 17.

(2) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص78. أيضاً ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، مج8، ج16، ص 27.

(3) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص 185.

(4) ابن كثير، **البداية والنهاية**، 8/ 20.

الحسنَ بنَ علي حينَ بايعَ معاوية، فوجَدتهُ بفناءِ دارهِ، وعندَهُ رهطٌ، فقلتُ: السلامُ عليكَ يا مُذِلَّ المؤمنين!

قال: وعليك السلام يا سفيان.

ونزلتُ فعقلتُ راحلتي، ثم أتيتُهُ فجلستُ إليهِ، فقال عليه السلام: كيفَ قُلتَ يا سُفيان؟

قلتُ: السَّلامُ عليكَ يا مُذِلَّ المؤمنين!

فقال عليه السلام: لم جرى هذا منكَ إلينا؟

قلتُ: أنتَ واللهِ بأبي وأمي، أذللتَ رِقابنا حيثُ أعطيتَ هذا الطَّاغية البيعة، وسلَّمتَ الأمرَ إلى اللَّعين ابن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كُلُّهم يموتُ دونَكَ، فقد جمعَ اللهُ عليكَ أمرَ الناس.

فقال عليه السلام: يا سُفيان، إنَّا أهلُ بيتٍ إذا علِمنا الحقَّ تمسَّكنا بهِ، وإني سمعتُ علياً يقول: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا تذهبُ اللَّيالي والأيام حتى يجتمع أمر هذهِ الأمة على رجُلٍ واسِع السُّرمِ[1]، ضخمُ البلعوم، يأكلُ ولا يشبع، لا ينظرُ الله إليهِ، ولا يموتُ حتى لا يكون لهُ في السماءِ عاذرٌ، ولا في الأرضِ ناصر»، وإنهُ لمعاوية، وإني عرفتُ أنَّ اللهَ بالغُ أمرِهِ[2].

وفي الرِّواية التي تقول إنَّ قائل العبارة هو سُليمان بن صُرَد، تذكُر أنَّ الإمام الحسن عليه السلام ردَّ عليه أيضاً «فليكُن كلُّ رجُلٍ منكم حِلساً من أحلاسِ بيته (= ملازم بيته) ما دامَ معاوية حياً»[3].

تقول الرِّواية: «ثم خرجَ سُليمان بن صُرَد من عندهِ، فدخلَ على الحسين عليه السلام، فعرضَ عليه ما عرضَ على الحسن عليه السلام، وأخبرَهُ بما ردَّ عليهِ الحسن عليه السلام، فقال الحسين عليه السلام: «ليكنْ كلُّ رجُلٍ منكم حِلساً من أحلاسِ بيتِهِ ما دامَ معاوية حياً، فإنها بيعةٌ كنتُ واللهِ لها كارهاً، فإن هلكَ معاوية نظرنا ونظرتُم ورأينا ورأيتم»[4].

أقول: موقف الإمام الحسين عليه السلام المنسجم مع موقف الإمام الحسن عليه السلام، يؤكد

(1) السُّرم: طرف المعيّ المستقيم، ربما كناية عن كثرة أكله. . . . كما يشهد لذلك بقية الكلام الذي ينقله الحسن عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله كما في الرواية.

(2) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص 26.

(3) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص 186.

(4) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص 186.

حقيقتين؛ الأولى عدم وجود تعارض - مزعوم - بين موقفيهما، والثانية أنَّ قرار العودة لمواجهة بني أمية كان من الوارد أن يُتّخذ، لكنَّهُ ينتظر اللحظة التاريخية المناسبة.

قال المدائني: قال المُسيَّب بن نجبة للحسن عليه السلام (بعد أن سمعَ مقالة معاوية: قاتلتُكُم لأتأمَّرَ عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني اللهُ ذلكَ وأنتم كارهون): ما ينقضي عجبي منك! بايعتَ معاوية ومعكَ أربعون ألفاً، ولم تأخُذ لنفسِك وثيقةً وعقداً ظاهِراً، أعطاكَ أمراً فيما بينَك وبينَهُ، ثم قالَ ما قد سمعتَ، واللهِ ما أرادَ بها غيرُك.

قال عليه السلام: فما ترى؟

فقال: أرى أن ترجِع إلى ما كنتَ عليه، فقد نقضَ ما كانَ بينَهُ وبينَك.

فقال عليه السلام: يا مُسيَّب، إني لو أردتُ بما فعلتُ الدُّنيا لم يكن معاوية بأصبرَ عندَ اللِّقاء، ولا أثبتَ عندَ الحربِ منِّي، ولكني أردتُ صلاحَكُم، وكفَّ بعضكُم عن بعض، فارضَوا بقدَرِ الله وقضائهِ، حتى يستريحَ برٌّ، أو يُستراحَ من فاجِر[1].

قال المدائني: ودخلَ عُبيدة بن عمرو الكندي على الحسنِ عليه السلام - وكان قد ضُربَ على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة - فقال: ما الذي أرى بوجهِك؟

قال: أصابني مع قيس.

فالتفت حُجرُ بن عدي إلى الحسن، فقال: لوددتُ أنَّكَ كنتَ مِتَّ قبلَ هذا اليوم، ولم يكُن ما كان، إنا رجَعنا راغمينَ بما كرِهنا، ورَجعوا مسرورين بما أحبوا.

فتغيَّرُ وجهُ الحسن عليه السلام، وغمز الحسينُ عليه السلام حُجراً، فسكت.

فقال الحسنُ عليه السلام: يا حُجر، ليسَ كلُّ الناسِ يُحِبُّ ما تُحِب ولا رأيُهُ كرأيك، وما فعلتُ إلا إبقاءً عليك، واللهُ كلَّ يومٍ في شأن[2].

أقول: لو صحَّت هذه الرِّواية لكان هذا الموقف من حُجر زلَّةً عظيمة، وتطاولاً كبيراً على مقام الإمام الحسن عليه السلام، لا يُتوقَّع صدوره من أمثالِهِ. لكن عاقبتَهُ وشهادتَهُ - وسنتحدَّث عنها لاحقاً - قد تُكفِّر عن ذلك.

ويروي الصدوق في علل الشَّرائع عن سدير قال: قال أبو جعفر (الباقر عليه السلام): يا سُدير، اذكر لنا أمرَكَ الذي أنتَ عليه، فإن كانَ فيه إغراقٌ كففناكَ عنه، وإن كان مُقصِّراً أرشدناك. قال: فذهبتُ أن أتكلَّم، فقال أبو جعفر عليه السلام: أمسِك حتى أكفيَكَ، إنَّ العِلمَ

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص 9.
(2) المصدر السابق.

الذي وضع رسول الله صلى الله عليه وآله عند علي عليه السلام من عرفَهُ كان مؤمناً ومن جحدَهُ كان كافراً، ثم كان من بعدِهِ الحسن عليه السلام.

قلتُ: كيف يكونُ (الحسن عليه السلام) بتلكَ المنزِلة، وقد كانَ منهُ ما كان دفعُها إلى معاوية؟

فقال: اسكُت، فإنَّهُ أعلم بما صنع، لولا ما صنعَ لكان أمرٌ عظيم[1].

أقول: مدلول هذه الرِّواية - إن صحَّت - يؤكِّد على أنَّ موقف الإمام الحسن عليه السلام ظلَّ ملتبساً في نظر بعض شيعة علي عليه السلام، ويثير حيرتهم واستغرابهم، ولولا جهود الأئمة اللاحقين عليهم السلام لظلَّ كذلك حتى هذا اليوم.

عودة الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة

قال المدائني: فلما كان عام الصُّلح، أقام الحسنُ عليه السلام بالكوفة أياماً، ثم تجهَّزَ للشُّخوص إلى المدينة. فدخل عليه المُسيَّب بن نجبة الفزاري وظبيان بن عُمارة التيمي ليُودِّعاهُ، فقال الحسن عليه السلام: الحمدُ للهِ الغالبُ على أمرِهِ، لو أجمعَ الخلقُ جميعاً على ألا يكونَ ما هو كائنٌ ما استطاعوا.

فقال أخوهُ الحسين عليه السلام: لقد كنتُ كارهاً لما كان، طيِّبَ النَّفس على سبيل أبي، حتى عزمَ عليَّ أخي، فأطعتُهُ، وكأنما يجزُّ أنفي بالمواسي.

فقال المُسيَّب: إنهُ واللهِ ما يكبُرُ علينا هذا الأمر إلا أن تُضاموا وتُنتَقصوا. فأما نحنُ، فإنهم سيطلِبونَ مودَّتنا بكلِّ ما قدروا عليه.

فقال الحسين عليه السلام: يا مُسيَّب، نحنُ نعلمُ أنَّكَ تُحِبُّنا.

فقالَ الحسن عليه السلام: سمعتُ أبي يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يقول: «من أحبَّ قوماً كانَ معَهُم».

فعرضَ لهُ المُسيَّب وظبيان بالرُّجوع.

فقال: ليس إلى ذلكَ سبيل.

فلمَّا كانَ من غدٍ خرجَ عليه السلام، فلما صارَ بدير هند، نظر إلى الكوفة، وقال:

ولا عن قِلى فارقتُ دارَ معاشري هم المانعونَ حوزَتي وذماري

---

(1) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج44، ص1.

ثم سار إلى المدينة[1].

إذن خرجَ الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة بعد أيامٍ من الصُّلح. ثم استقرَّ في المدينة عشر سنين، حتى استشهد متجرِّعاً السُّم الذي دسَّهُ لهُ معاوية بواسطة زوجتِهِ جعدة بنت الأشعث بن قيس، في 7 صفر سنة 50 هج، وكان عمره عليه السلام 47 سنة.

ينقل ابن أبي الحديد عمَّن حدَّثَهُ: واستشهد عليه السلام في أيامٍ مُتقاربة مع سعد بن أبي وقاص، وذلك بعد مضي من ولاية إمرة معاوية عشر سنين، وكانوا يروون أنَّهُ سقاهُما السُّم[2].

وسنعود إلى شهادة الإمام الحسن عليه السلام، بعد أن نسرد الوقائع المهمَّة التي حدثت في هذه السِّنين العشر، أو على الأصح السِّنين التسع من (41-50 هج).

(1) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص 10.
(2) المصدر السابق، ج16، ص29.

(25)

مقارنة بين موقفين

قبل المضي في دراسة مرحلة حكم معاوية، التي امتدت من (41-60هج)، نريد التوقُّف قليلاً لنُحلِّل ونقارن بين موقف الإمام الحسن عليه السلام الذي صالَحَ معاوية، وموقف الإمام الحسين عليه السلام الذي سيُقاتل يزيد... لماذا تفاوت الموقفان؟

نستعرض في البداية التَّحليل الذي قدَّمَهُ الشهيد السيِّد الصدر (قده)، ثم نستعرض بعد ذلك التَّحليل الذي قدَّمَهُ الشهيد الشيخ المطهَّري (قده). وسيُلاحظ القارئ أنَّ أسلوب هذا الفصل يختلف قليلاً عن بقية الفصول، لأنَّه يعتمد على التَّحليل أكثر من اعتمادِهِ على سرد وقائع وخُطَب وحوارات.

تحليل الشهيد السيِّد الصدر (قده)

يرى الشهيد السيِّد الصدر (قده) أنَّنا عندما ندرس ظروف الإمام الحسن عليه السلام فلا بُدَّ أن نضع أمامنا ثلاثة اعتبارات أساسيَّة:

أولاً هو الأمين على النَّظرية: أي على الصِّيغة الإسلامية الكاملة، بوصفها خطّاً فكريّاً وروحيّاً، يجب أن يعيش ويستقطب بالتدريج، ويمتد إلى أكبر قدر ممكن من القلوبِ والنُّفوسِ والعقول.

ثانياً هو الأمين على التَّجربة[1]: أي على كيانٍ سياسيٍّ جسَّدَ تلك الصِّيغة الإسلامية الكاملة، هذا الكيان الحي أنشأَهُ الإمام علي عليه السلام ليتزعَّمه الإمام الحسن عليه السلام.

ثالثاً هو الأمين على كتلة الشِّيعة: التي وضع رسول الله صلى الله عليه وآله بذورَها، ثم نمَّاها الإمام علي عليه السلام، خصوصاً في عهد خلافتِهِ، وأخذَها الإمام الحسن عليه السلام ليتَسلَّم زعامتَها وقيادتَها، وتُشكِّل الطَّليعة الواعية القادرة على قيادة المسلمين ككُل في مستقبلٍ قريبٍ أو بعيد.

---

(1) ما أفهمُهُ من مصطلح «التَّجربة» الذي يستخدمه الصدر (قده) هو التالي: محاولة تطبيق الصِّيغة الرِّسالية الإلهية - بكلِّ أبعادها - على المجتمع البشري.

هذه الاعتبارات الثلاثة كان الإمام الحسن عليه السلام يُمثّلها جميعاً. فكان لا بُدَّ أن يأخُذها في الحسبان عندما يدرُس عليه السلام أفضل الطَّريقين: طريق التَّضحية والموت، أو طريق تجميد الحركة والخط إلى وقت ما. دون أن يُدخِل إلى جانب هذه الاعتبارات الثلاثة اعتباراً رابعاً يطلق عليه عادة أي اسم من الأسماء العاطفية أو الخلقية التي لا ترتبط بمصالح الرِّسالة، من قبيل أن يقال: «إباء الضَّيم»، «عدم الاستعداد لمُصافحة الأعداء»، «الشُّعور بالعِزَّة». كلُّ هذه الاعتبارات هي اعتبارات عاطفية، يجب أن لا تأخذ طريقها إلى قلبِ الإنسان الحق، الذي يريدُ دائماً أن يرسم طريقَهُ على أساس الاعتبارات الرِّسالية(1).

● لماذا لم يختَر الإمام الحسن عليه السلام طريق الجهاد؟

يقول الشهيد السيِّد الصدر (قده): كان يُمكن للإمام الحسن عليه السلام أن يُواصل مُهمَّتهُ العسكرية حتى يخرّ صريعاً في ميدان الجهاد، وكان يُمكن أن يَفسَح في المجال لمعاوية لكي يعيش وجودَهُ كحاكِم بتجميد حركته وإيقاف العمل ضدّ معاوية. كان يمكن أن يتحقَّق بكلٍّ من هذين الأسلوبين، فلماذا لم يختر الإمام الحسن عليه السلام الطَّريق الأول؟

ويزدادُ هذا السُّؤال جولاناً في الذِّهن حينما يُقارَن موقفُ الإمام الحسن عليه السلام بموقفِ الإمام الحسين عليه السلام، حينما وقفَ بين الطريقين، فاختار أن يخرَّ صريعاً بدلاً من أن يوقِفَ العمل ولو مؤقَّتاً.

● الفرق الأساسي بين الموقفين

ثم يواصل الصدر تحليلَهُ قائلاً: هناك فرقٌ أساسي وكبير بين موقف الإمام الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين عليه السلام، بين الظُّروف الموضوعية للحسن عليه السلام والظروف الموضوعية للحسين عليه السلام. وسوف يتبيَّن هذا الفرق على مستوى الاعتبارات الثلاثة.

على مستوى الاعتبار الأول (= بوصفِهِ أميناً على النَّظرية): الأمة في موقف الإمام الحسين عليه السلام لم تكُن وقتَئذٍ تعيش «حالةَ الشَّك»، بل كانت تعيش «موتَ الإرادة». وفرقٌ كبير بين هذا المرض وذاك المرض.

فهناك مرضان وُجِدا في الأمة: مرضُ الشكِّ، وهو أنَّ الأمة فقدت إيمانَها واعتقادَها

---

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت عليهم السلام**، ص 274 - 275.

برساليَّة الأطروحة، وبدأ هذا الشَّك بالإمام علي عليه السلام في حرب صفين، واستمرَّ مع الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة الإمام علي عليه السلام.

وفي مثل هذا الحال، لو واصلَ الإمام الحسن عليه السلام الحربَ حتى يخرّ صريعاً، لن يُحقِّق شيئاً من المكاسب التي حقَّقها الإمام الحسين عليه السلام، لأنَّهُ حينما يخرُّ صريعاً في الميدان والأمة تشكُّ في دوافعِهِ، تشكُّ في صحةِ موقفِهِ، تشكُّ في إلهيَّةِ أطروحتِهِ، سوف لن يفعل هذا الدَّمُ الطَّاهر الذي سُكِب على أرض كربلاء ما فعلَهُ، سوف لن يُحرِّك ضميراً في الأمة، سوف لن يُغيِّر شيئاً من الأوضاع الحقيقيَّة للأمة.

كان لعبد الله بن الزُّبير موقفٌ في وجه جيش عبد الملك بن مروان، كان له موقفٌ يعتبر بالمقاييس الشَّخصية - وبقطع النَّظر عن الرِّسالة - موقفاً بطولياً، حيثُ واصلَ الحرب إلى أن خرَّ صريعاً في الميدان... ولكن ما الذي تركَهُ عبدالله بن الزُّبير في ضمير الأمة؟ ماذا حرَّك في نفوس المسلمين؟

هل كان هناك إنسان يتجاوب مع هذه الشَّجاعة؟ هل استطاعت هذه الشَّجاعة أن تُحرِّك ضميرَ الأمة الإسلامية؟ أو تُحرِّك شيئاً من أوضاع المسلمين؟ لا، لماذا؟ لأنَّ هذا كان يُقاتل من أجلِ نفسِهِ لا للأمة. وكانت الأمة على أقلِّ تقدير تشكُّ وتحتمل أنَّه كان يُقاتل من أجل نفسِهِ.

بينما الإمام الحسين عليه السلام حينما اختارَ الطَّريقَ الأول، كانت الأمة قد تخلَّصت من مرضِ الشَّك، لأنَّ أسطورة معاوية كانت قد تجلَّت بكلِّ وضوح... لأنَّ الجاهليَّة التي كان يُمثِّلها معاوية قد أسفرت عن وجهها على المسرح السِّياسي والاجتماعي، وعلِمَ الناسُ أنَّ علياً عليه السلام كان يُحارِبُ جاهليةَ الأصنام والأوثان، ولم يكن يُحارِبُ مع معاوية خَصماً قبَلياً أو شخصاً مُعادياً له بالذَّات... تخلَّصت هذه القواعد الشَّعبية من مرضِ الشَّك، لكنها مُنيت بمرضِ موت الإرادة.

أصبحت الأمة لا تملِكُ إرادتَها. نعم، هي تفهم أنَّ علياً عليه السلام هو الطريقُ الواضح، هو طريقُ الكفاح والجهاد، أنَّ حكمَ الإمام علي عليه السلام هو المثلُ الأعلى الذي يجبُ على المسلمين أن يكافحوا في سبيل تحقيقِهِ... كلُّ هذا أصبحَ واضحاً..

كانت الإرادة قد انطفأت، كانت الشُّعلة قد ماتت، كانت الدُّريهمات الصَّغيرة هي أكبر همّ هذا الإنسان الصَّغير. فكان لا بُدَّ من أن يُحرِّك ضمير هذا الإنسان، لكي يسترجع إرادتهُ. وأكبر وأروع تمثيل لفقدان الإرادة قول ذلكَ الرَّجُل للإمام الحسين عليه السلام: سيوفُهُم مع عدوِّك وقلوبُهُم معك. قمَّة فقدان الإرادة أن يكونَ الإنسانُ يُحِبُّك، لكنه يحمِلُ السَّيفَ عليك، يعني أن قلبَهُ لا يستطيع أن يمسك به... هذه قمَّة فقدان الإرادة.

ثم يقول الصدر (قده): الإمام الحسن عليه السلام بابتعادهِ عن ميدان الحُكم، وفسح المجال للأطروحة الأخرى لكي تكشف عن وجهها الحقيقي، أرجعَ للأمة اقتناعَها بموضوعيةِ أطروحة الإمام علي عليه السلام.

والإمام الحسين عليه السلام بمواصلةِ الطَّريق الأول حتى خرَّ صريعاً، أرجعَ إلى الأمة إرادَتَها. إنَّ الإمام الحسين عليه السلام الذي توافرت لهُ كل مُتَع الحياة، هذا الرَّجُل الذي كان من أغنى الناس مالاً، وأكثرهِم جاهاً، إذا خرجَ يتسابق المسلمون لتقبيلِ يدِهِ، هذا الرَّجُل الذي لم يمتد معاوية بظُلمهِ إلى شخصِ الإمام الحسين عليه السلام، هذا الرَّجُل الذي لم ينلهُ سوطٌ واحدٌ من السِّياط التي نالَت الناس، بالرَّغم من هذا خرجَ الإمام الحسينُ عليه السلام وبذل دمَهُ في سبيل الآخرين، ومن هنا تحرَّكَ ضميرُ الأمة.

إذن هناك فرقٌ موضوعيٌّ كبير بين الظَّرف الذي عاشَهُ الإمام الحسن عليه السلام، والظَّرف الذي سوف يعيشُهُ الإمام الحسين عليه السلام بعد عشرين عاماً.

على مستوى الاعتبار الثاني (= بوصفه أميناً على التجربة): كان لا بُدَّ للإمام الحسن عليه السلام أن يدرُسَ موقِفَهُ - على ضوء الاعتبار الثاني أيضاً - ليختار أحد الطريقين.

أصبحَ واضحاً مما سبق أنَّ التَّجربة كان من المستحيل أن تبقى، لأنَّ أي تجربة بأطروحة رساليَّة تعيش مستوى أكبر من مستوى مصالح هذا الفرد بالذات، لا يُمكن أن تواصِل وجودَها إلا إذا كانت قد حَظِيَت باقتناعٍ كبيرٍ واسعِ النِّطاق من قواعد شعبية قادرة أن تحمل هذه التَّجربة، وأن تضحِّي بدَمِها في سبيل هذه التَّجربة. أما حينما تفقد التَّجربة هذا الاقتناع، تُصبح مشلولةً عن العمَل، وغير قادرة على الدِّفاع عن ذاتِها وعن نفسِها؟ لأنَّها بمَ تستهوي الناس؟ هل تستهوي الناس بالمصالحِ الفردية؟ أليس هذا خروجاً عن مضمونِها الحقيقي.

نعم، كان بالإمكان أن يستهوي الإمام الحسن عليه السلام الناسَ عن طريقِ مصالحهم الخاصة، كان للإمام أن يدخُل المداخل التي دخلها معاوية، أن يشتري ضمائرَ الناس، أن يكتُبَ إلى رؤساءِ الشام كما كتبَ معاوية إلى رؤساءِ العراق، أن يخدع، أن يُماطل، أن يكون توزيع الأموال على غير الأساس الإسلامي الصحيح. إلا أنَّ هذا خروجٌ عن المضمون الحقيقي للنظرية.

وهنا اختلافٌ كبيرٌ آخر بين موقف الإمام الحسين عليه السلام عن موقف الإمام الحسن عليه السلام: الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قائداً لتجربةٍ سياسيةٍ قائمة بالفعل، لم يكن رئيساً لدولةٍ قائمة بالفعل، وإنما كانَ شخصاً ولم يكن معه إلا ثُلَّة من أصحابِهِ.

أما الإمام الحسن عليه السلام فكانَ يُمثِّل جبهة سياسيَّة قائمة بالفعل، إلا أنَّ هذه الجبهة

بالرغم من ضخامتِها الظاهرية، بالرَّغم من تخوُّف معاوية منها، إلا أنَّ هذه الضخامة الظاهرية لهذه التَّجربة - التي لا تزال تُذكِّر معاوية بسيوف ليلة الهرير - كانت تُعطي الحقَّ للإمام الحسن عليه السلام أن يدخُل مع معاوية في مفاوضاتٍ - من موقعِ قوَّة - لتحقيقِ أكبر قَدَرٍ ممكن من المكاسب لهذه التَّجربة.

إذن كان هناك طريقان؛ الأول: أن يُواصل الإمام الحسن عليه السلام الجهاد فيُقتل دونَ قيدٍ أو شرط، ومعنى أن يُقتل يعني أن تنتهي التَّجربة دون أن يكون هُناك أيُّ أساس بإمكانية رجوعها بعد هذا، يعني أي أساس قانوني. والطَّريق الثاني: أن يدخُل الإمام الحسن عليه السلام - عن طريق هذه الهيبة الظاهرية لهذه الجبهة - في حديثٍ مع معاوية لاستيفاء ما يمكن استيفاؤُهُ من مكاسب لهذه التَّجربة.

وحينها اختارَ الإمام الحسن عليه السلام الطَّريق الثاني، وكان لا بُدَّ لكلٍّ من يعيش ظروف الإمام الحسن عليه السلام أن يختار الطريق الثاني إلا إذا أدخلَ الاعتبارات العاطفية في الحساب.

ويواصل الصدر (قده) قائلاً: لقد اشترطَ الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية على نفسهِ أن ينسحب من ميدان الحُكم، ولم ينُص هذا الشَّرط على نوعٍ من البيعة والتبعيَّة السِّياسية الصَّريحة في الرِّوايات الصَّحيحة الواردة عنهم. فلا يوجد في الرِّوايات الواردة عن الإمام الحسن عليه السلام أنَّهُ اشترطَ لمعاوية على نفسهِ البيعة والتبعية السِّياسية، بالمعنى الذي كان موجوداً لعليٍّ عليه السلام بالنسبةِ إلى أبي بكر وعمر وعثمان. وإنما كان هناك إيقافٌ للمعركة والقتال، وفي مقابل ذلك تعهُّدات اشترطها على معاوية.

أهم هذه التعهُّدات أن لا يُوصي معاوية لأحدٍ آخر من بعدهِ. وفي روايةٍ أخرى أن يوصي للإمام الحسن عليه السلام. ولهذا كان الإمام الحسن عليه السلام يريدُ أن يبتعِد عن الحُكم لكي يكسَب اقتناع المسلمين بصحَّة الأطروحة، ثم لكي يضع أساساً جديداً يمكن من خلاله أن ترجع الأطروحة مرة أخرى إلى الميدان السِّياسي.

على مستوى الاعتبار الثالث (= بوصفه زعيماً للكتلة الشِّيعية): هذه الكتلة التي تُمثِّل الجزء الواعي من الأمة، والتي كان من المفروض أن تكون طليعة الأمة على مرِّ التاريخ... هذا الاعتبار الثالث لا بُدَّ أيضاً من إدخالِهِ في الحساب حينما يبرز أفضل الطَّريقين، أفضليَّة طريق الصُّلح، عن طريق الجهاد، في ظروف الإمام الحسن عليه السلام.

كان الإمام الحسين عليه السلام مشاركاً للإمام الحسن عليه السلام في هذا الاعتبار، لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان هو الزَّعيم الثالث لهذه الكتلة، كان هو الأمين على هذه الكتلة كما

كان الإمام الحسن عليه السلام أميناً على هذه الكتلة في مرحلتِهِ، إلا أنَّ بينَهُما فرقاً كبيراً؛ وحاصل هذا الفرق أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يستقطِب كلَّ هذه الكتلة، كان يُحاربُ وكانت هذه الكتلة ضمن إطار دولتِهِ، ولم يكن من المعقول أن يُحارِب رئيس دولة وأن يواصل الحرب إلا بأن تُستنفَد كلّ قواهُ وطاقاته، وكلّ رصيده الشَّعبي الموجود في هذه الدولة، وكلّ ما يملِك من قواعد شعبيَّة، حتى يخرّ صريعاً. وكان معنى هذا أنَّهُ سوف لن يبقى هناك وجود إسلامي قادر على أن يسترجع ذلك الاقتناع الذي فُقِد.

حُجر بن عدي وأمثاله، الذين عاشوا ضد معاوية وقُتِلوا بسيفِ معاوية، هم أوَّلُ جزءٍ من القواعد الشَّعبية التي ترسَّخ أو رجعَ إليهم الاقتناع، وعن طريق دمِهِم وإيمانهم واقتناعِهِم سرى هذا الاقتناع إلى الأكثرين. وسرى هذا الاقتناع عبرَ الأجيال، وسرى إلينا. إذن كان لا بُدَّ من الحِفاظ على قاعدة، يمكن على أساسها أن يرجَع اقتناع الأمة بالأطروحة في يومٍ ما.

الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يستقطِب كل هذه الكتلة، الإمام الحسين عليه السلام لم يخرّ صريعاً إلا بعد أن استُنفِدت كلّ قواهُ الصَّغيرة المتمثّلة في تلكَ المجموعة الطَّاهرة حتى خرَّ الأبطالُ صرعى، ثم خرَّ الإمامُ الحسين عليه السلام صريعاً. إنَّ هذه الصفوة لم تكُن تستوعب كل القواعد الشَّعبية الواعية، ولهذا عقيب شهادتِهِ بدأت ثورة التَّوابين، ثم بدأت الثَّورات الأخرى من قبلِ أُناسٍ كانوا يتزعمون عدداً كبيراً من الشِّيعة الواعين والمؤمنين بأهداف الإمام الحسين عليه السلام [1].

تحليل الشهيد الشيخ المطهَّري (قده)

الشهيد الشيخ المطهري (قده) من ناحيته، قدَّم لنا تحليلاً مشابهاً ميَّزَ من خلاله بين الظُّروف التي عاشها الإمام الحسن عليه السلام، والظُّروف التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام، والتي كانت في كلِّ مرة تتطَّلب موقِفاً يختلف عن الموقف الآخر. في السُّطور التالية سنوضح تحليل الشيخ المطهري (قده)، وسنُضيف بعض العناوين لمساعدة القارئ على التَّركيز على النُّقطة المحوريَّة في كلِّ فكرة من الأفكار التي طرحَها.

1. **الإمام الحسن عليه السلام ورثَ وضعاً داخلياً هشَّاً في العراق مقارنة بالشَّام**: عندما بويع الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة، ورثَ نظامَ حُكم، كان يتَّجه من النَّاحية الدَّاخلية إلى الانقسامِ والضَّعف، لأسبابٍ تاريخيَّة خاصَّة. وكانَ أفرادُ جيشِهِ عليه السلام ضعيفي الولاء،

(1) محمد باقر الصدر، **أئمة أهل البيت** عليهم السلام، ص 280 - 292.

وقليلي الطَّاعة لقائدهم. بينما كان نظامُ معاوية في الشَّام يقوى، ويزدادُ تماسُكاً يوماً بعدَ يوم، وجيشُهُ تامّ الطَّاعة والولاء لقيادتِهِ.

2. **حياة الإمام الحسن عليه السلام الشَّخصية كانت مُهدَّدة من الدَّاخل**: فإذا أصرَّ الإمام الحسن عليه السلام على مواصلة القتال مع خصمِهِ، فسوف تكون نظير مقاومة عثمان للثُّوار المعارضين، وليس نظير مقاومة الإمام الحسين عليه السلام ليزيد. فقد كان الإمام الحسين عليه السلام في وضعِ المعارض في مقابل حكومة موجودة. وعندما عرَّض الإمام الحسين عليه السلام نفسَهُ للقتل، فإنَّهُ كان يعلَم أنَّ قتلَهُ سوف يكونُ مشرِّفاً من جهة، وذا أثر بالغ النَّفع للدِّين من جهةٍ أخرى، لأنَّهُ نهضَ في وجهِ حاكمٍ جائر، أشاعَ الفسادَ في الدَّولة الإسلامية، وحاولَ تقويض دعائمَ الإسلام.

ولكن أن يُقتلَ الإمام الحسن عليه السلام وهو على مسند الخلافة، وعلى يدي المعارضة، فإنَّ ذلك لن يكون مبعث افتخار شخصي له، ولن يكون ذا فائدة للإسلام. بل على العكس، سوف يكون لطمة تُسيء إلى الإسلام أبلغ الإساءة.

أقول: تذكر أنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يُناشِد عثمان، ويؤكِّدُ له أنَّ قتلَهُ على يدِ معارضيه، وهو على مسند الخلافة، يُعتبرُ كسراً لهيبةِ الدَّولة وفتحاً لباب الفتن، قائلاً له: «وإني أنشدك اللهَ، ألا تكونَ إمامَ هذهِ الأمة المقتول، فإنهُ كان يُقال: يُقتلُ في هذهِ الأمة إمامٌ يَفتحُ عليها القتلَ والقتالَ إلى يوم القيامة، ويلبسُ أمورَها عليها، ويبُثُّ الفتن فيها، فلا يُبصرونَ الحقَّ من الباطل، يموجونَ فيها موجاً، ويمرُجونَ فيها مرجاً»[1].

بل الإمام علي عليه السلام نفسُهُ تعرَّض لضغط معارضيه يوم صفين، وصارت حياتُهُ مهدَّدة، عندما أجبره جيشُهُ على وقف الحرب، فأوقفها، ولم يُصرّ على موقفِهِ، كما فعل عثمان.

3. **قدرة الخوارج في العراق على لملمة صفوفها من جديد**: إن احدى أعظم المصائب التي برزَت في الكوفة كانت ظاهرة الخوارج. وقد أرجع أمير المؤمنين عليه السلام ظهور هذه الطائفة من المسلمين إلى تلك الفتوحات الإسلامية المتلاحقة، التي لم تخضع لضوابط سليمة، ولم تُواكبها استراتيجية التَّعليم والتَّربية، ونشر وتعميق الثَّقافة الإسلامية، مما أدَّى إلى ظهور فئة من المسلمين السَّطحيين الجهلة المغرورين، الذين يتوهَّمونَ أنَّهم مسلمونَ أكثرَ من غيرِهِم.

أقول: أشرنا فيما مضى، أنَّهُ على رغم الانجاز المهم الذي حقَّقَهُ الإمام علي عليه السلام

---

(1) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، رقم (164)، ص234 - 235.

في النَّهروان، في تحجيم الخوارج وتقليص وجودهم، لكن - كما تنبأ تماماً - سرعان ما عادوا ولملموا صفوفَهم، وشاعَ فكرُهُم من جديد... وهناك عدَّة أسباب ساعدت على العودة السَّريعة إلى الخوارج، نترك شرحُها إلى مقام آخر... لكن نكتفي بذكر بعضها.

أولاً: كان هناك عددٌ معتدٌّ بهِ من المتعاطفين مع فكر الخوارج في جيش علي عليه السلام لم يجرؤوا قط على الانضمام إليهم خوفاً من سيف علي عليه السلام. ثانياً: نصب الإمام علي عليه السلام راية أمان للخوارج قبل بدء معركة النَّهروان، حتى يُقلِّل قدرَ الإمكان من الدِّماء المراقة... هذا دفعَ الآلاف منهُم إلى اللجوء إلى هذه الرَّاية، ربما خوفاً من سيف علي عليه السلام وليس اقتناعاً بحُجَّتِهِ عليه السلام. ثالثاً: النَّجاح الذي حقَّقُوهُ في اغتيالِهِم للإمام علي عليه السلام أعادَ لهم الثِّقة بأنَّ بإمكانهم بعثرة الوضع في العراق كما يحلو لهم.... وبالفعل ظهر تأثيرُهُم جليّاً مع الإمام الحسن عليه السلام، عندما حاولوا اغتياله، ثم أصبحوا حجر عثرة ومعضلة حقيقية للحُكم الأموي بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام.

4. **نشوء عشوائي لِعِدَّة فِرَق وأحزاب في العراق لها أطماع ومصالح خاصَّة:** مما هيأ الأرضية المناسبة لمعاوية ليؤسِّس طابوراً خامساً في جبهةِ الإمام الحسن عليه السلام، وذلك من خلال الجواسيس والعُمَلاء المزوَّدين بالأموال الطَّائلة لشِراءِ الذِّمم والضمائر، وكذلك لبثِّ الشَّائعات المغرضة بهدف تدمير الرُّوح المعنوية للناس.

5. **لم يُجبَر الإمام الحسن عليه السلام علي البيعة بخلاف الإمام الحسين عليه السلام:** من العوامل التي زادَت في إصرار الإمام الحسين عليه السلام على القيام هو إجبارُهُ على مبايعة يزيد. لكن معاوية لم يُطالب الإمام الحسن عليه السلام بالبيعةِ قط، ولم يكُن في بنودِ الصُّلح ما يُشيرُ إلى شيءٍ من ذلك. بل غاية ما كان يطلِبُهُ هو أن يتخلَّى الإمام الحسن عليه السلام عن السُّلطة، ليفسح في المجال له لتوَلِّيها.

6. **تخاذُل أهل الكوفة الواضح مع الإمام الحسن عليه السلام وادِّعاؤُهُم الاستعداد للنُّصرة مع الإمام الحسين عليه السلام:** من العوامل التي دعت إلى قيام الإمام الحسين عليه السلام هو دعوة أهل الكوفة له، ومكاتبتهم له بأنَّهم على أتمِّ الاستعداد لمبايعتِهِ والقتال معه. ولو لم يُرتِّب الإمام الحسين عليه السلام أثراً على ذلك فمن المُسلَّم أنَّهُ:

i. سيكونُ مُداناً أمام التَّاريخ، وسوف يقول الناس: الإمام الحسين عليه السلام أضاعَ فُرصةً ثمينةً بعد دعوة أهل الكوفة له، واستعدادِهم لنُصرتِهِ.

ii. والأهم من ذلك أنَّهُ سيُواجه من ناحيةٍ شرعيَّة مسألة إتمام الحُجَّة، لأنَّ مُبرِّر قعود الإمام الشَّرعي هو انعدام وجود النَّاصر.

لكن في حالةِ الإمام الحسن عليه السلام نجد أنَّ مسألة إتمام الحُجَّة لم تكن مُتوافرة. بل على العكس، لقد أظهرَ أهل الكوفة عدم استعدادهم الفعلي للقتال، وكان الوضعُ الدَّاخلي في الكوفة من التردِّي بحيث أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يحترز من كثيرٍ من أهل الكوفة، وعندما كان يخرُج للصلاةِ في المسجد كانَ يرتدي تحتَ ملابسه درعاً، لأنَّ عناصر الخوارج وعُملاء معاوية كانوا كثيرين، وكان احتمالُ تعرُّضِهِ للاغتيال من قِبَلِهم كبيراً. وفعلاً حدَث في إحدى المرَّات أن كانَ الإمام الحسن عليه السلام في حال الصلاة، فرَماهُ أحدُهُم بسَهمٍ كادَ يقتُلُهُ حتماً لولا الدِّرع التي كان يرتديها.

أقول: إذن كانت حياة الإمام الحسن عليه السلام مهدَّدة بالفعل من أنصارِهِ، فأيُّ حُجَّة ستَتم على الإمام الحسن عليه السلام مع وجود أنصار من هذا القبيل؟!

7. **أرضيَّة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لم تكن مُهيَّأة مع إمامة الحسن عليه السلام**، لأنَّ الناس لم يكونوا قد عرَفوا حقيقة معاوية بعد، بخلاف عصر إمامة الحسين عليه السلام حيث عرَفَ الناسُ حقيقةَ الحُكم الأموي وحقيقة يزيد: فعامل الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من العوامل الأصيلة في قيام الإمام الحسين عليه السلام. وبغضِّ النَّظر عن عدم استعدادِهِ لبيعة يزيد، وبغضِّ النَّظر عن دعوةِ أهل الكوفة للإمام الحسين عليه السلام، فإنَّ مسألةَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وحدَها كانت سبباً مستقلاً بذاتِهِ لنهضة الإمام الحسين عليه السلام. فمنذُ اليوم الأول لوصول معاوية إلى الخلافة، وعلى مدى عشرينَ عاماً بقيَ فيها حاكِماً على المسلمين، أخذَ يعمَل على خلافِ الإسلام، ورأى المسلمون جورَهُ وجبروتَهُ وعدوانَهُ ونهبَهُ لبيتِ مالِ المسلمين وإراقتَهُ للدِّماء المحترمة، وفوق ذلك كله تعيين ابنه يزيد، شاربُ الخمر ولاعبُ القِمار ومُلاعِبُ القِردة، وليَّاً للعهد. كان هذا هو الوضع في حالة الإمام الحسين عليه السلام.

أقول: مع ذلك لم يخرج الإمام الحسين عليه السلام على معاوية، لالتزامه بصُلح أخيه الإمام الحسن عليه السلام من ناحية، ولأنَّ مسألة توريث السُّلطة لم تكن قد حدثت فعلاً، وإنما كان معاوية يعمل على جعلها أمراً واقعاً.

يواصل المطهَّري قائلاً: في حين نجد في عصر إمامة الحسن عليه السلام، كان الإمام الحسن عليه السلام يعرف ماهيَّة معاوية، ولكن أقصى ما كان مطروحاً آنذاك، هو أنَّهُ عندما يأتي معاوية وجماعتهُ إلى الحُكم، فإنَّهم سوف يفعلون كذا وكذا من المُنكرات. وهذا الأمر يختلف بالطَّبع عن كونِهِم حكَموا بالفعل، وارتكبوا تلكَ الأفعال المنكرة... فإلى ما قبل توقيع الصُّلح لم يكن المسلمون قد رأوا بأُمِّ أعيُنِهِم من معاوية وجماعتِهِ أنواعَ

الظُّلم والجَور والانحراف، فكيفَ يُمكن إقناعُهُم بحقيقةِ الأمر؟ وهكذا لم تكن أرضية القيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر مُهيَّأة بعد، وهو ما يسمى اصطلاحاً بـ«انعدام وجود تكليف فعليّ».

والآن لو عُرِضَ على التَّاريخ، أنَّ معاوية بوضعِهِ آنذاك جاءَ إلى الإمام الحسن عليه السلام، وعرَضَ عليهِ ذلك الصُّلح المشرِّف، وأرسلَ إليهِ ورقة مصالحة موقَّعة على بياض، وتعهَّدَ بتنفيذِ شروطِهِ كلها، ومن ناحية أخرى لم يطلُب منه إعطاء البيعة، ولم يُطالِبهُ أن يُخاطبه بـ«أمير المؤمنين» فما يكون حكم التَّاريخ؟

لو لم يقبل الإمام الحسن عليه السلام في تلكَ الظروف عرض الصُّلح هذا، وبهذهِ الكيفية، لكان التَّاريخ يلومُهُ بل يُدينُهُ. وكذلك فمن النَّاحية المنطقية والعقلية لا ينبغي للإنسان أن يستخدم لُغةَ الحرب والدَّم في كلِّ الظُّروف والأحوال، ولا يترُك في قاموسِهِ مكاناً للمُسالمة والمهادنة... هذه فائدة.

وأما الفائدة الأخرى التي حصلَ عليها الإمام الحسن عليه السلام - والتي خطَّط لها بوعي ودِقَّة - فهي كشف معاوية، وخط معاوية، بشكلٍ صارخٍ أمام الأمة الإسلامية، وإثبات زَيف كل ادعاءاتِهِ، بل كشف الهويَّة الإجرامية والانحراف المتأصِّل في طبيعتِهِ.

فقد كان الإمام الحسن عليه السلام يعرِف طبيعة معاوية، واستعجاله للأمور واستعداده لقبول أي شرط يُملى عليه في مقابل حصوله السَّريع على السُّلطة. ولذلك أملى الإمام الحسن عليه السلام شروطاً يعلم يقيناً أنَّ معاوية لن يلتزم بتنفيذها. وفعلاً ما إن استتبَّ له الأمر، ودخل معاوية العراقَ منتصراً، حتى أعلنَ أنَّ جميعَ الشُّروط التي اشترطَها على نفسِهِ قد وضعَها تحتَ قدميه، وأثبتَ بذلك أنَّهُ لا يزيد عن كونِهِ مجرَّد سياسي غادر، لا عهدَ له ولا ميثاق، وليسَ عندَهُ قيم يلتزم بها[1].

أقول: قد يُقال: لِمَ لَم يقم الإمام علي عليه السلام بعقد هذا الصُّلح المشرِّف مع معاوية؟ والجواب: أنَّنا لو دقَّقنا في ظروف الإمام علي عليه السلام، ومسلسل التدهور السَّريع والمستمر في جبهتِهِ، وعدم قدرة هذه الجبهة على مواجهة غارات معاوية المتتالية، لو ظلَّ الإمام علي عليه السلام حيَّاً ولم يستشهد، لكان عليه السلام قد عقد الصُّلح مع معاوية، كما فعل الإمام الحسن عليه السلام، بل كما فعل هو نفسه عندما اضطرَّ لوقف حرب صفين وقبِلَ التَّحكيم.... وما استشهادُهُ عليه السلام إلا مظهراً من مظاهر الفوضى والتدهور في جبهتِهِ.

---

(1) مرتضى المطهري، جولة في سيرة الأئمة الأطهار، مؤسسة البعثة، ط1، 1412هج - 1991م، بيروت، ص 55 - 65.

والخلاصة أنَّه من خلال هذين التَّحليلين - تحليل الصدر والمطهري - نستطيع أن نستنبط فروقاً جوهريةً بين ظروف الإمام الحسن عليه السلام وظروف الإمام الحسين عليه السلام، فظروف الإمام الحسن عليه السلام اضطرَّته أن يُصالح معاوية، وظروف الإمام الحسين عليه السلام اضطرَّته أن يقف ثائراً بوجه يزيد.

في المحاضرة المقبلة سنبدأ بتسليط الضَّوء على فترة حكم معاوية التي امتدَّت إلى ما يقرُب من عشرين سنة. هذهِ المرحلة المهمَّة والخطيرة من عمر الأمة، لم تأخُذ حقَّها من التَّحليل والدِّراسة، بل نجد بعض كتب التأريخ تكتفي بذكر صفحات معدودة لهذينِ العقدين من الزَّمن. . . .معرفة أحداث هذه المرحلة، وتحليل التغيُّر القِيَمي الذي طرأ على الأمة، سيُساعدنا كثيراً على فهم أحداث كربلاء.

(26)

معاوية وسياسته العامَّة

بعد أن عرفنا ظروف وملابسات صُلح الإمام الحسن عليه السلام، والفروق الجوهريَّة مع ظروف وملابسات قيام الإمام الحسين عليه السلام، نريد في هذا الفصل أن ندرُس الأحداث التي تلَت صُلح الإمام الحسن عليه السلام والسِّياسة العامة لمعاوية في فترةِ حُكمِهِ.

فترة حُكم معاوية امتدَّت من (41-60 هج)، أي تسع عشرة سنة تقريباً، حصلت فيها أحداث وتغيُّرات كثيرة وكبيرة.

معاوية[1] من الصُّلح إلى الوفاة (41 - 60هج)

خلال هذه الفترة، أحداث خطيرة وقعت، وقيم عديدة تغيَّرت، ونفوس كثيرة تبدَّلَت، وتيارات متنوعة ظهَرَت، ومدارس مختلفة برَزَت، وسياسات جديدة حكَمَت، وثقافة جديدة انتشرت.

ويمكن أن أدَّعي أنَّ أفكاراً وسُنَناً وبِدَعاً كثيرة بدأت في تلك المرحلة، واستمرَّت وترسَّخت وتجذَّرت حتى يومنا هذا.

فثمة برامج مدروسة، وخُطَط مرسومة، سارَ عليها معاوية في حُكمِهِ، ليُحقِّق غايات

---

(1) وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولَّي معاوية على الشَّام، لذا تجد معاوية يرد على الوفد المسير من الكوفة وفيهم صعصعة والأشتر وكميل بن زياد، عندما قال له صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ في المسلمين من هو أحقّ به منك... ردَّ عليهم: ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، ولو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة.... (الطبري، ج3، ص366). وعند بدء فتنة قتل عثمان، عندما حاور عثمان علياً عليه السلام وقال له: هل تعلم أنَّ عمر ولى معاوية خلافته كلها، فقد ولَّيته، فقال علي عليه السلام: أُنشِدُكَ الله هل تعلم أنَّ معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ - غلام عمر - منه، قال (عثمان): نعم، قال علي عليه السلام: فإنَّ معاوية يقتطع الأمور دونَك وأنتَ تعلمها فيقولُ للناسِ «هذا أمرُ عثمان» فيبلُغُك ولا تُغيِّر على معاوية... (الطبري، ج3، ص377).

معينة. نجحَ - بالمعنى السِّياسي للنَّجاح - في تحقيقِ كثيرٍ منها، وفشلَ في تحقيقِ بعضها الآخر. لنبدأ إذن بدراسة هذهِ المرحلة.

السِّياسة العامَّة لمعاوية

نسبياً، صفا الجو لمعاوية، بعد شهادة الإمام علي عليه السلام وتسليم الإمام الحسن عليه السلام الأمرَ إليه. غير أنَّ البلاد الإسلامية في الجزيرة العربية كانت قد ضعضَعتها غارات جيش معاوية عليها، وقلوبُ الناس تغلي عليهِ كالمِرجَل بما قتلَ من رجالِها في صفين، وما بعد صفين، باسم الطَّلب بدمِ عثمان، فاتَّبع معاوية سياسة المداراة والمُهادنة مع أعدائِهِ في الخارج.

أما على الصَّعيد الداخلي، فقد بدأ معاوية يقطف الثِّمار المرَّة لظاهرة الخوارج، فقد خرجَ عليه فروة بن نوفل سنة 41 هج، قبل أن يبرح الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة حتى تمَّ في النهاية تصفية هذه الحركة[1]. ثم استطاع المغيرة بن شعبة - بدهائِهِ وسيفِهِ - ثم زياد بن أبيهِ - بالحديد والنار - إخماد سلسلة ثورات الخوارج.

وإليك أبرز معالم السِّياسة العامَّة لمعاوية.

1) تجميد الثأر لدم عثمان

في داخل البلاد الإسلامية اتَّبع معاوية سياسة الِّلين لتثبيتِ أساس مُلكِهِ، ونسي بعد أن استولى على المُلك دمَ عثمان والطلبَ بثأرهِ. وهذا يكشِف عن أنَّ المطالبة بدَم عثمان كانت شعاراً قد استنفدَ وظيفتَهُ، واستُهلِكَ وصارَ شيئاً من الماضي، بعد أن حقَّق معاوية غرضَهُ منه، ووصلَ إلى السُّلطة.

قال ابن عبد ربِّه: قدِمَ معاوية المدينة بعدَ عام الجماعة، فدخلَ دارَ عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان، وبكَت، ونادَت أباها: واعثماناه، تُحرِّض بذلكَ معاوية على القيام بطلبِ ثأرِهِ. فقال معاوية: يا ابنةَ أخي، إنَّ الناسَ أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حِلماً تحتَهُ غضَب، وأظهروا لنا ذُلاً تحتَهُ حِقد، ومع كلِّ إنسانٍ سيفهُ، ويرى موضِعَ أصحابهِ، فإن نكثنا بهم نكثُوا بنا، ولا ندري أعلينا تكونُ الدَّائرة أم لنا؟ ولئن تكوني ابنةِ عمِّ أمير المؤمنين، خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرَضِ الناس[2].

---

(1) أنظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص126.

(2) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص364.

2) التَّضييق على شيعة الإمام علي عليه السلام

وكانَ أشدّ الناسِ بلاءً يومذاك شيعة علي عليه السلام خاصَّة، فقد أمرَ معاوية ولاتَهُ بلعنِ علي عليه السلام على المنابِر (وسنتحدَّث عن هذه النُّقطة بعد قليلٍ بشيءٍ من التَّفصيل). وكان لأهلِ الكوفة النصيب الأكبر من التَّضييق والضغوط، لكون هواهُم مع الإمام علي عليه السلام، ولما فعلوه بمعاوية وأهل الشَّام في صفين.

يروي الطبري أنَّ معاوية قالَ للمغيرة بن شُعبة لما ولَّاهُ الكوفة سنة 41هج: قد أردتُ إيصاءَكَ بأشياءٍ كثيرة أنا تارِكُها اعتماداً على بصرِكَ، ولستُ تاركاً إيصاءَكَ بخصلةٍ؛ لا تترُك شتمَ عليٍّ وذمَّه، والترحُّم على عثمان والاستغفار لهُ، والعيبَ لأصحابِ علي والإقصاء لهم، والإطراء لشيعةِ عثمان والإدناء لهم[1].

وسنرى في سنة 45 هج وما بعدَها، ما فعل زياد بن أبيه، بشيعة علي عليه السلام.

وفي روايةٍ مهمة، يرويها ابن أبي الحديد، عن الإمام الباقرِ عليه السلام، يشرح لنا فيها ظروف وملابسات هذه الفترة الحالِكة من التاريخ، يقول:

رُوي أنَّ أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال لبعضِ أصحابِهِ: «يا فلان، ما لقينا من ظُلم قريش إيَّانا، وتظاهُرهِم علينا، وما لقي شيعتنا ومُحبُّونا من الناس! إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قُبضَ وقد أخبرَ أنَّا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قُريش حتى أخرجَت الأمرَ عن معدنِهِ، واحتجَّت الأنصارُ بحقِّنا وحُجَّتنا. ثم تداولتها قريش، واحدٌ بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنُكثت بيعتُنا، ونُصبت الحربُ لنا، ولم يزل صاحبُ الأمرِ (= الإمام علي عليه السلام) في صعودٍ كئود، حتى قُتِل. فبويعَ الحسنُ ابنُهُ، وعُوهِدَ ثم غُدِرَ به، وأُسلِمَ ووثبَ عليهِ أهلُ العراق، حتى طُعنَ بخنجرٍ في جَنبِهِ، ونُهِبت عسكرُهُ، وعُولجَت خلاليلُ أمهات أولادهِ، فوادعَ معاويةَ وحقنَ دمَهُ ودماءَ أهل بيته، وهم قليل حقٌّ قليل. ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرونَ ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليهِ، وبيعتهُ في أعناقِهِم وقتلوهُ.

ثم لم نزَل - أهل البيتِ - نُستذلُّ ونُستضام، ونُقصى ونُمتهن، ونُحرَم ونُقتَل، ونَخافُ ولا نأمَن على دمائِنا ودماءِ أوليائِنا. ووجدَ الكاذبونَ الجاحدون لِكذبِهِم وجُحودِهِم موضِعاً يتقرَّبونَ بهِ إلى أوليائِهِم وقضاء السُّوء وعُمَّال السُّوء في كلِّ بلدة،

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص188.

فحدَّثوهم بالأحاديثِ الموضوعة المكذوبة، ورَووا عنَّا ما لم نقُله وما لم نفعَله، ليُبغِّضونا إلى الناس. **وكان عُظمُ ذلك وكُبرهُ زمنَ معاوية بعد موتِ الحسن عليه السلام ، فقُتلت شيعتُنا بكلِّ بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظِّنة، وكان من يذكر بحُبِّنا والانقطاع إلينا سُجنَ أو نُهبَ مالهُ، أو هُدِمت دارُهُ.**

ثم لم يزل البلاءُ يشتدُّ ويزداد، إلى زمانِ عبيد الله بن زياد قاتلِ الحسين عليه السلام . ثم جاء الحجَّاج فقتَلَهم كلَّ قتلة، وأخذَهُم بكلِّ ظِنَّة وتُهمة، **حتى إنَّ الرَّجُلَ ليُقالُ له: «زنديقٌ أو كافرٌ»، أحبُّ إليهِ من أن يُقال: «شيعة علي»**، وحتى صارَ الرَّجُل الذي يُذكَر بالخير - ولعلَّهُ يكونُ ورِعاً صدُوقاً - يُحدِّث بأحاديث عظيمةٍ عجيبة، من تفضيلِ بعض من قد سلفَ من الوُلاة، ولم يخلِق اللهُ تعالى شيئاً منها، ولا كانت وقعَت، وهو يحسَبُ أنَّها حقٌّ لكثرةِ من قد رواها، ممن لم يُعرَف بكذبٍ ولا بقلةِ ورع»[1].

وسنتحدَّث بتفصيلٍ أكبر عن سيل الأحاديث المختلَقَة التي راجت آنذاك عندما نصِل إلى عنوان «تحريف السُّنة».

3) سبُّ الإمام عليٍّ عليه السلام على المنابر

من أخبث السُّنن التي سنَّها معاوية كانت سُنَّة سبِّ الإمام علي عليه السلام على المنابِر . . . ويبدو من بعض الأخبار أنَّهُ بدأ بهذه السُّنة في الشَّام قبل شهادة الإمام علي عليه السلام ، بدليل أنَّ الإمام الحسن عليه السلام اشترطَ في أحدِ بنود الصُّلح وقف سبِّ الإمام علي عليه السلام . . . لكن بعدَ الصُّلح، لم يكتفِ معاوية بعدم الوَفاء بهذا الشَّرط، بل عمَّمَ سُنَّة سبِّ الإمام علي عليه السلام على الأمصار الإسلامية، فاعتادَ خُطباء المنابر سبَّ الإمام علي عليه السلام ، وصار هذا السبُّ هو ختام كلِّ خطبة.

يقول ابن أبي الحديد في شرحِهِ لكلام أمير المؤمنين علي عليه السلام : «أما إنهُ سيظهَرُ (= سيغلب) عليكم بعدي رجُلٌ رحِبٌ (= واسع) البُلعوم، مُندَحِقٌ (= بارز) البطن، يأكُلُ ما يجد، ويطلبُ ما لا يجد، فاقتلوهُ، ولن تقتُلوه. ألا إنَّهُ سيأمُرُكم بسبِّي والبراءةِ منِّي، فأما السبُّ فسُبُّوني، فإنَّهُ لي زكاةُ ولكم نجاةُ، وأما البراءة فلا تتبرَّءوا منِّي، فإنِّي وُلِدتُ على الفِطرة، وسبقتُ إلى الإيمان والهِجرة».

يقول ابن أبي الحديد: إنَّ معاويةَ أمرَ الناسَ بالعراق والشَّام وغيرهما بسبِّ

---

(1) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مج6، ج11، ص25.

علي عليه السلام والبراءةِ منهُ. وخطبَ بذلكَ على منابرِ الإسلام، وصارَ ذلك سُنةً في أيامِ بني أمية إلى أن قامَ عُمر بن عبد العزيز رحمه الله فأزالهُ.

وذكرَ شيخنا الجاحظ أنَّ معاوية كانَ يقولُ في آخرِ خُطبة الجمعة: «اللهم العن أبا تراب، ألحدَ في دينِك، وصدَّ عن سبيلِك، فالعنهُ لعناً وبيلاً، وعذِّبهُ عذاباً أليماً». فكانت هذه الكلمات يُسارُ بها على المنابرِ إلى خلافةِ عُمر بن عبد العزيز.

وروى أبو عثمان أيضاً أنَّ قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أميرَ المؤمنين، إنك قد بلغت ما أمَّلتَ، لو كففتَ عن لعنِ هذا الرَّجُل! فقال: لا والله، حتى يربو عليهِ الصغير، ويهرمَ عليهِ الكبير، ولا يذكُرَ لهُ ذاكرٌ فضلاً (أقول: هذا الكلام يؤكد أنَّ ما قام به معاوية كان خطة مدروسة لمحو اسم علي عليه السلام من وجدان الأجيال المسلمة).

وأمرَ المغيرة بن شعبة[1] - وهو يومئذٍ أمير الكوفة من قِبل معاوية - حُجر بن عدي أن يقومَ في الناس، فيلعنَ علياً عليه السلام، فأبى ذلك، فتوعَّدَهُ، فقال: أيُّها الناس، إنَّ أميرَكُم أمرَني أن ألعنَ علياً فالعنوهُ، فقال أهل الكوفة: لعنَهُ الله، وأعادَ الضَّمير إلى المغيرةِ بالنِّيةِ والقَصد.

وأرادَ زياد[2] أن يعرض أهلَ الكوفة أجمعين على البراءةِ من عليٍّ عليه السلام، ولعنِهِ، وأن يقتُل كل من امتنعَ من ذلك، ويُخرِّب منزِلَهُ، فضربَهُ اللهُ ذلكَ اليوم بالطَّاعون، فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثةِ أيام، وذلك في خلافةِ معاوية.

فأما عمر بن عبد العزيز... فإنهُ قال: كنتُ غلاماً أقرأُ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود، فمرَّ بي يوماً وأنا ألعبُ مع الصبيان، ونحنُ نلعنُ علياً، فكرِهَ ذلك ودخلَ المسجد، فتركتُ الصبيان وجئتُ إليهِ لأدرُسَ عليه وِردِي، فلما رآني قامَ فصلى وأطالَ في الصلاةِ - شبه المُعرِض عني - حتى أحسستُ منهُ بذلك، فلما انفتلَ من صلاتهِ كلحَ في وجهي، فقلتُ له: ما بالُ الشيخ؟

فقال لي: يا بني، أنتَ اللاعنُ علياً منذ اليوم؟

قلت: نعم

قال: فمتى علمتَ أنَّ اللهَ سخِطَ على أهلِ بدر بعد أن رضي عنهم؟!

فقلتُ: يا أبتِ، وهل كان عليٌّ من أهلِ بدر؟! (لاحظ تأثير سياسة التَّجهيل والتَّضليل في الأجيال الجديدة من بني أمية، فضلاً عن أهل الشَّام عامَّة).

(1) وهو والي معاوية على الكوفة من سنة 41 أو 42 هج إلى سنة 49 هج (في حدود ثمان سنوات).
(2) وهو والي معاوية على الكوفة من سنة 49 هج إلى سنة 53 هج (في حدود أربع سنوات).

فقال: ويحَكَ! وهل كانت بدرٌ كلُّها إلا له؟!

فقلتُ: لا أعود

فقال: اللهَ إنكَ لا تعود!

قلت: نعم

فلم ألعنهُ بعدَها. ثم كنتُ أحضرُ تحتَ منبر المدينة، وأبي يخطبُ يومَ الجمعة، وهو حينئذٍ أميرُ المدينة، فكنتُ أسمعُ أبي يمُرُّ في خطبِهِ تهدِر شقاشقهُ، حتى يأتي إلى لعنِ عليٍّ عليه السلام فيُجَمجِم، ويعرِض له من الفهاهةِ والحصَر ما اللهُ عالمٌ به، فكنتُ أعجبُ من ذلك، فقلتُ له يوماً: يا أبتِ، أنت أفصحُ الناسِ وأخطَبُهم، فما بالي أراكَ أفصحَ خطيبٍ يومَ حفلِك، حتى إذا مررتَ بلعنِ هذا الرَّجُل، صِرتَ ألكَنَ عيِّاً!!

فقال: يا بُني، إنَّ من ترى تحتَ منبَرِنا من أهلِ الشَّام وغيرِهم، لو علِموا من فضلِ هذا الرَّجُل ما يعلَمهُ أبوك، لم يتبعنا منهم أحد.

فوقرَت كلمتُهُ في صدري، مع ما كانَ قاله لي معلمي أيامَ صِغَري، فأعطيتُ اللهَ عهداً، لئن كانَ لي في هذا الأمرِ نصيبٌ لأغيِّرنَّه، فلما منَّ اللهُ عليَّ بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلتُ مكانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وكتبَ بهِ إلى الآفاق فصارَ سُنَّة[2].

والحقيقة أنَّ الأدِلَّة والشواهد على أنَّ معاوية سنَّ سُنَّة سبّ الإمام علي عليه السلام كثيرة جداً. منها ما رواه مسلم في صحيحهِ في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي عليه السلام، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ سَعْدًا (بن أبي وقاص) فَقَالَ (معاوية): مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ؟

فَقَالَ (سعد): أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلاَثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فَلَنْ أَسُبَّهُ، لأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ.

1) سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ لَهُ خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نُبُوَّةَ بَعْدِي».

---

(1) سورة النحل، الآية: 90.

(2) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مج2، ج4، ص33 - 35.

2) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُه»، قَالَ فَتَطَاوَلْنَا لَهَا فَقَالَ: «ادْعُوا لِي عَلِيًّا»، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ.

3) وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِي».

كتب ابن عبد ربه الأندلسي: «لما مات الحسن بن علي عليه السلام حجَّ معاوية، فدخل المدينة وأراد أن يلعن علياً عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله. فقيل له: إن ها هنا سعد بن أبي وقاص، ولا نراه يرضى بهذا، فابعث إليه وخذ رأيه. فأرسل إليه وذكر له ذلك. فقال: إن فعلت لأخرجنَّ من المسجد، ثم لا أعود إليه. فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد. فلما مات لعنه على المنبر، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر، ففعلوا. فكتبت أم سلمة - زوج النبي صلى الله عليه وآله - إلى معاوية: «إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبَّه ورسوله» فلم يلتفت إلى كلامها»[1].

أقول: السُّنة التي سنَّها معاوية (ممثِّل بني أمية) في سبِّ الإمام علي عليه السلام، جرَّأت بعد ذلك عبد الله بن الزبير[2] (ممثِّل قريش) على سبِّه والانتقاص منه. يقول ابن أبي الحديد: وكانَ عبدُ الله بن الزبير يُبغِضُ علياً عليه السلام وينتقصهُ وينالُ من عِرضِه. وروى عمر بن شبة وابنُ الكلبي والواقدي وغيرهم من رُواة السِّير، أنَّهُ مكثَ أيام ادعائِهِ الخلافة أربعينَ جُمعة، لا يُصلِّي فيها على النَّبي صلى الله عليه وآله، وقال: لا يمنَعُني من ذِكرِهِ إلا أن تشمَخ رجالٌ بآنافِها. وفي روايةِ محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: إنَّ له أُهيلَ سوءٍ يُنغِضون رؤوسَهُم[3] عندَ ذِكرِهِ[4].

4) تحريف السُّنة

بعد سياسة حظر تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله التي سنَّها عمر، خوفاً - كما برَّر موقفه - من التأثُّر بأهل الكتاب وأن يُؤخَذ بأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله ويُترك القرآن[5]،

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص366.

(2) عندما أسس دولته في الحجاز مستفيداً من نقمة الناس على بني أمية بعد واقعة كربلاء.

(3) أنغض رأسه: حركه كالمتعجب.

(4) ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، مج2، ج4، ص36 - 37.

(5) راجع كتاب: **منع تدوين الحديث: أسباب ونتائج**، علي الشهرستاني، مؤسسة الإمام علي، قم، 1418هج.

وبعدما حبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري قائلاً لهم: لقد أكثرتُم الحديثَ عن رسولِ الله[1]. . . . جاءَ معاوية ليتدخَّل في تنقية السُّنة المروَّية عن رسولِ الله ﷺ من كلِّ ما يتعارض مع مصالحِهِ وخُطَطِهِ.

فعن عبد الله بن عامر اليحصبي قال: سمعتُ معاوية على المنبر يقول: (أيُّها الناس) إياكم وأحاديث رسول الله ﷺ إلا حديثاً كان يُذكَر على عهد عمر، فإنَّ عمر كان يُخيفُ الناسَ في اللهِ عَزَّوَجَلَّ [2].

يقول الشهرستاني في كتابه «منع تدوين الحديث»: «وقد أدركَ معاوية - وهو الدَّاهية - ضرورة سدّ باب التَّحديث، تقويةً لاجتهاداتِ الخليفة عمر بن الخطاب وقراراته، لكي يتمكَّن من تشييدِ بناء البديل.

المهم هو حدوث التخالُف مع قول الإمام علي عليه السلام، ثم جمع الأمة على ما يريدونَهُ، ومتى أرادوا النَّيلَ من أحدِ الطالبيين فإنَّهم يُشيعونَ عنهُ أنَّهُ قد خرجَ عن إرادةِ الأمة، لأنَّ فقهَهُ يُخالف فقه المسلمين، فانظروا إلى وضوئِهِ فإنَّهُ مَسحيٌّ، وإلى صلاتِهِ فهو مُسبلٌ، وإلى قراءتِهِ فهي جهريَّة، وإلى آخرِ هذهِ المصائد والكمائن.

إنَّ إغلاق باب التَّحديث والتدوين من قبل الخليفة عمر بن الخطاب كان فرصةً أمام معاوية لبناءِ البديل، كما أنَّهُ سعى لتقوية دور القصَّاصين ومتزلفي الرُّواة، ليضعوا الأحاديث التي تخدِم رأيَهُ، وتُقلِّل من مكانةِ خصمهِ، فكان مما يُثبِّت أركانَ حكومتِهِ هو: التَّركيز على فضائل عثمان والشَّيخين»[3].

وجاء في مناقب الإمام أبي حنيفة للمكي أنَّهُ: «لما دُعيَ ليُسأل عن مسألةٍ فقهيةٍ من قِبل أحد الأمويين، قال أبو حنيفة: فاسترجعتُ نفسي لأني أقولُ فيها بقولِ عليٍّ رضي الله عنه وأدينُ اللهَ به، فكيفَ أصنع؟ قال: ثم عزمتُ أن أصدُقَهُ وأفتيهِ بالدِّين الذي أدينُ اللهَ به، وذلك أنَّ بني أمية كانوا لا يُفتونَ بقولِ عليٍّ ولا يأخذونَ به - إلى أن يقول - وكان عليٌّ لا يُذكر في ذلكَ العصر باسمهِ، والعلامةُ عنهُ بين المشايخ أن يقولوا: «قالَ الشَّيخ»، ومنعوا الناسَ أن يُسمُّوا أبناءَهُم باسمهِ، ويتعرَّض للبلاءِ من سمى ابنَهُ علياً»[4].

أقول: وبالفعل، إن أجرينا استقراءً لأسماءِ الرُّواة الذين وُلِدوا بعد استتباب الحُكم

---

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 7.

(2) صحيح مسلم، ، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

(3) على الشهرستاني، منع تدوين الحديث، ص274 - 275.

(4) مناقب أبي حنيفة للمكي، ج1، ص171، نقلاً عن: أسد حيدر، الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ط2، 1390هج - 1969م، بيروت، ص396.

لمعاوية، وكان اسمُهُ «علياً»، لوجدنا نزراً يسيراً منهم، إن وجدنا أصلاً... واستمرَّ الوضع على هذا النحو - ربما - حتى أواخر الدَّولة الأموية. فأكثر من كان يحمل اسم «علي» في تلك الحُقبة التَّاريخية، كان قد وُلِدَ قبل صُلح الإمام الحسن عليه السلام، أو بعد انهيار الدَّولة الأموية. وهذه الملاحظة بحاجة إلى مزيدٍ من الدِّراسة والتَّمحيص للتأكد من صحتها.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: عن رجاء بن أبي سلمة قال: بلغني أنَّ معاوية كان يقول: عليكُم من الحديث بما كانَ في عهدِ عمر، فإنهُ كانَ قد أخافَ الناسَ في الحديثِ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد روى ابن عرفة المعروف بـنفطويه - وهو من أكابر المُحدِّثين وأعلامهم - في تاريخه، فقال: «إنَّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائلِ الصَّحابة افتُعِلت في أيام بني أمية، تقرُّباً إليهم بما يظُنُّونَ أنَّهُم يُرغمونَ به أنوف بني هاشم»[1].

أقول: من الواضح أنَّ ما قام به معاوية لم يكن ردَّة فعل عابرة، بل كان ضمن خطَّة مدروسة، تُنفَّذ على مراحل... والرِّواية التَّالية قد تُؤكِّد وجهة النَّظر هذه.

فقد روى المدائني في كتاب «الأحداث» وقال: كتبَ معاويةُ نسخةً واحدةً إلى عُمَّالهِ بعدَ عام الجماعة (**لاحظ: هذه هي المرحلة الأولى من الخُطَّة**) أن «برِئت الذِّمة ممن روى شيئاً من فضلِ أبي تراب وأهلِ بيته»، فقامت الخُطباء في كلِّ كورة، وعلى كلِّ منبر، يلعنونَ علياً ويبرؤونَ منهُ ويقعونَ فيهِ وفي أهلِ بيتهِ، وكانَ أشدّ الناسِ بلاءً حينئذٍ أهلُ الكوفة.

وكتبَ معاوية إلى عُمَّالهِ في جميعِ الآفاق (**لاحظ: هذه هي المرحلة الثَّانية من الخُطَّة**): «ألا يُجيزوا لأحدٍ من شيعةِ عليٍّ وأهل بيتهِ شهادة». وكتبَ إليهم أن «انظروا من قبلكم من شيعةِ عثمانَ ومُحبِّيه وأهل ولايتهِ والذينَ يروونَ فضائلهُ ومناقِبَهُ، فأدنوا مجالِسَهم، وقرِّبُوهم وأكرِموهم، واكتبوا إليَّ بكلِّ ما يروي كلُّ رجُلٍ منهُم واسمَهُ واسمَ أبيهِ وعشيرتهِ». ففعلوا ذلكَ حتى أكثروا في فضائلِ عثمانَ ومناقبهِ، لما كانَ يبعث إليهم معاوية من الصِّلات والكِساء والحباء والقطائع، ويُفيضُهُ في العربِ منهم والموالي. فكثُرَ ذلِكَ في كلِّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليسَ يجيءُ أحدٌ مردودٌ من الناسِ عاملاً من عُمَّال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتَبَ اسمَهُ وقرَّبَهُ وشفَّعَهُ، فلبثوا بذلكَ حيناً.

ثم كتبَ إلى عُمَّالهِ (**لاحظ: هذه هي المرحلة الثَّالثة من الخُطَّة**): «إنَّ الحديثَ في

(1) ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، مج6، ج11، ص27.

عثمان قد كثُر وفشا في كلِّ مِصر وفي كلِّ وجهٍ وناحية، فإذا جاءَكُم كتابي هذا، فادعوا الناسَ إلى الرِّوايةِ في فضائلِ الصحابة والخُلفاء الأولين، ولا تترُكوا خبراً يرويهِ أحدٌ من المسلمينَ في أبي تراب إلا وتأتوني بمُناقِضٍ لهُ في الصحابة، فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ، وأقرُّ لعيني، وأدحضُ لحجةِ أبي تراب وشيعتهِ، وأشدُّ عليهم من مناقبِ عثمانَ وفضلهِ».

فقُرئت كُتُبَهُ على الناس، فرُوِيت أخبارٌ كثيرةٌ في مناقبِ الصحابة مفتعلة لا حقيقةَ لها، وجَدَّ الناسُ في روايةٍ ما يجري في هذا المجرى، حتى أشادوا بذكرِ ذلكَ على المنابر، وألقيَ إلى مُعلمي الكتاتيب، فعلموا صِبيانهم وغِلمانهم من ذلِكَ الكثير الواسع، حتى روَوهُ وتعلموهُ كما يتعلمونَ القرآن، وحتى علموهُ بناتهُم ونِساءَهُم، وخدَمَهُم وحشَمَهُم، فلبثوا بذلكَ ما شاءَ الله.

ثم كتبَ إلى عُمَّالِهِ نسخةً واحدة إلى جميعِ البلدان (لاحظ: هذه هي المرحلة الرَّابعة من الخُطَّة): «انظروا من قامَت عليهِ البينة أنهُ يُحِبُّ علياً وأهلَ بيتهِ، فامحوهُ من الديوان، وأسقِطوا عطاءَهُ ورِزقَهُ».

وشفع ذلك بنُسخةٍ أُخرى (لاحظ: هذه هي المرحلة الخامسة من الخُطَّة): «من اتهمتموهُ بموالاةِ القوم، فنكِّلوا بهِ، واهدِموا دارَهُ». فلم يكُن البلاءُ أشدّ ولا أكثر منهُ بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى إنَّ الرَّجُلَ من شيعةِ عليٍّ عليه السلام ليأتيهِ من يثِقُ بهِ، فيدخُلُ بيتهُ، فيلقي إليهِ سرَّهُ، ويخافُ من خادمهِ ومملوكهِ، ولا يُحدِّثهُ حتى يأخُذَ عليهِ الأيمانَ المُغلظة، ليكتمَنَّ عليه. فظهرَ حديثٌ كثيرٌ موضوع، وبهتانٌ منتشر، ومضى على ذلكَ الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرَّاء المراؤون والمستضعفون، الذين يُظهرونَ الخشوعَ والنُسُك، فيفتعلونَ الأحاديث ليحظوا بذلكَ عندَ وُلاتِهم ويُقرِّبوا مجالِسَهم، ويُصيبوا بهِ الأموالَ والضياعَ والمنازل، حتى انتقلت تلكَ الأخبارُ والأحاديث إلى أيدي الديانين الذينَ لا يستحلونَ الكذِبَ والبُهتان، فقبلوها ورَوَوها، وهم يظنونَ أنَّها حق، ولو علِموا أنَّها باطلة لما رَوَوها ولا تديَّنوا بها.

فلم يزل الأمرُ كذلكَ حتى ماتَ الحسنُ بنُ عليٍّ عليه السلام، فازدادَ البلاءُ والفتنة، فلم يبقَ أحدٌ من هذا القبيل إلا وهو خائفٌ على دمِهِ، أو طريدٌ في الأرض[1].

وهنا يتَّضح أنَّ المُحدِّثين الذين جاؤوا بعد ذلك، وجمعوا الأحاديث، واعتبروا كُتُبَهُم صِحاحاً، هم ضحيَّة خُطَّة مرسومة وطويلة من التَّضليل، مرَّت بها عدَّة أجيال.

---

(1) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مج6، ج11، ص25 - 26.

وقد سمّى ابن أبي الحديد قوماً من الصَّحابةِ والتابعين ممن وضعَهم معاوية لرواية الأخبار. فقال: ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أنَّ معاويةَ وضعَ قوماً من الصَّحابةِ وقوماً من التابعين على روايةِ أخبارٍ قبيحةٍ في عليٍّ عليه السلام تقتضي الطعنَ فيهِ والبراءةَ منهُ؛ وجعلَ لهم على ذلك جُعلاً يُرغَبُ في مثلهِ، فاختلقوا ما أرضاهُ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزُّبير.

روى الزُّهري أنَّ عروةَ بن الزبير حدَّثهُ قال: حدثتني عائشة قالت: كنتُ عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، إذ أقبلَ العباسُ وعلي، فقال: يا عائشة، إنَّ هذين يموتان على غير مِلَّتي - أو قال: ديني!!

وأما عمرو بن العاص فروى عنهُ الحديث الذي أخرجَهُ البُخاري ومسلم في صحيحيهما مُسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين.

وأما أبو هريرة، فروى عنهُ الحديث الذي معناهُ أنَّ علياً عليه السلام خطبَ ابنةَ أبي جهل في حياةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فأسخطهُ، فخطبَ على المنبر، وقال: لا واللهِ لا تجتمع ابنةُ وليِّ الله وابنةُ عدوِّ الله أبي جهل! إنَّ فاطمة بضعةٌ مني يؤذيني ما يؤذيها، فإن كانَ عليٌّ يريدُ ابنةَ أبي جهل فليُفارِق ابنتي، وليفعل ما يُريد.

وقال: لما قدِمَ أبو هريرة العراقَ مع معاوية عامَ الجماعة، جاءَ إلى مسجدِ الكوفة، فلما رأى كثرةَ من استقبلهُ من الناس، جثا على ركبتيهِ، ثم ضربَ على صلعتِهِ مِراراً، وقال: يا أهلَ العراق، أتزعُمونَ أني أكذِب على اللهِ وعلى رُسُلِهِ، وأحرِقُ نفسي بالنار! واللهِ لقد سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حرَماً، وإنَّ حرَمي بالمدينة، ما بينَ عَيرٍ وثور، فمن أحدَثَ فيها حدثاً، فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين»، وأشهدُ باللهِ أنَّ عليّاً أحدَثَ فيها. فلما بلغَ معاوية قولهُ أجازَهُ وأكرمَهُ وولاهُ إمارةَ المدينة.

.... وقد ذكرَ ابنُ قتيبة هذا كلَّه في كتابِ «المعارف» في ترجمة أبي هريرة(1).

أيضاً يروي ابن أبي الحديد، قال أبو جعفر: وقد رُويَ أنَّ معاوية بذلَ لسَمرة بن جُندب مائةَ ألف دِرهم حتى يروي أنَّ هذهِ الآية نزلت في عليِّ بن أبي طالب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾(2)، وأنَّ الآية

(1) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مج2، ج4، ص37 - 41.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 204-205.

الثانية نزلت في ابنِ مُلجم، وهي قولهُ تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[1]، فلم يقبَل، فبذلَ لهُ مائتي ألف درهم، فلم يقبَل، فبذلَ لهُ ثلاثمائة ألف، فلم يقبَل، فبذلَ لهُ أربعمائة ألف، فقبِلَ، وروىَ ذلك.

قال: وصحَّ أنَّ بني أمية منعوا من إظهارِ فضائلِ عليٍّ عليه السلام، وعاقبوا ذلكَ الراوي، حتى إنَّ الرَّجُلَ إذا روى عنهُ حديثاً لا يتعلَّق بفضلهِ بل بشرائعِ الدِّين، لا يتجاسَر على ذِكر اسمه، فيقول: «عن أبي زينب»[2].

واستمرَّ معاوية في المُضي في خُطَطِهِ في فسح المجال لبعض المُحدِّثين، وخنق أنفاس مُحدِّثين آخرين ليُمارسوا الرِّواية الشفاهية طوال فترة حُكمِهِ، واستمرَّ الأمر على هذا النحو حتى جاء هشام بن عبد الملك بن مروان سنة 105 هج، وأمرَ بعض المحدِّثين بتدوين وكتابة الحديث، كالزُّهري (ت 124 هج)، الذي كان يقول: كُنَّا نكرَهُ كتابةَ العِلم، حتى أكرَهَنا هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنَعهُ أحداً من المسلمين[3]، وأبي مليح الذي كان يقول: كُنَّا لا نطمعُ أن نكتُب عند الزُّهري، حتى أكرَهَ هشامُ الزُّهري، فكتبَ لبنيهِ، فكتبَ الناسُ الحديثَ[4].

فكُتِبَ الحديث تحت إشراف سُلطان بني أمية... وما أن جاءَ العصر العبَّاسي، وأرادَ أصحابُ الصِّحاح جمعَ الأحاديث وتدوينها في كتبِهِم، حتى اختلطَ الحقُّ بالباطل، والصدِّقُ بالكذِب، وكثُرَ المدلِّسون والوضَّاعون، وصارت الصُّورة في غايةِ التَّشويش.

إذا أخذنا البخاري (ت 256 هج)[5] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة بن بردزبه) - مثالاً على التَّشويش وعدم الدِّقة وحتى التحيُّز، سنجد أنَّهُ انفرد بتخريج 78 حديثاً وروى عن رجالٍ غير ثقات؛ كإسماعيل بن عبد الله بن أويس بن مالك

---

(1) سورة البقرة، الآية: 207.

(2) ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، **مج2**، ج4، ص43.

(3) **الطبقات الكبرى** 2/ 389، **البداية والنهاية** 9/ 341. أنظر أيضاً: صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، دار العلم للملايين، ط21، 1997م، بيروت، ص46.

(4) **حلية الأولياء** 3/ 363، **البداية والنهاية** 9/ 345 كما في الرواية التاريخية 107.

(5) ولد البخاري في 194 هج، وعاصر الإمام الرضا والجواد عليه السلام - أي عصر المأمون العباسي وعندما توفي المأمون كان عمر البخاري 24 سنة - ثم عاصر الإمام الهادي عليه السلام - أي عصر المعتصم والواثق، وعاصر الإمام العسكري عليه السلام - أي عصر المتوكل الذي عرف بعدائه الشديد لأهل البيت عليهم السلام، والمنتصر، والمستعين والمعتز الذي عرف بعدائه الشديد لأهل البيت عليهم السلام، والمهتدي والمعتمد. إذن فترة إنتاج البخاري معاصرة لأمثال المتوكل والمعتز، وهي الفترة ذاتها التي كتبت فيها الصِّحاح الستَّة.

(ت 226 هج) الذي قال يحيى بن معين عنه إنه مخلطٌ كذاب، وتكلَّمَ فيه النَّسائي وعرفَ بوضعِ الحديث لأهلِ المدينة إذا اختلفوا فيما بينَهم. وروى عن زياد بن عبد الله العامري (ت 282 هج) الذي نقلَ بشأنِهِ التِّرمذي عن وكيع أنَّهُ على شرفِهِ كان يكذِب في الحديث. وروى عن الحسن بن مدرك السَّدُوسي الطحَّان، الذي رماهُ أبو داود بالكذِب.

كما روى البُخاري عن مجموعة عُرِفت بالنَّصب والعداء للإمام علي عليه السلام؛ كعمران ابن حطَّان الذي مدَحَ عبد الرحمن بن ملجم المُرادي بقوله:

يا ضربةً من تقيّ ما أرادَ بها إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكرهُ يوماً فأحسبهُ أوفى البريةِ عندَ اللهِ ميزانا

كما روى عن أبي الأحمر السائب بن فروخ (ت 136هج)، وحريز بن عثمان الحمصي (ت 163 هج) الذي كان يقول: لا أحبُّ علياً قتل آبائي ويقول: لنا إمامُنا (يعني معاوية) ولكم إمامُكم (يعني عليَّاً عليه السَّلام)، وروى عن إسحاق بن سويد التَّميمي (ت 131 هج)، وعبد الله بن سالم الأشعري (ت 179 هج)، وزياد بن علاقة أبو مالك الكوفي (ت 129 هج)، وغيرهم من النَّواصب والخوارج الذين أعلنوا العداءَ للإمام علي عليه السلام وتظاهروا بالتحامُل عليه.

في مقابل ذلك، لم يرو البُخاري عن كثيرٍ من علماء الأمة وأعلام الحديث، ومن هم أدرى بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأشدّ عناية فيه وإحاطة له، وفي طليعتِهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام [1].

وإن كان معاوية قد نقَّى الأحاديث المرويَّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يُعارض مصالحه وخُططه، خصوصاً فيما يتعلَّق بالإمام علي عليه السلام وأهل بيته، فقد فتحَ باب الأحاديث الإسرائيليَّة (= المأخوذة من التَّوراة) على مصراعيه. وذلك من خلال السَّماح لأمثال الرَّاهب النصراني تميم الَّداري، وكعب أحبار اليهود، وكانا قد أظهرا الإسلام بعد انتشارِهِ، وتقرَّبا إلى الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففسحوا لهُما ولأمثالِهِما في المجال أن يبُثُّوا الأحاديث الإسرائيلية بين المسلمين كما يشاؤون.

وقد عظم نفوذ هؤلاء في عهد معاوية، حيث اتَّخذ بطانة من النَّصارى أمثال سرجون (Sir John)، وطبيبه ابن أثال، وشاعره الأخطل من نصارى عصره. ومن المعلوم أنَّ هؤلاء عندما شكَّلوا البَلاط الأموي لم يترُكُوا أفكارَهُم المسيحية وأعرافَهُم خلفَهُم، بل

(1) أسد حيدر، **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**، ج1، ص78 - 82.

حملوها معهم إلى البَلاط. أضِف إلى ذلك أنَّ عاصمة معاوية الشَّام كانت قبل ذلك عاصمة النَّصارى الرُّوم البيزنطيين، وكانت ذات حضارة عريقة...[1].

5) سياسة شراء الذِّمم

أغدقَ معاوية العطاء على الشَّخصيات العامَّة والرُّؤساء، فمالوا إليه. قال الطبري: إنَّ الحُتَّات بن يزيد المجاشعي (وهو بالمناسبة من الصَّحابة!) وفَدَ على معاوية في جماعةٍ من الرُّؤساء، فأعطى كُلاً منهُم مائة ألف، وأعطى الحُتَّات سبعين ألفاً، فلما رجَعوا، وكانوا ببعضِ الطَّريق، أخبرَ بعضُهم بعضاً بجائزتهِ، فرجعَ الحُتَّات إلى معاوية يُعاتِبُهُ، فقالَ لهُ فيما قال: ما بالكَ خسَستَ بي دونَ القومِ؟!

فقال معاوية: اشتريتُ من القومِ دينَهم، ووكلتُكَ إلى دينِك ورأيِكَ في عثمان.

فقال الحُتَّات: وأنا فاشتَرِ مني ديني.

فأمرَ لهُ بتمامِ جائزتهِ[2]!

وصانعَ معاويةُ الرِّجال ذوي الدَّهاء والخطر، فولَّى المغيرة بن شعبة الكوفة، بعد أن كان قد أعطى مصر طُعمة لعمرو بن العاص مدَّة حياته[3]، وبقيَ زياد بن أبيه شوكةً إلى جنبِهِ، فأقضَّ أمرهُ مضجعَ معاوية، فعالجَهُ علاجَ امرئٍ حازم في دُنياه، غير آبهٍ لدينهِ حين استلحَقَهُ بنسبهِ، ووافقَ ذلك هوىً في نفسِ زياد، فرغَبَ في ذلكَ أشدَّ الرَّغبة بما نقل نسبهُ من ثقيف إلى قريش، ومن عُبيد إلى أبي سفيان، فأصبحَ أخاً لخليفةِ المسلمين بعد أن كانَ امرءاً وضيعَ النَّسب خسيسَ الحسب[4]. وسنتطرَّق إلى قضية استلحاق معاوية نسب زياد ابن أبيه بأبي سفيان، قريباً.

---

(1) مرتضى العسكري، معالم المدرستين، ج2، ص55 - 63.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص180. نقل ابن الأثير ذلك أيضاً في ترجمته في أسد الغابة، وفي ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة.

(3) وفي سنة 43هج - أي بعد صلح الحسن عليه السلام بسنتين - مات عمرو بن العاص بمصر، فكان والياً من طرف معاوية عليها ما يزيد على العامين بقليل.

(4) استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان في سنة 44هج بعد صلح الحسن عليه السلام بثلاث سنين، ثم ولاه البصرة سنة 45هج، ثم جمع له خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان، فكان بذلك توطئة لتولية ابنه عبيد الله بن زياد. فخطب أهل البصرة فكان مما قاله: فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه... وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي (الطبري، ج4، ص166 - 167). وفي سنة 50هج، بعد أن مات المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة بالطاعون، ضمَّ =

الخلاصة: يمكن القول بأنَّ معاوية مارسَ ثقافة شراء الذِّمم والضَّمائر في عصر الإمام علي عليه السلام بنحوٍ انتقائي كحالات فرديَّة. لكن هذه الحالات الفرديَّة شاعت وأصبحت ظاهرة مع بداية حُكم معاوية. وأخطر ما في الأمر أنَّ هذه الظاهرة تحوَّلت بالتدريج إلى ثقافةٍ عامَّة مع نهاية حُكم معاوية. . . .

وبالتالي يمكن النَّظر إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام على يزيد، على أنَّها ثورة قِيميَّة ضد ثقافة الحُكم الأموي، وبالتَّحديد ضد ثقافة معاوية، وخط معاوية.

6) مزيد من الإفراط في حياة البذخ

نعم، شرى معاوية دهاة الرِّجال في عصرهِ بالإمرة، والمال، والاستلحاق بالنَّسب، وصانَعَ الرُّؤساء، وداهنَ أعداءَهُ، وبذلَ وافِرَ المال، وتظاهرَ بالحِلم والإغضاء عن خصومِهِ أجمعين، حتى إذا اتَّسق له الأمر، وتمَّ له المُلك، أظهر دخيلَةَ نفسه، وجعل الخلافة مُلكاً عَضوضاً. فأمرَ بأن يُصطفى له الصَّفراء والبيضاء، فلا يُقسَّمُ بين الناس ذهب ولا فضة، واستصفى لنفسِهِ ما كان لكسرى وآل كسرى من الصَّوافي في أرضِ الكوفة وسوادِها، فبلغت جِبايتُهُ خمسين ألف ألف درهم من أرض الكوفة وسوادِها.

وكتب إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة بمثل ذلك في أرضُ البصرة، وأمرَهُم أن يحملوا إليه هدايا النَّيروز والمهرجان، فكان يُحمل إليه في النَّيروز وغيره والمهرجان عشرة آلاف ألف.

وفعل معاوية بالشَّام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للمُلوك من الضِّياع، وتصييرِها لنفسِهِ خالصة، وأقطعَها أهل بيته وخاصَّته. وكان أوَّل من كانت له الصَّوافي في جميع الدُّنيا، حتى بمكة والمدينة، فإنَّهُ كان فيهما شيءٌ يُحمَل في كلِّ سنة من أوساق (الوسق سِتُّون صاعاً أو حمل بعير) التَّمر والحِنطة، وأقطع فدَكاً مروانَ خاصَّة.

ثم شدَّد النَّكير على من ناوأَهُ، ولما صارَ إلى المدينة أتاهُ جماعة من بني هاشم،

= معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة (الطبري، ج4، ص174). وتوفي زياد سنة 53هج، ثم قام معاوية بتولية عبيد الله بن زياد - لعنه الله - خراسان سنة 54هج، التي أقام بها سنتين، ثم ولاه معاوية البصرة سنة 55هج. وصار عبيد الله - كأبيه - معروفاً عند أهل العراق بالبطش، وقصته مع عروة بن أدية معروفة (الطبري، ج4، ص231 - 232)، مضافاً إلى قتله عدداً كبيراً من الخوارج سنة 58هج. وقام معاوية سنة 59هج بتولية عبد الرحمن بن زياد بن سمية (أخو عبيد الله) خراسان، وولى النعمان بن بشير الأنصاري الكوفة.

وكلَّموهُ في أمورهِم، فقال: أما ترضَون يا بني هاشم أن نُقِرّكم على دمائِكُم وقد قتلتُم عثمان حتى تقولوا ما تقولون؟! فوالله لأنتم أحلُّ دماً من كذا وكذا!، وأعظمَ في القول.

فقال له ابن عباس: كلّ ما قلتَ لنا يا معاوية من شرٍ بين دفَّتيك، أنتَ والله أولى بذلكَ منّا، أنتَ قتلتَ عثمان، ثم قُمتَ تغمص على الناس أنَّك تطلبُ بدمِهِ، فانكسرَ معاوية. . . . .

ثم كلَّمهُ الأنصار، فأغلظَ لهم في القول، وقال لهم: ما فعلت نواضِحُكُم؟[1]

قالوا: أفنيناها يومَ بدر، لمَّا قتلنا أخاكَ وجدّكَ وخالَكَ، ولكنَّا نفعل ما أوصانا بهِ رسولُ الله.

قال: ما أوصاكم به؟

قالوا: أوصانا بالصبر.

قال: فاصبروا.

ثم أدلج معاوية إلى الشَّام ولم يقضِ لهم حاجة[2].

إلا دَفناً دَفناً

ينقل المسعودي وابن أبي الحديد أنَّ المطرف بن المغيرة قال: دخلتُ مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدَّث معه، ثم ينصرِف إليه، فيذكُر معاوية وعقلَهُ، ويعجَب بما يرى منه. إذ جاء ذاتَ ليلةٍ فأمسكَ عن العشاء، ورأيتهُ مغتمَّاً فانتظرتُهُ ساعة، وظننتُ أنه لأمر حدَثَ فينا. فقلت: ما لي أراكَ مُغتَمَّاً منذُ اللَّيلة؟

فقال لي: يا بُني جئتُ من أكفرِ الناس وأخبثِهم

قلت: وما ذاك؟

قال: قلتُ له وقد خلوتُ به: إنَّكَ قد بلغتَ سِناً يا أميرَ المؤمنين، فلو أظهرتَ عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبُرتَ، ولو نظرتَ إلى إخوتِكَ من بني هاشم فوصلتَ أرحامَهُم، فوالله ما عندهم اليومَ شيءٌ تخافُهُ، وإنَّ ذلك مما بقي لكَ ذِكرُهُ وثوابُهُ؟

فقال: هيهاتَ هيهات، أيُّ ذِكرٍ أرجو بقاءه؟ ملَكَ أخو تيم، فعدلَ وفعلَ ما فعل، فما عدا أن هلَكَ حتى هلَكَ ذِكرُهُ، إلا أن يقولَ قائلٌ: «أبو بكر»، ثم ملَكَ أخو عدي، فاجتهدَ

---

(1) يبدو أن المقصود: قدراتكم الدفاعية، لأن فلاناً ينضح عن نفسه يعني يدفع عنها.

(2) راجع لتعرف مصادر ذلك كله: مرتضى العسكري، **أحاديث أم المؤمنين عائشة**، ج1، ص346 - 348.

وشمَّرَ عشرَ سنين، فما عدا أن هلَكَ حتى هلَكَ ذِكرُهُ، إلا أن يقولَ قائلٌ: «عمر»، وإنَّ أخا هاشم ليُصاحُ بهِ كلَّ يوم خمس مرات: «أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله»، فأيُّ عملٍ يبقى وأيُّ ذكرٍ يدوم بعد هذا، لا أبا لك؟ لا واللهِ إلا دَفناً دَفناً.

نكتفي بهذا القدر من شرح سياسة معاوية العامَّة خلال فترة حكمة، وندرُس في الفصل القادم أهم الحوادث التي وقعَت خلال هذه الفترة.

(27)

استلحاق زياد وتصفية المعارضين والمنافسين

بعد أن عرفنا السِّياسة العامَّة التي سار عليها معاوية خلال فترة حُكمِهِ، سنمرُّ الآن مروراً سريعاً على سنواتِ حُكمِهِ، لنتعرَّف على أهم الحوادث التي جرت في فترة حُكمِهِ، وسنتوقَّف عند الأحداث المهمَّة، لندرُسها بشيءٍ من التفصيل، وندرس شخصية المغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه، ثم نواصل سرد الأحداث بشكلٍ سريع.

أهم الحوادث في فترة حكم معاوية (41–60 هج)

● 41 هـ: دخول معاوية الكوفة بعد صُلحهِ مع الإمام الحسن عليه السلام، واستلامه زمام الخلافة. الإمام الحسن عليه السلام يخرُج من الكوفة بعد أيامٍ إلى المدينة. قيام الدَّولة الأموية والبدء بسلسلةٍ طويلة وقاسية من الملاحقات لشيعة عليٍّ عليه السلام. الإمام علي عليه السلام يُسبُّ على المنابر بإيعازٍ من معاوية، ونشر كم هائل من الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله.

● 42 هج: فيها ولَّى معاوية على المدينة مروان بن الحكم، وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة، ومن خلالهما أحكمَ قبضتَهُ على أهمِّ مصرين... .لكن من هو المغيرة بن شعبة؟

المغيرة بن شعبة

المغيرة بن شعبة الثقفي من دُهاة العرب، حتى قال عنه بعضُ أصحابِهِ: صحبتُ المغيرة فلو أنَّ مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرُج من بابٍ منها إلا بمكرٍ لخرجَ من أبوابِها كلها.

وتذكر بعض المصادر أنه أسلمَ قبل الفتح، وشهدَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الحديبية، وبيعة الرُّضوان، واستعملَهُ عمر على البحرين ثم عزَلَهُ لأنَّ أهلها اتهموهُ بالاختلاس من بيت المال، ثم ولَّاهُ البصرة لثلاث سنوات ثم عزلَهُ لشهادة بعضهم عليه - ومنهم صحابة كأبي بكرة أخي زياد ابن أبيه من أُمِّهِ - بالزِّنى، فلما شهد ثلاثة منهم بذلك، وشعر الرَّابع

- وكان الشاهد الرابع المفترض هو زياد ابن أبيه - أنَّ عمر لا يرغب بأن يشهد على المغيرة كما تذكُر بعض المصادر، تراجع عن الشَّهادة، فأمرَ عمر بجَلدِ الثلاثة بحدِّ القذف، وبرَّأ المغيرة وولَّاه الكوفة[1]. وفي ذلك يروى أنَّ عمر بن الخطاب سأله: ما تقولون في توليةِ ضعيف مسلم أو قوي فاجر؟ فقال له المغيرة: المسلم الضَّعيف إسلامهُ لك وضعفُهُ عليك وعلى رعيَّتِهِ، وأما القوي الفاجر ففجورُهُ عليهِ وقوَّتهُ لك ولرعيَّتك، فقال له عمر: فأنتَ هو، وأنا باعِثُكَ يا مغيرة إلى الكوفة. وظلَّ والياً على الكوفة حتى اغتيال عمر، فاستمرَّ في عهد عثمان حيناً ثم عزَلَهُ.

ولما آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان قدِمَ عليه، فاستشاره معاوية في أن يُولِّي عمرو بن العاص على الكوفة وابنهُ عبد الله على مصر، فقال المغيرة: يا أميرَ المؤمنين تُؤمِّر عمرو على الكوفة وابنه على مصر وتكون كالقاعد بين فكَّي الأسد؟! قال: ما ترى؟ قال: أنا أكفيك الكوفة، فوليَ الكوفة لمعاوية إلى وفاتِهِ من 42 - 49 هج (7 سنوات وأشهر).

- 43 هـ: وفاة عمرو بن العاص بمصر.
- 44 هـ: معاوية يستلحِق زياد ابن أبيه بأبي سفيان. من هو زياد ابن أبيه؟ وما هي قصة استلحاق معاوية لزياد بأبي سفيان؟

زياد ابن أبيه

قال ابن الأثير في أسد الغابة: زياد بن سُميَّة، وهي أمُّهُ (وفي بعض المصادر أنَّها فارسيَّة الأصل)، قيل هو زياد بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية... .وهو المعروف بزياد ابن أبيهِ، وبزياد بن سُميَّة، وهو الذي استلحقَهُ معاوية بن أبي سفيان، وكان يُقالُ له قبل أن يستلحِقَهُ زياد بن عبيد الثَّقفي، وأُمُّهُ سمية جارية الحارث بن كلدة (طبيب العرب)، وهو أخو أبي بكرة لأمِّه، يُكنَّى أبا المغيرة، وُلِدَ عامَ الهجرة... وليست له صُحبة ولا رواية، وكان من دُهاة العرب والفصحاء. اشترى أباهُ عبيداً (غلام رومي عند الحارث) بألف درهم فأعتقَهُ....

قدِمَ على عمر بن الخطاب بشيراً ببعضِ الفتوح (وفي مصادر أخرى أنَّ عمر بعث زياداً في إصلاحِ فساد وقعَ في اليمن)، فأمرَهُ فخطبَ الناسَ فأحسن، فقال عمرو بن

---

(1) راجع مثلاً الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ذكر مناقب المغيرة بن شعبة، ص549، ح5892.

العاصُ: لو كانَ هذا الفتى قرَشيّاً لساقَ العرب بعصاه! فقال أبو سفيان: واللهِ إنّي لأعرفُ الذي وضعَهُ في رحمِ أمهِ. فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا، قال علي عليه السلام: مهلاً لو سمعَها عمر لكانَ سريعاً إليك (وفي بعض المصادر أنَّ زياداً عرفَ ما دارَ بينهما فكانت في نفسِهِ).

يقول ميثم البحراني في شرح النهج: وكان (زياد) كاتباً لمغيرة بن شعبة، ثم كتب لأبي موسى الأشعري، ثم كتب لابن عامر، ثم كتب لابن عباس.

يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: وروى المدائني: لما كان زمن علي عليه السلام ولى زياداً فارسَ أو بعض أعمال فارس، فضبطَها ضبطاً صالِحاً، وجبى خراجَها وحماها، وعرَفَ ذلك معاوية، فكتب إليه...

نعود إلى ابن الأثير: كتبَ إليهِ معاوية يعرض له بذلك ويتهدَّدهُ إن لم يُطِعهُ[1] (وفي بعض المصادر أنهُ كتبَ في أسفل الكتاب شعراً من جُملتِهِ:

تـنـسـى أبـاكَ وقـد شـالـت نـعـامـتُـهُ إذ يخطبُ الناس والوالي لهم عمَرُ)

فأرسل زياد الكتاب إلى علي عليه السلام، وخطبَ الناس وقال: عجبت من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب، كتبَ إليَّ يتهدَّدُني....[2].

ولما وقف عليٌّ عليه السلام على كتابِهِ كتب إليه: «وقد عرفتُ أنَّ معاويةَ كتبَ إليك يستزِلُّ لُبَّك، ويستفِلُّ غربَك، فاحذرهُ، فإنَّما هو الشَّيطان: يأتي المرءَ من بين يديهِ ومن خلفهِ، وعن يمينهِ وعن شمالهِ، يقتحِم غفلتَهُ، ويستلِب غِرَّتَهُ. وقد كان من أبي سفيانَ في زمنِ عُمر بن الخطاب فلتةٌ، من حديث النفس، ونزغةٌ من نزغات الشَّيطان: لا يثبُتُ بها نسبٌ، ولا يُستحقُّ بها إرثٌ، والمتعلِّق بها كالواغِل المُدَفَّع، والنوطِ المُذبذب». فلما قرأ زياد الكتاب، قال: شهدَ بها وربِّ الكعبة، ولم تزل في نفسِهِ حتى ادَّعاهُ معاوية[3].

يقول ابن أبي الحديد: فلما وردَ كتابُ زياد على معاوية غمَّهُ وأحزنَهُ، وبعثَ إلى المغيرة بن شعبة، فخلا به...

وقال له: يا مغيرة، إنَّ زياداً قد أقامَ بفارس يكُشُّ كشيشَ الأفاعي، وهو رجلٌ ثاقبُ الرأي، ماضي العزيمة، جوَّالُ الفِكر، مصيبٌ إذا رمى، وقد خِفتُ منه الآن ما كنتُ آمنهُ

(1) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج2، ص217 - 218.
(2) أنظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص131.
(3) **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، (44)، ص44، ص415 - 416.

إذ كان صاحبه (يعني علياً عليه السلام) حيّاً، وأخشى ممالأتهُ حسَناً عليه السلام (أي يوظفه ليقلب الطاولة عليَّ انطلاقاً من فارس)، فكيفَ السبيلُ إليه، وما الحيلة في إصلاحِ رأيه؟

قال المغيرة: أنا له إن لم أمُت، إنَّ زياداً رجلٌ يحبُّ الشَّرفَ والذكر، وصعودَ المنابر، فلو لاطفتَهُ المسألة، وألنتَ له الكتاب، لكانَ لك أميل، وبكَ أوثق، فاكتُب إليهِ وأنا الرَّسول[1].

استلحاق زياد ابن أبيه بأبي سفيان

إليك تفصيل هذه الحادثة كما ينقلها المسعودي وابن الأثير وغيرهما. سُميَّة - كما أشرنا - كانت جارية للحارث بن كِلدة الطبيب الثقفي، وكانت من البغايا ذوات الرَّايات بالطائف، وتُؤدِّي الضَّريبة إلى الحارث بن كلدة، وكانت تنزِل في حارة البغايا خارجاً عن الحضر، وكان الحارث قد زوَّجَها من غلامٍ رُومي لهُ اسمُهُ «عُبيد»، ونزل أبو سفيان في أحدِ أسفاره في الجاهليَّة إلى الطَّائف على خمَّارٍ يقال له «أبو مريم السلُّولي»، فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتهيتُ النِّساء فالتمِس لي بغياً.

فقال له أبو مريم: هل لك في سُميَّة؟

فقال أبو سفيان: هاتها على طول ثديها، وذَفر بطنها (= رائحة بطنها الشديدة).

فأتاه بها، فوقعَ عليها، فعلقَت بزياد، ثم وضعَتهُ في السنة الأولى من الهجرة.

وذكروا في سبب استلحاق معاوية زياداً بنسبه أنَّ عليّاً عليه السلام لما ولي الخلافة، استعملَ زياداً على فارس، فضبطَها وحمى قلاعها، فساءَ معاوية ذلك، فكتبَ معاوية إلى زياد يتهدَّدهُ، ويتعرَّض له بولادةِ أبي سفيان.

ولما قُتِلَ علي عليه السلام، وصالح الحسنَ عليه السلام معاوية، خافَ معاوية من زياد، فأرسلَ إلى المغيرة وقال له: ذكرت زياداً واعتصامه بفارس، وهو داهية العرب ومعه الأموال، وقد تحصَّن بأرض فارس وقلاعها يُدبِّر الأمور، فما يؤمنني أن يُبايع لرجُلٍ من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعادَها جَذَعة (= أن يعيد الأمر إلى نقطة البداية أو المربع الأول).

فذهب المغيرة بن شعبة إلى زياد، وقال له: إنَّ هذا الأمرَ لا يمُدُّ إليه أحدٌ يداً إلا الحسنَ بن علي، وقد بايعَ لمعاوية، فخُذها لنفسِكَ قبل التَّوطين.

قال زياد: فأشِر عليَّ.

---

(1) ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص107.

قال المغيرة: أرى أن تنقل أصلَكَ إلى أصلِهِ، وتصِل حبلَكَ بحبلِهِ، وتعيرَ الناسَ أذناً صمَّاء[1].

فقال زياد: يا ابن شعبة، أأغرِسُ عوداً في غير منبتهِ؟

ثم إنَّ زياداً عزَمَ على قبولَ الدَّعوى، وأخذَ برأي ابن شعبة، ثم وفدَ إلى معاوية، فأرسلت إليهِ جُويرية بنت أبي سفيان عن أمرِ أخيها معاوية، فلما أتاها كشفَت عن شعرها بينَ يديه، وقالت: أنتَ أخي، أخبرني بذلك أبو مريم.

ثم أخرج معاوية زياداً إلى المسجد، وجمعَ الناس، وحضر من يشهد لزياد، وكان فيمن حضر أبو مريم السلُّولي، فقال له معاوية: بم تشهد يا أبا مريم؟

فقال أبو مريم: أنا أشهد أنَّ أبا سفيان قدِمَ علينا بالطائف، وأنا خمَّار في الجاهلية، فقال: أبغني بغياً، فقلت له: ليس عندي إلا جارية الحارث بن كلدة سُميَّة، فقال: ائتني بها على قذرها وذَفَرِها.

فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم، إنما بُعثتَ شاهداً، ولم تُبعث شاتماً.

فقال أبو مريم: لو كنتم أعفيتُموني لكان أحبَّ إليَّ، وإنما شهدتُ بما عاينتُ ورأيت، والله لقد أخذ بكُمِّ درعها، وأغلقتُ البابَ عليهما، وقعدتُ دهشاناً، فلم ألبث أن خرج علي يمسَحُ جبينَهُ، فقلت: مه يا أبا سفيان؟ فقال: ما أصبتُ مثلَها يا أبا مريم، لولا استرخاء ثديها، وذفر مِن فيها (= فمها).

فقال زياد: أيُّها الناس، هذا الشاهِد قد ذكرَ ما سمعتُم، ولستُ أدري حقَّ ذلكَ من باطلِهِ، وإنما كان عُبيد والداً مبروراً، أو وليّاً مشكوراً، والشُّهود أعلمُ بما قالوا.

فقام يونس بن عبيد بن أسد بن علاج الثقفي - أخو صفية مولاة سُميَّة - فقال: يا معاوية، قضى رسولُ الله ﷺ أنَّ الولدَ للفِراش، وللعاهرِ الحَجَر، وقضيتَ أنتَ أنَّ الولدَ للعاهِر، وأنَّ الحجَرَ للفِراش، مخالفةً لكتابِ الله تعالى، وانصرافاً عن سُنَّةِ رسول الله ﷺ، بشهادةِ أبي مريم على زنى أبي سفيان.

فقال معاوية: واللهِ يا يونس، لتنتهينَّ أو لأطيرنَّ بك طيرة بطيئاً وقوعُها.

فقال يونس: وهل إلا إلى الله، ثم أقع.

قال: نعم واستغفر الله.

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

---

(1) راجع في ذلك، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص135.

ألا أبلِغ معاويةَ بن حربٍ مُغلغلةً عن الرَّجُل اليَماني
أتغضَبُ أن يُقال أبوكَ عفٌّ وترضى أن يُقال أبوكَ زاني
فأشهدُ أنَّ رحمَكَ من زيادٍ كرحِمِ الفيلِ من وُلدِ الأتانِ[1]

قال ابن الأثير: وكان استلحاقُهُ أوّل ما رُدَّت به أحكامُ الشَّريعة علانيةً، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالولدِ للفراش وللعاهِر الحَجَر.

وهكذا جرت مسألة الاستلحاق، وصار زياد عاملاً لمعاوية على الكوفة بعد موت المغيرة من 49 - 53 هج (4 سنوات).

ومن الطرائف أنَّ عائشة كتبت إلى زياد كتاباً، فلم تدرِ ما تكتُب عنوانهُ؟ إن كتبتَ زياد بن عُبيد أو ابن أبيه أغضبَتهُ، وإن كتبت زياد بن أبي سفيان أثمَت، فكتبت: من أُمِّ المؤمنين إلى ابنِها زياد، فلما قرأهُ ضحك، وقال: لقد لقِيَت أُمُّ المؤمنين من هذا العنوانِ نصَباً[2]!

وهنا نؤكد على الملاحظات التالية:

1. يهمنا دراسة شخصيَّة زياد ابن أبيه لأنَّه هو أبو عبيد الله قاتل الإمام الحسين عليه السلام... وهو الذي قال بحقِّه: إنَّ الدَّعي ابن الدَّعي قد ركزَ بين اثنتين... ونريد أن نعرف لماذا هو دعي؟

2. عُبيد أبو زياد غلامٌ رومي، وأُمُّه سميَّة أمة فارسيَّة للحارث بن كلدة الثقفي. لكن كانت لأبي سفيان فلتة من فلتات اللِّسان، تشبَّث بها معاوية، لتحقيق أغراض سياسيَّة خاصة، وادَّعى أنَّ زياداً أخوه من أبي سفيان.

3. يهمنا مرة أخرى دراسة شخصية زياد ابن أبيه والمغيرة بن شعبة لأنَّ فهم أحداث العراق في هذه المرحلة الزمنية من التاريخ (فترة حكم معاوية) لا يمكن أن يتحقَّق دون دراسة هاتين الشَّخصيتين.

4. إنَّ المغيرة بن شعبة كان مديناً لابن زياد في درء حدِّ الزنى عنه عندما تراجع عن الشَّهادة عند عمر... وسيُسدِّد المغيرة هذا الدين لابن زياد عندما يُنبِّه معاوية إلى فكرة استلحاقه.

5. كان ابن زياد يملِك قدرات خاصَّة، من القوةِ والحزم والفصاحة وحُسن التَّدبير... .هذه الطاقات والكفاءات التي يملِكُها ابنُ زياد لم يكن لها أن تخرج وتجِد

(1) الأتان هي الحمارة. تجد هذه الأبيات أيضاً في الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص235.
(2) ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، ج16، ص120.

طريقاً لأنَّ ابن زياد لديه عقدة نفسيَّة خطيرة، فهو يعيش أزمة هويَّة، لأنَّهُ غير معروف النَّسب، وإن صحَّ نسبُهُ فهو يُنسب إلى غُلامٍ رومي. . . فبالرغم من فصاحتِهِ لكن أصولَهُ غير عربية. . . وهو رجلٌ يحبُّ الشَّرف والوجاهة، ويكره ما هو فيه من تيه وضياع في النَّسب، ويكره أن يُنظر إليه على أنَّه من طبقة العبيد والموالي لا الأحرار. ومن كلام عمرو بن العاص ومن إشارات أخرى كان يعلم الإمام علي عليه السلام بأنَّ هذه الطاقة لو وظَّفَها ذوو الأهداف السيِّئة فقد تتحوَّل إلى طاقة تدميرية خطيرة. . .

6. لذا عندما وجد الإمام علي عليه السلام أنَّ عبد الله بن عباس اختارَهُ ككاتب له، وحمَّلهُ بعض المسؤوليات، ولم يجد مثلَباً بارزاً عليه، ولاتقانه الفارسية لكون أمه سميَّة فارسيَّة، ولأَّه فارس أو بعض أعمال فارس، وكان - كما يظهر من نهج البلاغة - يُتابِعه بدقَّة وحزم شديدين، ويُحذِّرهُ من خيانة ما يليهِ من مال المسلمين[1]، وكان الإمام علي عليه السلام - كما يظهر من الرِّسالة أعلاه - قلقاً من إمكانية تسلُّل معاوية إلى قلبِهِ، ومعرفة نقطة ضعفه.

7. إنَّ المغيرة، وانطلاقاً من المعروف الذي أسداه إليه ابن زياد، وحرصاً على مصلحة معاوية. . . .عرَّف معاوية بنقطة ضعف ابن زياد، وأقنع ابن زياد بفكرة استلحاق معاوية له بأبي سفيان.

● 46 هـ: موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بعد انصرافِهِ من بلاد الرُّوم إلى حمص، من خلال دس السُّم من قبل ابن أثال النَّصراني. وعبد الرحمن هو من أوائل المنافسين الذين شعر معاوية بخطورتهم وأراد تصفيتَهُم جسدياً، لكونه منافساً حقيقياً له ولابنه يزيد. وإليك تفصيل هذا الأمر.

تصفية المنافس الأول: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: إنَّ معاوية لما أرادَ البيعة ليزيد، خطبَ أهلَ الشام، وقال لهم: يا أهلَ الشام، قد كبُرَت سِنِّي، وقرُبَ أجلي، وقد أردتُ أن أعقدَ لرجُلٍ يكونُ نظاماً لكم، وإنما أنا رجلٌ منكم، فأروني رأيَكُم، فأصفقوا واجتمعوا وقالوا: رضينا عبد الرحمن بن خالد (بن الوليد)[2]، فشقَّ ذلك على معاوية، وأسرَّها في نفسهِ. ثم إن

(1) في كتاب (20) يقول عليه السلام له: «وإني أقسمُ بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خُنتَ من فيءِ المسلمينَ شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشُدنَّ عليك شَدةً تدعُكَ قليلَ الوَفر، ثقيلَ الظهر، ضئيلَ الأمر، والسلام». **نهج البلاغة**، صبحي الصالح، (20)، ص377. أنظر أيضاً الكتاب الذي يليه (21).

(2) وكان أميراً على حمص في عهد عثمان بن عفان.

عبد الرحمن بن خالد مرضَ، فأمرَ معاوية طبيباً عندَهُ يهودياً، وكان عندَهُ مكيناً أن يأتيه، فيسقيه سُقية يقتلهُ بها، فأتاهُ فسقاه، فانخرقَ بطنُهُ فمات(1)!

- 47 هـ: معاوية يُعيِّن معاوية بن حديج (قاتل محمد بن أبي بكر) والياً على مصر.
- 48 هـ: علاقة معاوية بمروان بن الحكم تشوبُها الفتور، ومروان يتوقَّع العزل لموجدةٍ كانت من معاوية عليه وارتجاعه منهُ فدَكَ وقد كان وهبَها له.
- 49 هـ: معاوية يعزل مروان بن الحكم عن المدينة بالفعل، ويُعيِّن سعيد بن العاص كوالٍ عليها. موت المغيرة بن شعبة بالطَّاعون في الكوفة بعد تحريضهِ معاوية على استخلاف ابنه يزيد. معاوية يُوسِّع حُكم زياد بن أبيه فيضُمُّ إليه الكوفة بعد البصرة. معاوية يعزل معاوية بن حديج عن مصر وعقبة بن نافع عن أفريقية ويُولِّي مسلم بن مخلد مصر والمغرب كلها. وفاة أبو موسى الأشعري.
- 50 هـ: معاوية يذهب للحج، والحسنُ عليه السلام يستشهدُ مسموماً على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بإيعاز من معاوية، ويُدفن بالبقيع بعد احتكاك مع عائشة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ورفضِهم لدفنهِ قُربَ جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله. معاوية يدعو أهلَ الشام إلى البيعةِ بولاية العهد من بعدهِ لابنه يزيد، ويسجن زوجة عمرو بن الحمق الذي حملَ رأسَهُ إليه. وإليك تفاصيل أحداث هذه السَّنة.

نهاية المنافس الثاني وتصفية الثالث: سعد والإمام الحسن عليه السلام (50 هج)

وجدَ معاوية في حياة اثنين من كبار المسلمين عائقاً لما يرومُهُ من تولية ابنهِ العهدَ من بعده؛ سعد بن أبي وقاص والإمام الحسن بن علي عليه السلام.

روى أبو الفرج في مقاتل الطالبيين، وقال: «وأرادَ معاوية البيعةَ لابنهِ يزيد، فلم يكُن شيء أثقل عليهِ من أمرِ الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص، فدسَّ إليهما سُمَّاً فماتا منه»(2).

وسبب ثقل أمر سعد بن أبي وقاص والإمام الحسن عليه السلام عليه، أنَّ سعداً كان هو الباقي الوحيد من أعضاء الشُّورى السُّداسية الذين رشَّحهم عمر للخلافة من بعده، وبالتالي قد يتحوَّل - مع تحريض ابنه عمر - إلى منافس لمعاوية ويزيد. أما الإمام الحسن عليه السلام فلِما جاءَ في معاهدةِ الصُّلح بينَهُما، أن يكونَ الأمرُ للحسنِ عليه السلام من بعدِهِ، وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد. اغتالَ معاوية الإمام الحسن عليه السلام - وسعداً على ما قيل

(1) المضمون نفسه تجده أيضاً في: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص171.
(2) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص80.

- في سبيل بيعة يزيد، كما اغتالَ في سبيل ذلك عبد الرحمن بن خالد قبلَهُما، ومن المرجَّح أنَّهُ اغتال أيضاً عبد الرحمن بن أبي بكر في هذا السَّبيل، كما سنُبيِّن لاحقاً.

لم نجد من يشرح اغتيال معاوية لسعد، إلا ما ذكره الأصفهاني ورواه ابن أبي الحديد من دسِّ السُّم له.

أما الإمام الحسن عليه السلام، فقد روى المسعودي وقال: «إنَّ جعدة بنت الأشعث بن القيس الكندي سقَته السُّم، وقد كان معاوية دسَّ إليها، أنكِ إن احتلتِ في قتلِ الحسن عليه السلام، وجَّهتُ إليكِ بمائة ألف درهم، وزوجتُكِ يزيد، فكانَ ذلك الذي بعثها على سمِّهِ، فلما مات، وفى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها، أنا نُحِبُّ حياةَ يزيد، ولولا ذلك لوفينا لكِ بتزويجهِ»![1]

وكتب ابن أبي الحديد: «أرسل معاوية إلى (جعدة) بنت الأشعث بن قيس[2] - وهي تحت الحسن عليه السلام - فقال لها: إني مُزَوِّجُكِ من يزيد ابني على أن تَسُمِّي الحسن. وبعثَ إليها بمائة ألف درهم. ففعلت، وسمَّت الحسن، فسوَّغها المال، ولم يُزوِّجها منه، فخلفَ عليها رجلٌ من آل طلحة، فأولدها، فكان إذا وقعَ بينهم وبينَ بطون قريش كلامٌ عيَّروهم وقالوا: يا بني مُسِمَّة الأزواج».

وروى أيضاً عن عمران بن إسحاق قال: كنتُ مع الحسنِ والحسين عليهما السلام في الدَّار، فدخلَ الحسنُ المخرج ثم خرج، فقال: لقد سُقيتُ السُّمَّ مراراً، ما سُقيتُ مثل هذه المرة، لقد لفظتُ قطعة من كبدي، فجعلتُ أقلبها بعودٍ معي. فقال الحسين: ومن سقاك؟ قال: وما تريدُ منه؟ أتريدُ أن تقتُلَهُ؟ إن كان هو هو، فالله أشدُّ نقمةً منك، وإن لم يكن هو فما أُحبّ أن يؤخذ بي بريء[3].

والنُّصوصُ على اغتيال معاوية للحسن عليه السلام بالسُّم متضافرة[4].

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص6.

(2) عن الصادق عليه السلام: إن الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام، وابنته جعدة سمت الحسن عليه السلام، ومحمد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام. الكليني، روضة الكافي، ج8، 167. وينقل المفيد في الإرشاد أنَّ حجر بن عدي كان بائتاً في تلك الليلة في المسجد، فسمع الأشعث بن قيس يقول لابن ملجم: النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح، فأحس حجر بما أراد الأشعث فقال له: قتلته يا أعور؟! وخرج مبادراً ليمضي إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسبقه ابن ملجم فضربه بالسيف.

(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج16، ص29. وما يقرب منه أنظر: المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص6.

(4) راجع طبقات ابن سعد، ومقاتل الطالبيين، ومستدرك الحاكم، وشرح ابن أبي الحديد، وتذكرة الخواص، والاستيعاب.

وأخذَ الإمام الحسينُ عليه السلام في تجهيزِ أخيه الإمام الحسن عليه السلام، وقد أعانَهُ على ذلك عبد الرحمن بن جعفر وعلي بن عبد الله بن عباس وأخواه محمد بن الحنفية وأبو الفضل العباس، فغسَّلَهُ وكفَّنَهُ وحنَّطهُ، وهو يذرِفُ من الدموع مهما ساعدته الجفون، وبعدَ الفراغ من تجهيزهِ، أمرَ الإمام الحسين عليه السلام بحمل الجثمان إلى مسجدِ رسول الله صلى الله عليه وآله للصلاة عليه.

وكان تشييعُ الإمام الحسن عليه السلام تشييعاً مهيباً، لم تشهد نظيرهُ عاصمة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد بعثَ الهاشميون إلى العوالي والقُرى المحيطة بيثرب من يُعلمهم بموت الإمام الحسن عليه السلام، فنزحوا جميعاً إلى يثرب ليفوزوا بتشييع الجثمان العظيم[1]، وقد حدَّثَ ثعلبة ابن مالك عن كثرة المشيِّعين فقال: «شهدتُ الحسنَ يومَ مات، ودُفِنَ في البقيع، ولو طرحتَ فيهِ إبرة لما وقعت إلا على رأسِ إنسان»[2].

وعندما أُخرجَ نعشُهُ عليه السلام يُرادُ بِهِ قبرَ رسول الله صلى الله عليه وآله حسب وصيَّته، ذكر أبو الفرج أنَّ يحيى بن الحسن روى فقال: سمعت علي بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنَهُ ركبَت عائشة بغلاً، واستنفرت بني أمية: مروان بن الحكم ومن كان هناكَ منهم ومن حشمهم، وقيل في ذلك:

فيوماً على بغلٍ ويوماً على جملِ[3]

وتؤكِّد المصادر على أنَّ الفتنة كادت أن تقع بين بني هاشم وبني أمية، خصوصاً عندما قالَ مروان: أيُدفنُ عثمان في أقصى المدينة، ويُدفنُ الحسن مع النبي؟ لا يكونُ ذلك أبداً وأنا أحملُ السَّيفَ!

وأبى الإمام الحسينُ عليه السلام أن يدفنه إلا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالَ لهُ عبد الله بن جعفر: عزمتُ عليكَ يا أبا عبد الله بحقي ألا تكلَّم بكلمة. فمضَوا بهِ إلى البقيع، وانصرَف مروان[4].

وفي تاريخ اليعقوبي: ركبَ مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، فمنعا من ذلك، وركبت عائشة بغلةً شهباء، وقالت: بيتي ولا آذن فيهِ لأحد، فأتاها القاسم بن محمد بن

(1) تاريخ ابن عساكر، 8/ 228، نقلاً عن أعلام الهداية: الإمام الحسن عليه السلام، ص190.

(2) الإصابة 1/ 330، نقلاً عن أعلام الهداية: الإمام الحسن عليه السلام: 190 - 191.

(3) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص82.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج16، ص29. أنظر أيضاً: ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص264.

أبي بكر، فقال: يا عمَّة! ما غسَّلنا رؤوسَنا من يوم الجمل الأحمر، أتُريدينَ أن يُقال يوم البَغلة الشَّهباء؟ فرجَعَت. واجتمعَ مع الحسين عليه السلام جماعة من الناس، فقالوا لهُ: دعنا وآل مروان، فواللهِ ما هم عندنا إلا كأكلةِ رأس، فقال: إنَّ أخي أوصاني ألا أريق فيهِ محجمةَ دمٍ، فدَفَنَ الحسنَ في البقيع[1].

أقول: لاحظ في هذه الحادثة اجتماع قريش ضد بني هاشم. وعندما نتحدَّث عن قريش نقصد تياريها: التَّيار الذي يُمثِّل الامتداد الحقيقي للخليفة الأول والثاني ويدَّعي أنه امتداد للخليفة الثالث، وهو تيار تحالُف بطون قريش الضَّعيفة (يعني قريش باستثناء بني أمية وبني هاشم)، وشخصيَّة عائشة وعبد الله بن الزُّبير يمثلان هذا التَّيار. والتيار الذي يُمثِّل الامتداد الحقيقي للخليفة الثالث ويدَّعي أنه امتداد للخليفة الأول والثاني، وهو تيار بني أمية، وشخصيَّة معاوية ومروان بن الحكم يمثلان هذا التَّيار.

لكن هناك مصادر أخرى - كتاريخ الخلفاء للسُّيوطي وترجمة الإمام الحسن عليه السلام في أسد الغابة لابن الأثير وغيرهما - تؤكِّد أنَّ عائشة لم يكن لديها أيُّ مانع من دفن الإمام الحسن عليه السلام بجانب جدِّه، وأنَّ من منع ذلك هو مروان بن الحكم.

ويبدو لي أنَّ تبرئة عائشة من ذلك، وتركيز الاتهام على مروان، منشؤهُ تفكُّك التَّحالف والصِّراع الذي وقع بعد ذلك بين قريش (ممثَّلة بعائشة وعبد الله بن الزُّبير) وبني أمية (ممثلة بمعاوية ومروان)، فصارت قريش حريصة على اتهام بني أمية بذلك، لتبرئة نفسها.

معاوية يبدأ بمطالبة الناس بمبايعة يزيد

بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام، بدأ معاوية يدعو الناس في الشَّام لمبايعة يزيد. يقول ابن قتيبة: «قالوا: لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رضي الله عنه إلا يسيراً حتى بايعَ ليزيد بالشَّام، وكتبَ ببعثهِ إلى الآفاق، وكان عامِلهُ على المدينة مروان بن الحكم، فكتبَ إليه يذكر الذي قضى الله بهِ على لسانهِ من بيعةِ يزيد، ويأمرهُ أن يجمع من قبلهِ من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يُبايعوا ليزيد»[2].

وسنتحدَّث بالتفصيل عن هذه السِّلسلة من المطالبات والمحاولات التي أراد معاوية من خلالها تمهيد الأرض ليزيد ليتسلَّم زمام الخلافة.

(1) ابن الواضح، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ص225.

(2) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص197.

أهل الكوفة يتحرَّكون من جديد

لما استشهدَ الإمام الحسن عليه السلام، تحرَّكت الشيعة في العراق من جديد، وعقدوا الاجتماعات المتواصلة في الكوفة، وكتبوا إلى الإمام الحسين عليه السلام مزجوا فيهِ تقديم العزاء بطلب التحرُّك لمواجهة معاوية.

جاء في كتابهم: «أما بعد، فقد بلغنا وفاة الحسن بن علي عليه السلام، فسلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعثُ حياً، غفرَ اللهُ ذنبَهُ، وتقبَّلَ حسناته، وألحقهُ بنبيه محمد صلى الله عليه وآله، وضاعفَ لك الأجرَ في المصابِ فيه، وجبرَ لك المصيبة من بعدهِ، فعندَ الله نحتسبهُ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما أعظم ما أُصيبَت بهِ هذه الأمة عامَّة، وأنتَ وهذه الشِّيعة خاصَّة... ونحنُ شيعتُك، المصابة بمصيبتِك، المحزونة بحُزنِك، المسرورة بسُرورِك، السائرة بسيرتِك، المنتظرة لأمرِك، شرحَ اللهُ صدرَك، ورفعَ ذِكرَك، وأعظمَ أجرَك، وغفرَ ذنبك، وردَّ عليكَ حقكَ، والسلام»[1].

لما قرأ الإمام الحسين عليه السلام كتابَهُم، كتب إليهم: «إني لأرجو أن يكونَ رأي أخي في الموادعة، ورأيي في جهادِ الظَّلمة رُشداً وسداداً، فالصقوا في الأرض واخفوا الشَّخص، والتمسوا الهدى ما دام ابنُ هندٍ حيَّاً، فإن يحدُث بهِ حدثٌ وأنا حيٌّ، يأتِكم رأيي إن شاءَ الله»[2].

أقول: يتَّضح من ذلك أنَّ الإمام الحسين عليه السلام إن كان قد بدأ يُفكِّر جدِّياً في مواجهة حُكم بني أمية، فهو ينتظر اللَّحظة التَّاريخية المناسبة، التي قد تكون بعد موت معاوية مباشرة، كما توحي رسالتُهُ عليه السلام لأهل الكوفة. إذن في هذه الرِّسالة نلمَس من جديد، قراراً بالقيام، يتبلور بالتَّدريج، في ذهن الإمام الحسين عليه السلام.

الشِّيعة في العراق - خصوصاً أهل الكوفة - لم يتركوا المواصلة وإرسال الوفود والرَّسائل المتوالية إلى الإمام الحسين عليه السلام، وهو يُجيبُهم بالصَّبرِ والتريُّث وانتظار الفرج.

وكانت هذه الوفود والرَّسائل بين الإمام الحسين عليه السلام وشيعته في العراق مكشوفة أمام عيون معاوية، فرفعوا الأمر إليه، وممن كتبَ إلى معاوية في ذلك، مروان بن الحكم - عامله على المدينة - ومما جاء فيه:

(1) **تاريخ اليعقوبي** 2/ 203، واكتفى البلاذري في أنساب الأشراف بذكر الفقرات الأخيرة من الكتاب.

(2) المفيد، **الإرشاد** 2/ 232، أيضاً راجع: البلاذري، **أنساب الأشراف** 3/ 152، ط بيروت.

«أما بعد، فإنَّ عمرو بن عثمان ذكر أنَّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفونَ إلى الحسين بن علي، وأنه لا يُؤمن وثوبُهُ، وقد بحثتُ عن ذلك، فبلغني أنه لا يريدُ الخلافةَ يومه هذا، فاكتُب إليَّ برأيك، والسَّلام».

وكتبَ مروان إلى معاوية بعد ذلك كتاباً آخر، جاء فيه:

«أما بعدُ، فقد كثُرَ اختلافُ الناسِ إلى حسينٍ، واللهِ إني لأرى لكم منهُ يوماً عصيباً».

فأجابَهُ معاوية عن كتابيه بكتاب جاء فيه:

«أما بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من أمرِ الحسين، فإياكَ أن تعرض للحسين في شيء، واترك حُسيناً ما تركك، فإنا لا نريدُ أن نُعرض له بشيءٍ، ما وفى ببيعتِنا، ولم يُنازعنا سُلطانَنا، فاكمُن عليه ما لم يُبد لك صفحتهُ، والسَّلام»[1].

وهذه الرَّسائل تفيدنا كثيراً في تحليل حركة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه.

حمل رأس عمرو بن الحَمِق الخزاعي وسجنُ أهلِهِ (50 هج)

يقول اليعقوبي في تاريخه: وكانَ حُجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحَمِق الخُزاعي وأصحابهما من شيعةِ علي بن أبي طالب، إذا سمعوا المغيرة وغيره من أصحاب معاوية، وهم يلعنونَ عليّاً على المنبر، يقومونَ فيرُدُّونَ اللَّعنَ عليهم، ويتكلَّمون في ذلك.

فلما قدِمَ زيادُ الكوفةَ خطبَ خطبةً مشهورة... .أرعدَ فيها وأبرق، وتوعَّد وتهدَّد... وكانت بينَهُ وبين حُجر بن عدي مودَّة، فوجَّه إليه فأحضرَهُ، ثم قال له: يا حُجر، أرأيتَ ما كنتُ عليه من المحبَّةِ والموالاةِ لعلي عليه السلام؟

قال (حجر): نعم.

قال (زياد): فإنَّ اللهَ قد حوَّلَ ذلك بُغضةً وعداوة، أورأيتَ ما كنتُ عليهِ من البُغضةِ والعداوة لمعاوية؟

قال (حجر): نعم.

قال (زياد): فإنَّ اللهَ قد حوَّل ذلك محبةً وموالاة، فلا أعلمنَّك ما ذكرتَ عليّاً بخيرٍ، ولا أميرَ المؤمنين معاوية بشرٍّ.

ثم بلغَهُ أنهم يجتمعون، فيتكلَّمونَ ويُدبِّرونَ عليهِ وعلى معاوية، ويذكُرون مساويِهما،

---

(1) راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ج3، ص152، ط بيروت، وفي آخر الكتاب «فاكمن له كمون الثرى». وقريب منه راجع: الدينوري، الأخبار الطوال، ص207 - 208.

ويُحرِّضونَ الناس، فوجَّهَ صاحبَ الشرطة إليهم، فأخذَ جماعةً منهم فقُتِلوا، وهربَ عمرو ابن الحَمِق الخزاعي إلى الموصل وعدَّةٌ معه[1].

لكن من هو عمرو بن الحمق الخزاعي؟ أستعين هنا بما ذكره ابن الأثير في ترجمته في كتابه أسد الغابة:

هاجرَ (عمرو بن الحمق) إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله بعد الحُديبية، صحِبَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وحفِظَ عنهُ أحاديث وسكنَ مصر وانتقلَ إلى الكوفة. سقى النبيَّ صلى الله عليه وآله فقال له: اللهم متِّعهُ بشبابِهِ، فمرَّت عليهِ ثمانونَ سنة لا تُرى في لحيتِهِ شعرة بيضاء.

وكان ممن سارَ إلى عثمان بن عفان، وهو أحد الأربعة الذين دخَلوا عليهِ الدَّار فيما ذكروا. وصارَ بعد ذلك من شيعةِ علي عليه السلام، وشهدَ معه مشاهدَهُ كلّها: الجمل وصفين والنَّهروان. وأعان حُجر بن عدي، وكان من أصحابِهِ، فخافَ زياد، فهربَ من العراق إلى الموصل، واختفى في غارٍ بالقُربِ منها. فأرسلَ معاوية إلى العاملِ بالموصل ليحمِل عمرو إليه. فأرسل العامِل على الموصل ليأخُذَهُ من الغار الذي كان فيهِ فوجدَهُ ميِّتاً كان قد نهشتَهُ حيَّة، فمات[2].

وكان العامل عبد الرحمن بن الحَكَم - وهو ابن أخت معاوية - ورَووا أنهُ أوَّلُ رأسٍ حُمِلَ في الإسلام رأس عمرو بن الحَمِق إلى معاوية.

وكان تحت عمرو بن الحَمِق آمنة بنت الشَّريد، فحبَسَها معاوية في سجنِ دمشق زماناً، حتى وجَّهَ إليها رأس عمرو بن الحَمِق، فأُلقي في حِجرِها، فارتاعت لذلك، ثم وضعَتهُ في حِجرها، ووضعت كفَّها على جبينهِ، ثم لثمَت فاهُ، ثم قالت: غيَّبتموهُ عنِّي طويلاً ثم أهديتُموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً بها من هديَّة، غير قالية ولا مقليَّة.

الجدير بالذكر أنَّ حمل رأس الصَّحابي عمرو بن الحمق سيفتَح الباب ليزيد بن معاوية وعُبيد الله بن زياد، ليُمارِسا مع الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الدَّور نفسه الذي مارسَهُ معاوية. واحتجاز وسجن زوجة عمرو بن الحَمِق سيُفسِّر لنا السبب المظنون لاصطحاب الإمام الحسين عليه السلام لنسائِهِ. فالحسين عليه السلام لم يُرد أن يستفيد يزيد من النِّساء، كما

---

(1) تاريخ اليعقوبي، ج2، ص230.

(2) لكن الطبري كتب أن معاوية كتب إلى عامله على الموصل: إنه (أي عمرو بن الحمق) زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه، وإنا لا نريد أن نعتدي عليه، فاطعنه تسع طعنات، كما طعن عثمان. فأُخرج فطعن تسع طعنات، فمات في الأولى منهن أو الثانية. راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص197.

استفاد معاوية من زوجةِ عمرو، كورقة خطيرة للضَّغطِ عليه ليُقدِّم تنازُلات. فنساءُ أهل بيت النبوة عليهم السلام كان من الممكن أن يُواجهن ما واجهت زوجة عمرو، لكن عندما يظلَلنَ مع الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، فهنَّ في الواقع يبقين في حمايتهِ عليه السلام وحمايةِ أصحابِهِ، حتى إذا ارتكبَ يزيد وعُبيد الله ما ارتكبا، لم ينفَعهُما التلاعُب بورقةِ النِّساء لتحقيق مكاسب سياسيَّة.

● 51 هـ معاوية يقتل الصَّحابي الجليل حُجر بن عدي الكندي وأصحابه صبراً بمرج عذراء بالشَّام. وإليك تفصيل هذه الجريمة المُروِّعة.

جريمة قتل الصَّحابي حُجر بن عدي الكندي وأصحابه (51 هج):

سأستعين على الأغلب بما ذكره ابن الأثير في ترجمتِهِ في أسد الغابة:

وهو المعروف بحُجر الخير. أسلمَ وهو صغيرُ السِّن، ووفدَ مع أخيه هاني بن عدي على النبيّ صلى الله عليه وآله، وكان من فُضلاء الصَّحابة. وكان على كِندة في حرب صفين، وعلى الميسرة في حرب النَّهروان، وشهد حرب الجمل أيضاً مع علي عليه السلام، وكان من أعيان أصحابِهِ.

ولما وليَ زيادُ العراق، وأظهرَ من الغِلظة وسوء السِّيرة ما أظهر، حصبَهُ (= ألقى حُجر الحصى على زياد) في تأخيرِ الصَّلاة هو وأصحابه. فكتبَ فيهِ زياد إلى معاوية، فأمرَهُ أن يبعَث بهِ وبأصحابه إليه[1].

فبعثَ زياد بحُجر وأصحابِهِ مع وائل بن حجر الحضرمي ومعه جماعة. فلما أشرفَ على مرج عذراء - وهي قرية عند دمشق - أمرَ معاوية بقتلِهِم، فشفَعَ أصحابُهُ في بعضِهم فشفَّعَهُم، ثم قتَلَ حُجراً وسِتَّة معه، وأطلقَ سِتَّة. ولما أرادوا قتلَهُ صلى ركعتين، ثم قال:

(1) كتب الطبري أن زياد صعد المنبر، و«ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم، وذكر قتلته ولعنهم، فقام حجر، ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة. . . . (و) خطب زياد يوماً في الجمعة، فأطال الخطبة، وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: الصلاة، فمضى في خطبته، ثم قال: الصلاة، فمضى في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة، ضرب بيده إلى كف من الحصا، وثار إلى الصلاة، وثار الناس معه. فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره، وكثَّر عليه، فكتب إليه معاوية أن شُدَّه في الحديد ثم احمله إليَّ. . . ثم حمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له معاوية: أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه. . . .». راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص190. أقول: وكان زياد قد أرسل مع كتابه إلى معاوية شهوداً على حجر بأنه يشتم الخليفة، من هؤلاء الشهود عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وشريح القاضي!!

لولا أن تظُنُّوا بي غير الذي بي لأطلتُها. وقال: لا تنزَعوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإني لاقٍ معاوية على الجادَّة.

ولما بلغ عائشة فعلُ زياد بحُجر، بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية تقول: اللهَ الله في حُجرٍ وأصحابِهِ. فوجدَهُ عبد الرحمن قد قُتِل.

فقال (عبد الرحمن رسول عائشة) لمعاوية: أين عزبَ عنك حِلمُ أبي سفيان في حُجر واصحابِهِ، ألا حبستَهُم في السُّجون وعرَّضتَهُم للطَّاعون؟!

فأجابه معاوية: حين غابَ عني مثلكَ من قومي!

فقال عبد الرحمن: والله لا تعدُّ لك العرب حِلماً بعدَها ولا رأياً، قتلتَ قوماً بُعِثَ بهم أسارى من المسلمين.

قال معاوية: فما أصنع؟ كتب إليَّ زياد فيهم، يُشدِّد أمرهم، ويذكر أنهم سيفتقون فتقاً لا يُرقَّع.

ولما قدِمَ معاوية المدينة، دخل على عائشة، فكان أوَّل ما قالت له في قتلِ حُجر كلامٌ طويل، فقال معاوية: دعيني وحُجراً حتى نلتقي عند ربِّنا.

وقبرُ حُجر مشهورٌ بمرجِ عذراء - قرب دمشق - وكان مجابَ الدعوة[1].

وكتب التاريخ تؤكد أنَّ معاوية قتلَ - عن طريق زياد - عدداً كبيراً من شيعة علي عليه السلام من أشباهِ حُجر. فمن الأسماء الشِّيعية البارزة التي تورَّط معاوية في دمائِها: الصَّحابي عمرو بن الحَمِق الخُزاعي (وتحدَّثنا عن قصَّتِهِ)، عبد الله بن يحيى الحضرمي وأصحابه[2]، رُشيد الهَجَري (نسبة إلى بلاد الهجر: البحرين)[3]، جويرية بن مسهر

(1) ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج1، ص385 - 386، بتصرف يسير. وكان خذلان أهل الكوفة لحُجر مؤشراً إضافياً على طبيعتهم، ويظهر ذلك جلياً عندما واجههم زياد بقوله: «يا أهل الكوفة، أتشجون بيد، وتأسون بأخرى، أبدانكم معي، وأهواؤكم مع حُجر... هذا والله من دحسكم وغشّكم، والله لتظهرنَّ لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم، فوثبوا إلى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ههنا رأي إلّا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين....» (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص191). يقول أبو إسحاق: أدركت الناس وهم يقولون إن أول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص208).

(2) ذكر المجلسي في بحاره (10/ 102): أنهم تركوا الكوفة بعد شهادة علي عليه السلام، وبنوا لهم صومعة خارج الكوفة يتعبدون فيها، فلما علم معاوية بجزعهم وحزنهم على قتل علي عليه السلام، أمر بإحضارهم بين يديه، وأمر بقتلهم جهراً...

(3) من أصحاب علي عليه السلام المخلصين، قتله زياد بأمر معاوية لتشيعه، وقطع لسانه وصلبه.

العبدي[1]، أوفى بن حصن[2]. . . .

يدُ زياد ابن أبيه ملطَّخة بدماءِ كل هذه الأسماء. بالإضافة إلى ذلك، تمَّ ترويع أسماء أُخرى من شيعة علي عليه السلام، من أبرزِها: عبد الله بن هاشم المِرقال (قرشي، رأس الشِّيعة في البصرة)، الصَّحابي عدي بن حاتم الطائي، صعصعة بن صوحان، عبد الله بن خليفة الطائي.

وعندما التقى معاوية الحسين عليه السلام، قال له: يا أبا عبد الله، علمتَ أنا قتلنا شيعةَ أبيك، فحنَّطناهم، وكفَّناهم، وصلَّينا عليهم ودفنَّاهم!

فقال الحسين عليه السلام: حُجرك، وربِّ الكعبة، لكنَّا والله إن قتلنا شيعتَكَ ما كفَّناهم ولا حنَّطناهم ولا صلَّينا عليهم ولا دفنَّاهم[3].

إدراك عائشة للتَّدهور المريع للأوضاع

وكانت عائشة تقول: «لولا أنَّا لم نُغيِّر شيئاً إلا آلت الأمور إلى أشدّ مما كُنَّا فيه لغيرنا قتل حُجر، أما والله إن كان لمسلماً ما علمتهُ حاجَّاً معتمراً»[4].

إنَّ عائشة تقصد بقولها: «لولا أنَّا لم نُغيِّر شيئاً إلا آلت الأمور إلى أشدّ مما كُنَّا فيه»؛ ما غيَّرت فيهِ على عثمان حتى قُتِل، فآلت الأمور بها إلى أشدّ باستيلاءِ الإمام علي عليه السلام على الخلافة، حيث قالت: «ليت السَّماءَ أطبقت على الأرض إن تمَّ ذلك»، ثم أرادت تغييرَهُ، فحاربتهُ، فخسرت ابن عمِّها طلحة، وابنه، وزوج أختها الزُّبير، وهي تخاف بعد هذا إن غيَّرت على معاوية أن يؤول الأمر إلى أشدّ مما هي فيه، فكظمَت غيظَها، وسكتَت عنه. وعدم نجاحها في الشَّفاعة لحُجر، بسبب تأخُّر وصول رسولها، وموت أخيها عبد الرحمن، ومحاولات معاوية توريث السُّلطة ليزيد، سيكون من الأسباب الرَّئيسية لتفكُّك تحالُف قريش وبني أمية.

---

(1) أمر معاوية فقطعت يده ورجله وصُلب على جذع قصير.

(2) طلبه زياد فأبى مواجهته، واستعرض زياد الناس فمرَّ به فقال: من هذا؟ فقيل له: أوفى بن حصن، فقال زياد: أتتك بخائنٍ رجلاه، وسأله: ما رأيك في عثمان؟ قال: ختنُ رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنتيه، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: جواد حليم. وكان أوفى لبقاً في لغته وأسلوبه فلم يجد عليه زياد ملزماً. وعاد عليه فقال له: فما تقول فيّ؟ قال: بلغني أنك قلت بالبصرة: والله لآخذن البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر، قال: قد قلت ذاك. قال: خبطتها خبط عشواء!، فأمر به فقُتِل.

(3) تاريخ اليعقوبي 2/ 231.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص208.

في الفصل القادم نستعرض محاولات معاوية لتوريث السُّلطة لابنه يزيد، وسنرى أنَّ ثائرة قريش قد ثارت نتيجة هذه المحاولات، وأنَّ الطلاق بين البطن القرشي القوي بني أمية - ويُمثِّلُهم معاوية - والقبيلة الأم قريش - ويُمثِّلُها عائشة وعبد الله بن الزُّبير - صار بالتَّدريج بائناً بين الطَّرفين.

(28)

محاولات معاوية توريث السُّلطة ليزيد

في هذا الفصل سنتحدَّث عن الخطوات والمحاولات التي قام بها معاوية بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام، للتوطئة لابنه يزيد حتى يستلم الخلافة. وعلى هذا الأساس، تمَّ تغيير نظام الخلافة والحُكم إلى النِّظام الملَكي الوراثي، وهو النِّظام الذي لم يقُم به أيّ خليفة قبل معاوية، بل سنَّهُ هو واستمرَّ من بعدِهِ.

لكن قبل ذلك لنبدأ بالإشارة إلى المحاولة التي قام بها في حياة الإمام الحسن عليه السلام.

المحاولة الأولى لمعاوية لتوريث السُّلطة

لما تمَّ الأمر لمعاوية، أراد أن يجعله وراثة في عقبِهِ، فأخذ يُدبِّر الأمر لذلك. وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود الناصحين له، أن يخطبوا ويذكروا فضلَ يزيد!

فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار، وفيهم الأحنف بن قيس، دعا معاوية الضحَّاك بن قيس الفهري، فقال له: إذا جلستُ على المنبر، وفرغتُ من بعض موعظتي وكلامي، فاستأذن للقيام، فإذا أذنَّا لك، فاحمَدِ الله تعالى واذكُر يزيد، وقُل فيه الذي يحق له من حُسن الثناء عليه! ثم ادعُني إلى توليتِهِ!

ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وعبيد الله بن مسعدة الفزاري، وثور بن معن السُّلَمي، وعبد الله بن عصام الأشعري، فأمرَهُم أن يقوموا إذا فرغ الضحَّاك، وأن يُصدِّقوا قوله!

فقام هؤلاء النَّفر خطباء يُشيدون بيزيد، إلى أن قام الأحنف بن قيس (ولم يكن من الممثِّلين الذين رتَّبهم معاوية لهذا الموقف)، فقال الأحنف: أصلحَ اللهُ الأمير، إنَّ الناسَ قد أمسوا في منكرِ زمانٍ قد سلَف، ومعروفِ زمانٍ مؤتنف، وقد حلَّبت الدُّهور وجرَّبتَ الأمور، فاعِرف من تُسنِد إليهِ الأمرَ بعدَك، ثم اعصِ من يأمُرُك، ولا يغرُرك من يُشيرُ عليك ويَنظرُ إليك، مع أنَّ أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يُبايعون ليزيد ما دام الحسنُ عليه السلام حيّاً.

ثم أردف قائلاً: وقد علِمتَ يا معاوية، أنَّك لم تفتح العراق عُنوةً، ولم تظهر عليه مقصّاً، ولكنك أعطيتَ الحسن بن علي عليه السلام من عهودِ الله ما قد علِمت، ليكون له الأمرُ من بعدِك. فإن تفِ فأنتَ أهلُ الوفاء، وإن تغدِر تظلِم. والله إنَّ وراء الحسن عليه السلام خيولاً جياداً، وأذرعاً شِداداً، وسيوفاً حِداداً. وإن تدنُ له شبراً من غدر، تجِد وراءَهُ باعاً من نصر. وإنَّك تعلمُ من أهلِ العراق، ما أحبُّوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً عليه السلام منذ أحبُّوهما، وما نزلَ عليهم في ذلك غيَرٌ من السَّماء، وإنَّ السُّيوفَ التي شهروها عليك مع علي عليه السلام يوم صفين، لعلى عواتِقِهم، والقلوب التي أبغضوكَ بها لبينَ جوانحِهم..[1].

هذه هي محاولة معاوية الأولى لتوريث السُّلطة ليزيد في حياة الإمام الحسن عليه السلام، رغم العهود والأيمان والمواثيق، وهي كما ترى محاولة فاشلة لوجود صاحب العهد حيًّا، وتخويف الأحنف الصَّريح لمعاوية من القيام بأي خطوة في هذا الاتجاه.

قال ابن عبد ربه: «ولم يزل (معاوية) يُروِّض الناسَ لبيعتِهِ - أي بيعة يزيد - سبع سنين، يُشاور، ويُعطي الأقارب، ويُداني الأباعد»، وكان شأنه في ذلك شأنه في تشييد المُلك لنفسِه في بادئ أمره؛ ففي كلتا الحالتين كان يُغري بالإمرة والمال، وإن أعيَتهُ الحيلة لم يتردَّد في أيِّ شيء حتى القتل والاغتيال.

دور المغيرة بن شعبة في توريث السُّلطة

قبل أن يتوفى المغيرة بن شعبة - والي معاوية على الكوفة - في سنة (49 هج)، بدأت محاولة معاوية الثانية - والدؤوبة هذه المرَّة - لتوريث يزيد السُّلطة.

قال ابن الأثير: وكان ابتداءُ بيعة يزيد وأوله من المغيرة بن شعبة، فإنَّ معاوية أراد أن يعزِله عن الكوفة، ويستعمل عِوضَهُ سعيد بن العاص، فبلَغَهُ ذلك.

فسارَ إلى معاوية، وقال لأصحابِهِ: إن لم أكسبكم ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً. ومضى حتى دخلَ على يزيد وقال له: قد ذهبَ أعيانُ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وكُبراء قريش وذوو أسنانِهم، وإنما بقيَ أبناؤُهُم، وأنتَ من أفضَلِهِم، وأحسنِهِم رأياً، وأعلَمِهم بالسُّنة والسِّياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقِد لكَ البيعة؟

قال يزيد: أوترى ذلك يتم؟

قال المغيرة: نعم.

---

(1) راضي آل ياسين، صلح الحسن عليه السلام، ص305 - 307.

فأخبرَ يزيدُ أباهُ، فأحضرَ المغيرة واستخبرَهُ، فقال المغيرة: قد رأيتَ ما كان من سفكِ الدِّماء والاختلاف بعدَ عثمان، وفي يزيد منكَ خلفٌ فاعقِد له، فإن حدثَ بكَ حادثٌ كان كهفاً للناس، وخلَفاً منك، ولا تُسفَك الدِّماء، ولا تكون فتنة.

قال معاوية: ومن لي بهذا؟

قال المغيرة: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يُخالِفُك.

قال معاوية: فارجع إلى عمَلِكَ وتحدَّث مع من تثِق إليهِ في ذلك، وترى ونرى(1).

فرجعَ المغيرة إلى أصحابِهِ، وقال: لقد وضعتُ رِجلَ معاوية في غَرزٍ بعيد الغاية على أمةِ محمَّد، وفتقتُ عليهم فتقاً لا يُرتق أبداً.

ثم رجعَ المغيرة إلى الكوفة، وأوفدَ مع ابنِهِ موسى عشرة ممن يثِق بهم من شيعة بني أمية، وأعطاهُم ثلاثينَ ألف درهم، فقدِموا عليه، وزيَّنوا له بيعةَ يزيد. فقال معاوية: لا تعجَلُوا بذا، وكونوا على رأيِكُم.

ثم قال (معاوية) لموسى سراً: بكم اشترى أبوك من هؤلاءِ دينَهُم؟

قال موسى بن المغيرة: بثلاثين ألفاً.

قال معاوية: لقد هانَ عليهم دينُهم.

دور زياد ابن أبيه في التَّمهيد لبيعة يزيد

وكتب معاوية إلى زياد وهو بالبصرة: إنَّ المغيرة قد دعا أهل الكوفة إلى البيعة ليزيد بولايةِ العهد بعدي، وليس المغيرة بأحقّ بابن أخيكَ منك، فإذا وصلَ إليك كتابي، فادعُ الناس قِبَلَكَ إلى مثل ما دعاهُم إليهِ المغيرة، وخُذ عليهم البيعةَ ليزيد.

فلما قرأ زياد الكتاب، دعا برجُلٍ من أصحابِهِ يثِقُ بفضلِهِ وفهمِهِ فقال: إنِّي أريدُ أئتمنكَ على ما لم أئتمن عليه بطون الصَّحايف، إيتِ معاوية، فقُل له: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ كتابَكَ وردَ عليَّ بكذا، فما يقولُ الناسُ إذا دعوناهُم إلى بيعةِ يزيد وهو يلعبُ بالكلابِ والقرود، ويلبَسُ المصبَّغ ويُدمِنُ الشَّراب ويمشي على الدُّفوف، وبحضرتِهم الحسينُ بن علي عليه السلام وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزُّبير وعبد الله بن عمر، ولكن تأمُره أن يتخلَّق بأخلاقِ هؤلاء حولاً وحولَين، فعسينا أن نُمَوِّه على الناس.

(1) راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص224.

فلما صار الرَّسول إلى معاوية وأدَّى إليه الرِّسالة، قال: ويلي على ابن عُبيد، واللهِ لقد بلغني أنَّ الحادي حدا له، أنَّ الأمير بعدي زياد، والله لأرُدَّنهُ إلى أمِّهِ سُميَّة وأبيهِ عُبيد.

وفي الطبري وابن الأثير بتفصيل أوفى، وفيهِ أنَّ الرَّسول قال لزياد: لا تُفسِد على معاوية رأيَهُ، ولا تُبغِّض إليهِ ابنَهُ، وألفي (أو ألقى) أنا يزيد فأُخبِره أنَّ أمير المؤمنين كتبَ إليك يستشيرُكَ في البيعةِ له، وأنَّك تتخوَّف خِلافَ الناس عليه، لهناتٍ ينقَمُونَها عليه، وأنَّك ترى لهُ ترك ما يُنقَم عليه. وأنَّ زياداً قبل ذلك.

فقَدِم الرَّسول على يزيد، فذكرَ ذلك له، فكفَّ عن كثيرٍ مما كان يصنع، وكتبَ زياد معه إلى معاوية يُشيرُ بالتؤدَة وأن لا يعجل، فقبِلَ منهُ[1].

أقول: وتوجد مؤشرات على أنَّ موقف زياد هذا سيدفع ثمنه ابنه عُبيد الله، فبعد موت معاوية، لم يكن يزيد يريد تولية عبيد الله بن زياد على الكوفة، ولم يفعل ذلك إلا بعد إصرار سرجون - مستشار معاوية ويزيد - على ذلك، بعد ورود أنباء عن خروج الكوفة عن السَّيطرة إثرَ قُدوم مسلم بن عقيل إليها. بل يُفسِّر بعض الباحثين حماسة عبيد الله بن زياد لتصفية حركة الإمام الحسين عليه السلام، بأنَّها محاولة منه لترضية يزيد، بعدما وجدَ عليه بسبب موقف أبيه زياد من استخلافه.

لنُكمل تسلسُل الأحداث، ومحاولات معاوية توريث يزيد السُّلطة.

● 53 هـ: موت زياد ابن أبيه بالكوفة بعد سنوات من ملاحقتِهِ وتصفيتِهِ لشيعةِ علي عليه السلام.

وكان معاوية بالتدريج يزدادُ إصراراً على البيعة ليزيد، فقد أرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقَبِلها، فلما ذكرَ البيعة ليزيد، قال ابن عمر: هذا ما أراد! إنَّ ديني إذن عليَّ لرخيص.

وعندما علم عبد الرحمن بن أبي بكر خبر بيعة الناس ليزيد، قال لمروان بن الحكم والي معاوية على المدينة: ما الخَيار أردتُما لأمةِ محمد، ولكنَّكم تريدونَ أن تجعلوها هِرَقلية، كلما ماتَ هِرَقل قام هِرَقل[2].

كتب ابن عبد ربه الاندلسي: «فلم يزل يُروِّض الناسَ لبيعتهِ سبع سنين، ويشاور،

---

(1) يقول الطبري: وفيها (أي من أحداث سنة 56هج) دعا معاوية الناس إلى بيعة ابنه يزيد وجعله ولي العهد (الطبري، ج4، ص224 - 225)، وفيها تفصيلات توطئة معاوية الأمر لابنه يزيد.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ 3/ 506.

ويُعطي الأقارب ويداني الأباعد، حتى استوثق له من أكثر الناس»[1].

● 54 هـ: معاوية يُغري بين مروان وسعيد بن العاص، ويطلب من الأخير أن يهدِم دار مروان، فلم يهدِمها، فأعادَ عليهِ بهدمِها، فلم يفعل، فعزَلَهُ، وولّى مروان المدينة ثانية. معاوية يولّي عبيد الله بن زياد خراسان بعد موت أبيه زياد.

يهُمُّنا هنا - ما دمنا ندرس خلفيات واقعة كربلاء - تولية معاوية عبيد الله بن زياد، لأنَّ معاوية هو أوَّل من نصَّب عُبيد الله في مناصب عُليا في الدَّولة، بعد استلحاق أبيه، وتوسُّلِهِ أن يُولّيه.

ينقل الطبري أنه لما مات زياد، وفدَ عُبيد الله إلى معاوية، فقال له: من استخلَف أخي (زياد) على عملِهِ بالكوفة؟

قال (عبيد الله): عبد الله بن خالد بن أسيد.

قال (معاوية): فمن استعملَ على البصرة؟

قال (عبيد الله): سمرة بن جندب الفزاري.

فقال له معاوية: لو استعملَكَ أبوك استعملتُك!

فقال له عبيد الله: أنشِدُكَ الله أن يقولها إليَّ أحدٌ بعدَك «لو ولاّك أبوك (زياد) وعمُّك (معاوية) لولَّيتُك»[2]!

وكُتب التاريخ تنقل أنَّ معاوية قام بتولية عبيد الله بن زياد خراسان سنة 54 هج، فأقام بها سنتين، ثم ولاّه معاوية البصرة سنة 55 هج. وصار عبيد الله - كأبيه - معروفاً عند أهل العراق بالبطش، وقصَّتُهُ مع عروة بن أدية معروفة[3].

● 55 هج: معاوية يولي عبيد الله بن زياد البصرة أيضاً (بالإضافة إلى خراسان)، موت سعد بن أبي وقاص آخر شخصية من وجهاء المهاجرين، لكن ثمَّة روايات أنَّ بين موت الإمام الحسن عليه السلام وموت سعد أياماً متقاربة، وذلك بعد مضي عشر سنين من إمرة معاوية، وكانوا يروُون أنَّه سَقاهُما السُّم[4]، وعلى هذا يكون موت سعد في سنة (50هج).

(1) ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج4، ص368.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص220.
(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، 231 - 232.
(4) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج16، ص29.

● 56 هـ: معاوية يُعلِن بشكلٍ صريح عن مطالبتِهِ مبايعة يزيد ولياً للعهد. ونتيجة لذلك سيعقد الإمام الحسين عليه السلام قريباً مؤتمراً في منى.

● 57 هـ: ولادة الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

● 58 هـ: عبيد الله بن زياد (في بصرة العراق إلى خراسان إيران) يشتد على الخوارج. معاوية يعزِل مروان ثانية عن المدينة، ويُولِّي مكانه الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان.

أقول: وسيظل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والياً على المدينة من طرف معاوية، إلى موته، ثم سيرسل يزيد إليه رسالة يخبره بموت معاوية، ويطلب منه أخذ البيعة له من الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزُّبير أخذاً شديداً. لكن طريقة تفكير الوليد بن عتبة أقرب إلى معاوية منها إلى يزيد، وبالتالي سيحاول أن لا يصطدم بالإمام الحسين عليه السلام. هذا النحو من التعاطي لم يرُق يزيد، فقام بعزلِهِ عن ولاية المدينة بعد خروج الإمام الحسين عليه السلام منها.

● 59 هـ: وفاة أبي هريرة. معاوية ينفذ الكتب للمطالبة ببيعة يزيد إلى الأمصار. معاوية يُولِّي النُّعمان بن بشير الكوفة.

أقول: النُّعمان بن بشير سيظلُّ والياً من طرف معاوية على الكوفة إلى موته، لكن سيقوم يزيد بعزله عنها، ويُنصِّب عبيد الله بن زياد بدلاً منه، بعدما وصلته أنباء عن وصول مسلم بن عقيل إليها، وأنَّها تكاد تخرج عن سيطرة النُّعمان. طريقة تفكير النُّعمان بن بشير أقرب إلى معاوية منها إلى يزيد، لذا حاول أن لا يصطدم بالثُّوار ومسلم بن عقيل، لكن هذا النحو من التعاطي لم يرق يزيد فعزله.

● 60 هـ: معاوية يأخذ على الوفد الذين وفدوا إليه مع عبيد الله بن زياد من العراق البيعة لابنه يزيد. ثم وفاة معاوية. وإليك تفصيل محاولات معاوية توريث السُّلطة ليزيد.

محاولات جديدة في المدن الكبرى (البصرة، الكوفة، الشَّام، المدينة، مكة)

يقول ابن الأعثم: ثم كتبَ معاوية إلى جميع نُوَّابِهِ، فألقى إليهم هذا الخبر: أنَّهُ يريد أن يأخُذَ البيعة لابنِهِ يزيد. فكتبَ إليه مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر، يأمُرونَهُ أن يتأنَّى في أمرِ يزيد، وأن لا يعجَل حتى يُطالع أهل المدينة، وحجَّ يزيد في تلك السَّنة[1]، ففرَّقَ بمكة والمدينة أموالاً كثيرة، يشتري بها قلوبَ الناس، ثم إنه انصرفَ والناسُ عنهُ راضون.

---

(1) ينقل الطبري من أحداث سنة 51هج أنه حج بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية (الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص213).

وشاعَ الخبرُ في الناس بأنَّ معاوية يريد أن يأخُذَ البيعةَ ليزيد، وكان الناسُ في أمر يزيد على فرقتين: من بينَ راضٍ وساكِت، أو قائلٍ مُنكِر. وكان عقبة الأسدي شاعر أهل البصرة ممن يكرَهُ بيعةَ يزيد ويُبغِضُهُ، فأنشأ في ذلك يقول:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجَح ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتُم أرضنا فجرَّدتُموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ؟
أتطمعُ في الخلودِ إذا هلَكنا ... وليس لنا ولا لكَ من خلودِ
ففيها أمةٌ هلَكت ضَياعاً ... يزيدُ يسوسُها وأبو يزيدِ
دَعُوا حقَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميرَ الأراذلِ والعبيدِ
وأعطونا السَّويةَ لا تزركم ... جنودٌ مُردفاتٌ بالجنودِ

فبلغ ذلك معاوية، فأرسل إليه بعشرةِ آلاف درهم ليكُفَّ لسانَهُ، فأنشأ عقبة يقول:

إذا المنبرُ الغربيُّ خلّى مكانَهُ ... فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميمونِ والجدِّ صاعداً ... لكلِّ أناسٍ طائرٌ وجدودُ
فلا زلتَ أعلى الناسِ كعباً ولم تزل ... وفودٌ يُساميها إليكَ وفودُ
ألا ليتَ شعري ما يقول ابنُ عامرٍ ... لمروانَ؟ أم ماذا يقولُ سعيدُ؟
بني خُلفاء اللهِ مهلاً فإنَّما ... ينوبُها الرَّحمن حيثُ يريدُ

فأرسلَ إليه معاوية ببدرة[1] أخرى.

وبلغَ ذلك عبد الله بن همَّام السلُّولي، شاعر أهل الكوفة، وكان أيضاً ممن يُبغِضُ يزيد، فأنشأ يقول شعراً:

فإن يأتوا برملةَ أو بهندٍ ... نبايِعُها أميرةَ مؤمنينا
وكلُّ بنيكَ ترضاهُم وإن ... شِئتُم يُعمُّهم المنتمينا
إذا ما ماتَ كسرى قامَ كسرى ... بُعيد ثلاثةٍ متنا سُقينا
يورّثُها أكابرهُم بنيهِم ... كما ورثَ القمامسةُ القطينا[2]
فيا لهفي لو آنَّ لنا أنوفاً ... ولكن لا نعود كما عنينا

(1) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.
(2) القمامسة جمع «قومس»، وهو الملك الشريف. و«القطين» هم الأتباع والحشم، وقد يقال أيضاً للبستان.

إذًا لـضـربـتُـم حـتـى تـعـودوا ... بـمـكـةَ تـطـعـمـون بـهـا الـسـخـيـنـا[1]
مـشـيـنـا الـحـنـقَ حـتـى لـو سُـقـيـنـا ... دمـاءَ بـنـي أمـيـةَ مـا رويـنـا
ضـعـوا كـلـبـاً عـلـى الأعـنـاقِ مـنـا ... وسـرُ حـكـمِ الأصـاغـرِ ورثـونـا
هـبـونـا لا نـريـدُكـم بـسـوءٍ ... ولا نـعـصـيـكُـم مـا تـأمـرونـا
فـأولـوا بـالـسَّـدادِ فـقـد بـقـيـنـا ... لـحـلـفـكُـم عـنـاداً مـفـتـريـنـا
بـنـيـتـم مُـلـكَـكُـم فـإذا أردتـم ... بـنـا الـصـلـعـاء قـلـتُـم مـحـسـنـيـنـا
لـقـد ضـاعـت رعـيـتُـكـم وأنـتـم ... تـصـيـدون الأرانـبَ غـافـلـيـنـا

فبلَغَ ذلك معاوية، فقال: ما تركَ ابنُ همَّام شيئاً، ذكرَ الحرَمَ وعيَّرَنا بالسَّخينة، ما له إلا أن يُخرجنا من جنتنا! ثم وجَّهَ إليه معاوية ببدرة، فلما وصلت إليه، شكرَها لمعاوية، ثم كتب إليه يقول شعراً:

أتـانـي كـتـابُ الله والـديـنُ قـائـمٌ ... وبـالـشـامِ إن لاقـيـه حـكـمٌ عـدلُ
أريـدُ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ فـإنـه ... عـلـى أحـوالِ الـزمـان لـه الـفـضـلُ
فـهـاتـيـكُـمُ الأنـصـارُ يـرجـونَ فـضـلَـهُ ... وحـدكَ أعـرابٌ أضـر بـهـا الـمـحـلُ
ومـن بـعـدِ مـا كـنـا عـبـاديـدَ شُـرَّداً ... أقـمـتَ قـنـاةَ الـديـنِ واجـتـمـعَ الـشَّـمـلُ
فـأيّ أنـاسٍ أثـقـلـتـهـم جـنـايـةٌ ... فـمـا انـفَـكّ عـن أعـنـاقِـهـم ذلـك الـثـقـلُ
أبـو خـالـد أخـلِـق بـه أن يـعـيـبَـنـا ... بـسـجْـلٍ مـن الـمـعـروف يـتـبـعُـهُ سِـجْـلُ
هـو الـيـوم ذو عـهـدٍ وفـيـنـا خـلـيـفـة ... إذا فـارقَ الـدنـيـا خـلـيـفـتُـنـا الـكـهـلُ

ولم يزل معاوية يُروِّض الناس على بيعةِ يزيد، ويُعطي المُقارب، ويُداني المُتباعد، حتى مالَ إليهِ أكثرُ الناس، وأجابوهُ إلى ذلك.

ثم أرسلَ إلى عبد الله بن الزُّبير، فدعاهُ ثم شاورَهُ في أمرِ يزيد، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، أنا أُناجيكَ، ولا أناديك، وإنَّ أخاكَ من صدَقك، فانظُر قبل أن تُقدِم، وفكِّر قبلَ أن تندَم، فإنَّ النظرَ قبل التقدُّم، والتفكير قبل التندُّم.

فتبسَّمَ معاوية ضاحكاً، ثم قال: يا ابنَ أخ، إنكَ تعلَّمتَ الشَّجاعة على رأس الكبر، إنَّ دون ما شجعت بهِ على أخيك يكفيك.

ثم أرسلَ إلى الأحنف بن قيس فدعاهُ (يبدو مرة أخرى، وكانت المرة الأولى في حياة

(1) السَّخينة: طعامٌ يتخذ من الدقيق، دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء.

الحسن عليه السلام كما مر)، ثم شاورَهُ في أمرِ يزيد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إننا نخافُكُم إن صدقنا، ونخافُ اللهَ إن كذبنا، ولكن عليكَ بغيري. فأمسكَ عنه معاوية.

وجعلَ يُروِّضَ الناسَ في كلِّ سنة، وفي كلِّ موسم يدعوهُم إلى بيعةِ يزيد، فلم يزل على ذلك سبعَ سنين.

ودخلت سنة خمس وخمسين، فكتبَ معاوية إلى أهل الأمصار أن يقدِموا عليه، فقدمَ عليهِ قومٌ من أهل الكوفة، وأهل البصرة، وأهل مكة والمدينة، وأهل مصر والجزيرة، ومن جميع البلادِ.

فاستشارَهُم معاوية في البيعةِ ليزيد، فقامَ إليه رجلٌ من أهل المدينة، يُقالُ له محمد بن عمرو بن حزم، فقال: يا معاوية، إنَّ يزيد أهلٌ لما تريد أن ترسِمَهُ له، وهو لعمري غنيٌّ في المال، ووسيطٌ في النَّسب، غيرَ أنَّ اللهَ تعالى سائلُ كل راعٍ عن رعيتهِ، فاتق اللهَ يا معاوية، وانظر من تُولِّي أمرَ أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فتنفَّس معاوية الصُّعداء، ثم قال: يا بنَ عمرو، أنتَ رجلٌ ناصح، وإنما قلتَ برأيك، ولم يكن عليكَ إلا ذلك، غيرَ أنهُ لم يبقَ من أولادِ الصَّحابة إلا ابني وأبناؤهم، وابني أحبُّ إليَّ من أبنائِهم. فسكتَ الناسُ وانصرفوا يومهم.

فلما كانَ من الغد، بعثَ معاوية إلى الضَّحاك بن قيس[1]، فدعاهُ وقال: إني قد عزَمتُ على الكلام، وإذا غصَّ المجلسُ بأهلِهِ، ورأيتني ساكتاً، فكُن أنت الذي تدعوني إلى أمرِ بيعة يزيد، وحضَّني على بيعتهِ.

ثم أرسلَ إلى وجوهِ الناس، فأحضرَهُم مجلِسَهُ، فلما اجتمعوا بدأ معاوية بالكلام، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم إنهُ عظَّمَ الإسلامَ وحرمتهُ، ثم ذكرَ ما أمرَ اللهُ بهِ من طاعةِ ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضلَهُ على قريش وعلمَهُ بالسِّياسة.

فعارضَهُ الضَّحاك بن قيس وقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه لا بُدَّ للناسِ من والٍ بعدَك، فولِّ عهدَك، فإنا قد بلونا الجماعةَ والفُرقة، فوجدنا الجماعةَ والإلفة أحقن للدِّماء، وآمنَ للسُّبل، وخيراً في العاجلةِ والآجلة، والأيامُ عِوجٌ رواجع، وللهِ في كلِّ يومٍ أمرٌ وشأن، ولا تدري ما يختلفُ بهِ العصران، وينقلبُ فيهِ الحدَثان، ويزيدُ ابنُ أميرَ المؤمنين في هديهِ وقصدِ سيرتِهِ، من أفضلِنا حِلماً، وأكثرِنا عِلماً، فولِّهِ عهدَك، واجعلهُ لنا علَماً بعدَك، ليكونَ مفزعاً نلجأُ إليه، وخليفةً نُعوِّلُ عليه، تسكُن بهِ القلوب، ونأمنُ بهِ الفتن. ثم سكتَ الضَّحاك.

---

(1) من أبرز رجالات معاوية، من صغار الصَّحابة، شهد فتح دمشق، ووليها بعدما كان ولي الكوفة من قبل معاوية، دعا لعبد الله بن الزبير بعد موت يزيد، فقتله مروان بن الحكم سنة 64 هج واستولى الأخير على الدولة الأموية. (انظر سير أعلام النبلاء للذهبي).

وقام عمرو بن سعيد الأشدق[1]، وقال: أيُّها الناس، واللهِ إنَّ يزيدَ لطويلُ الباع، واسعُ الصَّدر، رفيعُ الذِّكر، إن صِرتُم إلى عدلِهِ وسِعَكُم، وإن لجأتُم إلى جودهِ أغناكُم، وهو خلفٌ لأميرِ المؤمنين، ولا خلفَ منه.

فقالَ لهُ معاوية: اجلِس أبا أمية، فقد أوسَعتَ وأحسنت. فجلسَ عمرو بن سعيد بن العاص.

وقامَ يزيدُ بن المقنع الكندي، فقال: **أيُّها الناس، إنَّ أمير المؤمنين هذا - وأشارَ بيدهِ إلى معاوية - فإن ماتَ فخليفتهُ هذا - وأشارَ إلى يزيد - فمن أبى فهذا - وأشارَ بيدهِ إلى السَّيف -** فقالَ له (معاوية): اجلس، فأنت سيِّدُ الخطباء.

ثم قامَ الحُصينُ بن نُمير السَّكوني[2]، فقال: يا معاوية، والله لئن لقيتَ اللهَ ولم تبايُع ليزيد لتكوننَّ مُضيِّعاً للأمة!

فالتفَت معاوية إلى الأحنفِ بن قيس، وقال: يا أبا بحر، ما يمنعُكَ من الكلام؟

فقال (الأحنف): يا أميرَ المؤمنين، أنتَ أعلَمُنا بيزيد في ليلِهِ ونهارِهِ، ومدخَلِهِ

---

(1) عُرفَ الأشدق ببغضه الشديد لعلي عليه السلام وكثرة شتمه إياه، ولقب بـ «الأشدق» لأنه - كما يقال - أصابه اعوجاج في حلقه لإغراقه في الشتم. عند خروج الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق، كان والياً على مكة ليزيد بن معاوية، وعندما وصل مروان بن الحكم إلى سدة الخلافة وعده أن يلي الأمر من بعده، لكن غدر به وسلم الأمر لابنه عبد الملك، فثار على عبد الملك بن مروان، واستغل فرصة خروج عبد الملك إلى العراق لتصفية مصعب بن الزبير، فهجم على دمشق، فرجع عبد الملك وحاصره ستة عشر يوماً حتى اصطلحا على ترك القتال وأن يكون الأشدق ولي العهد من بعد عبد الملك، لكن عبد الملك قتل الأشدق غدراً سنة 70 هج.

(2) من قادة الأمويين، يعود نسبه إلى قبيلة كندة، وكان مبغضاً لآل علي؛ ففي معركة صفّين كان إلى جانب معاوية، وفي عهد يزيد كان قائداً على قسم من الجيش، وفي واقعة مسلم بن عقيل سلّطه ابن زياد على دور أهل الكوفة، ليأخذ مسلم ويأتيه به، وهو الذي أخذ قيس بن مسهّر رسول الحسين عليه السلام فبعث به إلى ابن زياد فأمر به فقتل، وهو الذي نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ورمى به الكعبة لمّا تحصّن منه ابن الزبير في المسجد الحرام (مروج الذهب 3: 71)، وقاتل سليمان بن صرد أثناء ثورة التوّابين، وأبوه تميم بن أسامة، وهو الذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن شعر رأسه بعد قوله عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني» (سفينة البحار 1: 281).

وفي عهد يزيد شارك في الهجوم الذي أمر يزيد بشنّه على المدينة المنوّرة، مات في عام 68 هج متأثّراً بجراح أصابه بها إبراهيم بن الأشتر في الواقعة التي جرت على ضفاف نهر الخازر، وجاء في بعض الأخبار أنّه أخذ رأس حبيب بن مظاهر بعد مقتله وعلّقه في رقبة فرسه ودار به في الكوفة مفتخراً، فكمن له فيما بعد القاسم بن حبيب وقتله ثأراً لدم أبيه، وجاء في مصادر أُخرى أنّه قتل على يد أصحاب المختار الثقفي عام 66 هج قرب الموصل في وقت حركة المختار.

ومخرَجِهِ، وسرِّهِ وعلانيتِهِ. فإن كنتَ تعلمهُ للهِ عزّ وجلّ ولهذهِ الأمة رضى، فلا تُشاوِرَنَّ فيهِ أحداً من الناس. وإن كُنتَ تعلم للهِ غيرَ ذلك، فلا تُزوِّدهُ الدُّنيا وأنتَ ماضٍ إلى الآخرة. فإن قلتَ، ما علينا أن نقول سمِعنا وأطَعنا.

فقال معاوية: أحسنتَ يا أبا بحر، جزاكَ اللهُ عن السَّمعِ والطَّاعةِ خيراً.

فبايعَ الناسُ في ذلك الوقت ليزيد بن معاوية وانصرفوا إلى منازلِهِم.

تركيز الضَّغط على المدينة ومنافسي يزيد

فكتبَ معاوية إلى مروان بن الحكم، وهو عامِله على المدينة، يأمُره أن يدعو الناسَ إلى بيعة يزيد، ويُخبِرهُ في كتابهِ أنَّ أهل مصر والشَّام والعراق قد بايعوا. فأرسل مروان إلى وجوهِ أهل المدينة، فجمعَهُم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكرَ الطَّاعة وحضَّ عليها، وذكرَ الفتنة وحذَّرَ منها، ثم قال في بعضِ كلامه:

أيُّها الناس، إنَّ أمير المؤمنين قد كبُرَ سِنُّهُ، ورقَّ جِلدُهُ وعظمُهُ، وخشيَ الفتنةَ من بعدهِ، وقد أراهُ اللهُ رأياً حسناً، وقد أرادَ أن يختارَ لكم ولي عهد يكونُ من بعدهِ لكم مفزَعاً، يجمع اللهُ به الألفة، ويحقِنُ به الدِّماء، وأرادَ أن يكونَ ذلك عن مشورةٍ منكم وتراض، فماذا تقولون؟

فقال الناسُ من كل جانب: إنا لا نكرهُ ذلك إذا كان لله فيه رضا.

فقال مروان: إنه قد اختارَ لكم الرِّضا الذي يسيرُ فيكم بسيرةِ الخلفاء الرَّاشدين المهديين، وهو ابنه يزيد.

فسكتَ الناسُ، فتكلَّمَ عبد الرحمن بن أبي بكر (الصديق)، وقال: كذبتَ واللهِ يا مروان، وكذبَ من أمرَكَ بهذا، واللهِ ما يزيد برضاً، ولكن يزيد وراءَهُ هِرَقلية.

فقال مروان: أيُّها الناس إنَّ هذا المتكلِّم هو الذي أُنزلَ فيهِ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾[1].

فغضبَ عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم قال: يا ابن الزرقاء، أفينا تتأول القرآن، وأنت الطَّريدُ ابن الطَّريد.

ثم بادرَ إليهِ وأخذَ برجلِهِ، ثم قال: انزل يا عدوَّ الله عن هذا المنبر، فليس مثلكَ من يتكلمُ بهذا على أعوادِهِ.

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 17. هذه القصة ذكرها البخاري في صحيحه في تفسير سورة الأحقاف، والسيوطي في تفسيره الدر المنثور في تفسير هذه الآية.

وضجَّ بنو أميَّة في المسجد، وبلغَ ذلك عائشة، فخرجَت من منزلها ملتفَّةً بملاءةٍ لها، ومعها نُسوة من نساءِ قريش، حتى دخلَت المسجد، فلما نظرَ إليها مروان، كأنَّهُ فزع لذلك، ثم قال: نشدتُكِ الله يا أُمَّ المؤمنين وإن قلتِ إلا حقّاً.

فقالت عائشة: لا قلتُ إلا حقاً، أشهدُ لقد لعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أباكَ ولعنَكَ، وأنت الطَّريدُ ابنُ الطَّريد، أن تُكلِّمَ أخي عبد الرحمن بما تكلِّمه.

فسكتَ مروان، ولم يرُدَّ عليها شيئاً، ورجعَت عائشة إلى منزلها، وتفرَّقَ الناس.

وكتبَ مروان إلى معاوية يُخبِرهُ بذلك، وبما كانَ من عبد الرحمن بن أبي بكر، فلما قرأ معاوية كتاب مروان، أقبلَ على جلسائه فقال: عبد الرحمن شيخٌ قد خرِف، وقلَّ عقلُهُ، ويجب أن نكُفَّ عنه، ونحتمِل ما يكونُ منه، فليسَ هذا من رأيه، ولكن من رأي غيره. ثم تهيَّأ معاوية يريد الحج[1].

أقول: عندما يقول معاوية «ليسَ هذا من رأيه ولكن من رأي غيره» يشير - على الأرجح - إلى عبد الله بن الزُّبير، الذي عُرف بقدرتِهِ الخاصَّة على التحريض، فهو بالأمس حرَّض قريشاً، التي كانت تتمثَّل في طلحة والزُّبير وعائشة، ودفع بها لحرب الجمل... وها هو اليوم يُحرِّض قريشاً مرَّة أخرى، من خلال تحريضه عبد الرحمن بن أبي بكر وأخته عائشة.

الإمام الحسين عليه السلام يعقد مؤتمراً في منى

يروي الطبرسي في الاحتجاج أنَّه: «... لما كان قبل موت معاوية بسنتين، حجَّ الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس معه. وقد جمع الحسين بن علي عليه السلام بني هاشم، رجالهم ونساءهم، ومواليهم، وشيعتهم، من حجَّ منهم ومن لم يحج، ومن الأنصار ممن يعرفونه، وأهل بيته، ثم لم يدَع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أبنائهم والتابعين، ومن الأنصار المعروفين بالصَّلاح والنُّسُك إلا جمعَهُم، فاجتمعَ عليه بمِنى أكثر من ألف رجل، والحسين عليه السلام في سُرادِقِهِ عامتهم التابعون وأبناء الصَّحابة، فقامَ الحسينُ عليه السلام فيهم خطيباً، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: فإنَّ الطاغيةَ قد صنعَ بنا وبشيعتِنا ما قد علمتُم ورأيتُم وشهدتُم وبلغَكُم، وأنِّي أريدُ أن أسألكم عن أشياءِ فإن صدَقت فصدِّقوني، وإن كذبت فكذِّبوني، اسمعوا مقالَتي، واكتُموا قولي، ثم

(1) ابن أعثم الكوفي، **الفتوح**، ص45 - 51. انظر أيضاً ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج4، ص368 - 371.

ارجعوا إلى أمصارِكُم وقبائِلِكُم من أمَنتُموهُ ووثقتُم به فادعوهُم إلى ما تعلمون، فإنّي أخافُ أن ينـدَرِسَ هذا الحق ويذهب، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(1). فما ترك الحسينُ شيئاً أنزلَ الله فيهم من القرآن إلا قالَهُ وفسَّرَهُ، ولا شيئاً قالَهُ الرَّسولُ في أبيهِ وأُمِّهِ وأهل بيتِهِ إلا رَواهُ، وكلُّ ذلك يقول الصَّحابة: اللَّهم نعم، قد سمِعناه وشهدناه، ويقول التَّابعون: اللَّهم قد حدَّثنا من نُصدِّقهُ ونأتَمِنَهُ، حتى لم يترُك شيئاً إلا قالَهُ ثم قال: أنشِدُكم بالله إلا رجعتُم وحدَّثتُم بهِ من تثِقونَ بهِ. ثم نزلَ وتفرَّق الناسُ على ذلك»(2).

ولنا على هذا المؤتمر ملاحظات:

1. التصعيد الخطير الذي مارسَهُ معاوية، بمحاولاته المتكرِّرة توريث السُّلطة ليزيد، كان لا بد أن يواجه بتصعيد من الحسين عليه السلام. وعلى هذا الأساس، يمكن النظر إلى هذا المؤتمر على أنه الخطوة الأولى فعلاً باتجاه الثورة على النِّظام الأموي.

2. أنَّ الحسين عليه السلام كان حريصاً على أن يحضر في هذا المؤتمر كل من تبقَّى من الصَّحابة وأبناء الصَّحابة، خصوصاً الأنصار، وحتى التَّابعين، ليُذَّكرهم بمكانة أهل البيت عليهم السلام ودورهم، بوصفهم المرجعية الحقيقية، والضَّمانة من الانحراف، والثقل الموازي للقرآن الكريم، وفقاً لحديث الثَّقلين. هذه الحقيقة كادت أن تندرس بفعل الخطط المنظَّمة والمدروسة التي مارسها معاوية ما يقرب من عقدين من الزَّمن، حتى نشأت أجيال لا تعرف شيئاً عن أهل البيت عليهم السلام.

3. أنَّ الحسين عليه السلام اختار زماناً حسَّاساً، ومكاناً حسَّاساً. حيث اختار الحج، وهي اللَّحظة التي يجتمع فيها المسلمون لأداء هذه الفريضة من أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي. واختارَ منى، بوصفِه المكان يرجُم فيه الحُجَّاج - بنحو رمزي - العقبة الصُّغرى والوسطى والكبرى. وهو المكان الذي كان يتحيَّن فيه جدُّه رسولُ الله صلى الله عليه وآله الفرصةَ لدعوة الناس إلى الإسلام، عندما رفضت قريش دعوته، والتقى فيه قبل الهجرة ببعض الأوس والخزرج وبايعوه البيعتين. وهو المكان الذي أعلَن فيه أبوه الإمام علي عليه السلام البراءةَ من المشركين بعد فتح مكة. في هذا الزَّمان والمكان، حيث يتحرَّج كل حاج عن الكذب بعد أن وقفَ بعرفة وأفاضَ إلى مزدلفة، وقفَ الحسينُ عليه السلام يناشد الناس «إن صدَقت فصدِّقوني وإن كذَبت فكذِّبوني»!

4. أنَّ الحسين عليه السلام بعد أن انتهى من سرد كل ما يتعلَّق بفضائل أهل البيت عليهم السلام،

(1) سورة الصف، الآية: 8.

(2) الطبرسي، الاحتجاج، ج2، ص86 - 88.

وأنعش ذاكرةَ الناس بما نسوه بفعل الفاصل الزَّمني الطويل، وبفعل الترهيب السِّياسي من نشر هذه الفضائل... ناشد الناس أن يبدأوا - رغم قسوة الظُّروف السِّياسية وخطورة الأوضاع الأمنيَّة وما قد يترتب على ذلك من أخطار - بنشر هذه الفضائل على أوسع نطاق ممكن، كإجراء مضاد لخُطَط معاوية لمحو ذكر أهل البيت عليهم السلام، وإماتة وحيهم.

مراسلات بين معاوية والإمام الحسين عليه السلام

وكتبَ معاوية كُتُباً - تراوح بين التَّرغيب والتَّرهيب - إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزُّبير وإلى عبد الله بن جعفر وإلى الحسين بن علي عليه السلام، يدعوهم إلى البيعة ليزيد![1]

وكان كتابُهُ إلى الإمام الحسين عليه السلام ما لفظه:

«أما بعد، فقد انتهَت إليَّ منك أمورٌ، لم أكن أظنُّكَ بها، رغبةً بكَ عنها، وإنَّ أحقَّ الناسِ بالوفاءِ من كان مثلك في خطرِكَ وشرفِكَ ومنزِلتِكَ التي أنزلكَ اللهُ بها، فلا تُنازع إلى قطيعتِك، واتَّقِ اللهَ! ولا ترُدنَّ هذهِ الأمة في فتنةٍ... وانظر لنفسِكَ ودينِكَ وأمةِ محمد، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2]!

فكتبَ إليهِ الإمام الحسين عليه السلام بما يلي:

«أما بعدُ، فقد جاءَني كتابُكَ، تذكرُ فيه أنَّها انتهت إليكَ منِّي أمورٌ لم تكن تظُنّني بها رغبة بي عنها، وأنَّ الحسنات لا يَهدي إليها ولا يُسدِّد عليها إلا الله تعالى. وأما ما ذكرتَ أنه رقى إليكَ عنِّي، فإنَّما رقاهُ الملَّاقون المشَّاؤون بالنَّميمة، المُفرِّقون بين الجمع. وكذبَ الغاوونَ المارِقون، ما أردتُ حرباً ولا خِلافاً. وإنِّي أخشى الله في تركِ ذلكَ منكَ ومن حِزبكَ القاسطينَ المُحلِّين، حزب الظُّلم وأعوان الشَّيطان الرَّجيم.

ألستَ قاتلَ حُجر وأصحابه العابدين المُخبِتين الذين كانوا يستفظعونَ البِدَع ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر؟ فقتَلتَهُم ظُلماً وعُدواناً، من بعدِ ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكَّدة، جراءةً على اللهِ واستخفافاً بعهدِهِ.

أولستَ قاتل عمرو بن الحَمِق الذي أخلَقَت وأبلَت وجهَهُ العبادة؟ فقتَلتَهُ من بعدِ ما أعطيتَهُ من العهودِ ما لو فهِمَتهُ العِصَم[3] لنزلَت من شعفِ[4] الجِبال.

---

(1) راجع ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص200 - 202.

(2) سورة الروم، الآية: 60.

(3) العصم: جمع أعصم، وهو الظبي في ذراعيه أو في إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر.

(4) الشعفة (بالتحريك): رأس الجبل.

أولستَ المُدَّعي زياداً في الإسلام، فزعمتَ أنه ابنُ أبي سفيان؟ وقد قضى رسولُ الله صلى الله عليه (وآله) وسلَّم، أنَّ الولدَ للفِراش وللعاهرِ الحَجَر؟ ثم سلَّطتهُ على أهلِ الإسلام، يقتُلُهم ويقطِّع أيديهم وأرجُلَهم من خلافٍ ويَصلبُهم على جذوعِ النَّخل!

سبحانَ الله يا معاوية، لكأنَّكَ لستَ من هذهِ الأمة وليسوا منك!

أولستَ قاتلَ الحضرمي الذي كتبَ فيهِ إليك زياد أنه على دينِ علي؟ ودينُ علي هو دينُ ابنُ عمِّهِ صلى الله عليه وآله، الذي أجلسَكَ مجلِسَكَ الذي أنتَ فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجَشُّم الرِّحلتين، رحلة الشِّتاءِ والصَّيف، فوضعَها اللهُ عنكم بنا، مِنَّة عليكم!

وقد قُلتَ فيما قُلت: «لا ترُدَّ هذه الأمة في فتنة»، وإنِّي لا أعلمُ فتنةً لها أعظم من إمارتكَ عليها.

وقُلتَ فيما قُلت: «انظر لنفسِكَ ولدينِكَ ولأمةِ محمد». وإني واللهِ ما أعرفُ أفضلَ من جهادك (= قتالك)، فإن أفعَل، فإنه قربةٌ إلى ربِّي، وإن لم أفعل، فأستغفرُ اللهَ لذَنبي، وأسأله التَّوفيق لما يُحِبُّ ويرضى.

وقُلتَ فيما قُلت: «متى تكِدني أكِدك». فكِدني يا معاوية فيما بدا لك، فلعَمري لقديماً يُكادُ الصَّالحون، وإنِّي لأرجو أن لا تضُرَّ إلا نفسَك، ولا تمحَق إلا عملَك، فكِدني ما بدا لك!

واتَّقِ اللهَ يا معاوية، واعلم أنَّ للهِ كتاباً لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، واعلَم أنَّ اللهَ ليس بناسٍ لكَ قتلكَ بالظِّنة وأخذَكَ بالتُّهمة، وأمارتَكَ صبيَّاً يشربُ الشَّراب ويلعبُ بالكلاب! ما أراكَ إلا وقد أوبقتَ نفسَك، وأهلكتَ دينَك، وأضعتَ الرعيَّة، والسَّلام»[1].

الخلاصة: تناولنا اليوم محاولة معاوية الأولى - في حياة الإمام الحسن عليه السلام لتوريث يزيد السُّلطة، ودور المغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه في عملية توريث السُّلطة ليزيد، وتنصيب معاوية لعبيد الله بن زياد - الذي سيُصدر أوامِرَهُ لارتكاب فاجعة كربلاء - في مناصب عليا في الدَّولة، وتنصيب الوليد بن عتبة على المدينة والنُّعمان بن البشير على الكوفة اللذين سينأيا بنفسيهما عن الاصطدام بالإمام الحسين عليه السلام وثورته. كما تناولنا محاولات معاوية الجديدة في المدن والأمصار الكبرى، ثم تركيزه الضَّغط على المدينة - وبالتَّحديد على منافسي يزيد - وأخيراً المؤتمر المهم الذي عقده الإمام الحسين عليه السلام في

(1) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص202 - 204.

منى، ومراسلات معاوية والإمام الحسين عليه السلام، والتي كشفَ الإمام الحسين عليه السلام فيها عن الجرائم التي ارتكبَها معاوية بحقِّ بعض الصَّحابة والصَّالحين.

عندما رأى معاوية أنَّ محاولاته - رغم أنَّها هيأت الأجواء في الأمصار الكبرى لكنها - لم تجعل وجود يزيد كوليٍّ للعهد حقيقة راسخة، خصوصاً في المدينة ومكة، لأنَّها لم تحظَ بتأييد وموافقة منافسي يزيد من الشَّخصيات القرشية والهاشِمية الكبيرة، وأنَّ ولاتَهُ في الحجاز لم يُحقِّقوا انجازاً في هذا المجال، اضطرَّ للنُّزول إلى الميدان، والذَّهاب بنفسِهِ إلى المدينة ومكة لتنفيذ الخطوات الأخيرة من هذا المخطَّط.

في الفصل القادم سنتناول هذه النُّقطة بالتَّفصيل.

(29)

نـزول معاوية الميداني

معاوية سيحُثُّ من جديد ولاتَهُ في الحجاز ويأمُرُهُم بممارسة ضغوط على الناس لمبايعة يزيد، لكن الناس - في المدينة ومكة - لن يستجيبوا لتلك الضُّغوط طالما أنَّ الشَّخصيات القرشية والهاشِمية لم تقبل ذلك.

أعني بالشَّخصيات القرشية، أبناء وجهاء المهاجرين، الذين يُمثِّلون امتداداً لفئة وجهاء المهاجرين، وبطون قريش الضَّعيفة. وهم بالتَّحديد عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير. وأعني بالشَّخصيات الهاشمية الإمام الحسين عليه السلام - الذي يمثل رأس بني هاشم - بالإضافة إلى عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن جعفر وأمثالهم.

عندما يفشَل ولاة معاوية في الحجاز في تحقيق هذا الانجاز، يضطرُّ معاوية للذَّهاب بنفسِهِ إلى المدينة ومكة أكثر من مرة، ليُمارس - هذه المرَّة بنفسِهِ - كل ألوان الضُّغوط على تلك الشَّخصيات، ترهيباً وترغيباً وحيلةً. في هذا الفصل الأخير من رحلتِنا الطَّويلة، سنتناول ذلك، وستنتهي هذه الرِّحلة بموتِ معاوية بعد عودته من الحجاز.

قُدُوم معاوية إلى المدينة

كتب ابن قتيبة: وذكروا أنه لمَّا جاوبَ القومُ (الشَّخصيات القرشية والهاشمية) معاوية بما جاوبوهُ من الخِلافِ لأمرِهِ، والكراهية لبيعتِهِ ليزيد، كتبَ إلى سعيد بن العاص يأمُرُهُ أن يأخُذَ أهلَ المدينة بالبيعةِ ليزيد، أخذاً بغِلظة وشِدَّة، ولا يدَع أحداً من المهاجرينَ والأنصار وأبنائِهم حتى يُبايعوا، وأمرَهُ أن لا يُحرِّك هؤلاءِ النَّفر ولا يُهيجهم.

فلما قدِمَ عليهِ كتابُ معاوية أخذَهُم بالبيعةِ أعنف ما يكون من الأخذِ وأغلظه، فلم يُبايع أحدٌ منهم، فكتبَ إلى معاوية: «إنه لم يُبايعني أحد، وإنَّما الناسُ تبَعٌ لهؤلاءِ النَّفر، فلو بايعوكَ بايعَكَ الناسُ جميعاً، ولم يتخلَّف عنكَ أحد»[1].

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ص204.

فطلَعَت أثقالُ معاوية، ورحَلَ إلى المدينة، فلما تقارَبَ منها، خرجَ الناسُ يتلقَّونَهُ، وفيمن خرجَ إليهِ عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزُّبير والحسين بن علي عليه السلام، فلما نظرَ إليهم، قطبَ في وجوهِهِم، ثم قال: ما أعزفني(1) سفهكم وطيشكم.

فقال له الحسين عليه السلام: مهلاً يا معاوية، فلسنا لهذهِ المقالة بأهل.

فقال: بلى والله، وأشد من هذا القول وأغلظ، فإنكم تُريدونَ أمراً، واللهُ يأبى ما تُريدون.

فلما دخلَ إلى المدينة فنزلَها، وأقبلَ إليهِ الناسُ مُسلِّمين، وجعلَ كل من دخلَ إليهِ مُسلِّماً يشكو إليه هؤلاء الأربعة. ثم جاؤوا ليدخُلوا عليه، فلم يأذَن لهم، فتركوهُ ومضوا إلى مكة (وستأتي رواية تاريخية أُخرى تتحدَّث عن حوار بينهم وبين معاوية في المدينة قبل خروجِهِم منها).

وخرجَ معاوية من منزلِهِ إلى المسجد الأعظم، فصعدَ المنبر، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم ذكرَ ابنَهُ يزيد في خُطبَتِهِ، وقال: من أحقُّ بالخلافة من ابني يزيد في فضلِهِ وهَديِهِ ومذهبِهِ وموضعِهِ من قريش، واللهِ إنّي لأرى قوماً يعيبُونَهُ وما أظُنُّهم بمُقلعين ولا مُنتهين، حتى تُصيبهم منّي بوائق تجتَثُّ أصولَهم، فليربَع أولئكَ على أضلُعِهِم من قبل أن تُصيبَهُم منّي فاقِرة لا يقومونَ لها، فقد أنذَرتُ إن نفعَ الإنذار، وبيَّنتُ إن نفعَ البيان، ثم جعلَ يتمثَّل بهذه الأبيات، ويقول:

قد كنتُ حذَّرتُك آل المصطلق ... وقلتُ يا عامر ذرني وانطلق
إنَّك إن كلَّفتني ما لم أُطِق ... ساءَكَ ما سرَّكَ منّي من خُلُق
دونكَ ما استيقَنتَهُ فاحسِن وذُق

ثم ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير، والحسين بن علي عليه السلام، وقال: واللهِ لئن لم يُبايعوا ليزيد لأفعلنَّ ولأفعلن. ثم نزلَ عن المنبر، ودخلَ إلى منزلِهِ(2).

تفكُّك تحالُف التَّيارين القرشيين: بطون قريش الضعيفة وبنو أمية

وبلغَ ذلك عائشة، فأقبلَت حتى دخلَت مغضبةً عليهِ، وقالت: يا معاوية ما كفاكَ أنَّكَ

(1) عزفت النفس عن الشيء: عافته وكرهته.
(2) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج2، ص51 - 52.

قتلتَ أخي محمد بن أبي بكر وأحرَقتَهُ بالنار، حتى قدمتَ المدينة وأخذتَ بالوَقيعة في أبناءِ الصَّحابة، وأنتَ من الطُّلقاء الذين لا تحِلُّ لهمُ الخِلافة، وكانَ أبوكَ من الأحزاب، فتُخبِرُني ما كانَ يُؤمنكَ منِّي أن أبعثَ إليكَ من يقتُلُكَ بأخي محمد، وآخذ بثأري؟

فقال لها معاوية: يا أمَّ المؤمنين، أما أخوكِ محمد فلم أقتُلهُ، ولم آمر بذلك، ولكنه كان ينصُرُ من جهَزَ عليَّ: علي بن أبي طالب عليه السلام، فوجَّهتُ إليهم معاوية بن حديج[1] وعمرو بن العاص فحارباهُ، فقتلاهُ، وفعلا بهِ ما فعلا، ولم يكُ ذلكَ عن رأي، وأما قولُكِ تقتُليني، فإنِّني في بيتِ أمان.

فقالت عائشة: لعمري أنتَ في بيتِ أمان، ولكن بلغَني عنكَ أنَّكَ تهدَّدتَ أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عمر، وابن أُختي عبد الله بن الزُّبير، والحسين بن فاطمة عليهما السلام، وليسَ مثلك من يتهدَّد مثل هؤلاء.

فقال معاوية: مهلاً يا أمَّ المؤمنين، فهم أعزُّ عليَّ من بصَري، لكني أخذتُ البيعةَ لابني يزيد، وقد بايعَهُ كافَّةُ المسلمين، أفتريني أنقضُ بيعةً قد تبيَّنت وتأكَّدت، وأن يخلَع الناس عهودَهُم؟!

فقالت عائشة: إنِّي لا أرى ذلك، ولكن عليك بالرِّفقِ والتأنِّي، وإنَّهم لا يُخالفونَكَ، وانظُر لا يبلُغني عنكَ أنَّكَ أسأتَ إلى أحدٍ منهُم، فتلقى منِّي ما لا تُحِب، واذكُر المرجِع إلى اللهِ والمنقلَب إليه.

فقال معاوية: أفعَل ذلك يا أُمَّ المؤمنين، وأنتِ أهلٌ أن يُسمَع منك وتُطاعي في كلِّ ما تأمرين.

فانصرَفت عائشة من منزلِها[2].

أقول: من الطبيعي أن تُدافع عائشة - وهي تُمثِّل الرُّوح القرشية - عن اثنين من المُرشَّحين الأربعة على وجهِ الخصوص: أخيها عبد الرحمن، وابن أُختِها عبد الله بن

---

(1) وقد كافأه معاوية بأن ولاه بعد ذلك مصر بعد موت عمرو بن العاص وعزل ابنه عبدالله، ففي الطبري أن عبد الرحمن بن أبي بكر مر بمعاوية بن خديج فقال له: يا معاوية قد لعمري أخذت من معاوية جزاءك، قتلت محمد بن أبي بكر لأن تلي مصر، فقد وليتها، قال (معاوية بن خديج): ما قتلت محمد ابن أبي بكر إلا بما صنع بعثمان، فقال عبد الرحمن: فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان لم تشرك معاوية فيما صنع، حيث صنع عمرو بن العاص بالأشعري ما صنع، فوثبت أول الناس فبايعته (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص172)، ثم ما لبث أن عزل معاوية معاوية بن خديج سنة 50هج (الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص178).

(2) ابن أعثم الكوفي، **الفتوح**، ج2، ص51 - 53.

الزُّبير. أما عبد الله بن عمر فليس منافساً جِدِّياً لهما، لأسبابٍ عدَّة، منها أنه لم يكُن في وارد منافسة أحد على الخلافة، وأما الإمام الحسين عليه السلام فالاصطفافات الجديدة كانت تقتضي أن تجد نفسها مع الإمام الحسين عليه السلام في خندَقٍ واحد في مقابل معاوية الذي يُريد أن تستأثر أُميَّة بالحُكم.

خلفيات علاقة معاوية بعائشة

كان معاوية خصماً لدوداً للإمام علي عليه السلام، حاربَهُ في حياتِهِ، ولم ينسَ اللَّعن عليهِ بعد مماتِهِ، ووجدنا عائشة أيضاً تُحارِبُ علياً عليه السلام في حياتِهِ، وتسجُدُ للهِ شكراً عندما يبلغها نبأ وفاتِهِ.

وإذا لاحظنا ما رواهُ اليعقوبي وأبو الفرج، نرى أنَّ الخصومة قد امتدَّت بينها وبين بني هاشم، وجمعَت بينها وبين بني أمية عامَّة، ومعاوية خاصَّة، إلى آمادٍ بعيدة. لأنه عندما تُوُفِّي الإمام الحسن عليه السلام، وأُخرِجَ نعشُهُ يُرادُ بهِ قبر رسول الله صلى الله عليه وآله حسبَ وصيَّته، ركبَت عائشة بغلاً، وقالت: بيتي ولا آذن فيهِ لأحد، فأتاها القاسم بن محمد بن أبي بكر، فقال: يا عمَّة! ما غسلنا رؤوسَنا من يوم الجمل الأحمر، أتُريدين أن يُقال يوم البغلة الشَّهباء؟

هذه الخصومة المشتركة قرَّبت في البدء بين عائشة ومعاوية، وجعلتها موضع رعاية معاوية وولاته، واستمرَّ هذا التحالُف إلى شهادة الإمام الحسن عليه السلام.

أخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن القاسم قال: أهدى معاوية لعائشة ثياباً وورقاً وأشياءَ توضَعُ في اسطوانتها... وعن عروة: أنَّ معاوية بعثَ إلى عائشة بمائة ألف... ... وأخرج ابن كثير عن عطاء قال: بعثَ معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوقٍ قيمتُهُ مائة ألف فقبلَتهُ. وروى ابن كثير عن سعيد بن العزيز قال: قضى معاوية عن عائشة أمّ المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وكان عليها من الدَّين الذي كانت تُعطيهِ الناس.

وكذلك كان الأمراء من البيت الأموي أيضاً، كانوا يبعثونَ إليها بالهدايا، كما فعل عبد الله بن عامر والي البصرة، فإنه بعثَ إليها بنفقةٍ وكسوة.

وكانت لعائشة كلمة نافذة... لكن عندما استقامَ الأمر لمعاوية بعد جهدٍ كبير، وأرادَ أن يورِّث الخلافة لعقبِهِ من بعده، وعارضَهُ الناس، وقلبَ لهم ظهرَ المِجَنّ، عطَفَت عائشة على معارضيهِ وأيَّدَتهُم، ففترت العلائق بينهما.

فتوريثُ الخلافة ليزيد بمثابة انقلاب من بني أمية على قريش، انقلاب على أخيها

عبد الرحمن، وابن أختها عبدالله بن الزُّبير، وحتى عبد الله بن عمر، فضلاً عن الإمام الحسين عليه السلام، فثلاثة من منافسي يزيد من طرفِها، اثنان منهم من قرابتِها، وواحد محسوبٌ على خطِّها السِّياسي.

وأولى بوادر فتور العلاقة بينهما كانت في أمرِ وساطتها لحُجر. قال أبو الفرج: إن عائشة بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حُجر وأصحابه، فقَدِم عليه وقد قتَلَهُم (إلى قوله)، وكانت عائشة تقول: لولا أنا لم نُغيِّر شيئاً إلا آلت الأمور إلى أشد مما كُنَّا فيه لغيرنا قتل حُجر، أما واللهِ إن كان لمسلماً ما عَلِمتُهُ حاجَّاً معتمراً.

ومما قالت في قتل حُجر: أما واللهِ لو علِمَ معاوية أنَّ عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخُذ حُجراً وأصحابه من بينِهم حتى يقتلهم بالشَّام، لكن ابن آكلة الأكباد علِمَ أنه قد ذهبَ الناس....

أقول: إننا نعلم أنَّ محمد بن أبي بكر كان قد قتل سنة 37هج، وحُجر بعد 50 هج، فلماذا سكتت عائشة كل هذه السَّنوات الطِّوال عن مطالبة معاوية بدم أخيها حتى إذا قُتِلَ حُجر وجاء معاوية ليُوطِّئ لخلافة يزيد ذكرَته؟!

نرى أنَّ السبب في أنَّها كانت قد أوفدَت عبد الرحمن بن الحارث من المدينة إلى الشَّام تشفَع في حُجر، وانتشرَ خبرُ ذلكَ في البلاد، وفيما الناسُ مع أمِّ المؤمنين واثقون من نجاح مسعاها، وإذا بالوفدِ يرجع خائباً، ولم يسبق لها مثلُ ذلك، فعظُمَ عليها، وغضبَت على معاوية، وجابهَتهُ بقوارصِ الكلام، وذكَّرتهُ بدمِ أخيها المهدور بعد زهاء خمس عشرة سنة، فلانَ لها معاوية، وذكَّرها بما بينَهُما، وبسوابقِهِ في قضاءِ حوائجها، غير أنَّ ذلك لم يُخَفِّف من سورةِ غضبِها، وبقيَت حانِقة عليه خاصَّة، وعلى بني أمية عامَّة، لأنَّ الخلاف بينَهُما كان قد اتَّسعَت شُقَّتُهُ، بعد مخالفة عبد الرحمن - شقيق أم المؤمنين - لبيعة يزيد، وموته الفُجائي إثر هذهِ المخالفة!

فقد روى ابن عبد البر في الاستيعاب: قعدَ معاوية على المنبر يدعو إلى بيعة يزيد، فكلَّمَهُ الحسين بن علي عليه السلام، وابنُ الزُّبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فكان كلام ابن أبي بكر: أهِرَقلية؟! إذا ماتَ كسرى كان كسرى مكانَهُ، لا نفعل واللهِ أبداً. وبعث إليهِ معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعةَ ليزيد، فردَّها عليه عبد الرحمن، وأبى أن يأخُذَها، وقال: أبيعُ ديني بدنياي؟! فخرجَ إلى مكة، فماتَ بها قبل أن تتم البيعة ليزيد ابن معاوية.

وذكر ابن عبد البر بعده وقال: إنَّ عبد الرحمن ماتَ فجاءة بموضعٍ يقال له «الحُبش»

(= جبل بأسفل مكة، مات عنده عبد الرحمن، فحُمِلَ على رقابِ الرِّجال على مكة) على نحوِ عشرة أميال من مكة فدُفِنَ بها، ويقال: إنه تُوفِّي في نومةٍ نامَها، ولمَّا اتَّصلَ خبرُ موتِهِ بأختهِ عائشة أم المؤمنين، ظعنت من المدينة حاجَّةً حتى وقفت على قبرهِ، فبكَت عليه وتمثَّلت ببيتين.

وفي المستدرك أنَّ عبد الرحمن رقَدَ في مقيل قالَهُ، فذهبوا يُوقِظونَهُ فوجدوهُ قد مات، فدخلَ نفس عائشة تهمة أن يكون صُنِعَ به شرٌّ، وعُجِّلَ عليه، فدُفِنَ وهو حي.

دبَّ الخلاف بين عائشة وبني أمية من جديد، ووقع الشَّر، وخسرت عائشة في هذه المعركة شقيقها عبد الرحمن، حيث مات ميتة مجهولة في طريقه إلى مكة، كما مات الأشتر في طريقِهِ إلى مصر. مات عبد الرحمن بن أبي بكر كما ماتَ من قبلِهِ عبد الرحمن ابن خالد، وسعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي عليه السلام، ماتَ هؤلاء جميعاً ليفسحوا في المجال لأخذ البيعة ليزيد.

وقع الشرُّ بين عائشة وبني أمية من جديد، وفقدت أمُّ المؤمنين شقيقَها في هذه المرة، وليس لها من الأنصار ما تستطيع أن تُقيمَها حرباً عواناً على بني أمية، بعد أن فقدَت طلحة والزُّبير، ومحمد بن طلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر إلى آخرين، فتمثَّلت بشعر لَبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهِم ... وبقيتُ في خلَفٍ كجلدِ الأجربِ
لا ينفعونَ ولا يُرجى خيرُهُم ... ويُعابُ قائِلُهُم وإن لم يشغَبِ

تقدَّم السِّن بأم المؤمنين، فلا تستطيع الرُّكوب وقطع المفاوز لإشعال نار الحرب على آل أمية بالسَّيف، فأعلنت عليهم حربَ الدّعاية، وبدأت بمروان أمير المدينة الغشوم، فجابهَتهُ بما وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أبيهِ، من لعنِهِ اباهُ، وهو في صُلبِهِ.

ونرى أنَّها لم تكتَفِ بذكر الحديث في ذمِّ بني أمية فحسب، وإنما أخذَت تُحدِّث في هذه المرحلة بما سمعَتهُ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في فضلِ علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام وأُمِّها خديجة، نكاية وإرغاماً لبني أمية عامَّة، ولمعاوية خاصَّة، فإنه لم يكن أشَدّ على معاوية من نشر فضائل علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وخاصَّة لمكان الإمام الحسين عليه السلام بين المسلمين، فقد كان يومذاك المرشَّح الأول للخلافة. إذن ما وردَ من الحديث النَّزر اليسير عن أمِّ المؤمنين في فضلِ علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام وأُمِّها خديجة صدر على الأرجح في هذه المرحلة، بعدما انفكَّ التحالف بين بطون قريش الضعيفة وبني أمية، وساءت العلاقة بين عائشة ومعاوية في أواخر حياتهما.

ومن المظنون أنَّ أغلب ما روي عنها من النَّدم على موقفِها يومَ الجمل كان بدؤه من هذا الوقت، ثم بقيَت على ذلك إلى آخر أيامها، حيث توفيت سنة ثمان وخمسين، وكان عمرها ثلاثاً وستين سنة وأشهراً[1].

الصُّورة من جديد

إذا أردنا رسم الصُّورة من جديد، نقول: معاوية يحاول أن يوطئ ليزيد ليستلم الحكم، بشتى الطُّرق، وينجم عن ذلك بروز أزمة كبيرة بين بني أمية (بطن قريش القوي)، وقريش (القبيلة الأم ببطونها الأخرى).

فإن لم يكن من الواضح في عصر وجهاء المهاجرين، أعني في عصر الخليفة الأول والثاني، أنَّ بني أمية قد اتَّخذوا من قريش عامة ووجهاء المهاجرين خاصَّة جسراً لكي يصِلوا من خلالِهم إلى مآربهم الخطيرة، فإنه ابتداءً من النِّصف الثاني من عصر الخليفة الثالث، بدأت معالم الخطة تتكشَّف لمن يملك قُدرة على تحليل الوضع السِّياسي... ثم انشغلَ الناسُ بعد مقتل الخليفة الثالث بادِّعاءات الأخذ بالثأر لمقتل الخليفة المظلوم...

ولم تنكشِف الأمور بشكلٍ جلِيٍّ لا لبسَ فيه، ولم تُدرِك قريش خطورة الانقلاب السِّياسي الذي قام به بنو أمية، إلا عندما أعلنَ معاوية نيَّته أخذ البيعة لابنهِ يزيد. هنا ثارت ثائرة قريش، ورأت أنَّ هذا انقلاب عليها وعلى منطق السَّقيفة، كما ثارت ثائرة الإمام الحسين عليه السلام الذي رأى أنَّ هذا انقلاب ليس على منطق الوصيَّة والحقِّ الإلهي فحسب، بل انقلاب حتى على منطق السَّقيفة الذي قبِله أهل البيت عليهم السلام على غضاضة، حفاظاً على بيضةِ الإسلام.

هنا رأت قريش أنَّها باتت في خندقٍ واحدٍ مع الإمام الحسين عليه السلام، ورأى الإمام الحسين عليه السلام نفسَهُ أنه في خندقٍ واحدٍ مع قريش... .في قبال بني أمية. وهذا بالتَّحديد ما قرَّب - نسبياً - من وجهات نظر عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزُّبير، من وجهة نظر الإمام الحسين عليه السلام.

لكن عندما ننتقل إلى دراسة واقعة كربلاء نفسها، سنجد أنَّ هذا التقارب بين الإمام الحسين عليه السلام وقريش كان عابراً... بدليل أنَّ عبد الرحمن بن أبي بكر إن كان قد ماتَ قبل معاوية، فإنَّ عبد الله بن عمر سيحاول أن يثني الإمام الحسين عليه السلام عن الخروج على

(1) مرتضى العسكري، أم المؤمنين عائشة، ج1، ص359 - 371.

يزيد، أما عبد الله بن الزُّبير فقد حاول أن يُحرِّضهُ على الخروج إلى الكوفة، حتى يخلو له الجو في مكة.

الآن، نريد مواصلة التعرُّف على محاولات معاوية الميدانية الأخرى للتوطئة ليزيد.

ما سمِعَهُ معاوية في المدينة

قال الدينوري (ملَخَّصاً): ثم جلسَ معاوية صبيحة اليوم الثاني، وأجلسَ كُتَّابه، بحيث يسمعونَ ما يأمر به، وأمرَ حاجِبَهُ أن لا يأذن لأحدٍ من الناس وإن قرُب، ثم أرسلَ إلى الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن عباس، فسبقَ ابن عباس، فأجلسَهُ عن يسارِهِ، وشاغلَهُ بالحديث حتى أقبلَ الحسين عليه السلام ودخل، فأجلسَهُ عن يمينِهِ، وسألهُ عن حال بني الحسن وأسنانِهم، فأخبرَهُ.

ثم خطبَ معاويةُ خطبةً، أثنى فيها على اللهِ ورسولِهِ، وذكر الشَّيخين وعثمان، ثم ذكر أمرَ يزيد، وأنه يحاول ببيعتِهِ سدّ خلل الرَّعية، ذكرَ علمَهُ بالقرآن والسُّنة، واتصافَهُ بالحِلم، وأنه يفوقُهُما سياسةً ومناظرة، وإن كانا أكبرَ منهُ سِنّاً[1]، وأفضل قرابة، واستشهد بتوليةِ رسول الله صلى الله عليه وآله عمرو بن العاص في غزوةِ ذات السَّلاسل على أبي بكر وعمر وأكابر الصَّحابة، ثم طلبَ منهُما إجابته.

فتهيَّأ ابنُ عباس للكلام، فقال لهُ الحسين عليه السلام: على رسلِك، فأنا المراد، ونصيبي في التُّهمة أوفر.

وقام الحسين عليه السلام، فحمدَ اللهَ تعالى وصلى على رسول الله وآلِهِ وقال: أما بعدُ، يا معاوية، فلن يؤدِّي القائل، وإن أطنبَ، صفةَ الرَّسول صلى الله عليه وآله من جميعٍ جُزءاً، وقد فهمتُ ما لبستَ بِهِ الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصِّفة (يعني إعراضك عن ذكر علي عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله)، والتنكُّب عن استبلاغ النَّعت.

وهيهات هيهات يا معاوية، فضحَ الصبحُ فحمةَ الدُّجا، وبهرت الشَّمسُ أنوارَ السُرُج، ولقد فضَّلتَ حتى أفرطتَّ، واستأثرتَ حتى أجحَفت، ومنعتَ حتى بخِلتَ، وجُرتَ حتى جاوزت. ما بذلتَ لذي حقٍّ من اسم حقِّهُ من نصيب، حتى أخذَ الشَّيطانُ حظَّهُ الأوفر، ونصيبه الأكمل.

وفهمتُ ما ذكرته عن يزيد من اكتمالِهِ وسياستِهِ لأمةِ محمد، تريد أن تُوهمَ الناسَ في

(1) سبق لمعاوية أن احتج على الحسن عليه السلام بكبر سنه، ولم تكن له حجة غيرها على استحقاقه الخلافة دونه، فما لهذه الباء لا تجر هنا؟!

يزيد، كأنَّكَ تصِفُ محجوباً أو تنعَتُ غائباً، أو تُخبِر عما كأنك احتويتَهُ بعلمٍ خاص، وقد دلَّ يزيدُ من نفسِهِ على موقعِ رأيه، فخُذ ليزيد فيما أخذَ فيهِ من استقرائهِ الكلّاب المُهارشة عند التهارُش، والحَمام السَّبق لأترابهن، والقينان ذوات المعازِف، وضروب الملاهي، تجِدهُ باصراً!

ودَع عنكَ ما تُحاول، فما أغناكَ أن تلقى اللهَ بوزرِ هذا الخَلق بأكثر مما أنتَ لاقيه، فوالله ما برِحتَ تقدحُ باطلاً في جور، وحنقاً في ظُلم، حتى ملئتَ الأسقية، وما بينَك وبينَ الموتِ إلا غمضة، فتقدمُ على عملٍ محفوظ في يومٍ مشهود، ولاتَ حينَ مناص.

. . . . وذكرتَ قيادة الرَّجُل (يعني عمرو بن العاص) بعهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما صارَ ذلك لعمرو يومئذٍ، حتى أنِفَ القومُ إمرتَهُ، وكرهوا تقديمَهُ، وعدُّوا عليه أفعالَهُ، فقالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا جرمَ معشرَ المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم. فكيف يُحتَجُّ بالمنسوخِ من فعلِ الرَّسول في أوكدِ الأحوال وأولاها بالمجتمع عليهِ من الصَّواب؟ أم كيف صاحبتَ بصاحبٍ تابعاً؟ وحولكَ من لا يؤمن في صُحبَتِهِ، ولا يُعتَمد في دينِهِ وقرابتِهِ، تتخَطّاهُم إلى مُسرفٍ مفتون، تريد أن تلبس الناس شُبهة، يسعد بها الباقي في دُنياه (يعني يزيد)، وتشقى بها في آخرتِك. إنَّ هذا لهوَ الخُسران المبين، وأستغفر اللهَ لي ولكم.

فنظرَ معاوية إلى ابنِ عباس، فقال: ما هذا يا ابنَ عباس؟! ولما عندكَ أدهى وأمر!

فقال ابنُ عباس: لعمرُ الله، إنه لذرية الرَّسول، وأحدُ أصحاب الكِساء، وفي البيتِ المطهَّر فالهُ عما تريد، فإنَّ لك في الناسِ مقنعاً، حتى يحكُمَ اللهُ بأمرِهِ، وهو خيرُ الحاكمين[1].

معاوية في مكة

كتب ابن الأعثم: ثم رحلَ معاوية إلى مكة، ورحلَ معه كافَّةُ أصحابه، وعامَّة أهل المدينة، وفيهم عبد الله بن عباس، حتى إذا قَرُبَ من مكة خرجَ إليهِ أهلُها، فتلقَّوهُ كما فعلَ أهل المدينة، وفيهم الحسين بن علي عليه السلام، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عمر، وابن الزُّبير، فلما نظرَ إليهم (يبدو بعد تحذير عائشة له) قال: مرحباً وأهلاً. ثم نظرَ إلى

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ص207 - 210. ثم خرج معاوية إلى مكة، كما يحدثنا ابن الأثير وغيره من المؤرخين، قال: وسبقه إلى مكة الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وابن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر (الذي مات على ما يبدو في الطريق إليها أو بعد وصوله إليها وخروج معاوية منها).

الحسين عليه السلام فقال: مرحباً بأبي عبد الله، مرحباً بسيِّدِ شباب أهل الجنة. ثم نظرَ إلى عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: مرحباً بشيخ قريش وابن صِدِّيقِها. ثم نظر إلى (ابن) عمر وقال: مرحباً يا ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله مرحباً بابنِ الفاروق. ثم نظرَ إلى ابن الزُّبير فقال: مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمَّتِهِ.

ثم قال معاوية: عليَّ يا غلام بأربعة من الظهر (= الدَّواب)، فأُتيَ بها فركبوا، وساروا وسارَ معهم معاوية، وجعل يُحدِّثهم ويُضاحِكهم، حتى دخلَ مكة، ثم بعثَ إلى كلِّ واحدٍ منهم بصِلَة سنيَّة، وفضَّلَ عليهم الحسين بن علي عليه السلام بكسوةٍ حسنة، فلم يقبَلها الحسينُ عليه السلام منه[1].

وأقامَ معاوية بمكة لا يذكرُ شيئاً من أمرِ يزيد، ثم أرسلَ إلى الحسينِ عليه السلام فدعاهُ، فلما جاءَهُ، ودخلَ إليه قرَّبَ مجلِسَهُ، ثم قال: يا أبا عبد الله، إعلَم أنِّي ما تركتُ بلداً إلا وقد بعثتُ إلى أهلِهِ فأخذتُ عليهم البيعةَ ليزيد، وإنما أخَّرتُ المدينة لأنِّي قلتُ: هُم أصلُهُ وقومُهُ وعشيرتُهُ، ومن لا أخافُهُم عليهِ، ثم إنِّي بعثتُ إلى المدينةِ بعد ذلك، فأبى بيعتَهُ من لا أعلمُ أحداً هو أشدّ بها منهُم، ولو علمتُ أنَّ لأمةِ محمد صلى الله عليه وآله خيراً من ولدي يزيد لما بايعتُ له.

فقال له الحسين عليه السلام: مهلاً يا معاوية، لا تقُل هكذا، فإنَّك قد تركتَ من هو خيرٌ منه أُمَّاً وأباً ونفساً.

فقال معاوية: كأنَّكَ تريدُ بذلك نفسَكَ أبا عبد الله؟

فقال الحسين عليه السلام: فإن أردتُ نفسي فكانَ ماذا؟

فقال معاوية: إذن أُخبِركَ أبا عبد الله، أما أُمُّك فخيرٌ من أُمِّ يزيد، وأما أبوك فلهُ سابقة وفضل وقرابة من الرَّسول صلى الله عليه وآله ليست لغيرِهِ من الناس، غير أنهُ قد حاكمَ أبوهُ أباكَ، فقضى اللهُ على أبيك، وأما أنتَ وهو، فهو والله خيرٌ لأمة محمد صلى الله عليه وآله منكَ.

فقال الحسين: من خيرٌ لأمة محمد؟ يزيد الخمُور الفَجُور؟

فقال معاوية: مهلاً أبا عبد الله، فإنَّك لو ذُكِرتَ عندَهُ لما ذكَرَ منك إلا حسناً.

فقال الحسين: إن عَلِمَ مني ما أعلَمهُ منه أنا، فليقُل فيَّ ما أقولُهُ فيه.

فقال له معاوية: أبا عبد الله انصرف إلى أهلِكَ راشداً، واتَّقِ اللهَ في نفسِك، واحذَر

---

(1) حاول بعض المؤرخين تصوير الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام على أنهما كانا ممن يتردد إلى الشَّام ليأخذا من معاوية الهدايا. لكن ورد عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: إنَّ الحسن والحسين كانا لا يقبلان جوائز معاوية بن أبي سفيان. راجع، **حياة الحسن 2/ 303 - 304.**

أهلَ الشَّام أن يسمعوا منك ما قد سمعتُهُ، فإنَّهم أعداؤكَ وأعداءُ أبيك. وانصرفَ الحسينُ عليه السلام إلى منزلِهِ.

وأرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر فأقبل، فلما دخلَ وهمَّ معاوية أن يتكلَّم، سبقهُ عبد الرحمن بالكلام وقال: واللهِ يا معاوية لعلَّ وُدَّكَ أنا قد وكَلناكَ إلى اللهِ في أمرِ ابنِكَ يزيد حتى تفعل ما تُريد، وإنا والله لا نفعَل ذلكَ أبداً، أو لتردُدَنَّ الأمرَ شورى بين المسلمين.

فقال معاوية: أما والله إني لعارفٌ بكَ وبسفهِك، ولقد همَمتُ أن أفعل كذا وكذا، أو كما قال.

فقال له عبد الرحمن: إذن واللهِ يا معاوية يدركُكُ اللهُ بهِ في الدُّنيا، ويدَّخِرُ لكَ العقوبة في الآخرة.

فقال معاوية: اللهمَّ اكفني أمرَ هذا الشيخ، يا هذا اتَّقِ اللهَ في نفسِكَ أن يسمَعك أهلُ الشَّام.

فقال عبد الرحمن: أما نحنُ فقد اتَّقينا الله، فذَرنا في منازِلنا، ولا تدعُنا إلى بيعةِ يزيد الخمُور، ويزيد الفُهود، ويزيد القُرود. ثم وثبَ عبد الرحمن بن أبي بكر مُغضباً، فصارَ إلى منزلِهِ.

وأرسلَ معاوية إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب، فدعاه، وقال: يا عبد الله، عهدي بكَ وأنت تكرَهُ الفرقة وتقول: ما أحِبُّ أن أبيتَ ليلةً وليس عليَّ أمير، وإني أُحذِّرُكَ أن تشُقَّ العصا، أو أن تسعى في الأرضِ فساداً، وإنَّ الناسَ قد استوسقوا، وبايعوا لابني يزيد، غيرُكُم أيُّها الرَّهط.

فقال له عبد الله: يا معاوية، أما كانَ من قبلِكَ أئمة لهم أبناء، وليسَ ابنُك بأفضل من أبنائِهم، غيرَ أنَّهم اختاروا لأنفُسِهم الخيار، حيثُ علِموهُ، وقد حذَّرتني الشِّقاق، ولم أكُن مُشاقاً لأحدٍ، غير أني سمعتُكَ تذكرُ بيعةً قد سبقَت، وعهداً قد أُكِّد، وليسَ لكَ عندي خلاف، فإني متوقفٌ حتى يجتمعوا على رجُلٍ، فأكون كواحدٍ من المسلمين.

فقال له معاوية: نعمَ ما قلت يا ابنَ عمر، قُم واحذر أهلَ الشَّام.

ثم دعا ابنَ الزُّبير، فلما دخلَ ونظرَ إليهِ معاوية، تبسَّم، ثم قال: روَّاغٌ، كلما سُدَّ عليهِ جُحرٌ خرجَ من آخر. يا ابنَ الزبير، إنَّكَ قد عهدتَ إلى هؤلاءِ الثلاثة، فنفختَ في مناخيرِهم، وحملتَهُم على غيرِ رأيهم (أي أنت المحرِّض لهم على عدم البيعة ليزيد)، وذلك أنَّ الناسَ قد استوسقوا في هذهِ البيعة غيرَكُم أيُّها النَّفَر، فاتَّقِ اللهَ يا بنَ الزُّبير، ولا تكُن مُشاقاً وقاطِعاً.

فقالَ عبد الله بن الزُّبير: واللهِ ما فيَّ شقاقٌ يا معاوية، فلا تبنِ فينا أساساً لنفسِك، والزَم ما كانَ عليهِ السَّلفُ الصَّالح من أخيارِ المسلمين، فلم يكن الأمرُ إلا شورى بينهم، فإنَّ الإسلامَ يرِدُ مواردَهُ. فإن أبيتَ ذلكَ وقد مللتَ من هذا الأمر فاعتزل، وهاتِ ابنَك حتى نُبايعهُ. واعلم يا معاوية أنَّ خلافة اللهِ في أرضهِ وخلقهِ، وخلافةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله في أُمَّتهِ عظيمة، فانظُر لنفسِك يا معاوية، قبل أن ينظُرَ إليها سِواك.

فقال له معاوية: يا هذا أمسِك عليكَ لسانَك، واحذر أهلَ الشَّام، فإذا خلوتَ بي، فقُل ما أحبَبت، فإنِّي محتملٌ لك. فانصرفَ عبد الله بن الزُّبير إلى منزلِهِ.

وأقامَ معاوية في مكة أياماً، ثم أمرَ لقريش بجوائز، ولم يأمر لبني هاشم بشيء، فكلَّمَهُ ابنُ عباس في ذلك وقال: إنَّكَ قد أعطيتَ بطونَ قريش الأموالَ ولم تعطِ بني هاشم، فلم ذلك يا معاوية؟

فقال معاوية: لأنَّ صاحِبَكُم الحسين بن علي عليه السلام أبى أن يُبايع ليزيد.

فقال ابن عباس: إنهُ قد أبى غير الحسين عليه السلام، فأعطيتَهُ؟

فقال معاوية: صدَقتَ يا ابنَ العباس، ولستُم عندي كغيرِكُم!

فقال ابن عباس: واللهِ لئن لم تفعل وتُرَضِّي بني هاشم لألحق بساحلٍ من سواحلِ البَّحر، ثم لأنطقنَّ بما تعلَم، ولأترُكنَّ الناسَ عليك خوارج.

فتبسَّمَ معاوية وقال: بل تُعطَون وتُكرَمُون وتزدادونَ أبا محمد. ثم أمرَ معاوية لبني هاشم بجوائز سنيَّة، فكلٌّ قبلَ جائزتهُ إلا الحسين بن علي عليه السلام، فإنهُ لم يقبَل من ذلكَ شيئاً.

المؤامرة الأخيرة قبل الخروج من مكة

حتى إذا أرادَ معاويةُ الخروجَ عن مكة، أمرَ بالمنبرِ فقُرِّبَ من الكعبة، ثم أرسلَ إلى الحسين عليه السلام، وابن عمر، وابن أبي بكر، وابن الزُّبير، فأحضرَهُم إلى مجلسهِ، ثم أقبلَ عليهم فقال: إنَّكُم قد علِمتُم نظَري لكم، وصِلَتي أرحامَكُم، ويزيدُ أخوكُم، وابنُ عمِّكم، وإني أردتُ أن تُقدِّموهُ باسمِ الخلافة، وتكونوا بعدِ ذلكَ أنتُم الذينَ تأمرونَ وتنهوَن.

فقالَ لهُ ابنُ الزُّبير: يا معاوية، إنا نُخيِّرُكَ خصالاً ثلاثاً، فاختَر منها أيتهُنَّ شئت، فهي لكَ صلاح.

قال معاوية: وما ذاك يا ابنَ الزُّبير؟

قال: إن شئتَ فاصنَع كما صنعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله إنه خرجَ من الدُّنيا ولم

يستخلِف[1]، ثمَّ اختارَ الناسُ من بعدهِ أبا بكرَ الصديق، فجعلوهُ خليفة. فافعل أنتَ ذلكَ إلى أن يقضيَ اللهُ فيكَ أمرَهُ، فيختارَ الناسُ لأنفُسِهم كما اختاروا أبا بكر.

فقال معاوية: إنهُ ليسَ منكم اليومَ مثل أبي بكر، وإني لا آمنُ عليكُمُ الاختلاف.

فقال ابنُ الزُّبير: فاصنَع كما صنعَ أبو بكر، إنهُ تركَ وُلدَهُ ورهطَهُ الأدنيين ممن كانَ للخلافةِ أهلاً، وعهِدَ إلى رجُلٍ من قاصيةِ قريش، فجعلَها في عمر بن الخطاب، فجنِّبها أنت أيضاً ابنَك، واجعلها فيمن شئتَ من قريش ما خلا بني عبد شمس (= الأصل الذي ينحدِر منه بنو أمية). وإن شئتَ فاصنَع كما صنعَ عمرُ بن الخطاب، إنه جعلَها شورى في ستةِ نفرٍ من الصَّحابة، يختارونَ لأنفُسِهم رجُلاً، وتركَ وُلدَهُ وأهلَ بيتهِ، وفيهم من لو وَلِيَها لكانَ لها أهلاً.

فقال معاوية: فهل من شيءٍ غير هذا يا بنَ الزُّبير؟

فقال: ما عندي لها رابعة.

فقال معاوية للثلاثة الباقية: ما تقولون أنتم؟

فقالوا: نحنُ على ما قالَ ابنُ الزُّبير[2].

فقال معاوية: فإني أريدُ أن أرحَل عن مكة، غير أنّي عزمتُ أن أتكلَّمَ على المنبر بكلام، والمُبقي في ذلكَ الوقت إنما يُبقي على نفسِهِ من أهلِ الشَّام، وأنتُم أعلَم، وقد أعذرَ من أنذر.

فانصرفَ القومُ إلى منازلِهم، فلما كانَ من الغد، خرجَ معاوية، وأقبلَ حتى دخلَ المسجِد (الحرام)، ثم صعدَ المنبر، فجلسَ عليه، ونوديَ لهُ في الناس، فاجتمعوا إليه. وأقبلَ الحسينُ بنُ علي عليه السلام، وابن أبي بكر، وابن عمر، وابن الزُّبير، حتى جلسوا إلى المنبر، ومعاوية جالسٌ، حتى علِمَ أنَّ الناسَ قد اجتمعوا، فوثبَ قائماً على قدميهِ، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيُّها الناس، إنا قد وجدنا أحاديثَ الناس ذاتَ عُوار (= تتضمَّن كلاماً معيباً)، **وإنَّهم قد زعموا أنَّ الحسينَ بن عليٍّ عليه السلام**، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر،

(1) لاحظ أنَّ هذا الادعاء كانت تُكرِّره مدرسة عبد الله بن الزُّبير - لتُرسِّخ منطق السَّقيفة والخلافة في بطون قريش الضَّعيفة - لكن الأمر انقلب عليهم الآن، وسيستخدمه معاوية ذريعة لاستخلاف يزيد.

(2) وبالتالي لسان حال الإمام الحسين عليه السلام: إن اضطرنا بالأمس إلى القبول بمنطق السَّقيفة حفاظاً على بيضة الإسلام، فلن نقبل اليوم مطلقاً منطق الحُكم الملَكي الوراثي الذي يصادر رأي الناس - بعدما صُودر منطق النَّص الإلهي - ليأتي بأمثال يزيد إلى أرفع وأخطر مقام، خلافة المسلمين.

وعبد الله بن الزُّبير لم يُبايعوا ليزيد. وهؤلاء الرَّهط الأربعة هم عندي سادَةُ المسلمين وخِيارهم، وقد دعوتُهُم إلى البيعةِ، فوجدتُهُم إذاً سامعينَ مطيعين، وقد سلَّموا وبايعوا، وسمِعوا وأجابوا وأطاعوا.

فضربَ أهلُ الشَّام بأيديهم إلى سُيوفِهم فسلُّوها، ثم قالوا: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا الذي تُعظِّمهُ من أمرِ هؤلاءِ الأربعة، ائذن لنا أن نضرِبَ أعناقَهُم، فإنَّا لا نرضى أن يُبايعوا سرّاً، ولكن يُبايعوا جهراً حتى يسمَعَ الناسُ أجمعين.

فقال معاوية: سبحانَ الله، ما أسرعَ الناس بالشَّر، وما أحلى بقاءَهُم عندي، اتقوا اللهَ يا أهلَ الشَّام، ولا تُسرِعوا إلى الفتنة، فإنَّ القتلَ له مطالبة وقِصاص.

(يقول الرَّاوي) فبقي الحسين بن علي عليه السلام، وابن أبي بكر، وابن عمر، وابن الزُّبير، حيارى، لا يدرون ما يقولون، يخافون أن يقولوا لم نُبايع، والموتُ الأحمر تجاهَ أعيُنِهم في سيوفِ أهل الشَّام، أو وقوع فتنة عظيمة، فسكتوا ولم يقولوا شيئاً.

ونزلَ معاوية عن المنبر، **وتفرَّقَ الناسُ وهم يظُنُّونَ أنَّ هؤلاء الأربعة قد بايعوا.** وقُرِّبت رَواحل معاوية، فمضى في رفاقهِ وأصحابهِ إلى الشَّام.

وأقبلَ أهلُ مكة إلى هؤلاءِ الأربعة، فقالوا لهم: يا هؤلاء، إنكم قد دُعيتُم إلى بيعةِ يزيد فلم تُبايعوا، وأبيتم ذلكَ، ثم دُعيتُم فرضيتم وبايعتم.

فقال الحسين عليه السلام: لا واللهِ ما بايعنا، ولكن معاوية خدَعَنا وكادَنا ببعضِ ما كادَكُم، ثم صعدَ المنبر، وتكلَّمَ بكلام، وخشينا إن ردَدنا مقالتَهُ عليهِ أن تعودَ الفتنة جذعة (= إلى بدايتها)، ولا ندري إلى ماذا يؤولُ أمرُنا؟ فهذه هي قصتُنا معه[1].

أقول: أسجل تحفظي على بعض ما جاء في رواية ابن الأعثم، والتي بدأتُ بسردها عند عنوان «معاوية في مكة»، وأرى فيها ما يدل على أنها صدرت من راوٍ ينتمي لمدرسة عبد الله بن الزبير.

وفي روايةٍ أخرى لابن الأثير: لما كانَ آخر أيام معاوية في مكة، أحضرَ الأربعة، وقال لهم: إنِّي أحبَبتُ أن أتقدَّمَ إليكم، إنه قد أعذرَ من أنذر، إني كُنتُ أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكُم فيُكذِّبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإنِّي قائمٌ

(1) ابن اعثم الكوفي، الفتوح، مج2، ص54 - 59، انظر أيضاً: ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، ج4، ص371 - 372.

بمقالةٍ، فأقسمُ باللهِ لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمةً في مقامي هذا، لا ترجع إليهِ كلمة غيرها حتى يسبقها السَّيف إلى رأسِهِ، فلا يُبقينَّ رجُلٌ إلا على نفسِهِ!

ثم دعا صاحب حرسِهِ بحضرتِهِم فقال: أقِم على رأس كلِّ رجُلٍ من هؤلاء رجُلين، ومع كلِّ واحدٍ سيفٌ، فإن ذهبَ رجُلٌ منهم يرُدّ عليَّ كلمة بتصديقٍ أو تكذيب فليضرباهُ بسيفِهما!

ثم خرجَ وخرجوا معه، حتى أتى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ هؤلاء الرَّهط سادَةُ المسلمين وخيارهم، لا يُبتزُّ أمرٌ دونَهم، ولا يُقضى لا عن مشورتِهِم، وإنَّهم قد رضوا وبايعوا يزيد! فبايعوا على اسم الله! فبايعَ الناس[1].

معاوية يعود إلى الشَّام

ثم رحلَ معاوية، فلما صار بالأبواء (قُرب المدينة) مرض، حتى صارَ إلى الشَّام، فاشتدَّ عليهِ مرضُهُ، وكان في مرضِهِ يرى أشياءً لا تسُرُّه، حتى كان ليهذي هذيان المُدنف. . . .ويُنادي بأعلى صوته: مالي ومالكَ يا حُجر بن عدي، مالي ومالكَ يا عمرو بن الحَمِق، مالي ومالكَ يا ابنَ أبي طالب[2].

وكتب الطبري: قال ابن سيرين: فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة (أي معاوية)، جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حُجر يومٌ طويل[3].

وروى أبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن (البصري) قال: أربعُ خصال كنَّ في معاوية، لو يكُن فيهِ منهُنَّ إلا واحدة لكانت موبقة.

1) انتزاؤُهُ على هذهِ الأمة بالسُّفهاء حتى ابتزَّها أمرَها بغيرِ مشورةٍ منهُم وفيهم بقايا الصَّحابة وذوو الفضيلة.

2) واستخلافُهُ ابنه بعدَهُ سِكِّيراً خِمِّيراً يلبَسُ الحرير ويضرِبُ بالطَّنابير.

3) وادعاؤُهُ زياداً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الولَدُ للفِراش وللعاهِرِ الحجَر.

4) وقتلُهُ حُجراً، ويلاً له من حُجر وأصحاب حُجر، مرَّتين[4].

---

(1) راضي آل ياسين، **صلح الحسن** عليه السلام، ص312.
(2) ابن اعثم الكوفي، **الفتوح**، مج2، ص60 - 61.
(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص191.
(4) المصدر السابق، ج4، ص208.

وقفة مع الشَّخصيات الأربع

اقترنت نقطة بدء حركة الإمام الحسين عليه السلام ضد خلافة يزيد بحركة عبد الله بن الزبير، فكلا الحركتين تبدآن في 60 هج، مع بعث الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة إلى كل من: الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن الزُّبير وعبد الرحمن بن أبي بكر[1] وعبد الله بن عمر، يطلب منهم البيعة ليزيد، بناء على رسالة وردَت من الأخير يطلب من ابن عتبة أن يأخُذ هؤلاء الأربعة أخذاً عنيفاً ليسَ فيهِ رخصة، ومن أبى عليهِ منهُم أن يضرِبَ عُنُقَهُ ويبعَث إليهِ برأسِهِ[2].

أما عبد الرحمن فكان - كما عرفنا - قد مات قُبيل أو بُعيد خروج معاوية من مكة متجهاً إلى الشَّام، وأما عبد الله بن عمر فقد آثر الاعتزال والتكيُّف مع الأمر الواقع، والتحدِّي الحقيقي الذي كان يواجه يزيد يتمثَّل في الإمام الحسين عليه السلام، ممثِّل بني هاشم، وعبد الله بن الزُّبير، ممثِّل بطون قريش الضَّعيفة. وإن اختلفت حركة عبد الله بن الزبير عن حركة الإمام الحسين عليه السلام في نقطة النِّهاية. فقد حقَّقت حركة ابن الزبير ابتداء من 63 هج وقُبيل موت يزيد[3] نجاحات تمثَّلت بتأسيس دولة، امتدَّت إلى كل أرجاء العالم الإسلامي آنذاك باستثناء الشَّام ومصر، واستمرَّت ما يقرُب من عشر سنوات، قبل أن تنتكِس بمحاصرة مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق، ثم قتل عبد الله الزُّبير وصلبه منكوساً لمدة ثلاثة أيام في 73هج.

المرشَّح الوحيد لخلافة معاوية، بناءً على الصُّلح الذي عُقد بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، فضلاً عن النَّص الإلهي، كان هو الإمام الحسين عليه السلام. لكن وفقاً للمعايير الميدانية كان هناك أربعة مرشَّحين للخلافة، وهم الأربعة الذين ركَّزت رسالة يزيد على أخذ البيعة منهم، فعبد الرحمن هو ابن الخليفة الأول (وقد توفي قبيل استلام يزيد السُّلطة كما تذكر بعض المصادر)، وعبد الله هو ابن الخليفة الثاني، والحسين عليه السلام هو ابن الخليفة الرابع، وعبد الله بن الزُّبير هو ابن المرشح المنافس للخليفة الثالث والمتمرِّد على

---

(1) عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد توفي بطريقة مريبة، لكن يبدو أنَّ يزيد لم يكن على عِلم بذلك، أو أنَّه من خطأ المؤرخين، خصوصاً أنَّ بعض المصادر تشير إلى أنَّ المطالب بأن يُؤخذ بالبيعة أخذاً شديداً هم ثلاثة فقط، وفي بعضها اثنان فقط، الإمام الحسين عليه السلام وابن الزُّبير.

(2) أحمد بن أعثم، الفتوح، مج 2، ص75.

(3) توفي يزيد بن معاوية في 64هج.

الخليفة الرابع. وأخذ البيعة ليزيد من هؤلاء يعني استقرار حكم بني أمية الوراثي بشكلٍ تام، وذلك من خلال إمضاء منافسيه وقبولهم إياه.

وكان معاوية قد لفت انتباه يزيد إلى هؤلاء الأربعة في وصيَّته قائلاً له: «واعلم يا بُني أني أخافُ عليكَ من هذهِ الأمة أن يُنازِعَكَ في هذا الأمر الذي قد رفعتُ لكَ قواعِدَهُ خصوصاً أربعةَ نفرٍ من قريش منهم: عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير، وشبيهُ أبيهِ الحسينُ بن علي»[1].

وكان معاوية - المعروف بدهائه السِّياسي - قد تنبأ بأنَّ الذي سيُمثِّل تهديداً حقيقياً لخلافة ابنه يزيد هما الأخيران. لأنَّ عبد الرحمن بن أبي بكر وفقاً لرأي معاوية «إذا صَنَعَ أصحابُهُ شيئاً صَنَعَ مِثلَهُم، وإن لم يصنعوا أمسَكَ، وهو رجلٌ همُّهُ النِّساء، ولذةُ الدنيا»[2]، لذا أوصى معاوية يزيد قائلاً: «فذَرهُ يا بُني وما يُريد، ولا تأخُذ عليهِ في شيءٍ من أمرهِ، فلقد علِمتَ ما لأبيهِ من الفضلِ على هذهِ الأمة، وقد يُرعى زِمامُ الوالِدَ في وُلدِهِ».

وكذلك عبد الله بن عمر، لا يُشكِّل تهديداً جِدِّياً ليزيد، لأنه وفقاً لتشخيص معاوية «رجُلُ صِدقٍ قد توحَّشَ من الناس وأنِسَ إلى العبادة ورضِيَ بالوَحدة، فترَكَ الدُّنيا وتخلَّى منها، فهو لا يأخذُ منها شيئاً، وإنما تجارتُهُ من هذهِ الدُّنيا كتجارةُ أبيهِ عمر بن الخطاب»[3]. وينسجم هذا مع نصيحة عبد الله بن عمر للإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك، عندما همَّ بالخروج من مكة، بأن يُبايع يزيد[4]. إذن التَّهديد يأتي من الأخيرين، عبد الله بن الزبير والحسين بن علي عليه السلام.

لنُدقِّق في عبارات معاوية التي تصِف كلاً منهما، يقول: «وأما عبدُ اللهِ بن الزبير، فما أخوَفني أنَّك تلقى منهُ عنتاً، فإنهُ صاحِبُ خلَلٍ في القَول وزلَلٍ في الرأي وضَعفٍ في النظَر، مفرطٌ في الأمور مقصرٌ في الحقوق، وإنهُ سيجثو لكَ كما يجثو الأسدُ في عرينِهِ، ويراوِغُكَ رواغَ الثعلب، فإذا أمكَنَتهُ منكَ فُرصة، لَعِبَ بِكَ كيفَ شاء، فكُن لهُ يا بُني كذلك، واجزِهِ صاعاً بصاع، واحذِهِ حذوَ النعل، إلا أن يدخُلَ لكَ في الصُّلحِ والبيعةِ والتوبة فأقِمهُ على ما يُريد».

---

(1) أحمد بن أعثم، **الفتوح**، مج 2، ص 66. راجع أيضاً: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج4، ص238 - 239.

(2) أسلم عبد الرحمن بن أبي بكر يوم فتح مكة، وشهد بدراً وأحداً مع كفار قريش، وشهد معركة الجمل إلى صف أخته عائشة، كان له شعر في الجاهلية والإسلام يتغزَّل فيه بالنِّساء.

(3) أحمد بن أعثم، **الفتوح**، مج 2، ص 66.

(4) المصدر السابق، مج 2، ص 50 - 60.

ثم ينتهي إلى الإمام الحسين عليه السلام فيقول: «وأما الحسين بن علي فأواهٌ أواه يا يزيد، ماذا أقولُ لكَ فيهِ، فاحذَر أن لا يتعرَّضَ لك، ومُدَّ لهُ حبلاً طويلاً، وذَرهُ يضرِبَ في الأرض حيثُ شاء، ولا تُؤذِهِ، ولكن أرعِد لهُ وأبرِق، وإياك والمكاشفةَ له في محاربةٍ بسلِّ سيفٍ، أو محاربة طعن رُمح، ثم أعطِهِ ووقِّرهُ وبجِّلهُ، فإن جاءَكَ أحدٌ من أهلِ بيتِهِ فوسِّع عليهم أرضَهُم، فإنَّهم أهلُ بيتٍ لا يُرضيهِم إلا الرِّضا، ولا يسَعُهُم إلا المنزلةُ الرَّفيعة، وإياكَ يا بُني أن تلقى اللهَ بدمِهِ فتكونَ من الهالكين»[1].

وسواء صحَّت الرِّواية التاريخية التي تسرد وصيَّة معاوية لابنه يزيد، أو لم تصح، فإن الأحداث اللاحقة ستؤكِّد أنَّ التهديد الحقيقي الذي واجهَه يزيد إبَّان حُكمِهِ كان محصوراً في الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزُّبير. وبعبارة أخرى من بني هاشم (ويُمثِّلهم الإمام الحسين عليه السلام)، وقريش ببطونِها الضَّعيفة (القبيلة الأم العجوز التي يحاول عبد الله بن الزُّبير أن يرث أطلالها).

(1) المصدر السابق، مج 2، ص 66 - 67.

خاتمة

نستطيع أن نستخلص من هذه الرِّحلة الطويلة - الملأى بالمواقف المشرِّفة والبطولات من ناحية، والمواقف المؤلمة والمخزية من ناحية أخرى - أنَّنا في كلِّ مرحلة كُنَّا نجد طرفاً ما يُمثِّل قريشاً؛ ففي البدء كان الملأ الذي يكيد رسول الله ﷺ في مكة يمثِّل قريشاً، وعلى وجه الخصوص بنو أمية بطن قريش القوي. وبعد فتح مكة وانكسار شوكة هذا الملأ، ووفاة رسول الله ﷺ، صار وجهاء المهاجرين (بطون قريش الضَّعيفة) هم واجهة قريش. وأجمعت قريش على إقصاء بني هاشم والأنصار من مركز صنع القرار. . . . جرى الأمر على هذا النحو في خلافة أبي بكر وعمر.

كان يُترقَّب من عثمان أن يكون واجهة لقريش، كما كان الأول والثاني، لكنه آثرَ - في النِّصف الثاني من خلافتِهِ - أن يكون ممثِّلاً لمصالح بني أمية خاصَّة. . . فانقسمت قريش على نفسها إلى قسمين: من تبقى من وجهاء المهاجرين (امتداد الخليفة الأول والثاني)، وبنو أمية (أنصار الخليفة الثالث). وبعد مقتل عثمان، حارب القسم الأول الإمام علياً عليه السلام في الجمل، وحارب القسم الثاني الإمام علياً عليه السلام في معركة صفين.

إنَّ قريشاً عدوةُ الإسلام ورسول الله ﷺ بالأمس، خرجت من الباب، ودخلت من النافذة مجدَّداً. كانت قريش تُدرِك أنه ليس بمقدورِها الدُّخول إلى الدَّائرة الضَّيقة القادرة على صنع القرار بعد وفاة رسول الله ﷺ، لأنَّ هذه الدائرة كانت محصورة ببني هاشم من ناحية، ووجهاء المهاجرين من ناحية ثانية، والأنصار من ناحية ثالثة.

الواجهة الأقرب إليها، التي يمكن الدُّخول من خلالِها إلى الدَّائرة الضَّيقة بالتدريج، هم وجهاء المهاجرين. فالإمام علي عليه السلام مستبعد، لأنه وترَ قريشاً بالأمس، وإن وصل إلى سدَّة الخلافة، من خلال إجماع المهاجرين والأنصار، فهذا يعني أنَّ الخلافة لن تخرج من بني هاشم إلى قريش أبداً، إذن لا بُدَّ أن تتكاتف جميع بطون قريش لإقصاء بطن قريش القوي بني هاشم. والأنصار هم قحطانيون، غير جديرين بالخلافة، والعرب لا تدين إلا لرجُلٍ من قريش. . . والأنصار هم أعداء قريش، لأنَّهم وفَّروا الحماية لرسول الله ﷺ، وأيديهم ملطَّخة بدِماء القرَشيين ببدر وأحد. . . .إذن لا يوجد متنفَّس لقريش

إلا وجهاء المهاجرين، فهم من قريش، وملفُّهم في نظرها - مقارنة بملفّ الإمام علي عليه السلام والأنصار - أبيض نسبياً.

على هذا الأساس، ستوفِّر قريش لوجهاء المهاجرين الدعم والمساندة والحِماية الخلفية، وتُقوّي شوكتَهم فيما لو أصرَّ بنو هاشم والأنصار على منعِهم من الوصول إلى مأربهم. في المقابل، وجهاء المهاجرين ظنُّوا أنَّ بإمكانهم السَّيطرة على وضع قريش، وأنَّ بني أمية لن يجرؤوا على الدُّخول إلى مركز صنع القرار، لأنَّهم من الطُّلقاء الذين لا تحلُّ لهم الخلافة. وظنَّوا أيضاً أنَّ بإمكانهم أن يستقووا عند الحاجة ببني هاشم والأنصار لتحجيم قوة قريش (وبني أمية) فيما لو أرادت أن تنفلِت من عقالِها. فوجهاء المهاجرين، إذن، يستقوون بقريش لمواجهة بني هاشم والأنصار، ويستقوون ببني هاشم والأنصار لضبط قريش.

على ضوء ذلك، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله باتت مصالح وجهاء المهاجرين مع قريش متبادلة، وجهاء المهاجرين أصبحوا هم واجهة قريش، التي ستدخُل من خلالهم إلى الدَّائرة الضيِّقة، وقريش بدورها ستُؤمِّن الحماية الخلفية لوجهاء المهاجرين في قبال مُنافسيهم من بني هاشم والأنصار.

واستمرَّت المعادلة على هذا النحو، حتى حصل تحوُّل تدريجي في خلافة عثمان، وانقلاب تدريجي، من بني أمية - بطن قريش القوي - على وجهاء المهاجرين وقريش عموماً، وبدأت الأمور تخرُج عن السَّيطرة. فأرادت قريش - ممثَّلة بوجهاء المهاجرين - أن تُعيد الأمور إلى نصابِها فشاركت في التَّحريض على عثمان الأموي. لكن النتيجة كانت لغير مصلحتِها، حيث اتَّجه الثوار نحو الإمام علي عليه السلام وبايعوه.

وجدت قريش نفسَها مضطرَّة تحت ضغط الجوّ العام لمبايعة الإمام علي عليه السلام. بعد ذلك أرادت قريش - ببطونِها الضَّعيفة - تعديل الميزان لمصلحتِها، فنكثت بيعتها الإمام علي عليه السلام، وحاربته من خلال طلحة والزُّبير وابنيهما مع عائشة، وكانت نتيجة معركة الجمل انكسار قريش، فخلا الجو لمعاوية الأموي.

هنا مرة أخرى، وجد الإمام علي عليه السلام نفسَهُ مدفوعاً لحرب قريش - ممثَّلةً هذه المرَّة بمعاوية وبني أمية بطن قريش القوي - في صفين، وانتهى الأمر إلى التَّحكيم، ثم ظهور الخوارج، الذي ساعد على تماسُك جيش معاوية، وزاد من تفكُّك جيش علي، فورث الإمام الحسن عليه السلام تركة ثقيلة، ووضعاً مهلهلاً، واضطرَّ للصُّلح مع معاوية. فاستتبَّ الأمر لمعاوية (بنو أمية)، وكان الخاسر هم قريش عموماً (بنو هاشم ومن تبقى من وجهاء المهاجرين وأبنائهم).

وكان الانقلاب السافر والحقيقي لمعاوية (بنو أمية) على قريش (الممثَّلة ببني هاشم ومن تبقى من وجهاء المهاجرين وأبنائهم)، بل انقلابه السافر على المسلمين عموماً، عندما بدأ بالتمهيد لتوريث السُّلطة ليزيد. هنا ثارت ثائرة قريش والأنصار، لأنَّ أمر الخلافة باتَ محصوراً بفرعٍ محدودٍ من قريش، وهم بنو أمية، الطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء.

وصار الظرف مناسباً للإمام الحسين عليه السلام لكي يتحرك، وهو المرشَّح الأول للخلافة بعد معاوية، طبقاً لصُلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، فضلاً عن النَّص الإلهي.

حاول معاوية إزاحة كل من يقف أمام وصول يزيد إلى السُّلطة من قريش، ابتداءً بتسميم عبد الرحمن بن خالد في الشَّام، مروراً بتسميم الإمام الحسن عليه السلام على ما هو ثابت تاريخياً، وتسميم سعد بن أبي وقاص على ما قيل.

ولم يبقَ أمامه إلا أربعة. استطاعَ قبيل موته التخلُّص من أحدِهم وهو عبد الرحمن ابن أبي بكر، وتحييد ثان، وهو عبد الله بن عمر، ولم يُمهِله الأجل للتخلُّص من اثنين، هما الحسين بن علي عليه السلام، المرشَّح الأول للخلافة، والعقبة الكأداء أمام يزيد، وعبد الله ابن الزُّبير، مرشَّح قريش الحريص على الوصول إلى السُّلطة.

المضحك المبكي في الأمر، أنَّ الدِّماء التي أراقها الإمام علي عليه السلام لكفَّار قريش في معركة بدر، سيقوم يزيد بالثأر لها في كربلاء بسفك دم الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه. والفتنة الكبرى التي أدَّت إلى مقتل عثمان عطشاناً، ستُوظَّف في كربلاء لقتل الإمام الحسين عليه السلام عطشاناً مع أصحابه!

الملحق رقم (1)

قائمة بأسماء قتلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في معركة بدر الكبرى

1 - الوليد بن عتبة بن ربيعة (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه).
2 - العاص بن سعيد بن العاص (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه).
3 - طُعيمة بن عَدِيّ بن نوفل (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته).
4 - نوفل بن خويلد بن أسد (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه).
5 - زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (ذكره المفيد في إرشاده، وقال ابن هشام في سيرته: اشترك فيه حمزة وعلي بن أبي طالب وثابت، وقال الواقدي في مغازيه: عقيل بن الأسود بن المطلب، قتله حمزة وعلي، شركا في قتله، وحدثني أبو معشر قال قتله عليٌّ وحده).
6 - الحارث بن زمعة (ذكره المفيد في إرشاده، قال الواقدي: الحارث بين ربيعة قتله علي بن أبي طالب).
7 - النضر بن الحارث بن عبد الدار (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، وقال الواقدي في مغازيه: قتله علي بن أبي طالب صبراً بالسيف بالأُثيل بأمر النبي).
8 - عُمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن تيم (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه).
9 - عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن تيم (ذكره المفيد في إرشاده).
10 - مالك بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن تيم (ذكره المفيد في إرشاده).
11 - مسعود بن أبي أمية بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته).
12 - قيس بن الفاكه بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده، وقال ابن هشام في سيرته: قال ابن إسحاق: وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، قتله علي بن أبي طالب).
13 - حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده).
14 - أبو قيس بن الوليد بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه).
15 - حنظلة بن أبي سفيان (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في المغازي، وقال ابن هشام في سيرته: اشترك فيه حمزة وعلي وزيد بن حارثة).
16 - عمرو بن مخزوم (ذكره المفيد في إرشاده).

17 - أبو المنذر بن أبي رِفاعة (ذكره المفيد في إرشاده).

18 - مُنبّه بن الحجاج السهمي (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، قال الواقدي: قتله أبو اليسر، ويقال عليّ. . . ونُبيه بن الحجاج، قتله علي بن أبي طالب).

19 - العاص بن منبه (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه).

20 - علقمة بن كلَدة (ذكره المفيد في إرشاده).

21 - أبو العاص بن قيس بن عدي (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، قال الواقدي: قتله أبو دجانة، وحدثني أبو معشر عن أصحابه قالوا قتله علي بن أبي طالب، وحدثني حفص بن عمر ابن عبد الله بن جبير مولى علي عليه السلام بذلك).

22 - معاوية بن المغيرة بن أبي العاص (ذكره المفيد في إرشاده).

23 - لوذان بن ربيعة (ذكره المفيد في إرشاده).

24 - عبد الله بن المنذر بن أبي رِفاعة (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، قال الواقدي في مغازيه: عبد الله بن أبي رفاعة، قتله علي بن أبي طالب).

25 - مسعود بن أمية بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده، قال الواقدي في مغازيه: ومن بني أمية بن المغيرة، مسعود بن أبي أمية، قتله علي بن أبي طالب).

26 - حاجب بن السائب بن عويمر (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته، قال الواقدي: حاجز بن السائب بن عويمر بن عائذ، قتله علي بن أبي طالب).

27 - أوس بن المغيرة بن لوذان (ذكره المفيد في إرشاده، قال ابن هشام في سيرته: أوس بن معير بن لوذان بن سعد بن جمح، قتله علي بن أبي طالب، قال الواقدي في مغازيه: أوس بن المعير بن لوذان، قتله عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب، شركا فيه).

28 - زيد بن مُليص - مولى عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه).

29 - عاصم بن أبي عوف (ذكره المفيد في إرشاده).

30 - سعيد بن وهب - حليف بني عامر (ذكره المفيد في إرشاده).

31 - معاوية بن عامر بن عبد القيس (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته).

32 - عبد الله بن جميل بن زُهير بن الحارث بن أسد (ذكره المفيد في إرشاده).

33 - السائب بن مالك (ذكره المفيد في إرشاده).

34 - أبو الحكم بن الأخنس (ذكره المفيد في إرشاده).

35 - هشام بن أبي أمية بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده).

36 - عُقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس (قال ابن هشام في سيرته: ويقال قتله علي بن أبي طالب).

37 - عتبة بن ربيعة بن عبد شمس (قال ابن هشام في سيرته: اشترك فيه هو - أي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وحمزة وعلي).

38 - عامر بن عبد الله (ذكره ابن هشام في سيرته، والواقدي في مغازيه: قتله علي بن أبي طالب).

39 - عقيل بن الأسود بن المطلب (قال ابن هشام في سيرته: قتله حمزة وعلي اشترك فيه).

40 - حرملة بن عمرو (قال ابن هشام في سيرته: قتله... ويقال بل علي بن أبي طالب، قال الواقدي: قتله علي، أصحابنا جميعاً على ذلك).

41 - شيبة بن ربيعة (قال الواقدي في مغازيه: قتله عبيدة بن الحارث، وذفَّف عليه حمزة وعلي).

42 - زيد بن تميم التميمي (قال الواقدي: قتله عمار بن ياسر... ويقال علي عليه السلام).

المصادر

- الواقدي، المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس، مكتب الإعلام الإسلامي 1414، 14هج، ج1، ص147-152.
- ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ج2، ص318 - 325.
- المفيد، الإرشاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص70-72.

الملحق رقم (2)

قائمة بأسماء قتلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في معركة أحد.

1 - طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي. وهو حامل لواء مشركي قريش، وكبش الكتيبة الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وآله في رؤيا قبيل المعركة (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه، وابن هشام في سيرته)

2 - أبو سعد بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار (ذكره المفيد في إرشاده، قال ابن هشام: أبو سعيد بن طلحة... ويقال قتله علي بن أبي طالب).

3 - كلَدَة بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار (ذكره المفيد في إرشاده).

4 - عبد الله بن حُميد بن زهرة بن الحارث بن أسد بن عبد العزى (ذكره المفيد في إرشاده، وابن هشام في سيرته).

5 - أبو الحكم بن الأخنس بن شريق (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه، وابن هشام في سيرته).

6 - الوليد بن أبي حذيفة بن المغيرة (ذكره المفيد في إرشاده).

7 - أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة: (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه، قال ابن هشام في سيرته: أبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله علي بن أبي طالب).

8 - أرطاة بن عبد شُرحبيل (ذكره المفيد في إرشاده، والواقدي في مغازيه، وقال ابن هشام في سيرته: ... . ويقال قتله علي بن أبي طالب).

9 - هشام بن أمية (ذكره المفيد في إرشاده).

10 - عمرو بن عبد الله الجُمحي (ذكره المفيد في إرشاده).

11 - بشر بن مالك (ذكره المفيد في إرشاده).

12 - صواب مولى بني عبد الدار (ذكره المفيد في إرشاده).

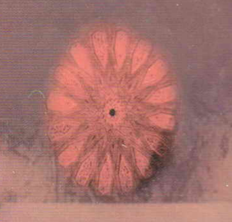
13 - شريح بن قارظ (ذكره ابن هشام في سيرته وقال: على قول).

المصادر

- الواقدي، المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هج، ج1، ص307-309.
- ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ج3، ص119-120.
- المفيد، الإرشاد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط1، 1995، ج3 ص90-91.

المؤلف في سطور

- من مواليد دولة الكويت 1967 (1387هج).
- بدأ في 1986 (1406هج) بدارسة بعض مقدمات العلوم الدينية في الكويت، ثم انتقل لمواصلة الدراسة إلى الحوزة العلمية في قم المقدسة في 1987 (1407هج).
- أنهى مرحلة السطوح، وحصل على البكالوريوس في العلوم الدينية من المركز العالمي للدراسات الإسلامية (جامعة المصطفى العالمية حالياً) في قم في 2002 (1423هج).
- بموازاة تحصيله العلوم الدينية، شرع بالدراسة الأكاديمية، فحصل على الليسانس من جامعة بيروت العربية في الفلسفة وعلم النفس في 1993 (1413هج).
- حصل على الماجستير من جامعة الكويت في فلسفة المنطق في 1999 (1419هج).
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة سندرلاند بالمملكة المتحدة في فلسفة المنطق وعلم المعرفة في 2006 (1427هج). تناولت الأطروحة: منطق الاحتمال عند السيد محمد باقر الصدر، مع مقارنة نظريته بالنظريات الغربية المعاصرة.
- إمام مسجد، ومدرس في المجال الأكاديمي والحوزوي.



خلفيات واقعة كربلاء

وشهادة الإمام الحُسين بن عليّ عليه السلام

هذا الكتاب يتوخى الكشف عن جذور واقعة كربلاء وخلفياتها... محاولاً أن يجيب عن أسئلة من قبيل: ما الذي جرى ليصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه يوم كربلاء؟ ولماذا سمحوا ليزيد باعتلاء سدة الحكم؟

هناك عدة فرضيات في تفسير العقود الأولى من تاريخنا. الفرضية التي يختارها الباحث لتفسير تلك العقود تؤثر ـ على الأرجح ـ في تفسيره لواقعة كربلاء وأهدافها وتحديد المتورطين في قتل الحسين عليه السلام. الفرضية التقليدية ـ مهما حاولنا تكييفها ـ تعجز عن تفسير أحداث العقود الأولى، وتقودنا إلى فهم قاصر ومرتبك لواقعة كربلاء.

الفرضية المقترحة في هذا الكتاب تنطلق من افتراض أن كبار وجهاء المهاجرين القرشيين أخطأوا في حساباتهم خطأً جسيماً عندما ظنوا أن بإمكانهم إقصاء علي عليه السلام وإبقاء الوضع رهن السيطرة دون عودة بني أمية إلى الواجهة، ولم يتبادر إلى أذهانهم أن بني أمية إذا اعتلوا السلطة فسيخرجون باقي بطون قريش من الساحة، وسيستأثرون وحدهم بالسلطة والمال.

يعتمد هذا الكتاب المنهج "التاريخي السردي التحليلي"، الذي هو مزيج من منهجين، الأول يُعبر عنه بالمنهج المتحرك عبر الزمن Diachronic، وهو منهج يدرس موضوع البحث من خلال متابعة وملاحقة الأحداث حسب التسلسل الزمني لوقوعها، والثاني يُعبر عنه بالمنهج المتزامن Synchronic، وهو منهج يتوقف عند لحظة زمنية معينة ليدرس أبعاد الحدث ودلالاته ليفهم أعماقه وتشعب علاقاته.

ISBN 978-614-404-187-1



مرتضى فرج

خلفيات واقعة كربلاء

وشهادة الإمام الحُسين بن عليّ عليه السلام



مؤسسة الانتشار العربي